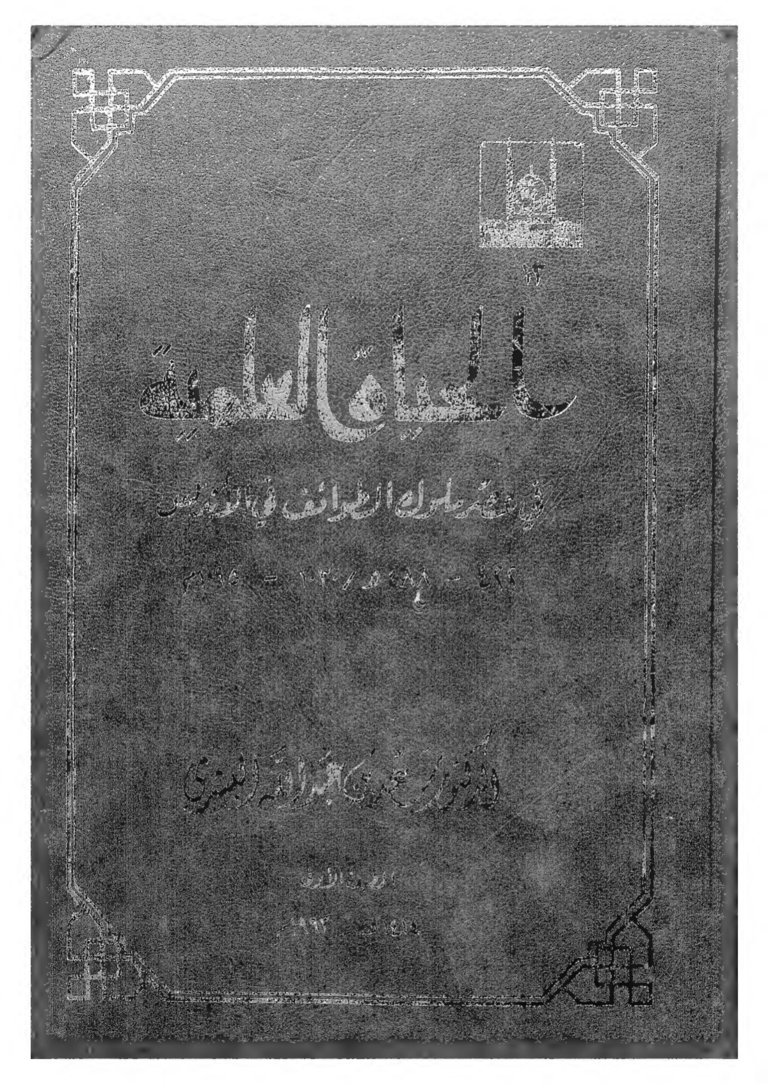
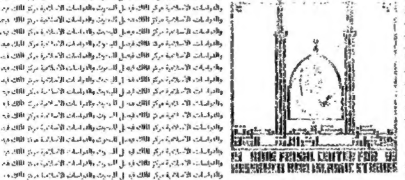


١٣
الحياة العلمية
في عصر ملوك الطوائف في الأندلس
٤٢٢ - ٤٨٨هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٥م
الدكتور سعد بن عبدالله البشري
الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م


KING FAISAL CENTER FOR
RESEARCH AND ISLAMIC STUDIES



الحياة العلمية

في عصر ملوك الطوائف في الأندلس

٤٢٢ - ٤٨٨ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٥ م

الحياة العلمية

في عصر ملوك الطوائف في الأندلس

٤٢٢ - ٤٨٨ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٥م

الدكتور سعد بن عبد الله البشري

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م
مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ ـ الرياض ١١٥٤٣

ردمك ٢ ـ ٠٠ ـ ٧٢٦ ـ ٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

فهـرس المحتويـات

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

تقديم

لا يزال تاريخ المسلمين في الأندلس مجالاً للدراسة الخصبة التي تستكنه جوانب ذلكم التاريخ في مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ولئن اشتكى ابن بسام الأندلسي صاحب الذخيرة من قلة اكتراث المشارقة بأهل الأندلس وشوق الأندلسيين - في عهده - إلى ما يجيء من المشارقة، فإن تلك الشكوى لا تزال قائمة في شقها الأول على الأقل. فالأندلس تحتاج من الدارسين إلى وقفات طويلة لمعرفة العوامل والظروف التي مكنت لظهور الحركة العلمية الوثابة فيها خلال القرون التي ساد فيها المسلمون، فجعلوا من تلك البقعة منارة لنشر العلوم والفنون.

عرفت الفترة المسماة في التاريخ الأندلسي عصر ملوك الطوائف بالضعف السياسي، ونشوب الخلافات والصراعات بين ملوك المسلمين في الأندلس. وعلى الرغم من ذلك الضعف وتلك الخلافات، فقد ظلت الحركة العلمية والفكرية في تلك الحقبة خصبة؛ إذ لم يتوان أمراء الطوائف عن احتضان النشاط العلمي، ودعمه على نحو يعلمه من خبر تاريخ الأندلس.

والكتاب الذي بين أيدينا جاء ليلقي الضوء على الحياة الفكرية في عصر ملوك الطوائف، ويقدم صورة لجهود علماء تلك الفترة، وإسهاماتهم في تطور العلوم والمعارف، وليشير إلى تلقي طلائع الأوربيين العلم على كبار علماء الجزيرة الأندلسية في مدارس طليطلة وقرطبة وأشبيلية وغيرها.

وسوف يتضح للقارىء من خلال هذا الكتاب أن المؤلف صرف جهداً مشكوراً في استجلاء التاريخ العلمي للأندلس في فترة ملوك الطوائف، وحاول تتبع جهود علمائها في مجالات علمية مختلفة.

ومركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية إذ يقدم هذا الكتاب

للقراء يرجو أن يكون قد أسهم بخطوة في سبيل التنوير بما كان عليه أسلافنا من تقدم علمي ونبوغ فكري شهد به العالم وقدّره، والله ولي التوفيق.

الأمين العام
د. زيد بن عبدالمحسن الحسين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فأن الحديث عن الأندلس وتاريخها يحمل في طياته الكثير من معاني الفخر والاعتزاز بأمجاد أولئك المسلمين الذين أرسوا في الأندلس دعائم وطيدة من الحضارة والتمدن، وقواعد راسخه من المثل والأخلاق النبيلة ويصاحب تلك المعاني المشرقة ألوان شتى من الأسى والألم على ضياع ذلك الفردوس العظيم وانحسار الإسلام عنه وما رافق ذلك من إبادة مقصوده لتراث الأندلس وجهود أولئك العلماء الذي علموا جيرانهم من الأوربيين الطريق إلى الإنسانية المتحضرة والشخصية المتمدنة..

كل هذه المعاني والأفكار وشتى التصورات عن ذلك القطر الغابر مجده حملت الباحث على الارتباط بتاريخ الأندلس وحضارته التي لا تزال صورتها حية في نفوسنا تبعث فيها الأمل وتوقد فيها جذوة التفاؤل بقدرة الأمة العربية على الاستمرار في العطاء الحضاري وأن أرضها لا تزال خصبة تجود بنوابغ الرجال وتثمر عبقرية الحضارات..

هذا وكان الباحث قد سبق له أن درس «موضوع الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس» وحصل بذلك على درجة الماجستير١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢. من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية من جامعة أم القرى فهاله ذلك العطاء كافة السخي للأندلسيين في حقول العلم والمعرفة ومظاهر النشاط العلمي وماحفل به ذلك العصر من أعلام المعرفة والأدب، ومدى ما أسهموا به من جهود في ازدهار المعارف والعلوم المختلفة، وظل الباحث بعد ذلك شديد التعلق بالأندلس وتاريخها ودورها الحضاري الإنساني، ولفت نظره قلة الدراسات العلمية المنصبة على كشف وجوه الإبداع والنبوغ العلمي للأندلسيين في العلوم والمعارف، وأن التاريخ العلمي للأندلس وخاصة عصر الطوائف ما زال في حاجة ماسة لمن يتناوله بالدراسة والبحث والاستقصاء. كما لاحظ الباحث أن الرسائل العلمية التي قدمت إلى الجامعات المختلفة

عن النشاط العلمي للأندلس كانت منصبة على بعض الجوانب العلمية أو محدودة بمدينة من المدن ـ ومن هذه الرسائل ما أعده كل من:ـ

ـ محمود علي مكي عن «التيارات الثقافية بين الأندلس والمشرق وأثرها في الحركة العلمية في الأندلس»، رسالة دكتوراه.

ـ وكريم عجيل عن «الحياة العلمية في بلنسيه منذ الفتح /٩٢ هـ الى ٣٩٥ هـ» رسالة ماجستير بجامعة بغداد ١٩٧٥م.

ـ ومحمد عبدالحميد عيسى عن «تاريخ التعليم في الأندلس» رسالة دكتوراه عن جامعة الأتونوما بمدريد ١٩٨٠م.

كما لاحظ الباحث أن معظم الرسائل العلمية التي كتبت عن عصر ملوك الطوائف في الأندلس تدور حول الشعر والأدب ولكنها لم تعالج الحياه العلمية بكافة جوانبها على النحو الذي قمنا به في رسالتنا..

من هذه الرسائل ما أعده كل من:ـ

ـ حامد عبدالمجيد. عن «الشعر العربي في عهد ملوك الطوائف بالأندلس» وهي رسالة دكتوراه بكلية الآداب. جامعة القاهرة.

ـ عبدالعزيز الأهواني. «عن الأزجال الأندلسية». وهي رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة القاهرة.

ـ سعد إسماعيل شلبي. عن «البيئه الأندلسية وأثرها في الشعر في عصر ملوك الطوائف» وهي رسالة دكتوراه. بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

ـ محمد مجيد رزيق. عن «الشعر في ظل بني عباد بالأندلس». وهي رسالة ماجستير. بكلية العلوم ـ جامعة القاهرة.

كما أعدت رسائل تاريخية عن ملوك الطوائف مثل ما أعده.

ـ الصديق الأستاذ يوسف حواله عن «بنو عباد في إشبيليه» رسالة ماجستير بجامعة أم القرى ـ كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ وكذلك محمد ابن عبود «عن التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف» دكتوراه من جامعة ادنبره ١٩٧٨م. ـ وأيضا رجب محمد عن «بنو حمود بمالقه» ماجستير كلية الآداب ـ القاهرة ـ وخالد الصوفي عن «جمهورية

بني جهور» رسالة ماجستير ١٩٥٩م...

هذا وتوجد بعض الدراسات الأخرى عن التاريخ الفكري الأندلسي ككتاب «تاريخ الفكر الأندلسي» لآنخل جونثالث بالنثيا، و«التربيه الإسلامية في اسبانيا» لخوليان ريبيرا «وظهر الإسلام» الجزء الثالث المتعلق بالحياة العقلية في الأندلس لأحمد أمين. و«العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين» لمحمد المنوني. وفي الأدب كتاب «تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين» لإحسان عباس، و«الأدب العربي في الأندلس» لعبدالعزيز عتيق و«دراسات في الأدب الأندلسي» لسامي العاني و«النقد الأدبي في الأندلس» لمحمد رضوان..

هذه هي أهم الدراسات التاريخيه المتعلقة بالنشاط العلمي للأندلس وما يتصل منها أيضا بتاريخ الأندلس في عصر ملوك الطوائف. ووضع مثل هذا دفع الباحث الى مواصلة مهمته في دراسة الحياة العلمية في الأندلس ومحاولة تلمس أزهى العصور الأندلسية في ميدان العلوم والآداب فكان اختيار الباحث منصباً على عصر ملوك الطوائف وما تم فيه من إنجازات علمية وأدبية باهرة. والحق أن الباحث أقدم على دراسة موضوع الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس وهو بين أمل وإشفاق، أمل في نجاح مهمته على خير وجه والخروج بنتائج مشرقة في ذلك، وإشفاق مما قد يكون من عقبات ومصاعب تحول دون تحقيق الآمال والتطلعات وخاصة ان هذه الفترة تعتبر فترة شائكة تموج بالاضطرابات والصراعات والقلاقل، وتتسم في العديد من جوانبها بالغموض والالتباس.

وجدير بالذكر ان ظهور ملوك الطوائف على المسرح السياسي في الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي يمثل ظاهرة سلبية وإيجابيه معاً، سلبية في ذلك الانقسام والتمزق مما سبب إضعاف الجبهة الإسلامية أمام القوى النصرانية التي كانت تتوثب للانقضاض على المناطق الإسلامية، وزاد ممالك النصارى طمعاً في القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس ضعف واستخذاء ملوك الطوائف ودفعهم الجزيه لملوك النصارى ولعل أعظم

ما تمخضت عنه هذه الأوضاع السيئة والأحوال المتردية سقوط مدينة طليطلة في يد الفونس السادس ٤٧٨هـ/١٠٨٥م. سقوطاً نهائياً لم تعد بعده إلى حظيرة الإسلام. ونجم أيضاً عن تلك الأوضاع مأساة مدينة بربشتر ٤٥٦هـ/١٠٦٣م. التي استباحها النورمان بمساندة قوات فرنسية وإيطالية ومباركة البابا اسكندر الثاني، هاتان الحادثتان اللتان عصفتا بالنفوس - وهزتا القلوب نبهت ملوك الطوائف من سباتهم العميق الى أهمية الوحدة الإسلامية والتكاتف والاعتصام بحبل الله ونبذ الفرقة.

فإذا جئنا إلى الظاهرة الإيجابية لوجود ملوك الطوائف آنذاك لمسنا ذلك العطاء السخي في ميدان الحضاره وبالذات حقول العلم والأدب. فقد كان أولئك الملوك يسارعون في تشجيع العلم والعلماء على البحث والتحصيل والتأليف، فدُبجت بأسماء الكثير من ملوك الطوائف كثير من التآليف والتصانيف في شتى فروع المعرفة، ولا يزال بين أيدينا كثير من تلك الكتب تشهد لهم بما قاموا به من دور فعال في ازدهار العلوم والآداب.

وبناءً على ماتقدم فقد أبدى الباحث اهتماماً واسعاً بدراسة الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف، وتلمس ذلك الدور الذي قاموا به خلال ذلك.

والحق أن مثل هذه الدراسات الحضارية تعد من أشق وأصعب ما يتعرض له الباحثون والدارسون. وذلك راجع إلى ضآلة المادة العلمية المتصلة بها وخاصة في الأندلس الذي تعرض لإبادة تراثه الفكري بأساليب وطرق مقصودة إبان الزحف النصراني على البلاد الإسلامية في الأندلس، فكانت كل مدينة إسلامية تقع في أيدي النصارى تتعرض لشتى أنواع الاضطهاد والتنكيل المادي والفكري. ولا ننسى ما قام به النصارى بعد استيلائهم على آخر معقل من معاقل الإسلام في الأندلس وهي غرناطة، فقد أحرقت آلاف المخطوطات العربية في شتى أنواع العلوم..

هذا وكان على الباحث ان يستعرض ما حوته كتب الطبقات والتراجم، وان يتنبه خلال جمعه المادة العلمية إلى التواريخ المتعلقة بميلاد ووفاة كل عالم أو أديب ليتسنى لنا اصطفاء من عاصر فترة ملوك الطوائف. ويلاحظ

أيضاً أن كتب التراجم الاندلسية، وهي عماد البحث، غلب عليها الاهتمام بسير علماء الدين واللغة والأدب، وما عدا أولئك لا نجد لهم ذكراً تقريباً، وهو ما دفع الباحث إلى الاستعانة بكتب الطبقات المتخصصة، وكان أهمها طبقات الأمم لصاعد الطليطلي.

وموضوع الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف يمتد من سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م وحتى ٤٨٨هـ/١٠٩٥م. وهي السنة التي سقطت فيها مملكة بني الأفطس ببطليوس آخر مملكة من ممالك الطوائف، عدا مملكة بني هود التي تأخر سقوطها حتى سنة ٥٠٣/ ١١٠٩م بيد المرابطين.

وقد قسم الباحث موضوعه قسمين:-

القسم الأول: عوامل ازدهار الحياة العلمية ومظاهرها في عصر ملوك الطوائف ويشتمل هذا القسم على ثلاثة فصول:-

الفصل الأول: سقوط الخلافة الأموية وقيام ممالك الطوائف، ويندرج تحته ثلاث نقاط: **النقطة الأولى** تتعلق بالفتنة التي نشبت بعد مصرع الحاجب عبدالرحمن بن المنصور بن أبي عامر ودخول الأندلس بعدها في موجه عارمة من القلاقل والصراع على السلطة حتى سقوط الخلافة سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م. **النقطة الثانية** أثر الفتنة في الحركة الفكرية ومانجم عنها من آثار سلبية وإيجابية.. **النقطة الثالثة** تتصل بزوال الوحدة السياسية للأندلس وانقسامها إلى ممالك متعددة تحكمها طوائف من العرب والبربر والصقالبة..

الفصل الثاني: عوامل رقي الحياة العلمية في الأندلس في عصر الطوائف. وتندرج تحته نقطتان تتعلقان بأهم العوامل المؤثرة في الرقي العلمي آنذاك.. **النقطة الأولى** تتعلق بالتطور العلمي للأندلس في عصر الخلافة، وكون هذا التطور والازدهار الذي تم آنذاك كان له أكبر الأثر في استمرار وتقوية تيار الحركة العلمية، إذ إنّ العلم والمعرفة بناء يضاف إلى كيانه على طول العصور لبنات جديدة من الإبداع وما هو أفضل من النتائج العلمية.. **النقطة الثانية** وهي الأهم: تعدد المراكز الحضارية في الأندلس والمنافسة بينها. وقد عرضنا

في هذا الجانب إلى ما اتصف به ملوك الطوائف من سلوك تجاه العلم وأربابه، ومواقفهم النبيلة في تشجيع العلماء والأدباء على البحث والتصنيف، وكيف أن الكثير من أولئك الملوك كانوا يسارعون في اجتذاب كبار العلماء إلى عواصمهم حتى إنهم كانوا يتفاخرون بما يضمه بلاط كل منهم من نوابغ العلماء والأدباء..

الفصل الثالث: مظاهر النشاط العلمي في الأندلس في عصر الطوائف ويضم ثلاث نقاط: الأولى: العلاقات العلمية بين المشارقة والأندلسيين، وكيف أن التيار الثقافي بين الأندلس والأقطار الإسلامية في المشرق ظل مستمراً ولكن ليس على قوته في عصر الإمارة والخلافة، بل أخذ الأندلسيون يتجهون إلى الاستقلال ومحاولة بناء كيانهم العلمي بذاتهم وطبعه بطابعهم الأندلسي. الثانية: تتصل بالكتب والمكتبات وجمع الكتب عند الأندلسيين، وفيها أشار الباحث إلى أهمية الكتاب في المجتمع الأندلسي وعناية الأندلسيين بالكتب جمعها، واهتمامهم البالغ بكل ما يتصل بالكتاب من نسخ وتجليد وتجارة وذكر مشاهير هواة الكتب والوراقين في ذلك العصر. الثالثة: التعليم في الأندلس، وقد تعرض الباحث في ذلك إلى نظام التعليم في الأندلس ومراحله وطرقه ومراكزه، وأشار إلى أن الأندلسيين لم يعرفوا المدارس المستقلة التي عرفها المشارقة وذلك في عصر ملوك الطوائف، بل كان تدريس العلوم يتم في المساجد وبعض الأماكن الأخرى كالمنازل، كما تعرض الباحث إلى الحديث عن المرأة الأندلسية ودورها في التعليم.

القسم الثاني: (العلوم والآداب في عصر ملوك الطوائف).. وفيه درس الباحث نشاط العلوم والآداب وازدهارها، وسير العلماء والأدباء ومصنفاتهم مع الالتزام بالإشارة إلى المملكة التي ينتسب اليها العالم أو الأديب. وينطوي تحت هذا القسم خمسة فصول:

الفصل الأول: العلوم الدينية وتتشعب إلى عدد من العلوم وهي:

الفقه: وقد تطرق الباحث إلى أهمية هذا العلم ومكانته عند الأندلسيين وعنايتهم بالدراسات الفقهية على المذهب المالكي، وأشهر فقهاء ذلك العصر

ودراساتهم ومصنفاتهم.

الحديث: وفيه أشار الباحث إلى منزلته بين العلوم الدينية وعناية الأندلسيين به، واهتمامهم بكتب الصحاح، وذكر مشاهير المحدثين وحفاظه ومصنفاتهم العلمية في دراسة أحاديث النبي (ﷺ) وشرحها وتوضيحها.

علوم القرآن: وتضم القراءات والتفسير، وفي هذه العلوم تجلى إبداع الأندلسيين وقدراتهم الواسعة المدهشة في القراءآت، فلا نبالغ إذا أشرنا الى أن الأندلسيين تصدروا قرّاء العالم الإسلامي بجهودهم العلمية في القراءات وما أنتجوا فيها من روائع التآليف التي تدعو للإعجاب.

علم الكلام: وفيه تحدث الباحث عن علم الكلام عند المسلمين وما يقصد به وموقف الأندلسيين من هذا العلم، وهل لقي منهم قبولاً أو رفضاً؟ كما أشار إلى بعض المشتغلين به في الأندلس في عصر الطوائف.

الفصل الثاني: الحياة الأدبية واللغوية ـ والحياة الأدبية تنقسم إلى شعر ونثر، وقد تحدث الباحث عن الشعر في الأندلس وتأثره بالطبيعة، وعن مواقف بعض الشعراء من أوضاع العصر السياسية، ثم دور ملوك الطوائف في نهضة الشعر وخاصة ملوك اشبيلية، وأبرز شعراء ذلك العصر، كما أشار الباحث إلى ذلك اللون من الشعر المسمى «الموشحات» وأول من اخترعها «وتركيب الموشح» وأبرز ناظميه. كما تعرض للزجل وأبرز الزجالين آنذاك.

وفي النثر ـ تحدث الباحث عن النثر الفني، وهو أسلوب الرسائل الديوانية والإخوانيات وغيرها، وأبرز الكتاب في ممالك الطوائف ـ ثم تحدث الباحث عن الشق الثاني من النثر، وهو النثر التأليفي والذي كان يقصد به تأليف كتب الأدب بمفهوم القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ـ وأشار الى جهود الأندلسيين في هذا اللون من الأدب، وما أسهموا به في تطور الحركة الأدبية بإنتاجهم القيّم.

وفيما يتعلق بعلوم اللغة، فقد أفرد لها الباحث مكاناً متسعاً عند حديثه عن الحياة الأدبية واللغوية، وذكر بداية النشاط العلمي في هذا الحقل واعتماد الأندلسيين على إخوانهم المشارقة وأوائل التصانيف اللغوية والنحوية في

الأندلس، ثم تطور الدراسات اللغوية في عصر الطوائف ومشاهير علماء اللغة والنحو وإنتاجهم العلمي.

الفصل الثالث: العلوم الإنسانية وتتفرع إلى ثلاثة علوم:

التاريخ: وتحدث فيه الباحث عن أهمية هذا العلم عند الأندلسيين وعنايتهم به واهتمامهم بالتراجم، ثم الإشارة إلى أبرز مؤرخي ذلك العصر وما أسهموا به في تطور هذا العلم.

الجغرافيا والرحلات الجغرافية: وفيه وضح الباحث مكانة الجغرافيا عند المسلمين، واعتماد الأندلسيين في بداية اشتغالهم بالجغرافيا على الدراسات الجغرافية الإغريقية واللاتينية في الوصف الجغرافي لبلادهم، مع الإشارة إلى مشاهير جغرافيي عصر الطوائف ونتاجهم الجغرافي وما أسدوه من جهود في هذا العلم -كما تطرق الباحث إلى الرحلات الجغرافية، وأشار إلى ولع الأندلسيين بالرحلات وما قاموا به في ذلك العصر.

الفلسفة: وفي هذا العلم تحدث الباحث عن اتصال العرب بالأمم الأخرى بعد الفتوحات الإسلامية، وكيف أثمر هذا الاتصال بدخول كثير من المعارف المتعلقة بعلوم الأوائل ومنها الفلسفة، وتعرض الباحث إلى مواقف الفقهاء من الفلسفة في المشرق والأندلس وإلى بداية دخول الفلسفة الأندلس، ولماذا ضعف الاشتغال بها؟ ثم أبرز فلاسفة عصر الطوائف وإنتاجهم الفلسفي.

الفصل الرابع: العلوم التطبيقية، وتنقسم إلى علوم مختلفة هي:

الطب والصيدلة: وقد تحدث الباحث عن أهمية هذين العلمين في المجتمع الأندلسي، وبداية اتصال الأندلسيين بالطب، والإشارة إلى بعض ما تم في ذلك إبان عصر الإمارة والخلافة. تم فصل الباحث الحديث عن الطب في عصر الطوائف ومشاهير اطباء ذلك العصر وجهودهم العلمية في الطب والصيدلة.

الفلك والرياضيات: وفي هذين العلمين وضح الباحث خلو اسبانيا قبل الإسلام من هذه الدراسات، وأن قيام الدولة الأموية أتاح الفرصة لنمو الدراسات الفلكية والرياضية، وقوة الصلة آنذاك بين الفلك والرياضيات،

وتعرض الباحث بإيجاز إلى أوضاع الدراسات الفلكية والرياضية قبل عصر الطوائف، ثم تحدث بإسهاب عنها في عصر الطوائف وأبرز الفلكيين والرياضيين ودراساتهم العلمية.

وفي هذا الفصل تحدث الباحث عن عدد من العلوم التجريبية كالكيمياء والفيزياء والميكانيكا (علم الحيل)، والفلاحة، ووضح جهود الأندلسيين في هذه العلوم وما قدموه من دراسات حولها وخاصة ما يتعلق بعلم الفلاحة الذي أظهر فيه الأندلسيون براعة لا نظير لها في العالم الإسلامي والأقطار الأخرى.

الفصل الخامس: أثر الازدهار العلمي في الأندلس أوربا:

وهذا الفصل يثبت بما يقطع الشك ذلك الدور العظيم الذي اضطلع به الأندلسيون في ازدهار وتطور المعرفة الإنسانية ونقلها إلى اوربا التي كانت آنذاك تتعثر في أوحال الجهل والتخلف، وقد تناول الباحث في هذا الفصل عدة نقاط منها: اتصال الأوربيين الثقافي بالأندلس حتى نهاية عصر الطوائف. ثم أشار إلى مدرسة طليطلة وحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية، ثم ملامح التأثير العلمي للأندلس في العلوم والآداب في اوربا وكيف إن الأندلس كانت هي منارة الإشعاع العلمي الذي أضاء لأوربا طريقها نحو المدنية والحضارة ليس في العلوم التجريبية.. فقط وإنما أيضاً في الآداب والسلوك والأخلاق.

وأخيراً اختتم الباحث موضوعه بخاتمة تتضمن :أهم نتائج البحث.

دراسة تحليلية لمصادر البحث

كان اعتماد الباحث في كتابة هذا البحث يستند إلى عدد كبير من كتب الطبقات والتراجم لمختلف العلماء في فروع العلم والمعرفة كافة ـ وهذا عائد إلى أن معظم المؤرخين المسلمين في كتاباتهم التاريخية يسهبون في الحديث عن الجوانب السياسية والعسكرية ـ أما الجوانب الحضارية فإنها لا تكاد تحظى منهم إلا باهتمام يسير، ولكنهم في ميدان التراجم أظهروا براعة وقدرات واسعة في الحديث عن العلوم والآداب وبعض ألوان النشاط الحضاري المادي منه والفكري..

هذا ويمكن تقسيم مصادر البحث عدة أقسام، منها مصادر مخطوطة ومصادر مطبوعة. ثم المراجع فالمقالات. ويجدر بنا أولاً أن نشير إلى أن الباحث اعتمد على عدد من المخطوطات يأتي في مقدمتها ما يلي:ـ

(أ) ١ ـ «الوساد»: للطبيب الصيدلي عبدالرحمن بن وافد الطليطلي (كان حياً ٤٦٠ هـ/١٠٦٧م.) والكتاب يعدّ من أهم ما خلفه لنا ذلك الطبيب في الأدوية المفردة من جهة، ومن جهة أخرى فهو في ذاته مثال مشرق على نهضة الطب والصيدلة في عصر ملوك الطوائف. وكان ابن وافد وزيراً في دولة المأمون بن ذي النون ملك طليطله ويستخلص من محتويات هذا المخطوط مدى ما كان عليه ابن وافد من مهارة في الطب وقدرة فائقة في معرفة النباتات الطبية وخصائصها العلاجية، وكان من الأطباء الذين فطنوا الى أهمية العلاج الطبيعي عن طريق الأغذية والأدوية المفردة ما أمكن. وقد أفاد الباحث من هذا المخطوط عند حديثه عن الطب والصيدلة في عصر ملوك الطوائف، فأشار الى محتويات الكتاب، وطرق

ابن وافد وأساليبه العلاجية كما تعرض إلى أقوال العلماء فيه، وما خلعوا عليه من ضروب الثناء والإطراء لعلمه الواسع في الطب والصيدلة، وهذا الكتاب القيّم يضم خلاصة ما توصل اليه علم ابن وافد في النباتات الطبية وكيفية استخدامها في علاج الأمراض والعلل المختلفة التي تلحق بالإنسان سواء تلك الأمراض الباطنية أو الخارجية المتعلقة بالجلد والشعر وغير ذلك، وقد اعتمد على هذا الكتاب من أتى بعد ابن وافد من الأطباء ونال اهتمام الأوربيين..

٢ - «زهرة البستان ونزهة الأذهان»: للعلامه محمد بن مالك الطغنري (كان حيا سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م.) والطغنري من العلماء المفتنّين الذي برعوا في معارف عدة، ويبدو أنه كان ضليعا من معرفة علم الفلاحة ماهراً فيها، وكان قد تولى الوزارة لدى الأمير/عبدالله بن بلقين ملك غرناطة، وكان عصره عصراً زاهراً في مختلف فروع العلم ومنها الفلاحة التي شهدت ظهور أكابر علماء الزراعة والبارعين فيها والذين اعتمد على مصنفاتهم عالم الفلاحة الكبير ابن العوام. وقد اشتهر الطغنري بكتابه القيم الآنف الذكر الذي ضمنه كثيراً من المعارف الزراعية والإرشادات المهمة لمن يقوم على هذا العمل الانساني الهام. والطغنري اعتمد في تأليف كتابه على جهود عدد من العلماء السابقين من الأمم الأخرى كاليونان والفرس، كما استند إلى كثير من أقوال من سبقه من علماء الفلاحة مشارقةً وأندلسيين. وقد أفاد منه الباحث عند الحديث عن الفلاحة في الأندلس في عصر الطوائف، إذ إنّ هذا العلامة يعتبر - كما أشرنا سابقاً - أحد كبار علماء الفلاحة، كما يمثل كتابه «زهرة البستان ونزهة الاذهان» مثالاً واضحاً ووجهاً مضيئاً لازدهار علم الفلاحة في عصر الطوائف.

٣ - «ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك»: السفر الرابع للعلامة الجغرافي أحمد بن

أنس العذري (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م). وكان العذري عالماً بالأدب والحديث والفقه والجغرافيا والتاريخ، ولكن المصادر الأندلسية التي ترجمت له، كجذوة المقتبس للحميدي، وبغية الملتمس للضبي، لم تشر إليه كعالم جغرافي، ولم تذكر كتابه آنف الذكر، ولكنّ هناك علماء آخرون أشاروا الى كتابه كالبكري في المسالك والممالك، والقزويني في آثار البلاد.

وقد اطلع الباحث على ذلك الجزء المتبقي من كتاب العذري آنف الذكر وأفاد منه في حديثه عن الجغرافيا وازدهار علومها في عصر الطوائف، ويبدو من محتويات الكتاب مقدرة العذري الفائقة في الكتابة الجغرافية، فهو يضيف إلى وصفه الجغرافي للمواقع والمدن والمسافات معلومات مهمة عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، وهذه القطعة المتبقية من كتاب «ترصيع الأخبار» التي اطلع عليها الباحث تعرضت لعوامل التآكل والاهتراء مما كان حائلاً دون الاستفادة من محتوياتها جميعا. والجدير بالذكر أن عبدالعزيز الأهواني قام على تحقيق قطعة من كتاب العذري، وتبين لنا بعد الدراسة أنها نفس الجزء الذي اعتمدنا عليه في هذا البحث، ومهما يكن فإن الباحث قد أفاد من تلك القطعة التي تمثل كما أشرنا سابقاً السفر الرابع من كتاب «ترصيع الأخبار».

٤ - «العمل بالاسطرلاب»: تأليف أحمد بن عبدالله بن الصفار (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م). وابن الصفار هذا من تلاميذ العلامة الكبير مسلمة بن أحمد المجريطي الذي أنجب تلاميذ كبار في الرياضيات والفلك، وكان ابن الصفار وصديقه ابن السمح أشهرهم. وابن الصفار عاش معظم حياته في عصر الخلافة، ولكنه قضى بعض حياته في عصر الطوائف والتجأ إلى دانيه قاعدة مجاهد العامري. وخلفّ ابن الصفار بعض الكتب في الفلك من أهمها كتابه المذكور الذي يبدو انه لقي اهتماما كبيراً في العصور

الوسطى، فقد ترجمه بلاتو تيبر تينوس إلى اللاتينيه في الثلث الأول من القـرن الثـاني عشر الميلادي، كما تُرجم إلى اللغة العبرية، والكتـاب يكشف لنا عن مدى ما وصلت إليه حال الدراسات الفلكية حتى بداية عصر ملوك الطوائف، ويقدم خلاصة ما انتهى اليه علم ابن الصفار في الميدان التطبيقي للدراسات الفلكية من خلال العمل بالاسطرلاب. ويتضح لمن يقرأ مخطوط ابن الصفار مدى ما كان يتمتع به من علم واسع ونظر ثاقب وحس علمي رفيع في التعـامل مع تلك الآله الفلكية المهمة، وقد نشر هذا المخـطوط مياس بياكـروزا ـ في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمـدريد[1]. ، ولكن تبـين ان هنـاك أختلافاً كبيراً بين ما نشره بياكروزا وتلك النسخة التي اطلع عليها الباحث، ومهما يكن فإنّ ما تضمنه الكتاب من معلومات فلكية تضيء لنا الطريق لتلمس جهود أولئك العلماء الأفذاذ.

(ب) «المصادر»: يأتي في مقدمة المصادر التي اعتمد عليها الباحث تلك المصادر الأندلسية التي عاصرت فترة البحث ـ أو أتت بعده مباشرة، وتليها المصادر التاريخية المغربية ـ أي التي ألفها مؤرخون من المغرب واتّصلوا بالأندلس في حياتهم العلمية وتنقلاتهم. وتأتي بقية المصادر التاريخية الإسلامية الأخرى في المرتبة الثانية، ويتصدر قائمة المصادر الأندلسية ما يلي:

١ ـ «جذوة المقتبس»: للعلامة المحدث المؤرخ محمد بن فتوح الأزدي الحميدي (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م). والحميدي عاصر فترة ملوك الطوائف في الأندلس، وأخذ عن كثير من العلماء والشيوخ في الأندلس، وهو احد أصدقاء ابن حزم الظاهري، وابن عبدالبر النمـري، وعنهما أخذ كثيراً من العلوم والمعارف ثم رحل إلى

(١) العدد الثالث، ج ١، ص ١٩٣ وما بعدها.

المشرق سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م. وبقي فيه حتى وفاته ببغداد وتبرز أهمية كتابه في أنه عاش الازدهار العلمي في عصر الطوائف والتقى بعلمائه وشيوخه في كثير من حقول العلم، ولذلك تأتي معلوماته أصدق وأوثق المعلومات التي تصور الأوضاع العلمية آنذاك، ويلمس القارىء لكتاب الجذوة جمال أسلوب الحميدي في تناول من يترجم لهم وصدق حديثه عنهم مع ما ألحق بتراجمه من أدب وشعر. وهذا إلى جانب ما يصوره لنا من خلال بعض التراجم من صور الحياة الاجتماعية في المجتمع الأندلسي. ويغلب على تراجم الجذوة الاهتمام بعلماء الدين من محدثين وفقهاء وقُرّاء، ثم طائفة يسيرة من أهل الأدب واللغة، وأقل منها عن علماء الرياضيات والطب والفلسفة. وعلى الرغم من هذا فقد كان اعتماد الباحث على هذا الكتاب كبيراً جداً وخصوصاً ما يتعلق بعلماء الدين..

٢ ـ «طبقات الأمم»: للعلامة صاعد بن أحمد الطليطلي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) وصاعد يعد من علماء عصر الطوائف. وكتابه المذكور يعد أهم ما صنف عن العلوم التجريبية والبحتة كالرياضيات والفلك والطب وكذلك الفلسفة والمنطق في عصر الطوائف. وتتضح أهمية الكتاب في أن صاعداً الطليطلي التقى بالكثير ممن كتب عنهم في كتابه، وأخذ عن بعضهم كثيراً من المعارف والعلوم وتحقق من مكانتهم العلمية وما أسهموا به في ازدهار تلك العلوم.

وصاعد الطليطلي صنف كتابه في تاريخ العلوم القديمة عن الأمم والشعوب وتناول فيه دور كل أمة في تطور تلك العلوم والرقي بها وما أسهمت به في ازدهارها، ثم ينتهي إلى دور المسلمين في ذلك، فيتعرض لعدد كبير من علماء المسلمين في المشرق وما قدموه من دراسات علمية في تلك العلوم، حتى إذا

وصل إلى الأندلس وقفنا على معلومات قيّمة عما أضافه الأندلسيون وماقاموا به من دور كبير في دراسة العلوم القديمة، فيشير إلى عدد آخر من العلماء الأندلسيين حسب ما أسعفته به معرفته ومشاهداته. وعلى الرغم من جهده الواسع في ذلك وما قدمه من معلومات مهمة في هذا الصدد، فإنّ صاعداً بلا شك لم يحط بجميع النابغين من علماء الفلك والرياضيات والطب في الأندلس، وهو ما اعترف به في خاتمة كتابه، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية كتابه، ولا نبالغ إذا قلنا إنه أهم كتاب في تاريخ العلوم القديمة في الأندلس على وجه الإطلاق.

٣ - «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»: للأديب المؤرخ علي بن بسام (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧)، وهذا الكتاب صنفه ابن بسّام في تخليد مآثر قومه من أدباء وشعراء الأندلس بعد أن رأى تهافت الأندلسيين على أدب المشارقة وثقافتهم حتى كادوا أن ينسوا مآثر بلدهم وسير أعلامه. وقد قسم كتابه الذخيرة إلى أربعة أقسام. الأول في أهل قرطبة وما حولها من وسط الأندلس، والثاني للجانب الغربي من الأندلس، والثالث للجانب الشرقي منه، والرابع للطارئين على الأندلس.

ولابن بسام فضل عظيم لا ينكر على التاريخ والأدب الأندلسي. فقد احتفظ لنا بالكثير من المعارف والمعلومات التاريخية عن علماء الأندلس وأدبائها وشعرائها الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهنا تبرز أهمية كتابات ابن بسام وقيمتها الرفيعة بالنسبة لموضوع البحث، ولهذا فقد كان هذا الكتاب في مقدمة الكتب التي استند إليها الباحث، وخاصة ما يتعلق بالحياة الأدبية. كما أن لكتاب الذخيره قيمة تاريخية كبيرة، فابن بسام قد احتفظ لنا بنصوص كثيرة للمؤرخ الكبير ابن حيان الذي فُقدت كتبه التاريخية ولم يتبق منها سوى قطع

محدودة، ولهذا فان لابن بسام فضلاً لا ينكر في أنه تدارك البعض من جهود ابن حيان وكتاباته التاريخية التي عدا عليها الدهر وطواها الزمان فأنقذها من الضياع والعدم..

٤ - كتابا قلائد العقيان ومطمح الأنفس، للمؤرخ الأديب الوزير الفتح بن محمد بن خاقان (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م). وابن خاقان ولد سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م على أرجح الأقوال، ولهذا تبدو أهمية كتابيه المذكورين لقربهما زمنياً من فترة البحث. وخصوصاً ان كتاب قلائد العقيان تضمّن تراجم أدباء الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والربع الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وابن خاقان يماثل ابن بسام في الهدف الذي سعى إليه من تأليف كتابه الذخيرة، وهو الغيرة على الأدب الأندلسي وسير أدبائه، وقد صرح بذلك في كتابه «مطمح الأنفس» ويعتبر هذا الكتاب، أي مطمح الأنفس من المصادر المهمة في دراسة المجتمع الأندلسي ودراسة أدبه. وتبرز أهمية كتابات ابن خاقان وخصوصاً في المطمح في أنه انفرد ببعض المعلومات التي لم يذكرها غيره من أصحاب التراجم. وابن خاقان في كتابيه القلائد والمطمح يتحدث عن الأديب أو الشاعر حديثاً عاماً ولا يركز على الجزئيات، ويورد له بعض أشعاره. وكتابات ابن خاقان تفتقر إلى الدقة والمعلومات التاريخية، وعلى الرغم من أن ابن خاقان يحكم عاطفته وموقفه الشخصي من المترجم له، إلا أن كتابيه المذكورين يُعدان في مقدمة ما اعتمد عليه الباحث وخصوصاً ما يتعلق بالنواحي الأدبية..

٥ - **الصلة**. للعلامة خلف بن عبدالملك بن مسعود الأنصاري المعروف بابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م). وقد أدرك ابن بشكوال عدداً من علماء عصر الطوائف كأبي علي بن سكرة وابن العربي، فكتب عنهم وذكر سيرهم وإنتاجهم العلمي وما أخذه

عنهم من روايات وإجازات، فقد كان ابن بشكوال من علماء الحديث والتاريخ، وصنف فيهما عدداً من الكتب يأتي في مقدمتها كتابه «الصلة» الذي لقي قبولاً عظيماً في عصره وما تلاه. وقد اعتمد ابن بشكوال في تأليف كتابه على الرواية المتواترة والمراسلات المتبادلة بينه وبين العلماء، والاقتباس عن الكتب السابقة في التراجم ككتاب تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي الذي جعل ابن بشكوال كتابه الصلة تتميماً له، وكذلك اقتبس عن الجذوة للحميدي. ويركز ابن بشكوال في تراجمه على رجال الحديث والفقه والعلوم الدينية الأخرى وعدد لا بأس به من أهل الأدب واللغه، كما أنه أمدنا بمعلومات نفيسة عن سير وحياة العلماء والأدباء التي تصور بوضوح الأوضاع العلمية السائدة في عصر ملوك الطوائف ـ وقد أفاد منه الباحث فائدة جليلة في تراجم علماء الدين واللغة والأدب..

٦ ـ «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» للعلامة أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٢م). وكان معدوداً في علماء الحديث والفقه، وصنف فيهما عدداً من الكتب؛ ولكن شهرته تعود إلى كتابه بغية الملتمس الذي صنفه في تراجم علماء الفقه والحديث من أهل الأندلس. والضبي حينما ألف كتابه البغية نقل معظم كتاب جذوة المقتبس للحميدي، وهو يعدّ ما صنفه تتميماً ووصلاً لما صنفه الحميدي الذي اعتبر كتابه أفضل ما كتب في التراجم، ولكنه أيضا أضاف الكثير من التراجم الجديدة لعدد من العلماء. ويغلب على كتاب الضبي ذلك الاهتمام الذي لازم ابن الفرضي والحميدي وابن بشكوال، وهو العناية بتراجم علماء الدين من فقهاء ومحدثين وقرّاء وبعض أهل الادب، وقلما نلمس في كتابه غير هؤلاء، وتبرز أهمية كتاب الضبي في تقديمه بعض المعلومات الهامة التي لم ترد في كتاب

الجذوة للحميدي، ولهذا فقد اعتمد الباحث على كتابه بغية الملتمس في تراجم بعض علماء وأدباء عصر الطوائف.

٧ - «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» للقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي من أهل المغرب (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م). وكان أجداده نازلين في بسطه بالأندلس ثم نزلوا المغرب حيث استوطنوا فاس فسبتة، وبها ولد عياض وأخذ علومه عن شيوخها، ثم سافر إلى الأندلس وأخذ عن الكثير من شيوخها من محدثين وفقهاء حتى نبغ في الحديث إلى جانب اللغة والتاريخ والأنساب وصنف كثيراً من الكتب فيها، ويهمنا منها كتابه «ترتيب المدارك» الذي صنفه دفاعاً عن المذهب المالكي وتخليداً لأعلامه ومآثرهم العلمية. وقد صدَّر كتابه هذا بفضل عمل أهل المدينة وترجيحه على غيرهم، ويورد في سبيل ذلك أدلة وبراهين كثيره. ثم يأخذ في تراجم أعلام المذهب المالكي مبتدئاً بالإمام مالك بن أنس، رحمه الله، وحياته العلمية ثم تلاميذه وانتشار المذهب شرقاً وغرباً، وهو في كل ذلك يعرض مصنفاتهم وجهودهم العلمية. ويعتبر هذا الكتاب موسوعة شاملة لا يستغني عنها أي باحث في تاريخ المذهب المالكي وأتباعه وما أنتجوا فيه من مصنفات فقهية، ولهذا فقد اعتمد الباحث عليه في الحديث عن العلوم الدينية وبعض أهل اللغة والأدب..

٨ - «الغنية» «فهرست شيوخ القاضي عياض» للقاضي عياض المذكور، وقد سبقت الإشاره إلى أن القاضي عياض من أعلام المحدثين وأنه سافر إلى الأندلس وأخذ عن محدثيها وفقهائها وصحب الكثير منهم في حياته العلمية، ولهذا فقد رأى أن يصنف في شيوخه هؤلاء كتابه «الغنية» ذاكراً لأسمائهم وكل ما أخذه عنهم من روايات وإجازات، وقد ابتدأ في كتابه ذلك بمن اسمه

محمد ثم تلا ذلك ترتيب الأسماء الأخرى على الحروف الهجائية، وقد ترجم لثمانية وتسعين شخصاً، ومن بينهم عدد من علماء الأندلس شهدوا عصر الطوائف، ولهذا فقد كان هذا الكتاب مصدراً جيداً لمعلومات الباحث فيما يتعلق بعلوم الدين وغيرها..

٩ - «الحلة السيراء» للعلامة محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م). كان من علماء اللغة والتاريخ والحديث والقراءات والأدب، وكان متطلعاً إلى الجاه والمناصب مما كان سبباً في نهايته المؤلمة إذ إنه بعد أن قضى شطراً من حياته في مدينة بلنسيه اضطر للخروج عنها بعد وقوعها في يد الاسبان، فسار إلى تونس وحل محلاً رفيعاً في دولة سلطان تونس. ونظراً لما عرف عنه من اعتداده بنفسه وحدة في لسانه فقد ألب عليه بعض الحاقدين في بلاط السلطان فسعوا به للسلطان وزعموا أنه يدبر مؤامرة سياسية ضد السلطان الذي أمر بالقبض عليه ثم قتله وأحرق مصنفاته. وكتاب «الحلة السيراء» من أعظم ما صنفه ابن الأبار من كتب التراجم وقد قسمه على فترات زمنية بحسب القرون من القرن الأول الهجري إلى القرن السابع الهجري، وترجم فيه لأهل الأدب والشعر من الأمراء وغيرهم من أعلام الأدب والشعر. وكانت الفائدة منه عظيمة فيما يتعلق بتراجم المائة الخامسة والربع الأول من القرن السادس، إذ تطرق إلى أعدادٍ كبيرة من أدباء وشعراء الأندلس وأشار الى نماذج من آثارهم الأدبية..

١٠ - «المعجم» لابن الأبار أيضاً. وكتابه هذا من أهم ما كتب في تراجم علماء الأندلس، وكان الذي حداه الى تصنيف هذا الكتاب ما ألفه القاضي عياض في شيوخ أستاذه أبي على الصدفي، فرغب ابن الأبار في إكمال ما صنفه عياض، فهو يمدنا بمعلومات دقيقة عن حياة من يترجم له فيذكر تاريخ

ميلاده ووفاته وشيوخه وتلاميذه مع الإشارة إلى البلد الذي نزل فيه، وابن الأبـار يرتب أسـماء من يترجم لهم على حروف المعجم. ويُعد هذا الكتاب في مقدمة ما اعتمد عليه الباحث، وخاصة ان أبا علي الصدفي الذي صُنف الكتاب في تراجم شيوخه ومؤلفاتهم العلمية معدود في علماء عصر الطوائف، بل يعدّ من كبار علماء الحديث في ذلك العصر. وقد تحدث عنه الباحث في ميدان الحديث في ذلك العصر. كما تحدث عن شيوخ أبي علي الصدفي الذين عاصروا فترة ملوك الطوائف، ومن هنا تتضح أهمية الكتاب لموضوع البحث. لهذا فقد استند اليه الباحث استناداً كبيراً في الحديث عن المحدثين والفقهاء والقرّاء..

١١ - «تكملة الصلة» لابن الأبار أيضاً، وهذا الكتاب يشتمل على معلومات تاريخية نفيسة، ويحوي إشارات مهمه جدا عن علماء الأندلس وسيرهم ومصنفاتهم، ولا يستغني عنه أي باحث في تاريخ الحضارة الإسلامية في الأندلس. وتبدو لنا أهمية الكتاب أكثر إذا علمنا ان مؤلفه ابن الأبار قضى في تأليفه عشرين سنة وقد قصد به إكمال الصلة لابن بشكوال. ولكن ابن الأبار لم يقتصر على تلك المهمة بل عاد في الكثير من التراجم الى ما قبل تلك المرحلة. فتقصى تراجم من أغفلهم ابن بشكوال والحميدي وابن الفرضي. وقد اعتمد في تأليف كتابه على من سبقه من أهل التراجم والطبقات. وابن الأبار يمدنا في عدد من مواضيع كتابه بمعلومات دقيقة ومهمة عن حياة من ترجم لهم من العلماء والأدباء توضح لنا حقيقة ما كانت عليه حال العلم والعلماء، كما أنـه ضمّن كتـابه العديد من الإشارات التـاريخية القيمـة التي انفـرد بها كحديثه عن سوق الوراقين باشبيلية، ولهذا فكتاب تكملة الصلة يعتبر في مقدمة ما اعتمد

عليه الباحث في كتابة هذا البحث..

كما أن الباحث اعتمد على بعض الكتب الأخرى لابن الأبار لكنها تقل أهمية عما سبق ذكره ككتاب المقتضب من تحفة القادم..

١٢ - «المعجب» للمؤرخ الأديب عبدالواحد المراكشي (كان حياً ٦٣١ هـ/١٢٣٣م). والمعلومات التاريخية عنه قليلة جداً، فهو من مواليد مراكش عام ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م. وتلقى علومه في فاس ثم رحل إلى الأندلس واتصل بملوك وأمراء الأندلس آنذاك ثم رحل إلى المشرق سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦م. حيث التقى بعدد من العلماء هناك، ويبدو أنه ادركته الوفاة بالمشرق فقد انقطعت اخباره بعد ذلك. وكتابه «المعجب» يعد من أهم ما كتب عن تاريخ الأندلس وخصوصاً عن عهد الموحدين. وتبرز أهمية الكتاب فيما اشتمل عليه من معلومات قيمة عن أهل العلم والأدب، وكان تأليفه لذلك الكتاب استناداً الى ذاكرته وما حفظه عن تاريخ الأندلس والمغرب ونزولاً عند رغبة أحد الوزراء، وكان آنذاك لا يملك بين يديه من الكتب ما يسعفه على كتابة مصنفه التاريخي لذلك فهو يشير أحياناً إلى عدم وثوقه ببعض ما أورده بالإضافة إلى ذكره أنه يجهل أسماء بعض الشخصيات التي كتب عنها. ومهما يكن فكتابه يمتاز بقيمة علمية كبيرة لموضوع البحث لأنه يمدنا بمعلومات هامة عن عدد من رجال السياسة والعلم والأدب في عصر الطوائف كالمعتمد بن عباد، والمظفربن الأفطس وعلمه الواسع، ومجاهد العامري، وكذلك أهل الأدب والشعر أمثال الشاعر ابن عمار، وابن زيدون، والفقيه ابن حزم الظاهري وسعة علمه ومصنفاته، والأديب ابن عبدون وشعره وقوة حافظته وغير ذلك.

وبناء عليه فقد ركن إليه الباحث في استيفاء العديد من

نقاط البحث فيما يتعلق بالعلوم والآداب، وفيما يتصل بالفتنة في قرطبة والضالعين فيها. . .

١٣ - «المغـرب في حلي المغـرب» لابـن سعيد (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م). وهذا الكتاب الذي اعتمد عليه الباحث هو القسم الثالث الخاص بالأندلس المسمى «وشي الطرس في حلي جزيرة الأندلس» والقسمان الآخران يتعلقان بمصر وبالمغرب، والكتاب ألفه بالتوارث ستة أدباء على امتداد مائة وخمسة عشر عاماً، وقد تداولـوه بالإضـافـة والتنقيح، وكان الذي وضع نواة الكتاب الأديب محمد بن إبراهيم الحجاري الذي وفد على عبدالملك بن سعيد صاحب قلعـة بني سعـيد بالقـرب من غرنـاطـة (سنة٥٣٠هـ/١١٣٥م). فأكرمه وقربه وطلب منه تأليف كتاب في تراجم أدباء الأندلس وإنتاجهم الأدبي فصنف له «المسهب في غرائب المغرب»، ثم نقحه عبدالملك وتابعه ابناؤه بالزيادة والإضافة والتنقيح حتى تم إخراج الكتاب في صورته النهائية على يد الأديب المؤرخ عليّ بن موسى بن سعيد. ومنهج ابن سعيد يقوم على ترتيب مواد كتابه على البلاد، فهو عندما يذكر بلداً من البلدان يذكر كوره ويتحدث عنها ويبدأ بكرسي مملكتها بحسب ما لديه عنهـا من علم ومعـرفـة وما يتعلق بها من خصـائص جغـرافية ومعـدنية، ومن تداولها من الحكام، ثم يتحدث عن طبقات خمس هي: طبقة الأمراء، وطبقة الرؤساء، وطبقة العلماء، وطبقة الشعراء، وطبقة اللفيف ـ أي من ليس له نظم ولا يحسن إغفاله ـ وفي هذا الكتاب قسمّ الأندلس إلى غرب ووسط وشرق، وأفـرد لكـل منهـا كتـاباً. هذا وكتاب «المغرب» يعـد من أهم ما اعتمـد عليه الباحث من كتب الـتراجم، وخـاصة تلك الكتابات التي كتبها الحجاري وهو العلامة الذي أدرك في شبابه عصر ملوك الطوائف وما ضمه

من أهل العلم والادب. . .

وجدير بالذكر أن الباحث اعتمد أيضاً على بعض الكتب الأخرى لابن سعيد ككتاب «المقتطف» و«رايات المبرزين».

١٤ ـ «البيـان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب» لابن عذاري المراكشي (ت القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي)، والذي يهمنا من موسوعته التاريخية التي تقع في أربعة أجزاء هو الجزء الثالث الذي يشتمل على تاريخ ملوك الطوائف وأحوالهم وسـيرهم جميعاً. وكانت حاجة الباحث إليه ماسة فيها يتعلق بأحداث الفتنة وما نجم عنها من نتائج بالإضافة إلى ما أمدنا به ابن عذاري من معلومـات تاريخية عن كثير من الجوانب السياسية والعسكرية التي تهمنا في الفصل الأول من البحث، هذا إلى جانب ما انفرد به ابن عذارى من كتابات تاريخية عن ملوك الطوائف، وما أسهم به من جهد عظيم في الحفاظ على بعض آثـار من سبقـه من المؤرخـين الذين انقرضت كتبهم ومصنفاتهم، ومن بينهم العلامة ابن حيان الذي حفظ له ابن عذاري نصوصاً تاريخية عن ملوك الطوائف.

١٥ ـ «الإحاطة في أخبار غرناطة» للوزير المؤرخ لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م). كان وزيراً في دولة بني الأحمر بغرناطة ولحقته محن وتهم أفضت به إلى السجن ومن ثم القتل.

كان عالماً جليلاً متفنناً في علوم مختلفة، فكان أديباً شاعراً طبيباً فيلسوفاً مؤرخاً، وصنف في ذلك كتباً مختلفه من أشهرها كتاب «الإحاطة». والكتاب ليس تاريخاً محدداً لمدينة غرناطة، وإنما هو موسوعة كبيرة لما يتصل بهذه المدينة من أوصاف وأخبار وأحـداث منـذ دخـول المسلمـين إليها وحتى عصر المؤلف، وتعرض في كتابه لمن نزل غرناطة أو عرج عليها من أديب أو عالم أو كاتب أو فيلسوف أو ملك أو أمير، وذلك على طول

تاريخها. وابن الخطيب يسير تقريباً على الترتيب الأبجدي لمن يترجم لهم. وقد اعتمد على كتابات من سبقه من المؤرخين وأصحاب التراجم. وهو ما أشار إليه في مقدمة كتابه. ويعد كتاب «الاحاطة في أخبار غرناطة» من أهم المصادر التي أفاد منها الباحث في دراسة كثير من الشخصيات العلمية والأدبية، بالإضافة إلى كون غرناطة قاعدة مملكة من ممالك الطوائف، فقد توافر عن أحوالها السياسية والعلمية كثير من المعلومات في ذلك الكتاب والتي اسعفت الباحث في إتمام بحثه وإنجازه. ولا ننسى أن ابن الخطيب احتفظ لنا بنصوص تاريخية للمؤرخ القدير ابن حيان القرطبي...

١٦ ـ «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» لمؤلفه محمد بن محمد بن عبدالملك الأنصاري المراكشي (ت ٧٠٣هـ/١٣٠٣م). والكتاب يمثل قاموساً عاماً لرجال الأندلس ومن رحل إليها من المغاربة والمشارقة حتى أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. ولا ريب أن ابن عبدالملك بذل جهداً واسعاً وعظيماً في تأليف هذه الموسوعة الشاملة لعلماء وأدباء أهل الأندلس في مختلف العصور. ويلاحظ في كتابه تفاوت التراجم بين الإسهاب والإيجاز فبعض الشخصيات العلمية والأدبية، لا تحظى منه بسطر كامل، في حين أن بعضها قد تحتل ترجمته أكثر من عشر صفحات. كما أن ابن عبدالملك لا يذكر في كثير من تراجم كتابه تاريخ المولد والوفاة، وهي ظاهرة تمثل وجهاً سلبياً للكتاب. وابن عبدالملك أشار في مقدمة كتابه إلى جهود من سبقه من المؤرخين وأصحاب التراجم واعتمد على كتبهم اعتماداً كبيراً في تصنيف كتابه، وعلى أي حال فالكتاب رغم ما يعتوره من وجوه النقص ألا أنه من الكتب المهمةالتي حظيت باهتمام وعناية الباحث طوال مرحلة البحث..

١٧ ـ «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» تأليف أحمد بن محمد المقّري التلمساني (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١) كان المقّري من مواليد مدينة تلمسان ونشأ وتلقى علومه بها ثم ارتحل الى مدينة فاس فطلب العلم بها حتى برز كعالم كبير، وفضل الإقامة بها مدة من الزمن، ثم ما لبث أن ارتحل إلى مصر ثم الحجاز ثم الشام حيث نزل دمشق ثم عاد الى مصر، لكنه ما لبث لظروف معينة أن عزم على العودة إلى دمشق، غير أن المنيه ادركته بمصر. وأما كتابه «نفح الطيب» فهو من أعظم ما ألف عن الأندلس منذ دخول المسلمين إليها وحتى خروجهم منها. واشتمل الكتاب على ذخيرة هائلة من المعلومات المتعلقة بالتاريخ الأندلسي وحضارته، وكان المقّري يقصد في البداية من تأليفه أن يقصره على حياة ابن الخطيب الغرناطي ثم رأى من تمام الفائدة ان يكتب عن تاريخ الأندلس وحضارته لتكون الصورة عن ابن الخطيب أجلى واوضح، وتبرز جهود المقّري في كتاباته التاريخية الأندلسية رغم استطراده كثيراً في استخدام تلك المادة العلمية في تصوير الحياة السياسية والاجتماعية في الأندلس والمغرب. وتزداد أهمية الكتاب إذا علمنا أن المقّري ألف كتابه اعتماداً على كثير من الكتب التاريخية التي فقدت. وقد قسم المقري كتابه إلى قسمين: القسم الأول ـ يتعلق بالأندلس وتاريخها العام. والقسم الثاني ـ في التعريف بلسان الدين بن الخطيب. وكان القسم الأول هو معتمد الباحث وموطن اهتمامه لأنه حفل بالكثير من المعلومات والنصوص الهامة عن تاريخ الأندلس ومنه بطبيعة الحال عصر ملوك الطوائف.، وقد أسهم الكتاب في تغطية كثير من نقاط البحث. واستند إليه الباحث في العديد من الجوانب المتعلقة بتاريخ الأندلس في عصر ملوك الطوائف ومن ظهر في بلاطاتهم من أعلام المعرفة والأدب..

١٨ - ازهار الرياض في أخبار القاضي عياض- وقد صنفه المقري الآنف الذكر أثناء إقامته بمدينة فاس. ورغم أن المقرّي قصر كتابه على ترجمة القاضي عياض إلا أنه استطرد إلى جوانب تاريخية وحضارية واسعة للأندلس والمغرب. ومن مميزات هذا الكتاب أنه حفل بالكثير من الأخبار والمعلومات المغربية والأندلسية التي لا نجدها في «نفح الطيب» ولا في غيره من الكتب المطبوعة حتى الآن. ومنهج المقرّي في هذا الكتاب يماثل منهجه في كتابه نفح الطيب الذي صنفه في ترجمة لسان الدين بن الخطيب، والمقرّي ينهج خطة مميزة في ترجمته لشخصية القاضي عياض، فهو يعنى عناية تامة بالتفاصيل ويسعى إلى جمع المعلومات عنه وعن أسرته ومن له نباهة في العلم والرياسة، ثم يتحدث عن صباه وشبابه وكهولته. ثم يذكر شيوخه وتآليفه وصلته مع أهل عصره. والكتاب حافل بالمعلومات المهمة عن علماء الأندلس وآثارهم العلمية وبخاصة ما يتعلق بعصر الطوائف. ولهذا فقد أفاد منه الباحث فائدة جليلة في بحثه. والكتاب في خمسة اجزاء.

١٩ - «مقدمة ابن خلدون» للعلامة عبدالرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). وابن خلدون أشهر من أن يعرف، وتعود شهرته الحقيقية إلى كتابة «المقدمة» والتي صنفها في علم الاجتماع وأحوال الدول والعمران البشري والعلوم واصنافها والتعليم وطرقه وغير ذلك. وقد أفاد منها الباحث فائدة كبيرة فيما يتعلق بتاريخ التعليم في الأندلس، كما أفاد منها فيما يتصل ببعض العلوم ومن أهمها علم الكيمياء وأبرز المشتغلين بها في الأندلس، فقد احتفظ لنا ابن خلدون بمعلومات مهمة لا نجدها في الكتب الأخرى وخاصة تلك الرسالة العلمية في الكيمياء التي بعث بها أبو بكربن بشرون إلى صديقه ابن

السمح..

٢٠ ـ كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة (ت ٦٦٨هـ/١٢٦٩م). ويعتبر هذا الكتاب موسوعة حافلة في تراجم أطباء العالم منذ عصر اليونان وحتى عصر المؤلف. والذي يهم الباحث منه الجزء المتعلق بأطباء الأندلس وخصوصاً أولئك الذين عاشوا عصر ملوك الطوائف ،وعلى الرغم من أن ابن أبي أصيبعة يعتمد في كتابة هذا الجزء على ما كتبه صاعد الطليطلي في كتابه طبقات الأمم، إلا أنه أمدنا بمعلومات مهمة عن بعض أطباء في الأندلس لم يتطرق اليهم صاعد. وعلى هذا فقد اعتمد الباحث على هذا الكتاب اعتماداً كبيراً في رسم صوره جلية عن تاريخ الطب والأطباء في عصر الطوائف..

٢١ ـ «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م). ويعد هذا الكتاب من أهم ـ بل لا نغالي إذا قلنا ـ إنه أهم ماصنف من كتب التراجم العامة حتى منتصف القرن السابع تقريباً. وقد رتبه ابن خلكان على حروف المعجم ليتسنى الرجوع إلى تراجمه بسهولة ويسر. ابتدأ بذكر من أول اسمه الهمزة ويشير إلى انه لم يذكر فيه أحداً من الصحابة أو التابعين رضي الله عنهم، سوى جماعة قليلة يرى ضرورة التعريف بهم، وكذلك الخلفاء اكتفاءً بما كتب عنهم من الكتب، وعمد إلى تراجم من كان له شهرة من الناس، وهو في ذلك حريص على ذكر مولد ووفاة من يترجم لهم مع ذكر ما يتعلق بذلك من شعر أو نادرة أو واقعة، وقد اشتمل هذا الكتاب على كثير من تراجم رجال الأندلس في السياسة والعلم والأدب ولهذا فقد استمد منه الباحث الكثير من المعلومات المهمة المتعلقة بملوك الأندلس وأمرائها وعلمائها في عصر الطوائف.

وأخيراً فهذه أهم المصادر التي اعتمد عليها الباحث في كتابة موضـوعـه عن «الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الاندلس» وهناك حشد كبير من المصادر الأخرى التي أفاد منها البـاحث وأسهمت في إنجـاز هذا البحث والخروج به على الصورة المطلوبة، وسيجدها القارىء مثبتة في آخر البحث.

(ج) «المراجع»:

على الرغم من أن المصادر أسهمت بالقدر الأعظم والنصيب الأوفر في أنجاز البحث ألا أن الباحث لم يستغن ايضاً عن الدراسات الحديثة حول موضوعه، فرجع إلى قائمة طويلة من المراجع العربية والأجنبية، ويأتي في مقـدمتهـا الكتب المصنفة في حضارة الأندلس وتاريخها الفكري، ككتاب «تـاريخ الفكـر الأندلسي» لآنخل جنثالث بالنثيا، تعريب حسين مؤنس. والكتاب المذكور من أهم ما كتب عن التاريخ العلمي والأدبي للأندلس، على الرغم من أن مؤلفه أغفل الكثير من المعلومات الهامة عن تاريخ العلم في الأندلس، وفاتَهُ ذكر كثير من إعلام المعرفة وهذا عائد إلى محاولته تغطية العصر الإسلامي كله في الأندلس..

وهناك كتاب «التربية الإسلامية في أسبانيا» لخوليان ريبيرا، وفيه فصول ممتعـة عن جوانب التعليم في الأنـدلس والنـظم التعليمية المتبعـة آنـذاك، كما أنه ضم معلومات قيمة عن الكتب والمكتبات في الأندلس، وعاد الباحث إلى كتاب «حضارة العرب في الأندلس» لليفي بروفنسال الذي كتب فيه فصـولاً مهمه عن ألوان النشاط الحضاري المادي والفكري للمسلمين في الأندلس. وأفاد الباحث من كتاب «الإسلام في اسبانيا» للطفي عبدالبديع، والكتاب رغم صغر حجمه إلا أنه كبير الفائدة عظيم النفع. وأفاد الباحث أيضاً من كتب الحضارة الإسلامية العامة ككتاب «حضارة العرب» لغوستاف لوبون الذي التزم الصدق والنزاهة في أغلب كتاباته عن الحضارة الاسلامية، وكذلك كتاب «شمس العرب تسطع على الغرب» «للكاتبة الالمانية زيغريد هونكه التي اندفعت إلى تأليف ذلك الكتاب بنزعة الإعجاب. والإجلال لدور

العرب في تقدم الحضارة الانسانية. كما أفاد الباحث من كتاب «تراث الإسلام لأرنولد وآخرين، وهو الكتاب الذي ضم فصولاً مختلفة عن العلوم الإسلامية وتطورها كالطب والصيدلة والرياضيات والكيمياء، وكتاب «أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية» لروبرت بريفالت، وكتاب «العلوم في الإسلام» لسيد حسين نصر. ولا تفوتني الإشارة إلى اعتماد الباحث على عدد من المراجع المتعلقة بتاريخ الأدب الأندلسي ككتاب «تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين» لإحسان عباس، وكتاب «في الأدب الأندلسي» لجودة الركابي، «والأدب الأندلسي» لأحمد هيكل، وكتاب «دراسات في الأدب الأندلسي» لسامي العاني، و«الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير» لمحمد رجب بيومي، و«ديوان الموشحات» لمحمد زكريا

وفيما يتعلق بالجوانب السياسية في البحث فقد أفاد الباحث من كتب مختلفة، منها كتاب «دول الطوائف» لمحمد عنان ـ وكتاب «التاريخ الأندلسي» لعبدالرحمن الحجي، وكتاب ملوك الطوائف ـ لرينهارت دوزي ـ ترجمة كامل كيلاني. وكتاب «اشبيليه في القرن الخامس الهجري» لصلاح خالص.. ومن المراجع الأجنبية غير المترجمة ما يلي:

(1) Titus Burchhardt: Moorish culture in Spain. Translated by Alisa jaffa.

(2) Jan Read: The Moors in Spain and Portugal.

(3) S.M. Imamuddin: Muslim Spain, 711- 1492. A.D.

(4) S.P. Scott: History of the Moorish Empire in Europe. Vol. III.

وهناك مجموعة من المقالات يأتي في مقدمتها:ـ

مقـــال : حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث ج.٧ ـ ٨ ـ سنة ١٩٥٥م.

مقـــال : رامـون منتـدث بيدال: اسبـانيا حلقـة اتصـال بين المسيحية والإسلام، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ج ١.
مقـــال : عباس الجراوي: أثر الأندلس في اوربا في مجال التنغم، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر. العدد الأول ١٩٨١م.
مقـــال : عبدالمجيد التركي ـ موقف ابن حزم الأصولي ـ من منطق أرسطو منشـور في كتـاب أعـمال ندوة الفكـر العـربي والثقافة اليونانية، منشورات كلية الآداب بالرباط. سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥ ـ ١٩٨٠م.
مقـــال : جمال محرز: التصوير في الأندلس بالمجلة التاريخية المصرية المجلدان (٩ ـ ١٠، ١٩٦٠م ـ ١٩٦٢م).

هذا وفي الختام نود ان نشير إلى أننا قد أثبتنا في آخر البحث قائمة بكل ما رجع إليه الباحث من المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمقالات في سبيل إخراج هذا البحث بالصورة التي هو عليها. . وأخيراً فإنني أحمد الله على توفيقـه وإحسانـه. وأتقـدم بخالـص الشكـر وجميـل العرفان إلى استاذي الكريم سعادة الاستاذ الدكتور أحمد سيد دراج الذي أشرف على هذه الرسالة وأمدني طوال فترة البحث بتوجيهاته الصائبة وإرشاداته القيّمة، فله مني عاطر الثناء وجميل الذكر، والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. سعد عبدالله البشري

القسم الأول

عوامل ازدهار الحياة العلمية ومظاهرها في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

سقوط الخلافة الأموية وقيام ممالك الطوائف

(١) الفتنة وسقوط الخلافة الأموية

كان تقلد عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر لشؤون الدولة بعد وفاة أخيه المظفر عبدالملك إيذانا ببدء مرحلة سياسية جديدة في الأندلس، فإن أباه المنصور ومن بعده المظفر كانا على جانب من الالتزام بتقاليد الحجابة مراعيين للخليفة حقه وحرمته بالرغم من سيطرتهما على مقاليد الحكم والتصرف في شؤون الدولة. وهذه الصفات المذكورة افتقدها عبدالرحمن الذي عرف عنه قصر النظر وسوء التدبير وسرعة التهور في معالجة الأمور فسارع حين توليه إلى الخليفة هشام المغلوب على أمره وطلب منه أن يوليه ولاية العهد من بعده، مما فتح عليه بابا واسعا من الفتن والقلاقل انتهت بمصرعه على أيدي خصومه من بني أمية الثائرين على نفوذ العامريين في الدولة وتمكن زعيم هؤلاء الثوار محمد بن هشام بن عبدالجبار من قتل عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر وخلع هشام المؤيد ومن ثم تسلمه لسدة الأمر بتوليه الخلافة وتلقيبه نفسه بالمهدي (٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م)، ولكنه لم ينعم بحاله إذ ثار عليه هشام ابن سليمان بن عبدالرحمن الناصر بجموع البربر، لكن الأخير لقي مصرعه على يد المهدي في الأسر[1].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن البربر لعبوا دورا هاما في هذه الفتنة، فنحن نعلم أن العامريين كانوا شديدي الاعتماد على هذا العنصر الذي عظمت

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص ١٧ - ١٨) - المراكشي: المعجب (ص ٦٤ - ٦٥) - ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣ (ص ٧٠) وما بعدها - ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، (ص٦٦ - ٦٧) - المقري: نفح الطيب، ج ١ (ص ٤٢٤) وما بعدها - السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، (ص٣٤٣) وما بعدها - عبدالكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس (ص ٢٠١) وما بعدها - محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية والدولة العامرية) (ص ٦٤٤ - ٦٤٥).

شوكته وقوي عوده في دولة بني عامر، ولما آلت الأمور إلى ما ذكرنا فمن الطبيعي أن خصوم العامريين خصوم للبربر أيضاً وهو ما يفسر موقف المهدي محمد بن هشام من البربر وما سلكه معهم من مسالك الثأر والانتقام الداميين[2].

ولما أحاق بالبربر سوء العذاب من المهدي وأنصاره ولوّا وجوههم نحو منافسه وعدوه هشام بن سليمان الآنف الذكر، غير أن الامر لم يتم لهم بنجاح، فسارعوا إلى موالاة سليمان بن الحكم الذي لم ير عارا في طلب عون النصارى ومساندتهم وسار بهم مع أنصاره إلى قرطبة حيث دارت معركة شرسة بينهم وبين أهل قرطبة بزعامة المهدي، وتعرف هذه المعركة بوقعة قنتيش وانتهت بهزيمة ساحقة للقرطبيين ومقتل آلاف منهم من بينهم كثير من العلماء وأخيار الناس وعامتهم وفر المهدي إلى طليطله[3].

ويشير ابن حيان إلى عموم مصاب أهل قرطبة بقوله (كان بعض الظرفاء يقول: من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل)[4].

ومما يقف عليه القارىء من صور التخاذل والضعف اللذين نخرا في كيان السلطة الإسلامية في الأندلس وانتهيا بها إلى الفناء والزوال ماكان يسلكه كثير من حكامها، وبالأخص في هذه الفترة العصيبة وما تبعها من عصر الانقسام وتصدع الجبهة الإسلامية، من الارتماء في أحضان ملوك النصارى واستعانتهم بهم في نزاعاتهم العسكرية والسياسية، ولعل سلوك سليمان بن الحكم ثم خصمه المهدي محمد بن هشام فيه إثبات لما اشرنا إليه، وهي ظاهرة سنجدها واضحة وجلية في ميدان العمل السياسي والعسكري لملوك الطوائف.

وكان سليمان الملقب بالمستعين وأتباعه من البربر قد دخلوا بعد تلك الوقعة

---

(٢) انظر، ابن عذاري: البيان، ج ٣، (ص ٧٨ - ٨١)، المقري: نفح الطيب، ج ٦ (ص ٤٢٧).
(٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١، (ص ٤٣)، الحميدي: الجذوة (ص ١٨)، المراكشي: المعجب (ص ٦٥)، ابن عذاري: البيان (ص ٨٣)، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين (ص ٣٥٠-٣٥١)، وقنتيش نسبة الى اسم جبل بقرب قرطبه (انظر المراكشي: المعجب ص ٦٥).
(٤) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٤٤).

إلى قرطبة، ولكن الأمر لم يستقر لهم فما لبث أن زحف إليها المهدي بقوات من النصارى حيث اصطدم الفريقان في موضع يعرف بعقبة البقر سنة (٤٠٠هـ/ ١٠١٠م) وانجلت المعركة عن هزيمة سليمان وأنصاره، ودخل المهدي قرطبة ليخرج منها ثانية مقاتلا لخصومه من البربر الذين ساحوا في أنحاء البلاد يسلبون وينهبون ثم اتجهوا إلى الجزيرة الخضراء فتبعهم المهدي بقواته ومن سانده من النصارى والتقى الطرفان في وادي آره(٥) حيث هزم فيها وفر إلى قرطبة مع ثلة من أصحابه الناجين، فتبعهم المستعين والبربر وحاصروا قرطبة. وعندما ضاقت بالمهدي السبل عمد إلى المكر وذلك بإخراجه الخليفة هشام المؤيد ومبايعته وحث الناس على ذلك ونصب نفسه حاجبا للخليفة، ولكن ذلك لم يجده شيئا فقد تفاقم الخطب داخل المدينة وتباحث رجال القصر من الفتيان في الأمر ورأوا أن يقضوا على أصل الفتنة ومثيرها وهو المهدي، وكان يتزعم هؤلاء الفتيان واضح الصقلبي الذي استطاع قتل المهدي وتنصيب نفسه حاجبا للخليفة هشام وبذلك انتهى حكم المهدي الذي دام تسعة أشهر(٦).

ويشير ابن عذاري إلى سيرة المهدي بقوله: (... وهو مع هذا كله في انهماك وانتهاك، مظاهرا بالفسق وشرب الخمر ومضيقا على أهل قرطبة ومفترسا للتجار...)(٧).

وهكذا نرى أن هذا الامير المغامر الذي زرع الفتنة وأجج نارها كيف عم بلاؤه الأندلس ولم يسلم منه عامة الناس من أهالي قرطبة، فإن جميع

---

(٥) وادي آره من أحواز مربله إلى الجنوب الشرقي من الأندلس وتبعد مربله عن مالقه ستين كلم غربا. انظر الحميري: الروض المعطار (ص٥٣٤).

(٦) ابن بسام: الذخيرة ج ١، ق ١ (ص٤٤ - ٤٥)، الحميدي: الجذوة (ص ١٨ - ١٩)، الضبي: البغية، (ص٢٢ - ٢٣)، المراكشي: المعجب (ص٦٥ - ٦٦)، ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص٩٤ - ٩٥) وما بعدها - المقري: النفح، ج ١، (ص٤٢٨)، وانظر ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، (ص٦٧ - ٦٨)، عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، (ص٣٥٤ - ٣٥٥)، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (الخلافة الأموية والدولة العامرية) (ص٦٤٨).

(٧) البيان المغرب، ج ٣، (ص ٩٩)، وانظر فيه بالتفصيل أحداث الفتنة وسيرها وما أصاب قرطبة من جراء ذلك من تدهور واضطراب سياسي واجتماعي كبيرين.

ما كان فيه من ترف ومتع ولهو كان مصدره شقاء الناس وظلم التجار واستنزاف حقوقهم وأموالهم. ولا نعجب من سرعة زوال سلطانه ومقتله فإن سلوكه المنحرف قد قاده إلى الفشل وذهاب ريحه.

وفي سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٣م دخل المستعين ومن معه من البربر مدينة قرطبة، وكان بصحبته اثنان من العلويين هما القاسم بن حمود وأخوه علي بن حمود ويرجعان بنسبهما إلى إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٨].

ولما كان الخليفة هشام محاصرا بقرطبة مع المهدي وأحس بالخذلان والضعف عهد إلى علي بن حمود بولاية عهده وأوصى إليه بالخلافة من بعده. رجاء أن يلم به شعث ما تفرق ويجمع به كل ما ندَّ من أنصار آبائه أو ممن يوالي الخلافة القرشية وعهد اليه بأخذ ثأره ممن يعتدي عليه[٩].

ولا يعلم على وجه التحديد كيف كانت نهاية هشام المؤيد، ولكن يقال إن المستعين لدى دخوله قرطبة أحضره ووبخه بسبب نكثه لما اتفقا عليه من تسليم الخلافة للمستعين ومبايعته له بالخلافة واعتذر عنه هشام بأنه مغلوب على أمره. ثم غاب خبره عن الناس فلا يعلم أقتله سليمان المستعين أم انه فر خارج قرطبة[١٠].

وبعد ان استقر الحال بالمستعين أخذ يولي قواده ورجاله البلدان والمدن المختلفة، فولى علي بن حمود سبتة وطنجة، وأخاه القاسم الجزيرة الخضراء. ولما رأى علي بن حمود سوء الأحوال واضطراب الأمر في الأندلس داخله الطمع

---

(٨) شكك المواعيني في كتابه المخطوط (ريحان الالباب، ورقة ١٣٩ ب) في صحة نسبهم بقوله (وثار كل وال في مكانه وانتزى في موضعه وظهر القاسم بن حمود و يزعم انه من ولد فاطمة) والحق أنه بذلك قد جانب الصواب فإن نسبهم إلى علي بن أبي طالب صحيح وحق. كما أنه جانب الحقيقة بإشارته إلى أن القاسم هو الذي ثار أولا قبل اخيه علي والصحيح أن عليا ثار قبل أخيه القاسم وتولى الأخير بعد وفاته مقاليد الأمور في قرطبة وسيأتي توضيحه.

(٩) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٣٧ - ٣٨)، الحميدي: الجذوة (ص ٢٠)، المراكشي: المعجب، (ص٦٨)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص١١٤)، محمد عنان: مرجع سبق ذكره، (ص٦٥٣).

(١٠) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٣٧)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١١٣)، المقري: النفح ج ١ (ص٤٢٩).

في الاستيلاء على مقاليد الأمور في الدولة وخاصة بعد استناده إلى رسالة هشام المؤيد التي تنص على توليته العهد من بعده، وهكذا فقد استنفر أنصاره ومواليه من البربر حيث كون منهم جيشا زحف به إلى مالقه فاحتلها ومنها توجه إلى قرطبة، فخرج اليه المستعين بجيشه وانتهت المعركة باندحار الأخير وأتباعه ووقوعه هو وبعض من أهله في الأسر، حيث اتهمهم علي بن حمود بقتل الخليفة هشام المؤيد فقتلوا جميعا[11].

وهكذا نستشف تردي الأوضاع وشيوع الاضطرابات والقلاقل من خلال الدراسة العميقة لسلوك أولئك المغامرين أو الطامحين لسدة الأمر، ونجد من بين ما يلفت النظر في سير أولئك الثوار انعدام الوفاء والصدق بينهم وبين أتباعهم، وهو انعكاس صادق لمرآة الأوضاع السياسية آنذاك. ونضرب مثلا على ذلك موقف الفتى واضح من مولاه المهدي والذي دبر عملية اغتياله والقضاء عليه، وكذلك نلمس ذلك في موقف علي بن حمود من الخليفة المستعين وهو - أي الخليفة - الذي ولاه بنفسه على سبتة وطنجة، وكذلك كان مقتل علي بن حمود على أيدي أتباعه كما سوف نرى. ولكن منطق الصراع والمغامرة السياسية لا يؤمن بالمثل والأخلاق والمبادىء، وقد أشار المؤرخ الكبير ابن حيان إلى هذا المثل الاخير بقوله:

(قدمه على مدينة سبتة. رأيا ذهل عنه ونبذها إلى ند له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة، فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين، ودب لمغبونه سليمان من مثلها الضراء دبيب الحنق الموتور، حتى هجم عليه وسلبه ملكه وحول دولته ومزق عترته، وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده وإذا أراد الله شيئا أمضاه)[12].

---

(11) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٣٨ - ٤١ - ٤٢)، الحميدي: الجذوة (ص ٢٠)؛ المراكشي: المعجب (ص ٦٧ - ٦٨) ، ابن عذاري: البيان، ج ٣، (ص ١١٤) وما بعدها، المقري: النفح، ج ١، (ص ٤٣٠)، السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سبق ذكره، (ص ٣٥٦ - ٣٥٧)، محمد عنان: مرجع سبق ذكره (ص ٦٥٨ - ٦٥٩).

(12) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٨)، وقد نقل هذا النص بتحريف ابن عذاري في كتابه البيان ج ٣ (ص ١١٤).

العلويون يتقلدون الخلافة في قرطبة

دخل علي بن حمود قرطبة بعد انتصاره على المستعين وأعلن نفسه خليفة على المسلمين، ولكن الزمان لم يصفُ له فقد قتله أتباعه من الصقالبة بالحمام سنة ٤٠٢هـ ليتولى أخوه القاسم الأمر من بعده. وقد عرف هذا بحسن السيرة ووداعة النفس فأمن الناس في عهده إلا أنه في سنة ٤١٢هـ ثار عليه ابن اخيه يحيى بن علي بن حمود بمالقه ففر القاسم إلى اشبيلية ودخل يحيى قرطبة ومالبث يسيرا حتى غادرها بعد سماعه مقدم عمه إليه بجيش كبير من البربر سنة ٤١٣هـ. واستقر القاسم بقرطبة شهورا مضطرب الحال مع أهل قرطبة الذين انتهزوا خروجه في بعض شأنه فأوصدوا أبواب مدينتهم في وجهه ومن معه من البربر فحاصرهم قرابة شهرين حتى خرج إليهم أهل قرطبة فانفض عنه أتباعه وتوجه إلى اشبيلية حيث كان فيها ابناه محمد والحسن، ولكن الاشبيليين أخرجوهما من مدينتهم وقدموا على حكمها ثلاثة من أعيان المدينة، وهم أبوالقاسم محمد بن إسماعيل بن عباد ومحمد بن يريم الالهاني، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، وكان الثلاثة يعملون شراكة في تدبير البلد وسياسته حتى غلب محمد بن إسماعيل على صاحبيه واستبد بالأمر وانتهى الأمر بالقاسم بن حمود إلى وقوعه أسيراً بيد ابن اخيه يحيى بن علي، ومن بعده لدى إدريس بن علي لتكون خاتمته الموت خنقا سنة ٤٣١هـ[١٣].

بنو أمية ومحاولاتهم استعادة الخلافة
للخليفة عبدالرحمن بن هشام «المستظهر»

كان لموقف القرطبيين الساخط على القاسم بن حمود دلالة واضحة على ما بلغته حالهم وأوضاعهم السياسية من ضعف وانحطاط ترتب عليه كثير

(١٣) الحميدي: الجذوة، (ص٢٢ - ٢٣ - ٢٤)، الضبي: البغية (ص ٢٧ - ٢٨ - ٢٩)، المراكشي: المعجب، (ص٧٧ - ٧٨ - ٧٩)، ابن عذاري البيان ج ٣ (ص٢٢، ٢٤)، المقري: النفح، ج ١ (ص٤٣١ - ٤٣٢) وانظر محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس، (ص٦٦٣-٦٦٤).

من الفتن والمآسي الجمة التي لم تسلم منها دار في قرطبة تقريبا. ولهذا نرى أهلها يسارعون حثيثا إلى عقد اتفاق ينص على أن يرد أمر الخلافة ـ باعتبار مدينتهم هي مركز الخلافة ـ إلى بني امية، واختاروا من هؤلاء ثلاث شخصيات هم: عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار، وهو أخو المهدي مشعل الفتنة، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبدالرحمن بن هشام. واستقر اختيارهم للخليفة من بين هؤلاء على عبدالرحمن بن هشام بن عبدالجبار فبايعوه بالخلافة وتلقب بالمستظهر سنة ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م. وقد حضر اجتماع المبايعة مؤرخنا الكبير ابن حيان ووصفه كما رآه[١٤].

وكان المستظهر موصوفا بالأدب والبلاغة، وأنه لم يكن في أهل بيته من يدانيه منزلة سواء في الأدب أو السياسية[١٥].

ورغم ما كان عليه المستظهر من تلك الاوصاف إلا أنه عرف عنه ألوان من الظلم والتعسف ضد الرعية (لا يقع بيده درهم إلا من صبابة مستغل جوف المدينة أو نهب مغلول ممن تقلقل عنها، يقيم منه رمقه، ويفرق جملته على من تكنفه من جنده ودائرته ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته، فلم يلبث الأمر أن تفرى به فسفك دمه، وانحسم الأمل في دولته)[١٦].

وهكذا يلمس المتتبع لتلك الأحداث الناجمة عن الفتنة ما كانت عليه أوضاع الأندلس عامة والعاصمة قرطبة على وجه خاص من تصدع وانهيار في الكيان المعنوي للرعية، وانعدام الثقة في كفاءة حكامهم ورعاتهم، وكأن أحداث الفتنة قد ولدت لدى أولئك الناس صورة قاتمة لمن يتولى أمرهم من الخلفاء الذين لم يكن لأحدهم من المزايا والاستعداد المناسب لتسلم مهام القيادة، فافتقدوا الشخصية القوية المحنكة التي تستطيع أن تجبر الصدع البين

---

(١٤) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٤٨) وما بعدها، الحميدي: الجذوة (ص٢٥ ـ ٢٦)، المراكشي: المعجب (ص٤٧). وما بعدها ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص١٣٦)، المقري: النفح ج ١ (ص٤٣٥ ـ ٤٣٦)، محمد عنان: المرجع السابق (ص٦٦٤).

(١٥) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٤٨، ٥٥)، الحميدي: الجذوة (ص ٢٦)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٣٦)، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٣.

(١٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٥١ ـ ٥٢)، مما نقله عن ابن حيان، وانظر سبب مقتله وكيفية حصول ذلك في نفس المصدر والجزء (ص٥٣) وما بعدها.

في الكيان السياسي للدولة وتعيد الثقة للرعايا.. هذا إلى جانب ما كان للعصبية البغيضة من أثر في إذكاء روح الفتنة بين العرب والبربر. وهو السبب الهام الذي أدى إلى مقتل الخليفة المستظهر. كما أن بريق السلطة وزخرفها دفع الطامعين إلى ذلك الصراع المرير من أجل الوصول إلى ذلك الشأن من غير نظر في العواقب أو إفساح للمجال لمن تتوافر فيهم صفات الزعامة وشروطها. حتى نجد أحدهم وهو أمية بن عبدالرحمن بن هشام الذي ثار على آخر خليفة أموي يطلب من أهل قرطبة أن يبايعوه بالخلافة بدلا من المعتمد فقالوا له (إنّا نخاف عليك في هذا اليوم القتل لما نرى من انقلاب الناس عليكم، فقال لهم أمية: بايعوني أنتم اليوم واقتلوني غدا، حرصا منه على الخلافة)[١٧].

الخليفة محمد بن عبدالرحمن المستكفي

كان أهل قرطبة قد نالوا درسا قاسيا مرا من تسلط البربر وطغيانهم إبّان الأحداث المؤلمة في عهد المهدي وسليمان المستعين ومن أتى بعدهم من بني حمود ولكنهم تمكنوا من طرد البربر ودحرهم عن مدينتهم، ولما تسلم المستظهر مقاليد الحكم غفل أو نسي هذه المشاعر الكامنة في نفوس رعيته واستقبل أعيانا من البربر أكرم مثواهم وأنزلهم دار ملكه مما أسخط القرطبيين وأحنقهم فأحاطوا بقصره وقتلوا ضيوفه من البربر، وشعر المستظهر آنذاك بخطورة موقفه فاستخفى في موضع في القصر. وهنا يظهر ابن عمه محمد بن عبدالرحمن ويتسلم مقاليد الحكم بدلا منه بمبايعة أهل قرطبة ويتلقب بالمستكفي ويؤتى للخليفة الجديد بالمستظهر في حالة يرثى لها مرتاعا فزعا فيأمر بقتله[١٨].

ولعل ما أشرنا إليه من مطابقة حال هؤلاء الخلفاء بما هم عليه من الأوضاع السيئة وأن هيبة الخلافة قد زالت بغير رجعة، وأن هؤلاء الخلفاء ليسوا بخلفاء إلا على أنفسهم فقط، يثبته ما ذكرناه من سيرهم الى جانب

(١٧) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ١٥٠ - ١٥١).
(١٨) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٥٣ - ٥٤ - ٥٥)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٣٨ - ١٣٩)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ٦٦٦ ما بعدها).

ما أورده ابن حيان عن مدة خلافة المستظهر بقوله (سبعة وأربعين يوماً، لم تنتشر له فيها طاعة، ولا التأمت عليه جماعة، ولا تجاوزت دعوته قرطبة)[١٩].

ولم يكن المستكفي باللذي ترضى سيرته مع نفسه فكيف بها مع الناس فقد تضافر المؤرخون ممن تطرقوا لسيرته على وصفه بالتخلف والبلادة والعجز وسوء التدبير حتى أشار إليه أحدهم بأنه لم يكن له رأي فيما ورد وصدر وإنما كان بلية بعثه الله على أهل بلده[٢٠].

كما انه لم يهتم بما فيه صلاح دولته ورعيته فقد كان همه وشاغله لا يتعدى بطنه وفرجه[٢١].

الخليفة هشام بن محمد (المعتد بالله)

من الطبيعي وهذه سيرة الخليفة المستكفي ألاّ لا يقوى شأنه ولا يصمد حكمه أمام رياح التغيير التي كانت تعصف بعاصمة الأندلس وتياراتها المتقلبة بين عشية وضحاها. فقد خلعه أهل قرطبة بعد أن قضى في خلافته البائسة ستة عشر شهراً، وعادت قرطبة إلى حوزة علي بن علي بن حمود. إلا أن أهل قرطبة خلعوا طاعته سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م وأعادوا النظر في إعادة الخلافة إلى بني أمية، وكان يتزعم سياستهم الوزير أبو الحزم جهوربن محمد بن جهـور، ولمـا تدارسـوا أمـرهم بينهم عمدوا إلى مبايعة هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر فبايعوه سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م وكان آنذاك مقيماً بالبونت[٢٢] لدى حاكمها محمد بن عبدالله بن قاسم، وعلى الرغم من مبايعته بالخلافة إلا أنه لم يدخل قرطبة إلا سنة ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩ بسبب تردده

---

(١٩) ابن بسام: المصدر السابق ق ١، ج ١ (ص ٥٥).

(٢٠) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ١٤١)، وفيه تفصيل لسيرته وقبحها وانظر ايضا الحميدي: الجذوة (ص ٢٧)، المراكشي: المعجب (ص ٨٥-٨٦)، محمد عنان: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة والعامرية) (ص ٦٦٧)، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص ٣٦١).

(٢١) لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٣.

(٢٢) البونت: إمارة صغيرة بالقرب من شنتمرية الشرق، وتقع في وسط الطريق بين قسطلونة وقونقه، على مقربة من نهر طوريه (محمد عنان: دول الطوائف ص ٢٦٠)، وسوف نتحدث عنها كإحدى ممالك الطوائف التي قامت بعد زوال الخلافة الأموية.

وانغماسه في بعض الأالاحداث هناك، وتلقب في خلافته بالمعتد بالله، ولكن أنى له أن يثبت شأنه ويستقر حاله وقد تمرس كل منغمس في الفتنة بالتمرد والعصيان وانتهى به الحال إلى أن خلعه الجند وأزالوا سلطانه سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[٢٣].

ويشير المراكشي الي مدى ما لحق هذا الخليفة البائس من ويلات ونكبات وشقاء فإنه أخرج وأخرجت نساؤه معه من القصر حاسرات عن أوجههن حافيات إلى الجامع على هيئة سبايا، وأن ذلك الخليفة أقام ومعه نساؤه على هذا الوضع أياما يتصدق عليهم الناس بالطعام والشراب حتى خرج بأهله يجول في أنحاء الأندلس، واستقر به النوى في كنف ابن هود في سرقسطه حيث توفي فيها سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م[٢٤].

ولكن هل يعود أهل قرطبة فيسندون الأمر إلى أي من بني أمية؟

الحق أن الناس في قرطبة قد استمرؤوا علقم الأحداث وهان عليهم أن يخلعوا ويبايعوا في وقت واحد حتى يقفوا على الخليفة القوي المحنك، القوي في غير عنف واللين في غير ضعف، ولكن أوضاعهم لم تسمح بذلك وكأن الزمن آلى ألاّ يأتي بأمثال خلفاء العصر الذهبي مع تقديرنا التام لسنة التطور السياسي والاجتماعي للمجتمع الأندلسي. وحينذاك لم يعودوا يثقون بأحد من أهل هذا البيت الغابر مجده، البائس حاضره، فنادوا في الأسواق والمحافل والمجالس العامة بان لا يبقى بقرطبة أحد من الأمويين ولا يؤويهم أحد[٢٥]. ومن هنا غار أمل الناس في الخلافة وتبددت أحلامهم في عودة أمثال الناصر والمستنصر والمنصور، وبرز إلى السطح المغامرون والطامعون يقتطعون من هذا الكيان السياسي كل على قدر بأسه وقوته وماضيه في الجاه والثراء والسلطان.

---

(٢٣) الحميدي: الجذوة (ص ٢٧ ـ ٢٨)، المراكشي: المعجب (ص ٨٧ ـ ٨٨)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٤٥)، وهو الذي حدد سنة خلعه، وانظر سبب ذلك (ص ١٤٦)، وكذلك المقري: النفح، ج ١، (ص ٤٣٨)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ٦٦٨ ـ ٦٦٩).

(٢٤) المعجب (ص ٨٨ ـ ٨٩)، ابن الأثير: الكامل ج ٧، (ص ٢٩٠)، وا نظر تفصيل هذه الأحداث في البيان المغرب ج ٣ (ص ١٥١) وما بعدها.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل ج ٧ (ص ٢٩٠)، ابن عذاري: البيان المغرب ج ٣ (ص ١٥٢)، محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة والعامرية) (ص ٦٦٩)، السيد عبدالعزيز سالم: مرجع سابق (ص ٣٦٣).

عوامل سقوط الخلافة الاموية

من الحق علينا أن نشير في ختام هذا الموضوع إلى أهم العوامل والأسباب التي أدت إلى انهيار الخلافة الأموية وزوالها، فمن المعروف أن المجتمع الأندلسي كان يتألف من عناصر مختلفة عرب وبربر وصقالبة، ومولدين ويهود، ونصارى وغيرهم. وكانت كل هذه الفئات تفضل العيش والحياة في محيط خاص بها، فيلاحظ الدارس للتاريخ الأندلسي أن العنصر الغالب على مدينة قرطبة وطليطلة هم المولدون، والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقه هم البربر(٢٦). كما كان للعرب السيادة والتفوق في مدينة اشبيليه(٢٧).

بل إن جغرافية الأندلس وما تميزت به من امتداد سلاسل جبالها من المشرق أو الشمال الشرقي إلى الغرب أو الجنوب الغربي قد شكلت حواجزَ ودروباً يصعب اجتيازها آنذاك، وأصبحت الأندلس بذلك اشبه بأقاليم منفصلة وهو ما ساعد أهلها على النزعة الانفصالية والثورات الداخلية(٢٨).

ومن بين تلك العوامل مواقف الخلفاء من العنصر العربي، فقد كانت سياستهم منذ بداية دولتهم على يد عبدالرحمن الداخل هي إقصاء العنصر العربي وإضعافه والاعتماد على العناصر الأخرى مثل الصقالبة والموالي وتوليتهم المناصب والقيادات الهامة في الدولة.

ولما تولى الخلافة عبدالرحمن الناصر سلك هذا الطريق وحدث أن هزم هزيمة مروعة في معركة الخندق سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م وكان السبب في ذلك تخاذل الجند العربي الذي فعل ذلك انتقاما من الخليفة لتقريبه الصقالبة وفتيانه عليهم، وفي ذلك يقول مؤلف مجهول (واستمد بغير الكفاة وأغاظ الأحرار في إقامة الأنذال، كنجدة الحيري وأصحابه الأوغاد فقلده عسكره وفوض إليه جليل أموره وألجأ أكابر الأجناد ووجوه القواد والوزراء من العرب

---

(٢٦) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (ص٣٦٤)، صلاح خالص: اشبيليه في القرن الخامس الهجري (ص٢٣).
(٢٧) محمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيليه في عهد دول الطوائف، (ص ١٧٦).
(٢٨) السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق (ص٣٩٤)، ح ٢، وانظر سعد شلبي: البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر (ص٢٦).

وغيرهم إلى الخضوع له والوقوف عند أمره ونهيه)[٢٩].

ولما أتى المنصور بن أبي عامر تابع الأمويين في إقصاء العرب وأقصى معهم الصقالبة ولم يستبق منهم غير عدد قليل، واعتمد بالدرجة الأولى على البربر، حتى إنه استدعى من قبائلهم أعدادا كبيرة فجندهم في دولته وأحلهم محل العرب في المراتب والمناصب[٣٠].

فلم تكد الأحوال تضطرب بعد مقتل عبدالرحمن شنجول حتى ظهرت بوادر الثورة والغضب المكبوتة من هذه القوى الثلاث فزالت دولة بني أمية سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م، وتمكن العنصر العربي من الاستيلاء على معظم مدن الأندلس وقواعدها الكبيرة، في حين نال البربر بعض الإمارات في جنوبي نهر الوادي الكبير، وتمكن الفتيان العامريون من بسط نفوذهم على معظم البلاد الشرقية[٣١].

كما أن من بين عوامل انهيار الخلافة الأموية ما جبل عليه بعض خلفائهم من عنف وشدة في سياسة رعاياهم، فإن هذا الأسلوب الذي سلكه عبدالرحمن الداخل ضد العنصر اليمني دفع زعيمهم أبا الصباح بن يحيى اليحصبي إلى الثورة على الدولة الأموية، ولم تنطفئ تلك الثورة بمقتل ابي الصباح بل زادتها تأججا. فقد ثار من بعده حيوة بن ملامس الحضرمي وعبدالغافر اليحصبي في اشبيليه ولم يستطع عبدالرحمن إخمادها إلا بصعوبة[٣٢] وغير هذه كثير من الامثلة.

وعليه فان سياسة الرفق واللين والحكمة في استخدام القوة هي خير سياسة لدوام الملك واستمالة الرعية واكتساب حبها وثقتها، وقد أشار ابن خلدون إلى أن الملك إذا كان قاهرا متسلطا عم الخوف والفزع رعيته وأدى ذلك

---

(٢٩) أخبار مجموعة (ص ١٠٥).
(٣٠) الأمير عبدالله: التبيان (ص ١٦)، المقري: النفح ج ١، (ص ٣٩٧) وانظر جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج ٢ (ص ٤٩٦)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٢). وانظر كليليا سارنللي: مجاهد العامري، (ص ٣٥).
(٣١) محمد عنان: المرجع السابق (ص ١٢ - ١٣ - ١٤).
(٣٢) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة (ص ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ - ١٠٨)

إلى إضمارهم المكر له والغش في النصيحة فلا يصدقوا في مواطن الشدة معه فتفسد الأحوال وتضطرب الأوضاع، وإذا كان رفيقا عادلا رحيما اكتسب ثقتهم ومودتهم وصفت له سرائرهم فأخلصوا له وصدقوا معه في كل حال(٣٣).

ويمكن أن نضيف إلى تفسير ضعف الدولة الأموية وسقوطها التطور السياسي والاجتماعي للأندلس، فإن خضوع كثير من المدن الأندلسية الكبرى لسيادة قرطبة لم يعد ممكنا بعد أن تطورت الأوضاع الاجتماعية ونشأ فيها كثير من الفئات الارستقراطية المحلية التي تعمقت جذورها في الوسط الاجتماعي لكل من تلك المدن والتي اتسعت بدورها ونمت نموا سريعا بحيث ان السيطرة عليها غدت في حاجة إلى سلطان قوي نافذ وخليفة حازم، ولكن مع الأسف فإن تلك الفترة كانت بأوضاعها المتردية وأحوالها القلقه تهيء تلك المدن والقواعد الأندلسية للون آخر من ألوان السياسة والإدارة، فكان طبيعيا استقلال تلك المدن وإصرارها على إدارة شؤونها بنفسها(٣٤).

وتجدر الاشارة الى أن حكام الأندلس من الأمويين سواء في عصر الإمارة أو الخلافة كانوا يجمعون في أيديهم مقاليد السلطتين الزمنية والروحية، فلما سيطر الحاجب المنصور وأبناؤه من بعده على الدولة انتزعوا السلطة الزمنية لأنفسهم وتركوا للخليفة وظيفته الروحية وجردوه من سلطته السياسية وتصريف أمور الدولة(٣٥) وهو أمر خطير لم يرض كثيرا من الناس وخاصة بني أمية، وكان من الممكن أن تظل الأحوال هادئة لولا أن عبدالرحمن بن المنصور عندما تولى الحجابة بعد أخيه المظفر خطا خطوة متهورة فأقدم على الطلب من الخليفة هشام المؤيد أن يوليه ولاية العهد من بعده. وقد ناقشنا تأثير ذلك على اضطراب الأحوال وتفاقم الفتن والقلاقل التي عصفت بالدولة

---

(٣٣) مقدمة ابن خلدون، (ص ١٨٨ - ١٨٩).
(٣٤) صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري، (ص ٢٣).
(٣٥) انظر، خليل السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (ص ٢١٦ - ٢١٧).

الأموية وكان أول ضحاياها هو الحاجب عبدالرحمن شنجول كما مر معنا في صدر الحديث عن الفتنة وسقوط الخلافة.

ومن بين العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية أن الأندلس في هذه الفترة افتقرت إلى الحاكم القوي المحنك القادر على مواجهة التحديات والأزمات بتحدٍ أكبر وأكثر عنفواناً، ففي الفترة التي أعقبت الفتنة تولى الخلافة فيها رجال افتقروا إلى سياسة وحنكة واقتدار وحزم رجال أمثال عبدالرحمن الداخل والحكم الربضي والخليفة الناصر(٣٦).

وكان للمنازعات والقلاقل التي ألمت بالخلافة الأموية في أواخر أيامها واستعانة بعض الخلفاء كالمستعين بسانشوغرسيه ملك قشتاله لقتال ابن عمه الخليفة المهدي الذي بدوره طلب العون من أمير برشلونة الكونت رامون أثرها السيء في انهيار الدولة ولم تكن هذه المساعدات النصرانية تصل إلى طالبها من أمراء وخلفاء بني أمية الضعفاء إلا بعد التنازل عن كثير من الأراضي والقلاع التي بذل المسلمون في افتتاحها أرواحهم وأموالهم، وقد أشرنا سابقاً إلى هذه الظاهرة المؤسفة عند الحديث عن الفتنة.

وأضاف محمد عبدالوهاب خلافَ ماسبق، توليةَ هشام المؤيد ولاية العهد وهو طفل مع وجود رجال قديرين ومؤهلين في البيت الأموي، وكذلك سياسة المنصور في القضاء على البيوتات الأندلسية المرتبطة بالبيت الأموي وكانت بمثابة أركان للبيت الأموي، إضافة إلى التغير السكاني الذي حدث نتيجة الاعتماد على العنصر البربري وكره أهل قرطبة للعامريين وتسلطهم(٣٧).

ومن بين التفسيرات لسقوط الخلافة الأموية ضعف اعتقاد المسلمين في الأندلس بصحة خلافة بني أمية، بعكس العباسيين الذين هم أرسخ قدما في الخلافة لقرابتهم من رسول الله ﷺ. وهذا التفسير قال به جورجي زيدان(٣٨)، ومع تقديرنا لرأيه إلا أنه جانب الصواب في شيء منه على الأقل؛

---

(٣٦) السامرائي: المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٣٧) رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس، بحث منشور بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس، ج ٢، ربيع الثاني ١٤٠٢هـ، (ص ٢٥) وما بعدها.

(٣٨) تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٢ (ص ٤٩٦).

فإن بني أمية وبني العباس يعودون جميعا إلى قريش، والمسلمون يعلمون أن الخلافة في قريش سواء كانت لهذا أم ذاك من تلك القبيلة، ولكن ما حدث في الأندلس يخالف ماقاله ذلك الكاتب، فالقرطبيون بذلوا محاولات كثيرة ومتكررة لإعادة الأمر لبني أمية، لكن الأمر لم يستقم لمن كانوا يبايعونه من الخلفاء، فقد كانوا ضعافا غير محنكين لم تتوافر فيه أصول القيادة وشروطها، وهـو مازاد النار اشتعالا وعمق الصراع السياسي والاجتماعي في الأندلس لينتهي الحال بإقصاء بني أمية عن سدة الأمر لتفادي الفتن والقلاقل وأوكل الأمر لبني جهور الذين أسس زعيمهم أبوالحزم حكومة تشبه في نظامها نظام مجلس الشورى لتستقر في عهده الأوضاع ويتنفس الناس الصعداء باختفاء تلك الفتنة المدلهمة، وهكذا نلمس أن سقوط العنصر الأموي لم يكن عن ضعف اعتقاد بصحة خلافتهم، وإنما الأمر عائد إلى مجموعة من العوامل أشرنا اليها آنفا.

(٢) أثر الفتنة في الحركة الفكرية

يدرك من يطالع بإمعان تاريخ هذه الفترة العصيبة أن المجتمع الأندلسي قد أصيب إصابة بالغة في وحدته وتماسكه، وأن الكثير من أبنائه بل الآلاف منهم التهمته نار هذه الفتنة وقضت عليه سواء كان من مباشريها أو ممن ناله شرارها الطائش، وقد أحسن ابن بسام بقوله في أهل قرطبة وما حولها ممن عانى نار هذه الفتنة وآذاه قتامها (اصبحوا طرائد سيوف وجلاء حتوف، وقد خلعهم لين العيش على خَشِنِه وأسلمتهم غفلات الزمان إلى محنه، يلوذون بآفاق هذه الجزيرة المنكوبة، لواذ الماء بإقطار الزجاجة المصبوبة فكانوا كما وصف الملك الضليل:

فريقــان منهــم جــازع بطــن نخلــة وآخر منهم قاطع نجد كبكـب[٣٩]

وفي هذا الوضع تميزت فئتان عن الجميع، فئة تمثل بعض الفقهاء ممن كانوا يتزلفون إلى ذوي الشأن، فيقدمون لكل حادثة فتوى، وينسجون الذرائع في سبيل رضا من يتقربون إليهم من الحكام. والفئة الاخرى هم الشعراء الذين لم يكن لهم من التطلعات إلا الحصول على دراهم معدودة أو صلة مجزية بغض النظر عن مراعاة القيم والمبادئ، فتحول الفن الجميل بسلوكهم هذا إلى تجارة وتكسب شأنهم شأن صنوف التجار من عطارين وبزازين وغيرهم، وفي وضع كهذا اعتزل الغيورون على دينهم وقيمهم، وصنف منهم اقتحم ذلك الخضم وصاح فيه بكلمة الحق فكان جزاؤه السجن أو الموت، وهناك من ارتضى منهم الفرار بجلده عن حمأة الفتنة وآثامها إلى المدن الأخرى[٤٠].

---

(٣٩) الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٩ ـ ١٠)
(٤٠) الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٥٨ ـ ٥٩)، وانظر حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات بمدريد ج ٩ ـ ١٠ (ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٦١ ـ ١٦٢)

ولعل أقسى ما لحق ذوي العلم والمعرفة من وراء هذه الأحداث المؤلمة هو الهلاك والقتل، فقد قتل مئات من العلماء والأدباء وخسر العلم بهلاكهم اتباعا مخلصين، ومن بين هؤلاء ما أشار اليه ابن حيان من انه هلك في وقعة قنتيش من المؤدبين أكثر من ستين مؤدبا، مما حرم تلاميذهم من مواصلة تعليمهم أو تعطيلهم لفترة طويلة[41].

وفي تلك الوقعة ايضا (ذهب فيها من الخيار وأئمة المساجد والمؤذنين خلق عظيم)[42].

ونعثر على اسم العلامة الفقيه المحدث ابي الوليد عبدالله بن محمد بن الفرضي بين أسماء الشهداء من العلماء آنذاك، وابن الفرضي هو صاحب كتاب «تاريخ علماء الاندلس» وكان من ضحايا الهجوم البربري الذي تعرضت له قرطبة سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م. ومن الطريف أن نشير إلى أنه قد حدث عن نفسه بأنه تعلق بأستار الكعبة وسأل الله الشهادة ثم داخله فزع من القتل فهم بأن يستقيل ربه عن ذلك الدعاء ويدعوه الأمان لنفسه إلا أنّه استحى ولم يرجع في ذلك. يقول ابومحمد بن حزم (اخبرني من رآه بين القتلى، ودنا منه فسمعه يقول بصوت ضعيف وهو في آخر رمق لا يكلم أحداً في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، وكأنه يعيد على نفسه الحديث الوارد في ذلك. قال، ثم قضى نحبه على اثر ذلك)[43].

وفي وقعة قنتيش فُقد العلامة محمد بن عبدالسلام التدميري الذي وصفه ابن حيان بالورع والعبادة والتفنن في العلوم والآداب[44].

وفي معركة عقبة البقر شوال ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م استشهد الفقيه القاضي محمد بن عيسى المعروف بابن البربلي من أهل تطيله، وكان قاضيها وعرف عنه العلم والصلاح والشجاعة، وكان يرى باجتهاده أن ينضمّ إلى أتباع المهدي

---

(٤١) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٣ - ٤٤).
(٤٢) الحميدي: جلوة المقتبس (ص ١٨).
(٤٣) الحميدي: الجلوة (ص ٢٥٤ - ٢٥٥)، الضبي: البغية (ص ٣٣٤ - ٣٣٥).
(٤٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٨٨).

محمد بن هشام فلقي حتفه في تلك المعركة التي انكسر فيها المهدي[٤٥].

وانضم إلى قافلة شهداء تلك الفتنة الأديب محمد بن أحمد بن يحيى المعروف بابن الفضال القرطبي، وكان موصوفاً بالنباهة والذكاء، ولقي مصرعه في عقبة البقر ايضا[٤٦].

وكان لكثير من هؤلاء العلماء مواقف واضحة ومحددة من تلك الأحداث وكانوا يرون من خلال الأوضاع وسير الأحداث وحسب ما يملي على أحدهم اجتهاده أن يتخذ له موقعا يشارك به في معالجة الأمر وإصلاحه بحسب فهمه ونظره لذلك، ومن هؤلاء غير ما تقدم الفقيه محمد بن سعيدالله السري الذي رأى ان البربر هم عنصر الفتنة ووقودها، ولذا فانه عند اقتحام هؤلاء مدينة قرطبة كان ابن السري شاهرا سيفه ومستقبلا لهم وهو يقول: إليّ إليّ يا حطب النار، طوبى لي إن كنت من قتلاكم، حتى قتلوه يوم الاثنين السادس من شوال سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م[٤٧].

ولم يميز البربر في هجومهم على قرطبة بين رجال ونساء وأطفال وعجزة، بل كانوا يقتحمون المنازل ويهاجمون قاطنيها بغير تمييز. ومن المؤسف أن نجد من بين تلك المنازل منزل العلامة الفقيه المحدث محمد بن قاسم بن محمد الاموي القرطبي الذي وصفه ابن بشكوال فقال (كان حافظا للفقه، ذاكرا للأخبار والشواهد، بصيرا بالعقود والوثائق، وكان حليما أديبا، ظريفا جميل المشاركة لأخوانه، حسن الأخلاق سمحا، قضّاءً للحوائج)[٤٨].

وعندما هاجم البربر داره وقف مناضلا مستبسلا يذود عن أهله وولده حتى قتل بداخل منزله، وكان ذلك يوم الاثنين ٦ شوال سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م[٤٩].

---

(٤٥) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٤٨٨)، وتطيلة مدينة في الشمال الغربي لسرقسطة بينها ٧٨ كلم. انظر الحميري: الروض المعطار (ص١٣٣). وعقبة البقر: موضع يبعد نحو عشرين كيلو مترا شمال قرطبة انظر: المعجب للمراكشي (ص٦٦) محمد عنان، دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية) (ص٦٤٨).

(٤٦) ابن بشكوال: نفس المصدر والجزء (ص ٤٨٩).

(٤٧) ابن بشكوال: ج ٢ (ص ٤٨٩ - ٤٩٠).

(٤٨) الصلة، ج ٢ (ص ٤٩١).

(٤٩) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٤٩١).

ولـو أننـا تتبعنـا من استشهـد في أحداث الفتنة من العلماء لطال بنا الحديث، ولكن ما أشرنا إليه فيه كفاية ودلالة واضحة وعميقة على مدى عمق المأساة التي حلت بعلماء قرطبة ومدى ما تمخضت عنه تلك الفتنة من ويلات وكوارث، وفيه أيضاً دلالة على أن كثيرا من العلماء كان لهم مشاركة في تلك الأحداث، وكانت تلك المشاركة وليدة اجتهاد ومبدأ اعتنقه هذا العالم أو ذاك معتقداً صحة رأيه وفهمه مجتهدا في ذلك، وهؤلاء العلماء كان سلوكهم سلوكا إيجابيا بعكس من شارك في تلك الفتنة من ذوي المطامع والمتكسبين بدماء الناس، وعليه فإن تلك الفئة من العلماء أسهمت في صنع بعض الأحداث وآثرت المشاركة فيها. وهناك فئة من العلماء ارتضت العزلة والابتعاد عن خضم الأحداث حتى إذا سكنت الأوضاع عادت إلى الظهور. وأخـيراً فهناك فئة كبيرة رأت من الأفضل والأسلم أن تغادر هذه المدينة المنكوبة إلى غيرها من مدن الأندلس الأخرى ليتسنى لها مواصلة مشوارها العلمي وحياتها الفكرية، وهؤلاء الذين غادروا قرطبة لعبوا دورا جيدا في نهضة العلوم والآداب في مراكز العلم المختلفة في عصر ملوك الطوائف، فخروجهم هذا يعد ظاهرة إيجابية بالنسبة لتلك المدن، فقد كانوا مشاعل علم أضاءت تلك المناطق والأصقاع التي حلوا بها فأفادوا أهلها وبثوا بينهم معارفهم وعلومهم المختلفة، ووجد فيهم ملوك الطوائف مفاخر ومناقِبَ سامية لممالكهم فأكرموا نزلهم وأغدقوا عليهم الصلات حثا لهم على العلم والتعليم، ومنحوهم كافة التسهيلات التي كفلت لهم الانصراف للعلم والبحث في وجوه المعرفة المختلفة، فازدهرت إثر ذلك الحركة العلمية وآتت أُكُلها وكان لها شأن عظيم.

وكان أبوعامر بن شهيد (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م) ممن قاسى أهوال الفتنة وعركته رحاها بثفالها، ولكنه رغم ذلك لم يهن عليه مفارقة قرطبة، بل بقي حبيس ترابها مشاهدا لأحداثها معاينا لأحوالها في تلك الفترة فرأى ما حل بها من خراب وتدمير ونهب وقتل، وما أدى إليه ذلك من هجرة أصحابه وإخوانه عن قرطبة فنعاها في شعره وبكى ماضيها التليد فقال:

ما في الطلول من الأحبة مخبر فمن الذي عن حالها نستخبر
لا تسألن سوى الفراق فإنه ينبيك عنهم أنجدوا ام أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم وعليهم فتغيرت وتغيروا
فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي بعين دمعها يتفجر

إلى قوله:

حزني على سرواتها ورواتها وثقاتها وحماتها يتكرر
نفسي على آلائها وصفاتها وبهائها وسنائها تتحسر
كبدي على علمائها، حكمائها أدبائها، ظرفائها تتفطر[٥٠]

وتمدنا كتب التراجم والتاريخ بأسماء كثيرة لعلماء وأدباء هجروا قرطبة إلى غيرها من المدن والقواعد الأندلسية الأخرى طلبا للأمان والسلامة، ولينصرفوا إلى واجبهم الحضاري الفعال في تنوير العقول وتعليم الناس ونشر المعرفة بينهم. من هؤلاء العلامة الفقيه المشهور أبومحمد علي بن حزم الذي غادر قرطبة مسقط رأسه بعد الهجوم البربري عليها والذي امتد ليشمل بيوت آل حزم القاطنين في بلاط مغيث ـ وقد لحقهم من وراء ذلك أذى وضرر شديدان ـ فأسرع ابن حزم إلى شد رحاله عن المدينة سنة ٤٠٤هـ/١٠١٣م حيث اتجه إلى المرية فأقام بها فترة من الزمان كان خلالها يتابع أخبار مدينته المنكوبة ويسائل من مر بها عن مستجدات الأمور وما من شك أن ماضي بني أمية وأمجادهم الغابرة وما حل بهم بعد ذلك كان يثير فيه الحزن ويبعث في نفسه الأسى، فقد كان هو وآباؤه من مواليهم وتولوا في حكوماتهم المتعاقبة مناصب رفيعة، بل إن ابن حزم نفسه تولى الوزارة للمستظهر السابق الذكر، ولعل اهتمامه ببني أمية ومناصرته لهم بلسانه وقلبه منحت خصومه فرصة للنيل منه فاتهموه بالدعوة للأمويين وإعادة الخلافة إليهم، فسجنه خيران أمير المرية

---

(٥٠) الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٤١ - ٢٤٢).

شهورا ثم أطلق سراحه فاتجه إلى اشبيلية ليغادرها بعد شهور إلى بلنسيه عندما ظهر بها الخليفة المرتضى[٥١].

ومع ان ابن حزم نفى عن نفسه تهمة الدعوة لبني أمية وأنها ليست إلا إفرازا ولده حقد خصومه فإننا لا يمكن أن نصدقه تماما، فقد كان شديد المناصرة لبني أمية طامحا إلى عودة الأمر إليهم وانه فعل شيئا من ذلك ودعا إليه. وأوضح دليل على ذلك هو انطلاقه بعد إقامته في اشبيلية بضعة شهور إلى بلنسيه لا لشيء وإنما ليكون بجوار الخليفة المرتضى مشيرا وناصحا له. بل إننا نجد ابن حزم يتولى الوزارة لعدد من الخلفاء بعد ذلك ومنهم الخليفة المستظهر والخليفة المعتد آخر خليفة أموي[٥٢]. وهذا دليل على الرغبة العميقة المتأصلة في نفس ابن حزم في بقاء بني أميه على سدة الخلافة وتعصبه لهم وسعيه لتمكينهم.

ومن بين العلماء المهاجرين عن قرطبة العلامة هشام بن غالب بن هشام الغافقي القرطبي (ت ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م). وكان من أهل العلم والتفنن في المعارف المختلفة، ميالا في الفقه إلى المذهب الظاهري، وعرف بحسن المحاضرة وظرافة المجلس، ولما وقعت الفتنة خرج إلى غرناطة ثم انتقل منها إلى اشبيلية، وفيها أمضى بقية عمره مشتغلاً بالعلم منصرفا إليه[٥٣].

كما أن العلامة أبا الحسن علي بن الخلف بن بطال البكري (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) شهد احداث تلك الفتنة وخشي على نفسه وأهله فرحل إلى بلنسيه، وكان متمكنا من علم الحديث حافظا له فصنف فيه كتابا في شرح صحيح البخاري. هذا إلى جانب براعته في الفقه حتى إنه تولى قضاء لورقه[٥٤].

---

(٥١) ابن حزم: طوق الحمامة (ص١١٧ - ١١٨)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص٢٣٩ - ٢٤٠)، وانظر رسائل ابن حزم الأندلسي تحقيق إحسان عباس ج٢، (ص٢٤) وما بعدها، عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري (ص٦٩ - ٧٠)، عبداللطيف شرارة: ابن حزم رائد الفكر العلمي (ص٤٠ - ٤١).

(٥٢) عبداللطيف شرارة: ابن حزم، رائد الفكر العلمي (ص٤٤ - ٤٦).

(٥٣) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٦٥٢).

(٥٤) ابن فرحون: الديباج المذهب (ص ٢٠٤)، ولورقة من أعمال مرسيه بشرق الأندلس. الحميري: الروض (ص٥١٢).

وخرج العلامة أحمد بن يحيى بن أحمد بن سميق (ت ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م) عن قرطبة آنذاك وقصد طليطلة حيث تولى القضاء بطلبيره وسار في الناس سيرة عادلة حسنة، وكان موصوفا بالعلم والمشاركة في علوم مختلفة في الحديث والفقه والأدب والطب، هذا إلى جانب ما كان عليه من صلاح وتقوى وورع[٥٥]. ولعل ما كان عليه من صفات أخلاقية تفسر لنا سبب خروجه عن قرطبة ومفارقته لأحداثها المؤلمة ومحاولته عدم الانغماس في فتنها. فقد كان ينزع نحو العزلة والابتعاد عن مخالطة الناس ومداخلتهم[٥٦].

وكان ابن سميق فوق هذا حريصا على تجنب ما قد يكون من حرام أو شبهات في العطاء والمال والرزق حتى أنه اشترى بستانا له يختلف إليه بين آونة وأخرى ليعمل به ويأكل من محصوله[٥٧].

ولجأ العلامة عبدالعزيز اللخمي الاشبيلي إلى الفرار عن قرطبة وما حل بها من فتن، حيث انزوى في ضيعة له بمدينة شذونة، وكان يتولى على تلك النواحي أحد أمراء البربر، الذي عرف قدر هذا العالم فقربه إليه وأكرم نزله. وفي بلاط هذه الإمارة نشأ ابنه الأديب ابومروان عبدالملك، الذي كان له شأن في بلاط قرطبة لدى حاكمها الفتح بن المعتمد[٥٨].

ويشير ابن حيان إلى أحد أصحابه من العلماء وهو الكاتب أبوأمية بن هاشم القرطبي في معرض حديثه عن مرور شانجة بن غرسيه ملك قشتاله بتطيله ايام منذربن يحيى أمير سرقسطة. وقد أشار ابن حيان إلى أن أبا أمية خرج عن قرطبة أيام الفتنة واستوطن تطيله وأنه كان من ذوي النباهة والفضل[٥٩].

وإلى جانب هجرة العلماء عن قرطبة وما كان لذلك من آثار إيجابية في

---

(٥٥) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص٥٦ ـ ٥٧)، وطلبيرة إلى الشمال من طليطلة بينهما سبعون ميلا. الحميري: الروض (ص٣٩٥).

(٥٦) ابن بشكوال: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥٧) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٥٨).

(٥٨) ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ٢ (ص ٥٢٣) وما بعدها.

(٥٩) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ١٨٣).

سير الحركة العلمية واتساع نشاطها وامتداد تأثيرها إلى مناطق بعيدة جدا عن مركز الخلافة ومترامية الأطراف في أنحاء الأندلس المختلفة، نجد بعد ذلك بعداً آخر كان له أعمق الأثر في انتشار المعرفة ووصولها إلى أنحاء الأندلس. وهذا البعد العميق الأثر يتمثل في تفرق كثير من الكتب بين الناس حتى قال القاضي صاعد في: ذلك (واضطرتهم الفتنة - أي أهل قرطبة - إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب، وسائر المتاع. فبيع ذلك بأوكس ثمن وأتفه قيمة وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس)[٦٠].

وهذه الكتب القيمة هي كتب خلفاء بني أمية، ولكن اكثرها كان للخليفة الحكم المستنصر وهو الخليفة العالم المغرم بالمعرفة العاشق للكتب ونفائسها حتى وصف بأنه لم يسمع في تاريخ الاسلام بخليفة ساواه في اقتناء الكتب وجمعها وإيثارها على ماسواها[٦١].

وبالإضافة إلى مكتبة الحكم التي نهبت كان هناك مكتبات كثيرة لعدد من الوزراء والعلماء والوجهاء ومنهم الوزير العالم أبو المطرف عبدالرحمن بن فطيس الذي بيعت كتبه في الفتنة في مدة عام كامل بما قيمته أربعون الف دينار قاسمية[٦٢].

ويذكر قبل ذلك عن العلامة الحافظ عمر بن عبدالله الذهلي الزهراوي (ت ٤٥٤هـ) الذي عزم إبان الفتنة على مغادرة مدينته المنكوبة فشد ثمانية أحمال من كتبه بقصد السفر فلم يتم له ذلك إذْ هاجمه البربر ونهبوها[٦٣].

---

(٦٠) طبقات الأمم (ص ٨٩ - ٩٠)، وانظر عن ذلك خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٢١٥). وكليكيلسارتللي: مجاهد العامري، (ص ٤٤).

(٦١) ابن الأبار: الحلة السيراء ج ١ (ص ٢٠١) وعن كثرة ما حوته مكتبته من الكتب وتعداد ذلك انظر ابن حزم: جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠) وابن خلدون: العبر ج ٤ (ص ١٤٦). والمقري: النفح ج ١ (ص ٣٨٧ - ٣٩٥).

(٦٢) ابن بشكوال: الصلة ج ١ (ص ٣١٠).
والدينار القاسمي نسبة إلى الإمام القاسم بن حمود العلوي الذي حكم قرطبة من سنة ٤٠٨هـ الى سنة ٤١٢هـ (١٠٧/١٠٢١م)، خلال الفتنة. الحميدي: الجذوة (ص ٢٢) وانظر ايضا:
LAVOIX: Catalogue Des Monnaies Musulmanes "Espange Et Afrique" V.D, P. 110 - 114

(٦٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج ٢ (ص ١١٢٧ - ١١٢٨)، وانظر عن هذه الظاهرة، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين (ص ٥٦)، خوليان ريبيرا: المرجع السابق (ص ١٥٦)، سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (ص ٨٧ - ٨٨ - ٨٩) (رسالة ماجستير لم تنشر).

وندرك مما تقدم، وهي أمثلة للتوضيح فقط لا للحصر، كثرة ماتبدد وتفرق من الكتب في أيدي النـاس الذين نقلوها بدورهم في مختلف الأصقاع، وكانت بانتشارها ذلك أشبه ما تكون بانتشار أشعة الشمس في كل كورة ومدينة وبلدة مما كان له أعمق الأثر في نشرالمعارف والعلوم وتيسير الاطلاع على مصادرها، وهي التي كانت حبيسة دار الخليفة أو الوزير وغيرهم من القادرين على اقتناء تلك المقادير الضخمة من المصنفات، وهذه بلا شك ظاهرة مفيدة على الأقل فيما يختص بالحركة العلمية واتساع إطار النشاط العلمي وامتداده إلى خارج مركز الخلافة وعاصمة الدولة الغابرة. وما من شك أنها رسخت في نفوس الراغبين في المعرفة الاهتمام والعناية بتلك الكتب سواء في صورة المتاجرة بها وصيانتها بما يدخل في علم الوراقة أو في الاهتمام بمحتوياتها كما هو الحال عند العلماء وطلبة العلم.

وأخـيرا فهنـاك أيضـا مظهر إيجابي نجم عن الفتنة وهو ان الدراسات الفلسفية التي كانت محظورة في عهد المنصوربن ابي عامر، وكان ذلك رغبة منه في إظهار نفسه حامياً للشريعة والسنة من مثل هذه الدراسات، ومن جهة اخرى تقبيحا لسيرة سلفه الخليفة الحكم الذي كان شغوفا بمثل تلك الدراسات والعلوم، ولهذا فقد سكن نشاط المهتمين بتلك العلوم وتكتموا على ما يعرفونه عنها في عصره. نلمس بعد ذلك أنه ما كادت الفتنة تطل برأسها لينشغل بها الخلفاء فيما بينهم حتى خلا الجو لعلماء الفلسفة والمنطق والمهتمين بها فانصرفوا لدراستها وتمكنوا من الحصول على كثير من كتبها فيما بيع ونُهب من الكتب مما نجا من أيدي المنصور ورجاله أثناء محاولته إحراقها والقضاء عليهـا في أول حكمـه، وأظهـر الناس ما كان لديهم من كتب الفلسفة والمنطق[٦٤]وهو أمر بلا شك أسهم في ازدهار الدراسات الفلسفية في عصر ملوك الطوائف.

---

(٦٤) صاعد: طبقات الأمم (ص ٨٩ - ٩٠).

(٣) زوال وحدة الأندلس وقيام ممالك الطوائف

رأينا سابقا تدهور الأوضاع السياسية للدولة الأموية بعد مقتل عبدالرحمن شنجول وكيف انتهت تلك الأحداث بزوال الخلافة الاموية على عهد آخر خلفائها وهو المعتد بالله سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م.

وجدير بالذكر أن نشير إلى ان وحدة الأندلس السياسية قد تفككت قبل ذلك التاريخ وأن ملوك الطوائف أو بعضهم ظهر قبل ذلك بسنوات عديدة. ومن المؤلم تصورنا ذلك الصرح الشامخ الذي بناه رجال أحكموا بناءه أمثال عبدالرحمن الداخل والأوسط والثالث والمنصوربن أبي عامر ولكنه خلال بضع سنوات ينهار بشكلٍ تعاقبت فيه الأحداث وتتالت فيه الخطوب استجابة لسنة الحياة كما قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾[٦٥]. وهذه السنة الإلهية تمثلت في حال تلك الدولة التي كانت ترهب جيرانها وتفرض على ملوك النصارى هيبتها واحترامها ولكن قوتها وعزتها أخذت في التلاشي والضعف فدخلتها عوامل الانحلال والتفكك، وافتقدت الرجل السياسي الماهر المحنك، ولم يتم القرن الرابع الهجريّ حتى كانت تخوض غمرات الفتن وتدخل مرحلة الاحتضار الذي أعقبه الفناء، وغدت الأندلس بعد ذلك غنيمة ونهبا للطامعين، الذين قطّعوا جسدها اشلاء ممزقة تنبئ بسوء الطالع وظلام العاقبة وسوء المصير، وأضحت الأندلس بعد ذلك دويلات وإمارات صغيرة، وادعى كل حاكم من هؤلاء المتنزين أنه ملك مقتدر، بل إنهم جميعا تلقبوا بألقاب تدل على سعة الملك وعظيم الشأن، وهي لا تنم حقيقة عن حالهم وسلطانهم الحقيقي، وقد قال ابن رشيق يصف حالهم بقوله:

---

(٦٥) آل عمران آية (١٤٠).

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد[٦٦]

ولعل أوضح صورة لحال الأندلس بعد الفتنة وظهور ملوك الطوائف ما سطره المؤرخ الكبير ابن الخطيب حيث قال:

(وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة أرث، ولا في الإمارة سبب، ولا في الفروسية نسب، ولا في شروط الإمامة مكتسب، اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب الاعلام، وأنشدهم الشعراء ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين مجبوب وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب، فامنهم من يرضى ان يسمى ثائرا ولا لحزب الحق مغايرا، وقصارى أحدهم يقول «أقيم على ما بيدي» حتى يتعين من يستحق الخروج به اليه، ولو جاء عمربن عبدالعزيز لم يقبل عليه ولا لقي خيراً لديه، و لكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعمارا، وخلفوا آثارا وإن كانوا لم يبالوا اغترارا)[٦٧].

ولابن حزم الفقيه الظاهري رأي في ملوك الطوائف وحال الأندلس في عهدهم فهو يقول: .(فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، كلهم يتسمى بأمير المؤمنين، ويخطب لهم بها في زمن واحد وهم خلف الحصري باشبيلية على أنه هشام بن الحكم ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن

---

(٦٦) المراكشي: المعجب (ص ١٠٥)، وانظر ايضا: المواعيني: ريحان الألباب (مخطوط) ورقة ١٣٩ ب)، وكذلك ابن خلدون: المقدمة (ص ٢٢٩)، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٢-٣٣٣).

(٦٧) ابن الخطيب: أعمال الإعلام (ص ١٤٤).

حمود بمالقه، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببشتر[٦٨].

وهكذا نلحظ أن عصر ملوك الطوائف كان الوارث لتركة الخلافة، وما كانت تضمه من أمجاد وانحطاط على حد سواء، وأن خيرات ذلك العهد الغابر قد توزعته طوائف وفئات مختلفة الأعراق جنساً ودينا، فقد تفرقت دولة الأندلس أيدي سبأ، وقام على أنقاضها زعامات متعددة ومختلفة فيما بينها وهو ما فصم الوحدة السياسية التي كانت تربط بين أقطار الأندلس وأطرافه، وفي ظل هذه الأوضاع ظهر اليهود على المسرح السياسي، وخاصة في مملكة غرناطة، وتمكن النصارى من فرض الجزية على ملوك الأندلس، الذين خنعوا في ذل لهم ودفعوا لهم الجزية وفقدوا بذلك عزتهم ومنعتهم[٦٩].

ويلاحظ الناظر إلى الخريطة السياسية للأندلس عقب سقوط الخلافة انقسامها إلى ست مناطق رئيسية: الأولى منطقة العاصمة قرطبة وما حولها من المدن والبلاد الوسطى، والثانية منطقة طليطلة، والثالثة اشبيلية وغربي الاندلس وما حولها من البلاد إلى المحيط الأطلسي، والرابعة غرناطة وريه والفرنتيرة، والخامسة منطقة شرقي الأندلس بما فيها بلنسيه وما يحيط بها شمالا وجنوبا، والسادسة منطقة سرقسطه والثغر الأعلى، هذا إلى ما هنالك من المدن الأخرى التي استقلت بنفسها كإمارات صغيرة ثم زالت بضمها وإخضاعها لإمارات وممالك أقوى منها[٧٠].

وقد كان لاختلاف عناصر المجتمع الأندلسي، وتعدد طوائفه من عرب وبربر وصقالبة وغير ذلك، كان لذلك أثره في اختلاف أجناس القيادات السياسية من مملكة لأخرى، ويمكن على هذا أن نقسم أولئك الملوك أو الأمراء إلى أربع فئات: أولها: فئة العرب. ثانيها: فئة البربر. ثالثها: فئة الفتيان العامريين. رابعها: موالي الأمويين.

---

(٦٨) رسائل ابن حزم: تحقيق إحسان عباس ج ٢ (ص ٩٧).
(٦٩) المقري: النفح ج ١ (ص ٤٣٨)، الطاهر احمد: دراسات أندلسية (ص ٢٥١)، صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص٢٣ ـ ٢٤).
(٧٠) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٧).

اولا : العــــرب.

(١) بنو عباد اللخميون في اشبيلية وما انضم إليها من شرقي الوادي الكبير حتى المحيط الأطلسي غربا، ومؤسس دولتهم القاضي محمد بن إسماعيل ابن عباد اللخمي[٧١]. وهو من قدمه أهل اشبيلية مع صاحبيه للنظر في تدبير شؤون مدينتهم لما ضاقوا بحكم العلويين وأوصدوا في وجه القاسم بن حمود باب مدينتهم، ولم يلبث ابن عباد أن انفرد بالأمر واستبد بالسياسة في اشبيلية[٧٢].

جدّ محمد بن إسماعيل في بناء قواعد دولته وتقوية كيانها وتوسيع حدودها على حساب جيرانه من بني حمود، وفقد في حروبه هذه ابنه إسماعيل كما أنه قاتل بني الأفطس وكان النصر فيها سجالا بينه وبين خصومه[٧٣].

وخلف محمد بن إسماعيل ابنه عباد الملقب بالمعتضد سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م، وعرف عنه شدة البأس والسطوة وجرأته في سفك الدماء حتى وصفه ابن حيان بقوله (أسد الملوك، وشهاب الفتنة، وراحض العار، ومدرك الأوتار، وذو الأنباء البديعة، والحوادث الشنيعة، والوقائع المبيرة، والهمم العلية والسطوة الابية)[٧٤].

وجريا على سنة الصراع بين ملوك ذلك العصر فقد انخرط المعتضد في سلكهم واقتفى أثرهم فقاتل ابن الأفطس الذي سارع لإعانة

---

(٧١) انظر في أصل بني عباد ومبدأ أمرهم وتفصيل سيرهم، ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ١ (ص ١٤)، وما بعدها، ابن خاقان: المطمح (ص ١٦٩ - ١٧٠) وما بعدها، المواعيني: ريحان الألباب (مخطوط) (ورقة ١٣٩ ب، ورقة ١٤٠ أ)، ابن الأبار: الحلة ج ٢ (ص ٣٤) وما بعدها، المراكشي: المعجب (ص ١٣٨)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٩٤) وما بعدها، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٥ (ص ١٥٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٣١) وما بعدها، صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١١٨)، محمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية (ص ٤٤) وما بعدها.

(٧٢) الحميدي: الجذوة (ص ٢٣ - ٢٤)، ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ١، (ص ١٦)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٩٦)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٣٤).

(٧٣) المراكشي: المعجب (ص ١٤٠ - ١٤١)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٣٥ - ٣٦).

(٧٤) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٣٤)، وانظر وصفا لسيرته لدى المواعيني ريحان الألباب (مخطوط) ورقة ١٣٩ ب.

أحمد بن يحيى صاحب لبله (إلى الغرب من اشبيليه) عندما هاجمته قوات المعتضد ودارت بين الطرفين معركة انكسر فيها ابن الأفطس أولا ثم عاود الهجوم على قوات خصمه واستطاع ان ينزل بها الهزيمة(٧٥).

وسوف نشير إلى شيء من هذه الأحداث عند ذكر مملكة بطليوس. ولم يتوقف الصراع العسكري بين تلك المملكتين إلا بعد أن عقد بينهما صلح بمساعي أبي الوليد بن جهور سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م(٧٦).

وكان السلام الذي بسط ظلاله بين بني عباد وبني الأفطس دافعا قويا إلى انصراف المعتضد نحو مطامعه وصراعه مع القوى والإمارات الأخرى فسقطت في يده لبله ولبه وشلطيش وشلب وشنتمرية الغرب والجزيرة الخضراء والتي أخذها بعد حصاره للقاسم بن محمد سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م.

فأما لبله فقد حاصرها وأخذ في تحطيم مزارعها حتى نزل له أميرها ناصرالدولة فتح بن خلف وسلمه إياها سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م، واما ولبه فقد تمكن من اسقاط حاكمها عبدالعزيز البكري الذي سلمه اياها على أن يكون أميرا على جزيرة شلطيش ووافق المعتضد على ذلك إلا أنه ما لبث أن ضايقه وحاصره في جزيرته حتى سلمها هي أيضا، وكان مصير شلب أيضا كسابقاتها من المدن فقد استمر المعتضد في مهاجتها وقطع المؤنة عنها حتى اقتحمها سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م وكان يحكمها آنذاك عيسى بن محمد من بني مزين ومن قبل ذلك اسقط حاكم شنتمرية الغرب سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م(٧٧).

واصطدم المعتضد بخصومه من البربر وخاصة بني برزال الحاكمين بقرمونه - إلى الشرق من اشبيليه - ولم يزل يقاتلهم ويفنى ارزاقهم

---

(٧٥) ابن بسام: المصدر السابق، ق٢، ج ١ (ص ٣٣ - ٣٤)، ابن عذاري البيان ج٣ (ص ٢١٠ - ٢١١).
(٧٦) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤١ - ٤٢).
(٧٧) ابن عذاري: البيان ج٢، (ص ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٢ - ٢٤٣)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤٢ - ٤٣ - ٤٤)، وكل هذه الإمارات إلى الغرب من مملكة اشبيلية ماعدا الجزيرة الخضراء فهي إلى الجنوب منها.

ومحاصيلهم حتى استسلم حاكمها عزيز بن محمد الزناتي سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[٧٨].

وتمكن المعتضد من إسقاط إمارات البربر في رنده ومورو وشذونه واركش[٧٩]، وبلغ من سطوة المعتضد وجرأته في اجتثاث السيادة البربرية من حوله أن قال فيه الشاطبي: (ولما كثر البربر بالأندلس أرسل الله عليهم المعتضد بن عباد فأفناهم بالسيف)[٨٠].

وهكذا يبدو لنا أن الفترة التي قضاها المعتضد في حكمه كانت فترة صراع عسكري وتطاحن مستمر مع جيرانه، وقد استطاع من خلال ذلك أن يوسع مملكته ويقضي على كثير من الزعامات التي كانت تهدده وتسعى للنيل منه في شكل تحالفات مع الممالك الأخرى، ورغم هذه الحروب الطويلة والاستبسال في قتال الخصوم وتحطيم عروشهم إلا أننا نقف على حقيقة مؤلمة وهي أن هذا الملك القوي على إخوانه في الدين كان يبدو ضعيفا متهالكا أمام خصومه من النصارى وخاصة فرناندو الأول الذي فرض على المعتضد الجزية، ومن قبله ابن ذي النون وابن هود وغيرهم من الحكام في صورة تنم عن مأساة العصر وتردي حكامه وانقسامهم على أنفسهم[٨١].

خلف المعتضد على الحكم ابنه المعتمد الذي كان أسلم من أبيه عهدا وأقل بطشا منه، ويغلب على سيرته اهتمامه بالأدب والشعر والمعارف وتشجيعه لأهلها، وهو ما سنشير إليه فيما يأتي.

وكان عمر المعتمد عند توليه الحكم ثلاثة وثلاثين عاما، وأول ما استهل به حكمه هو سعيه إلى الاستيلاء على مدينة قرطبة بعد سماعه

---

(٧٨) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٣١٢)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤٧).

(٧٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٣٨ - ٣٩ - ٤٠)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢١٤)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ٤٥ - ٤٦ - ٤٧)، وهذه الامارات الى الجنوب من اشبيليه.

(٨٠) كتاب الجمان في مختصر اخبار الزمان (مخطوط) (ورقة ٤١٤).

(٨١) انظر عن ذلك: ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٤٨) وما بعدها، الناصري: الاستقصاء ج ٢ (ص ٣٣)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤٨)، صلاح خالص: اشبيليه في القرن الخامس الهجري (ص ١٣١)، ستانلي لينبول: العرب في اسبانيا (ص ١٦٣ - ١٦٤).

تحركات المأمون صاحب طليطلة وطمعه فيها، وذلك سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٧٠م، وتم للمعتمد الاستيلاء على قرطبة، غير أن المأمون دبر خطة جريئة في الاستيلاء عليها وتمكن تابعه ابن عكاشة من دخولها وقتل حاكمها سراج الدولة بن المعتمد، فدخلها المأمون سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م. ولكنه لم يهنأ بذلك فقد لحقه المرض فغادرها إلى طليطلة وتوفي بعد وصوله، وسارع المعتمد إلى مهاجمة قرطبة واستطاع دخولها وأخذ بثأر ابنه من ابن عكاشة[٨٢].

ولم يخلُ عصر المعتمد من الصراع العسكري مع جيرانه من البربر وغيرهم، فقد استولى على جيان سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م، وخشي أمير غرناطة عبدالله بن بلقين من نفوذ المعتمد، فراسل الفونسو السادس ملك قشتاله وعقد معه معاهدة تحالف مقابل أن يدفع له الجزية، وكان من أثر ذلك أن شعر عبدالله بقوة تحالفه ذلك فهاجم بقوة من النصارى ممتلكات ابن عباد، فسارع الأخير إلى عقد معاهدة تحالف مع ملك النصارى، على أن يهاجما جميعا مملكة غرناطة، فتكون هي للمعتمد، وذخائرها لفونس، ولكن لم ينجح مشروعهما وكل ما فعله الفونس أن هاجمت بعض قواته بسائط غرناطة وعاثت فيها[٨٣].

وفي حياة المعتمد برز خطر النصارى بشكل كبير وخاصة بعد سقوط طليطلة رغم حصانتها التي قال عنها ابن الشباط (وهي مدينة عظيمة اشد المدن حصانة واثبتها منعة وأبقاها مع الضيق والمحاصرة)[٨٤].

ولكن رغم ذلك تمكن الفونس السادس من دخولها بعد حصار طويل سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، وكان هذا فاتحة البلاء على المسلمين بالأندلس ونذير زوالهم، وقد زاد سقوط طليطلة الفونس غرورا

---

(٨٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٦٨) وما بعدها، ابن الأثير: الكامل ج ٧ (ص ٢٩١ - ٢٩٢)، بطرس البستاني: أدباء العرب، ج ٣، (ص ١٤٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٦١).

(٨٣) محمد عنان: المرجع السابق (ص ٦٣).

(٨٤) نص جديد لابن الشباط. تحقيق أحمد مختار العبادي، (ص ١٤٨).

وغطرسة، فأخذ يتهدد ملوك المسلمين، ويتوعدهم بسحق ممالكهم، وسارع المعتمد بالنزول عن بعض حصونه له، مع دفع الجزية أيضا، وذلك ليكون في مأمن وسلام من سطوته، ولكن مع ذلك لم يقنع الفونس، فأرسل من قبله جماعة على رأسهم يهودي يدعى ابن شاليب لاستلام الجزية المقررة، وأبدى اليهودي شكه في صحة الدراهم وأنها مزيفة مما أغضب المعتمد فقتله هو ورفاقه، ثم بعث إلى ملوك الطوائف يستشيرهم في الاستنجاد بزعيم المرابطين يوسف بن تاشفين فوافقوه على ذلك، والتقى جند الأندلس بإخوانهم المرابطين، وساروا صفا واحد للقاء جموع النصارى، وألحقوا بهم هزيمة ساحقه في معركه الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[٨٥].

ولاحظ يوسف بن تاشفين عند اجتماعه بملوك الطوائف ما هم عليه من انقسام وخلاف فغادر الأندلس إلى المغرب وهو يبيت النية على توحيد الأندلس وضمها إلى مملكته. وعبر يوسف إلى الأندلس مرة أخرى سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٨م للقضاء على نفوذ النصارى في حصن لييط، وترك بعد ذلك جمعا من قواته لحماية مرسيه وبلنسيه وعاد إلى المغرب[٨٦].

وفي سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩١م عبر يوسف إلى الأندلس عازماً على إسقاط ملوكها وتوحيدها تحت حكمه فاستهل ذلك بالاستيلاء على غرناطة، ثم توجه المرابطون إلى قرطبة فدخلوها سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م، ثم حاصروا اشبيليه وتم لهم دخولها بعد دفاع مستميت وقتال شديد أبدى فيه المعتمد من ضروب الشجاعة والفداء شيئا كثيرا، ولكنه لم يستطع مقاومة جموع المرابطين الكثيفة، ووقع في الأسر، وأخذ هو وأهله، وبعث بهم إلى المغرب حيث أنزلوا أخيرا مدينة أغمات، وبذلك

---

(٨٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٢٥٣ - ٢٥٤)، الناصري: الاستقصاء ج ٢ (ص ٣٧ - ٣٨) وما بعدها، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٧٣) وما بعدها، بطرس البستاني: أدباء العرب ج ٣ (ص ١٤٧) سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٣٦ - ٣٧).

(٨٦) محمد عنان: المرجع السابق (ص ٣٣٤ - ٣٣٥) وما بعدها، حصن لييط إلى الجنوب الشرقي من الأندلس.

انتهت دولة بني عباد في اشبيلية وقرطبة[٨٧].

(٢) بنو هود الجذاميون في سرقسطة (الثغر الأعلى):

كان يتولى حكم هذه المنطقة أسرة بني تجيب مع بزوغ الفتنة، ثم ما لبثت أن انتقلت السيادة إلى أسرة بني هود بعد مقتل المنذر بن يحيى التجيبي سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م. ومؤسس هذه الدولة سليمان بن محمد بن هود الجذامي الملقب بالمستعين بالله (٤٣١ ـ ٤٣٨هـ/ ١٠٣٩ ـ ١٠٤٦م)[٨٨].

ومملكة بني هود تعتبر من أعظم ممالك الطوائف من حيث سعتها وموقعها بين دول اسبانيا النصرانية في الشمال، وهذه المملكة أقدم الممالك التي استقلت عن الخلافة، فإن انعزالها في الشمال الشرقي للجزيرة وبعدها عن بقية الممالك الإسلامية جعلها أكثر الممالك تسليحا وقوة واعتمادا على ذاتها[٨٩].

وكان يطلق على هذه المملكة قبل زوال الخلافة ولاية الثغر الأعلى وتشمل مدينة سرقسطة وأعمالها، وتطيله ووشقه وبربشتر ولارده وافراغه وطركونة و طرطوشة[٩٠].

وقسم سليمان قبل وفاته المملكة على أبنائه الخمسة وجعلها خمس ممالك لكل منهم مملكة وهو ما أدى بالتالي إلى قيام صراع عنيف بينهم، وتمكن أحدهم وهو المقتدر، من التغلب على ثلاثة منهم، وطال صراعه

(٨٧) الأمير عبدالله: التبيان (ص ١٧٠ ـ ١٧١)، ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ١ (ص ٥٢) وما بعدها، المراكشي: المعجب (ص ٢٠٦) وما بعدها، ابن الأثير: الكامل ج ٨ (ص ١٠٠)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٣٤٩) وما بعدها، بطرس البستاني: أدباء العرب ج ٣ (ص ١٤٨).

(٨٨) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٧٩) وما بعدها، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص ٣٥٥ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ١٠)، وانظر بالتفصيل عن هذه المملكة البيان ج ٣ (ص ٢٢١)، وما بعدها وكذلك محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٦٤) وما بعدها.

(٨٩) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥)، عبدالرحمن الحجي: المرجع السابق (ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦).

(٩٠) المراكشي: المعجب (ص ١٠٦ ـ ١٠٧)، وانظر محمد عنان: المرجع السابق (ص ٢٦٥).

مع اخيه الرابع حسام الدولة يوسف[٩١].

وفي ايام المقتدر وقعت كارثة مدينة بربشتر سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م، حيث هاجمها النورمانديون في قوة تزيد على أربعين ألف مقاتل، وبعد حصار طويل ومرير تمكنوا من دخولها وأوقعوا بأهلها قتلا وأسراً ونهبا وسبوا النساء وغدروا بالأهالي بعد أن أعطوهم الأمان على أنفسهم، ووقع في أيديهم كثير من النساء حتى قيل إنه كان نصيب قائدهم الفاً وخمسمائة جارية، وقيل إن ضحايا القتل والسبي مائة ألف نسمة (وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يتقصى)[٩٢].

ويمدنا ابن عذاري بأعداد أخرى عن حال السبي، وما غنمه زعيم النورمانديين، حيث أشار إلى أنه وقع في سهمه أربعة آلاف جارية أبكار[٩٣]، وما من شك أن هول هذه الحادثة، وما نتج عنها من إحساس مؤلم عميق، أدى إلى تصوير نتائجها بما يتناسب مع حدثها الهائل ووقعها الدامي الذي استفز المشاعر والأحاسيس، ومنح المؤرخين توقعات هائلة فأعطوا محصلتها أكثر من الحقيقة، وهذا الحميري يقول: (إنهم ـ أي النورمانديين ـ اختاروا من أبكار الجواري وأهل الحسن منهن خمسة آلاف جارية فأهدوهن إلى صاحب القسطنطينية[٩٤]. وهكذا نجد أنفسنا مترددين في قبول ما أورده ابن حيان وهو ما أشرنا إليه أولا من الأعداد وذلك لان ابن حيان نفسه يورد الخبر هكذا (زعموا إنه صار لأكبر رؤسائهم... الخ) وفي النص الآخر يقول: (وتحدث ايضا أنه أصيب في هذا القتل والسبى مائة ألف نسمة...)[٩٥].

(٩١) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢٢٢)، إحسان عباس: المرجع السابق (ص ١٥)، وانظر تفصيل ذلك النزاع لدى محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٧٢) وما بعدها.
(٩٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ١٨١) وما بعدها، وفي تلك الصفحات انظر تفاصيل تلك الحملة النورماندية وما لحق أهالي بربشتر من ألوان العذاب، فقد كانت هذه الكارثة من أعنف ما نزل بالمسلمين آنذاك بل كانت مأساة العصر، وانظر ايضا: ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢٢٥) وما بعدها، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٧٤). وما بعدها.
(٩٣) انظر البيان ج ٣ (ص ٢٢٥).
(٩٤) الروض المعطار (ص ٩٠).
(٩٥) انظر النصين في ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ١٨١).

وكان المقتدر قد تقاعس عن الذود عنها ـ اي بربشتر ـ لانها كانت من أملاك أخيه يوسف. ونظرا لما لحقه من لوم المسلمين وأخذهم عليه التقصير في نجدتها، فقد عزم على استردادها من النورمانديين الذين أبقوا فيها عند رحيلهم عنها بضعة آلاف من الجند لحمايتها، واستقر بها من رجالهم ونسائهم الكثير، ولما أدرك المسلمون عزم المقتدر على قتال النورمانديين، سارعوا إلى مساعدته، فانضم إليه خمسمائة مقاتل من مملكة المعتمد، وتمكن المقتدر بعد قتال وحصار من السيطرة على المدينة، بعد أن قتل من النورمانديين الف فارس وخمسة آلاف راجل، وسبى منهم خمسة آلاف سبية[96].

وإلى جانب ذلك تمكن المقتدر من توسيع مملكته وذلك بالاستيلاء على مدينة طرطوشة وكانت منذ عهد الفتنة بيد بعض الفتيان العامريين، وهو ما كان سببا في طمع المقتدر في تلك المدينة التي تعتبر منفذا لمملكته على البحر إلى جانب طركونة، وكان آخر من تولاها من الفتيان الفتى نبيل، الذي قامت ضده ثورة شعبية، فزحف إليها المقتدر واستولى عليها سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م[97].

وتمكن المقتدر في عملية التوسع العسكري من بسط نفوذه على دانية، واسقط حكومة علي بن مجاهد بعد قتال طويل، واضطر علي إلى تسليم المدينة إليه والخروج منها حيث سار إلى سرقسطة، فمنحه المقتدر إقطاعا يعيش عليه[98].

ورغم ما تمتع به المقتدر من قوة ومقدرة على جيرانه إلا أنه لم يسلم من الاستخذاء للنصارى كعادة ملوك عصره فكان يدفع الجزية لملكهم، وتقدم إليه أحد العلماء يؤنبه على ذلك ويذكره بإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين وأن عليه ألا يدفع الجزية بل يضعها في تجنيد الجند وتسليح

---

(٩٦) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢٢٧)، الحميري: الروض المعطار (ص ٩١)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩)، عبدالرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي (ص ٣٥٩) وما بعدها.

(٩٧) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٥٠)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ٢٧٣ - ٢٧٤).

(٩٨) ابن عذاري: نفس المصدر والجزء (ص ٢٢٨).

الشعب فما كان منه إلا أن قتله[99].

ووقع المقتدر فيما وقع فيه أبوه سليمان، فقد قسم مملكته بين ابنيه يوسف المؤتمن وأخيه المنذر، مما كان له أكبر الأثر في قيام حرب أهلية بين الأخوين اللذين استعانا في قتالهما بالنصارى، وكان يقاتل في صف المؤتمن الفارس القشتالي السيد القمبيطور، في حين استعان المنذر بملكي ارغونه وبرشلونة[100].

وبعد وفاة المؤتمن الذي حكم أربع سنوات، خلفه ابنه أحمد الملقب بالمستعين، الذي حاول في عهده الفونس أن يستولي على سرقسطه بعد احتلاله طليطلة، لكن سماعه نبأ وصول المرابطين إلى الأندلس جعله يفك الحصار عن سرقسطه ويتجه حيث جموع المسلمين سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م[101].

وطلب المستعين معاونة المرابطين على دفع النصارى عنه فاستجابوا له وبعثوا إليه بقوة تتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل، وكان ملك أرغونة محاصرا لوشقة وهي ثاني مدينة في مملكة سرقسطة. ولكنها صمدت في وجهه مدة طويلة حتى إذا دارت المعركة بين المستعين وملك أرغونة وانتهت بهزيمة المستعين يئس أهل وشقة من النصر فسلموا المدينة بعد ذلك للنصارى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م[102].

وعندما تم للمرابطين إسقاط عروش ملوك الطوائف شعر المستعين بخطرهم فاستنجد بالسيد القمبيطور ألا أنه ما لبث أن عاد فطلب عون المرابطين سنة ٤٩٦هـ/ ١١٠٢م، وتصدى لجيوش ملك أرغونة الفونس المحارب قرب تطيلة يوم الاثنين أول رجب سنة٥٠٣هـ/

(٩٩) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٨٨ - ٢٢٩)، وانظر تفاصيل علاقاته السياسية والعسكرية مع النصارى، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٧٩ - ٢٨٠ - ٢٨١).

(١٠٠) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، (ص ٣٥٦)، وانظر تفصيل ذلك الصراع أو الحرب الأهلية لدى محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٨٤) وما بعدها.

(١٠١) محمد عنان: المرجع السابق (ص ٢٨٦ - ٢٨٧)، وانظر عن سيرة المستعين وصفاته الشخصية ابن الأثير: الكامل ج ٨ (ص ١٥٧).

(١٠٢) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٨٨ - ٢٨٩).

١١١٠م حيث سقط المستعين شهيدا ليخلفه ابنه أبومروان عبدالملك الذي خضعت في عهده سرقسطة لحكم المرابطين[١٠٣].

(٣) بنو القاسم الفهريون في البونت:

أسس هذه الإمارة عبدالله بن قاسم منذ بداية الفتنة، ولما توفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م خلفه ابنه محمد بن عبدالله بن قاسم، وهؤلاء يرجعون في نسبهم إلى قريش[١٠٤]. ولم يكن سلطانهم مكينا فقد سلكوا طريق ملوك عصرهم بدفع الجزية للنصارى. ولما برز خطر السيد القمبيطور كانوا يتحاشونه بدفع عشرة آلاف دينار كل عام، وكان حاكمها آنذاك عبدالله بن محمد الفهري. واستمروا على هذه الحال حتى سقطت دولتهم في أيدي المرابطين سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م.[١٠٥].

وكانت إمارة البونت ملجأً لعدد من أمراء بني أمية بحكم علاقتهم القبلية مع حكامها الفهريين الذين كانوا مؤيدين لعودة الخلافة الأموية فضم بلاطهم من بني أمية الخليفة المرتضى الذي قتل في المعركة الدائرة بين جيشه وأنصاره وبين البربر بقيادة زاوي بن زيري سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م، وإلى البونت لجأ هشام بن محمد أخو المرتضى وهو الذي بويع بالخلافة وتلقب بالمعتد بالله ولبث بعدها في البونت سنتين وسبعة اشهر ثم سار بعدها إلى قرطبة حيث بقي في خلافته هناك سنتين ثم أسقط أخيرا عن الحكم سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[١٠٦].

(٤) بنو حمود العلويون:

سبقت الإشارة إلى نشاطهم السياسي أثناء الفتنة. وقد مر بنا الحديث عن علي بن حمود وكيف أنه دخل قرطبة، وقُتل المستعين، وأعلن نفسه خليفة. ثم قتل فتولى أخوه القاسم من بعده. لكن ابن

---

(١٠٣) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي: (ص ٣٥٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٨٩ - ٢٩٠).
(١٠٤) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢١٥).
(١٠٥) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٦١ - ٢٦٢)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ١٦).
(١٠٦) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٦٠ - ٢٦١).

أخيه يحيى بن علي ثار عليه بمالقه ودخل قرطبة سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م وامتد سلطانه إلى الجزيرة الخضراء، لكن نفوذه لم يستمر بقرطبة فقد قتل سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٥م وبويع أخوه إدريس بعده ـ وكان بسبتة ـ بشرط أن ينصب ابن أخيه حسن على سبتة بدلا منه، وخلال هذه الفترة دار صراع بين بني حمود أنفسهم وبين بني عباد باشبيليه وبعد موت إدريس بويع حسن بن يحيى بالخلافة في مالقه ولكنه ما لبث ان مات مسموماً وكان إدريس بن يحيى قد اعتقل بعد وفاة أخيه على يد أحد أعوان نجا الصقلبي خادم حسن بن يحيى، وكان نجا بعد هذه الأحداث قد طمع في تولي السلطان وإزالة وجود بني حمود إلا أن الأمر انتهى بمقتله، وأخرج إدريس من السجن وبويع بالخلافة وكان موصوفا بجميل الأخلاق وحسن السيرة ورد المظالم ولكن تلك الفتن لم تبقه في الحكم، فقد تولى محمد بن إدريس بدلا منه وبويع بالخلافة بمالقه وهو ابن عم إدريس المذكور، ولعب البربر دورا في تصاعد الصراع بين بني حمود فخاطبوا محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء يطمعونه في الخلافة فسارع إليهم إلا أن الحال لم يستقر له إذ انفض عنه البربر وتولى بعده ابنه القاسم بن محمد، وبقي محمد بن إدريس بمالقة حتى مات سنة ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م وهنا يتولى بعده إدريس بن يحيى الذي أُقصي عن الحكم أولا فاستولى على مالقة بمساعدة العامة[١٠٧].

وهكذا نلمس من خلال استعراض الحكم الحمودي كثافة الصراع والتهافت على السلطة، وأنّ صراعهم كان يشمل السيطرة على ثلاث مدن وهي مالقة وسبته والجزيرة الخضراء، ولم يتمكن أيٌّ منهم من إقامة دولة قوية صامدة في وجه التيارات المتصارعة، ولذا زال ملكهم بسرعة وتلاشى نفوذهم بظهور زعماء أقوى منهم كبني عباد في اشبيلية الذين استولوا على الجزيرة الخضراء.

---

(١٠٧) الحميدي: الجذوة (ص ٣٠ ـ ٣٦)، الضبي: البغية (ص ٢٩ ـ ٤٢)، ابن الأثير: الكامل ج ٧ (ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، النباهي: قضاة الأندلس (ص ٩٠ ـ ٩١)، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ (ص ١٨٥).

ثانيا : البربر.

(١) بنو مناد الصنهاجيون في غرناطة ومالقة:

يعود نسب هذه الأسرة البربرية إلى قبيلة صنهاجة، وكانت هذه القبيلة متحالفة مع الفاطميين في قتالهم ضد الأمويين الذين يناصرهم خصومهم التقليديون قبائل زناتة. وفي عهد المنصور بن أبي عامر استطاع أن يستميل قلوب كثير من البربر إلى جانبه حتى شجعهم على القدوم إلى الأندلس فدخلتها قبائل من صنهاجة يتزعمهم زاوي بن زيري حيث أكرمهم المنصور وقرب منازلهم، وصاروا له عضدا وسندا في إرساء قواعد دولته. وبعد وفاة المنصور سار ابناه المظفر وعبدالرحمن على هذه السياسة حتى إذا ثارت الفتنة بعد مقتل الأخير لعب البربر دورا هاما فيها ووقفوا بجانب سليمان المستعين الذي نجح في القضاء على خصمه المهدي كما أشرنا ثم كافأ البربر على مساندتهم له بتوليتهم بعض المدن والولايات فأقطع صنهاجة وفي مقدمتهم زاوي ورجاله ولاية البيره (غرناطة) فأقاموا بها وبنوا فيها مدينة غرناطة[١٠٨].

ويشير الأمير عبدالله حفيد باديس إلى أن أهل البيرة هم الذين عرضوا على صنهاجة حكم بلدهم مقابل ان يكفلوا لهم حمايتهم والذود عنهم[١٠٩].

وقد مر معنا عند الحديث عن إمارة البونت كيف أن زاوي بن زيري هزم جيوش الخليفة المرتضى سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م ولكن نراه رغم انتصاره على جموع أهل الأندلس لم يطمئن إلى تقلب الأيام فنصح قومه بالرحيل عن الأندلس إلى افريقيا خشية أن يتحالف عليهم الأندلسيون وخصومهم زناتة فيستأصلوهم، ولكن قومه رفضوا الرحيل فرحل هو وأسرته وقسم من قومه إلى القيروان، وبقي قسم منهم في غرناطة وكان

(١٠٨) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٢١) وما بعدها، الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية (ص ٦١) ما بعدها.

(١٠٩) التبيان، (ص ١٨).

يتزعمهم ابن اخيه حبوس بن ماكسن الذي نعمت غرناطة في عهده بالأمن والاستقرار، وخلفه بعد وفاته ابنه باديس الذي وصف بانه أقوى ملوك البربر، وقد استطاع باديس أن يسقط حكم خيران العامري سنة ٤٢٩هـ وتمكن من مد نفوذه وتوسيع مملكته إلى القسم الغربي من أراضي مملكة المريه المتاخمة لبلاده، كما أنه أسقط حكم العلويين في مالقه وكان يحكمها محمد بن إدريس فاستولى عليها وأخرجه منها[110].

وكان باديس ومن قبله والده حبوس قد عهدا في تدبير الوزارة إلى أسرة يهودية كان أولها إسماعيل بن نغراله، وبعد وفاته خلفه ابنه يوسف، وفي عهد يوسف عظم شأن اليهود في غرناطة ولعبو دورا في الحياة السياسية حتى إنّ يوسف حاول تدبير مؤامرة يسقط فيها حكم باديس ويسلم الإمارة لابن صمادح أمير المرية، وهذا بالإضافة إلى مطاعنه في الإسلام، وقد رد عليه ابن حزم في رسالة له. وأخيرا بعد أن ضاق الحال بأهالي المدينة وأجج غضبهم أبوإسحاق الألبيري بأشعاره الحماسية قامت الثورة على اليهود وقتل يوسف بن إسماعيل واستأصل الناس شأفة اليهود في غرناطة ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وكانت الثورة سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م[111].

وخلف باديس على حكم غرناطة حفيده عبدالله بن بلقين الذي أزال حكمه المرابطون بعد ذلك، وكان عبدالله خلال حكمه في غرناطة قد دخل في حرب مع ابن عباد كما أشرنا إلى ذلك عند الحديث عن بني عباد في اشبيليه ولكن ذلك الصراع انتهى إلى صلح ومهادنة بين الطرفين سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م ولم تمض بعد ذلك سوى أشهر قليلة حتى سقطت طليطلة، ومن بعدها وقعت معركة الزلاقة ضد النصارى،

---

(١١٠) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٢٥) وما بعدها، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص١٣).

(١١١) الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٦٩) وما بعدها، (ص ٨٤)، وما بعدها، محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٣٣) وما بعدها.

وفيما يتصل برسالة ابن حزم التي رد فيها على ابن النغريله فقد حققها د. إحسان عباس مع رسائل أخرى لابن حزم وطبعت بمطبعة دار العروبة بالقاهرة، سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

حتى إذا قرر المرابطون الاستيلاء على الأندلس كانت غرناطة فاتحة ذلك المشروع، حيث أُخرج عنها عبدالله ونُفي بأسرته إلى اغمات، وتحدث عن أحداث عصره وسيرته في كتابه «التبيان»[112].

(٢) بنو الأفطس، ملوك بطليوس:

كانت هذه المملكة تمتد من غرب مملكة طليطلة عند مثلث نهريانه غربا حتى المحيط الأطلسي، وتشمل أراضي البرتغال كلها تقريبا حتى مدينة باجه في الجنوب[113].

وأول ملوكها عبدالله بن مسلمة بن الأفطس المكناسي الذي خلف مولاه سابور العامري في حكم بطليوس واستبد بسياستها وتدبيرها وتلقب بالمنصور، وقد ناضل دون سلطانه وحرص على ترسيخ حكمه في تلك المدينة، وبعد وفاته خلفه ابنه محمد الذي سار على سياسة أبيه في الدفاع عن الدولة وحفظ سيادتها ودخل من أجل ذلك في قتال مرير وطويل مع المعتضد، ومن تلك الوقائع ما هزم فيها المعتضد كالموقعة التي نشبت بينهما سنة ٤٣٩هـ، وفي موقعة أخرى حدثت سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م هزم فيها ابن الأفطس هزيمة شنيعة وانتهى الأمر بعقد صلح بينهما[114]، وقد أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن المعتضد بن عباد.

وكان ابن الأفطس شهما أبياً، ولو لقي من يماثله في تلك السجايا وما في نفسه من تطلع للوحدة والاتحاد بين المسلمين لما ضعف حال ملوك الطوائف وأدوا الجزية لملوك النصارى، ولكن تفكك هؤلاء الملوك وحبهم للترف وإيثارهم للسلامة والدعة دفعتهم إلى ظلم رعاياهم بابتزاز أموالهم ومن ثم دفعها كاتاوة للعدو.

---

(١١٢) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٤٢) وما بعدها. وانظر تفصيل ذلك في التبيان، (ص ١٥٤) وما بعدها.
(١١٣) انظر محمد عنان: دول الطوائف (ص ٨٢ - ٨٣).
(١١٤) ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ٢ (ص ٦٤١ - ٦٤٢)، ابن الأثير: الكامل ج ٧ (ص ٢٩٢).

وما كان لابن الأفطس أن يدفع الجزية لفرديناند الأول إلا بعد أن أخذ في تدمير بلاد ابن الأفطس وتخريبها، وخشي الأخير أن يتمادى هذا الملك النصراني فيعم بضرره الأهالي فآثر الإذعان للأمر الواقع ودفع الجزية له على مضض(١١٥).

وفي عهد محمد بن الأفطس الملقب بالمظفر سقطت مدينة قلمريه في يد ملك قشتاله فرناندو سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م وبعدها بفترة قصيرة توفي محمد فخلفه ابنه يحيى الذي لم يستمر طويلا في الحكم فقد نازعه أخوه عمر على الحكم حتى إذا توفي يحيى تقلد عمر الحكم سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م، وتلقب بالمتوكل على الله، وقد نعمت الدولة في عهده بالقوة والرخاء وسار على سجية أبيه المظفر في كراهية دفع الجزية للنصارى فقد كانت نفسه الأبيه تمنعه من ذلك. فقد بعث إليه الفونسو بعد سقوط طليطلة خطاباً يتهدده ويتوعده ويأمره فيه بإرسال ما عليه من الأموال، لكن المتوكل رد عليه في أنفة وإباء برسالة تفيض عزة وشموخا وأن ليس بينه وبين ألفونس إلا السيف فكان ما هو معروف من الاستنجاد بالمرابطين(١١٦).

(٣) دولة بني رزين أمراء السهلة (شنتمرية الشرق):

وتقع هذه الإمارة في جنوب الثغر الأعلى، عند منابع نهر خالون. ومؤسس هذه الإمارة هذيل بن عبدالملك بعد الفتنة، وهذا الثائر لم يكن في سيرته ما يحمد من الخلال والسجايا، ولم يحتفظ له التاريخ بصفة كريمة تستحق الذكر، وكل ما عرف عنه هو انهماكه في الملذات والترف والإسراف في ذلك، وقد أسعده الحظ فكان بعيدا عن المنازعات وحرص على أن يحتفظ بعلاقات طيبة مع جيرانه، ولكنه كان في نفسه

---

(١١٥) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ١٣).

(١١٦) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٨٦) وما بعدها، وقلمريه في الغرب من الأندلس وتدخل الآن ضمن دولة البرتغال.

جبارا سفاكا للدماء فظا حتى قيل أنه قتل أمه بيده[١١٧].

وخلفه في الحكم ابنه جبر الدولة عبدالملك الذي حكم ستين سنة وقد ذمه ابن حيان وهزأ به ووسمه بصفات مقذعة، وأشار إليه ابن بسام كقارض للشعر غير بارع فيه، وكان جبر الدولة هذا سادرا في غيه خانعا للنصارى فكان يدفع لهم الجزية، ورغم ذلك فقد استولى على حصن مربيطر من صاحبه ابن ليون، وحاول الاستيلاء على بلنسيه لكن السيد القمبيطور أوقع بجيشه فاضطر للكف عنها، وخلفه على الحكم ابنه حسام الدولة يحيى الذي لم يكن له من الفخر بين ملوك عصره سوى القرد الذي أهداه له الفونس مقابل ما أعطاه من أموال وتحف وهدايا مختلفة وقد زال حكمه على يد المرابطين[١١٨].

(٤) بنو ذي النون في طليطلة:

يعود النشاط السياسي الذي مارسه بنو ذي النون في الأندلس إلى أيام الأمير محمد بن عبدالرحمن. فقد كان جدهم ذوالنون سليمان والياً على حصن اقليش بالثغر الأعلى، وكانت ولايته تلك مكافأة لبعض الخدمات التي أسداها لبعض أتباع الأمير محمد، وتداول هذه الولاية أبناؤه من بعده، وعندما تولى المنصور أمر الدولة، التحق المضراس عبدالرحمن بن ذي النون وابنه إسماعيل بخدمته، واستمرا في ذلك حتى ثارت نار الفتنة فأقر سليمان المستعين المضراس على حكم اقليش، ولم يلبث أن توفى ليخلفه ابنه إسماعيل الذي أخذ في توسيع نفوذه، فاستولى على قلعة قونقة بعد وفاة أميرها واضح العامري، وعلت مكانة إسماعيل لدى المستعين وخاصة إذا تذكرنا أن للبربر دوراً في اعتلائه

---

(١١٧) ابن بسام: الذخيرة ق ٣، ج ١ (ص ١١٠ - ١١١)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٣٠٩) وما بعدها، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط ورقة ٢٥٧.

(١١٨) ابن بسام: الذخيرة ق ٣، ج ١ (ص ١١٢ - ١١٣)، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٣٠٩ - ٣١٠ - ٣١١)، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٥، محمد عنان: الطوائف (ص ٢٥٦) وما بعدها. ويذكر المراكشي عبدالملك في كتابه الذيل والتكملة أن عبدالملك بن هذيل كان من البارعين في النظم والنثر وأن ديوان شعره مشهور بين الناس. انظر ق ١، ج ٥ (ص ٥٢).

سدة الحكم، فمنحه هذا الوزارة وسماه ناصر الدولة، ولكن تتابع الأحداث المؤلمة التي عصفت بقرطبة دفعت بإسماعيل إلى إعلان انفصاله عن قرطبة[١١٩].

ويلقي ابن حيان باللوم والتقريع على هذا الأمير وأنه هو الذي استن سنة الانفصال عن الخلافة والخروج على الجماعة (فاقتدى به من بعده، وأمّوا في الخلاف نهجه، فصار جرثومة النفاق، وأول من استن سنة العصيان والشقاق، ومنه تفجر ينبوع الفتن والمحن)[١٢٠].

ولكن كيف تم لبني ذي النون الاستيلاء على طليطلة؟

الحق أنه كان يحكمها آنذاك قاضيها ابوبكر يعيش بن محمد الأسدي بالاشتراك مع جماعة من الفضلاء من أهل العلم، ولكن مالبث أن وقع الخلاف بينهم ليبقى في تسيير شؤون هذه البلاد عبدالرحمن بن متيوه الذي توفي بعد ذلك بقليل ليتولى ابنه عبدالملك فأساء السيرة مع أهل المدينة فخلعوه ثم ولوا غيره ليخلعوه مرة أخرى حتى إذا ضاقوا بحالهم بعثوا إلى عبدالرحمن بن ذي النون يطلبون إليه تولّي أمر مدينتهم فأرسل اليهم ابنه إسماعيل الذي استولى عليها وأصبحت منذ ذلك الوقت دار مملكتهم[١٢١].

وهكذا نلمس نمو هذه الدولة وتوسعها شيئا فشيئا حتى أصبحت في أوج قوتها تمتد على مساحة واسعة في قلب الأندلس فيحدها غرباً مملكة بطليوس وشر قاً مملكة بني هود وشمالاً مملكة قشتالة القديمة ومن الجنوب مملكة بني عباد في اشبيلية وقرطبة.

وعندما توفي إسماعيل خلفه على الحكم ابنه الملقب بالمأمون وسار

---

(١١٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٤٢ - ١٤٣)، وفيها انظر وصفا واضحا لسيرة هذا الأمير وما كان عليه من نزعات سياسية وقيم أخلاقية.

(١٢٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٤٣).

(١٢١) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٧٦ - ٢٧٧)، وانظر الشاطبي كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان (مخطوط) ورقة ٤١٣، وقد جانب الصواب في الإشارة إلى تجمع البربر عليه بقرطبة، محمد عنان دول الطوائف (ص ٩٧).

هذا على خطى والده في الاعتماد على ما يشبه الهيئة الاستشارية تضم بعض الوزراء منهم أبوبكر بن الحديدي، والحاج بن محقور، وابن لبون وابن سعيد بن الفرج، ورغم استناده إلى مشورتهم وخاصة ابن الحديدي إلا أنه كان يقابل نصحهم بعض الأوقات بنفور وعصبية[١٢٢].

ويعتبر عصر المأمون هذا هو العصر الزاهي في تاريخ هذه المملكة، غير أنّه مع ذلك لم يسلم من النزاع مع جيرانه من الملوك أمثال ابن هود في سرقسطة، وابن عباد في اشبيلية، ففي بداية حكمه نشبت الحرب بينه وبين ابن هود أحمد بن سليمان بسبب التنافس على امتلاك وادي الحجارة، وقد تمكن الأخير في النهاية من الاستيلاء عليه، مما دفع ابن ذي النون إلى طلب النجدة من ملك قشتالة فرناندو الأول فأرسل إليه قوة من الجند عاث بها في أراضي ابن هود ودمر محاصيلها الزراعية[١٢٣].

وإننا لنعجب إذا تصفحنا تاريخ العلاقات السياسية والعسكرية بين هاتين المملكتين، وكيف أنهما كانتا لا تجدان غضاضة أو عارا في الاستعانة بالنصارى لتحطيم كل منهما الأخرى، وقد وجد ملوك النصارى في صراعهما ما يحقق لهم سرعة الإجهاز على الوجود الإسلامي بإضعاف زعاماته السياسية. ولا ننسى إن كثيرا من القوات التي كان يرسلها ملوك النصارى لأيٍّ منهما كانت تسلك طريقة التخريب والتدمير للثروات الزراعية التي هي عصب الحياة آنذاك، وهذا بلا شك عامل مهم في تيسير السبيل نحو القضاء على القوى الإسلامية بشل طاقاتها الاقتصادية، وهي ظاهرة سنلمسها في كثير من الوقائع التي كانت بين المسلمين والنصارى، وقد سار عليها هؤلاء حتى لدى حصارهم لآخر معقل من معاقل الإسلام وهي غرناطة.

---

(١٢٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤ ج ١ (ص ١٤٥ - ١٤٦)، وانظر ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٧٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٩٨).

(١٢٣) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٧٧ - ٢٧٨)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٩٩).

وظل القتال دائرا بين سليمان بن هود وخصمه المأمون بن إسماعيل على تلك الحالة التي وصفناها حتى إذا مات ابن هود سكنت الحرب بينهما وتنفس المأمون الصعداء، وكان هذا الصراع يشمل الفترة من سنة ٤٣٥ هـ إلى ٤٣٨ هـ (١٠٤٣/ ١٠٤٦م)[١٢٤].

ولعل ما يؤكد ما أشرنا إليه من استغلال النصارى لهذه الأوضاع ما أورده ابن عذاري من أن أهل طليطلة لما اشتد بهم الحال من جراء الحرب المشتعلة بينهم وبين ابن هود وحليفة فرناندو بعثوا إلى الأخير وفدا يلتمس منه الكف عن الاعتداءات على بلادهم، ولكنه طلب مقابل ذلك مبلغا من المال يعجزون عنه، فقالوا له لو نقدر على مثل هذا المبلغ لاستدعينا به البربر لينصرونا عليكم، فقال فرناندو كلمة خطيرة تكشف أبعاد السياسة التي سار عليها ملوك النصارى حيث قال:

(إن استدعاءكم البربر، أمر تكثرون به علينا، وتهددوننا به ولا تقدرون عليه مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا إليكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول أمركم فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم، واتركوا لنا بلادنا، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم)[١٢٥].

وكان للمأمون محاولات توسعية لزيادة رقعة بلاده، وقد أشرنا إلى دخوله قرطبة بعد استيلاء ابن عكاشة عليها عند الحديث عن علاقات المعتمد مع بني ذي النون، ونجح أيضا في الاستيلاء على مدينة بلنسية وضمها إلى دولته وكان عليها صهره عبدالملك بن عبدالعزيز العامري[١٢٦].

---

(١٢٤) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠ ـ ٢٨١)، وانظر محمد عنان: دول الطوائف (ص ٩٩).
(١٢٥) البيان: ج ٣ (ص ٢٨٢).
(١٢٦) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٠١ ـ ١٠٢).

ولم يكن صراع المأمون مع ابن هود فقط، بل كان في منازعات عسكرية مع ابن الأفطس، وكذلك المعتمد ملك اشبيلية[١٢٧].

استمر المأمون في الحكم ثلاثة وثلاثين عاما حكم فيها مملكة واسعة، ورغم ما اكتنف سيرتـه من نزاع عسكري مع جيرانه إلا أن دولته شهـدت رخـاء وازدهارا خاصة بعد زوال خطر بني هود عنه وتمكن المأمون من جمع ثروات ضخمة سخرها في إنشاء وبناء كثير من القصور والبنايات الرائعة، ومنها مجلسه الشهير «المكرم» الذي امتدحته الشعراء ووصفوه في أشعارهم[١٢٨].

وقد جانب الشاطبي الصواب عندما أشار إلى أنه بنى له قصرا بقرطبة أسماه «المأمون»[١٢٩] وهذا كلام يخالف الحقيقة فإن مبانيه الجميلة وقصوره الرائعة كانت في دار مملكته طليطلة، ولم يكن وجوده فترة قصيرة بقرطبة يسمح له بمثل ذلك فضلا عن أن المصادر لم تشر إلى أن له مشروعات معمارية بقرطبة.

خلف المأمون بعد وفاته حفيده يحيى الملقب بالقادر الذي لم يكن في مستوى الأحداث الدائرة في عصره من حيث التصرف والمعالجة، ولم يملك الشخصية القادرة المحنكة التي يزن بها الأمور ويضع من خلالها الحلول المناسبة والحاسمة. وكان جده المأمون قد قسم الشؤون السياسية والإداية بين رجلين من وزرائـه، فابن الفـرج فيما يتعلق بالقيادات العسكـرية والشؤون السلطانية والديوانية، وأبوبكر يحيى بن سعيد الحديدي فيما يتصل بالشؤون المالية وأمور الرعية وإبداء الرأي والمشورة، وأخذ المأمون قبل وفاته العهد على ابن الحديدي أن يخلص في الرأي والمشورة لحفيده يحيى القادر، غير أن الأخير ما لبث أن خلع الحديدي عن منصبه بل وسهل لخصومه ممن كانـوا في السجن إبـان حكم المـأمون ـ الوصول إلى ابن الحديدي

---

(١٢٧) انظر تفصيل ذلك، ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ٢٨٣).

(١٢٨) انظر ابن بسام: الذخيرة، ق ٤ ج ١ (ص ١٤٥) وما بعدها، محمد عنان: دول الطوائف (ص١٠٤ ـ ١٠٥).

(١٢٩) كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان (مخطوط) (ورقة ٤١٣).

والقضاء عليه سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م[١٣٠].

وكان مقتل ابن الحديدي فاتحة بلاء وشؤم على القادر، فقد ثار عليه ابوبكر بن عبدالعزيز في بلنسيه وأخذ الفونسو يشتط في مطالبه من الأموال والحصون، فسعى إليه القادر بجزية كبيرة لإرضائه، وأخيرا ثار عليه أهل طليطلة ففر إلى أحد حصونه وأرسلوا إلى المتوكل صاحب بطليوس يعرضون عليه حكم مدينتهم فسار إليها سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م وأقام بها فترة من الزمن، لكن القادر ما لبث أن استنجد بالفونس وذكره بأيام الجوار عندما لجأ إلى طليطلة أثناء الصراع بينه وبين إخوته شانجة وغرسيه، وهو ما دفع الفونسو لنجدته ضد المتوكل الذي خرج من طليطلة ليدخلها القادر بعد صدام مع أهلها سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م[١٣١].

غير أن الفونس كان يضمر في نفسه الاستيلاء على طليطلة، فأخذ يستغل ظروف أهلها، وانقسامهم على أنفسهم، إلى جانب ضعف القادر فشرع في شن حملاته على أراضي طليطلة بحجة معاونة القادر على خصومه حتى إذا كانت سنة ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م كرس حملاته العسكرية لتعزيز غايته وأهدافه فأخذ في إضعافها اقتصاديا وشن على طليطلة موجات من التدمير والتخريب (ينتسف مرافقها، ويعقد جالية أهلها ثناياها ومضايقها، يأسر ويقتل، ويحرق ويمثل، وسمى السعر، وتفاقم الأمر، وأنكرت الموارد والمصادر وبلغت القلوب الحناجر)[١٣٢].

وبعد أن ثبت لديه انهيار قواها الاقتصادية والزراعية ضرب حولها الحصار سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م وطال ذلك، وعمل أهلها على إطالة أمده لعل أمله أن يضعف في دخولها أو إسقاطها، وكذلك ما كانوا

---

(١٣٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٥١ - ١٥٢)، الأمير عبدالله: التبيان (ص ٧٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٠٧) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ٢٠)، وانظر ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٨١) ويسمى الحديدي بالحريري وهو خطأ.

(١٣١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٥٧ - ١٦٣)، ابن الكردبوس: المصدر السابق (ص ٨٣)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ١٠٧ - ١٠٨ - ١٠٩)، احسان عباس: المرجع السابق (ص ٢٠).

(١٣٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٦٤).

يأملونه من نجدة المسلمين لهم وإغاثتهم، ولكن لم يحدث من ذلك شيء، فقد كان ملوك المسلمين آنذاك أبعد ما يكون عن الوحدة والاتحاد أمام أعدائهم إذ كان المعتمد يرسل الجزية لألفونس مقابل أن يكف عن أطماعه، وكان هود مشغولاً في حربه مع ملك ارغونة وأمراء برشلونة، والممالك الشرقية والجنوبية تبعد بشكل كبير عن طليطلة ولا تستطيع إيصال نجداتها إليها على وجه السرعة[١٣٣].

والملك الوحيد الذي حاول نجدة طليطلة هو المتوكل ملك بطليوس الذي كان بدوره هذا أقرب الملوك لنصرة الإسلام ووحدة المسلمين، فقد أرسل ابنه في جيش قوي لمدافعة الفونس لكنه لم يستطع لتفوق النصارى في العدد والعدة، كما أن المتوكل كانت له معارك مع الفونس الذي انتزع منه قورية[١٣٤].

ولما رأى اهالي طليطلة أن لا فائدة أرسلوا إلى الفونس وفداً يعرض عليه الجزية فرفضها وصمم على احتلال المدينة، وبعد حصار تسعة أشهر وفي سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م تمكن الفونس من دخولها بعد أن وعد القادر بملك بلنسية، وكتب بينه وبين أهلها وثيقة تعهد فيها بالأمان للأهالي في أنفسهم وأموالهم، مع احتفاظهم بحرية ممارسة شعائر دينهم، واحترام مساجدهم، ولكنه بعد أن دخل المدينة نقض معاهدته وغير مسجدها الجامع إلى كنيسة[١٣٥].

وكانت نهاية القادر يحيى أن قتل على يد ابن جحاف قاضي بلنسية في الوقت الذي كان فيه المرابطون يتابعون مشروعهم في توحيد الجزيرة تحت حكم قائدهم ابن تاشفين[١٣٦].

---

(١٣٣) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١١١)، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٢).

(١٣٤) محمد عنان: المرجع السابق (ص ١١١ - ١١٢)، وقوريه كانت من أملاك ابن الأفطس. انظر الحميري: الروض (ص ٤٨٥).

(١٣٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٦٥ - ١٦٦ - ١٦٧)، ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس (ص ٨٤)، ابن الأثير: الكامل ج ٨ (ص ١٣٨)، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٥، محمد عنان دول الطوائف (ص ١١١) وما بعدها، إحسان عباس: المرجع السابق (ص ٢٢ - ٢٣)، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٤).

(١٣٦) انظر محمد عنان: المرجع السابق (ص ٣٢٧) وما بعدها.

ثالثا: الفتيان العامريون في المرية ـ مرسية ـ بلنسية ـ دانية ـ والجزائر:

كان أشهر هؤلاء الفتيان مجاهد بن يوسف العامري المستولي على دانية والجزائر الشرقية بعد حصول الفتنة بمقتل مولاه عبدالرحمن بن المنصور، ويذكر أنه كان متوليا على الجزائر الشرقية فلما علم بوقوع الفتنة انطلق إلى دانية فاستولى عليها(١٣٧)، واشتهر مجاهد بحبه للعلم والعلماء والأدباء كما وصف بجميل الأخلاق يشوبها أحيانا ابتذال وضعة(١٣٨).

وهناك من المؤرخين من يذكر أن مجاهداً غادر قرطبة عند مقتل الخليفة محمد المهدي فملك طرطوشة ثم سار عنها إلى دانية(١٣٩).

كما أن الحميدي يذكر أن مجاهداً خرج عن قرطبة بعد زوال نفوذ العامريين حيث اتجه إلى الجزائر فملكها ثم سار إلى سردانية غازيا(١٤٠).

ومهما يكن فإن مجاهدا حكم بعد الفتنة مدينة دانية والجزائر الشرقية سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م ومن أهم أحداث عصره غزوه لجزيرة سردينية حيث تمكن من الاستيلاء عليها، ثم لم يصفُ له الحال لتمرد الجند واختلاف أهوائهم عليه ثم تكالب النصارى على حربه في شكل حملات صليبية من جنوة وبيزه مع مساندة أهالي الجزيرة من النصارى لهم، هذا بالإضافة إلى سوء الأحوال المناخية التي صاحبت معركته مع القوى البحرية النصرانية، فكان لكل ذلك أثر حاسم في انكسار قواته البحرية أمام أعدائه سنة ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م فتحطم كثير من سفنه بسبب العواصف الشديدة التي قذفت بها على الشواطئ مما أجبر مجاهداً على مغادرة الجزيرة إلى دانية، وكان قائده البحري المدعو خروب قد نهاه عن الدخول إلى أحد المواقع ويدعى هذا المكان كالياري فلم يستمع لنصحه ومشورته فتحطم اسطوله وهزم(١٤١).

---

(١٣٧) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٥٥).

(١٣٨) انظر مثلا: ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٣ - ٢٤)، ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ١٥٦)، المراكشي: المعجب (ص ١١٠).

(١٣٩) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٨٩) نقلا عن ابن خلدون.

(١٤٠) جذوة المقتبس (ص ٣٥٣).

(١٤١) الحميدي: الجذوة (ص ٣٥٣)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣).

ويشير ابن الأثير إلى أن مجاهدا غزا سردينية سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م ثم عاد إلى الأندلس ليجهز مائة وعشرين مركبا وشحنها بألف فرس ففتح سردينية سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م وغنم منها غنائم وفيرة، ثم قاتله الفرنجة في آخر هذه السنة فأخرجوه عنها(١٤٢).

وأصيب مجاهد في أهله وولده وأخيه في تلك المعركة حيث وقعوا في الأسر لدى النصارى، ومكث ابنه علي أسيراً لديهم عشر سنوات، حتى تمكن أبوه من افتكاكه بفدية كبيرة، فلما حضر لديه عينه وليا للعهد وأثناء وجود مجاهد في دانية شارك في بعض الأحداث العسكرية فقد انضم لجيش الأندلسيين الذي قاتل البربر بقيادة زاوي بن زيري الصنهاجي، وكان الفتيان العامريون قد بايعوا الخليفة عبدالرحمن بن محمد الأموي بالخلافة ولقبوه بالمرتضى، وساروا معه لقتال البربر فهُزم جيش الخليفة الذي قُتل في المعركة سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م(١٤٣).

وتمكن مجاهد من الاستيلاء على بلنسية بعد وفاة مظفر ومبارك وثورة أهالي بلنسية على لبيب صاحب طرطوشة الذي اقتسم حكم بلنسية مع مجاهد، لكن سخط البلنسيين عليه جعله يفر عن مدينتهم ليدخلها مجاهد، وبعد سنتين من حكمها تخلى عنها لعبدالعزيز بن عبدالرحمن المنصور سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م(١٤٤).

وعندما قتل زهير العامري حاكم المرية في صدامه العسكري مع باديس بن حبوس استولى عبدالعزيز صاحب بلنسية على المرية وأعمالها ومرسية واوريولة وشعر مجاهد بتوسع مملكة جاره وخشي خطره فعزم على قتاله حيث التقى الطرفان وهُزم مجاهد(١٤٥).

وخلف مجاهد على دانية ابنه علي الذي دخل في صراع مع أخيه

---

(١٤٢) الكامل ج ٧ (ص ٢٩٣).
(١٤٣) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٩٦).
(١٤٤) محمد عنان: نفس المرجع والصفحة.
(١٤٥) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص١٦٧ - ١٩١). عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية (٧٢ - ٧٣)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ١٩٧)، المرية ومرسية واريولة إلى الجنوب الشرقي للأندلس انظر الخريطة.

حسن الذي كان ساخطا على ولايته للعهد من دونه فعزم على التخلص منه وإزالته عن سدة العرش، ولجأ إلى زوج اخته المعتضد بن عباد ليساندم في مؤامرته تلك، لكن محاولته باءت بالفشل واضطر حسن إلى الفرار إلى صهره الثاني عبدالملك بن عبدالعزيز حيث بقي هنالك في بلنسية حتى توفي[146].

وفيها يتصل بالجزائر ويقصد بها ميورقة ومنورقة ويابسة فقد كان متوليا عليها إبان حكم مجاهد قائد بحري يدعى الأغلب. وبعد وفاة مجاهد استأذن ابنه علي في الحج فولى عليها سليمان بن مشكيان واستمر في ولايتها حتى توفي سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م بعد أن حكمها خمس سنوات، فولى مكانه عبدالله المرتضى الذي بقي في حكمها طويلا. وعندما سقطت دانية في يد ابن هود، أعلن المرتضى استقلاله بحكمها، وخلفه بعد وفاته سليمان بن مبشر ليخلفه عليها ابنه ابوالربيع سليمان وفي عهده سقطت ميورقة في يد الأسطول النصراني سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٤م ولكن المرابطين استردوها سنة ٥٠٩هـ/ ١١١٥م[147].

ولعلي بن مجاهد أياد بيضاء فقد ساهم في إنقاذ إخوانه المصريين إبان المجاعة التي اجتاحت مصر فبعث بمركب كبير مملوء بالأغذية والحبوب إلى مصر في عهد الخليفة الفاطمي المستنصر بالله فأعاد اليه هذا المركب مملوءاً بالتحف والمجوهرات، وكان بين الاثنين رسائل ودية وصداقة[148].

وكانت نهاية الدولة المجاهدية باستيلاء ابن هود على دانية واستسلام علي بعد حصار عجز عن مقاومته، فآثر السلام وسلم المدينة لابن هود مقابل أن يخرج منها هو وولده وأهله بالأمان، فوافق

(١٤٦) ابن عذاري: البيان ج ٣ (ص ١٥٧ - ١٥٨).
(١٤٧) محمد عنان: المرجع السابق (ص٢٠٢، ٢١١، ٢١٢)، وهذه الجزائر إلى الشرق من الأندلس في البحر الأبيض المتوسط.
(١٤٨) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٢٨).

المقتدر، وخرج عليّ وزال بذلك سلطانه[149].

(٢) الفتيان مظفر ومبارك في «بلنسية»:

كان هذان الفتيان يتوليان وكالة الساقية في هذه المدينة أيام ولاية عبدالرحمن بن يسار عليها، ثم ما لبث مبارك بعد تغير الأحوال أن تولى إمارة بلنسيه بالاشتراك مع صديقه مظفر، وكانا يحكمان معا وينظران في تصريف شؤون المدينة سويا (ولحق بهم لأول أمرهم من موالي المسلمين ومن أجناس الصقلب والافرنجة والبشكنس عشيرتهم، وداموا على الركوب حتى تلاحق ببلنسيه ونواحيها جماعة من هؤلاء الأصناف، فوارس برزوا في البسالة والثقاف، وانفتح على المسلمين ببلد الأندلس باب شديد في إباق العبيد إذ نزع اليهم كل شريد طريد، وكل عاق مشاق. . .)[150]

ولم يسلم مبارك ـ وكان أقوى تدبيرا وسياسة من مظفر ـ من الصراع مع جيرانه إذ نراه في نزاع مع منذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة قبل ظهور بني هود، وكان المنذر طامعا في الاستيلاء على طرطوشة من الفتى لبيب الذي سارع في طلب العون من مبارك فكانت الحرب بينهما حيث انهزم فيها منذر وعاد خائبا إلى مملكته[151].

وتوفي مظفر قبل صاحبه مبارك، لكن الأخير لحق به من جراء سقطة سقطها حصانه فوق إحدى القناطر فهوى مبارك على خشبة ناتئة وسقط فوقه حصانه مما أدى إلى مصرعه، ويذكر ابن عذاري أن الناس طلبوا منه الترفق بحالهم عندما طلب منهم مبالغ ضخمة فدعا على نفسه بقوله (اللهم إن كنت لا أريد إنفاقه فيما يعم المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة)[152] فحصل له ما ذكرنا وليس ذلك على الله ببعيد، وهو قاصم الجبارين ومهلك الظالمين، وكم عانى الناس في هذه الفترة من

---

(١٤٩) الأمير عبدالله: البيان (ص ٧٧ ـ ٧٨)، ابن عذاري: نفس المصدر والجزء (ص١٥٨)، محمد عنان: دول الطوائف (ص٢٠٨).

(١٥٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦).

(١٥١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ١٤ ـ ١٥ ـ ١٦).

(١٥٢) البيان، ج ٣ (ص ١٦٣).

أمثال مبارك هذا من الذين استغلوا قوتهم وسلطانهم في قهر الناس واستلابهم اموالهم وثرواتهم بغير وجه حق.

وقد مر معنا الإشارة إلى دور صاحب طرطوشة لبيب في حكم بلنسية مع مجاهد ثم تولي الأخير حكمها بنفسه حتى تسليمه المدينة إلى عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور وخلفه على حكمها ابنه عبدالملك الذي زال سلطانه عنها على يد المأمون بن ذي النون.

(٣) خيران العامري في المرية:

كان خيران قد شارك غيره من الفتيان في أحداث الفتنة وأعانوا جميعهم على إعادة الأمر إلى هشام المؤيد، ولكن خصومهم من البربر كانوا أكثر سيطرة على الأحداث، فبعد دخول المستعين قرطبة كما تقدم ذكره خاف الفتيان عاقبة ذلك ففروا خارجها، وكان منهم خيران الذي سار إلى اوريولة واستولى عليها، ومنها وثب على مرسية، ثم على المرية، وكان عليها أفلح الصقلبي فقتله خيران وأخذ المدينة منه سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م. ولكن خيران اتفق مع بقية الفتيان العامريين على اختيار زعيم لهم من بني عامر، وتم اختيار عبدالعزيز بن عبدالرحمن، وتمت بيعته في شاطبة سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م لكن خيران اختلف معه بعد ذلك، وخرج عليه وبايع محمد بن عبدالملك بن المنصور الذي وفد على مرسية، لكنه اختلف معه أيضا فخرج الأخير عن مرسية[١٥٣].

وحكم خيران المرية وبسط سلطانه عليها، وأدخل عليها كثيرا من ضروب الإصلاح والتحصين فدعم أسوارها وبنى بها كثيرا من المنشآت المعمارية واهتم بتوسيع جامع المرية وحفر آبارها[١٥٤].

وبعد وفاة خيران تولى صاحبه زهير العامري مكانه. ودخل هذا في حروب مع باديس بن حبوس بمشورة وزيره العالم الكاتب أحمد بن

---

(١٥٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٤٩ - ٢٥٠)، محمد عنان دول الطوائف (ص ١٥٩ - ١٦٠ - ١٦١)، السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية (ص ٥٩ - ٦٠ - ٦٦).

(١٥٤) السيد عبدالعزيز: تاريخ مدينة المرية (ص ٦٠ - ٦١).

عباس فقتل زهير في حروبه تلك وقُبض على وزيره ابن عباس وقتل أيضا، وهنا عمد أهل المرية إلى مراسلة عبدالعزيز بن عبدالرحمن الذي دخل المرية وولى عليها صهره أبا يحيى معن بن صمادح التجيبي[١٥٥].

غير أن معن بن صمادح ما لبث أن استقل بحكم المرية سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م. وكان والده من كبار القواد في حكومة المنصور بن أبي عامر، ولما توفي معن خلفه ابنه محمد معز الدولة، وتلقب بالمعتصم بالله، وكان حال البلاد في عهده على درجة طيبة من الرخاء والأمن والاستقرار، وعرف بشغفه العظيم بالعلوم والآداب وامتد حكمه إلى أكثر من أربعين سنة حيث دخل المرابطون بلاده وحاصروا عاصمته حتى سقطت، وكان آنذاك على فراش الموت[١٥٦].

وفيما يتصل بمرسية التي كانت تحت حكم زهير العامري، فقد كان عليها نائبه أبوبكر أحمد بن إسحاق بن طاهر، وكان موصوفا بالبراعة في الأدب والشعر مما كان له أكبر الاثر في نشاط سوق العلوم والمعارف في تلك المدينة، ولما توفي خلفه ابنه محمد، وكان على منوال ابيه فيما تقدم. ولما سقط حكم عبدالملك العامري في بلنسية باستيلاء المأمون عليها سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م أعلن محمد استقلاله، لكن الأحوال لم تصفُ له فقد امتدت إلى مرسية أطماع المعتمد بتأييد من وزيره ابن عمار الذي سار على رأس حملة عسكرية لمحاصرة مرسية بالتعاون مع ملك برشلونه النصراني، غير أنه لم ينجح في محاولته فارتد ليعود إليها ثانية ولكن بقيادة عبدالرحمن بن رشيق الذي حاصرها حتى سقطت سنة ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م ودخلت في أملاك المعتمد بن عباد[١٥٧].

---

(١٥٥) ابن عذاري: البيان ج ٣، (ص ١٦٦ - ١٦٧)، السيد عبدالعزيز: المرجع السابق (ص ٦٨)، (ص ٧٢).

(١٥٦) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ١٦٧ - ١٦٨)، ابن الأثير: الكامل ج ٧ (ص ٢٩٣ - ٢٩٤)، الذهبي: تاريخ الإسلام - مخطوط ج ١٢ ورقة ٤٣ ب، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٥، وانظر محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٦٤). وما بعدها، السيد عبدالعزيز: المرجع السابق (ص ٧٤، ٨٢).

(١٥٧) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣ ج ١ (ص ٢٤ - ٢٥ - ٢٦)، محمد عنان: المرجع السابق (ص ١٧٩) ومابعدها.

رابعا : موالي بني أمية: دولة بني جهور في قرطبة:

عندما أعلن أهل قرطبة موقفهم من بني أمية وقرروا سحب الثقة منهم في تولي أمرهم عمدوا إلى عرض سياسة مدينتهم وتدبير شؤونها على الشيخ ابي الحزم جهور[١٥٨]، وكان من وزراء الدولة العامرية موصوفا بالحكمة والعقل متنزها عن الوقوع في أحداث الفتنة وتدنيس يده في دمائها، وبعد إلحاح من أهل قرطبة قبل تولي أمر إدارة شؤونها وتصريف سياستها، واشترط مقابل موافقته اشتراك محمد بن عباس وعبدالعزيز بن حسن ابني عمه في المشورة والرأي[١٥٩].

سار أبو الحزم جهور على نهج متميز في تدبير شؤون قرطبة والنظر في سياستها ومعالجة أمور الرعية، فهو أولا لم يدّع إمارة أو مُلْكا ولم يتسم بشيء من ذلك بل كان يرى أنه في خدمة الرعية حتى يأتي من يستحق حكم المدينة (ورتب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ولم يتحول عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك، وهو المشرف عليه، وصير أهل الأسواق جندا، وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم محصلة عليهم يأخذون ربحها فقط ورؤوس الأموال باقية محفوظة، يؤخذون بها ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها، وفرق السلاح عليهم، وأمرهم بتفرقته في الدكاكين، وفي البيوت حتى إذا دهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه..)[١٦٠].

---

(١٥٨) ينتسب بنو جهور الى جدهم يوسف بن بخت وهو ممن وصل الأندلس في الطالعة البلجية وقد خدم الأمير عبدالرحمن الداخل وتولى ابناؤه بعد ذلك الوزارة في الإمارة ثم الخلافة الأموية فكان منهم جهور بن عبدالملك الذي وزر للخليفة الناصر ثم حل مكانه ابناه مروان ومحمد والأخير هو والد ابي الحزم جهور (انظر محمد عنان: دول الطوائف، (ص ٢٠ - ٢١).

(١٥٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٦٠٢).

(١٦٠) الحميدي: الجذوة (ص٢٨)، وانظر ما يتضمن هذا المعنى: ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص٦٠٢) وما بعدها، ابن خاقان: المطمح (ص ١٨٠ - ١٨١) وما بعدها، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٢٠) وما بعدها، ابن الأثير: الكامل، ج ٧ (ص ٢٩٠) المراكشي: المعجب (ص ٩٠) وما بعدها، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٤)، كامل الكيلاني: ملوك الطوائف (ص٩ - ١٢)، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص٣٢٣)، خالد الصوفي: جمهورية بني جهور (ص ٥٠) وما بعدها.

وعلى هذا فان سياسة ابن جهور كانت سياسة حكيمة عادلة، صلح بها حال الرعية بعد الفتن والقلاقل، وكان إذا رابه أمر عمد إلى مشورة الجماعة، وإذا حصل لديه من المال شيء لم يأخذه بل يشهد على مقداره ويسلمه لغيره من الجماعة لتفريقه على مستحقيه، وكان إلى جانب ذلك عفيفا صالحا جميل السيرة، حميد الأخلاق في نفسه ومع الناس[١٦١].

وهكذا يلحظ الدارس للتاريخ الإسلامي الأندلسي مدى ما عادت به سياسه الشورى على الرعية من وفور الأمن والاستقرار الذي قام عليه ازدهار ورخاء ورقي، وهو ما افتقده الناس أيام الفوضى والقلاقل، وهذه الحكومة بلا شك تعتبر نموذجا وضاء ورائعا في التاريخ السياسي الإسلامي، إذْ إنها قامت على حكم الجماعة، ومبدأ تطبيق نظام الشورى الاسلامي، فكانت من أنجح بل لا نغالي أنها أنجح الحكومات التي قامت في الأندلس لو امتد بها عمر وسارت على ذلك المنهج السياسي الإسلامي. وتعتبر حدثا غريبا بين تلك الممالك الاندلسية التي قامت على الحكم الفردي المطلق البغيض الذي أدى إلى قهر الرعية واستنزاف أموالهم في سبيل إشباع رغبات حكامهم وتوفير الأجواء المترفة لهم على حساب الرعية وعرقها، هذا بالإضافة إلى ظلم الناس بجمع الأموال الضخمة لملوك النصارى كجزية يكفون بها عن استلاب أولئك الملوك عروشهم.

يقول ابن حيان في وصف نتائج الحكم الشوري في قرطبة (واستمر ابن جهور في تدبير قرطبة، فأنجح سعيه بصلاحها، ولم شعثها في المدة القريبة وأثمر الثمرة الزكية، ودب دبيب الشفاء في السقام، فنعش منها الرفات وألحفها رداء الامن.. فرخت الأسعار، وصاح الرخاء بالناس أن هلموا فلبوه من كل صقع، فظهر تزيد الناس بقرطبة من أول تدبير لها حتى ملؤوا المساجد والأفنية، وسمت أثمان الدور بها، والابتناء لخرابها الفاشي أخذا

---

(١٦١) ابن بسام: الذخيرة، ق١، ج ٢ (ص ٦٠٢ - ٦٠٣)، وانظر ايضاً كليليا سارنللي: مجاهد العامري، (ص٧٦).

بالهوينا فاتصل البنيان بها، وغلت الدور وحركوا الأسواق..)[١٦٢].

هذا قول ابن حيان المؤرخ الصادق الذي لا ينقص من شهادته انه عمل لديه في وظيفة كتابية، فإن أبا الحزم قد توفي قبل ابن حيان، وكان باستطاعة الأخير وقد انطلق من قيود وظيفته، وتخلص من مراقبة رئيسه ومتابعته أن يكتب ما شاء له أن يكتب، ولكنه عرف حسن تلك السياسة وعظمتها في رقي أحوال الرعية وإنقاذهم من الظلم والظلام، وقد أشار ابن حيان في معرض حديثه عن تلك الحكومة إلى أنه لولا ما أوصاه به أبو الحزم من كتمان أعماله وأفعاله الخيرية لزاد في الثناء على سيرته ولكنه أجابه إلى ذلك فاكتفى بما أشار إليه.

وخلف أبا الحزم في متابعة الإشراف على سياسة قرطبة ابنه أبو الوليد الذي سار على نهج أبيه وحرص على إعادة الحقوق لأصحابها وكانت أحوال الناس في قرطبة تزداد نتيجة لتلك السياسة رخاء وازدهارا وتطورا في مناحي الحياة المختلفة، حتى عجب الناس من شمول الأمن والاستقرار في صورة لم تتوافر أثناء وجود الشرطة ورجالها قبل عصر الفتنة[١٦٣]، رغم ما كان للشرطة من هيبة وجلال في قلوب الناس، ولكنها السياسة العادلة والطمأنينة النفسية التي حلت في قلوب الناس واستشعارهم مسؤولية المشاركة في الحفاظ على مدينتهم وأمنها وسلامتها.

ولكن الخطأ الذي لا يخلو منه إنسان وقع فيه أبوالوليد إذا إنه قسم شؤون الحكم في الرعية بين ابنيه عبدالرحمن وعبدالملك، ولكن الأخير وهو الأصغر استطاع أن ينفرد بالسياسة، وكان يعاونه في تدبير شؤون السياسة الوزير ابراهيم بن يحيى المعروف بابن السقاء، وكان المعتضد يتابع أحوال قرطبة طامعا فيها راغبا في القضاء على حكومتها، وبالأخص على الوزير النابه ابن السقاء الذي استطاع أن يدير شؤون تلك المدينة بحنكة بالغة مما دفع المعتضد إلى زرع الفتنة بينه وبين عبدالملك فسارع الأخير إلى قتل وزيره

(١٦٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٦٠٣ - ٦٠٤).
(١٦٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٦٠٥ - ٦٠٦).

ظنا منه أنه يدبر مؤامرة لأخذ الحكم والتخلص منه[١٦٤].

وفي عهد عبدالملك طمع المأمون صاحب طليطلة في الاستيلاء على قرطبة، فسار إليها بجيش فاستنجد عبدالملك بالمعتمد بن عباد اللي أرسل اليه قوة من الجند نزلت بربضها الشرقي، ولما يئس المأمون من حصول مراده رحل عنها إلى بلاده، وما كاد أن يغيب عن الأنظار، حتى سارع الجيش الاشبيلي فحاصر قصر قرطبة، وتم لهم القبض على عبدالملك وعلى إخوته وأسرته وأبيه الوليد بن جهور، وكان في حالة صحية سيئة، حيث سجنوا بجزيرة شلطيش[١٦٥].

مواقف بعض العلماء من تحطم الوحدة السياسية للأندلس:

هؤلاء هم ملوك وأمراء الطوائف، وهناك إمارات صغيرة قامت في بعض أنحاء الأندلس، لكنها ما لبثت أن انضمت بالقوة إلى إمارات وممالك أقوى منها، وفي جانب آخر هنالك أمراء قاموا في بعض المناطق؛ ولكنهم كانوا من الضعف بحيث لم يؤثروا في الأحداث بشيء يذكر، وكان الصراع العسكري كما رأينا ديدن ملوك الطوائف، فقلما نسمع عن ملك منهم عاش في مملكته آمنا مستقر الحال، بل كان تاريخ تلك الممالك مطبوعا بمسحة عسكرية قتالية فيما بينها. وهي بلا شك ظاهرة طبيعية لأنهم أنفسهم كانوا ثائرين مغامرين طامعين، فمن العسير أن نطالبهم بالسلام فيما بينهم ولأنهم انشؤوا ممالكهم على مبدأ الاغتصاب والسلب والقتل والتدمير، ولو أنا نظرنا إلى مواقفهم تجاه القوى النصرانية لأخذنا العجب من استخذائهم لملوك النصارى وتهافتهم على كسب رضاهم حفاظا على عروشهم من الضياع، فكانوا يؤدون الجزية لملوك النصارى. يقول ابن بسام في ذلك: (وكانت طوائف الروم مدة ملوك الطوائف بأفقنا قد كلب داؤهم بكل إقليم فلاطفوهم

---

(١٦٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١ ج١ (ص٦٠٧ - ٦٠٨ - ٦٠٩)، محمد عنان: دول الطوائف (ص٢٦).

(١٦٥) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٦١٠ - ٦١١)، محمد عنان: المرجع السابق (ص٢٨ - ٢٩) وجزيرة شلطيش في الجنوب الغربي لمملكة اشبيلية وقد استولى عليها المعتضد كما مر معنا آنفا.

بالاحتيال، واستنزلوهم بالأموال، لم يزل دأبهم الإذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والإعناد، حتى استصفوا الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة إلى ما يتبعها من هديات ونفقات)[166].

ومن المضحك أن نجد كثيرا من الشعراء يزينون لهم هذا المسلك المشين الذي يعتبر خيانة كبيرة للأمة والوطن حتى قال حسان المصيصي يمدح المعتمد ويهون عليه تلك الاتاوة:

ولم تطو دون المسلمين ذخيرة تهين كرام المنفسات لتكرما
تحيل في فك الاسارى وانما تعاقد كفارا لتطلق مسلما

وفي ذلك قال أبوبكر الداني

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع
تنيلهم نعما في طيها نقم سيستضرّبها من كان ينتفع[167]

إلى آخر هذا الهذيان والتدليس في محاولة لإخفاء الذل والحقارة عن أصحابها.

وبعكس هؤلاء المرجفين كان هنالك علماء مخلصون وأدباء بالحق مستمسكون أعلنوا سخطهم واستياءهم لهذا الأمر، فقد ذكر إن ابن هود لما طلب من رعيته أن يجمعوا أموالا طائلة كجزية لملك النصارى ـ سار منهم ـ اي من الرعية ـ وفد إلى أحد العلماء الصالحين فأخبروه بذلك، فغضب وسار إلى ابن هود فوعظه وأغلظ في القول حمية للمسلمين والإسلام، فاغتاظ ابن هود وقال في نفسه احتقرنا هذا حتى خاطبنا بهذا الكلام فإن تركناه تجاسر علينا غيره ثم أمر بقتله[168].

ونجد خلال دراستنا لتاريخ ملوك الطوائف مواقف مشرفة لبعض

(١٦٦) الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٢٤٨).
(١٦٧) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٤٨ - ٢٤٩).
(١٦٨) ابن عذاري: البيان، ج ٣ (ص ٢٢٩).

المخلصين والغيورين على الإسلام والمسلمين، نلمس ذلك في سيرة المتوكل أمير بطليوس الذي رفض في إباء وشمم تهديدات الفونس له وطلبه بعض قلاعه وحصونه وأداء الجزية، فرد عليه المتوكل برسالة تنم عن الشجاعة والأنفة وعزة الإسلام وختمها بالإشارة إلى أنَّ الأمر لدى المسلمين بين حالين: إمّا نصر مؤزر يعلي الله به شأن المسلمين أو شهادة غالية توصل إلى رضى رب العالمين. وأن ليس غير السيف جوابا آخر(١٦٩).

وكان الوضع السياسي للأندلس مصدر ألم للمتوكل الذي كان متطلعا إلى لم شمل المسلمين وتوحيد سياستهم، فندب العلامة الفقيه قاضي عاصمته بطليوس أبا الوليد سليمان بن خلف الباجي، ليطوف بعواصم الأندلس ويتصل بملوكها فيعظهم ويبين لهم طريق الرشاد في التمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله جميعا وينهاهم عن التفرق والاختلاف، وأتم أبو الوليد مهمته ولم يدخر وسعا في سعيه نحو جمع كلمة المسلمين وجبر صدعهم(١٧٠).

وكان الباجي في أول وصوله الأندلس من المشرق عائدا من رحلته العلمية، قد هاله ما شاهده من أوضاع المسلمين وتفرق شملهم فـ (رفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انْبَتّ من تلك الأسباب فقام مقام مؤمن آل فرعون، لو صادف أسماعا واعية، بل نفخ في عظام نخرة وعكف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب، وأجزل حظه بالتأنس والتقريب، وهو في الباطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته، وماكان أفطن الفقيه رحمه الله بأمورهم، وأعلمه بتدبيرهم لكنه كان يرجو حالا تثوب ومذنبا يتوب)(١٧١).

وفي سيرة أبي الوليد بن جهور ما ينم عن صلاح سيرته وتطلعه إلى وحدة المسلمين ونبذ الفرقة عنهم، وقد كان له دور في ذلك فقد سعى في الصلح بين المعتمد وابن الأفطس على اثر الحرب التي كانت متصلة بينهما والتي في

---

(١٦٩) انظر مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، (ص ٣٦، ٣٧).
(١٧٠) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٩٨).
(١٧١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٩٥ - ٩٦).

فيها كثير من الأرواح والأموال مما لو وجه إلى تقوية الجبهة الإسلامية لما تجاسر النصارى على عدوانهم وفرضهم الاتاوات على حكام المسلمين[١٧٢].

وسوف نشير إلى دور بعض الشعراء والأدباء الذين لم يغرهم زخرف الدنيا عن قول الحقيقة والدعوة في صراحة إلى التنبه إلى الأخطار المحدقة بالمسلمين. ومن هؤلاء الشعراء الشهيد أبوحفص الهوزني وأبو إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري، والسميسر خلف بن فرج الألبيري وقد لقي الأول منهم مصرعه لقوله كلمة الحق لدى المعتضد وهو ما سوف نشير إليه عند الحديث عن الشعر.

كما أن العلامة أبابكر محمد بن أحمد بن محمد (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) سعى آنذاك بين ملوك الطوائف في إزالة الفرقة وتقريب وجهات النظر ومحاولة رأب الصدع[١٧٣].

وغير هؤلاء كثير من العلماء والأدباء الذين لم يركنوا إلى الدعة والخنوع والتزلف إلى الحكام وتقبيل الأرض بين أيديهم، بل راعوا أمانة العلم والمعرفة وتحلوا بأخلاق العلماء الصادقين فكشفوا الكثير من الزيف والضلال الذي سلكه ملوك عصرهم، وبينوا لهم حكم الشرع في ذلك تحدوهم الحمية وعزة دينهم، وأنهم على الحق ولابد أن العاقبة للمتقين[١٧٤].

ولكن رغم هذه المساعي والجهود المخلصة فإن ملوك الطوائف بما جبلوا عليه من حرص وأنانية في احتفاظ كل منهم بحياته الناعمة المترفة وعكوفه على الملذات ألهاهم جميعا عن واجبهم. أمام الله ثم أمام وطنهم ولم يعطوا لتلك المساعي الخيرة اهتماما ولا ألقوا اليها بالا، حتى أيقظتهم من سباتهم النكبة العظمى بسقوط طليطلة في يد الفونس السادس ملك النصارى وكأنما كانوا في نوم عميق، حتى إذا وقعت الطامة تململوا من سباتهم وأخذوا يتلمسون حقيقة وضعهم المزري أمام عدوهم الطامع المتغطرس، وكان من

---

(١٧٢) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤١ - ٤٢).
(١٧٣) المراكشي، الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٣٧ - ٣٨).
(١٧٤) انظر عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٣٣٦) وما بعدها.

أثـر ذلـك اتفـاقهم فيما بينهم على الاستنجاد بإخوانهم المسلمين في بلاد المغـرب، فاستجـاب قائدهم يوسف بن تاشفين لهم بعزيمة ماضية ورغبة صادقة في نصرة الإسلام، وعبر يوسف إلى الأندلس حيث اتجه بجنده ومن سانده من أهل الأندلس إلى سهل الزلاقة ليلتقوا بجيوش الفونس وأنزلوا بها هزيمة ساحقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وتبع هذه الحادثة بسنوات دخول المرابطين الأندلس لتوحيدها والقضاء على التشرذم والتفكك وإعادة الوحدة السياسية للأندلس بعد أن فقدتها فترة طويلة.

ولكن رغم هذا التمـزق في الكيان السياسي للأندلس في عصر ملوك الطوائف فإن هناك حقيقة هامة ترتبط بهؤلاء الملوك وهي أنهم كانوا أكثر عظمة وقوة في ميادين العلم والأدب، وكانوا بحق قادة قديرين في مسيرة الحضـارة الإسلامية في الأندلس، وما من شك أنه كان لتعدد بلاطاتهم واختلاف ميولهم العلمية والأدبية أثر كبير في نشاط المعرفة والعلوم المختلفة فتميز البعض في النهوض بالدراسات اللغوية، والبعض الآخر في الأدب والشعر، وآخرون في العلوم البحتة إلى ما هنالك من فروع العلم. بل إن كثيراً من هؤلاء الملوك كانوا بحق علماء يشار إليهم بالبنان، وسوف نفصل الحديث عن هذه الظاهرة في الفصل الثاني.



عوامل رقي الحياة العلمية في الأندلس في القرن الخامس الهجري

(١) التطور العلمي للأندلس في عصر الخلافة القـرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[1].

من الملاحظ عند دراسة التأثيرات الحضارية في تاريخ الشعوب والأمم أن أيا من الحضارات الكبيرة المؤثرة في غيرها من الحضارات قد سبق تأثيرها وفعـالياتهـا القوية جهد عظيم ونشاط واسع في بناء تلك الحضارة وتقوية دعـائمهـا والـرقي بأحـوالهـا إلى درجة كافية من النضج والعطاء السخي للإنسان، وعندئذ يكون لها قوة التغيير وعمق التأثير في غيرها من الحضارات التي لم تبلغ قوتها وحيويتها.

ونحن عند دراستنا للحضارة الإسلامية في الأندلس يتبين لنا ان حالها مر بمثل تلك المراحل، فقد أعقب استقرار أحوال المسلمين في اسبانيا في عصر الإمارة[2] الاتجاه نحو مناحي الحضارة المختلفة من نظم حكم واقتصاد وتجارة وثقافة وفكر وغير ذلك، حتى إذا جاء عصر الخلافة شهد تحولا واضحا في مسيرة الحركة الحضارية وعلى وجه التخصيص الجانب العلمي منها، إذ إنها وجدت المناخ الملائم والتربة الخصبة للنماء السريع. وكان ذلك عائدا إلى عوامل عدة من أهمها ما أولاه الخلفاء، وفي مقدمتهم الخليفة الحكم المستنصر من جهود ومساع عظيمة لدفع عجلة النشاط العلمي في الأندلس. هذا ومن الإنصـاف أن نشـير ـ في هذا الصـدد ـ إلى دور أبيه الخليفـة

---

(١) سبق للباحث أن درس هذا الموضوع بصورة مفصلة في رسالته التي نال بها درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من جامعة أم القرى سنة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م. وموضوعها «الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة» (لم تنشر).

(٢) شهدت الأندلس في عصر الإمارة بداية ازدهار العلوم والآداب. وكان عصر الأمير عبدالرحمن الاوسط عصراً زاهيا في مختلف ميادين الحضارة ومنها بطبيعة الحال ميدان العلم والمعرفة، إذ كان الأمير نفسه معتنيا بعلوم الأوائل شغوفا بالفلسفة حتى شبه بالمأمون العباسي في ذلك، وعرف عنه تشجيعه للعلماء وإكرامه لهم وعقده كثيرا من مجالس العلم والأدب والمناظرات بين يديه.
انظر السيوطي: تاريخ الخلفاء، (ص ٥٥٦)

عبدالرحمن الناصر الذي عمل على تهيئة الأجواء المناسبة لازدهار العلوم والمعارف، فعصره قد شهد حالة من الاستقرار السياسي وشيوع الأمن والسلام في المجتمع الأندلسي فاتجه الناس إلى تحسين أحوالهم المختلفة ومتابعة مسيرتهم الحضارية بمختلف عناصرها ومن بينها العلوم والآداب، وكان العلماء آنذاك يرحلون للقاء بعضهم بعضاً والأخذ عن البارزين منهم علوم الدين والأدب والتاريخ وغير ذلك من العلوم، وكانت العاصمة قرطبة تمثل قطب الرحى في ذلك النشاط، ومهوى أفئدة العلماء وطلاب المعرفة. وكانت كمركز للخلافة تشهد ورود العلماء والأدباء على بلاط الخلافة فينالون من الخليفة ووزرائه كل تكريم وتشجيع، ولهذا لا نعجب إن ألفت كثير من الكتب باسم الخليفة او باسم وزير من وزرائه مما هو ملموس في حركة التأليف العلمي آنذاك.

ولم تكن عناية الخليفة الناصر بالعلوم والآداب مقتصرة على كونه محبا لذلك، بل كان هو نفسه يتمتع بقدر لا بأس به من المواهب الأدبية والشعرية.

كما ينسب إلى الخليفة الناصر إجادته للإنشاء وكتابه النثر الجميل. هذا ولا تفوتنا الإشارة إلى مدى اهتمامه البالغ بمصادر المعرفة فقد سعى إلى جمع ألوان الكتب ونفائسها حتى بلغ هذا الأمر الامبراطور البيزنطي أرمانوس فبعث إليه بكتابين أحدهما في الطب، وهو كتاب ديسقوريدس في النبات مصورا وباللغة الإغريقية والآخر كتاب هروشيش باللاتينية في التاريخ[٣].

---

(٣) انظر ابن أبي أصيبعه: عيون الأنباء، (ص ٤٩٣ - ٤٩٤).

ديسقوريدس: عالم نباتي يوناني من أهل مدينة عين زربة - لا يُعلم تاريخ مولده ووفاته ويظهر أنه بعد ابقراط وكان عظيم الاهتمام بالأدوية المفردة وألف فيها كتابه المشهور الذي عول عليه من بعده (القفطي اخبارالعلماء ص١٢٦). وعين زربة من الثغور الشامية. الحميري: الروض (ص ٤٢٢).

هروشيش: بول اوروسيوس، أصله من إقليم براكارا في مقاطعة جليقية في الشمال الغربي من اسبانيا، ويحتمل أن يكون قد ولد فيها بين سنتي ٣٧٥ و ٣٨٠ بعد الميلاد، درس اللاهوت حتى تخرج قسيسا وقد صنف كتابه هذا بناء على رغبة القديس أوغسطين الذي تأثر لسقوط روما في يد القوط الغربيين سنة ٤١٠ م وكان الوثنيون يعزون سقوطها لاعتناق الامبراطورية الرومانية للمسيحية فكان اوغسطين يهدف من وراء استعراض اوروسيوس لأحداث التاريخ أن للمسيحية لا شأن لها بالكوارث. وكان لهذا الكتاب أثر بالغ في أواخر العصور القديمة وطوال العصور الوسطى، والكتاب مطبوع باللغة العربية اعتمادا على الترجمة التي ظهرت في عصر الخليفة الناصر الأندلسي في منتصف القرن الرابع الهجري، وقد حققه د. عبدالرحمن بدوي (انظر مقدمة الكتاب).

وتولى بعد الناصر ابنه الحكم المستنصر الذي كانت خلافته إيذانا بعهد جديد في الأندلس من الناحية الفكرية، والخليفة الحكم يعتبر بلا مبالغة أعظم حكام الأندلس علما وأدبا وتأثيرا على مجرى الحركة العلمية في الأندلس على امتـداد عصـورهـا، وهذا ليس فيه مبالغة، فقد كان شغوفا بالعلوم والمعارف عظيم الالتصاق بها، جماعا للكتب مهتما بها إلى درجة عظيمة. وكان كثير القراءة في فروع المعرفة حتى أكسبه ذلك شخصية علمية متألقة وفكرا نيرا ورأيا نقديا صائبا، وهو ما دفع العلماء إلى اعتبار أقواله وآرائه العلمية حجة لديهم.

وبناء عليه فإن هذا الخليفة العالم قد أحدث في عصره ثورة علمية واسعة النـطاق سلك في قيامهـا طرقـا وأساليب مختلفة من أبرزها اهتمامه البالغ بتـشـجـيع العلماء والأدبـاء على البحث والتحصيل والتصنيف حتى قال المـواعيني: (وفي أيامـه كثـر العلماء، وأدلـوا بها عندهم، وألفت التواليف وصنفت التصانيف)[4].

وإلى جانب ذلك عمد إلى توفير الكتب في شتى حقول المعرفة وسعى في جمع نفائسها وبلغ من شدة عنايته وحرصه على جمعها أنه (لم يسمع في الإسلام بخليفة بلغ مبلغه في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمم بها)، وكان من نتائج ذلك أن ضمت مكتبته الضخمة ما يزيد على اربعمائة الف مجلد في مختلف فروع المعرفة.

ومن ناحية أخرى كان للحكم جهود واضحة ملموسة في تعليم شعبه وتثقيفه، فقد امتدت يده حانية مواسية للفئات الفقيرة المتطلعة إلى التعليم فيسر السبل أمامها لتعليم أولادها وافتتح سبعة وعشرين مكتبا، ثلاثة منها ألحقهـا بجـامـع قرطبة، والباقي فرقه على أرباض قرطبة لتعليم الأطفال والتلاميذ، وخصص لتلك المهمة عددا وافرا من العلماء والفقهاء، وأجرى عليهم المرتبات وأوصاهم بالإخلاص في عملهم.

---

(٤) ريحان الألباب (مخطوط) ورقة ١٣٩ أ.

وكان لحرص الحكم على أن ينال كل فرد من رعيته حقه في التعليم أن أمر بحبس حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين واولاد الضعفاء والفقراء[٥].

وعندما مات الحكم المستنصر وفي خلافة ابنه هشام وثب المنصور محمد ابن أبي عامر على سدة الأمر وسيطر على مقاليد الأمور في الدولة، وكانت نشأة المنصور نشأة علمية حيث كان في شبابه أحد طلبة العلم وهو ما يفسر لنا متابعة الاهتمام بالعلوم والمعارف عند توليه سياسة الدولة الأموية بعد وفاة المستنصر، وعلى الرغم من إقدامه على إحراق وإخفاء كتب الفلسفة فإنّ بقية فروع العلم والمعرفة ظلت على حالها من الازدهار.

ومما يدل على عناية المنصور بالعلم ما ذكر من أنه كان له في كل أسبوع مجلس يجتمع فيه كبار العلماء والأدباء، فيأخذون في التناظر فيما بينهم وتبادل مسائل العلم ومناقشتها بين يدي المنصور الذي لم يكن يشغله عن ذلك سوى جهاده ضد النصارى.

وكان المظفر بن المنصور حكيما في قيادته وسياسته مع رعيته، فعاش الناس في عهده في رخاء وتطور، حتى عدوا أيامه وكأنها أعياد[٦].

وبهذا يتبين لنا مدى ما أسهم به أولئك الخلفاء والحكام من أياد بيضاء على الحركة العلمية وما قدموه من جهود عظيمة ومساع حميدة نتج عنها نهضة علمية زاهرة، وغدت قرطبة في عهدهم منارا للعلم وكعبة للمعرفة يؤمها آلاف العلماء وطلاب العلم ينهلون من المجالس العلمية وحلقات العلم أعذب المعارف وأرقاها، ولا غرابة في ذلك فقد (كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأم القرى، وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الأقاليم، وينبوع متفجر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار

---

(٥) انظر عن شخصية الحكم المستنصر العلمية وجهوده في تشجيع العلم والعلماء: ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ١، ص٢٠٢- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، (ص ٤١) - المقري: نفح الطيب، ج ١، (ص ٣٩٥) - سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص ٧١ وما بعدها.

(٦) عن شخصيتي المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر وسيرتهما العلمية. الحميدي: الجذوة، ص٧٨- المراكشي، المعجب، ص٦٠. ابن بسام الذخيرة، ق ٤ ج ١ (ص ٦٠).

صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر درر القرائح، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائقة وصنفت التصنيفات الفائقة...)[٧].

ومما يؤكد لنا عظمة ذلك العصر وسعة ما حواه من أرباب العلوم والمعارف أنه كان بخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل واحدة منها منبر وفقيه مقلس، وكان عليه مدار الفتيا في الأحكام والشرائع، والقالس عند أهل الأندلس من لبس القلنسوة ولم يكن يلبسها إلا من حفظ الموطأ وقيل من حفظ عشرة آلاف حديث عن النبي ﷺ، وحفظ المدونة[٨].

ويلاحظ الدارس للحركة العلمية في عصر الخلافة نشاط الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق وذلك في سبيل تحصيل العلوم والمعارف ولقاء أكابر علماء المسلمين في المشرق والأخذ عنهم، ونقل كتبهم ومصنفاتهم إلى الأندلس وبثها في أقطارها وبين علمائها. وبناء على هذا فقلما نرى عالما من الأندلس لم يرتحل إلى المشرق ويأخذ عن علمائه اللهم إلا عدداً قليلاً. وما من شك أنه كان للبعض أغراض مختلفة ليس لها بالعلم صلة كالحج والتجارة والسياحة، وهذا لا يعني التقليل من إخلاصهم للعلم فقد كانوا يرون من المفيد الجمع بين تلك الأهداف ولقاء العلماء وتحصيل العلم، ولهذا قال المقدسي فيهم (يحبون العلم وأهله، ويكثرون التجارات والتغرب)[٩].

وكان من أثر تلك الرحلات العلمية أن ازدهرت الحياة العلمية في الأندلس، فقد عاد أولئك العلماء الراحلون بعلم أثرى ومعرفة أوسع وامتلأت الأندلس بآلاف الكتب والمصنفات في مختلف فروع العلم والمعرفة، وأخذ الأندلسيون في تلقي تلك العلوم من أفواه العلماء ومن بطون الكتب الواردة عليهم فازداد النشاط العلمي بصورة سريعة ومتنامية حتى وجدنا بعض العلماء الأندلسيين قد تألقوا وأبدعوا فصنفوا بأنفسهم مصنفات قيمة ومنها

---

(٧) ابن بسام: الذخيرة، ج ١، ق ١ (ص ٣٣ - ٣٤).
(٨) المقري: نفح الطيب، ج ١ (ص ٤٥٨).
(٩) أحسن التقاسيم. (ص ٢٣٦).

عدد لا بأس به في نقد بعض الإنتاج العلمي للمشارقة، وهي ظاهرة تدل على نمو الشخصية العلمية الأندلسية وتحقيق ذاتها[10].

وفيما يتعلق بالعناية بالكتب وجمعها أظهر الأندلسيون في عصر الخلافة ولعا شديدا بجمع الكتب والتنقيب عن نفائسها ونوادرها، حتى قيل أنهم: أشد الناس اعتناء بذلك، وصار ذلك من سمات النبل والفضل والرياسة لديهم، ولو كان جامعها وشاريها لا يقرأ ولا يكتب.

وظهر في المجتمع الاندلسي من هواة جمع الكتب ـ عدا من ذكرنا من الخلفاء ـ عدد من الوزراء والعلماء اشتهروا بمكتباتهم الضخمة التي تحوي أعدادا كثيرة من نفائس الكتب ونوادر المصنفات أمثال الوزير أبو المطرف عبدالرحمن بن فطيس (ت ٤٠٢ هـ/ ١٠١١م)، والعلامة محمد بن يحيى الغافقي (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م)، وأحمد بن عباس، وأحمد بن محمد الأموي (ت ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)، وسلمة بن سعيد (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) وغير هؤلاء كثير[11].

ونظرا للنشاط العلمي الكبير في مختلف جوانب العلم، فقد ظهر أعلام كبار في فروع المعرفة المختلفة، ففي علوم الدين برز عدد من العلماء كيحيى ابن لبابة (ت ٣٣٠هـ/ ٩٤١م) الذي نال كتابه في الفقه المسمى «المنتخب» ثناء ابن حزم الذي قال فيه: إنه لم ير للمالكي (كتابا أنبل منه في جمع روايات المذهب، وتأليفها، وشرح مستغلقها، وتفريع وجوهها) واشتهر ايضا سميه يحيى بن عبدالله الليثي الذي ذاع صيته بمجالسه العلمية الحافلة في قرطبة، ومحمد بن عمر المعروف بابن الفخار الذي كان يفاخر بأنه استفتي في مسجد النبي ﷺ بالمدينة. وابن عبدالبر النمري حافظ الأندلس وعالمها الكبير، وصديقه ابن حزم الظاهري الذي ملأ ذكره المشرق والمغرب، وفي الحديث

---

(١٠) انظر كبرهان على ذلك المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٦٨) وما بعدها.

(١١) عن الكتب والمكتبات في عصر الخلافة انظر المقري: نفح الطيب، ج ١، (ص٤٦٢، ٤٦٣) خوليان ريبيرا: المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الإسلامية، تعريب جمال محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، م٥، ج ١، مايو ١٩٥٩م ص٧٨ وما بعدها، سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، (ص١١٤) وما بعدها.

برز محمد بن عبدالملك بن أيمن وصاحبه قاسم بن أصبغ البياني، وعبدالله بن محمد بن علي اللخمي، وعبدالرحمن بن فطيس، وفي علوم القرآن أحمد بن محمد الطلمنكي وأبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ومكي بن أبي طالب، وعبدالرحمن بن مروان الأنصاري، ومحمد بن عبدالله المري[١٢].

وفيما يتصل بالحياة الأدبية واللغوية، فقد نال هذا اللون من الدراسات العلمية جهداً واسعاً وعميقاً، ومن أعلامه الأديب أحمد بن محمد بن عبد ربه الذي لا يزال كتابه العقد يحتل مكانة عالية بين كتب الأدب العربي ويعد من روائعه وأركانه وأصوله كما يعتبر مرآة لثقافة الأندلسيين في الأدب.

وفي مقدمة الأدباء في ذلك العصر أبوعلي إسماعيل بن القاسم المعروف بالقالي، وقد ارتحل من المشرق إلى الأندلس، حيث حظي بمكانة عالية في كنف الخليفة الناصر وابنه المستنصر، ومن تآليفه النفيسة كتاب «الأمالي».

ويأتي الأديب صاعد بن الحسن الربعي من المشرق إلى الأندلس ليحل ضيفاً على المنصور العامري ويصنف له كتابه «الفصوص» وهو من أمتع الكتب الأدبية.

واشتهر بالأدب أيضاً أحمد بن عبدالملك بن شهيد صاحب كتاب التوابع والزوابع.

وذاع صيت ابن حزم الظاهري بكتابه الأدبي الجميل «طوق الحمامة» والذي لقى قبولاً واستحساناً في الأدب العربي واللاتيني على حد سواء.

وإذا تعرضنا للشعر والشعراء وجدنا ذلك العصر حافلاً بفطاحلة الشعر أمثال يوسف بن هارون الرمادي الكندي الذي امتدحه النقاد فقالوا (فتح الشعر بكنده وختم بكنده، يعنون امرأ القيس والمتنبي، ويوسف بن هارون).

وتألق آنذاك الشاعر محمد بن هانئ الأندلسي الذي وصف بأنه لدى أهل الأندلس كالمتنبي بالمشرق، ووصف معاصره أحمد بن دراج القسطلي بذلك

---

(١٢) انظر ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، (ص ١١٣ - ١٩١) الحميدي: جذوة المقتبس، (ص ٧١ - ٩٨) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٣٢٣ - ٣٢٤) ابن فرحون: الديباج المذهب، ج ٢، (ص ٧٣) المقري: نفح الطيب، ج ٣، (ص ١٧١). سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، (ص ١٥٧) وما بعدها.

الوصف وعد من فحول الشعراء.

وفي ميدان النحو واللغة قدم أبوعلي القالي الآنف الذكر جهودا عظيمة لتطور تلك الدراسات، فقد نقل معه إلى الأندلس كتب اللغة لأصحابه من المشارقة، بالإضافة إلى تآليفه البارعة ككتاب «البارع في اللغة» و«المقصور والممدود» و«فعلت وأفعلت» وغيرها.

ولمع اسم ابن القوطية محمد بن عمر في اللغة حتى نال ثناء أبي علي القالي وإلى جانب هؤلاء أحرز تمام بن غالب التياني شهرة واسعة في هذا الميدان وصنف فيه كتابا قيما[13].

وفي العلوم الإنسانية شهدت هذه الفترة علماء بارزين يأتي في مقدمتهم آل الرازي الذين قدموا في التاريخ والجغرافيا دراسات علمية فذة، وكان أولهم اشتغالا بذلك محمد بن موسى الذي نال مكانة كريمة لدى الأمير محمد بن عبدالرحمن، ولكن ابنه أحمد كان أبرع منه فصنف كتبا في التاريخ والجغرافيا، ضاعت جميعها، ولم يتبق لنا منها سوى نصوص محدودة.

وخلف أحمد ابنه عيسى الذي تفوق في التاريخ فصنف للمنصور العامري كتابا في «الوزارة والوزراء»، وكتابا آخر في «الحُجّاب».

ومن حق ذلك العصر ان يفخر بمؤرخه العظيم الشاب ـ آنذاك ـ أبي مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان الذي يقف بكل ثقة في صف كبار مؤرخي الإسلام كابن الاثير والمسعودي.

ولابن حزم الفقيه مشاركة جادة في التاريخ وذلك بكتابه الرائع «جمهرة أنساب العرب» وينم عن اطلاع واسع ومعرفة عميقة وشاملة بالأنساب.

وفي الجغرافيا نلحظ أن من سبق ذكرهم في التاريخ وخاصة أبناء الرازي وابن حيان كان لهم مشاركة طيبة في هذا العلم الذي لا ينفصل عن التاريخ وذلك كمسرح لأحداثه.

---

(١٣) عن هؤلاء الأعلام انظر: الحميدي: الجذوة، (ص٣٤٨) ابن بسام: الذخيرة، ق١، ج ١، (ص٨٤) ابن بشكوال: الصلة، ج٢ (ص٦٩٢) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، (ص٢٥٧ـ ٢٥٨) ابن عذاري: البيان المغرب ج٢، (ص٥٨ـ ٦١) المقري: نفح الطيب، ج٣، (ص١٧٨) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، (ص٢١٥) وما بعدها.

ومن جغرافيّي ذلك العصر الزاهر العلامة محمد بن يوسف الوراق الذي صنف كتابا في «مسالك افريقية وممالكها» للحكم المستنصر.

وعلا ذكر العلامة أحمد بن عمر بن أنس العذري كجغرافي عظيم في الدراسات اللاحقة له وأن لم يشر إليه معاصروه كعالم جغرافي، ولكن من أتى بعده كالبكري في الأندلس، والقزويني زكريا بن محمد في المشرق، حيث اعتمدا على كتابه الرائع «نظام المرجان في المسالك والممالك».

كما كان لأحمد بن سعيد بن أبي الفياض مساهمة قيمة في الدراسات الجغرافية حيث ألف كتاب «العبر» وكتابا عن «الطرق والأنهار» وللأسف فقد ضاعا ونشر ميخائيل الغزيري قطعة من الأول على أنها للرازي.

وفي الرحلات الجغرافية شهد ذلك العصر محاولات ناجحة لكشف الغموض عن بعض المناطق المجهولة فيما وراء المحيط الأطلسي فاندفع بعض المغامرين لمحاولة اكتشافها وإشباع رغباتهم في التطلع إلى ما ينتهي إليه المحيط الأطلسي «بحر الظلمات»، وقد قادهم ذلك إلى اكتشاف بعض الجزر، وأسهمت محاولتهم تلك في الحث على الرحلات الأوروبية في المحيط الأطلسي فيما بعد.

وعلى المستوى الفردي ذاع صيت الرحالة اليهودي التاجر إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي الذي رحل إلى ألمانيا، وبلاد الصقالبة، واعتمد البكري على بعض أقواله الجغرافية والتي نالت اهتمام كثير من المستشرقين أمثال كرنك، وروزن، وجورج ياكوف وغيرهم.

وشهدت الفلسفة في ذلك العصر نجاحا لا بأس به، وكان الحكم المستنصر من كبار مشجعيها بما جلبه من كتب الفلسفة والمنطق (فكثر تحرك الناس في زمانه إلى قراءة كتب الأوائل، وتعلم مذاهبهم).

وفي عصر الخلافة دخلت إلى الأندلس رسائل إخوان الصفا، والتي تعتبر لدى المهتمين بالفلسفة من أعظم الدراسات الفلسفية في العصور الوسطى. وقد أدخلها الفيلسوف الأندلسي عمرو بن أحمد الكرماني، الذي جمع إلى مهارته في الطب براعته في الفلسفة والمنطق.

ومن بين فلاسفة ذلك العصر، أبوعبدالله محمد بن الحسن الكتاني الذي نال ثناء الفيلسوف الكبير ابن حزم، وقد درس الأخير على يده وامتدح بعض مصنفاته ورسائله الفلسفية.

وبرز آنذاك الفيلسوف المخضرم سعيد بن محمد بن البغونش والذي عاش فترة من عمره في ذلك العصر وامتد به العمر حتى شهد عصر ملوك الطوائف وكان موصوفا بالفلسفة والبراعة فيها.

ولابن حزم مكانة رفيعة بين فلاسفة الأندلس، وذلك لما عرف عنه من أقوال وآراء فلسفية صائبة، يأتي في مقدمتها حديثه عن نظرية المعرفة وطرقها[١٤].

وفي حقل العلوم التجريبية برز عدد من العلماء البارعين، ففي الطب تمكن الأندلسيون من إحداث تغيير جذري في المسيرة العلمية الطبية ـ حيث كان الطب في البداية يعتمد على بعض كتب النصارى كالابريشم ـ إلى مرحلة راقية من التجارب والممارسة العملية الناجحة، وكان ذلك نابعا من التطور الواضح في هذا الميدان. وما وصل اليه الأطباء آنذاك من علم واسع ونظر دقيق في مسائل الطب، وما من شك أنه كان لاطلاعهم على كتب المشارقة أكبر الأثر في ازدهار الطب لديهم.

ومن بين أهم الكتب الطبية التي لقيت من الأندلسيين استحسانا وقبولا كتاب النبات لديسقوريدس، ولكن هذا لم يمنعهم من نقده وتتبع ما به من نقص، فأضافوا إلى الكتاب ما فاته من ضروب النباتات والأعشاب التي غفل عنها ديسقوريدس.

ولا عجب أن يظهر في ذلك العصر أنبغ أطباء الأندلس، بل لانغالي إذا قلنا: أنبغ أطباء الإسلام في الجراحة الطبية، وهو الطبيب العظيم خلف

---

(١٤) أنظر عن العلوم الإنسانية في عصر الخلافة ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، (ص٧٦ـ ٧٧)، الحميدي: الجذوة، (ص١٩٣) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢، (ص٤٩١) أحمد أمين: ظهر الاسلام، ج ٣، (ص٢٧٥) عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، (ص٥٩٧ ـ ٥٩٨) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص٢٨٨) وما بعدها.

ابن عباس الزهراوي الذي ترك لنا مصنفا قيما ونادرا في الطب والجراحة وهو كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف». ويكفي أن نشير إليه بما ذكره عنه العالم الاسباني آنخل بالنثيا حيث قال: (أما الجزء الثلاثون من كتاب الزهراوي الذي نشر في اللاتينية باسم الجراحة، فقد كان أهم وأذيع كتاب في تاريخ الطب كله، وقد ارتفع به الزهراوي في أعين الناس إلى طبقة أبقراط وجالينوس).

وإلى جانب الزهراوي يقف الطبيب القرطبي عريب بن سعد الذي صنف كتابا نفيسا في طب الأطفال، وهو كتاب «خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولود»، وقد صنفه باسم الخليفة الحكم المستنصر.

ونال هذا الكتاب ثناء العلماء من الأطباء المعنيين بطب الأطفال فوصف بأنه أهم ما كتب في طب الأطفال في أية لغة حتى القرن العاشر الميلادي.

واشتهر آنذاك الطبيب الصيدلي سليمان بن جلجل الذي (كان طبيبا فاضلا، خبيرا بالمعالجات حسن التصرف في صناعة الطب، وكان في أيام هشام المؤيد بالله وخدمه بالطب، وله بصيرة واعتناء بقوى الأدوية المفردة).

ومن بين مصنفات ابن جلجل الذائعة الصيت كتابه في «طبقات الأطباء»، وهو الكتاب الذي لازال بين أيدينا، والكتاب مطبوع، بتحقيق فؤاد سيد، وطبع بمطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة سنة ١٩٥٥م.

وهناك أطباء آخرون أمثال الأخوين أحمد وعمر ابني يوسف الحراني ومحمد ابن عبدون الجبلي، وأبوالحكم عمرو بن عبدالرحمن الكرماني وغيرهم كثير.

وفيما يتصل بنشاط علوم الرياضيات والفلك، فقد أبدى الأندلسيون مقدرات كبيرة في خوض لججها والتبحر في مسائلها، وجدير بالذكر أن هناك علاقة وثيقة بين علمي الرياضيات والفلك، وهو ما يفسر لنا ظاهرة الجمع بين البراعة فيهما لدى كثير من علماء الأندلس، وقلما نجد عالما في الرياضيات من الأندلسيين وليس له إلمام بالفلك والعكس صحيح أيضا، ويأتي في مقدمة البارعين في الرياضيات والفلك، العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي الذي

كان يمثل بتألقه العلمي ونشاطه الواسع في تلك العلوم مدرسة علمية راقية في تخريج الرياضيين والفلكيين، فإلى هذه المدرسة ينتسب كثير من العلماء، وعلى أيدي تلاميذه أيضا نبغ الكثير منهم، فقد كان مسلمة إمام الرياضيين في عصره بل أعلم من كان قبله بالفلك على حد قول صاعد الطليطلي.

ومن تلاميذ مسلمة المشهورين العلامة أصبغ بن محمد بن السمح المهري، وكان متضلعا من الرياضيات والفلك، وله فيهما تآليف قيمة.

وصديقه ابن الصفار، أحمد بن عبدالله من تلاميذ المجريطي وكان ماهرا في تلك العلوم، وصنف في الفلك زيجا على مذهب السند هند، كما صنف كتابا في العمل بالاسطرلاب. والكتاب لحسن الحظ سلم من الضياع ونشره مياس بياكروزا في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، وقد ترجم إلى اللاتينية والعبرية.

وفي الكيمياء أظهر الأندلسيون استعدادا طيبا لفهم مسائل ذلك العلم واستيعاب نتائج التجارب العلمية، وكان لمسلمة المجريطي الآنف الذكر نشاط واضح في ازدهار الكيمياء وتطورها، فقد ألف فيها كتابه «رتبة الحكيم» وضمنه كثيرا من تجاربه وآرائه العلمية، ولكن أسلوب المجريطي في ذلك الكتاب يشوبه الغموض والرمز وهو ما أشار اليه ابن خلدون.

وذكر القلقشندي ذلك الكتاب، وعده من أهم ما صنفه المسلمون في الكيمياء.

ويكفي المجريطي فخرا ما قام به من تجارب علمية لعل أهمها تجربته حول ملاحظة ما يطرأ على أوزان المواد الكيماوية التحليلية، فقد ذكر أنه أخذ ربع رطل من الزئبق الرجراج الخالي من الشوائب، وجعله في آنية زجاج، ثم وضعها داخل إناء آخر، ووضع ذلك على نار هادئة لمدة أربعين يوما، ثم أخرج ذلك الإناء بعد تلك المدة، ونظر في الزئبق فوجده قد تحول إلى مسحوق أحمر، ثم وزنه بعد ذلك فلاحظ احتفاظه بوزنه الأصلي بلا زيادة أو نقصان.

وبهذه التجربة العلمية اعتبر المجريطي أستاذ عالمي الكيمياء بريستلي

ولافوزيه وأن تلك التجربة تعتبر أساسا لما قام به هذان العالمان فيما بعد من دراسات وبحوث علمية في الكيمياء.

ويورد ابن خلدون نصا لابن بشرون تلميذ المجريطي ينم عن براعة ابن بشرون في هذا العلم على الرغم من افتقادنا إلى دراساته الكيماوية[١٥].

ومن خلال هذا الاستعراض السريع للحركة العلمية في عصر الخلافة وتطورها، يتضح لدارس هذا الجانب الحضاري، مدى ما كان لهذا النشاط العظيم من تأثير عميق في سير الحركة العلمية في عصر ملوك الطوائف باعتبار أن هذا النضج العلمي قد آتى ثماره اليانعة في عصره وما تلاه من عصور، وإن الحركة الفكرية إذا توافرت لها عوامل النهوض والتطور فإنها سوف تنمو أكثر فأكثر حسب الرصيد العلمي المتنامي بالتجربة والبحث، وأن كل تقدم وازدهار يفتح باب الإبداع والتجديد والتطوير.

وكان كثير من أولئك العلماء الذين استعرضنا جهودهم مخضرمين شهدوا كلا العصرين، فأفادوا من عصر الخلافة وما كان يتسم به من استقرار للأحوال السياسية والاجتماعية وما كان عليه خلفاؤه من اهتمام بالعلم وتشجيع لأهله، فلما زال ذلك العصر وتغيرت تلك الأحوال شهدت قصور ملوك الطوائف ازدهارا علميا واسعا، أذكته عوامل المنافسة وحرص أولئك الملوك على التسابق نحو الفخار العلمي والاعتزاز بما يحويه بلاط كل منهم من علماء وأدباء.

كما أن من أهم ما يتسم به عصر الخلافة من تفوق علمي، وكان له أثره في عصر الطوائف ما حوته مكتبات الخلفاء والوزراء والعلماء وكثير من أفراد الرعية من كتب ومصنفات، تفرقت جميعها في مدن الأندلس المختلفة وكانت بمثابة إشعاع عم الأندلس جميعها فأحدث ذلك نشاطا علميا واسعا بعد أن كانت قرطبة حاضرة الخلافة تتميز بذلك على ما عداها من مدن

---

(١٥) انظر بالتفصيل عن العلوم التطبيقية في عصر الخلافة ابن جلجل: طبقات الأطباء، (ص٩٢) صاعد طبقات الأمم، (ص٨٣ - ٨٤ - ٩١ - ٩٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص٤٨٢ - ٤٨٣ - ٤٩٠ - ٤٩١) ابن خلدون: المقدمة، (ص٥٠٥)- المقري: نفح الطيب، ج ٣، (ص٣٧٦)- آنخل بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي، (ص٤٤٨ - ٤٤٩ - ٤٥١) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٣٥٠) وما بعدها.

الأندلس الاخرى، ولندع المؤرخ صاعداً يحدثنا عن ذلك إذ يقول (واضطرتهم ـ أي أهل قرطبة ـ الفتنة إلى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع، فبيع ذلك بأوكس ثمن وأتفه قيمة، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس..)[١٦].

وبهذا يتضح لنا مدى ما كان لعصر الخلافة من أثر علمي عميق في عصر ملوك الطوائف فلو أن أحدنا تصور أن الحركة العلمية في عصر الخلافة كانت خاملة ضعيفة لكان من الصعب بل من المستحيل أن نرى ازدهارا وتطورا في النشاط العلمي في عصر الطوائف، خاصة أن الفترة التي استغرقها هذا العصر كان لا يتجاوز تقريبا ستين سنة، وهذه المدة الزمنية لو قطعنا بعدم تأثير الحركة العلمية لعصر الخلافة في عصر الطوائف ـ لا تكفي لبناء هذا الصرح العلمي الشامخ الذي بلغ في عصر ملوك الطوائف أوج ازدهاره وأقصى عطائه ـ ولعل في ذلك حسنة سجلها التاريخ لأولئك الملوك الغابرين.

(٢) تعدد المراكز الحضارية في الأندلـــس

إن تعـدد المـراكـز الحضـارية في الأندلس في القرن الخامس الهجري ـ الحادي عشر الميلادي ـ بتعدد الحكومات والزعامات السياسية آنذاك التي اصطلح على تسمية أصحابها بملوك الطوائف، قد أحدث تفاعلا حضاريا واضحا في تلك البيئات السياسية، ونجم عن تلك الأوضاع نزعات عميقة نحو الظهور بمظهر القيادة والزعامة في الجانبين السياسي والحضاري، وما يهمنا في هذا البحث هو دراسة الجانب الحضاري، وبالذات ما يتعلق منه بالعلم والمعرفة.

وجدير بالذكر أن ملوك الطوائف، أو بعضهم على وجه صحيح، قد أسدوا للعلوم والمعارف أيادي بيضاء تذكر فتشكر، فعلى الرغم من التمزق السياسي في تلك الفـترة، ووقوع الأندلس ضحية ممزقة بين أولئك الملوك والأمراء وما صاحبه من ضعف وتخاذل أمام الزحف النصراني من الشمال والذي هدد الوجود الإسلامي في ذلك القطر، وأنذر بسوء الأحوال وظلام المآل، اقول برغم ذلك فإنّ أولئك الملوك الضعاف سياسيا وعسكريا أمام عدوهم المشترك كانوا في الجانب الحضاري رعاة وحماة للعلم والفكر، فشهد عصرهم أبهى وأجمل الآثار العلمية والأدبية.

ومما لا شك فيه أنه كان للنزاع السياسي والصراع العسكري بين تلك الممالك والإمارات أثر في تولد ألوان من السلوك الحضاري الذي يستهدف الظهور بمظهر الفخامة والعظمة والتألق في شتى ميادين الحضارة لما يلمسونه في ذلك من تميز لبعضهم على بعض، وسوف تشهد على صحة ذلك براهين وأدلة تؤكد ما أشرنا اليه.

وظاهرة المنافسة بين أولئك الملوك بينة واضحة، نلمسها من خلال دراستنا لسيرهم ومواقفهم تجاه أرباب العلم والمعرفة، بالإضافة لدراستنا لحياة كثير من العلماء والأدباء الذين وردوا على قصور أولئك الملوك وتفرقوا في تلك

المراكز الحضارية حسب اعتقاد كل منهم بأفضلية بلاط على بلاط آخر من حيث التكريم والتشجيع.

وكان أولئك الملوك ـ أو البعض منهم على الأصح ـ حريصين على أن تضم بلاطاتهم أكبر عدد من العلماء النابغين في شتى حقول المعرفة، بل وجدنا بعضهم يسعى جاهدا في اجتذاب مالدى منافسيه من علماء وأدباء، كما فعل المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بابن الأرقم وزير المعتصم بن صمادح صاحب المريه، وكاتبه الخاص، ولكن المعتمد لم ينجح في محاولته لوفاء ابن الأرقم لصاحبه[١٧].

وبلغ من شغف المعتمد بتقريب العلماء وملازمتهم بلاطه محاولته اجتذاب الشاعرين الأديبين أبوالعرب الزبيري من صقلية، وأبوالحسن علي بن عبدالغني الحصري من القيروان، وأرسل لكل منهما رسالة يستدعيه إلى بلاطه ومعها خمسمائة دينار[١٨].

ولم يكن هذا الأمر موقوفا على المعتمد بل كان غيره من ملوك الطوائف على شاكلته أمثال بني الأفطس في بطليوس، وبني هود في سرقسطة، وبني ذي النون في طليطلة، ومجاهد العامري في دانية.

وقد لفتت هذه الظاهرة أنظار المؤرخين، فأشادوا بها، وأشاروا بالفضل إلى أصحابها، فهذا ابن خاقان يقول في وصف سيرة أبي عبيد البكري الجغرافي المشهور (وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهادي المقل للكرى والآذان للبشرى)[١٩].

ويصف الحجاري الأديب عبدالملك بن غصن الحجاري فيقول (كان ملوك الطوائف يتهادونه تهادي الريحان يوم السباسب، ويلحفونه أثواب الكرامة من كل جانب)[٢٠].

---

(١٧) المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ٤٩٨ ـ ٤٩٩)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٦٤).
(١٨) انظر عن الأول ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٣٣٣)، وعن الثاني: ابن بشكوال، الصلة، ج ١ (ص ٤٣٢ ـ ٤٣٣)، الذهبي: تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ١٧٠أ.
(١٩) قلائد العقيان (ص ١٩٩)
(٢٠) ابن سعيد، المغرب، ج ٢ (ص ٣٣) (نقلا عن الحجاري في كتاب المسهب الذي بُنى عليه تأليف كتاب المغرب في حلى المغرب).

ولما قدم الأديب علي بن عبدالغني الحصري الأنف الذكر الأندلس في عصر ملوك الطوائف، والأدب والعلم قد نفق سوقهما (تهادته ملوك الطوائف، تهادي الرياض للنسيم، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأنس المقيم)[21].

من خلال هذه النصوص يتبين لنا أن أولئك الملوك كانوا مسارعين في اجتذاب العلماء إلى عواصمهم، متنافسين في تقريب النابغين منهم، وكانوا يحيطونهم بضروب التكريم وألوان التشجيع المادي والمعنوي، ولئن وصمهم التاريخ بالتخاذل والضعف السياسي والعسكري فإنه أمين على حفظ مآثرهم العظيمة وآثارهم الكريمة في ميادين العلم والمعرفة والارتقاء بها قمة الازدهار وذروة التطور، وهو أمر تشهد بصحته وحقيقته كتب التاريخ والتراجم والسير.

وكان من أثر ذلك التنافس العميق بين أولئك الملوك أن غلب على كل بلاط من بلاطاتهم لون من ألوان المعرفة والأدب والفن الرفيع، وتميز كل منهم بميزة خاصة (فامتاز صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، وفاق ابن رزين صاحب السهلة أنداده في الموسيقى، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبز ابن طاهر صاحب مرسيه أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا، يلقى منهم كل رعاية، ولكن عناية بني عباد أصحاب اشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل)[22].

وهناك ملاحظة على هذا النص، وهو أن بني ذي النون، وإن تميزوا بالبذخ في ميدان العمارة والبناء والتشييد، إلا أنهم وخصوصا المأمون من بينهم كانت له أياد بيضاء على الحركة العلمية، فشهد بلاطه وعاصمة مملكته أعداداً كبيرة من العلماء، وبخاصة أولئك المتخصصون في العلوم البحتة والتجريبية كالرياضيات والفلك والطب إلى جانب الفلسفة والمنطق، فخرج من طليطلة أعلام بارزون فيها، بل إننا وجدنا تلك المدينة تتفوق على غيرها

(٢١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

(٢٢) الطاهر أحمد، دراسات أندلسية (ص٦٠)، وانظر خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في اسبانيا (ص ١٢٩ ـ ١٣٠).

من المدن في تخريج علماء الفلك والرياضيات والزراعة وغيرها من العلوم التطبيقية وهذا يؤكد دور بني ذي النون في الحركة العلمية، فلم تكن جهودهم قاصرة على الناحية العمرانية فقط.

ولإبراز دور ملوك الطوائف في الحركة العلمية وازدهارها وجب علينا دراسة دور كل أسرة من تلك الأسر الملوكية وموقفها من نشاط العلوم والآداب ومدى إسهامها في ذلك النشاط العلمي الكبير، وبطبيعة الحال سيكون تركيزنا على أولئك الملوك أو تلك الأسر التي لعبت فعلا دوراً فعالا في ذلك الميدان، وماعدا تلك الأسر الحاكمة فلا يهمنا أمرها فإنّ وجودها آنذاك كان هامشيا على الجانب الحضاري.

بنو عباد باشبيلية وقرطبة

تعتبر أسرة بني عباد اللخمية التي حكمت اشبيلية وقرطبة من أعظم الأسر الحاكمة آنذاك، والتي قدمت للحركة العلمية جهودا موفقة وعظيمة، ولإيضاح هذا الدور الكبير الذي لعبته وقامت به في ذلك النشاط وجبت الإشارة إلى ما كان يتمتع به حكامها من صفات وسمات علمية وأدبية رسخت في أنفسهم جذور الاهتمام العلمي، والرغبة الشديدة في تشييد صرح فكري شامخ سلكوا في بنائه طرقا حكيمة من التشجيع والتكريم، والعطاء السخي لأرباب المعرفة والأدب فإذا تناولنا سيرة مؤسس هذه المملكة وهو القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤٢م)، وجدناه على قدر كبير من العلم والأدب، وصفه الحميدي فقال (كان له في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده لها سوق وارتفاع، وكذلك عند جميع آله، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر، وحوك البلاغة والرسائل، بسطا لهم، وإقامة لهممهم لما في طبعه من ذلك)[٢٣].

---

(٢٣) جلوة المقتبس (ص ٨١)، وانظر ما يقارب هذا الوصف لدى ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ١٣)، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (ص ٩٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٢ - ٢٣) سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٢٢٣ - ٢٢٤)، صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١٤٠).

ويلاحظ من خلال هذا النص، ان القاضي محمداً كان يشاطر شعراء بلاطه فنون الشعر، رغبة منه في الرقي بهذه الصناعة، وتشجيعا لأهلها وقدحا لزناد أفكارهم، وكان هذا الاهتمام والعناية نابعين من ميوله هو وما كان عليه من أدب رفيع، وشغف شديد بالشعر وتعلق به.

وبناء عليه فإن بلاط بني عباد خلال حكم القاضي محمد، قد شهد نشاطا أدبيا وشعريا سيكون نواة لنهضة أدبية رائعة بعد ذلك.

وإذا انتقلنا إلى المعتضد ابن القاضي محمد (ت ٤٦١هـ/ ١٠٦٩م) ألفيناه متصفا بالأدب الواسع وقرض الشعر البديع، والاحتفاء بالعلماء والأدباء وتشجيعهم وإكرامهم[٢٤].

ووصفه ابن حيان بالمهارة في قرض الشعر، والبراعة في نظمه، مع إلمام بالأدب وفنونه وان له في الأدب مأثورات كتبها الأدباء وتناقلوها عنه[٢٥].

ويستفاد مما أشار اليه ابن بسام حول براعة المتعضد في الأدب أنه قد قرض من الشعر قدرا لا بأس به جمعه في ديوان ابن أخيه إسماعيل[٢٦]، وقد فقد هذا الديوان ولم يصل إلينا.

وكان للمعتضد في قصره ديوان للشعراء مرتبين فيه حسب قدراتهم وبراعتهم في الشعر، ولما وفد ابن عمار إلى بلاط المعتضد أنشده قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى　　والنجم قد صرف العنان عن السُّرَى

فنالت هذه القصيدة إعجاب واستحسان المعتضد الذي أمر له بصلة سنية وأن يلحق بديوان الشعراء[٢٧].

---

(٢٤) الحميدي: الجذوة (ص ٢٩٦ - ٢٩٧)، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣ (ص ٢٨٤)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ (ص ٩٠)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (ص ٧٦)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٩٢) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٨٧)، صلاح خالص: مرجع سابق (ص ١٤٠).

(٢٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٨ - ٢٩)، نقلا عن ابن حيان وكذلك ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٤٢) نقلا عن ابن حيان.

(٢٦) الذخيرة: ق ٢، ج ١ (ص ٢٩)، وانظر نماذج من شعره (ص ٣٠ - ٣٢).

(٢٧) المراكشي: المعجب (ص ١٧٣ - ١٧٤).

ويظهر أنه كان للشعراء يوم معين يفدون فيه على المعتضد، ربما كان يوم الاثنين، وكان في بلاط المعتضد كرسي مخصوص لإلقاء الشعر بين يديه(٢٨).

وعرف عن المعتضد اهتمامه بالبحث والتصنيف الأدبي، فكان مشجعا للأدباء على هذا اللون من النشاط العلمي والأدبي، فصنفت باسمه كثير من الكتب، ومع الأسف فإن أكثرها لم يخرج إلى الناس، أو انها فقدت بزوال ملك بني عباد ونهب خزائنهم، ومما ظهر وشاع من تلك الكتب، ما ألفه الأعلم الشنتمري الأديب المشهور كشرح الأشعار الستة، وشرح الحماسة(٢٩).

كما ألف الأديب محمد بن شرف القيرواني كتابه «أبكار الأفكار» باسم المعتضد وبعث به إليه، وكان من قبل قد جعله باسم الأمير باديس بن حبوس صاحب غرناطة، إلا انه صرفه إلى المعتضد فبعث إليه هذا بصلة سنية(٣٠).

ومن الغريب أن ابن شرف لم يلحق ببلاط المعتضد، خوفا من وشاية يسعى بها حقود أو حسود فيبطش به المعتضد الذي كان جريئا في سفك دماء خصومه وأعدائه، واكتفى بإرساله ذلك الكتاب إلى المعتضد، وحاول الأخير اجتذابه وإغراءه بالنزول لديه فبعث إليه برسالة يثني فيها على علمه وأدبه حتى قال (وقد كان لي نزاع إليك وحرص عليك، وتصور للأنس بك لولا من جلالك الغش في بعض النصيحة. . .)(٣١).

وفي بلاط المعتضد نبغ الأديب البارع أبوعامر بن مسلمة، وصنف للمعتضد كتابا في الأدب يشتمل على شعر ونثر سماه «حديقة الارتياح في حقيقة الراح» (دل على كثرة روايته، وجودة عنايته إلى غير ذلك من نظمه ونثره)(٣٢).

وصنف للمعتضد أيضا الأديب الوزير أبو الوليد إسماعيل بن حبيب (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) كتابا أسماه «البديع في فصل الربيع» وأهداه اليه وقد

---

(٢٨) المقري: نفح الطيب، ج ٤ (ص ٢٤٣ - ٢٤٤). جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٩٢).
(٢٩) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣ (ص ٢٨٤)، نقلا عن ابن القطان فيما نقله عن تاريخه المفقود والشنتمري نسبة إلى شنتمريه الغرب، في الجنوب الغربي للأندلس. الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٧).
(٣٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٧٧)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ٧٧).
(٣١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٨٠ - ١٨١).
(٣٢) ابن بسام: نفس المصدر، ق ٢ ج ١ (ص ١٠٥ - ١٠٦)

جمع في كتابه أشعار أهل الأندلس خاصة ومن بينها مقطوعات شعرية له[٣٣].

ولعل من دلائل اهتمام المعتضد بالعلم والأدب، وإكرامه لأهله حرصه على ألا يتولى الوزارة لديه إلا من كان من هؤلاء المذكورين، يدلنا على ذلك ما اشتمل عليه بلاطه من الوزراء المتمكنين في الأدب والعلم، فهذا ابن زيدون الذي تنقل في شبابه بين ملوك عصره حتى استدعاه المعتضد إلى بلاطه، وأنزله منزلة الأصفياء، وأعلى مكانته بين رجال دولته، وكان يعتمد عليه في سفاراته مع ملوك عصره[٣٤].

ويلغ من اعتماد المعتضد على ابن زيدون أن أوكل اليه كثيرا من مهمات الأمور في دولته والتصرف في شؤونها (وألقى بيده مقاليد ملكه وزمامه واستكفى به نقضه وإبرامه)[٣٥].

ونال الوزارة لدى المعتضد الأديب الكاتب البليغ أبو عبدالله محمد ابن أحمد البزلياني وخدم بعلمه وأدبه دولة المعتضد[٣٦].

وكان المعتضد مهتما بنشر المعرفة، فعين العلامة المقري فرج بن حديده مقرئا بمسجد والدته ـ أي والدة المعتضد ـ وصرف له راتبا شهريا ونفقة من الأحباس، فلزم الإقراء بذلك المسجد حتى وفاته (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م)[٣٧].

وبناء على ذلك يتضح لنا مدى ما كان يتصف به المعتضد من اهتمامات واسعة بالعلم والأدب، وما قدمه للعلماء والأدباء من ضروب التشجيع والتكريم وحرصه الشديد على أن يشتمل بلاطه على أعلام الفكر في عصره، ولهذا قال الحميدي (وعلى كل حال فلأهل العلم والأدب بهذا البيت الجليل سوق نافقة، ولهم في ذلك همة عالية)[٣٨].

ولكن شهرة البيت العبادي وذيوع صيته في عالم الأدب، كانت منوطة

---

(٣٣) المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩)، سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٧٦).
(٣٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٣٩)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤ (ص ٩٠).
(٣٥) ابن خاقان: القلائد (ص ٧٣).
(٣٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٦٢٤).
(٣٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢، (ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩).

بالملك الجليل الشاعر المعتمد بن عباد (٤٣١ ـ ٤٨٨هـ/ ١٠٤٠ ـ ١٠٩٥م) الذي اشتهر بالأدب شهرته كملك عظيم من ملوك عصره، وقد نال هذا الملك مكانة عظيمة في ميدان الأدب والشعر على وجه الخصوص.

فقد كان له باع طويل في الأدب، ومهارة فائقة في قول الشعر ونظمه (وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة لكان رائعا معجبا، ونادرا مستغربا، فما ظنك برجل لا يجد إلا راثيا ولا يجد إلا عابثا. وهو مع ذلك يرمي فيصيب، ويهمي فيصوب)[٣٩].

ويبدو أن المعتمد بن عباد قد اكتسب هذه الشهرة بعد طول مدارسة للأدب ومطالعة لكتبه ومصنفاته إلى جانب رغبته العميقة في صقل موهبته الشعرية وتقوية ملكته الأدبية، وهو أمر يتضح لنا من خلال دراسة أدبه وشعره وآرائه النقدية حول ذلك.

وقد بلغ من مهارته في الشعر وإجادته في نظمه أن عد أشعر ملوك الأندلس وأبدعهم شعرا[٤٠].

وقد أكسبه حبه للأدب واهتمامه بالشعر نظرا عميقا، ونقدا صحيحا لما يسمعه منه، فيُذكر أنه مدحه الشاعر عبدالجليل بن وهبون المرسي بقصيدة فيها تسعون بيتا فأجازه بتسعين دينارا، فيها دينار مقروض، فلم يعرف السبب في ذلك، حتى أعاد النظر في قصيدته فإذا هو قد خالف العروض الطويل في بيت إلى العروض الكامل، فعرف حينئذ السبب[٤١].

والحق أن شخصية المعتمد الأدبية ومهارته في نظم الشعر، قد نالت ثناء المؤرخين وإعجابهم فلا يكاد المؤرخ يتناول سيرته وحياته حتى يشير إلى شخصيته الأدبية ومقطوعات من شعره البديع[٤٢].

---

(٣٨) الجلدة (ص ٢٩٦ - ٢٩٧).
(٣٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤١ - ٤٢).
(٤٠) ابن الأبار: الحلة، ج ٢ (ص ٥٥).
(٤١) السلفي: معجم السفر (ص ١٩)، وانظر ما يتضمن الإشارة إلى نقده الشعري: المقري، النفح، ج ٤ (ص ٢٦١ - ٢٦٢).

ونجد في شعر المعتمد ما ينم عن إلمامه الثقافي في علوم كالفلك والجغرافيا، فقد روي انه وقفت بجواره جارية لتحجب عنه الشمس فقال:

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها   عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علما لعمرك منها انها قمر   هل تحجب الشمس الاصفحة القمر[43]

ولقد كان لشخصية المعتمد الأدبية بلا ريب أثر عظيم وبالغ في الحياة الأدبية من حوله فقد كان شديد الرغبة، عظيم العناية في اجتذاب العلماء والأدباء إلى بلاطه حريصا على إكرامهم واستدعائهم من بلدان بعيدة حتى اجتمع لديه من أهل العلم والأدب مالم يجتمع لغيره من ملوك عصره، وغدا بلاطه حافلا بأعداد كبيرة من الأدباء والشعراء كانوا يمثلون آنذاك أساطين الأدب والشعر، وكانوا يلقون في بلاط المعتمد كل مظاهر الحفاوة والرعاية[44].

ولندع أحد المؤرخين يصف الحالة الأدبية في بلاطه فيقول: (كانت حضرته ملقى الرجال وموسم الشعراء، وقبلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه، ويشتمل عليه حاشيته وجنابه)[45].

ووصف بلاطه ابن خاقان فقال (أصبحت حضرته ميدانا لرهان الأذهان وغاية لرمي هدف البيان... فاصبح عصره أجمل عصر، وغدا مصره أكمل

---

(٤٢) انظر في ذلك: ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤١ - ٤٢)، ابن خاقان: القلائد (ص ٤، ٣٢)، المواعيني: ريحان الألباب (مخطوط) ورقة ١٤٠ أ، السلفي: معجم السفر (ص ١٩)، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٥٥ - ٧٠ - ٧١)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢، (ص ١١٥)، الذهبي: تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ٧٠ ب، الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٣ (ص ٣٨٦)، المقري: نفح الطيب، ج ٤ (ص ٢٤٧ - ٢٥٥)، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٤، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٦٤)، فون شاك: الفن العربي في اسبانيا (ص ٦٥).

(٤٣) سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٤٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ١٢)، ابن خاقان: القلائد (ص ٤٠)، المراكشي: المعجب (ص ١٤٩) وما بعدها، ابن الأبار: الحلة، ج ٢، (ص ٥٥)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٤)، الذهبي: تاريخ الإسلام (مخطوط) ورقة ٧٠ ب، أيضا كتابه العبر، ج ٣ (ص ٣٢١) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٥٥)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٨٨ - ٨٩).
Dozy: Spanish Islam., P, 670.

(٤٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٤) عن ابن القطاع السعدي في كتابه «لمح الملح».

مصر، تسفح فيه ديم الكرم، ويفصح فيه لسانا سيف وقلم)[٤٦].

ومما يذكر عن سيرته في اختيار وزرائه، أنه كان لا يستوزر إلا من كان متحلياً بالأدب ناظما للشعر، فكان بلاطه على هذه الحال منتدى للأدب والشعر على الدوام[٤٧].

ومن الغريب أن المعتمد بعد زوال ملكه ونفيه إلى أغمات لم يتخل عن إكرام الأدباء والشعراء فكان كثير منهم يزوره زيارة وفاء وتقدير، والبعض الآخر يزوره طمعا في سخائه وعطائه حتى قال فيهم:

شعراء طنجة كلهم والمغرب ذهبوا من الإغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحقُّ فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية طي الحشا ناغاهم في المطلب[٤٨]

وكان ابن اللبانة وابن حمديس، وأبوبحر عبدالصمد من أكثر الشعراء وفاء له فظلوا كثيرا ما يترددون عليه للسلام والاطمئنان على حاله حتى وفاته[٤٩].

والأول منهم كان أكثر مودة ومحبة لبني عباد حتى صنف في تاريخهم ودولتهم كتابين هما «نظم السلوك في وعظ الملوك» والثاني «الاعتماد في أخبار بني عباد»[٥٠].

وعلى الرغم من احتلال الأدب والشعر المنزلة الأولى في بلاط بني عباد إلا أنَّ هذا لم يمنعهم من تشجيع بقية أهل العلم والمعرفة، فقد كان تكريمهم لهم لا يعرف حدودا ولا قيودا، فكان المعتمد عظيم التقدير لأهل العلم مسارعا في تفقد أحوالهم ورعاية حقوقهم، فعندما مات العلامة

---

(٤٦) قلائد العقيان (ص ٤).
(٤٧) المراكشي: المعجب (ص ١٥٤ - ١٥٥).
(٤٨) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٦٧).
(٤٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٦ - ٦٧)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٢ (ص ١٥٥ - ١١٦)؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٨، (ص ١٥٦ - ١٧٧)، المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٤٧).
(٥٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٦١ - ٦٢)، المقري: النفح ج ٤؛ (ص ٢٥٥).

أحمد بن يحيى المعروف بابن الحذاء مشى المعتمد في جنازته راجلا[٥١].

وحدث أيضا ان التقى المعتمد بالفقيه المحدث محمد بن الفرج المعروف بابن الطلاع فنزل المعتمد عن دابته احتراما له وتوقيرا لعلمه، فوعظه ابن الطلاع وأغلظ له في النصيحة[٥٢].

ولما سقطت قرطبة في يد المعتمد لم ينس زيارة كبار علمائها فقصد دار العالم محمد بن عتاب بن محسن الفقيه المشهور (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) حيث زاره وتفقد احواله[٥٣].

وللمعتمد مواقف كثيرة في إكرام الشعراء والأدباء وبذل نفيس الصلات وسني الجوائز لهم تشجيعاً على بذل المزيد من الإنتاج الأدبي، وقد سبقت الإشارة إلى مكافأته للشاعر عبدالجليل ابن وهبون ومثله أيضا ما وهبه للشاعر أبي العرب الصقلي فقد منحه على بعض شعره مبلغا كبيرا من الدنانير الفضية وتحفة غالية في صورة جمل من العنبر مرصع بنفيس الجوهر[٥٤].

وفي بلاط المعتمد نال الطبيب الأديب أبوالعلاء زهر بن عبدالملك منزلة عالية، وكان المعتمد قد بلغه علم أبي العلاء، وسعة معارفه في الطب فأغراه بالنزول لديه فاستجاب له أبوالعلاء[٥٥].

وحاز الفقيه عبدالله بن محمد المعافري مكانة سامية لدى المعتمد حتى قال فيه ابن خاقان (كان باشبيلية بدرا في فلكها، وصدرا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بن عباد، اصطفاء المأمون لابن ابي دُوَاد، وولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة)[٥٦]

وبلغت عناية المعتمد بالعلوم والآداب وإكرامه لاهلها أسماع الناس في

---

(٥١) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٦٢ - ٦٣).
(٥٢) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ١٦٥).
(٥٣) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤٥٦).
(٥٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٣٠١ - ٣٠٢)، المقري: النفح ج ٤ (ص ٢٦٠ - ٢٦١)، وانظر ايضا إكرامه للاديب أبي المطرف عبدالرحمن بن فاخر السرقسطي ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١، (ص ٢٥١ - ٢٥٢)، وكذلك لأبي العرب الصقلي ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٧٠٣)، الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ١٥).
(٥٥) ابن بسام: الذخيرة، ج ١، ق ٢ (ص ٢٢٠).
(٥٦) مطمح الأنفس (ص ٢٩٧ - ٢٩٨).

بلدان بعيدة فقدم عليه العلامة عيسى بن إبراهيم بن عيسى الدينوري بكتاب صنفه له في معنى التاريخ يروي فيه عن جده، وما في كتبه من الروايات(٥٧).

بل إن الحصري القيرواني قصده في منفاه، وقد صنف له كتاب «المستحسن من الأشعار» فلما اطلع المعتمد على الكتاب، أعطاه ما معه من المال(٥٨).

وللمعتمد مجالس أدبية كثيرة تنم عن شغفه بالأدب والشعر ومشاركته لغيره من الشعراء تشجيعا لهم ورغبة في الوصول إلى محاسن الشعر وبديعه، فيذكر أنه عرضت عليه بزاة للصيد، فاستحث الشعراء على وصفها فقال ابن وهبون:

للصيد قبلك سنة مأثورة ... لكنها بك أبدع الأشياء
تمضي البزاة وكلما أمضيتها ... عاطيتها بخواطر الشعراء

فاستحسن المعتمد ما نظمه ابن وهبون وأجزل صلته(٥٩).

ولما قدم ابن حمديس عليه في اشبيلية استدعاه وأمره بفتح النافذة فإذا بكير زجاج والنار تلوح من بابيه، وواقده يفتحها تارة ويسدهما أخرى، ثم سد أحدهما، وفتح الآخر، فحين تأملها ابن حمديس قال له المعتمد أجِزْ: انظرهما في الظلام قد نجما.

فقال ابن حمديس : كما رَنَا في الدجُنَّةِ الأسدُ

فقال المعتمد: يفتح عينيه ثم يطبقها

فقال ابن حمديس: فعل امرىء في جفونه رمد

فقال المعتمد: فابتزه الدهر نور واحدة

فقال ابن حمديس: وهل نجا من صروفه احد

وهنا طرب المعتمد، واثنى على ابن حمديس، فاسنى جائزته وأعلى مكانته(٦٠).

---

(٥٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤٤١).
(٥٨) المقري: النفح، ج ٤ (ص٢٤٧)، وانظر ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٦ - ٦٧).
(٥٩) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٦٠).
(٦٠) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٧٠ - ٢٧١).

واشتهر في الأدب من أبناء المعتمد ابنه الراضي يزيد الذي عرف عنه عنايته بالعلم والأدب وشغفه بالمطالعة والدراسة لكتبه حتى وصفه ابن اللبانة بأنه عالم بالشرعيات عارف بالطبيعيات، ماهر في التاريخ والأنساب والآداب وأنه شاعر بني عباد بعد أبيه المعتمد[٦١].

وأخيرا فإن ما ذكرناه عن بني عباد، وما اتصف به كل منهم من صفات أدبية رائعة وما لعبته تلك الأسرة العربية العريقة من دور فعال في ازدهار دولة الأدب ونهوض الشعر في اشبيلية وقرطبة، ليؤكد لنا مكانة بني عباد في تاريخ الحياة العلمية وخاصة ما يتعلق منها بالحركة الأدبية، وما من شك أن اهتمامهم وعنايتهم بالأدب والشعر، قد أثمر وآتى أكله، فصنفت التصانيف وأُلِّفتْ بأسماء أولئك الملوك روائع من التآليف ولمع في بلاطهم أدباء بارعون وشعراء ماهرون، لا يزال بعض إنتاجهم وثمرات قرائحهم ماثلا بين أيدينا، ولا نبالغ إذا وصفنا ذلك البلاط بأنه قد ضم أشهر شعراء ذلك العصر كابن اللبانة، وابن حمديس، وابن وهبون، وابن زيدون، وابن عمار إلى جانب طائفة كبيرة من العلماء في ميادين العلم المختلفة سنشير إليهم لدى حديثنا عن نشاط العلوم والآداب، وبهذا (تقدم لنا أسرة بني عباد مثلا واضحا للدور الذي يمكن أن تقوم به أسرة ارستقراطية في الحياة الأدبية وللأهمية التي يحتلها الأدب، وعلى وجه الخصوص الشعر في حياتها، ومن المؤكد أن التقاليد العلمية التي توارثتها هذه الأسرة ساعدت على إحلال الأدب لديها هذا المحل، وإعطائه هذه الأهمية)[٦٢].

بنو هود في سرقسطة

تعود شهرة هذه الأسرة إلى اهتماماتها العميقة بالعلوم التجريبية والفلسفة، فقد غلب على بلاطهم هذا اللون من المعارف والعلوم، ولا عجب في ذلك إذا وقفنا على حقيقة ما كان عليه ملوك هذه الأسرة من صفات علمية مميزة،

---

(٦١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٧٠ - ٧١).
(٦٢) صلاح خالص، اشبيليه في القرن الخامس الهجري (ص١٣٨).

ونبوغ واسع في ميدان العلوم الرياضية والفلكية.

وبناء على ذلك فإن ذوي الاهتمامات الأدبية لم يجدوا مكانا رحبا وواسعا في بلاط بني هود، وهو أمر أدى إلى قلة الواردين عليهم من الشعراء، خاصة إذا علمنا أن بني هود لم ينساقوا إلى تبديد ثرواتهم لمن أتاهم مادحا من الشعراء، بل عرفوا بقبض أيديهم عنهم[٦٣]، إلا في حالات نادرة للبارعين منهم فقط.

وأول النابغين في هذه الأسرة الملك المقتدر بن هود (٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) الذي قال فيه أبوالوليد الشقندي - مفتخرا بعلماء الأندلس أمام علماء المغرب - (وهل لكم في علم النجوم والفلسفة والهندسة ملك كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة فإنه كان في ذلك آية)[٦٤].

وعرف المقتدر ببراعته وتفوقه في الرياضيات والفلك حتى اشتهر بذلك في الأوساط العلمية آنذاك[٦٥]. وقد نسبت للمقتدر دراسات علمية صنفها في الفلسفة والرياضيات[٦٦].

ويبدو أن المقتدر غرس في ابنه المؤتمن (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) الميول العلمية لهذه العلوم، فقد ذاع صيته العلمي في حقل الدراسات الرياضية ووصفه الأمير عبدالله بقوله (كان المؤتمن رجلا عالما، قد طالع الكتب مع ما كان عنده من الآثار...)[٦٧].

ونتج عن براعة المؤتمن في دراسة الرياضيات والاهتمام بها أن صنف فيها كتابين هما «الاستكمال» و«المناظر»[٦٨].

---

(٦٣) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٧٥ - ٧٦) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص١٢٢).

(٦٤) المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٩٣).

(٦٥) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في اسبانيا، آنخل بالنثيا: مرجع سابق (ص٤٥٤)، إحسان عباس: مرجع سابق (ص٧٥ - ٧٦)، محمد عنان: دول الطوائف (ص٤٣٦).
Scott: History of the Moorish Empire in Europa, Vol, III, p. 430 - Anwar: Muslim Spain, its History and Culture. p. 349 - Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P. 132.

(٦٦) محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٨٣).

(٦٧) التبيان (ص ٧٨).

(٦٨) المقري: نفح الطيب، ج ١ (ص٤٤١)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص٧٥ - ٧٦)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥٤).

وذكر ابن خلدون والبغدادي أن له كتابا باسم «الاستهلاك» ولا نعلم على وجه القطع هل هو نفس كتاب «الاستكمال» مع تحريف في الاسم، أو كتاب آخر للمؤتمن[٦٩].

ويبدو أن مصنفات المؤتمن كانت ذات قيمة علمية رفيعة بين علماء ذلك العصر، وما بعده، وهو مادفع العلامة اليهودي موسى بن عبيدالله بن ميمون القرطبي (٥٥٩ ـ ٦٠٠هـ/ ١١٦٣ ـ ١٢٠٤م) إلى دراسة كتابه الاستكمال دراسة عميقة، ثم وضع له شرحا وافيا لمسائله وقال: (إنه جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس بها كتابات اقليدس، وكتاب المجسطي)[٧٠].

وكان لاهتمامات المؤتمن العلمية أثر في دفع عجلة النشاط العلمي والتصنيف، فكان عدد من العلماء يتطلعون إلى كسب رضاه وإعجابه بما يصنفونه من كتب، فصنف له العلامة الأديب العروضي نصر بن عيسى بن نصر كتابا في العروض[٧١]، ويبدو أن له علاقة بالموسيقى والألحان وهي من العلوم التي حظيت بالعناية لدى بني هود.

وخلف المؤتمن ابنه المستعين (٥٠٣هـ/ ١١١٠م) الذي كان معدودا في المهتمين بالحركة العلمية وتشجيعها وإكرام أهلها، فصنف له الطبيب اليهودي يونس بن إسحق بن بكلارش، كتابه القيم «المستعيني» في الأدوية المفردة، ويطلق عليه أيضا كتاب «المجدولة» في الأدوية المفردة لأنه وضعه مجدولا ـ أي على جداول[٧٢].

ومما يُسر له أن هذا الكتاب، قد نجا من عوائد الدهر ويد الضياع حيث توجد منه نسخ متعددة في بعض المكتبات الأوربية.

ويشير الدكتور عبدالرحمن بدوي إلى أن هذا الكتاب قد حظي بدراسة قام بها العالم الفرنسي رينو[٧٣].

---

(٦٩) انظر ابن خلدون، العبر، ج ٤ (ص ١٦٣) طبعة ١٢٨٤ هـ، وكذلك، هدية العارفين، ج ٢ (ص ٥٥١).
(٧٠) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥٤ ـ ٤٥٥).
(٧١) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٧٤٦).
(٧٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥٠١)، عبدالرحمن بدوي: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العر ب (ص ٣٤)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٢٢٨).
(٧٣) دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب (ص ٣٤).

ومن أبناء هذه الأسرة العلماء أبو محمد بن هود الجذامي، الذي كان ماهرا في الأدب، بارعا في فنونه، ولما اضطرب الحال في مملكتهم ـ أي بني هود ـ تحول الى غيرها من عواصم ملوك الطوائف حتى حل ضيفا لدى المتوكل ابن الأفطس فولاه مدينة اشبونة[٧٤].

كما برز أبوعامر بن المستعين في علوم الدين من فقه وحديث، وأخذ عن العلماء، وأخذوا عنه أيضا[٧٥].

وبناء عليه فإن ملوك سرقسطة لعبوا دورا هاما في نشاط لون من ألوان المعرفة، وهي العلوم التجريبية، أولا بجهودهم هم كعلماء قديرين وثانيا بالتأثير في غيرهم من العلماء ذوي العناية بهذا الجانب من العلوم، فنشطت تلك العلوم نشاطا كبيرا وازدهرت في بلاطهم، وظهر في مملكتهم وعاصمتهم علماء بارزون. وكانوا يلقون من بني هود كل رعاية وتشجيع، فالمقتدر نفسه كان حريصا على أن يحيط نفسه بنخبة بارزة من العلماء والفلاسفة سواء كانوا مسلمين أم يهودا[٧٦].

والمؤتمن ابنه (كان خير خلف عن أبيه، حاميا لملكه مجاهداً لعدوه مألفا للأدباء والعلماء والشعراء)[٧٧].

وعلى الرغم من عناية هؤلاء الملوك بالرياضيات والفلك والفلسفة والموسيقى إلا أنّ عطفهم شمل أهل العلم والمعرفة جميعهم، فكانوا ينزلونهم منازل الحفاوة والتقدير، فيذكر أنه لما عاد الفقيه المشهور أبوالوليد الباجي إلى الأندلس من رحلته العلمية في المشرق، سارع المقتدر إلى استدعائه إلى بلاطه، حيث حل مكرما مقربا. وهناك صنف أبوالوليد كثيرا من كتبه وتصانيفه الفقهية وغيرها، وكان المقتدر يفاخر ملوك عصره بوجود أبي الوليد في بلاطه، وكيف أنه آثره على غيره[٧٨].

---

(٧٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٦٥).
(٧٥) ابن الأبار: المعجم (ص ٣١٢).
(٧٦) Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P. 132.
(٧٧) ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ٤٣٧).
(٧٨) ابن خاقان: القلائد (ص ١٩٧).

وكـان المقتـدر مسارعا لاجتذاب العلماء والأدباء البارعين باذلا ضروب العطاء لهم، يغريهم بالصلات والمراتب العالية في سبيل وجودهم في بلاطه، فلما كان العلامة أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي يتنقل بين ملوك ذلك العصر استدعاه المقتدر فأجابه الباجي، حيث أحله منزلة سامية ورفع قدره بين علماء بلاطه. وبعد إقامة طيبة في تلك الربوع غادر أبوعمر سرقسطة وقد خلف فيها أجمل ذكرياته بين إخوانه، فقال من جملة ابيات:

سـلام علـى صفحـات الكـرم   علـى الغـرر الفارجـات الغمـم
فـما انـس لا أنـس ذاك الحيـا   وتلـك المعالي وتلـك الشيـم[٧٩].

وأبرز من ظهر في تلك المملكة من الأعلام الوزير الكاتب أبوالفضل حسداي بن يوسف بن حسداي، وكان أبوه يوسف يعمل لدى بني هود، ويقوم ببعض الأعباء في دولتهم، إلا أن ابنه حسداي كان ابعد صيتا منه، فقد برز في علوم الأوائل والفلسفة، وأتقن علوم العربية، وبلغ مرتبة رفيعة في البلاغة. ونال بذلك الوزارة لدى بني هود[٨٠].

وقد أثنى عليه صاعد، وكان صديقا له فقال عنه (فارقته سنة ٤٥٨ هـ وهو خارق حجبه، وإن امتد به الأجل، واتصلت به العناية، فسيوفي على صناعة الفلسفة، ويستوعب فنون الحكمة، هذا وهو بعد فتى لم يبلغ الأَشُدّ إلا أن الله يخص بفضله من يشاء)[٨١].

وفي بلاط بني هود لمع اسم الطبيب الرياضي الفلكي الفيلسوف أبوالحكم عمرو بن عبدالرحمن بن أحمد بن علي، وكان صديقا لأبي الفضل حسداي ويبدو أنه كانت بينهما دراسات ومشاركات علمية[٨٢].

وكان أبوالحكم يمثل وجها مشرقا لازدهار تلك العلوم التي وجدت لها سوقا نافقة لدى بني هود، وإليه ينسب إدخال رسائل إخوان الصفا إلى

---

(٧٩) ابن خاقان: نفس المصدر (ص ١٠٦)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٤٠٥).
(٨٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٤٥٧ - ٤٥٨)، ابن خاقان: القلائد (ص ١٩١ - ١٩٢)، آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١٢٢).
(٨١) طبقات الأمم (ص ١١٧ - ١١٨).
(٨٢) صاعد: طبقات الأمم (ص ٩٤ - ٩٥)، ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء (ص ٤٨٤ - ٤٨٥).

الأندلس كما سيأتي ذكره عند الحديث عن العلوم.

كما ظهر في تلك المملكة الفيلسوف الشهير أبوبكر محمد بن باجه التجيبي المعروف بابن باجه، وكان إلى جانب تضلعه من الفلسفة رياضيا فلكيا موسيقيا[٨٣].

وإلى مملكة سرقسطة ينتسب العلامة المفكر السياسي أبوبكر الطرطوشي نسبة إلى طرطوشة ثغر سرقسطة وهو مؤلف كتاب «سراج الملوك».

وفي سرقسطة لمع نجم العلامة الرياضي والفلكي عبدالله بن أحمد السرقسطي، وكان يوصف بأنه من المتضلعين من الهندسة، وكان يعلم الرياضيات للتلاميذ في مجلس خصصه لذلك في بلده[٨٤].

واشتهر بعلوم الموسيقى والفلسفة أبوعثمان سعيد بن فتحون بن مكرم المعروف بالحمار السرقسطي، وله تآليف في الفلسفة والموسيقى[٨٥].

وخدم بني هود بالطب الطبيب اليهودي يونس بن بكلارش، وكان معروفا بتمكنه العميق في الطب إلى جانب مهارته في معرفة النباتات الطبية والصيدلة وقد سبق الحديث عنه وعن كتابه «المستعيني».

هذا وكان العلماء يلقون من هذه الأسرة الحاكمة كل رعاية وتشجيع وتكريم، ليس فقط في بلاطهم بل إن رعايتهم لهم امتدت إلى حياتهم الخاصة فقد روي أن المستعين كان مكرما للعلماء محسنا لهم، فكان يعود الفقيه خلف بن محمد العبدري أثناء مرضه، ويستمع إلى شكواه ويجيب مطالبه[٨٦].

وأخيرا يتبين لنا ما كانت عليه هذه الأسرة من سمات وخلال علمية رفيعة قدموا من خلالها وبأنفسهم كعلماء للعلم أجل الخدمات وأحسن النتائج ودفعتهم تلك الخصال والمواهب العلمية إلى تنشيط الحركة العلمية في ميدان العلوم التجريبية، فظهر في بلاطهم ومملكتهم كثير من نوابغ العلماء الرياضيين

(٨٣) أنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٢٢).
(٨٤) صاعد طبقات الأمم (ص ٩٧).
(٨٥) صاعد: نفس المصدر (ص ٩٢).
(٨٦) ابن الابار: التكملة، ج ١ (ص ٢٩٨).

والفلكيين والفلاسفة، فكان في مملكتهم ـ بحق ـ أعظم المدارس العلمية في حقول الفلسفة والعلوم التجريبية والبحتة ولم يكن ينافسها في ذلك سوى مملكة طليطلة كما سنرى ذلك فيما بعد.

بنو الأفطس في بطليوس

لعبت هذه الأسرة دورا مهماً عظيما في ازدهار الحركة العلمية في مملكتها، وكان لملوكها فضل لا ينكر على نشاط العلوم والآداب، ولا عجبَ في ذلك فقد كان عدد من هؤلاء الملوك علماء بارزين بل ولهم مصنفات علمية قيمة.

يأتي في مقدمة ملوك هذه الأسرة من حيث المكانة العلمية ونضج الشخصية الملك الأديب العالم المظفر أبوبكر محمد بن عبدالله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس (ت ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) وهو كما وصفه ابن بسام (أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق المترجم بـ«التذكرة» والمشتهر باسمه ايضا بـ«كتاب المظفر» في خمسين مجلدة ويشتمل على علوم وفنون من مغازٍ وسِيَر، ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، أبقاه في الناس خالدا...)(٨٧).

وكان هذا الملك شديد العناية بالمعارف، حريصا على نشرها، ساعيا في ازدهارها، وقد سلك في سبيل هذه الغاية سبلا ناجحة، فكان يعقد في بلاطه مجالس العلم والمذاكرة والمناظرة، ويأخذ مع العلماء في مدارسة الأدب والفنون، والمعارف المختلفة أحياء للعلوم وتنويرا للأذهان(٨٨).

وقد أشار ابن بسام إلى المظفر ووصف سيرته العلمية، وأنه غير معدود

---

(٨٧) الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٦٤٠ ـ ٦٤١)، ومما يتضمن هذا الوصف انظر:
ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٩٣)، المقري: نفح الطيب ج ٣ (ص ١٩٤ ـ ٣٨٠، ٣٨١)، ج ١ (ص ٤٤٢)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٧٢). محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤٢٩) كليليا سارنللي: مجاهد العامري، (ص ٩٦).
Scott: History of the Moorish Empire in Europe
VoL. 111. P. 340 - 458. S.M. Imamuddin: Muslim Spain, P. 144.

(٨٨) المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ٣٨٠ ـ ٣٨١)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٨).

في الشعراء والكتاب فيفرد له فصلا في كتابه الذخيرة، ولو أنه صنفه في طبقات العلماء لكان له القدح المعلى والحظ الأوفى[89].

وبلغ من نضج فكره وسمو ثقافته الأدبية، واطلاعه الواسع العميق على محاسن الشعر وبدائعه، انه كان ينكر على شعراء زمانه شعرهم، ويحط من غرورهم بقوله (من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري فليسكت لا يرضى بدون ذلك)[90].

ورغم مهارته في الشعر إلا انه قال يوما: والله ما يمنعني من إظهار الشعر إلا كوني لا أقول مثل قول ابي العشائر بن حمدان:

أقـرأت منـه مـا تخـط يـد الوغــى　　　والبيــض تشكــل والأسنــة تنقــط

وقول أبي فراس ابن عمه:

وجررنـــا العوالـــي فـــي مقـــام　　　تحـــدث عنــه ربـــات الحجـــال
كـــأن الخـــيل تعلـــم مـــن عليهـــا　　　ففــي بعــضٍ علــى بعــض تعالــي

فأين هذا من قولي:

أنفــت مــن المــدام لأن عقلـــي　　　أعــز علــي مــن أنــس المــدام
ولــم أرتــح إلــى روض وزهـــر　　　ولكـــن للحمائـــل والحمـــام
إذا لــم أملــك الشهــوات قهــرا　　　فَلِمْ أبغـي الشفـوف علـى الأنـام[91].

وبالإضافة إلى ما سلكه المظفر من أساليب في تطوير الحركة الأدبية في مملكته بتشجيعه العلماء والأدباء، وحثهم على البحث والتصنيف والتأليف فقد سعى لتكريس النشاط العلمي والأدبي بتوفير نفائس المصنفات وجمع نوادر الكتب في مختلف وجوه المعرفة، حتى أصبح له مكتبة عظيمة تنم عما وصل إليه المظفر من معرفة وعلم غزيرين.

---

(٨٩) الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٦٤٠ - ٦٤١).
(٩٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٦٤١).
(٩١) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٤٦٦).

ومن الغريب أن المظفر الذي أنجز هذه الأعمال العظيمة، كان مشغولا بحروبه وصراعه المستمر مع منافسه وخصمه المعتضد بن عباد ملك اشبيلية، ورغم ما تحمله المظفر من جراء ذلك من تضحيات كبيرة ومعاناة شديدة إلا أنه كان نجما لامعا في سماء العلم فعاشت ذكراه خالدة كعالم وحام للعلوم والمعارف وأهلها.

ونظرا لتشجيع المظفر للعلماء على التصنيف والتأليف فقد أشار آنخل بالنثيا إلى ان العلامة الأديب الفقيه المؤرخ عمربن عبدالبر النمري (٣٦٨ ـ ٤٦٣هـ/ ٩٧٨ ـ ١٠٧٠م) اهدى كتابه الأدبي الممتع «زينة المجالس» في ثلاثة مجلدات إلى المظفر ملك بطليوس[٩٢].

ولكن بالنثيا جانب الصواب في تسمية المؤلف وكتابه، فاسم المؤلف حقيقة أبوعمر يوسف بن عبدالبر، واسم كتابه هو «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس»، وهذا الكتاب لا زال بين أيدينا لحسن الحظ[٩٣].

وصنف له الأديب الفيلسوف الطبيب محمد بن سليمان الرعيني الكفيف (ت ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م) رسالة أدبية، وهي الرسالة المهرجانية واسمها «وشي القلم وحلي الكرم» بعث بها إلى الملك المظفر بن الأفطس، ووصفت هذه الرسالة بالقيمة والإبداع[٩٤].

وفي سيرة المظفر العلمية واهتماماته الأدبية يقول ابن شرف القيرواني:

أقمـــت للعلـــم منـــارا ومـــا	أظـــن فـي الدنيـــا لعلـــم منـــار
فمـــا ندامـــاك ســـوى أهلـــه	وكلهـــم بيـــن ندامـــى العقـــار
ميـــزك ميـــزان عقـــول الـــورى	وفهمـــك العـــدل لكـــل عيـــار[٩٥]

وفي عهد ابنه المتوكل (ت ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) استمر ازدهار الحركة العلمية والأدبية، وذلك بفضل ما كان يتمتع به الملك الجديد من خصال

---

(٩٢) تاريخ الفكر الاندلسي (ص ١١٨).
(٩٣) الكتاب مطبوع بتحقيق محمد مرسي، وطبع بدار الكتب العلمية بيروت.
(٩٤) ابن الابار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٨٧).
(٩٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٤٣).

وصفات أدبية، فقد كان أديبا شاعراً، محبا للعلماء والأدباء، مشجعا لهم على الدرس والتحصيل والتأليف.

وبلغ من الحضارة المزدهرة والرقي العلمي في بلاط المتوكل أن وصفت أيامه وأيام أبيه من قبله بإنها كانت كالأعياد والمواسم السعيدة وأن بلاطهما في بطليوس كان ملجأ وملاذا أوى إليه كل ذي علم وأدب(٩٦).

وقد حفظ لنا ابن بسام وابن الأبار مقطوعات نثرية وشعرية للمتوكل تنم عما كان عليه من براعة أدبية وشعرية(٩٧).

وجمع المتوكل إلى مهارته الأدبية والشعرية إجادته للغة ومعرفة علومها، فقد روى المراكشي الأنصاري أنه اطلع على بطاقة بخط أبي علي الغساني أدرجها في ذكر «المعا» أثناء ما ورد من المقصور على فِعَل: من كتاب أبي علي القالي في «المقصور والممدود» ونصها: (وروى بعضهم: المؤمن يأكل في معا واحدة والكافر يأكل في سبعة أمعاء، فقال معا واحدة فأنث وقال سبعة بالتاء فذكر، جمع بين اللغتين، أفادنيه المتوكل على الله أيده الله انتهت)(٩٨).

ونلمس في هذا النص أنه كانت تتم بين يدي المتوكل مدارسة واشتغال بقضايا العلم والأدب، وكان المتوكل نفسه يشارك العلماء في إبداء الرأي والتوصل إلى تفسير لبعض المسائل العلمية والأدبية.

وكان مثله في ذلك مثل أي عالم بارز، فأبو عليّ الغساني العلامة المذكور كان من كبار علماء الدين واللغة والأدب، ومع ذلك فقد أفاده المتوكل وأعانه على فهم ما غمض من تلك المسألة اللغوية.

وكان المتوكل في مملكته وحاضرته بطليوس كالمعتمد بن عباد باشبيلية محط رحال العلماء وقبلة لذوي المعارف يترددون عليها باستمرار دون انقطاع لما ينالونه في بلاطهما من ضروب التكريم والرعاية، وكان المعتمد أكثر شاعرية،

---

(٩٦) ابن خاقان: القلائد (ص ٣٧)، المراكشي: المعجب (ص ١١١ - ١١٢)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٣٦٤)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٧٢ - ٢٧٣)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٧٢).

(٩٧) انظر الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٦٤٦) ما بعدها، الحلة السيراء ج ٢ (ص ١٠٤) وما بعدها.

(٩٨) الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢ (ص ٤٦٦).

في حين كان المتوكل أكثر أدبا وكتابة(٩٩).

وفي دولة بني الافطس ظهر كثير من الأعلام وأرباب المعرفة، مثل الوزير الكاتب أبومحمد عبدالمجيد بن عبدون الذي ذاع صيته بقصيدته الرثائية في بني الأفطس وسلطانهم الغابر.

واحتل الأديب أبوعبدالله محمد بن أيمن مكانة سامقة في بلاط المتوكل ووصفه ابن بسام فقال: (أعجوبة الدهر، وفريدالعصر، وفارس ميدان النظم والنثر، اشتهر في حملة الأقلام، اشتهار البدر في السماء، وتلاعب بغرائب الكلام، تلاعب الأفعال بالأسماء)(١٠٠).

وممن لمع نجمه في بلاط المتوكل من الأعلام الأديب أبو المطرف بن الدباغ، الذي حل في بلاط المعتمد أولا، ثم مالبث أن خرج عن اشبيلية إلى بطليوس، فأنزله المتوكل منزلة رفيعة تنم عن علمه وأدبه(١٠١).

وبلغ أسماع المتوكل ما كان عليه الأديب أبو بكر محمد بن عبدالملك بن قزمان من بلاغة وبيان فعينه لديه وزيرا كاتبا، فكان أحد أعلام بلاط بني الأفطس(١٠٢).

ولمع في بلاطهم أيضا بنو القبطورنه أبو بكر عبدالعزيز، وأبو محمد طلحة وأبو الحسن محمد أبناء سعيد البطليوسي، وكانوا جميعهم في الصدارة من الأدب والشعر البديع، وتولى منهم الوزارة والكتابة لدى المتوكل أبو بكر، وأبو الحسن(١٠٣).

ومن شعراء بني الأفطس الشاعر أبومحمد بن سارة (ت ٥١٧هـ/ ١١٢٣م) وقد اشتهر بإجادته للهجاء، وحسن الوصف للأزهار والثمار(١٠٤).

---

(٩٩) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٤٦٧).
(١٠٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٦٥٢).
(١٠١) ابن خاقان: القلائد (ص ١١٠ - ١١١).
(١٠٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٧٧٤)، ابن خاقان: القلائد (ص ٢٩٥)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٣٦٧).
(١٠٣) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧٥٣ - ٧٥٤) محمد عنان: دول الطوائف ص ٤٢٨.
(١٠٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢ ج ٢ (ص ٨٣٤)، آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١٢١).

ومن بطليوس ظهر نجم العلامة الفيلسوف اللغوي الأديب أبو محمد عبدالله بن حسين البطليوسي (ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) وسوف نشير إليه لدى الحديث عن اللغة والفلسفة.

وهكذا نلحظ مدى إسهام بنى الأفطس في دفع عجلة العلوم والآداب في مملكتهم، وأنهم لم يكونوا أقلّ اهتماما وعناية بالعلم والأدب من خصومهم بني عباد، بل أننا وجدنا بينهم من يستحق أن يطلق عليه عالم قدير، كالملك المظفر صاحب الموسوعة الأدبية الشهيرة، كما أن ذلك يصح على ابنه المتوكل فقد كان هو نفسه عالما وأديباً بارزا، ولا شك أن هذه المواهب قادتهم إلى نشر المعرفة وازدهارها، فشجعوا العلماء والأدباء ووفروا لهم كافة السبل التي تيسر لهم الانصراف نحو تحصيل العلوم والآداب والتأليف فيها.

بنو ذي النون في طليطلة

أول ملوك هذه الأسرة هو إسماعيل بن المضراس بن ذي النون (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) ولم يكن متحليا بما كان عليه ملوك عصره من خصال وصفات علمية وأدبية، بل على العكس من ذلك فقد وصفه ابن بسام بقوله (لم يرغب في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، فما أعملت إليه مطية ولا حملت أحدا نحوه ناقة، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر...)(١٠٥).

ولم تزدهر حال العلوم في بلاطهم إلا في عهد ابنه المأمون يحيى (ت ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م) الذي كان على جانب من العلم والمعرفة اكتسبها من مجالسة أهل العلم الأدب، وتقريبه لهم، فاجتمع في بلاطه عدد من الأدباء والعلماء، منهم محمد بن شرف القيرواني، وعبدالله بن خليفة المصري، وأبوالفضل البغدادي، وكان لديه من الوزراء والكتاب، أبوعيسى بن لبون، وأبومحمد بن سفيان، وأبوعامر بن الفرج، وأبوالمطرف بن مثنى(١٠٦).

---

(١٠٥) الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٤٣).
(١٠٦) ابن سعيد: المغرب، ج ٤ (ص ١٢ - ١٣) نقلا عن الحجاري في المسهب.

ولعل وجود مثل أولئك العلماء الأغراب عن الأندلس في بلاط المأمون فيه دلالة واضحة على ما كان يتمتع به المأمون من سمعة علمية عالية بين العلماء والأدباء، فتسارعوا من أقصى البلدان إلى بلاطه، حيث عمروه أدبا وعلما وثقافة.

ومن دلائل تشجيع المأمون للعلم والمعرفة، ما ألفه له العلماء من مصنفات، فهذا العلامة إبراهيم بن وزمر الحجاري صنف له كتابا اسمه «مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار»[١٠٧].

وصنف الأديب عبدالرحمن بن فتوح باسم المأمون كتابه «الإغراب في رقائق الآداب»[١٠٨].

بل إن المؤرخ العظيم ابن حيان مؤرخ هذا العصر، أهدى اليه كتابه المسمى «المتين» حيث قال في مقدمته (وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسي وخبأه لولدي، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي، طويت على ذلك كشحا وأوجبته عزما، إلى أن رأيت زفافه إلى ذي خطبة سنية أتتني على بعد الدار، أكرم خاطب وأسنى ذي همة، الأمير المؤثل الإمارة المأمون ذي المجدين، الكريم الطرفين، يحيى بن ذي النون)[١٠٩].

والحق أن بلاط بني ذي النون قد اشتمل على أعداد كبيرة من العلماء في حقول العلم المختلفة وخاصة النابغين منهم في ميدان العلوم التطبيقية كالرياضيات والفلك والطب والزراعة وسوف نتحدث عنهم بالتفصيل عند دراسة هذه العلوم.

وقد سبقت الإشارة إلى بعض الأسماء التي ضمها بلاط المأمون ومنهم الوزير الحكيم عبدالله بن خليفة القرطبي الذي ارتحل إلى المشرق، وعاد

---

(١٠٧) ابن الخطيب: الاحاطة، ج ٣ (ص ٤٣٢)، إحسان عباس: مرجع سابق (ص ٧٤ - ٧٥).
(١٠٨) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٧٠).
(١٠٩) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٥٧٨).

عالما كبيرا وذاع صيته في الطب، ولدى عودته إلى وطنه ظل متنقلا بين ملوك الطوائف، حتى اجتذبه المأمون ورغبه في الإقامه لديه وأعلى منزلته بين علماء بلاطه(١١٠).

ومن أشهر علماء بلاط بني ذي النون العلامة الفلكي الرياضي العظيم أبوإسحاق إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقال والذي وصف بأنه أعلم أهل زمانه بالفلك.

وفي ذلك البلاط عاش الطبيب الصيدلي الكبير عبدالرحمن بن وافد الذي يعتبر من كبار الصيادلة المسلمين.

وفي بلاط المأمون عاش العلامة الزراعي ابن بصال، الذي عمل للمأمون حديقة نباتية على نهر التاجه، وصنف للمأمون كتابا في الزراعة أسماه «القصد والبيان»(١١١).

وممن ينتسب إلى طليطلة العلامة الفيلسوف الطبيب الرياضي أبوعثمان سعيد بن البغونش(ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) الذي خدم في بلاط المأمون وأوكلت اليه بعض شؤون الدولة.

وفي مملكة طليطلة عاش العلامة الرياضي الفيلسوف أبوالوليد بن الوقشي، وكذلك أبوجعفر أحمد بن خميس العلامة الرياضي الفلكي الطبيب.

ويظهر أن طليطلة نالت سمعة كبيرة في ازدهار العلوم البحتة والتجريبية وتدريسها، فقد خرج العلامة إبراهيم بن لب التجيبي من بلده قلعة أيوب ليستقر في طليطلة ويتخذ له مجلسا بها لتدريس الرياضيات والهندسة والفلك(١١٢).

وهذه أمثلة على ما أشرنا إليه عن لون الدراسات العلمية التي ازدهرت في طليطلة واشتهرت بها هذه المملكة شهرة واسعة على ما عداها في كثرة علمائها، ويجد المطلع على كتاب القاضي صاعد أمثلة اخرى كثيرة تؤكد مكانة هذه المملكة في خدمة تلك العلوم.

---

(١١٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٣٤٧).
(١١١) المقنع في الفلاحة لابن حجاج، مقدمة المحقق.
(١١٢) صاعد: المصدر السابق (ص ٩٩). وقلعة أيوب إلى الشمال الشرقي لمدينة طليطلة. انظر الحميري: الروض المعطار (ص ٤٦٩).

وهذا بلا شك يوضح لنا ماكان يتمتع به ملوك بنى ذي النون، وخصوصا المأمون من مرونة وتسامح إزاء مثل هذه الدراسات وتوفير المناخ العلمي الحر لنشاطها، فوجد علماؤها الفرصة متاحة لدراسة تلك العلوم وتدريسها ونشرها وبثها بين تلاميذهم، ولم ينافس طليطلة في ذلك إلا جهود بني هود الآنفي الذكر.

وإلى جانب هؤلاء العلماء عاش كثير من الأدباء والشعراء أمثال أبي الفضل محمد بن عبدالواحد البغدادي الذي أنزله المأمون منزلا كريما في بلاطه، بل شمله بعطفه بعد وفاته برعاية أبنائه واهله(١١٣).

كذلك عاش في بلاط بني ذي النون محمد بن شرف القيرواني الذي استقر به الحال في بلاطهم بعد تردد طويل على ملوك الطوائف.

ولمع اسم الشاعر ابن أرفع رأس في بلاط المأمون، وكان مشهورا بنظم الموشحات البديعة وكل هؤلاء سنتحدث عنهم في حقل الدراسات الأدبية.

وفي بلاط طليطلة لمع اسم المؤرخ العظيم صاعد بن أحمد الطليطلي وكان موصـوفا بالتفنن في علوم مختلفة، فقد كان فقيها، مؤرخا، أديبا، فلكيا رياضيا، ومن أهم إسهاماته العلمية تصنيفه لكتابه القيم «طبقات الأمم» الذي اشتمل على إحصاء مختصر للتراث العلمي العالمي، وخصص جانبا منه لعلماء الأندلس في العلوم البحتة والتجريبية، و حفظ لنا بذلك ثروة علمية نفيسـة، وسجـلاً خالدا عن نشاط أولئك العلماء، وما أسدوه من إنجازات علمية رائعة(١١٤).

وأخيرا يتضح بعد هذا الاستعراض لدور بني ذي النون في نشاط الحركة العلمية أنهم ـ وخـاصـة المـأمـون ـ قد لعبوا دورا جادا في ازدهار الحركة العلمية، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم البحتة والتجريبية، ولا يزال بين أيدينا حتى يومنا هذا جانبٌ لا بأس به من إنتاجهم العلمي القيم.

---

(١١٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٨٩ ـ ٩٠)، ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص٥٩٨)، المقري النفح، ج ٣ (ص ١١ ـ ١٢ ـ ١٣).

(١١٤) طبع هذا الكتاب بمطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر (بدون تاريخ للطبعة) وقد اعتمد عليه الباحث كثيرا فيما يتعلق بعلوم الأوائل ومنها العلوم البحتة. وفي عام ١٩٨٥ صدرت طبعة محققة من الكتاب قام على تحقيقه حياة بوعلوان.

بنو صمادح في المرية

تعتبر هذه الأسرة العربية العريقة من أعظم الأسر التي خدمت الأدب والشعر على وجه الخصوص، وعلى الرغم من صغر مملكتهم، وضآلة حجمها إلا أن ملوكها أسهموا بدور فعال في ازدهار الأدب والشعر، وأول ملوك هذه الأسرة المعتصم بالله محمد بن معن بن صمادح التجيبي (ت ٤٨٤هـ/١٠٩١م) كان متحليا بالأدب ناظماً للشعر، محبا لأهله، مقربا لهم، وكان بلاطه منتدى للعلماء والأدباء، يتدارسون العلم بين يديه، ويتناظرون في شتى مسائله.[١١٥]

وصف ابن الأبار سيرته فقال (كان المعتصم ساكن الطائر، مأمون الجانب حصيف العقل، معنيا بالدين وإقامة الشرع، يعقد المجالس بقصره للمذاكرة، ويجلس يوما في كل جمعة للفقهاء والخواص، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث، ولزم حضرته فحول الشعراء...)[١١٦].

والمعتصم نفسه كان عارفا بعلوم الدين، فقد كان يروي عن أبيه معن عن جده مختصره في غريب القرآن المستخرج من تفسير الطبري، وقد حدث به عنه إبراهيم بن أسود الغساني[١١٧].

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان أديبا شاعرا، أورد له صاحب الحلة السيراء بعضاً من شعره ينم عن مهارته وإجادته في نظمه[١١٨].

وكانت شخصية المعتصم تتسم بالمسالمة والهدوء مع جيرانه، فلم يؤثر عنه أنه كان محاربا لجيرانه، طامعا في ممتلكاتهم كغيره من ملوك الطوائف[١١٩]،

---

(١١٥) ابن خاقان: القلائد (ص ٤٨ - ٤٩)، ابن الأبار: الحلة السيراء (ص ٨٢ - ٨٣)، ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ١٩٦)، الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٨٦)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٤٠ - ٤١)، آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١١٠)، إحسان عباس: مرجع سبق ذكره (ص ٧١ - ٧٢).
Scott: History of the Moorish Empire in Europe. Voll 111, P. 430

(١١٦) الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٨٢ - ٨٣).

(١١٧) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤٠١).

(١١٨) الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٨٤) وما بعدها.

(١١٩) ابن خاقان: القلائد (ص ٤٨ - ٤٩)، ابن الأبار: الحلة، ج ٢ (ص ٨٢ - ٨٣)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٤٠)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٠).

وقد أكسبه ذلك انصرافا تاما نحو حياة الأدب والمعرفة، وانعكس هذا الحال من السلام والدعة على المناخ الاجتماعي لمملكته أو إمارته، فكانت محط رحال أهل الأدب والعلم ينشدون في ظلها غاياتهم ومراميهم، فرحل إليها عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء، ولقوا في بلاط المعتصم كل تكريم.

ونحن نعجب من ابن الأبار الذي نسب إليه قلة الجود[120]، في الوقت الذي كان بلاطه مزهوا بكبار العلماء والأدباء والشعراء في ذلك العصر، وكيف يقال مثل هذا الوصف في شخصيته وابن خاقان يصف دولته بأنها (كانت مشرعا للكرم، ومطلعا للهمم)[121].

وهذا ابن بسام حين تعرض لسيرة الشاعر عبدالجليل بن وهبون الذي كان يزور المرية كل عام قال فيه (حدثني غير واحد أنه اجتاز بالمرية في بعض رحله الشرقية وملكها يومئذ قبلة الآمال، وقطب رحى الآمال، ومرمى جمار المدائح، أبو يحيى بن صمادح، فاهتز لعبدالجليل واستدعاه، وعرض له بجملة وافرة من عرض دنياه....)[122].

وبالرغم من إعراض ابن وهبون عن إغراء ابن صمادح إلا ان ماقام به الأخير من سلوك تجاه الشاعر وما بذله له من عطاء، فيه أوضح برهان على ما تميزت به شخصيته من كرم وسخاء، وهو أمر ينافي ما وسمه به ابن الأبار.

وفي بلاط المعتصم عاش كثير من الأدباء والشعراء البارزين أمثال الوزير الأديب عبدالعزيز بن الأرقم الذي ضرب أروع الأمثلة على وفائه للمعتصم واحتفاظه بصحبته عندما حاول المعتمد إغراءه بالنزول لديه[123].

وممن عاش في بلاط المعتصم الشاعر أبوعبدالله محمد بن حداد (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) الذي ذاعت شهرته بقصائده في مدح المعتصم،

---

(١٢٠) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٨٣).
(١٢١) القلائد (ص ٤٨ - ٤٩).
(١٢٢) الذخيرة ق ٢، ج ١ (ص٤٧٥)، وانظر أمثلة تدل على سخائه وكرمه لدى ابن خاقان: القلائد (ص ٤٩)، المقري: النفح ج ٤، (ص ٩)، آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١١٠ - ١١١).
(١٢٣) المقري: النفح، ج ٣ (ص ٤٩٨ - ٤٩٩).

وكان مقتصرا عليه دون سواه زمنا طويلا[١٢٤]. ويذكر آنخل بالنثيا أن الشاعر ابن الحداد مالبث أن خرج عن المرية بعد أن ساءت علاقته مع المعتصم، لأنه بلغه أن شاعره رماه في شعره بالبخل[١٢٥]. ولكننا سنثبت العلة الحقيقية وراء خروج ابن الحداد عن المرية عند حديثنا عنه في الشعر.

وإلى بلاط المرية لجأ أبوعبدالله محمد بن معمر المالقي ـ وكان مشهورا بعلوم اللغة ـ فحل لدى المعتصم مكانا ساميا، ومقاما رفيعا[١٢٦].

ومن أشهر من ضمه بلاطه من الشعراء الشاعر الوشاح محمد بن عبادة القزاز وكان إمام أهل عصره في نظم الموشحات وسيأتي ذكره عند الحديث عن الشعر.

كما لجأ الشاعر خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر إلى المرية وكان من الشعراء النابهين، وله أشعار هجا فيها ملوك عصره، وذمهم لتخاذلهم وأنقسامهم أمام عدوهم المشترك من النصارى وسنتحدث عنه ضمن الشعراء.

وقد حظي بلاط المعتصم ببعض العلماء الذين صنفوا له بعض الكتب، فهذا الأديب قاسم بن أيوب الطائي ألف له كتابا اسمه «بستان الكتابة وريحانة الخطابة» وكان ذلك نزولا عند رغبة المعتصم[١٢٧].

ولم يكن اهتمام بن صمادح قاصرا على الأدباء والشعراء بل شمل أيضا العلماء الآخرين في فروع المعرفة كافة، فقد نال الجغرافي الكبير أبوعبيد البكري منزلة رفيعة في بلاط المعتصم[١٢٨].

كما وجد الحكيم الفيلسوف الشاعر أبوالفضل جعفر بن محمد بن شرف البرجي (٤٤٤ ـ ٥٣٤هـ/ ١٠٥٢ ـ ١١٣٩م) في بلاط المعتصم ما حقق له الشهرة والمنزلة السامية. وكان متضلعا من الأدب، ماهرا في الشعر، وصنف

---

(١٢٤) ابن خاقان: (ص ٣٣٦).
(١٢٥) تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٢).
(١٢٦) المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٨٩).
(١٢٧) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢ (ص ٥٤٤).
(١٢٨) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٨٦).

كتابين في الحكم والأمثال أحدهما شعر والآخر نثر، تنم عن فكر قويم ونظر ثاقب وفلسفة عميقة سامية(١٢٩).

وعاش في المرية عدد قليل من علماء الرياضيات والطب منهم الحسن بن عبدالرحمن المعروف بابن الجلاب، وكان متضلعا من الهندسة والفلك والمنطق.

والعلامة أبو الحسن مختار بن عبدالرحمن بن مختار بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) وكان ماهرا في الهندسة والفلك إلى جانب مشاركته في الأدب واللغة وعلوم الدين والتاريخ والأنساب وسنتحدث عنها ضمن علماء الرياضيات.

وخَلَّفَ المعتصمَ بعد وفاته عدد من الأبناء، كانوا موصوفين جميعهم بالأدب ونظم الشعر، وأشهرهم رفيع الدولة الذي وصف ببراعته في الشعر إلا أن خموله وعزلته أضعفا ذكره بين شعراء عصره(١٣٠).

وأخته أم الكرام بنت المعتصم كانت شاعرة أيضا، ولها نظم ينم عن مهارتها في ذلك(١٣١).

وبهذا يتبين لنا مدى ما أسداه بنو صمادح من جهود طيبة في إذكاء شعلة النشاط الأدبي في إمارتهم الصغيرة، والتي حفلت بعدد من مشاهير الأدباء والشعراء والعلماء، فكان لهذه الإمارة دورها المجيد في دفع عجلة الحركة الأدبية وازدهارها في ذلك القطر الشرقي من الأندلس.

مجاهد العامري في دانية

كان لمجاهد العامري (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) دور بالغ الأهمية في تشكيل بعض الأحداث السياسية والعسكرية في شرق الأندلس، وبعض الجزر البحرية الشرقية أيضا، إلا أننا أثناء دراستنا للحياة العلمية في ذلك الجانب

---

(١٢٩) آنخل بالنثيا: المرجع السابق (ص ١١٠ - ١١١ - ١١٢).
(١٣٠) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ٩٢) وانظر في ما بعدها مقاطع من شعره.
(١٣١) آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١١٤).

لفت نظرنا هذا الزعيم بشخصيته العلمية والأدبية ومدى ما أسهم به من دور فعال في نشاط لون من ألوان الدراسات الإسلامية. ولا عجب في ذلك فقد كان عالما بالقراءات واللغة، ومن الجائز أن يعود هذا إلى نشأته العلمية التي نشأها في ظل حكم مولاه عبدالرحمن بن المنصور العامري. وقد قاده علمه الواسع باللغة إلى تصنيف كتاب في العروض يدل على تمكنه من ذلك[١٣٢].

وكان مجاهد مسارعا في تكريم العلماء راغبا في رعايتهم وتشجيعهم على العلم والمعرفة، باذلا لهم بسخاء كل ضروب التكريم والتعظيم في سبيل الرقي بالمعارف[١٣٣].

وبناء على تكريمه لهم فقد (أَمَّهُ جملة العلماء وأنسوا بمكانه، وخيموا في ظل سلطانه، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة وحلبة ظاهرة)[١٣٤][*].

وكان مجاهد، رغم إكرامه لأهل العلم والأدب، شديد النقد لما يلقيه الشعراء من القصائد لبراعته في اللغة، فلا يزال يتعقب كل لفظة ومقطع بالنقد، والتجريح بالسرقة، حتى لا تكاد تسلم منه قافية، فلم يجد الشعراء لديه منالا فقل إقبالهم عليه[١٣٥].

وتعود شهرة مجاهد إلى اهتماماته العظيمة بالدراسات القرآنية واللغوية، حتى اصطبغ بلاطه بهذه السمة، فرحل إليه القراء واللغويون ووجدوا في بلاطه كل تكريم[١٣٦].

---

(١٣٢) الحميدي: الجذوة (ص ٣٥٢)، ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١، (ص ٢٣)، ابن خلدون : المقدمة (ص ٤٣٧ - ٤٣٨).

(١٣٣) الحميدي: الجذوة (ص ٣٥٢ - ٣٥٣)، الضبي: بغية الملتمس (ص ٤٧٢)، ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ٤٠١)، ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٣ (ص ١٥٦)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٩٠)، لطف الله: صحائف الأخبار (مخطوط) ورقة ٢٧٥.

(١٣٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٢ - ٢٣).

(*) تجدر الإشارة إلى أن مجاهداً وابنه علياً حظيا بدراسة تاريخية وحضارية قامت بها الاسبانية كليليا سارنللي لنيل درجة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة. وقد طبعت الرسالة سنة ١٩٦١م، بمطبعة لجنة البيان العربي.

(١٣٥) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ ص ٢٢ - ٢٣.

(١٣٦) ابن بسام: المصدر السابق ق ٣، ج ١ (ص ٢٣).

وبناء على ذلك فقد نشطت الدراسات القرآنية في دانية، وظهر في بلاط ملكها من العلماء القراء ما تفخر به على سائر المدن، كالعلامة الكبير أبي عمرو الداني الذي كان من أقطاب القراء، وعلى مصنفاته عول العلماء جيلا بعد جيل(١٣٧).

ومما يدل على عناية مجاهد بالدراسات اللغوية أيضا، حرصه الشديد على دفع العلماء للتصنيف فيها وبذله المال في سبيل ذلك ومحاولته اكتساب الشهرة كحام للعلم ومكرمٍ لأهله. وحدث أن طلب من العالم اللغوي تمام بن غالب أن يجعل كتابه الذي صنفه في اللغة مطرزا باسمه، ولكن مؤلفه رفض ذلك وأعاد إلى مجاهد ما بعثه إليه من دنانير وكسوة وقال (كتاب ألفته لله وللعلم أصرفه إلى اسم ملك، لا يكون هذا أبدا) مما أعلى شأن هذا العالم في عين مجاهد، وقد أثنى الحجاري على هاتين الشخصيتين وقال (هكذا ينبغي أن تكون الملوك، وكذا يجب أن تكون العلماء)(١٣٨).

ولمجاهد صنف ابن سيده كتابيه المخصص والمحكم. وكان مجاهد قد عزم على أن يصنف بنفسه معجما كاملا في اللغة، ولكن نظرا لانشغاله بأعماله السياسية والعسكرية، فقد كلف ابن سيده بذلك فصنف كتابيه المذكورين.

وابن سيده هذا يُعَدّ بلا مبالغة أشهر من أخرجته الأندلس في ميدان علوم اللغة وكان إلى جانب ذلك ماهرا في المنطق وله فيه تصنيف(١٣٩).

وفي بلاط مجاهد عاش الفقيه المحدث المؤرخ الكبير ابن عبدالبر النمري حافظ الأندلس، ومؤلف التمهيد في فقه الحديث، والاستذكار، وبهجة المجالس، وغيرها.

وإلى دانية لجأ العلامة الرياضي الفلكي أبوالقاسم أحمد بن عبدالله المعروف بابن الصفار، وهناك عاش ينشر علمه ويعلم تلامذته حتى وافته المنية(١٤٠).

---

(١٣٧) ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٣٧ - ٤٣٨).
(١٣٨) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ١٦٦) وانظر هذه القصة لدى الحميدي: الجذوة (ص ١٨٣)، الذهبي: العبر، ج ٣ (ص ١٨٥ - ١٨٦).
(١٣٩) صاعد: طبقات الأمم (ص ١٠٣).
(١٤٠) صاعد: طبقات الأمم (ص ٩٣ - ٩٤).

وكان أبو مروان عبدالملك بن محمد بن زهر قد رحل إلى المشرق حيث التقى هناك بعدد من الأطباء أخذ عنهم الطب ونقل عنهم كثيراً من المعارف ليعود بعد ذلك إلى وطنه وقد أصبح طبيبا لامعا واستوطن مدينة دانية، واشتهر بها وذاع صيته في الأندلس[١٤١].

وخدم بالطب مجاهدا العامري وابنه عليا الطبيب اليهودي إسحق بن قسطار، وكان طبيبا بارعا وعلى جانب من المعرفة بالفلسفة والمنطق[١٤٢].

ومن أهم ما ذكر عن مجاهد من إنجازات علمية ما كان عليه من ولع شديد واهتمام كبير بجمع الكتب، والسعي في اجتلابها من مختلف المدن والأقطار، باذلا في ذلك كثيرا من الأموال حتى اجتمع منها لديه خزائن عظيمة، وكان يقضي بعض وقته في مطالعتها، والعكوف على قراءتها[١٤٣].

وعد الحميدي من مناقبه وخصاله الحميدة تقديمه للوزير الكاتب أبي العباس أحمد بن رشيق واستناده عليه في كثير من أموره، وقد عينه مجاهد حاكما على جزيرة ميورقة، ونظرا لما كان يتمتع به ابن رشيق من علم وأدب فقد كان بلاطه هناك حافلا بالعلماء والأدباء، وهو الذي آوى ابن حزم الظاهري حين ضاقت به الأندلس، وبين يدي ابن رشيق جرت المناظرات بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي في الفقه وعلوم الدين[١٤٤].

وخلف مجاهدا على مملكته ابنه عليّ الملقب بإقبال الدولة، وسار على طريقة أبيه في تشجيع العلماء والأدباء، وحثهم على التأليف والتصنيف، غير أن ذلك كان (تطبعا لا طبعا)[١٤٥].

ومن أشهر الأحداث العلمية التي وقعت في عصر إقبال الدولة ماانتج عن تسامحه، وبذله الحرية الفكرية بدرجة كبيرة، دفعت أحد المولدين ممن يعود إلى اصل نصراني بشبكنسى والذي نشأ في بلاط مجاهد ويدعى أحمد بن

---

(١٤١) صاعد: نفس المصدر (ص ١١١).
(١٤٢) صاعد: طبقات الامم (ص ٢٣ - ٢٤)
(١٤٣) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ١١٧).
(١٤٤) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٢٨)، محمد عنان: دول الطوائف (ص١٩٨)، إحسان عباس: المرجع السابق (ص٧٣ - ٧٤).
(١٤٥) ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ٤٠١).

غرسيه إلى كتابة رسالة أدبية تاريخية في تفضيلِ العجم على العرب وجهها لصديقه الشاعر ابن الحداد الوادي آشي، لأنه قصر مدائحه على المعتصم ابن صمادح دون مجاهد وابنه علي.

والرسالة تفيض بالحقد والغل والكراهية للعرب، وتصفهم بالتخلف والوضاعة والدناءة، في حين ترفع من شأن العجم، وتعلي من أقدارهم وتصفهم بالتحضر والتمدن والرقي، وأنهم أهل الفروسية والشجاعة والجيوش الظافرة، وقد رد على ابن غرسيه عدد من العلماء سنشير إليهم عند الحديث عن الأدب[146].

بنو حمــود

ينسب لهذه الأسرة التي حكمت بعض المدن كاشبيلية وقرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء بعض الاهتمامات الأدبية، فظهر في إماراتهم المختلفة بعض الأدباء والشعراء نذكر منهم الشاعر الطبيب الفيلسوف محمد بن سليمان بن الحناط، وكان بارعا في علوم وآداب مختلفة وانتهى به الحال إلى الاستقرار في كنف الأمير محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء[147].

وفي دولة علي بن حمود بمالقة برز أبوجعفر بن اللمائي الذي وصف بأنه أحد أئمة الكتاب والبارعين في الآداب، وأن له إنشاءات بديعة في بلاط الدولة الحمودية[148].

وكان الأديب أبوعبدالله بن السراج المالقي معدودا في شعراء بني حمود، فقد مدحهم كثيرا بقصائده كما كان بارعا في الغزل والنسيب[149].

ومن علماء تلك الدولة الحمودية بمالقة العلامة الفقيه أبوعلي الحسن بن حسون الذي وصف بأنه من أئمة العلماء، وقد ولي القضاء على مالقة في

---

(١٤٦) قام الاستاذ عبدالسلام هارون رحمه الله بنشر وتحقيق رسالة ابن غرسيه الشعوبي وكذلك ردود الأدباء والعلماء على هذه الرسالة في كتابه نوادر المخطوطات، ط الثانية، ج ١، (ص ٢٢٩) وما بعدها.

(١٤٧) القفطي: المحمدون من الشعراء (ص ٣٥٩ - ٣٦٠).

(١٤٨) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٦١٧)، ابن سعيد: المغرب ج ١ (ص ٤٤٦).

(١٤٩) ابن بسام: الذخيرة ق ١، ج ٢ (ص ٨٧٠ - ٨٧١).

حكم علي بن يحيى بن حمود[١٥٠].

وفي بني حمود قال الشاعر عبدالرحمن بن مقانا الاشبوني قصيدته المشهورة الذائعة الصيت ومطلعها:

البـــرق لائـــح مـــن اندريـــن   ذرفـت عينـاك بالمـاء المعيـن[١٥١]

بنو مناد أو بنو زيري في غرناطة

لم يقدم بنو مناد من البربر في غرناطة شيئا مهما للحركة العلمية والأدبية فقد كانت هذه الأسرة تفتقر إلى رهافة الحس الأدبي والذوق الرفيع الذي كان يتمتع به غيرها من الأسر آنفة الذكر، هذا بالإضافة إلى ما اتصف به حكام غرناطة من بخل وتقتير، فكدسوا الأموال والذخائر التي استولى عليها المرابطون فيما بعد، وعلى امتداد نصف قرن (وفي بلد يرتوي بالشعر ويتغذى بالغناء، بقيت طوال القرن الحادي عشر الميلادي خارج المرابط التي يتردد عليها الشعراء، ولم يحدث أبدا أن أيا من كبار الشعراء خارجها فكر أن يرتحل إليها ليمـدح عبثا أمراءهـا البربـر ووزراءهـا اليهود، وأمـا الشعراء المقيمـون فيهـا فكـان عليهم إمـا أن يخضعـوا كما صنـع المنفتل أبوأحمد عبدالعزيزبن خير، وينظموا الشعر في مدح اليهود، ويتعرضوا لمقت المؤرخين وسخطهم وإما أن يهاجروا كما فعل السميسر)[١٥٢].

ونضيف إلى هذين الصنفـين من الشعراء صنفا آخر وقف ضد التيار السياسي الذي كان يشكله اليهود المسيطرون على مقاليد السياسة، وكان زعيم هذا الاتجاه الشاعر الثائر أبوإسحاق الألبيري الذي أشعل بقصيدته الثائرة ضد اليهود حماسة المسلمين وحميتهم فأوقعوا باليهود وقتلوا كبيرهم وزير باديس بن حبوس وقضوا على نفوذ اليهود في تلك الدولة[١٥٣].

---

(١٥٠) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٤٣٠).

(١٥١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٧٩١)، والأشبوني نسبة إلى اشبونة وهي عاصمة البرتغال الحالية وتسمى لشبونة.

(١٥٢) غرسيه غومس: مع شعراء الأندلس والمتنبي (ص ٩١ - ٩٢).

(١٥٣) سنفصل الحديث عن هذه الوقعة عند الحديث عن الشعر، والألبيري نسبة إلى البيره في الجنوب الشرقي للأندلس. الحميري: الروض المعطار (ص٢٨).

ولا يعني هذا أنه لم يبرز في تلك المدينة علماء وأدباء قديرون أو أنه لم يلتجئ إليها عدد منهم بعد الفتنة ولكن الذي نقصده موقف أولئك الأمراء البربر من الحركة العلمية.

تولى الملك في الدولة أولا حبوس بن ماكسن (ت ٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م) ثم خلفه ابنه باديس (ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٣م) الذي كان أشهرهم جميعا، وخلفه حفيده الأمير عبدالله الذي أوقع به المرابطون (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م).

وأبرز من ظهر في بلاط بني مناد في غرناطة وزيرهم اليهودي إسماعيل بن نغراله الذي كان بارعا في الأدب والشعر ماهرا في الكتابة والإنشاء وكان أثناء كتابته لدى حبوس ثم ابنه باديس شديد الالتزام بالتقاليد الإسلامية في الكتابة، فكان يفتتح رسائله بالبسملة والتحميد والصلاة على النبي ﷺ، وجمع إلى ذلك مهارة واسعة في علوم الأوائل كالرياضيات والفلك، والطب، مع عنايته بالكتب وجمعها، وكان قبل وفاته قد علم ابنه يوسف واعتنى بترتيبه ونشأته علميا وأدبيا فأحضر لذلك طائفة من العلماء والأدباء الذين أخلصوا في تعليمه وتثقيفه، فلما توفي إسماعيل اتخذ باديس ابنه يوسف وزيرا له(١٥٤).

ومن بين شعراء غرناطة الذين خرجوا عنها الشاعر خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر الذي كره المقام في تلك الدولة، ونقم على البربر الذين سيطروا على شؤون الحياة في غرناطة فقال:

رأيت آدم في نومي فقلت له ... أبا البرية إن الناس قد حكموا
أن البرابر نسل منك قال إذاً ... حواء طالقة إن صح ما زعموا(١٥٥).

والأمير عبدالله آخر أمير على هذه الإمارة (كان قد حاز حظا وافرا من البلاغة والمعرفة شاعرا، جيد الشعر، مطبوعه، حسن الخط، وكانت بغرناطة ربعة مصحف بخطه في نهاية الصنعة والإتقان)(١٥٦).

وذاع صيت الأمير عبدالله بما كتبه من مذكرات أسماها كتاب «التبيان»

---

(١٥٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ (ص ٤٣٨ - ٤٣٩) عن ابن حيان.
(١٥٥) المقري: النفح، ج ٣ (ص ٤١٢)، غرسيه غومس: مع شعراء الأندلس (ص ٩١ - ٩٢).
(١٥٦) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣ (ص ٣٧٩ - ٣٨٠)

وحسن الخط أنها لا تزال محفوظة، وقد طبعت بتحقيق ليفي بروفنسال بدار المعارف بمصر، وقد كتبها الأمير عبدالله في منفاه باغمات، وفيها وصف الأوضاع السياسية والعسكرية في عصره في الأندلس.

بنو القاسم في البونت

لا تسعفنا المادة التاريخية بشيء واضح عن بلاط بني القاسم بقلعة البونت، وعن مدى اهتمامهم بالأدباء والعلماء والشعراء، إلا أن ابن حزم اثنى في رسالته التي ألفها في فضل أهل الأندلس على الأمير محمد بن عبدالله ابن قاسم، ووصف بلاطه بأنه (المجلس الحافل بأصناف الآداب، والآهل بأنواع العلوم، والقصر المعمور بأنواع الفضائل)[١٥٧].

وكان محمد بن عبدالله الملقب بيمن الدولة معتنيا بالعلم أخذه عن العلماء، ومن بينهم العلامة علي بن إبراهيم التبريزي، فقد قرأ عليه الإقناع للسيرافي[١٥٨].

ووصفه المراكشي الأنصاري بنباهة البيت وشدة العناية بالعلم والمعرفة[١٥٩].

ويكفي من البراهين على أن بلاطهم كان يضم عددا من مشاهير العلم والأدب وجود العلامة الشهير أبي محمد بن حزم، الذي كان ولا يزال من أشهر من أنجبته الأندلس في علوم الدين.

ابن طاهر في مرسية

كان يحكم مرسية من قبل زهير العامري ابوبكر احمد بن اسحاق بن طاهر، وكان يتمتع بعلم وأدب غزيرين، فاجتمع لديه كثير من الأدباء[١٦٠].

ولما توفي أبوبكر خلفه ابنه محمد الذي كان أوسع منه علما وأدبا، وبرع

(١٥٧) المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٥٩)، نقلا عن ابن حزم في رسالته التي صنفها في فضل الأندلس.
(١٥٨) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٨٨).
(١٥٩) الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٣٣٩).
(١٦٠) محمد عنان: دول الطوائف (ص ١٧٦).

في الكتابة والإنشاء براعة عظيمة، وكان أسلوبه في النثر أسلوبا جيلا بديعا، وفي ذلك صنف ابن بسام كتابه (سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر)[١٦١].

وإلى جانب تلك الصفات الأدبية الفائقة التي اتسمت بها شخصية ابن طاهر، فقد كان سخيا كريما على العلماء والأدباء، فأقبل عليه كثير منهم ومن بينهم الشاعر الكبير ابن عمار قبل التحاقه ببلاط المعتمد، وقد قدر لهذا الشاعر بعد ان تألق في دولة المعتمد أن ينزع ابن طاهر عن مرسية ويقضي على سلطانه وكان بين الاثنين نوادر أدبية[١٦٢].

وأخيرا هؤلاء هم أبرز ملوك الطوائف، وهذه صفاتهم وسيرهم وحياتهم ومواقفهم تجاه العلم والأدب، وما من شك بعد هذه الدراسة والعرض أن يتضح لنا مدى ما أسهموا به من جهود عظيمة ومساع كبيرة في سبيل ازدهار الحركة العلمية والأدبية، فقد كان بينهم العلماء والأدباء الكبار الذين قدموا لنا مصنفات رائعة في العلم والأدب كما لم ينسوا تشجيع العلماء والأدباء في أوطانهم فقامت على أثر ذلك حركة علمية زاهرة لم يكن لها مثيل من قبل ومن بعد، فكان عصرهم عصر العلم والأدب، ولعل نشاطهم العلمي يشفع لهم أمام التاريخ لما كانوا عليه من شقاق وخلاف.

---

(١٦١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٤ - ٢٥)، ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١١٨ - ١١٩)، وانظر رسائله وأشعاره في الذخيرة ق ٣، ج ١ (ص ٢٨) وما بعدها.

(١٦٢) ابن الأبار: الحلة، ج ٢ (ص ١١٨ - ١١٩).

الفصل الثالث

مظاهر النشاط العلمي في الأندلس في القرن الخامس الهجري

١ ـ العلاقات العلمية بين المشارقة والأندلسيون.
٢ ـ المكتبات وجمع الكتب.
٣ ـ التعليم في الأندلس.

(١) العلاقات العلمية بين المشارقة والأندلسيين

مقدمة في الرحلة العلمية في الإسلام

إن موضـوع العـلاقـات العلمية بين الأندلس والمشرق يأتي في مقدمة الموضوعات الهامة الجديرة بالدراسة والبحث، وذلك أن هذا الجانب من النشاط العلمي كان سببا قويا وعاملا فعالا في بناء الكيان العلمي للأندلس وتطور حضارته الزاهرة.

وجدير بنا أن نشير بادئ الأمر الى منزلة الرحلة العلمية في تاريخ الفكر الإسلامي، فلقد أولى الإسلام عناية عظيمة لهذا اللون من ألوان التحصيل العلمي، قال تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة، ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وقل رب زدني علما﴾[2].

وعن كثـير بن قيس قال: جاء رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء بدمشق يسأله عن حديث بلغه يحدث به أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ، فقال له أبو الدرداء: ما جاء بك تجارة؟ قال: لا. قال: ولا جئت طالب حاجة؟ قال: لا، قال: وما جئت تطلب إلا هذا الحديث؟ قال: نعم. قال: فأبشر ان كنت صادقا، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: [ما من رجل يخرج من بيته ليطلب علما إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يطلب، وإلا سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والارض، حتى الحيتان في البحر..)[3].

وقال عليه السلام: (اطلبوا العلم ولو بالصين)[4].

---

(١) سورة التوبة: آية ١٢٢.
(٢) سورة طه: آية ١١٤.
(٣) البغدادي: الرحلة في طلب الحديث (ص ٨١ - ٨٢).
(٤) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١ (ص ٨)، ج ١، وهذا الحديث أخرجه ابن عدي والبيهقي في المدخل والشعب من حديث أنس، وقال البيهقي متنه مشهور وأسانيده ضعيفة.

وعن الشعبي رحمه الله قال: (لو أن رجلا سافر من أقصى الشام إلى اقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع)[٥].

وهذا ابن خلدون يعقد في مقدمته الشهيرة فصلا تحت عنوان (في أن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم). وفيه إشارة إلى أنه على قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، وأن الرحلة ضرورة لابد منها في طلب العلم والمعرفة وتحصيلها والظفر بالكمال والرفعة بلقاء كبار العلماء والشيوخ والاقتباس منهم.

وبناء على ما تقدم يلحظ الدارس للتاريخ والفكر الاسلامي قوة العلاقة بين الإسلام والعلم، ومدى ما أولاه هذا الدين من عناية فائقة بالمعرفة، فقد رسم قواعد ومناهج في سبيل تحصيل المعرفة واكتسابها والاستزادة من العلم.

ولهذا نرى علماء الإسلام في أقطارهم كافة، ومن بينهم علماء الأندلس يسارعون في اكتساب المعارف والعلوم المختلفة، وما من شك أنهم لقوا خلال رحلاتهم البعيدة ضروبا من التعب والمشقة. فإن المسافة بين الأندلس والمشرق ليست بالقصيرة وخاصة مع طبيعة الحياة وظروفها القاسية آنذاك. ولكن الحرص على العلم والسعي في تحصيله قد هون عليهم تلك المعاناة والألم.

ومن الحق أن نشير إلى أن الرحلة العلمية لم تكن قاصرة على أهل الحديث والفقه أو علوم الدين بشكل عام. بل امتدت مرامي وأهداف تلك الرحلات إلى جميع المعارف والعلوم، فالإسلام يحث على ذلك لأنه قد جمع في تشريعاته بين الدين والدنيا، وأوجد بينهما توازنا دقيقا. قال رسول الله ﷺ (من سلك طريقا يطلب فيه علما... إلى آخر الحديث). ولا ريب أن لفظ علم هنا واسع وشامل، وفي حديث رسول الله ﷺ بما معناه (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له،

---

(٥) البغدادي: المصدر السابق (ص ٩٦).

أو علم ينتفع به)[٦].

ويلاحظ أنه قال علم، وهو ما يدل على العموم وليس على الخصوص، فلو ترك المرء بعده كتابا يدرس أو نظرية في الفيزياء أو الكيمياء انتفع بها المسلمون لحصل المقصود بالحديث، وهكذا يلاحظ الدارس أن الإسلام وسع قاعدة الاهتمام العلمي في شتى حقول المعرفة وليس في علوم الدين فقط.

وعلى كل حال فقد كان علماء المسلمين يرتحلون في طلب العلم إلى مراكز العلم في الدولة الإسلامية من حدود الصين شرقا إلى الأندلس غربا فبخارى ونيسابور وبغداد، ودمشق ومكة المكرمة والمدينة المنورة، وصنعاء والقاهرة والقيروان وقرطبة كانت آنذاك عواصم الحضارة الإسلامية، وكانت تبعا لذلك مقصد العلماء وقبلة طلاب المعرفة.

---

(٦) رواه مسلم والنسائي وأبوداود والترمذي وأحمد بن حنبل (انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ج ٤ ص ٣٣).

رحلات الأندلسيين العلمية إلى المشرق

منـذ أن دخل الإسلام إلى اسبانيا، واستقر الفاتحون بها بدأ الاهتمام بترسيخ دعائم العقيدة الجديدة في نفوس أهل البلاد. وشعر الفاتحون بالحاجة الماسة إلى التعمق في قضايا التشريع الإسلامي وما يتعلق منها بمعاملة تلك الـطوائف من أهـل الذمة، صحيح أنه كان مع الفاتحين بعض التابعين الفقهاء، لكن هؤلاء كانوا من القلة بحيث أن طاقتهم ومجهودهم العلمي لن يشمـل تلك المساحة الشاسعة المفتوحة، هذا بالإضافة إلى ما يتعلق بالدراسات اللغوية والنحوية وعلاقتها بالقرآن الكريم والسنة الشريفة ورغبة الأندلسيين في تعميق معارفهم في علوم اللسان، وأخيرا طموح الأندلسيين للحـاق بركب إخـوانهم المشـارقة الذين سبقوهم إلى طرق ميادين العلوم والمعارف المختلفة وإحراز مكانتهم الحضارية الراقية.

ومن هنا بدأ التفكير في الاستعانة بالمشارقة، فرموا بأبصارهم نحو المشرق وشد كثير منهم رحاله إليه للقاء علمائه وفقهائه، ومن بينهم شيوخ وعلماء المدينة ممن جاوروا مصادر التشريع الإسلامي وأصوله الأولى فأخذوا عن صحابة رسول الله ﷺ وتابعيهم الكرام.

وبناء عليه فقد كان هناك تيار علمي زاخر بين المشرق والأندلس. ويتمثل هذا في أفواج العلماء الذاهبة والآيبة بين القطرين، حتى شُبه نشاطهم ذلك بحركة سير النمل في الذهاب والإياب.

وكان الارتحال إلى المشرق ولقاء علمائه في مختلف وجوه العلم ينم عن الرغبة في تحقيق النضج العلمي، وترسيخ جذور الشخصية العلمية المتفوقة، وعلى العكس من ذلك كان اكتفاء العالم بلقاء علماء بلده والاقتصار عليهم دون الرحلة إلى غيرهم من كبار علماء ذلك العصر، فيه إشارة إلى ضيق الأفق العلمي وضعف التطلع والطموح إلى الأفضل والأحسن.

والرحلة في طلب العلم من أهم السمات البارزة التي يوليها المؤرخون وأهل التراجم لمن يترجمون لهم من العلماء والأدباء، ويلحظ الدارس لكثير من سير العلماء عظم الإشادة برحلاتهم العلمية في سبيل تحصيل العلوم ولقاء المشايخ، حتى أن بعض العلماء كان يفخر بكثرة شيوخه وأساتذته(٧).

ولهذا كان يعاب العالم الذي ليس له رحلة ويوصف بالانقباض عن أهل زمانه من العلماء وأهل المعرفة، وخصوصا في العصور الأولى للحياة العلمية في الأندلس، وبهذا يتضح صدق قول يحيى بن معين أنه لا يؤنس من أربعة رشدا وعد منهم الرجل الذي لا يرتحل في طلب العلم.

وفي فجر الحياة العلمية في الأندلس ارتحل علماء الدين إلى مدينة رسول الله ﷺ باعتبارها مركز العلم، والمنبع الثرّي لعلوم الدين، واتجه دارسو اللغة والنحو والأدب إلى البصرة والكوفة ليتلقوا علومها على أيدي فحول العلماء من الكوفيين والبصريين، ولما اتسع مجال النشاط العلمي في الأندلس، قصد الراغبون في دراسة الرياضيات والفلك والطب والكيمياء وغيرها إلى بغداد ودمشق وغيرها من مراكز الدراسات العلمية البحتة والتجريبية.

وكان سير الرحلات العلمية يتم على وجهين، الأول عن طريق البحر إلى القيروان ثم منها إلى الاسكندرية، ومن هنا تتشعب اتجاهاتهم بحسب رغباتهم العلمية. والثاني يتم عن طريق البر باجتياز مضيق جبل طارق نحو المغرب ومنه إلى القيروان، وكانت تمثل آنذاك مركزا علميا نشطا، ومنها إلى مصر حيث مدينة الاسكندرية والفسطاط، والقاهرة بعد ذلك. وكانت مدينة القاهرة عاصمة من عواصم العلم والمعرفة، ومن مصر تتشعب أفواج العلماء، ففريق يتجه إلى الحجاز، وهم علماء الدين، وفريق آخر يتجه إلى العراق وهم بقية العلماء في اللغة والنحو والأدب والطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك.. وقد كانت بغداد آنذاك حاضرة

---

(٧) انظر ابن خلدون: المقدمة، (ص ٥٤١) ـ الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٣، (ص ١٠٨٠ ـ ١٠٨١). إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، (ص ٣٨ ـ ٣٩) ـ سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص٩٣) وما بعدها.

من حواضر المدنية الإسلامية بل كانت مركز الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي بما اجتمع فيها من جهابذة العلم والمعرفة في كل علم، وكانت مجمعا علميا زاهرا بما اجتمع فيها من الأطباء والفلاسفة والأدباء على مختلف مشاربهم وأعراقهم كالعرب والفرس والهنود والسريان وغيرهم.

ولهذا حظيت بغداد باهتمام كبير من علماء الأندلس، وقلما نرى من الراحلين إلى المشرق في هذا العصر من لا يعرج على بغداد ويلتقي بعلمائها، ولا يعني قولنا إنها كانت مقصد العلماء من غير الفقهاء والمحدثين أنها لم تضم بين جنباتها علماء الدين، بل شهدت الكثير منهم وكانت موطنا لآلاف العلماء من المحدثين والفقهاء، ولكننا نعني أن الحجاز، وخصوصا في القرن الثاني الهجري، كانت تتزعم تقريبا الدراسات الدينية.

أما بعد ذلك فقد شهدت بغداد حركة نشطة في هذه العلوم فرحل إليها كثير من محدثي وفقهاء الأندلس، مع استمرار الصبغة العلمية والفلسفية غالبة على بغداد.

وجدير بالذكر أن العالم الإسلامي آنذاك كان يمثل ثقافة وكياناً فكرياً واحداً لا يختلف فالإسلام ساوى بين المسلمين جميعهم، ومنحهم الأخوة والمساواة، وأزال ما بين الناس من فوارق وحواجز، ورغم ما كان هناك من تعدد للزعامات السياسية في العالم الإسلامي: كالعباسيين في المشرق، والفاطميين في مصر، والأمويين في الاندلس، إلا أن ذلك لم يمنع من حرية الانتقال والترحال بين الأقطار الإسلامية. فلم تكن هناك أنظمة أو قواعد تحد من الانتقال من قطر إلى آخر وهو ما يسر للعلماء وطلبة العلم أن يحصلوا على المعارف والعلوم التي ينشدونها في أي جزء من العالم الإسلامي، ولذا يلحظ الدارس لهذا الجانب من النشاط العلمي ارتحال عدد كبير من العلماء من الأندلس وحتى بلاد ما وراء النهر، والعكس صحيح أيضا في انتقال بعض علماء المشرق إلى الأندلس بعد أن ضاق بهم الحال أو طلبا لوضع اجتماعي أفضل مما هم عليه في مواطنهم الأصلية.

الرحلات العلمية بين الأندلس والمشرق
في عصر ملوك الطوائف

ما من شك أنه كان لهذه الرحلات العلمية أبعد الأثر في نهوض العلوم والآداب في الأندلس، ويتجلى هذا الأثر في عصري الإمارة والخلافة بصفة خاصة، فما إن نبلغ عصر ملوك الطوائف حتى يضعف هذا التأثير ويخف تياره وهو أمر عائد إلى ما بلغته الحركة العلمية في الأندلس في هذا العصر من رقي وتطور. فقد بلغت هذه الحركة العلمية الذروة والأوج وقتذاك، وأخذ كثير من العلماء يرسخ بتفوقه العلمي قاعدة الاستقلال والاعتماد على الذات ومحاولة لفت الأنظار إلى أن في الأندلس من العلم و المعرفة ما يغني عن السعي إلى المشرق، أو على الأقل محاولة التخفيف من الاعتماد على علماء المشرق بعد أن تغيرت الأوضاع في الأندلس وازدهرت فيها الحضارة والفكر والعلم والأدب، وهذا يفسر لنا كيف تألق في هذا العصر عالمان وفقيهان أندلسيان ليس على مستوى الأندلس فحسب بل على مستوى العالم الإسلامي وهما ابن حزم الظاهري، وابن عبدالبر النمري، رغم أنهما لم يرحلا إلى المشرق ويأخذا عن علمائه.

ورغم ما تقدم إلا أن الأندلسيين وخاصة علماء الدين ظلوا على اتصال بالمشرق، ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الفقيه أبوالوليد سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) الذي دخل بغداد وأقام بها ثلاث سنين فتلقى العلم عن فقهائها ومحدثيها كأبي الطيب الطبري، وأبي اسحاق الشيرازي والصيمري. وأقام بالموصل حيث لقي هناك أبا جعفر السمناني وأخذ عنه علم الكلام، ومازال يأخذ عن العلماء والفقهاء، ومن أشهرهم، غير السابقين، الخطيب البغدادي الذي أخذ بدوره عن أبي الوليد، وقد مكث على هذا الحال مايقارب ثلاثة عشرعاما ثم عاد إلى وطنه، وقد تضلع

من الحديث والفقه وعلم الكلام[٨].

وكان أبوالوليد في أثناء إقامته في المشرق في غاية العوز وضيق العيش والحرمان حتى قال ابن بسام فيه: (دخل بغداد والحرمان قد كساه سرابيل، ورماه بطير أبابيل)[٩]..

ومما يذكر عنه من ألوان الصبر والجلد في سبيل تحصيل العلوم أنه كان يقوم بحراسة الدروب ببغداد مقابل أجر يعينه على ظروف عيشه. وحدث عنه أصحابه أنه كان يأتي إلى حلقات العلم وفي يده أثر المطرقة إذ كان يضرب ورق الذهب للغزل، ولكنه بعد أن عاد إلى الأندلس وطار ذكره بالعلم علت مكانته وعظمت منزلته بين الرؤساء والملوك[١٠].

وكان لأبي الوليد دور لا يستهان به في ازدهار الدراسات الفقهية وعلوم الدين بشكل عام، كما أنه ناضل عن المذهب المالكي أمام نده القوى ابن حزم الظاهري، وكان لهما مناظرات علمية اشتهرت في أوساط العلم وذاعت بين العلماء، وخلف لنا أبوالوليد غير ذلك عددا من المصنفات سنشير إليها عند الحديث عن علوم الدين.

وجدير بالذكر أن نشير إلى نقطة هامة في رحلة أبي الوليد وهي أن علامة المشرق وحافظه الخطيب البغدادي لم يمنعه علمه وسعة معرفته أن يأخذ أيضا عن أبي الوليد بعض علومه ومعارفه، وهو ما أشرنا إليه آنفا وفيه إشارة ضمنية إلى مكانة أبي الوليد وعلمه.

وارتحل إلى المشرق أيضا من علماء الأندلس أبوبكر محمد بن عبدالله بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣هـ/ ١٠٧٥ - ١١٤٨م)، وكان آنذاك شابا يافعا، ورافقه في رحلته والده الذي حرص على أن ينال ابنه مزيدا من العلم والمعرفة بلقاء علماء مصر والشام والعراق، وقد اكتسب أبوبكر كثيرا من العلم

---

(٨) المقري: نفح الطيب ج ٢ (ص ٧١ - ٧٢). الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٢٠٣ - ٢٠٤).

(٩) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٩٨ - ٩٩).

(١٠) عياض: ترتيب المدارك، ج ٣ (ص ٨٠٤)، الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (٢٠٣ - ٢٠٤)، المقري: النفح، ج ٢ (ص ٧١ - ٧٧)، الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٣ (ص ٣٤٥).

في رحلته المذكورة، وعاد إلى بلاده بعد أن مهر في الفقه والحديث وعلوم القرآن(١١).

ومما يذكر عن رحلته العلمية وإقامته في المشرق أنه كان يحفظ خلال إقامته في العراق في كل يوم سبع عشرة ورقة(١٢).

وقد بلغ من تحصيل أبي بكر للعلم والمعرفة وسعة ما أخذه عن علماء وفقهاء المشرق أن قال: (كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به من العلم إلا الباجي)(١٣).

ولما عاد أبوبكر إلى الأندلس قصده العلماء وطلبة العلم، وأخذوا عنه كثيرا من علومه ومعارفه، وتمكن ابن العربي من بث روح نشطة في ميدان الدراسات الدينية، وذاعت شهرة مجالسه العلمية وخصوصا مجلسه الذي أملى فيه كتابه، «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس»، وكان هذا المجلس يشهد إقبالا منقطع النظير من علماء وطلبة قرطبة وغيرها من مدن الأندلس الأخرى(١٤).

ومن أعلام الراحلين إلى المشرق في هذا العصر العلامة عبدالله بن محمد التجيبي السرقسطي (ت٥١٣هـ/ ١١١٩م)، رحل إلى مصر والحجاز والعراق والشام، وكتب علوما كثيرة، وأخذ عن أعلام المشرق علوم الدين ولمع نجمه في تلك العلوم حتى طلب إليه شيخه أبوالوليد الباجي أن يخرج صحيح البخاري لما عرف عنه من البراعة في علم الحديث مع إجادة اللغة(١٥).

---

(١١) عياض: الغنية (ص ٦٦ - ٦٧)، ابن فرحون: الديباج (ص ٨٢١)، (طبعة المكتبة العلمية)، المقري: النفح، ج ٢ (ص ٢٩ - ٣٠) ويذكر ابن خلدون أن يوسف بن تاشفين بعث بعبدالله ابن العربي وابنه أبي بكر إلى الخليفة المستظهر ليطلبا منه الموافقة على توليته -أي ابن تاشفين، على ما تحت يده من بلاد المغرب والأندلس وأن أبابكر حصل على عهد الخلافة العباسية ليوسف بن تاشفين على ما تحت يده من البلاد، انظر المقدمة (ص ٢٢٩)، وكذلك أحمد مختار العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس (ص١٠٣) وما بعدها.

(١٢) الضبي: بغية الملتمس (ص ٩٣).

(١٣) المقري: النفح، ج ٢ (ص ٢٩).

(١٤) الضبي: البغية (ص ٩٣).

(١٥) ابن الأبار: المعجم (ص ٢١٢ - ٢١٣).

وإلى المشرق أيضا اتجه العلامة الأديب المحدث الشاعر أبوحفص عمر ابن الحسن الهوزني، وكان موصوفا بالعلم والأدب (تضيق عن فخره الآفاق، وتهادى عجائب ذكره الشام والعراق)[١٦].

والتقى أبوحفص بعدد من العلماء والفقهاء وروى في رحلته تلك كتاب الترمذي في الحديث ونقله عند إيابه إلى الأندلس[١٧].

وأخذ العلامة أحمد بن سعيد بن دنيل القرطبي (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) عن أبي محمد بن أبي زيد القيرواني مختصره في المدونة وغير ذلك من تصانيفه وأدخلها الأندلس[١٨].

ومن أشهر العلماء الراحلين من حيث اتساع رحلاته وتنقلاته العلامة الحسن بن إبراهيم بن محمد الجذامي المالقي، الذي خرج من بلده فسمع بالاسكندرية ثم رحل عنها إلى مكة فسمع بها ومنها اتجه إلى بغداد فسمع من شيوخها ثم قصد أصبهان ودخل خراسان ثم نيسابور وأقام بها، وكان عالما بارعا في الحديث والأدب واللغة[١٩].

واشتهر العلامة محمد بن أحمد بن إبراهيم الخزرجي الجياني بالبغدادي، لطول إقامته بها أثناء رحلته إلى المشرق، وقد لقي في بغداد كثيرا من الفقهاء منهم علي بن محمد الطبري، وأخذ عنه مصنفاته وأدخلها إلى الأندلس، ومنها كتاب «أحكام القرآن» وكتاب «الرد على أحمد بن حنبل[٢٠]».

وفيما يتصل بعلوم اللغة والنحو، فقد ارتحل عبدالله بن حمود الزبيدي إلى المشرق حيث صحب أبا علي الفارسي في مقامه وسفره وأكثر من الأخذ عنه حتى رُوي أن أبا علي خرج لصلاة الفجر يوما، ففوجئ بخروج عبدالله

---

(١٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٨٢).
(١٧) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء والصفحة.
(١٨) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٤٩ - ٥٠).
(١٩) الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢، (ص ٢٣٣ - ٢٣٤).
ويذكر الحميدي أن العلامة سعيد بن عبدالله (ت ٤٠٩هـ/ ١٠١٨م) (طاف بلاد المشرق سياحة، وانتظمها سياحا، وبلغ إلى ماوراء النهر، ثم عاد إلى نيسابور وأقام بها مدة). انظر جذوة المقتبس (ص ٢١٩ - ٢٢٠).
(٢٠) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق ١ (ص ٢٦٢). ولد هذا العلامة سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م.

ابن حمود من مزود كان لدابة أبي علي خارج منزله، وكان عبدالله قد قضى ليلته فيه ليبكر في حضور مجلس أبي علي قبل حضور الطلبة، فارتاع منه أبوعلي وقال: ويحك من تكون؟ قال: أنا عبدالله بن حمود الأندلسي، فقال: إلى كم تتبعني؟ والله ما على وجه الأرض أنحى منك(٢١).

وظل عبدالله يتلقى علومه في المشرق، ثم شد رحاله إلى وطنه الأندلس عن طريق البحر، ولما لم يبق بينه وبين الأندلس سوى يوم أو يومين غرقت المراكب وهلك من فيها، ومن بينهم عبدالله وغرق معه كثير من كتبه التي جلبها من العراق(٢٢).

وفي ميدان العلوم البحتة رحل إلى المشرق العلامة الرياضي عمرو بن عبدالرحمن الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) حيث قصد حران فدرس بها الهندسة والطب، وجلب معه إلى الأندلس رسائل إخوان الصفا(٢٣).

ويعتبر نقل الكرماني لرسائل أخوان الصفا إلى الأندلس خطوة عظيمة في دفع تيار الدراسات الفلسفية في الأندلس، وتوسيع دائرة البحث فيها.

ويذكر العلامة الفلكي محمد بن سعيد السرقسطي المعروف بابن المشاط أنه رأى خلال رحلته إلى مصر كتابا في عمل الاسطرلاب يتضمن ألف مسألة لا نظير له في قيمته وعلو قدره من تأليف جابر بن حيان(٢٤).

وما من شك أن ابن سعيد قد أفاد من اطلاعه على ذلك الكتاب والنظر في محتوياته وإن كنا نشك في نسبة الكتاب إلى جابر بن حيان لأنه لم يرد ما يشير إلى براعته في الفلك ومهارته فيه، فقد كان علمه الذي اشتهر به هو الكيمياء.

---

(٢١) القفطي: أنباه الرواة، ج ٢ (ص ١٨ - ١٩)، وأبو علي: هو الحسن بن احمد الفارسي (ت ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، وكان معدودا من ائمة العربية وأقام لدى سيف الدولة الحمداني ثم عاد إلى فارس فصحب عضد الدولة البويهي وله كتب عديدة منها الإيضاح. (الزركلي: الاعلام، ج ٢ ص ١٧٩).

(٢٢) القفطي: نفس المصدر والجزء (ص ١١٩)، ح رقم ٥ .

(٢٣) صاعد: طبقات الأمم (ص ٩٤). القفطي: أخبار العلماء (ص ١٦٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ٥٨)، ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام (ص ١٩١).

(٢٤) القفطي: أخبار العلماء (ص ١١١)، لا نعلم تاريخ وفاته وإنما ذكره صاعد وأثنى عليه. انظر ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٩٢).

وفي هذا العصر دخل كتاب القانون لابن سينا إلى الأندلس. فقد جلب تاجر عراقي نسخة من ذلك الكتاب جميلة الخط، زاهية التجليد وأتحف بها الطبيب أبا العلاء زهر (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) تقربا منه وكسبا لمودته كطبيب لامع، ولكن أبا العلاء ما لبث بعد أن تأمل الكتاب أن ذمه وألقى به ولم يحتفظ به بين كتبه، بل أخذ في تقطيع أوراقه إلى قطع يكتب فيها أسماء الأدوية لمرضاه[٢٥].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أنه إلى جانب ارتحال الأندلسيين إلى المشرق فقد شهد الأندلس أيضا موجة معاكسة من ارتحال المشارقة إلى الأندلس. وقد عقد المقري فصلا في كتابه نفح الطيب لمن دخل الأندلس من أهل المشرق قال فيه: (اعلم أن الداخلين للأندلس من المشرق قوم كثيرون لاتحصر الأعيان منهم فضلا عن غيرهم، ومنهم من اتخذها وطنا، وصيرها سكنا، إلى أن وافته منيته، ومنهم من عاد إلى المشرق بعد أن قضيت بالأندلس أمنيته)[٢٦].

ومن أشهر القادمين إلى الأندلس قبل هذا العصر الذي ندرسه أبوعلي القالي الذي أسهم بدور فعال في نشاط الدراسات اللغوية والأدبية بعلمه الواسع وبراعته في تلك العلوم أو بالكتب اللغوية والأدبية التي أدخلها معه إلى الأندلس على السواء.

وفي عصر ملوك الطوائف قدم الأندلس عدد من العلماء، وكان هؤلاء العلماء يرمون من وراء ارتحالهم إلى الأندلس نيل ما يطمحون إليه من منازل رفيعة في بلاطات ملوك الطوائف، أو قد يكون مرد ذلك إلى اضطرابات سياسية واجتماعية في مواطنهم الأصلية فشدوا رحالهم إلى غيرها من الأقطار حيث الاستقرار والأمان.

ويأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الحافظ أبوزكريا عبدالرحيم بن أحمد بن نصر التميمي (٣٨٢ - ٤٧١هـ/ ٩٩٢ - ١٠٧٨م) سمع من علماء وفقهاء كثيرين

---

(٢٥) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥١٧ - ٥١٨).
(٢٦) نفح الطيب، ج ٣ (ص ٥).

من مختلف البلدان ثم رحل إلى الأندلس، وكتب بها عن شيوخها، وكان يحدث عن مئات من أهل الحديث، وذكره ابن عساكر في تاريخه، وأشار إلى سماعه فيما وراء النهر والعراق ومصر واليمن والقيروان. وحل بدمشق فترة من حياته ثم رحل منها إلى مصر قبل انتقاله إلى الأندلس، وكان يقول (لي ببخارى أربعة عشر ألف جزء حديث أريد أن أمضي وأجئ بها)، وأثنى عليه المقري وقال فيه (والذي أعتقده أنه لم يدخل الأندلس من أهل المشرق أحفظ منه للحديث، وهو ثقة عدل ليس له مجازفة، والحق أبلج)[٢٧].

وفي هذا العصر دخل الأندلس العلامة ثابت بن محمد الجرجاني (ت ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) وكان ماهرا في اللغة والأدب وحفظ الشعر الجاهلي والإسلامي، بارعا في علوم الأوائل، يجمع إلى ذلك خصالا حميدة كالفروسية وإتقان فنون القتال[٢٨].

وقد أملى ثابت شرحا لكتاب الجمل للزجاجي[٢٩]، كما شرح الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي[٣٠].

ومن هنا يتبين قيامه بدور جيد في ازدهار الدراسات اللغوية والأدبية بما قدمه من شروح لغوية لكتابين هامين، والحق أن الأندلسيين لم يكونوا يجهلون ما في الكتابين المذكورين، ولكن طرائق الشرح والإيضاح تختلف من عالم لغوي إلى آخر.

ومن الداخلين إلى الأندلس أبوالفضل محمد بن عبدالواحد البغدادي (ت ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، وكان أبوالفضل يتمتع بمكانة رفيعة في بلاط السلطان محمود الغزنوي ثم ابنه محمد. ولكنه ما لبث أن خرج إلى بغداد واتصل ذكره بالخليفة العباسي القائم بأمر الله أبي جعفر (٤٢٢ - ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٧٤م)، فاستقدمه إلى بلاطه وأحله منزلة سامية[٣١].

وكان المعز بن باديس أمير الدولة الصنهاجية بالقيروان قد أبدى معارضته

---

(٢٧) نفح الطيب، ج ٣ (ص ٦٣ - ٦٤).
(٢٨) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٢٤).
(٢٩) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ١٨٤)، ياقوت: معجم البلدان، ج ٧، (ص ١٤٥) وما بعدها.
(٣٠) ابن خير: فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ١٨٧).
(٣١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٨٧ - ٨٨).

لنفوذ أتباع الفاطميين والشيعة بالقيروان وما هم عليه من مذهب مخالف لأهل السنة فأوقع بأكثرهم وقطع ذكر ملوك الفاطميين والدعاء لهم على المنابر وأحل محله الدعاء لبني العباس سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م، وكذلك غير ضرب السكة وأزال أسماء الفاطميين عنها وأحل محلها آيات قرآنية وكان ذلك في سنة ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م[٣٢].

ونظرا لتلك الخطوة والسياسية التي سلكها المعز بن باديس فقد رأى أن يوفد رسولا للخليفة العباسي القائم يطلعه على ما اتخذه من سياسة ضد الفاطميين ورغبته في إقامة علاقات طيبة مع الخلافة العباسية. ولم ير الخليفة في بلاطه من الرجال الأكفياء غير أبي الفضل فطلب إليه التجهز في السفارة بينه وبين الخليفة القائم، فسار أبوالفضل مستترا متخفيا عن عيون الفاطميين في الشام ثم دخل مصر وأقام بها فترة من الزمن ثم خرج عنها في زي التجار، وعلم بأمره والي الاسكندرية فأنفذ في أثره جماعة من الجند لكنه فاتهم، وتمكن من الدخول إلى بلاد المعز ثم القيروان (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) حيث استقبله المعز استقبالا كريما بعد أن ثبت لديه صدق قوله وحقيقة أمره، وقد نال أبوالفضل درجة عالية في بلاط المعز حتى إذا صرف المعز الخطبة إلى الفاطميين بمصر ونبذ روابط المودة والموالاة للعباسيين سنة (٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م)[٣٣] خرج أبوالفضل إلى مدينة سوسة ومازال يتردد بين تلك الجهات. ووافق بلقين بن محمد بن حماد صاحب القلعة ثم سئم المكوث بإفريقية فشد رحاله إلى الأندلس عن طريق البحر فنزل دانية، ورغب مجاهد العامري في نزوله لديه غير أنه انطلق إلى بلنسيه فوجه إليه المأمون ملك طليطلة رسالة يطلب فيها قدومه عليه فلبى ذلك وآثر الإقامة في كنف المأمون الذي أعلى مقامه وأكرم نزله وكان وصوله إلى طليطلة سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م. ويعد أبوالفضل هذا أول من أدخل كتاب يتيمة الدهر للثعالبي

---

(٣٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١ (ص ٢٧٧ - ٢٧٨).

(٣٣) هكذا يقول ابن بسام والحقيقة التي لا تقبل الشك ان المعز لم يعد علاقته مع الفاطميين، وانظر في هذا الصدد، عبدالعزيز الميمني (المعز بن باديس والفاطميون - مقال بمجلة الزهراء ج ١).

إلى الأندلس[٣٤].

وإلى الأندلس رحل العلامة نصر بن الحسن بن الأشعث الشاشي (المولود ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) نزيل سمرقند، وحدث في الأندلس بكتاب صحيح مسلم، وسمع من علماء الأندلس كأحمد بن عمر بن أنس وغيره من العلماء والمشايخ[٣٥].

أما الداخلون إلى الأندلس من الشعراء فكثيرون منهم محمد بن شرف القيرواني (ت ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م) الذي حل في بلاط المأمون ملك طليطلة، وكذلك الشاعر الأعمى علي بن عبدالغني الحصري الذي ورد ذكره عند الحديث عن المعتمد في منفاه بأغمات، ومنهم الشاعر أبوالعرب الصقلي الذي كان أحد شعراء المعتمد، ومثله أيضا مواطنه عبدالجبار بن حمديس الصقلي (٥٢٧هـ/ ١١٣٢م)، الذي كان من أشهر شعراء بلاط المعتمد، وكل هؤلاء سنتحدث عنهم في الفصل الخاص بالأدب.

هذا ومن الحق أن نقول: إنه كان للعلاقات العلمية بين المشرق والأندلس أثر كبير في ازدهار الحركة العلمية وتنشيطها، فقد كان أولئك العلماء الراحلين إلى المشرق أو المشارقة الراحلون إلى الأندلس يحملون معهم كثيرا من العلوم والمعارف المختلفة إلى جانب أعداد كبيرة من المصنفات والتآليف في شتى فروع المعرفة، وكان لهذا اللون من النشاط العلمي ثمرتان مباركتان، هما ما يحمله العالم في صدره من علم ومعرفة، وما ينقله معه

---

(٣٤) ابن بسام: الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٨٨ - ٨٩).
يتضح أن تاريخ وصول أبي الفضل إلى القيروان كما يقول ابن بسام وهو (٤٣٩هـ/ ١٠٤٧م) يتناقض مع تاريخ قطع المعز الخطبة للفاطميين وهو سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٩م) وتغييره للسكة المضروبة عليها لأسمائهم سنة (٤٤١هـ/ ١٠٤٩م). والحق أن ذلك عائد إلى الاختلاف الكبير في تحديد تاريخ انفصال المعز بن باديس عن الدولة الفاطمية فابن الاثير في الكامل يشير إلى أنه في سنة ٤٣٥هـ أظهر المعز الدعاء لبني العباس، ج ٨ (ص ٣٩)، وكذلك يشير النويري (انظر تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط من كتاب نهاية الادب في فنون الادب، تحقيق وتعليق مصطفى أبوضيف (ص ٣٤١) وفي نفس الصفحة رقم ٧٣ يذكر المحقق أن الاستاذ لين بول حدد ذلك التاريخ بسنة ٤٣٨هـ معتمدا في ذلك على آخر عملة نقدية وجدت تحمل اسم الخليفة الفاطمي في مدينة المنصورية. ومن هنا يتبين أن التاريخ الذي حدده ابن بسام لوصول أبي الفضل للقيروان يتناسب مع ما أشار إليه ابن الأثير والنويري ولين بول.
(٣٥) الضبي: البغية (ص ٤٧٦).

إلى الأندلس من كتب قيمة، وقد لخص الاستاذ ماهر حمادة نتائج هذه الرحلات العلمية في قوله: (كانت البلاد الإسلامية وحدة ثقافية واحدة رغم التجزئة السياسية التي أصابتها وجعلت منها عددا كبيرا من الدويلات المزيلة المنقسمة، وكانت الأفكار والكتب والبضائع والأشخاص تنتقل بحرية تامة، والأغلب أن انتقال الكتب كان يتم من الشرق إلى الغرب أي إلى الأندلس حيث أن الشرق كان ـ في عصوره الأولى على الأقل ـ متقدما على الأندلس في التأليف[36].

---

(٣٦) المكتبات في الإسلام (ص ١٩١).

النّضج العلمي للأندلس

كان للرحلات العلمية بين المشرق والأندلس فضل عظيم على ازدهار النشـاط العلمي في الأندلس في مختلف جوانبه، ولكن هذا الدور الذي اضـطلع به المشرق في بنـاء الكيان الفكـري للأندلس قد قاد كثيرا من الأنـدلسيين إلى لون من ألوان المجاراة والتقليد العلمي والأدبي لإخوانهم المشارقة وأصبح الكثير منهم يرى في السلوك العلمي لعلماء المشرق قدوة يلزمه اتباعها، وكأن المرء منهم قد افتقد الثقة فيما يمكن أن يكون له من استقلال وتميز علمي وثقافي، ولهذا فقد عصف الألم بنفس المؤرخ والأديب الكبير ابن بسام الذي حز في نفسه هذه التبعية الثقافية للمشرق، فقال في مقدمته الصارخة (... ومازال في أفقنا هذا الأندلسي القصي إلى وقتنا هذا من فرسان الفنين وأئمة النوعين، قوم هم ما هم طيب مكاسر وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر. إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما، وتلّو ذلك كتابا محكما فغاظني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة)[٣٧].

وهـذا الشعـور والإحسـاس الصادق والمخلص للوطن وأهله وإنتاجهم العلمي والأدبي كان أوضـح رد فعـل ضد الممارسـات العلمية التقليدية للمشـارقة، وقد سبق ابن بسام إلى هذه الخطوة الوطنية الصادقة الأديب أبوعمر أحمد بن فرج الجياني الذي صنف كتابا في محاسن أهل زمانه في وطنه

(٣٧) الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١١ - ١٢).

سماه «كتاب الحدائق» ولم يضمنه إلا أشعار وآداب أهل الأندلس[٣٨].

وهذه النزعة الوطنية نجدها واضحة أيضا لدى العلامة الكبير ابن حزم الظاهري (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) الذي صنف رسالة في فضل الأندلس تعرض فيها إلى ذكر علماء وطنه ومصنفاتهم وقارن ذلك بعلماء المشرق ومصنفاتهم وانتهى فيها إلى تفوق علماء الأندلس وبراعتهم في شتى حقول المعرفة، فهم لا يقلون شأنا ودرجة عن إخوانهم من المشارقة، وقد ضمّنها المقري كتابه نفح الطيب[٣٩].

فإذا أردنا بحث وجوه المماثلة والتقليد للمشارقة وجدناها واضحة جلية في ميداني الدراسات الأدبية والدينية.

ففيما يتصل بالأدب من الحق أن نذكر أن هذا ليس من قبيل التقليد الأعمى الذي لا يميز بين الصواب والخطأ والحسن والقبيح، وإنما هذا عائد إلى أن الأدب العربي بشكل عام يستند في كيانه إلى حضارة واحدة في المشرق والمغرب، فلو لم نجد في هذا الميدان تقليدا مقصودا لوجدنا بالتأكيد تشابها ملحوظا[٤٠].

كما تبرز هذه الظاهرة أيضا في حقل الدراسات الدينية كالحديث والفقه وعلوم القرآن الكريم، حيث نجد خلالها كثيرا من ملامح التشابه والتماثل بين الدراسات الأندلسية والمشرقية، وما من شك أن هذا راجع إلى وحدة المصدر، وهو كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ، فما دام المصدر واحداً لدى المشارقة والأندلسيين فمن الطبيعي أن تكون النتائج والغايات متشابهة ومتقاربة[٤١].

ولكن رغم معرفة الأسباب السابقة فإن بعض من الكتاب المعاصرين لج في ذكر هذه الظاهرة ورمى باللائمة على الأندلسيين كيف أنهم لم يأتوا بإبداع

---

(٣٨) ابن بسام: الذخيرة، ق ١ ج ١ (ص١٣) ، ولأحمد بن فرج مات مسجونا بأمر الحكم المستنصر انظر الحميدي: الجذوة (ص١٠٤).
(٣٩) ج ٣، (ص ١٥٦ - ١٧٩).
(٤٠) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة (ص ٣٩ - ٤٠).
(٤١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٧ - ٢٨).

جديد في الأدب وسائر ألوان الفكر[٤٢].

وقد تصدى محمد رجب البيومي لهؤلاء فقال: (إني أعجب لبعض الباحثين لماذا يجعلون نتاج الأندلس يقف وحده أمام نتاج بغداد في أخصب عهودها الزاهرة، ولا يحاولون ذلك مع أدب كأدب مصر في عهد الولاة وابن طولون والفواطم، أو أدب الشام في عهد بني حمدان أو أدب ماوراء النهر من بلاد فارس وخراسان؟ لماذا تقف الأندلس وحدها موقف المضاهاة والمقارنة وهي بعد إقليم لا يختلف عن غيره من الأقاليم، ثم ألا يكون ذلك دليلا على سمو الأدب الأندلسي وازدهاره إذ استطاع أن يبلغ ما لم يبلغه أدب مصر أو الشام أو ما وراء النهر، حيث لا يقف نتاج إقليم منها أمام أدب بغداد)[٤٣].

وقد كتب المؤرخ ابن حزم رسالته الآنفة الذكر في فضل علماء وطنه ونفاسة إنتاجهم العلمي الذي ندر نظيرها في أقطار المشرق كفارس ومصر واليمن والشام، ورغم أن شهادة ابن حزم مجروحة لأنه شهد لقومه إلا أن ما وصلنا من تآليفهم التي ذكرها في رسالته تؤكد حقيقة ما وصلت إليه الأوضاع العلمية والأدبية في الأندلس من رقي وازدهار وتألق، كما تبعث على الطمأنينة بصدق كلام ابن حزم وأنه لم يبالغ في امتداحه لمستوى الحياة العلمية في وطنه.

وفي عصر ملوك الطوائف شهدت الأندلس أبهى عصورها العلمية على وجه الإطلاق، ونلمس في آثار علماء ذلك العصر مسحة من النبوغ والتفوق تؤكد النضج العلمي للأندلس واكتمال نمو الشخصية العلمية القادرة على إبراز ذاتها في الميدان الفكري والمعترك العلمي. وإذا كانت هذه الظاهرة قد أطلت برأسها في عصر الخلافة وخاصة في عهد الخليفة العالم الحكم المستنصر إلا أنها ظهرت بصورة قوية وفعالة في عصر ملوك الطوائف. ومن دلائل ذلك

---

(٤٢) انظر مثلا: سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٢٤١). أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٦ - ٢٧ - ٢٨)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة (ص ٣٩ - ٤٠)، عبدالكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس (ص ٦٧٧).

(٤٣) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ٣٨ - ٣٩).

أننا وجدنا علماء أندلسيين أخذ عنهم أهل المشرق علومهم، وهي ظاهرة متميزة في تاريخ العلاقات العلمية بين المشرق والأندلس، فمن هؤلاء العلامة عبدالوهاب بن أحمد (ت بعد ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، فقد رحل إلى المشرق، وحدث عن شيخه إبراهيم بن محمد الافليلي الأندلسي وسمع منه الخطيب البغدادي، وأخرج عنه في غير موضع من تآليفه[٤٤].

وارتحل العلامة محمد بن فتوح الأزدي الحميدي (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥) إلى العراق فاستوطن بغداد فأفاد واستفاد، وقال فيه ابن ماكولا (صديقنا أبوعبدالله الحميدي، من أهل العلم والفضل، ورد بغداد وسمع أصحاب الدارقطني، وابن شاهين وغيرهم، وسمع منه خلق كثير. . .)[٤٥].

وكان أبوالوليد الباجي، الذي مر ذكره في المرتحلين إلى المشرق، كان رغم طلبه العلم في المشرق قد حدث عددا من العلماء وأخذوا عنه ومنهم حافظ المشرق الخطيب البغدادي.

وتتجلى لنا نزعة الاندلسيين نحو المساواة بالمشارقة والوقوف أندادا لهم في سيرة العلامة الفقيه عيسى بن إبراهيم القيسى الطليري (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) الذي ارتحل إلى المشرق ودخل بغداد وناظر فيها عددا من العلماء والفقهاء[٤٦].

وفي هذا إشارة هامة إلى المستوى الرفيع الذي بلغه علماء الأندلس وأنهم في ذلك العصر أصبحوا أهلا لأن يردوا بعض فضل المشرق عليهم فيرحلوا لا لأخذ العلم فقط وإنما لتقديمه أيضا لأساتذتهم بالأمس وأندادهم اليوم.

وحتى الداخلين من المشارقة إلى الأندلس فوجئوا بالازدهار العلمي للأندلسيين فلم يتمالك بعضهم نفسه حتى أخذ عنهم كثيرا من العلوم، ولعل أول من هاله هذا الأمر الأديب اللغوي أبوعلي القالي الذي دخل

---

(٤٤) الحميدي: الجذوة (ص ٣١٧).

(٤٥) ابن تغري: بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ (ص ١٥٦)، وابن ماكولا: هو علي بن هبة الله بن علي (ت ٤٧٥هـ/ ١٠٨٢م) من العلماء الحفاظ، وأصله من أصبهان وسافر إلى عدد من الأقطار في طلب العلم ومن كتبه الإكمال، الزركلي: الاعلام، ج ٥ (ص ٣٠).

(٤٦) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤٤٠).

الأندلس سنة ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م، فقد كان هذا العالم المشرقي يحمل فكرة خاطئة عن علم أهل الأندلس، فبعد دخوله القيروان وإقامته بها فترة من الزمن خرج عنها فلاحظ أنه كلما بعدت أوطان من يمر بهم عن القيروان كان ذلك أدعى إلى قلة فهمهم وقصور علمهم، حتى قال (إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان بهذه الأوطان)[47].

ولكن القالي بعد دخوله الأندلس واجتماعه بأهلها من العلماء والأدباء تكشفت أمامه الحقائق وظهر له سوء ظنه وأنه كان واهما في تفكيره، يقول ابن بسام (فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق في ذكائهم، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمناقشة ويقول لهم: «إن علمي علم رواية، وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت فلم آل لكم أن صححت» هذا مع إقرار الجميع له يومئذ بسعة العلم وكثرة الروايات والأخذ عن الثقات).

فإذا كان هذا في القرن الرابع الهجري أي عصر الخلافة، فما بالنا بعصر ملوك الطوائف الذي فاق ذلك العصر علما وأدبا وحضارة زاهرة، وبالتالي ننتظر من علمائه وأدبائه تفوقا ونبوغا أكثر ممن سبقهم في عصر الخلافة.

وعندما دخل العلامة الحافظ عبدالرحيم بن أحمد التميمي البخاري (ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) إلى الأندلس دهش لكثرة علمائه ووفور علومهم ومعارفهم في علم الحديث والفقه، ووجد نفسه مرغما على الأخذ عنهم والسماع على البارزين فيهم، مع أن المقري قطع أنه لم يدخل الأندلس مشرقي أحفظ منه للحديث[48].

والحافظ السلفي أحمد بن محمد بن أحمد (ت ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م) رغم تضلعه من الحديث ومهارته فيه فقد أوصى صديقه علي بن إبراهيم بن يوسف الأنصاري أن يأخذ له إجازات عدد من علماء وشيوخ الأندلس

---

(٤٧) ابن بسام: الذخيرة، القسم الأول، ج ١، (ص ٤).
(٤٨) نفح الطيب، ج ٣ (ص ٦٤).

سنة ٥١٢هـ، كابن عتاب، وأبي بحر، وابن طريف وابن ابي تليد وابن جحدر بشاطبة، وخليص ببلنسية[٤٩].

وفي ذلك دلالة على تطلع المشارقة إلى الأندلس واعترافهم بقدرها العلمي وتألق علمائها في العلم.

وحدث أن كان شخص يدعى ابن المعلم الطنجي يفاخر أبا الوليد الشقندي (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م) من أهل الأندلس، ويزعم أن المغرب أوسع علما وأرقى فكرا من الأندلس، فكتب الشقندي رسالة في فضل الأندلس، ومن كان بها من أهل العلم والفكر حتى إذا قارب ختام رسالته خاطب ابن المعلم بقوله (وأنا احكي لك حكاية جرت لي في مجلس الفقيه الرئيس أبي بكر بن زهر، وذلك أني كنت يوما بين يديه، فدخل علينا رجل أعجمي من فضلاء خراسان، وكان ابن زهر يكرمه فقلت له: ما تقول في علماء الأندلس وكتابهم وشعرائهم؟ فقال كَبُرْتُ، فلم افهم قصده، واستبردت ما أتى به، وفهم مني أبو بكر ابن زهر أني نظرته نظرة المستبرد المنكر، فقال لي: أقرأت شعر المتنبي؟ قلت نعم وحفظت جميعه، قال: فعلى نفسك إذن فلتنكر، وخاطرك بقلة الفهم فلتتهم فذكرني بقول المتنبي:

كبرت حول ديارهم لما بدت   منها الشموس وليس فيها المشرق

فاعتذرت للخراساني ـ وقلت له والله كبرت في عيني بقدر ما صغرت نفسي عندي حين لم أفهم قصدك[٥٠].

وأخيرا فهذه أمارات وظواهر لها دلالات هامة في مسيرة الحياة العلمية في الأندلس، فهي توضح لنا بجلاء معالم وملامح الطموح العلمي للأندلسيين، ونزعة الكثير منهم خاصة خلال هذا العصر نحو ترسيخ قواعد الاستقلال العلمي للشخصية الأندلسية، ومحاولة تثبيت الإطار المتميز لها في خضم العلاقات العلمية بين وطنهم والمشرق، والسعي إلى فك قيود التهافت على

---

(٤٩) أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر (ص ٨٥ ـ ٨٦).
(٥٠) المقري: نفح الطيب، ج ٣، (ص ٢٢٢).

الفكر المشرقي، وذلك بلفت الأنظار إلى قيمة آثار الأندلسيين ونفاسة إنتاجهم وأنهم لا يقلون عن إخوانهم المشارقة في الحضارة والعلوم والآداب، إن لم يتفوقوا عليهم في بعضها كالدراسات النحوية والقراءات والموشحات، والمتتبع لتاريخ الفكر الأندلسي يلمس خلال هذا العصر وما تلاه من عصور ظاهرة هجرة العلماء الأندلسيين إلى المشرق ليس لأخذ العلم بل لأعطائه وبذله، ولدينا ما يؤكد ذلك من الأسماء؛ فغير ما ذكرنا في هذا العصر سوف يرحل للشرق بعد ذلك علماء أجلاء نشروا علومهم في ربوع المشرق وأخذ عنهم علماؤه، فهذا ابن مالك الجياني (٦٧٢هـ/ ١٢٧٤م) صاحب الألفية هاجر إلى الشـام وبث علومـه هناك[٥١]، ومثله الشاطبي (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م)، صاحب القراءات والذي لا تزال بعض قصائده في القراءات مطلبا هاما لمن يتعلم القـراءات[٥٢]، وهـذا ابن البيطار المالقي (٦٤٥هـ/ ١٢٤٨م) عالم النباتات وشيخ ابن أبي أصيبعة يهاجر إلى المشرق معلما ومدرسا[٥٣] ولا ننسى أبا حيان الغرناطي (٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) الذي ارتحل إلى المشرق فحل بمصر وأَمَّهُ كل طالب علم في اللغة والتفسير[٥٤]، ومن قبلهم الطبيب ابن المظفر (٥٤٩هـ/ ١١٥٤م) الذي أنشأ مارستانا لملكشاه السلجوقي يحمل على الجمال[٥٥].

ولا يعني قولنـا هذا أن الأنـدلس استقلت استقـلالا تاما عن المشرق واكتفت ببناء كيانها الحضاري بالاعتماد فقط على أبنائها، بل ظل الاتصال العلمي بينهما مستمرا، رغم أن تياره ضعف منذ عصر ملوك الطوائف، وهو أمر طبيعي. فالأندلس في هذه الفترة تختلف في وضعها العلمي عن الفترات السـابقة، فبعد أن قضت الأندلس ما يقارب ثلاثة قرون في الأخذ عن المشرق والاعتماد عليه نراها بعد هذه المدة قد أحست بالنضج الحضاري،

(٥١) المقري: النفح، ج ٢ (ص ٢٢٢) وما بعدها.
(٥٢) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٠٦)
(٥٣) آنخل بالنثيا: نفس المرجع (ص ٤٧٨).
(٥٤) آنخل بالنثيا: المرجع السابق (ص ١٨٧).
(٥٥) المقري: نفح الطيب، ج ٢ (ص ١٣٣).

ورأت أن تلتفت إلى نفسها بتعميق معالم شخصيتها العلمية وإبراز ذاتها بين بقية الأقطار الإسلامية، حتى وجدنا في عصر ملوك الطوائف علماء طبقت شهرتهم الآفاق أخذوا علومهم ومعارفهم عن علماء وطنهم فلم يرتحلوا إلى المشرق ورغم ذلك فقد بزوا كثيرا من العلماء والفقهاء سواء في الأندلس أو المشرق، فمن هؤلاء ابن حزم المؤرخ الفقيه الأديب الفيلسوف الذائع الصيت الذي لا تزال بعض آثاره بين أيدينا تشهد بنبوغه وتألقه العلمي، ومثله صديقه ابن عبدالبر النمري حافظ الأندلس الذي نحتفظ بعدد من مصنفاته القيمة مثل الاستيعاب، وبهجة المجالس، والتمهيد وغيرها من كنوز المعرفة.

ولا شك بعد ذلك في أن الأندلس بلغت ما أرادته لنفسها من الازدهار والتفوق وبناء صرح متميز له طابعه الخاص الذي يستمد معالمه وخطوطه من الرّوح الأندلسية الخاصّة.

(٢) المكتبات وجمع الكتب

مكانة الكتاب في المجتمع الاندلسي

من الطبيعي وقد شهدت الأندلس في هذا العصر ازهى عصورها العلمية أن يكون للكتاب ـ وهو مصدر المعرفة ـ أرقى منزلة وأعظم مكانة في قلوب أهل العلم بمختلف مشاربهم وميولهم الفكرية، فنال الكتاب كثيرا من الاهتمام والعناية، ليس في السعي إلى تملكه بل في كل ما يتصل بشئونه الفنية كالنسخ المتقن، والخط البديع والتجليد الفاخر، إلى غير ذلك من فنون الوراقة.

وكان هذا الاهتمام بالكتاب أو الكتب والمنافسة في جمعها وإنشاء المكتبات القيمة أمرا شائعا بين الأندلسيين جميعهم، إلا أنه كان بالأندلس مدن اشتهر أهلها بالعناية التامة بالكتب واقتنائها وبذل غالي الأثمان في سبيل تحقيق تلك الغاية، منهم أهل قرطبة الذين ذاع صيتهم بالشغف بالكتب ونفائسها، والظفر بنوادرها، حتى عُدوا أشد الناس اعتناء بالكتب، وإن مسلكهم هذا أصبح يمثل إشارة واضحة للجاه والرياسة والنبل في المجتمع، بل إن البعض منهم ممن لا يتمتع بالعلم وليس له سابقة في المعرفة كان يسعى إلى اقتناء الكتب، وإنشاء المكتبات الكبيرة في منازلهم ليقال أن لدى فلان خزانة كتب، أو أن هذا الكتاب أو ذاك لا يملكه سواه، أو إن الكتاب الذي بخط فلان قد ظفر به[٥٦].

ولم يكن هذا النشاط العلمي المتعلق بالكتب في قرطبة قاصرا على عصر الخلافة، عندما كانت قرطبة حاضرة السلطة السياسية وقطب رحى النشاط العلمي في الأندلس، بل إن قرطبة احتفظت بمكانتها العظيمة في هذا الحقل واستمرت في أداء رسالتها العلمية على الوجه الأكمل في عصر

---

(٥٦) المقري: النفح، ج ١ (ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣)، نقلا عن ابن سعيد عن والده، سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٩٧)، ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس (ص ٦٥)، عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي (ص ٣١٧)، عبدالجليل الراشد: التقدم الفكري عند أهل الأندلس (مقال بمجلة المؤرخ العربي) العدد الثالث عشر (ص ١٣٨)، ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام (ص ٩٨).

ملوك الطوائف، ومما يبرهن على هذا الأمر المناظرة التي دارت بين العالمين ابن زهر الاشبيلي، وابن رشد القرطبي في حضرة سلطان الموحدين يعقوب المنصور، وكان كل منهما يسعى إلى تفضيل مدينته على مدينة الآخر، ففضل ابن زهر مدينته اشبيلية على قرطبة، فانبرى ابن رشد قائلا: ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وأن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية(٥٧).

ويتضح لنا من خلال هذا الحوار الذي دار بين هذين العالمين أن مدينة قرطبة ظلت فيما يتصل بالعلم على درجة رفيعة ومستوى راقٍ ليس فقط في عصر الأوج العلمي، وهو عصر الطوائف بل امتد إلى عصر الموحدين، ويبدو أن ابن رشد بالغ في الحط من مكانة اشبيلية ودورها في الازدهار العلمي، فقد كانت هي الأخرى من أزهى المدن وأعلاها شأنا في الحياة العلمية.

وقد شهدت قرطبة كثيرا من ألوان العناية البالغة بالكتب، وكان سوق كتبها يشهد وفود الكثير من محبي الكتب والباحثين عن نفائسها. ويروي موسى بن سعيد قصة وقعت لأحد اصدقائه ويُدعى الحضرمي الذي قال: (أقمت مرة بقرطبة، ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حده، فقلت له: ياهذا، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى مالا يساوي قال: فأراني شخصا عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت الزيادة بيننا فوق حده، قال: فقال لي: لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلدة، وبقي فيها موضع يتسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط، جيد التجليد استحسنته ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير، قال الحضرمي فأحرجني وحملني على أن قلت له: نعم!

(٥٧) المقري: نفح الطيب، ج ١ (ص ١٥٥)، ليفي بروفنسال: مرجع سبق ذكره (ص٦٥).

لا يكون الرزق كثيرا إلا عند مثلك يعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه)[٥٨].

وفي هذا النص إشارات هامة، ويأتي أولها في الدلالة الواضحة على ما كان يحظى به العلماء وأصحاب خزائن الكتب من جاه وقدر رفيع في المجتمع القرطبي، فإن إنشاء خزائن الكتب آنذاك كان من سمات الشخصية المرموقة اجتماعيا. هذا إلى ما فيه من إشارة إلى ما بلغه حال الكتاب من تفنن في إخراجه على أجمل صورة في خطه البديع وتجليده الفاخر، بالإضافة إلى ذلك يكشف النص عن ملامح اجتماعية طريفة للمجتمع الأندلسي مثل حال كثير من أهل العلم ومعاناتهم الاجتماعية في تحصيل العلم من جهة ومكابدتهم، لظروف المعيشة من جهة أخرى، في حين أن هناك طائفة أخرى ميسورة الحال، وتنعم بعيش رغد هانئ، ولا يهمها من اقتناء الكتب إلا التظاهر بالمعرفة. وما من شك أن هذا حال طلبة العلم في كل زمان ومكان.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن قرطبة الإسلامية عرفت من الكتب وخزائنها وهواة جمع الكتب أكثر مما تعرفه اسبانيا حاليا، وخاصة في سرقسطة وبلنسية على كونهما تعدان الآن من كبريات المدن الاسبانية المعاصرة[٥٩].

ولم تكن قرطبة وحدها في ميدان الاهتمام بالكتب وجمعها، بل نافستها مدن أخرى في هذا النشاط العلمي، وخاصة إذا تذكرنا عامل المنافسة الشديد بين ملوك الطوائف في تشجيع العلم والعلماء في حواضرهم حتى غدت تلك العواصم منارات وضاءة بالعلم والمعرفة.

ومن تلك المدن اشبيلية عاصمة بني عباد التي شهدت في عهدهم نهضة

---

(٥٨) المقري: النفح، ج ١ (ص ٤٦٣) استشهدنا بهذه القصة التي حكاها موسى بن سعيد والد المؤرخ والجغرافي الكبير علي بن موسى المشهور بابن سعيد، وقد حكاها موسى عن أحد علماء قرطبة ويدعى الحضرمي ويبدو أن هذه الحكاية وقعت في القرن السادس أو السابع الهجري لأن موسى عاش شطرا من حياته في القرن السادس والشطر الآخر في القرن السابع وروى هذه الحكاية عن الحضرمي الذي يبدو أنه من أصدقائه، وتنم هذه القصة عن الحالة التي كانت عليها الأوضاع العلمية بقرطبة واهتمام أهلها بالكتب. انظرالمقري: النفح، ج ١ (ص ٤٧٣).

(٥٩) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٢١٣).

علمية جبارة امتدت إلى جميع نواحي المعرفة، ومنها بطبيعة الحال العناية بالكتب وإنشاء خزائنها، فكان في إشبيلية سوق خاص بالكتب تباع فيه جميع الكتب في شتى حقول العلم، ويرد إليه العلماء والأدباء بحثا عن نفائس التآليف ونوادر التصانيف، هذا إلى كثرة ما حوته من الوراقين حتى نسب إليهم أحد شوارعها الكبيرة فسمّي بشارع الوراقين[٦٠].

ويمكن أن نضيف إلى قرطبة واشبيلية عواصم ملوك الطوائف الأخرى كطليطلة، وبطليوس، ودانية، والمرية، وغرناطة، وسرقسطة، وكذلك مدينتي بلنسية ومالقة وغيرها من المدن التي اشتهرت بهذا اللون من الاهتمام العلمي، فكانت تلك العواصم والمدن تزخر بمئات العلماء وطلاب المعرفة ومحبي الكتب وهواة اقتنائها، وسيتبين لنا ذلك من خلال بعض التراجم التي ستعرض لها.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن هذا اللون من النشاط العلمي لم يكن محصورا على المسلمين، فقد أثر المسلمون في كثير من أهل الذمة فعكف هؤلاء على جمع نفائس الكتب العربية واقتناء نوادرها في كل علم حتى ضج من ذلك مطران قرطبة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي فقال (ان جميع المسيحيين المميزين بالذكاء كانوا يعرفون لغة العرب وآدابهم، ويقرؤون ويطالعون كتب العرب بولع، ويجمعون مكتبات كبيرة من تلك الكتب بنفقات باهظة)[٦١].

هذا ما حدث في القرن الثالث الهجري والحياة العلمية آنذاك لا تزال ترتقي إلى الأعلى، فما بالنا بالوضع في القرن الخامس الهجري وهو عصر بلوغ الذروة العلمية. لا شك أن التأثير كان أكبر، ولا أدل على ذلك من وجود كثير من الأسماء لعلماء مسيحيين ويهود شاركوا في ازدهار الحركة العلمية في هذا العصر.

---

(٦٠) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٤٦٣). خوليان ريبيرا: مرجع سبق ذكره (ص ٢١٩)، اعتهاد القصيري: فن التجليد عند المسلمين (ص ٣١).

(٦١) روبرت بريفالت: أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية (ص ١٤٥) وفيما يتعلق بهذا المعنى انظر محمد رجب البيومي: الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر (ص ١٣ - ١٤)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٢٠٨).

مشاهير هواة جمع الكتب وأشهر خزائنها

يأتي في مقدمة هؤلاء بلا شك عدد من ملوك الطوائف، وبعض وزرائهم وعلمائهم، فقد كان بنو عباد في اشبيلية وقرطبة، والمظفر ملك بطليوس وبنو هود في سرقسطة، والمأمون في طليطلة، ومجاهد في دانية ممن اشتهروا باقتناء خزائن عظيمة من الكتب(٦٢).

فبنو عباد مثلا كان لاهتمامتهم العميقة وولعهم الشديد بالشعر أثر في انصرافهم إلى جمع الكتب واقتناء نفائسها وخاصة ما يتعلق منها بالأدب والشعر، هذا إلى جانب ما تجمع لديهم من كتب كثيرة مختلفة صنفها لهم علماء دولتهم وأدباء بلاطهم فكانوا يملكون مكتبات عامرة بالكتب.

واشتهر من بنى عباد باقتناء الكتب شرف الدولة بن المعتمد الذي وصفه ابن اللبانة بقوله: (حريص على طلب الأدب، مسارع في اقتناء الكتب مثابر على نسخ الدواوين)(٦٣).

وكان المظفر ملك بطليوس في مقدمة ملوك عصره علما وأدبا، وهو الذي ذاع صيته بما صنفه من موسوعة أدبية ضخمة سماها «المظفري»(٦٤)، ومن غير شك فقد كان يملك خزانة كتب كبيرة ساعدته على تأليف كتابه المذكور الذي ينم عن سعة اطلاع، ومعرفة واسعة بالأدب.

وكان المقتدر ملك سرقسطة، ومن بعده ابنه المؤتمن، ثم ابنه المستعين يملكون أيضا خزانة عظيمة من الكتب القيمة، وخاصة ما يتعلق منها بعلوم الأوائل، كالطب والرياضيات والفلك، فقد كان المقتدر وابنه المؤتمن من علماء الرياضيات، ولهما فيها تصانيف رفيعة لا يمكن أن يقوما بتأليفها إلا إذا توافرت لديهما مصادر المعرفة في حقل الرياضيات، وقد أشرنا سابقا إلى دورهما في النهضة العلمية.

---

(٦٢) S.M. Imamuddin: Muslim Spain, P. 144

(٦٣) المقري: نفح الطيب، ج ٤ (ص ٩٦) نقلا عن ابن اللبانة.

(٦٤) المراكشي: المعجب (ص ١١١) وقد أشار إلى اطلاعه على المظفري.

وعرف عن المأمون بن ذي النون ملك طليطلة، اهتمامه بالكتب وسعيه في اقتنائها، وقد دفعه شغفه بها إلى انتهاب مكتبة العلامة عبدالله بن حيان الاروشي (ت ٤٨٧ هـ) نزيل بلنسية، ويحدثنا الضبي نقلا عن ابن علقمة في تاريخه (أن ابن ذي النون صاحب بلنسية أخذ كتب الاروشي من داره وسيقه إلى قصره ذلك ماية عدل وثلاثة وأربعون عدلا من أعدال الحمالين، يقدر كل عدل منها بعشرة أرباع، وقيل إنه كان قد أخفى منها نحو الثلث)[٦٥] ورغم أننا لا نقر تصرفه هذا إلا أن فيه إشارة إلى شغفه بالكتب وحيازتها.

ولا ريب أن ما جمعه المأمون من الكتب يفوق ما ذكر عن هذه الحادثة، فقد كان المأمون محبا للكتب، مجدا في اقتنائها، ولا أدل على ذلك من أن المؤرخ العظيم ابن حيان أهدى إليه كتابه «المتين»[٦٦] وهناك علماء كثيرون في شتى فروع العلم اهتبلوا تلك الفرصة، واستغلوا تلك النزعة العلمية لدى المأمون فأهدوه مؤلفاتهم[٦٧].

وكان مجاهد العامري محبا للكتب ساعيا في اقتنائها حتى (جمع من دفاتر العلوم خزائن جمة)[٦٨].

واشتهر في هذا النشاط من الوزراء، أحمد بن عباس الأنصاري (ت ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) وزير زهير العامري أمير المرية وكان هذا الوزير كاتبا حسن الخط، بليغا واسع الأدب، ماهرا في الشعر، مشاركاً في الفقه وغير ذلك من العلوم والآداب، ولكن شهرته تعود إلى ما جمعه من الكتب ونفائسها، ومساعيه الجادة في اقتناء نوادرها مهما كلفه ذلك من جهد ومال، مع محافظته التامة عليها وصيانتها، فقد جند لذلك فئة من الوراقين الذين عنوا بها وسعوا في تصحيح خطوطها وتجميلها بفاخر التجليد، فاجتمع لديه أثر ذلك خزانة كتب عظيمة لم تجتمع لغيره من أهل عصره[٦٩].

---

(٦٥) بغية الملتمس (ص ٣٤٣ - ٣٤٤).
(٦٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٥٧٨).
(٦٧) انظر ذلك فيما سبق لدى الحديث عن بني ذي النون ودورهم في ازدهار الحياة العلمية.
(٦٨) ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٣).
(٦٩) ابن بسام: الذخيرة، ق ١ ج ٢ (ص ٤٦٤ - ٤٦٥) المراكشي: الذيل والتكملة، ج ١ (ص ٢٧٧)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١، (ص ٢٥٩ - ٢٦٠)، المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ٥٣٥).

ويحكي أحد وراقيه أنه احصى ما في خزانته من الكتب فكانت أربعمائة ألف مجلد، هذا غير الكراريس والأوراق التي لم تجلد فلم يستطع عدها لكثرتها[٧٠].

ولا شك أنه إذا صح ما قيل عن محتويات هذه المكتبة فإننا لا نجد لها مثيلا في التاريخ الأندلسي إلا ما ذكر عن مكتبة الخليفة العالم الحكم المستنصر، مع تحفظنا أمام هذه الأرقام الضخمة العدد التي توحى بشيء من الشك والتردد في قبولها.

واشتهر ابن النغريله اليهودي وزير حبوس بن ماكسن أمير غرناطة بجمع الكتب والولع باقتنائها، وكان في خدمته كثير من النساخ ينسخون له التلمود، والمشنا وغيرها من كتب اليهود ويهديها إلى تلاميذه وبني جلدته من اليهود في الأندلس وخارجها[٧١].

ولم يكن هذا الاهتمام مقتصرا على الطبقة الراقية سياسياً في المجتمع الأندلسي، بل كان شائعا بين أفراده بمختلف طبقاتهم الاجتماعية، ومن هؤلاء العلامة الأديب محمد بن يحيى الغافقي القرطبي، ويعرف بابن الموصل (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤١) وصفه ابن الأبار فقال: (كان أديبا كاتبا جماعا لدفاتر العلم من لدن صباه، منتقيا لكرائمها، بصيرا بخيارها، عارفا بخطوطها يُحتكم إليه في ذلك، مؤثرا لها على كل لذة، اجتمع منها عنده مالم يجتمع مثله لأحد بالأندلس بعد الحكم الخليفة)[٧٢].

وكان من أثر عناية الغافقي بكتبه ومعرفته العميقة بأشكال خطوطها وسعيه الدائب للظفر بنوادر الكتب التي كتبها أعيان الخطاطين وبارعوهم أنْ أصبحت لديه مكتبة كبيرة حافلة بألوان الكتب النفيسة، كإصلاح المنطق بخط أبي علي القالي، والغريب المصنف أصل أبي علي، ونوادر ابن الأعرابي

---

(٧٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٤٦٠)، المقري: نفح الطيب ج٣ (ص٥٣٥)، كامل كيلاني: ملوك الطوائف (ص٤٧)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٤٣٧).
Dozy: Spanish Islam, P. 610 - S.M. Imamuddin: Muslim Spain, P. 144.

(٧١) الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٦٦).

(٧٢) تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣١٧).

بخط أبي موسى الحامض، وتاريخ أبي جعفر الطبري بصلة الفرغاني بخط ابن ملول الدمشقي، وقد بيعت كلها بعد وفاته، ودُفع في شرائها أغلى الأثمان حتى قومت الورقة في بعضها بربع مثقال[٧٣].

وما دفع في تلك الكتب والأوراق من غالي الأثمان فيه دلالة وبرهان واضح على مدى ما كان للكتب من منزلة عظيمة في نفوس الأندلسيين، وحرصهم الشديد على تتبع نوادر التصانيف وخاصة تلك التي تحظى بمميزات قيمة كجمال الخط، وحسن التجليد.

وكان أبو عبيد البكري ـ الذي استقر في بلاط المعتصم بالمرية ـ يعد من مفاخر الأندلس علما وأدباً، واشتهر بولعه الشديد بالكتب والتهمم بها وصيانتها، حتى إنه كان يمسكها في سباني الشرب حفظا وتقديرا لما بها من العلم والمعرفة[٧٤].

والسبنية شيء أشبه بالمناديل من القماش الرقيق الغالي، وسبنيات الشرب أغلاها وأرقها، وكان الناس يدخرونها للمناسبات والولائم والمآدب الفخمة، وما من شك أن رجلا يبلغ به شغفه بالكتب مبلغ أن يصون كل كتاب في سبنية لابد أن يكون مغرما بها عظيم الاحتفاء بها[٧٥].

وعرف عن الفقيه المحدث هشام بن عبدالله المعروف بابن الصابوني القرطبي، أنه كان (دؤوبا على النسخ، جماعة للكتب، جيد الخط)[٧٦].

وقد سبقت الإشارة إلى ما وقع للعلامة عبدالله بن حيان بن فرحون الاروشي، نزيل بلنسية، مع المأمون ملك طليطلة الذي انتهب كتبه، وكان ابن حيان المذكور من أعظم أهل عصره شغفا بالكتب وجمعها واقتنائها،

---

(٧٣) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٨٧) والمثقال، وزنه من الذهب اثنان وسبعون حبة من الشعير، أي إن ربع المثقال المذكور أعلاه يساوي ما وزنه من الذهب ثماني عشرة حبة من الشعير، وبما أن الدينار يزن اثنين وسبعين حبة من الشعير فربع المثقال بالتالي يساوي ربع دينار. انظر ابن خلدون المقدمة (ص ٢٦٣) وكذلك الأب انستاس الكرملي: النقود العربية وعلم النميات (ص ١٠٧) والتهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ج ٢، (ص ٣٠١).

(٧٤) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٢٨٧)، ابن الأبار: الحلة السيراء ج ٢ (ص ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٧٥) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ج ٧، ٨ (ص ٣١٩ ـ ٣٢٠).

(٧٦) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٦٥٠).

وكان قد أخفى من كتبه قبل أن ينتهبها المأمون نحو الثلث[77].

وعالم آخر من علماء قرطبة، وهو عمر بن عبيد الله الذهلي (ت ٤٥٤هـ) جمع من الكتب عددا وافرا، ولما حدثت الفتنة بقرطبة خشي على نفسه فسعى إلى الخروج عن قرطبة فشد من كتبه ثمانية أحمال، ولكنه لم يبدأ رحلة الخروج حتى بادرته البربر فنهبت كتبه جميعها.[78]

وممن لمع نجمه في هذا الميدان إبراهيم بن عبيدالله المعروف بالنواله، وصفه الحجاري صاحب المسهب (ت ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) فأثنى عليه وعلى علمه وأدبه، وذكر أنه استعان بخزائن كتبه العظيمة في تصنيف كتابه المسهب[79].

وهناك أعلام آخرون نسب إليهم جمع الكتب والعناية بها أمثال العلاء بن أبي المغيرة القرطبي (ت ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م) الذي ذكر أنه جمع من الكتب الغريبة ما لم يجمعه أحد[80].

والعلامة عبدالرحمن بن أحمد التجيبي، المعروف بابن المشاط الطليطلي (ت ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) (جمع كتبا في غير مافن من العلم)[81].

كما أن الأديب محمد بن أحمد بن عون المعافري القرطبي (٥١٥هـ/ ١١٢١م) كان معتنيا بالعلم، نابها في الفقه جمع كثيرا من الكتب وبذل في سبيل ذلك جهودا واسعة في البحث عن نفائسها[82].

وكان هؤلاء العلماء حريصين أشد الحرص على ما جمعوه من الكتب، وقلما نرى من كان يتهاون في حفظها أو صيانتها، حتى إن كثيرا منهم كانوا يجدون في أنفسهم حرجا إذا ما طلب من أحدهم كتابٌ من كتبه، وقد عبر عن ذلك الفقيه المحدث الأديب محمد بن الفرج الصواف الطليطلي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) بقوله:

---

(٧٧) الضبي: بغية الملتمس (ص ٣٤٤).
(٧٨) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٣٩٩ - ٤٠٠)
(٧٩) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٧١) ستتحدث عن الحجاري وكتابه المسهب عند التعرض للتاريخ ودراساته.
(٨٠) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤٤٤ - ٤٤٥).
(٨١) ابن بشكوال: نفس المصدر والجزء (ص ٣٤٥).
(٨٢) ابن بشكوال: المصدر السابق، ج ٢ (ص ٥٧١).

يـا مستعيـر كتابـي إنـه علـق بمهجتـي وكـذاك الكتـب بالمهـج
فأنـت فـي سعـة إن كنـت تنسخـه وأنت من حبسه في أعظم الحـرج[٨٣]

ويلاحظ أن بعض العلماء كان يوقف ما لديه من الكتب على طلبة العلم، وهي طريقة بلا شك من أعظم الخطوات الإيجابية تأثيرا في الحركة العلمية كما أنها من أكثر الأعمال مثوبة وأطيبها ذكرا للإنسان، فمن هؤلاء العلامة محمد بن عيسى التجيبي الطليطلي (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م)، فقد أوقف كتبه على طلبة العلم الذين بالعدوة[٨٤].

وهذا الفقيه الكبير سليمان بن خلف الباجي (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م)، أهدى مكتبته إلى خطيب المسجد الجامع في اشبيلية أبي الحكم بن الحجاج اللخمي[٨٥]..

وإلى جانب من ذكرنا من هواة الكتب وجامعيها، كان هناك بعض العلماء الذين لم يلتفتوا إلى هذه الناحية ولم يرغبوا في جمع الكتب وإنشاء المكتبات إيمانا منهم بأن كثيرا من جامعيها لا يفقهون ما فيها جميعها ولا يحظى الكتاب الواحد في الخزانة العظيمة بأكثر من نظرات محدودة، فهو مجرد منظر للتجمل فقط. فالعلامة عبدالله بن مالك القرطبي (ت ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧م) كان من العلماء المشار إليهم بالعلم والفهم، رغم أنه لم يكن لديه من الكتب سوى فقه معاني النحاس، ومختصره للمدونة، وعدد ضئيل من الكتب. (وكان كلما ذكر عنده المكثرون من الكتب، وجمع الدواوين يقول: والله لأموتن وأنا أجهل كثيرا مما في كتبي هذه، فماذا أصنع بالإكثار منها)[٨٦].

وأخيرا فإن هذا اللون من النشاط العلمي المتمثل في الاهتمام الواسع بالكتاب، والسعي في اقتناء الكتب، وإنشاء المكتبات، وبذل الكثير من المساعي في سبيل تحقيق تلك الرغبة السامية سواء لدى الملوك في هذا العصر أو العلماء أو بقية أفراد المجتمع الأندلسي، يعد بحق صفحة مشرقة في تاريخ الفكر الأندلسي، ويجعل الأندلسيين في الصدارة بين أرقى الشعوب آنذاك.

---

(٨٣) الحميدي: جذوة المقتبس (ص ٨٥ - ٨٦).
(٨٤) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٥٥٨).
(٨٥) خوليان ريبرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٢٢١)، نقلا عن ابن الأبار في التكملة، الترجمة (١٦٢٦) طبعة مدريد.
(٨٦) ابن فرحون: الديباج المذهب (ص ١٤٠) (طبعة المكتبة العلمية).

الوراقة والوراقون

صناعة الورق في الأندلس

كان للأندلس إسهام فعال في تطور صناعة الورق وانتقاله إلى سائر أنحاء اوروبا. فقد قامت مدينة شاطبة بدور كبير في تلك الصناعة الحضارية الهامة، وكان بها مصانع كبيرة للورق في القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي، ولكن مدينة طليطلة ما لبثت أن أخذت عنها هذا الدور العظيم وكان ذلك في عصر ملوك الطوائف، ومما يؤكد هذا أنه لا يزال بين أيدينا وثائق محفوظة كتبت على هذا الورق ويعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي[٨٧].

بل إننا نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول انه عثر في مكتبة الاسكوريال على مخطوطة مكتوبة سنة (٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) على ورق مصنوع من القطن وهي تدل دلالة قاطعة على أن العرب أول من أحل الورق محل الرق[٨٨].

وفي هذا البرهان الواضح رد على من قال بتأخر صناعة الورق في الأندلس، وممن قال بهذا الرأي جلال مظهر الذي يؤرخ لدخول صناعة الورق إلى الأندلس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي[٨٩] والحق ما أشرنا إليه لتضافر البراهين التاريخية على ذلك.

وكان لبراعة الأندلسيين من أهل شاطبة في صناعة الورق، وتفوقهم في ذلك أن صدّروه إلى كافة نواحي الأندلس، وهو ما أشار إليه ياقوت الحموي الذي أثنى على مدينة شاطبة وما أخرجته من العلماء ثم ذكر أنه يصنع بها

---

(٨٧) عبدالرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، (ص ٣٨)، وانظر ايضا: محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج ١، (ص ٢٦٠)، ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام (ص ٧٤).

(٨٨) غوستاف لوبون: حضارة العرب (ص ٤٨٢).

(٨٩) حضارة الإسلام (ص ٣٨٥).

الورق الجيد ويحمل منها إلى سائر الأندلس[٩٠] ولم يقتصر الأمر على الأندلس فقط بل امتد تأثير الصناعة الأندلسية إلى المشرق فصُدر كثير منه إلى مدن المشرق وهو ما أشار إليه الجغرافي الإدريسي[٩١].

وسارع الأوربيون إلى اقتباس صناعة الورق من شاطبة، فنقلوا طرق صناعته إلى قطالونيا وبروفنس وتريويزو وبادوا[٩٢].

وقد أخذت قشتالة صناعة الورق عن الأندلسيين في القرن السابع الهجري/ الثالث عشرالميلادي، فتسرب منها إلى فرنسا وإيطاليا وانجلترا وألمانيا، ولكن الورق الأندلسي ظل محتفظا بمكانته الفنية، بل كان يفوق الورق الأوروبي رونقا بهاء وقابلية للزخرفة اللامعة الواضحة[٩٣].

---

(٩٠) معجم البلدان، ج ٣ (ص ٣٠٩).
(٩١) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج ٢ ص٦٥٦.
(٩٢) روبرت بريفالت: أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية (ص ١٧٣) وانظر شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج ٣ (ص ٢٥٣).
(٩٣) سيديو: تاريخ العرب العام (ص ٤٢٥).

الوراقـة والوراقـون

كان من الطبيعي أن يرافق الكتابَ في رحلته نحو أيدي العلماء وطلاب المعرفة كثيرٌ من العمليات الفنية سواء في خطه أو نسخه أو تجليده وزخرفته، بل وفي تجارتـه أيضـا. وكـان القائمون على الاهتمام بهذه الشؤون الفنية للكتاب يطلق عليهم الوراقون، جمع وراق، هذا فضلا عن بيع الورق وسائر أدوات الكتابة كالأقلام والحبر وما إلى ذلك[٩٤].

وما من شك أن هذه الفئة كان لها فضل عظيم وجهد كريم في ازدهار الحـركـة العلمية وذلـك بجهدها الواسع في نشرالكتاب العربي الإسلامي وصيانته وحفظه. ويأتي بطبيعة الحال ورّاقو الأندلس في الطليعة، وقد أثنى عليهم المقـدسي ووصفهم بأنهم أمهر الوراقين وأحذقهم في هذا العمل، ووصف خطوطهم بأنها مدورة[٩٥].

وعـد ابن غالب من فضـائـل الأنـدلسيين ومناقبهم الحميدة اختراعهم للخطوط الخاصة بهم[٩٦].

هذا وقد نال القرآن الكريم من أولئك الوراقين اهتماما عظيما، وشهد من كثير منهم عناية فائقة سواء في نسخه وخطه أو في تجليده وزخرفته، ولا تزال في بعض دور الكتب في تونس والجزائر والمغرب نسخ عديدة من القرآن الكريم مكتوبة بخط أندلسي لبعض وراقي الأندلس، ويذكر ابن الخطيب ان الأمير عبدالله أمير غرناطة كان بديع الخط وخلّف ضمن ذخائره قطعة من القرآن الكريم (بخطه في نهاية الصنعة والإتقان)[٩٧].

وإذا تصفحنا كتب التاريخ والتراجم الأندلسية وجدنا أعدادا كبيرة من النسـاخ والخـطاطـين الذين عكفوا على نسخ وكتابة القرآن الكريم حتى اشتهروا بذلك، ويكفي أن نشير إلى أنه (كان بالربض الشرقي من قرطبة

---

(٩٤) عمر كحالة: مقدمات ومباحث (ص ٢١٥).
(٩٥) أحسن التقاسيم (ص ٣٩).
(٩٦) المقري : النفح ، ج ٣ (١٥١ - ١٥٢) نقلا عن ابن غالب.
(٩٧) الإحاطة ، ج ٣ (ص ٣٧٩ - ٣٨٠).

مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي، هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها)[٩٨].

وينسب إلى الوراق محمد بن إسماعيل بن محمد المعروف بحبيش القرطبي مهارته الفائقة في كتابة المصاحف حتى إنه كان يكتب المصحف في جمعتين أو نحوهما، وكان أبوه إسماعيل متوليا قضاء اشبيلية للمستنصر[٩٩]، وبناء عليه فإن ابنه محمداً من المحتمل أن يلحق بعصر الطوائف.

وكان سليمان بن محمد المعروف بابن الشيخ القرطبي (ت حوالي ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) خطاطا بديع الخط، فكتب بخطه مصاحف كثيرة، واستمر على ذلك من أول نشأته بقرطبة وحتى وفاته بطليطلة بعد ذلك[١٠٠].

ويشير ابن سعيد إلى أن الخط الأندلسي الذي رآه في مصاحف ابن غطوس (ت ٦١٠هـ/ ١٢١٣م) بشرقي الأندلس وغيره من الخطوط المنسوبة للأندلسيين، لها حسن فائق ورونق وبهاء يأسر الألباب، وترتيب يشهد لمن كتبها بقوة الصبر والجلد والإتقان[١٠١].

وينسب إلى بعض الوراقين عنايتهم أيضا بمصادر السنة الشريفة كالوراق محمد بن محمد بن بشير المعافري القرطبي (٤٨١هـ/ ١٠٨٨م) فقد كتب بيده صحيح مسلم بن الحجاج رحمه الله[١٠٢].

والعلامة محمد بن خلف بن مسعود المعروف بابن السقاط القرطبي (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) كتب بيده صحيح البخاري وغيره، وصنع الحبر من ماء زمزم، وعرف بجمال خطه وسرعته في الكتابة[١٠٣].

---

(٩٨) المراكشي: المعجب (ص ٥٢٠) نقلا عن ابن فياض في تاريخه المفقود.
(٩٩) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج١ (ص ٣٧٣).
(١٠٠) ابن بشكوال: الصلة، ج١ (١٩٨ - ١٩٩).
(١٠١) المقري: النفح، ج٣ (ص ١٥١ - ١٥٢)، وابن غطوس المذكور هو محمد بن عبدالله بن محمد الأنصاري كان إمام الناسخين وكتب ألف نسخة من القرآن الكريم (ابن الأبار: تكملة الصلة، ج٢ ص ٥٩٣). وقد ذكر ابن الأبار أنه خلف أباه في هذه الصناعة، ووالده على ذلك يكون قريبا من عصر الطوائف لأن محمدا كانت وفاته ٦١٠هـ أي ما يزيد على قرن من الزمن من عصر ملوك الطوائف.
(١٠٢) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٥٥٥).
(١٠٣) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٥٥٨ - ٥٥٩).

ونسب إلى الوراق محمد بن علي بن أحمد من أصحاب أبي الوليد الباجي كتابة صحيح البخاري رحمه الله مرات عديدة(١٠٤).

واهتم بهذا الجانب أيضا صالح بن عبدالملك بن سعيد الأوسي المالقي، فقد نسخ كتبا كثيرة، ثم فقد يده اليمنى فصار يكتب بيده اليسرى، وقد رأى الضبي سنن الترمذي في أربعة أسفار بخط يده اليسرى(١٠٥).

وكان من أصحاب خزائن الكتب والمكتبات من يجند لديه طائفة من النساخ يعملون في النسخ والتجليد وصيانة الكتب، فالوزير أحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية اشتهر بمكتبته العظيمة التي حوت أربعمائة ألف مجلد، حرص على صيانة كتبه والعناية بها فوظف لديه مجموعة من الوراقين ينسخون له ويعارضون بين النسخ، ويجلدون الكتب أفخر تجليد حتى إنه لم يجتمع عند أحد من نظرائه ما اجتمع لديه من عين وورق ودفاتر وخرق وغير ذلك(١٠٦).

ونتيجة لهذا النشاط الذي مارسه الوراقون لحساب ابن عباس فقد أثرى الكثير منهم وعلا شأنهم من وراء ما كان يخصصه لهم من رواتب ومكافآت جزيلة(١٠٧).

والنسخ يمثل كبرى مهام الوراق، وكانت هذه المهمة تحتاج إلى براعة ومهارة في الخط إلى جانب الدقة والضبط في النقل والمقابلة بين الكتاب وما نسخ عنه، فهذا محمد بن عبدالله بن معمر القرطبي (ت ٤٢٣هـ/ ١٠٣١). كان من أعلم الناس بالكتب وعللها، وأمهرهم في معرفة خطوطها، وكان يقابل كتب المنصور وولده، وفي عصر ملوك الطوائف انتقل إلى كنف مجاهد العامري حيث واصل أداء مهماته العلمية(١٠٨).

---

(١٠٤) ابن بشكوال: المصدر السابق، ج ٢ (ص ٥٣٤).

(١٠٥) بغية الملتمس (ص ٣١٩). كان هذا العلامة من أصحاب أبي بكر بن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣هـ/ ١٠٧٥ - ١١٤٨م) وهي قرينة توضح لنا أنه عاش في عصر الطوائف وما بعده.

(١٠٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج٢ (ص ٤٦٤ - ٤٦٥).

(١٠٧) ابن بسام: نفس المصدر والجزء والصفحات.

(١٠٨) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٨٤)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٣٦٥ - ٣٦٦).

واشتهر محمد بن سعيد الغساني المالقي بالمهارة في الخط والبراعة في معرفة الخطوط وتمييزها مع ما اتصف به من دقة وإتقان[١٠٩].

وفرج بن هباء الأنصاري الذي كان حيا سنة (٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م)، وصف بالبراعة في الخط، والإتقان والضبط لما ينقل، حتى تنافس العلماء فيما يكتبه من الكتب[١١٠].

وعبدالرحمن بن محمد بن عباس الأنصاري المعروف بابن الحصار الطليطلي (ت ٤٣٨هـ) كان خطاطا، جيد الضبط، وكانت أكثر كتبه بخطه وعرف بقوة الصبر والجلد على النسخ، حتى ذكر أنه نسخ مختصر ابن عبيد وعارضه في يوم واحد، وأنه كتب في مرة من غير انقطاع خمسة عشر سطرا[١١١].

وعلى طريقة ابن الحصار كان سالم بن أحمد القرطبي (ت ٤٦١هـ/ ١٠٦٨م)، بارعا في الخط شديد التحمل والصبر على النسخ، يبدي في ذلك قدرات عظيمة نادرة[١١٢].

ولعل من غرائب الدهر وعبره أن نجد أميرا أمويا من سلالة الأسرة الأموية الغابرة بالأندلس يتخذ صناعة الوراقة مصدر عيش له، وهو محمد ابن إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم بن هشام بن عبدالرحمن الأوسط (كان حياً سنة ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م) وكان موصوفا بجودة الخط وجماله، وأنه كتب وخط كثيرا من الكتب واسترزق بالوراقة، ويذكر المراكشي الأنصاري أنه وقف على نسختين بخطه من مصنف ابن وكيع «في سرقات المتنبي» وغيرها[١١٣].

والنسخ إذا كان لحساب شخص آخر أو خزانة من خزائن الكتب فهو على طريقتين: الأولى ان ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرة بنفسه، وبعد فراغه يعرض تلك النسخة على غيره للتأكد من صحة النقل وضبطه. والثانية

---

(١٠٩) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٥١٧)، يفهم من ذكر شيوخه وأهل عصره أنه قضى شطرا من عمره في عصر ملوك الطوائف. انظر نفس الصفحة.
(١١٠) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢ (ص ٥٣٨).
(١١١) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٣٣٠ - ٣٣١). وابن عبيد المذكور قد يكون القاسم بن سلام (ت ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) كان من أعلام الفقه والأدب، وصنف أكثر من عشرين كتابا في القرآن والفقه ومنها غريب الحديث. انظر الأنباري: نزهة الألباء (ص ١٣٦) وما بعدها.
(١١٢) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ١ - ٢).
(١١٣) الذيل والتكملة، السفر الرابع، (ص ١ - ٢).

أن يملي شخص على عدد من النساخ ما يراد نسخه للحصول على عدة نسخ منه، وبعد الفراغ تجري عملية المقابلة بين النسخ لمعرفة ما قد يكون في بعضها من أخطاء وتصحيحها[114].

وجدير بالذكر أن مدينة بلنسيه ذاع صيتها بكثرة ما أخرجته من كبار الوراقين والمشتغلين بالوراقة. فكانت بحق مركز إشعاع لهذا النشاط الحضاري الهام، وهي بذلك قد قدمت للعلم والمعرفة أجل الخدمات في سبيل المحافظة على الكتاب وصيانته وتجميله، ومن أبرع وراقيها خلف بن عمر البلنسي (ت بعد ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) أصله من شقر، وكان موصوفا بالبراعة والمهارة ودقة الضبط فيما يكتبه وينسخه من الكتب، حتى دفع كثير من الناس أثمانا غالية فيما كتبه من الكتب لنفاستها وجمال خطوطها وصحتها[115].

ومن بلنسية أيضا محمد بن علي بن عطية (ت حدود ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) (كان أنيق الوراقة رائقها، وتوارث الناس التنافس فيما كتب إلى اليوم، وكم حام كثير من الوراقين على سلوك طريقته فلم يدركوها)[116].

وكان على هذه الصفات من البراعة والإتقان في الخط ودقة النسخ أحمد ابن عبدالعزيز بن الفضل البلنسي (ت ٥٠٢هـ/ ١١٠٨م)[117]

وفي بلنسية قضى عبدالله بن الفضل اللخمي (ت بعد ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) شطرا من حياته وكان ماهرا في الخط، بارعا في النسخ، بديع الوراقة[118].

وإلى بلنسية هاجر العلامة الوراق محمد بن سليمان بن سيداري الكلابي (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) من قلعة أيوب، وقد خرج من بلده المذكور بعد أن تغلب العدو عليه بعد وقعة كتندة (٥١٤هـ/ ١١٢٠م) (فكان يبيع

(١١٤) ماهر حمادة: مرجع سبق ذكره (ص ١٧٥ - ١٧٦).
(١١٥) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (٢٩٧).
(١١٦) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٤٥٦).
(١١٧) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (٧٨).
(١١٨) ابن الأبار : نفس المصدر، ج ٢ (ص ٨٠٧).

الكتب في دكان له، وكان أبوه أيضا وراقا)، وتوفي بعد أن تجاوز عمره ثمانين سنة(١١٩).

وإلى مدينة غرناطة توجه الشاعر الأديب الوراق عبدالله بن صارة الشنتريني (ت ٥١٧هـ/ ١١٢٣م) وكان قليل الحظ في بلوغ أمانيه والوصول إلى مراكز الجاه لدى ملوك عصره، حتى اضطر أخيرا إلى الاشتغال بالوراقة، وكان يجيدها ويتقنها إلا أنه كان مملوء القلب يأسا وحرمانا فقال فيها:

أما الوراقة فهي أيكة حرفة ... أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب إبرة ... تكسو العراة وجسمها عريان(١٢٠)

وقد سبقت الإشارة إلى الوزير اليهودي ابن النغريله وزير حبوس بن ماكسن أمير غرناطة أنه كان لديه طائفة من الوراقين ينسخون له كتب اليهود ويجلدونها ثم يبعث بها إلى اليهود في الأندلس والمشرق وهو ما أدى إلى ازدهار الدراسات العبرية(١٢١).

وشاركت النساء في هذا النشاط العلمي، فكان منهن الخطاطات البارعات، وقد سبقت الإشارة إلى طائفة النساء اللاتي كن يكتبن في الربض الشرقي لقرطبة، وأنهن كن يكتبن القرآن الكريم بالخط الكوفي.

واشتهرت من بين نساء ذلك العصر فاطمة بنت زكريا بن عبدالله الشبلاري (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) فقد كانت بارعة في الخط، ضابطة لما تنسخه من الكتب، وكتبت في حياتها الطويلة التي بلغت ما يقارب تسعين سنة كتبا كثيرة(١٢٢).

وكانت طونة بنت عبدالعزيز بن موسى (ت ٥٠٦هـ/١١١٢م) إحدى فقيهات النساء، وكانت مع ذلك بديعة الخط، حسنة الكتابة(١٢٣).

---

(١١٩) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٤٨٠ - ٤٨١).
(١٢٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ١٣٥)، ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ٢ (٨١٦ - ٨١٧)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٩٣ - ٩٥)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣ (٤٣٩ - ٤٤٠) الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ١٤٧).
(١٢١) الطاهر أحمد : دراسات أندلسية (ص ٦٦).
(١٢٢) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (٦٩٤).
(١٢٣) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء (ص ٦٩٦).

ويمكن أن نضيف إليهن تجاوزا الأديبة صفية بنت عبدالله الربي (ت ٤١٧هـ/١٠٢٦م) كانت جميلة الخط، مشهورة بذلك وحدث أن عابت خطها إحدى صديقاتها فقالت:

وعائبة خطي فقلت لها اقصري فسوف أريك الدر في نظم أسطري
وناديت كفي كي تجود بخطها وقربت أقلامي ورقي ومحبري
فخطت بأبيات ثلاث نظمتها ليبدو بها خطي فقلت لها انظري[١٢٤].

ومع علمنا بأن هذه الخطاطة توفيت قبيل دخول عصر الطوائف بخمس سنوات إلا أنها تعطينا فكرة عن الاهتمام بالخط في الأوساط النسائية.

وفي ميدان التجليد وزخرفة الكتاب ورسومه، ارتقى الأندلسيون درجة رفيعة في هذا الفن، وأبدوا من المهارة والإتقان في تجليد الكتب والعناية بشكلها الخارجي شيئا عظيما، وكان هذا النشاط الفني يزيد الكتاب قيمة وجمالا ونفاسة، كما يرفع شأنه لدى هواة جمع الكتب ومحبيها، فكان الوراقون حريصين، بالإضافة إلى جمال خط الكتاب والعناية بصحة نسخة، أن يكون في أجمل صورة وأبهى حلة ليطابق مظهره الأنيق الفاخر ما يحتوي بداخله من علم نفيس.

وقد سبقت الإشارة إلى قصة الحضرمي الذي خرج في طلب كتاب له في سوق الوراقين بقرطبة وكيف أنه عثر على الكتاب بخط مليح وتجليد فاخر.

ولم يقتصر الأمر على التجليد فقط بل امتد إلى العناية بزخرفة الكتاب وما يتعلق بحاجته إلى التوضيح بالتصوير، ولعل أول إشارة نعثر عليها في هذا الميدان ما يُحكَى عن الأديب الشاعر حسان بن مالك بن أبي عبدة (ت ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م)، من أنه دخل يوما على المنصور بن أبي عامر وبين يديه كتاب أبي السرى، وهو يبدي استحسانه وتعجبه منه، فخرج حسان عازما على أن يصنف للمنصور كتابا أحسن وأجمل من ذلك الكتاب، فعكف

---

(١٢٤) الحميدي : الجلوة (ص ٤١٢).

على تأليف كتابه ربيعة وعقيل (وفرغ منه تأليفا ونسخا وتصويرا، وجاء به في مثل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه إياه فسر به ووصله عليه)[١٢٥].

ويشير الأستاذ جمال محرز إلى ان مكتبة ابن فرحون بغرناطة كانت ممتلئة بالكتب المصورة، وكان ابن فرحون يقوم بنفسه بالرسم والتصوير[١٢٦].

وقد نالت مدينة مالقة قصب السبق في صناعة الجلود عامة، وتجليد الكتب تجليدا فاخرا، فأسهمت بدور فعال في تطور هذا اللون من فنون الكتاب حتى بلغ تجليد الكتاب في الأندلس، من وراء إسهام هذه المدينة العظيمة، درجة رفيعة ليس في الأندلس فقط وإنما على مستوى العالم الإسلامي[١٢٧].

ورغم هذه الجهود العظيمة في زخرفة الكتاب وتجليده، وما يتعلق بمهماته الفنية في الأندلس فإنه لم يصلنا مع مزيد الأسف شيء من الكتب التي تشتمل على نماذج من التجليد الفاخر والزخرفة الرفيعة ليتسنى دراستها ومعرفة قيمتها الفنية، ولكن يذكر أن الأب Alocla أشار إلى أن هناك مخطوطات محلاة بالذهب والفضة والجواهر قدرت بمبلغ عشرة آلاف ريال[١٢٨].

وأخيرا فإن الكتاب العربي الإسلامي حظي في الأندلس بمكانة رفيعة ومنزلة سامية لا نظير لها في كثير من الأقطار الإسلامية، فقد كان الأندلسيون شديدي العناية بالكتاب علما وفنا، فكان فيهم من عُنِيَ بداخله وما يحتويه من معرفة وعلم مفيد وهم العلماء، وكان منهم من عُنِيَ بخطه وشكله ومظهره وتجارته وهؤلاء هم الوراقون الذين أسدوا للحضارة الإسلامية الأندلسية جهودا عظيمة تمثلت في المحافظة على كثير من ألوان الإنتاج العلمي الأندلسي

---

(١٢٥) الحميدي : جذوة المقتبس (ص ١٩٦).

(١٢٦) التصوير الإسلامي في الأندلس (مقال بالمجلة التاريخية المصرية ج ٩ - ١٠، سنة ١٩٦٠ - ١٩٦٢م) (ص ٣٤)، لم يشر إلى تاريخ مولد ابن فرحون أو وفاته.

(١٢٧) أحمد شلبي : التربية الإسلامية (ص ١٦٩ - ١٧٠) نقلا عن Adolf Grohmann. Thomas Arnold في كتابها The Islamic Book وانظر أيضا ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام (ص ١٨٣).

(١٢٨) اعتماد القصيري : فن التجليد عند المسلمين (ص ٣٠ - ٣١).

ولنا أن نتصور الوضع كيف يكون لو لم توجد طائفة الوراقين، شيء طبيعي أن يصاب كثير من التراث العربي والإسلامي بأفدح الخسائر بضياع كثير من أصوله ومخطوطاته، فلقد حفظ لنا الوراقون عن طريق النسخ والتجليد الفاخر عددا كبيرا من الكتب كفلا لها الحفظ والبقاء ونجّياها من يد الضياع، واستطاعوا بأعمالهم الجليلة تلك أن يبرهنوا على أنهم كانوا حراسا أمناء على التراث العلمي والأدبي للمسلمين.

وهناك عدد من الظواهر العلمية التي يمكن استنتاجها عن طريق ما أوردناه من تراجم لبعض الوراقين، ومنها ما وصف به البعض من أنه كان يتنافس فيما يكتب من الكتب، مثل هذه الإشارات التي لا حظناها في سير عدد من الوراقين تدلنا على أن الأندلسيين سواء كانوا علماء أو طلاباً قد بلغوا في تذوقهم الجمالي للخطوط شوطا كبيرا لدرجة أنهم كانوا يسارعون لاقتناء الكتب التي يكتبها أمهر الخطاطين، وأنهم كانوا يدفعون في سبيل الحصول عليها الأثمان الغالية، وهذا بلا شك يعطينا صورة واضحة لما وصلت إليه الحياة العلمية في المجتمع الأندلسي.

كما أن هناك ظاهرة تستحق الإعجاب، وهي تفوق النساء في هذا الميدان وبروز عدد كبير منهن كخطاطات وناسخات ماهرات وإنْ كنا لم نشر إلا إلى أسماء محدودة منهن إلا أن الأندلس أخرجت الكثير منهن، ممن جمعن إلى العلم والمعرفة، البراعة في الخط والكتابة الحسنة لكثير من الكتب.

كما يلاحظ الدارس لموضوع الوراقة تركز كثير من الوراقين في بلنسية، ولا يعرف على وجه التحديد السبب في ذلك، ولعل السبب كما يبدو يعود إلى هجرة الكثير منهم من الثغر الأعلى أي من سرقسطة، نتيجة للظروف السياسية والعسكرية والصراع المتواصل بين المسلمين والنصارى، فكانت بلنسية في الشرق تمثل ملجأ مناسبا لاستقرار الكثير منهم وإقامتهم بها وبممارسة مهنتهم الفنية هنالك.

(٣) التعليم في الأندلس

جدير بنا أن نشير إلى الجانب التعليمي في النشاط العلمي في عصر الطوائف، ذلك أن أهل الأندلس لم يبلغوا ما بلغوه إلا بما ساروا عليه من مناهج وطرق تعليمية أسهمت في بناء الكيان العلمي الشامخ للأندلس وأوصلت الأندلسيين إلى مدارج رفيعة في حقول المعرفة المختلفة.

وقد عني الأندلسيون بتعليم أنفسهم وأبنائهم وحرصوا أشد الحرص على مكافحة الجهل والتخلف والبطالة بينهم حتى وصفهم المقري بقوله: (وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الأنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة... وهم يقرؤون لأن يعلموا لا لأن يأخذوا جاريا، فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق من عنده حتى يعلم...)[١٢٩].

وحتى أبناء الطبقات الفقيرة نالوا اهتماما وعناية من قبل بعض الحكام الذين يسروا لهم طلب العلم وتحصيل المعارف، فعينوا لتدريس أبناء الفقراء معلمين ومربين وأغدقوا عليهم رواتب باهظة لدفعهم إلى الجد والإخلاص في التعليم[١٣٠].

واهتم الملوك والأمراء بتعليم أبنائهم وتنشئتهم نشأة خاصة تليق بما ينتظرهم من أعباء ومسؤوليات سياسية مستقبلا، فاستقدموا لتعليمهم كبار العلماء والمؤدبين، وهذا الأمير عبدالله ملك غرناطة يحدثنا في مذكراته عن هذه الناحية التعليمية فيقول: (وقد كنا معشر أهل بيت المملكة نرى من آكد ما نتأدب به من أعمال السياسة في طلب الرياسة، والسعي لها بكل الوجوه، وإحضار الأذهان... ولما كان المظفر جدنا رضي الله عنه قد أوتي من الدهاء والتمييز لأحوال الزمان مالا خفاء به، وأنه من آكد ما يجب له النظر في ترشيح أحد بنيه للولاية بعده، وأن ذلك لا يتم إلا بتمرينه وإعماله

(١٢٩) نفح الطيب، ج ١ (ص ٢٢٠ - ٢٢١)
(١٣٠) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢ (ص ٢٤٠ - ٢٤١ - ٢٤٩) محمد كرد علي: الإسلام والحضارة العربية، ج ١ (ص ٢٦٢)، هـ.ج ولز: معالم تاريخ الأنسانية، ج ٣ (ص ٨٣)، سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٩٥).

في جميع خدمته، كي يتدرب ولا يخفي عليه من أمور الدولة ما يحتاج إليه في نفسه، كنت من وفقه الله لبره والانصياع لوصيته فأمر بإخراجي من المكتب إلى التصرف بين يديه وقال لي - نضر الله وجهه - «معك من الكتابة وتلاوة القرآن ما يكفيك وهذا أولى ما تتعلم، فعليك بإحضار ذهنك لجميع ما يكون مني وما ينقضي في دولتي أيام هذه الفتن، فإن الزمان أشر، والأيام أقصر من أن تدرك، تعلم كل شيء يعنى به الملوك لأبنائهم»[131].

وعلى هذا فقد كان العلم مشاعا بين الناس جميعهم، متيسرا للفقراء منهم، فكان الشعب الأندلسي شعبا متعلما مثقفا حتى ندر أن يرى المرء طفلة أو طفلا بلغ الثامنة عشرة ولم يتزود بالعلم الكافي على الأقل لتأهيله للقراءة والكتابة [132].

وفي الوقت الذي لم يكن في أوروبا غير قلة بسيطة من الرهبان ممن تعرف القراءة والكتابة كان كل فرد في الاندلس تقريبا يقرأ ويكتب ويلم ولو بقدر من ألوان المعرفة[133].

نظـــام التعليـــم

كان نظام التعليم عند المسلمين يستمد روحه من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولهذا لا نعجب إذا رأينا الأندلسيين وقد أعطوا هذا الجانب اهتماما وعناية بالغين، فقد كان القرآن الكريم هو صلب التعليم الأولي ويضيفون إليه تعلم اللغة العربية، ودراسة الأدب والشعر مع العناية بالخط والكتابة، وهـذا النظام التعليمي أدى إلى توسيع دائرة الاهتمام العلمي مع ترسيخ معرفتهم بتلك العلوم منذ البداية، وكان له أبعد الأثر في صقل مواهب المتعلمين وتقوية ملكاتهم الأدبية فيما بعد[134].

---

(١٣١) التبيان (ص ١١ - ١٢).
(١٣٢) جلال مظهر : علوم المسلمين (ص ٨١).
(١٣٣) روم لاندو : الإسلام والغرب (ص ١٧٨)، محمد عثمان : المرأة العربية في الأندلس، مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث عشر (ص ١٠٦).
(١٣٤) ابن خلدون : المقدمة (ص ٥٣٨ - ٥٣٩) أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٣ (ص ٨ - ٩)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٦٣). عبدالبديع الخولي. الفكر التربوي في الأندلس، ص ٥٣ وما بعدها.

وقد أمدنا الفقيه المؤرخ الشهير ابن العربي (ت ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م) بنص قيم يوضح لنا المنهج التعليمي الذي سار عليه إبان نشأته العلمية وهو ما يعتبر تقريبا السمة العامة للنظام التعليمي الأندلسي، ويشير ابن العربي في ذلك النص إلى الطريقة التعليمية أو النظام الدارسي الذي وضعه والده له، فكانت بدايته بطبيعة الحال مع القرآن الكريم فدرسه وأخذ في حفظه وتم له ذلك وهو في التاسعة، ثم عين له والده ثلاثة من المعلمين، أحدهم لتدريسه القراءات، والثاني لتدريسه اللغة العربية، والثالث لتعليمه الحساب أو العدد وما يتصل بذلك من علم الفلك.. ويذكر ابن العربي أنه لم يتم العام السادس عشر حتى أتقن عشرة من أحرف القرآن وما يتصل بها من تجويده إلى جانب وقوفه على قسط جيد من اللغة العربية، و تمكن أخيراً من فهم كثير من مسائل الحساب والجبر والفرائض ومعها كتاب إقليدس إلى جانب إلمامه بشيء من علم الفلك، وقد كان أولئك المعلمون يتعاقبون على تدريسه من صلاة الصبح حتى العصر كل فيما يخصه[١٣٥].

هذه صورة واضحة لمنهج تعليمي اتّبعه أحد التلاميذ الأندلسيين وهو منهج بلا شك ـ رغم ما يكتنفه من مشقة في التلقين والتفهيم وجهد عسير متتابع وخصوصا إذا تذكرنا الفترة الزمنية ـ هو بلا شك يعد من أفضل المناهج وأقواها في بناء الكيان العلمي للفرد وتنشئته نشأة علمية حازمة تجعله أقوى وأقدر على تحصيل العلوم والمعارف وتزرع في نفسه الجلد والصبر في سبيل تحقيق ذلك.

ولكن ابن العربي الذي سار على ذلك النهج كانت له آراء نقدية في مجال التربية والتعليم، وكانت رحلاته وأسفاره العلمية ولقاؤه العلماء في مختلف الأقطار، ومشاهدته لطرائق ومناهج التعليم في تلك البلدان قد كونت لديه آراء ونظرات علمية متميزة، ففيما يتعلق بهذا الجانب نجد ابن العربي قد

---

(١٣٥) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٤٥٠ ـ ٤٥١). ولابن حزم رأيه في أن يتعلم الطفل الكتابة أولا ثم القراءة فحفظ القرآن ثم النحو وعلوم اللغة ثم العدد فالمنطق والطبيعيات فالتاريخ ثم الدراسات المتعلقة بما وراء الطبيعة، ولا يتناولها إلا من نضج علميا (انظر عبدالبديع الخولي، الفكر التربوي في الأندلس، ص ١٥٩ وما بعدها.

تناول نظام الأندلسيين في التعليم بنقده اللاذع فأشار إلى أن تعليم الطفل القرآن الكريم في بداية حياته الدراسية خطأ كبير، لانه يقرأ مالا يفهم ويدرس ما لا يعيه ذهنه، ودعا إلى البدء بتعليم اللغة العربية والشعر على سائر العلوم، لأن الشعر ديوان العرب، ثم ينتقل منه إلى تعلم الحساب وفهم مسائله، ثم ينتقل منه إلى قراءة القرآن ودراسته، إذ إنه عند ذلك يتيسر للتلميذ فهم القرآن وإدراك معانيه، ثم بعد ذلك ينظر في أصول الفقه فالجدل ثم الحديث وعلومه[١٣٦].

وقد أثنى ابن خلدون على هذه الطريقة غير أنه استصعب تطبيقها وممارستها في الواقع لأن أحوال الناس وعاداتهم تنافي تأخير قراءة القرآن وتعلمه، فهم حريصون على تقديمه لنيل المثوبة والتفاؤل ببركته في هذا الطور من النشأة. وخشية من أن يحدث للصبي - إذا ما أخر دراسة القرآن - من العوائق ما يصرفه عن العلم فيفوته تعلم القرآن وحفظه لأنه مادام تحت نظر والديه ومسؤوليتهما كان أسهل انقيادا وطاعة حتى إذا كبر وشب فربما قادته ظروف عيشه إلى اللهو والبطالة. ولو كان هناك يقين باستمرار الصبي في تحصيل العلم ومتابعة التعليم لكانت طريقة ابن العربي أحسن ما يؤخذ به في المشرق والمغرب[١٣٧].

وهناك من أعلام الأندلس من شارك بتجاربه وآرائه العلمية في الإدلاء بما هو أفضل في نظام التعليم، كأبي الوليد الباجي الذي أكد على صلاحية النظام التقليدي لوطنه، فحرص على أن يحفظ التلميذ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ومعرفة ما كان منه صحيحا أو غير صحيح، ودراسة أصول الفقه الذي يعين على فهم أحكام القرآن والسنة، كما أوصى بأن يتدرب تدريبا سليما على أصول النظر والمناقشة والنقد السليم لمسائل العلم[١٣٨].

---

(١٣٦) ابن خلدون : المقدمة (ص ٥٣٩).
(١٣٧) المقدمة (ص ٥٣٩ - ٥٤٠).
(١٣٨) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٢٣٣) (نقلا عن جودة عبدالرحمن، وصية القاضي، أبي الوليد الباجي ص ١٧).

ومن هنا يتضح لنا الإجماع السائد على أهمية دراسة القرآن الكريم في المرحله المبكرة من حياة المرء، ومحاولة زرع الاهتمام بهذا المصدر الصافي ليكون سلوكا وعملا إلى جانب كونه علما ومعرفة، وقد يكون هذا من أسباب عمق الاهتمام بالدراسات الدينية مستقبلا لدى التلاميذ وهو ما يفسر لنا سعة النشاط العلمي في هذه الدراسات.

مـراحل التعليـم

وفيما يتصل بمراحل التعليم، فقد كان يمر تقريبا بثلاث مراحل:

الأولى : يحفظ فيها التلميذ القرآن الكريم، والقراءة وبعض العلوم الأخرى.

الثـانية : يتلقى فيها دروسه وعلومه بشكل أوسع وأشمل، حيث أصبح بمقـدوره تلقّي شروح القرآن وقراءاته، وشروح الحديث وما يتصل بالفقه بالإضافة إلى بعض العلوم الإنسانية والعقلية.

الثالثة : يتجه فيها التلميذ إلى التركيز على ما يميل إليه من علم، أي إنها مرحلة تخصص في علم من العلوم التي درسها بشكل عام في المرحلة الثانية(١٣٩).

طـرائق التعليـم

ومن أشهر طرائق التعليم في ميداني العلوم الدينية والأدبية طريقة الإقراء، وفيها يعمد الشيخ إلى القراءة أو ينوب عنه أحد الطلبة، وبقية الحاضرين يكتبون، وهو خلال ذلك يصحح ويشرح. فمثلا العلامة أحمد بن عثمان ابن سعيد الأموي الداني (ت ٤٧١هـ/ ١٠٧٩م) أقرأ الناس القرآن بالروايات(١٤٠).

وقرىء على العلامة عبدالله بن سعيد الشنتجيالي القرطبي (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) صحيح مسلم في أسبوع بجامع قرطبة في موعدين طويلين، الغداة والعشية(١٤١).

---

(١٣٩) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٢١١ - ٢١٢).

(١٤٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٦٥).

(١٤١) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء (ص ٢٧٣).

كما أن العلامة أحمد بن عبدالله التميمي القرطبي (ت ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م) يروي عنه أبوالحسن بن مغيث بقوله: (كنت أختلف إليه لأقرأ عليه من كتب الأدب هنالك فدخلت معه يوما إلى الجامع في أول الوقت، فقال لي: اذهب إلى موضعي فانتظرني فإنّ عليّ قضاء حاجة. قال فتوارى عني وأنا أنظر إليه فدخل موضعا خفيا من الجامع وتوارى فيه وهو يحسب أن عيني ليست واقفة عليه، فرأيته يكثر الركوع والسجود ولا يفتر عن ذلك إلى أن قرب وقت الصلاة فخرج إلى موضع انتظاري له، فقلت له ياسيدي: عسى انقضت الحاجة قال: انقضت إن شاء الله، اقرأ)(١٤٢).

ومن طرائق التعليم أيضا الاملاء، وهو أن يتخذ العالم له مجلسا يضم طلبة العلم ثم يحدثهم من ذاكرته بما يحفظه من علم ومعرفة وطلبته يكتبون ذلك عنه ويسجلون في أوراقهم(١٤٣).

ومن أشهر مجالس الإملاء مجلس الحافظ عبدالرحمن بن فطيس (ت ٤٠٢هـ/١٠١١م) حدث عنه من حضر مجلسه أنه كان يملي على الناس الحديث وبين يديه مستمل يُسمع الناس ممن بعد مكانه عن الشيخ(١٤٤).

وممن جمع بين هاتين الطريقتين الإقراء والإملاء العلامة عبدالله بن فرج ابن غزلون اليحصبي الطليطلي (ت ٤٨٧هـ/١٠٩٤م) فقد كان عالما بالحديث والتفسير والأدب، وكان له مجلس حافل يقرأ عليه فيه التفسير ويتناوله بالشرح والإيضاح ويدعم أقواله بكثير من الأحاديث الشريفة(١٤٥).

كما أن المناظرة العلمية من طرائق التعليم، وفيها يطرح العالم مسألة من مسائل العلم أو حديثا من الأحاديث، ثم يلقي الأسئلة حول ذلك الموضوع، فالعلامة عبدالله بن أحمد بن عثمان الطليطلي (٤١٧هـ/ ١٠٢٦م) (كان يبدأ في المناظرة بذكر الله عز وجل والصلاة على محمد ﷺ، ثم يورد الحديث والحديثين والثلاثة والموعظة، ثم يبدأ بطرح المسائل من غير الكتاب

(١٤٢) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٦٤).
(١٤٣) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج ١ ص ١٦١.
(١٤٤) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ ص ٣٢٠.
(١٤٥) ابن بشكوال: نفس المصدر والجزء (٢٨٦).

الذي كانوا يناظرون عليه فيه)[١٤٦].

والعلامة فرج بن أبي الحكم عبدالرحمن بن عبدالرحيم اليحصبي الطليطلي (٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) كان فقيها محدثا (نوظر عليه في المسائل، وكان حفيل المجلس)[١٤٧].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أنه كانت هنالك مناظرات علمية حرة، أي إنها لا تتقيد بحلقات العلم أو مجالس الدرس في الجوامع والمساجد، بل تجري غالبا بين شخصين. وكان لهذه المناظرات دور كبير في إذكاء روح الاهتمام بالعلم ومحاولة الوصول إلى الحقائق وأصح الآراء العلمية ومن أشهر هذه المناظرات في هذا العصر ما كان يجري بين العلامة الفقيه الظاهري ابن حزم ومعاصره الفقيه سليمان بن خلف الباجي.

وكان ابن حزم الظاهري شديد الوطأة في مناظراته العلمية، حاد اللسان في جدله ونقاشه، وكان لحياته القاسية، وتكالب الظروف السياسية والاجتماعية ضده دور في تشكيل نفسيته القلقة، وحنقه على خصومه من فقهاء المالكية الذين اتحدوا على محاربته وتحطيم مذهبه ووصفه بالخروج والانحراف عن جادة الصواب، فأحرقت كتبه وطورد من مدينة إلى أخرى[١٤٨].

أخذ ابن حزم في الترحال حتى حل بميورقة ولكنه لم يسلم في تلك الجزيرة من نير خصومه، فقد التقى به هناك الفقيه المشهور أبو الوليد الباجي ودارت بين الاثنين مناظرات كثيرة، تجليا فيها بصورة واضحه وأبدعا فيما أتيا به من أدلة وبراهين، وكان الظفر والنجاح في تلك المناظرات سجالا بينهما. ويبدو أنّ الباجي ألحق بخصمه كثيرا من العنت من وراء تلك المناظرات، فخرج ابن حزم عن جزيرة ميورقة إلى حيث لا يوجد من يحط من شأن مذهبه[١٤٩].

---

(١٤٦) ابن بشكوال: نفس المصدر والجزء (ص ٢٦٢).
(١٤٧) ابن بشكوال : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦١
(١٤٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٣٢٨)، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٣ (ص ١١٥٣)
(١٤٩) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٩١)، الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٢٠٥).

وعلى الرغم من ذلك فان ابن حزم أثنى على أبي الوليد ووصفه بأنه من كبار علماء المذهب المالكي.[150].

ومن ضمن أقوال ذينك العالمين أن أبا الوليد خاطب ابن حزم بقوله (أنا أعظم منك همة في طلب العلم لأنك طلبته وأنت معان عليه تسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بائت السوق، فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال، رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة، فأفحمه)[151].

قال عبدالفتاح أبوغدة: والذي أراه أقرب إلى الصواب هو اعتذار الباجي، فقد قال الإمام الشافعي - رضي الله عنه - وقوله الفصل «لا تستشر من ليس في بيته دقيق، لأنه مدله العقل»[152].

وبرز أيضا في المناظرات من العلماء أبوبكر بن العربي الذي ناظر عددا من العلماء منهم أحمد بن محمد بن ورد التميمي (ت ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) وحدث أن تناظرا ليلة بحضرة بعض الفقهاء، فكانا يثيران العجب والدهشة مما أوتيا من علم ونباهة وذكاء، يتحدث ابن العربي فيظن السامع أنه ما ترك شيئا إلا أتى به، ثم يجيبه ابن ورد بأبدع جواب فينسى السامع ما سمع قبله[153].

كما ناظر ابن العربي الفقيه المجتهد عبدالرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، وكان من أبرع علماء وقته معرفة بالفقه ومسائله، وجرت بينه وبين أبي بكر ابن العربي لدى اجتيازه مالقه في أحد أسفاره مناظرات علمية رائعة في ضروب من المعرفة تنم عن قدرات كبيرة لدى الطرفين[154].

وكانت هذه المناظرات او كثير منها تحظى بتشجيع الملوك والأمراء وتجري

---

(١٥٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٩٦).
(١٥١) المقري : النفح، ج ٢ (ص ٧٧).
(١٥٢) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل (ص ٤٨).
(١٥٣) الداودي : طبقات المفسرين، ج ١ (٨٤ - ٨٥).
(١٥٤) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠٧).

بين أيديهم، وخاصة لدى بني عباد في اشبيلية الذي عنوا بالأدب والشعر، وبني الأفطس في بطليوس وخاصة في عهد المظفر صاحب الاهتمامات العلمية والأدبية ومؤلف الموسوعة المشهورة باسمه، وكذلك في طليطلة في بلاط المأمون الذي عُنِيَ بالعلوم العقلية، ومثله بنو هود في سرقسطة وخاصة في عهدي المقتدر الّعالم الطبيعي وابنه المؤتمن العالم الرياضي، ولا ننسى بلاط المعتصم ابن صمادح الذي كان يشهد ألوانا من المناظرات بين يدي المعتصم، وهو ما أشرنا إليه سابقا لدى حديثنا عن ملوك الطوائف ودورهم في ازدهار العلوم والآداب، وكان المتناظرون من العلماء يحظون بضروب من الإكرام والرعاية من أولئك الملوك والأمراء.

ومن طرائق التعليم أيضا الإجازة.

(ومعنى الإجازة في كلام العرب مأخوذ من جواز الماء الذي يسقاه المال من الماشية والحرث يقال منه: استجزت فلانا فأجازني إذا سقاك ماء لأرضك ولماشيتك... كذلك طالب العلم يسأل العالم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه والطالب مستجيز والعالم مجيز)[١٥٥].

وللإجازة أنواع كثيرة، أولها أن يجيز لمعين في معين، كقوله «أجزت لك الكتاب الفلاني أو ما اشتملت عليه فهرستي هذه»، وهي أعلى أنواع الإجازة. ثانيها أن يجيز لمعين في غير معين مثل أن يقول: «أجزت لك أو لكم جميع مسموعاتي أو جميع مروياتي». ثالثها أن يجيز لغير معين بوصف العموم مثل أن يقول: «أجزت للمسلمين أو أجزت لكل أحد أو أجزت لمن أدرك زماني، وقد أجاز العلامة أبو محمد بن سعيد الأندلسي لكل من دخل قرطبة من طلبة العلم[١٥٦]. ومثله القاضي الفقيه ابن رشد الذي أجاز علمه وكتبه لجميع المسلمين سنة ٥٢٠هـ[١٥٧].

رابعها الإجازة للمجهول أو بالمجهول. مثل أن يقول أجزت لمحمد بن خالد

---

(١٥٥) ابن الخطيب البغدادي: الكفاية في علم الرواية (ص٣١٢)، ابن الصلاح، علوم الحديث (ص١٤٥).
(١٥٦) ابن الصلاح : علوم الحديث (١٣٤ - ١٣٥ - ١٣٦ - ١٣٧).
(١٥٧) ابن خير: فهرست ما رواه عن شيوخه (٤٥٣ - ٤٥٤).

الدمشقي، وهناك طائفة كبيرة من الناس تشترك في هذا الاسم والنسب ثم لا يعين المجاز له منهم، وهي إجازة فاسدة. خامسها الإجازة للمعدوم وللطفل الصغير، وقد اختلف في جوازها، ومثالها أن يقول أجزت لمن يولد لفلان، فإن أشرك المعدوم مع الموجود كان أقرب للجواز من الأول، وإن عينها على المعدوم فقط فقد اختلف فيها وأجازها الخطيب البغدادي، وكذلك أجازها للطفل الصغير. سادسها أجازة مالم يتعلمه أو يحصله المجيز بعد ليرويه المجاز له إذا سمعه المجيز بعد ذلك. وقد رُوِيَ عن أبي الوليد يونس بن مغيث القرطبي أنه سئل الإجازة بجميع مارواه إلى تاريخها وما يرويه بعد ذلك فامتنع من ذلك، فغضب السائل فقال له بعض أصحابه: ياهذا أيعطيك مالم يأخذ؟ هذا محال. قال عياض: وهذا هو الصحيح. سابعها إجازة المجاز مثل أن يقول الشيخ «أجزت لك مجازاتي أو أجزت لك رواية ما أجيز لي روايته» واختلف في صحتها والأرجح قبولها[158].

وهناك شروط للإجازة. منها ما اشترطه الإمام مالك بن أنس، رحمه الله تعالى، وهي أن يكون الفرع مطابقا للأصل، وبالتالي أن يكون المجيز عالما بما يخبر به ثقة في دينه وروايته، والثالث أن يكون المستجيز من أهل العلم فلا يضع العلم إلا عند أهله[159].

وقد تقدم الإجازة على وجهين شفوية أو تحريرية. والشفوية أقدم عهدا، وأول من منحها أبو هريرة إلى بشر بن مهتك، حيث قال: كتبت عن أبي هريرة كتابا، فلما أردت أن أفارقه قلت يا أباهريرة إني كتبت عنك كتابا فأرويه عنك؟ قال نعم أروه عني. أمّا الإجازة التحريرية ففيها يوضح الشيخ ما يجيزه للطالب أو يجيزه بإطلاق، وهنا يحدد الشيخ تاريخ مولده ووطنه وأسماء شيوخه، وما يجب أن يروى عنه عامة[160].

والإجازة أصلا وضعت كضمان لعلم الطالب وقدرته على نقل هذا

---

(158) ابن الصلاح : علوم الحديث (ص ١٣٧) وما بعدها.
(159) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ١٥).
(160) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٤١٤).

العلم، وكانت مع الحديث ثم انتقلت إلى العلوم الأخرى، ولكن مع تغير الأحوال وتطور الزمان فقدت هذه الغاية السامية وأصبحت أشبه بالفوضى والعشوائية والمجاملة دون أن تعني مهارة حاملها في العلم او تفوقه فيه، ولهذا لم يرتضها كثير من العلماء، حتى قال أبو ذر الهروي: «لو صحت الإجازة لبطلت الرحلة»[١٦١].

وألف أبوالعباس وليد بن بكر السرقسطي (٣٩٢هـ/ ١٠٠١م) كتابا سماه «الوجازة في صحة القول بالإجازة» وضمن كتابه المذكور إشارات واضحة إلى بعض الإجازات الفاسدة التي لا يركن إليها ولا يلتفت إليها[١٦٢].

الحفظ كظاهرة في التاريخ التعليمي الأندلسي

ومن الظواهر العلمية التي يدهش لها الدارس في التعليم الأندلسي ظاهرة الحفظ التي اشتهر بها عدد كبير من العلماء والفقهاء الأندلسيين، وما من شك إنها نابعة أصلا من المنهج التعليمي الذي التزموه منذ نشأتهم. فالطفل كان يحفظ القرآن الكريم وعددا كبيرا من الأحاديث في سن لا تتعدى الخامسة عشرة. هذا إلى ما كان يتمتع به أولئك العلماء من استعداد ذهني وقدرة على الاستيعاب، ويلحظ الدارس لسيرهم أنهم كانوا يرون في شرب البلاذر فائدة كبرى في تنشيط وتقوية الذاكرة، فالعلامة عبدالله بن إبراهيم الكتامي (تُوُفِّيَ حوالى ٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) كان يشربه باستمرار، ويقال إنه انتفع به، ولكنه لم ينج من آثاره الجانبية فقد أورثه متاعب نفسية واضطرابات عصبية[١٦٣].

وممن لمع اسمه في الحفظ عبدالله بن عيسى الشيباني (ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) كان يحفظ صحيح البخاري وسنن أبي داود، وأخذ قبل وفاته بمدة في حفظ صحيح مسلم[١٦٤].

---

(١٦١) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٠٢).

(١٦٢) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣٦٠)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ١٤٩).

(١٦٣) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (٢٩٩).

(١٦٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٩٦).

والعلامة عبدالله بن محمد بن مالك (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) كان حافظا لكتاب معاني القرآن للنحاس، وقد قرأه على تلميذه محمد بن فرج الفقيه[١٦٥].

وحفظ الفقيه عبدالرحمن بن قاسم (٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) موطأ مالك ومدونة سحنون[١٦٦].

ويشير المراكشي في قصة رواها إلى لقاء تم بين الطبيب أبي مروان عبدالملك ابن زهر (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) والأديب الشاعر عبدالمجيد بن عبدون (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) وفيها يثني أبومروان على ابن عبدون. ويصفه بأنه إمام الأندلس وأديبها، وأن أيسر محفوظاته كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني[١٦٧].

وهكذا يتبين لنا مدى ما تمتع به عدد من علماء الأندلس من قدرات واسعة على الحفظ، ولو أننا تصفحنا بعضا من تلك الكتب التي حفظها البعض كصحيح البخاري وسنن أبي داود، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لهالنا ما نسمعه عن أولئك الأعلام، ولكن الإخلاص في طلب العلم والرغبة الصادقة فيه هونت عليهم كثيرا من ألوان المشقة والنصب.

وجدير بالذكر ونحن نتحدث عن طرق التعليم عند الأندلسيين أن نشير إلى أن الأندلسيين اهتدوا إلى الكشف عن الطريقة العلمية الحديثة في تعليم العميان، وهي الطريقة التي يطلق عليها طريقة «برايل»، فقد كان الأندلسيون في عصر ملوك الطوائف يستخدمونها في تعليم الأطفال الأَكِفَّاء، وإلى هذه الطريقة يشير ابن حزم الأندلسي فيقول (واجب على المكلف بيان الحق ونصره بأقصى ما يقدر عليه، ولقد أخبرني مؤدبي أحمد بن محمد بن عبدالوارث ـ رحمه الله ـ أن أباه صور لوالد كان له ولد أعمى أكمه، حروف الهجاء أجراما من قير ثم ألمسه إياها حتى وقف على صورها بعقله وحسه، ثم ألمسه تراكيبها وقيام الأشياء منها حتى تشكل الخط وكيف يستبان الكتاب

---

(١٦٥) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء (٣٠٣).
(١٦٦) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس، (ص ١٠٨).
(١٦٧) المعجب (ص ١٣٥)، وانظر قصة اللقاء المذكورة (ص ١٣١) وما بعدها.

ويقرأ في نفسه، ورفع بذلك عنه غصة عظيمة)[١٦٨].

وهكذا يتبين لنا أنّ الأندلسيين كان لهم قصب السبق في اكتشاف هذه الطريقة التعليمية الهامة التي لا تستغني عنها طائفة ليست بقليلة في كل مجتمع من المجتمعات الإنسانية ونلاحظ أيضاً مما تقدم مدى حرص الأندلسيين على العلم والمعرفة وتعليم أبنائهم حتى ولو عاق دون ذلك عوائق حسّيه وجسديّة.

أماكـــن التعليـــم

مما يستوقف الدارسين لتاريخ الأندلس وحضارتها، عدم وجود المدارس في ذلك القطر، رغم ما بلغه الأندلسيون من تفوق ورقي علميين، ولم تظهر المدارس في الأندلس إلا في عصور متأخرة، وبالذات إبان حكم بني الأحمر في غرناطة.

وما من شك أن المسجد عند المسلمين كان يؤدي رسالة أكبر مما يتصور البعض من أنـه للعبادة فقط، فهو إلى جانب ذلك مركز إشعاع علمي للمجتمع ومنار هدى للناس، وظل المسجد على هذا الحال حتى ظهرت المدارس في المشرق فحجبت عن المسجد هنالك لونا من ألوان نشاطه الديني والفكري، وأما الأندلسيون فقد ظلوا على التزامهم بوظيفة المسجد الأولى وكونه موضعا للعبادة والعلم أيضا، وهو ما أشار إليه المقري بقوله: (ليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرؤون جميع العلوم في المسجد بأجرة)[١٦٩].

---

(١٦٨) ابن حزم: التقريب لحد المنطق، ص١٩٢ ـ وانظر عبداللطيف شرارة. ابن حزم رائد الفكر العلمي. ٨٠.

(١٦٩) نفح الطيب، ج ١ (ص ٢٢٠). ويذكر ناجي معروف أن المدارس المستقلة في الإسلام نشأت قبل المدرسة المشهورة المعروفة بالنظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك ببغداد سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٤م) وأورد نصوصا هامة تثبت ذلك منها ما أشار إليه السبكي من المدارس التي عرفت قبل نظام الملك مثل تلك المدرسة المعروفة بالمدرسة البيهقية بنيسابور، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضا والتي بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود الغزنوي، وهناك مدرسة ثالثة بنيسابور بناها إسماعيل بن علي بن المثنى الواعظ ومدرسة رابعة بنيسابور بنيت للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، كما أن محمد بن الحسن بن فورك (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م) نسب إليه بناء مدرسة بنيسابور.

وفي مصر بنى الحاكم بأمر الله دار العلم بالقاهرة ولما زالت الخلافة الفاطمية إنشأ صلاح الدين (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) مدارس لتدريس المذهب الشافعي والمالكي وذلك اقتداء بنور الدين زنكي =

ومـا أشـار إليه ابن فرحـون في معـرض ترجمتـه لأبي على الصـدفي (ت ٥١٤هـ/ ١١٢٠م) من أنـه لما عاد إلى الأنـدلس سنـة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) استقر بمدرسة مرسية، فرحل إليه الناس[١٧٠]. وهي مسألة لا تصمد للنقد، فإن المؤرخين الذين ترجموا لأبي علي كابن بشكوال وابن الأبار وغيرهم لم يشيروا إلى تلك المدرسة بتاتا، في حين أن ابن فرحون الذي توفي (٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م) قال بذلك رغم الفارق الزمني الكبير بينه وبين عصر أبي علي ولهذا لا يُبنى على كلامه، وبالتالي فإن مرسية لم تشهد على أرضها في ذلك العصر قيام مدرسة من المدارس.

والحق أن المدارس ظهرت بصورة قاطعة لا تقبل الشك في القرنين السابع والثامن الهجريين كمدرسة صحن البرتقال بمالقة، وكان من بين من درس بها الفقيه محمد بن يوسف الطنجالي (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م). كما انشئ بمالقة مدرسة أخرى على يد العلامة الصوفي محمد بن محمد بن عبدالرحيم (عاش فيما بين ٦٧٨ و٧٥٤هـ). وشهد هذا اللون من المؤسسات العلمية نهضة رائعة في عهد السلطان الغرناطي أبو الحجاج يوسف من بني الأحمر الذي حكم في الفترة ما بين (٧٣٣ ـ ٧٥٥هـ/ ١٣٣٢ ـ ١٣٥٤م)[١٧١].

وبناء على ما تقدم فإن المسجد أو الجامع ظل هو المكان الرئيسي لتلقي العلوم والمعارف في الفترة موضوع البحث، وحتى في العصور التي شهدت قيام بعض المدارس في الأندلس، فإن تلك المدارس رغم ممارستها لوظيفتها

==

(ت ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م)، الذي بنى بدمشق وحلب مدارسَ للشافعية والحنفية وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمصر، وأول المدارس بمصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع المذكور، ثم اقتدى به أولاده في إنشاء المدارس في مصر والشام، ويذكر أن من أوائل المدارس بالشام ما بناه الأمير صادر بن عبدالله للحنفية فقد أسس لهم مدرسة (٣٩١هـ/ ١٠٠٠م)، كما أسس رشأ بن نظيف المقرىء بدمشق «دار القرآن» في حدود سنة اربعمائة هجرية (١٠٠٩م). وتبع تلك المدارس كثير من المدارس في المشرق، وقد تتبع تاريخها ونظمها الأستاذ ناجي معروف وخصص لها عددا من أبحاثه وكتبه (انظر ناجي معروف: نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، مطبعة الأزهر بغداد، ١٣٨٥هـ (٥ ـ ٩)، وكذلك علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعة الإرشاد بغداد، ١٣٩٣هـ (ص، ٤، ٥، ٦) وما بعدها، وانظر ايضا عن المدارس ما بعد النظامية، المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة (ص ١٣١) وما بعدها.

(١٧٠) الديباج المذهب، ج ١ (ص ٣٣١).

(١٧١) محمد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ـ ٣٨٨).

السامية في التعليم والتثقيف فإن المسجد أو الجامع بقي يؤمه أفواج العلماء وطلبة العلم لتلقي دروسهم فيه والتماس البركة في أجوائه القدسية.

وكان جامع قرطبة الشهير يمثل أحد مراكز الإشعاع العلمي الباهر، ولم تتزعزع مكانته بعد زوال الخلافة الأموية فقد ظل يؤدي رسالته العلمية على خير وجه، وكان تاريخه العريق، وما أضفاه الحكام الأمويون عليه من ضروب التشييد والإصلاح والتزيين قد جعل منه أشهر جامع في الأندلس على وجه الإطلاق، وكان يمثل لدى الأندلسيين معلما من معالم حضارتهم الزاهرة ولهذا فقد شهد هذا الجامع في تاريخه التعليمي مئات الآلاف من العلماء وطلبة العلم الذين لم تنقطع صلتهم به حتى سقوط قرطبة في أيدي النصارى.

وفي جامع قرطبة كانت تعقد مجالس العلم المشهورة، ومنها مجلس العلامة الأديب عبدالملك بن زيادة الله السعدي التميمي (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، الذي كان يزدحم بمئات العلماء وطلبة العلم يأخذون عنه علومه، ولما رأى كثرتهم ذات يوم أنشد:

إني اذا احتوشتني ألف محبرة   يكتبن حدثني طورا واخبرني
نادت بعقرتي الأقلام معلنة   هذي المفاخر لاقعبان من لبن[١٧٢]

ولم يكن جامع قرطبة يؤدي رسالته العلمية وحده، بل كان يشاركه في ذلك بقية الجوامع في مختلف المدن الأندلسية الأخرى، وخصوصا ما كان منها في عواصم ملوك الطوائف كبطليوس، وطليطلة، ودانية، وغرناطة وسرقسطة، وبلنسية، كانت كلها تؤدي رسالتها العلمية بأمانة ودقة ونشاط كبير، وفي تلك المساجد والجوامع كان العلماء يعقدون مجالسهم العلمية وحلقاتهم الدراسية ويجرون فيها المناظرات العلمية في شتى فروع المعرفة المختلفة وكان يشهدها آلاف الطلبة بمختلف ميولهم وتخصصاتهم العلمية.

وكان بكثير من المساجد والجوامع مكاتب لتعليم الأطفال وتربيتهم ويقوم على أداء هذه المهمة المعلمون أو المؤدبون، وقد ظهر المكتب في الأندلس

---

(١٧٢) الحميدي : جذوة المقتبس (ص ٢٨٤ - ٢٨٥).

في فترة مبكرة، فالزبيدي يذكر أن الغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م) كان يمارس مهنة التأديب في الفترة التي دخل فيها عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٦م)(١٧٣)

والمكتب عبارة عن مكان يتسع لمجموعة من الأطفال، ويكون مُهيأً بطبيعة الحال لتلقي العلم والتربية السليمة من قبل المؤدبين، وقد يكون المكتب غرفة في منزل، أو حانوتا يكترى، أو فناء أو غير ذلك، ومن أشهر المكاتب في الأندلس ما أمر بتشييده الخليفة الحكم المستنصر، وهي سبعة وعشرين مكتبا، منها ثلاثة ألحقت بالمسجد الجامع بقرطبة، والباقي فُرقت على أرباضها وعَيَّنَ لها المعلمين والمؤدبين(١٧٤).

ورغم انحصار التعليم في المساجد والجوامع إلا أن هناك كثيراً من حلقات العلم وندوات الدرس كانت تنعقد في مواضع أخرى، فقد عرفت البيوت والمنازل كثيرا من حلقات الدرس، كما تلقى طلبة الطب كثيرا من دراساتهم وتجاربهم في أماكن اخرى غير المساجد، ونجد أن الاهتمام بالفلسفة لدى البعض قد دفعهم إلى قراءة كتبها وتدارس مسائلها في مواضع خاصة غير المساجد(١٧٥).

كما أن من المفيد أن نشير إلى أن علوما أخرى كالفلك والرياضيات والكيمياء وغيرها من العلوم التطبيقية كانت حلقاتها الدراسية تتم في أماكن أخرى تسمح بإجراء بعض التجارب العلمية وتحتاج إلى ممارسة نشاط قد لا يتلاءم مع مكانة المسجد ومنزلته، وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بوجود مثل تلك المواضع التي تجري فيها الدراسات العلمية التطبيقية.

وفي ميدان العلوم الدينية، نرى أحد العلماء وهو فرج بن أبي الحكم بن عبدالرحمن اليحصبي (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) يحبس داره على طلبة السنّة(١٧٦).

(١٧٣) طبقات النحويين، ص ٢٥٤.
(١٧٤) ابن عذاري : البيان المغرب، ج ٢ (ص ٢٤٠ - ٢٤١).
(١٧٥) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس (ص ١٤٥). وانظر عبدالبديع الخولي، الفكر التربوي في الأندلس، ص ٦٤، ٦٥.
(١٧٦) أرسلان : الحلل السندسية، ج ١، (ص ٢٢).

وكان للعلامة علي بن محمد بن هذيل ضيعة يخرج لتفقدها، فيصحبه إليها كثير من طلابه، وما أن يجلس بها حتى يتدارس معهم العلم (فمن قارئ ومن سامع وهو منشرح لذلك طويل الاحتمال على فرط ملازمتهم ليلا ونهاراً)[177].

وشهد عدد من منازل العلماء نشاطا علميا جيدا، فقد قرأ العلامة طاهر ابن خلف بن خيرة على أبي علي رياضة المتعلمين لابي نعيم بمنزل ابي داود المقري وفرغ من ذلك سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م[178].

ومن رواية العلامة زاوي بن مناد الصنهاجي (ت ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م)، ما قرئ على أبي علي وهو يسمع بمنزله في مرسية سنة (٥٠٨هـ/ ١١١٤م)[179].

والأديب محمد بن خليد (في القرنين الخامس والسادس الهجريين) سمع مقامات الحريري من العلامة أبي الحجاج القضاعي بالمرية، في حانوت بباب الزياتين منها[180].

وبناء على ما تقدم يتبين لنا أن النشاط العلمي لم يكن محصورا في أبهاء المساجد والجوامع بل تسرب ذلك النشاط إلى كثير من المواضع سواء في المنازل أو في بعض الحوانيت، أو في بستان من البساتين أو غير ذلك من الأماكن التي يرتاح إليها الأستاذ وطلبته ويتحقق فيها العلم والفهم.

المـرأة والتعليـم

لم تكن المرأة الأندلسية بمنأى عن ساحة النشاط العلمي في المجتمع الأندلسي، فقد تلقت المرأة نصيبا وافرا من العلم والمعرفة، والأندلسيون لم يفرقوا في التعليم بين الرجل والمرأة أو الصبي والصبية، بل رأوا من حسن التربية أن تفقه المرأة دينها وتأخذ بشيء من الأدب، وفي عصر ملوك الطوائف

---

(١٧٧) الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج ٢ (ص ٤١٧) (أدرك هذا العلامة أواخر عصر ملوك الطوائف ثم ارتحل إلى المشرق ومات به). انظر: نفس المصدر والجزء والصفحة وما بعدها.

(١٧٨) ابن الأبار: المعجم (ص ٩٥).

(١٧٩) ابن الأبار: نفس المصدر (ص ٩٢ - ٩٣).

(١٨٠) ابن الأبار: نفس المصدر، ج ٢ (ص ٤٩٥).

لقيت المرأة عناية كبيرة، وكانت بعض النساء تقوم على تعليم بنات جنسها، فقد كان لحزم المعلم من أهل قرطبة ابنة تقوم بالتدريس والتعليم، ومن الطبيعي أن من تعلم هن النساء، وكان أبوها وأخوها يعلمان التلاميذ، وكان بيتهم أشبه بالمدرسة[181]. ويظهر أنه كان واسعا بحيث يستوعب ثلاث مجموعات، مجموعتين من التلاميذ، ومجموعة من الفتيات.

والأديبة مريم بنت أبي يعقوب الفصولي (كانت حية بعد ٤٠٠هـ/١٠٠٩م) كانت تعلم النساء وتعطيهن دروسا في الأدب مع الالتزام بالصون والعفاف، وكانت باشبيلية[182].

كما أن العلامة المقرىء عثمان بن سعيد بن عثمان المقرئ (ت ٤٤٤هـ/١٠٥٢م) أقرأ بمدينة المرية إحدى النساء الماهرات في القراءات وتدعى ريحانة فقرأت عليه القرآن بها، وكانت تقعد خلف ستر فتقرأ، ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف، فأتمت الأحرف السبعة عليه، وطلبته الإجازة فرفض ولكنه كتبها لها فيما بعد[183].

ومن أشهر معلمات النساء العروضية مولاة عبدالرحمن بن غلبون (ت ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) من بلنسية، وكانت قد أخذت علومها عن مولاها، فبرعت في النحو واللغة والعروض حتى قال أبو داود سليمان بن نجاح: أخذت عنها العروض وقرأت عليها النوادر لأبي على القالي والكامل للمبرد، وكانت تحفظ الكتابين عن ظهر قلب[184].

وكان الأديب محمد بن الكتاني متفننا في علوم مختلفة، وكان يشتري القيان والجواري الحسان، ثم يقوم بتعليمهن وتدريسهن مختلف أنواع العلوم، حتى إذا برعن فيها باعهن بأثمان باهظة، يقول في إحدى رسائله لأحد أصحابه: (.... في ملكي الآن أربع روميات كن بالأمس جاهلات وهن الآن عالمات

---

(١٨١) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٨١) ولم يذكر ما يدل على عصرهم ولكنه على كل حال يعطي فكرة عن دور المرأة التعليمي.

(١٨٢) الحميدي : جذوة المقتبس (٤١٢)، ابن بشكوال: الصلة، ج ١، (٦٩٤).

(١٨٣) الضبي : بغية الملتمس (ص ٣٩٩).

(١٨٤) المقري : نفح الطيب، ج ٤ (ص ١٧١).

حكيمات منطقيات فلسفيات هندسيات موسيقاويات واسطرلابيات، معدلات نجوميات نحويات عروضيات أديبات خطاطات تدل على ذلك لِمَنْ جَهِلهن الدواوينُ الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه وغير ذلك من فنونه وعلوم العرب من الأنـواء والأعاريض والأنحاء وكتب المنطق والهندسـة وسـائـر أنـواع الفلسفة، وهن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ويضبطنه فهما لمعانيه ولكثرة تكرارهن فيه. . .)[185].

ورغم أن الكتاني كان مبالغا في تسطير تلك الأوصاف إلا أنه يلوح لنا صدق بعض ما وصفه إذا علمنا أن أمير السهلة ابن رزين اشترى منه إحدى قيانه بثلاثة آلاف دينار[186].

وبناء عليه فإن المرأة الأندلسية نالت نصيبا طيبا من التعليم، فظهر بين نساء الأندلس فقيهات واديبات وشاعرات، وسوف نشير إلى بعضهن لدى حديثنـا عن العلوم والآداب فالفقيهة منهن نذكرها في الفقه، والأديبة في الأدب، والشاعرة في الشعر. . . الخ.

وأخيرا فإن ميدان التعليم في الأندلس كان قناة هامة من قنوات النشاط العلمي الكبير، وكانت آثاره التربوية تنعكس بجلاء على كثير من العلماء والأدباء، فَغُرِسَ في نفوسهم كثير من الصفات العلمية الجادة التي دفعتهم إلى مزيد من التحصيل واكتساب العلوم والآداب وكان عصر ملوك الطوائف قد شهد بعض آراء العلماء الذين نادوا بتصحيح نظام التعليم وإدخال تعديل جديد عليه يختلف عن نظامه السابق، ولكن النظام التعليمي الأندلسي بقي على حاله لمطابقته لواقع حياة الناس وعاداتهم وأحوالهم، ومع ذلك فقد أثمر هذا النظام ثماره اليانعة الطيبة، وكم من عالم مشهور أو حافظ كبير أظهرته تلك الكتاتيب الصغيرة وزرعت في نفسه الهمة العالية والرغبة الصادقة في تحصيل المعارف والصبر على شدائدها حتى ظهر في الأندلس أعلام كبار لا تزال بعض آثارهم تحتل الصدارة في المكتبة الإسلامية.

---

(١٨٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٣١٩ - ٣٢٠).
(١٨٦) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٣٢٠).

القسم الثاني
العلوم والآداب في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول

العلـــوم الدينيــة

(١) الفقـــه

نظرا لارتباط هذا العلم بالدين الإسلامي وعمق اتصاله بمصادره الكريمة المتمثلة في كتاب الله عز وجل والسنة المطهرة، فقد نال من المسلمين عناية بالغة. فتوفر كثير من الفقهاء على دراسة هذا العلم وتيسير قواعده وتوضيح تعـاليمـه للمسلمين لتكون أيسر فهما وأسهل معرفة لأذهانهم فيستقيم به سلوكهم ومعاملاتهم الدينية والدنيوية، وتنتظم به أحوالهم وعلاقاتهم المختلفة.

وظهرت المذاهب الفقهية في ديار الإسلام فكان أشهرها المذهب المالكي، نسبة إلى مالك بن أنس إمام دار الهجرة، والمذهب الشافعي نسبة للإمام محمد بن إدريس الشافعي، والمذهب الحنبلي نسبة للإمام أحمد بن حنبل، والمذهب الحنفي نسبة للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت، إلى جانب بعض المذاهب الأخرى التي لم تصمد بمرور الزمن وتغير الأحوال فكان في الأندلس مذهب الأوزاعي[1] الذي أدخله إليها بعض أتباع الأوزاعي كصعصعة بن سلام (ت ١٩٢هـ/ ٨٠٧م)[2]، وكان هذا المذهب هو المذهب السائد في بلاد الشام، ولكن لم يلبث أن ضعف شأنه بموت العارفين به ولم يبق منه سوى ما يوجد في كتب الخلاف[3].

وكـان للرحـلات العلمية التي قام بها الأنـدلسيون في فجـر الحضـارة الأندلسية أثر بالغ في نقل المذهب المالكي إلى الأندلس، وينسب إدخاله إليها إلى فقيهين جليلين هما زياد بن عبدالرحمن بن شبطون (ت ١٩٩هـ/ ٨٠٤م) والغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م) وكلاهما رحلا إلى المشرق وقابلا الإمام مالك بن أنس واستمعا إليه وأخذا عنه علمه ومعرفته في الفقه، ولما عادا إلى الأندلس نشرا ما حملاه من علوم ومعارف فقهية.

---

(١) نسبة إلى الإمام عبدالرحمن بن عمرو بن محمد، والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع بطن من حمير، ولد ببعلبك سنة ٨٨هـ/ ٧٠٦م) ونشأ بالبقاع ثم نقلته أمه إلى بيروت، فدرس الحديث والفقه وبرع فيهما فكان إمام أهل الشام في ذلك وكانت وفاته سنة ١٥٧هـ/ ٧٧٣م. بلبنان (ابن زيد الموصلي: محاسن المساعي ص ٥٧ - ٥٩)، ابن قتيبة: المعارف (ص ٢١٧)، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ١ (ص ١٧٨). إلا أن الأخير خالف الاثنين المتقدمين بقوله إن أصل الأوزاعي من سبي السند، ولكن الصحيح ما أشرنا اليه.

(٢) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس (ص ٢٠٣).

(٣) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج ١ (ص ١٨٢).

ويبدو أن زيادا كان له الأثر الأكبر في انتشار المذهب المالكي وتعريف الناس به أكثر من معاصره الغازي، الذي كان بدوره أحفظ لموطأ مالك من زياد المذكور.

وأخذ المذهب المالكي بعد ذلك ينتشر على أيدي الفقهاء وأتباع الإمام مالك من أهل الأندلس، ومما زاد في هذا الانتشار ما أشار إليه ابن حزم -على حد رأيه- من أن المذهب المالكي انتشر بالرياسة والسلطان ذلك أن يحيى بن يحيى الليثي أحد الدارسين من الأندلسيين على يد الإمام مالك، بلغ منزلة سامية في الدولة الأموية، حتى كان الأمويون يستشيرونه في تعيين القضاة، فكان لا يشير إلاّ بأصحابه من المالكيين، والناس حريصة على بلوغ المناصب والمراتب فسارعت إلى دراسة المذهب المالكي والالتزام به للظفر بالجاه والمنزلة في الدولة الأموية. هذا فضلا عن حرص الأمير هشام بن عبدالرحمن على نشر المذهب المالكي.

ويضاف إلى عوامل انتشار المذهب المالكي في الأندلس ما يذكر أن كثيراً من طلبة العلم الراحلين إلى المدينة المنورة حيث الإمام مالك، كانوا يحملون معهم إلى إمامهم أخبار وطنهم وسير حكامه، فبلغت أخبار سيرة الأمير هشام التقي العادل أسماع الإمام مالك فأثنى عليه وقال: (وددت أن الله زين موسمنا به)، وما لبث أن انتقل هذا الثناء إلى الأمير هشام الذي سر به وارتاح إليه فمال من حينه إلى مذهب الإمام مالك وأخذ في بثه ونشره[4].

وعليه فقد ساد المذهب المالكي الأندلس، وعم جميع أقطارها وشاع في جميع حلقات العلم وألوان الدراسات الفقهية، إلا أن ذلك لم يمنع دخول بعض المذاهب الفقهية الأخرى إلى الأندلس، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تجاري المذهب المالكي أو تنافسه على مكانته، فكان هناك فقهاء في الأندلس يتبعون مذاهب أخرى، كالمذهب الظاهري وأشهر اصحابه الإمام الظاهري أبو محمد علي بن حزم الفقيه المشهور، والمذهب الحنفي ويمثله بعض الفقهاء

---

(٤) انظر في تفصيل دخول وانتشار المذهب المالكي في الأندلس الحميدي: الجذوة، ص ٢٤٤ - المقري: نفح الطيب، ج ٣ ص ٢٣٠ - سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص ٣٢ ومابعدها.

كعيسى بن محمد بن هارون النسفي الذي قدم اشبيلية تاجرا سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[٥]. ومثله الفقيه عبدالرحمن بن محمد بن خالد السرفي الذي دخل الأندلس سنة ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م ووصف بسعة الرواية عن علماء العراق من الأحناف وغيرهم[٦].

وهناك أتباع المذهب الشافعي أمثال زيد بن حبيب القضاعي الاسكندراني الذي دخل الأندلس سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م[٧]. والخليل بن أحمد بن عبدالله البستي الذي دخلها سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م[٨]. وكلاهما قدما من المشرق وبثا علومهما بين طلبة العلم في الأندلس، ونقلا آراء مذهبهما إلى تلك الآفاق.

بل وجد في الأندلس من ينهج مذهب أبي الحسن الأشعري ويجيد فهمه، فقد روي أن الفقيه محمد بن خلف بن موسى الأنصاري القرطبي (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م) كان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات واقفا على مذهب أبي الحسن الأشعري وأصحابه[٩]

ويلاحظ أن الأندلسيين اعتمدوا في بداية دراساتهم الفقهية على المصادر الرئيسية في الفقه المالكي وخاصة موطأ مالك، ومدونة سحنون، والواضحة لابن حبيب، والعتبية للعتبي[١٠].

وجدير بالذكر أن الفقه قد حظي بتقدير الأندلسيين وإجلالهم فله عندهم (رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به محاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة

---

(٥) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٤١).
(٦) ابن بشكوال : نفس المصدر والجزء (ص ٣٥٤).
(٧) ابن بشكوال : المصدر السابق، ج ١ (ص ١٩٢).
(٨) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ١٨١ - ١٨٢).
(٩) ابن الابار : تكملة الصلة، ج ١ (٤٣٩ - ٤٤٠).
(١٠) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (٢٩٨). موطأ مالك، أبي مالك بن أنس إمام المدينة، أما سحنون فهو عبدالسلام بن سعيد التنوخي القيرواني (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م) والمدونة المنسوبة إليه أخذها عن عبدالرحمن بن القاسم عن مالك، وابن حبيب هو عبدالملك بن حبيب (ت ٢٣٩هـ/ ٨٥٣م) من أهل الأندلس وكبار فقهائه ألف كتابه المذكور في الحديث والفقه، والعتبي تلميذ عبدالملك الآنف الذكر وصنف كتابا سُمي باسمه. انظر في تراجمهم ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٥٠)، الحميدي: الجذوة (ص ٢٨٢)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٧١).

الفقيه عندهم جليلة حتى إن الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه)[11].

وكان الفقيه في المجتمع الأندلسي يتمتع بتوقير الناس واحترامهم فيكرم في معاملته وحياته الخاصة والعامة، وبلغ من سمو منزلة الفقيه وتألق مكانته أن صفته كانت تطلق على النحوي واللغوي، لأنها أرفع السمات وأرقى الصفات العلمية لدى الناس[12].

وقد نشطت حركة الدراسات الفقهية في الأندلس فظهر آلاف الفقهاء ومن بينهم عدد لا يقلون بحال عن كبار فقهاء المشرق، ويتضح لنا ذلك إذا علمنا إنه كان في قرطبة وحدها ثلاثة آلاف مقلس، وكان لا يتقلس عندهم إلا من صلح للفتيا[13].

وقد جانب الطرطوشي الصواب عند وصف علماء الأندلس بالجهل وقلة العلم وذلك حينما طلب منه تلميذه أبوبكر بن العربي أن يعود إلى الأندلس ـ وكان الطرطوشي مقيما في مصر ـ فأجابه بإنه لا يحب أن يعود إلى بلد غلب عليه كثرة الجهل وقلة العقل[14].

فكيف يتفق كلام الطرطوشي هذا مع ما وصلت إليه الحركة العلمية في عصر ملوك الطوائف وخاصة ميدان الدراسات الفقهية الذي ظهر فيه الفقيه المشهور ابن حزم الظاهري وابن عبدالبر النمري، وابن العربي الآنف الذكر وغيرهم من الفقهاء الذين خلدوا أسماءهم بما خلفوه من روائع الإنتاج في ذلك العلم. وهذا المقري يشير إلى أن من الكتب المعتمدة لدى فقهاء الأندلس كتاب التهذيب للبراذعي السرقسطي، وكتابي «النهاية» ومختصر

---

(١١) المقري: نفح الطيب، ج ١، (ص ٢٢١).

(١٢) المقري: نفس المصدر والجزء والصفحة

(١٣) المراكشي : المعجب (ص ٥٢٠)، مؤلف مجهول: كتاب في ذكر بلاد الأندلس وصفاتها وأصقاعها (مخطوط) (ص ٣٧).

(١٤) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٢٩٨)، نقلا عن الطالبي: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية (٥٨). والطرطوشي هو أبوبكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي، كان من أصحاب أبي الوليد الباجي، وارتحل إلى المشرق فدخل الشام والعراق ثم حل مصر وتوفي بالأسكندرية سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م. (ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٤٢٤).

المستصفى» لأبي الوليد بن رشد، والآخر كتاب جليل معظم لدى الفقهاء، وكتاب «المنتقى» للباجي[١٥].

وقد عاش ابن رشد والباجي في عصر ملوك الطوائف وكفى بهذا دليلا على رقي الدراسات الفقهية وتألق فقهاء ذلك العصر.

ولعل من عوامل ازدهار الدراسات الفقهية وإقبال كثير من الطلاب على دراسة الفقه وتعلم مسائله ما كانوا يأملونه من تولّي الوظائف العامة الدينية والمدنية، فقد كانت وظائف المشاورين والقضاة والمحتسبين وخطباء المساجد وغيرها وقفا على الفقهاء تقريبا.

هذا وقد حفل هذا العصر بأعداد كبيرة من الفقهاء نقتصر على أبرزهم وما قدموه من إنتاج فقهي، فيأتي في مقدمتهم العلامة الفقيه علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ/ ٩٩٤ ـ ١٠٦٣م)، ويتضح لنا من خلال تاريخ ميلاده أنه عاصر فترة الخلافة فقضى في قرطبة شبابه، وتلقى فيها العلم عن شيوخه أمثال أحمد بن الجسور، ويحيى بن مسعود، ويوسف بن عبدالله القاضي، وعبدالله بن ربيع التميمي، وأبي عمر الطلمنكي وسواهم[١٦].

ولما سقطت الخلافة أخذ ابن حزم في التنقل من مدينة إلى اخرى، فقد خرج من قرطبة إلى المرية حيث مملكة خيران العامري فظل بها زمنا حتى دُبرت ضده مكيدة دخل على أثرها السجن، ولكن خيران أطلقه وأمره بالخروج من المرية فسار إلى بلنسية[١٧].

ويشير ابن حيان إلى حالة ابن حزم في التنقل والترحال بقوله: (كان يحمل علمه هذا ويجادل من خالفه فيه، على استرسال في طباعه، ومُذلّ بأسراره... حتى استهدف إلى فقهاء وقته، فتمالؤوا على بغضه، وردوا قوله وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه، فطفق الملوك يقصونه عن قربهم ويسيرونه عن

(١٥) نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٨٠ ـ ١٨١).
(١٦) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٣ (ص ١١٤٦).
(١٧) ابن حزم: طوق الحمامة (ص ١١٨).

بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره بتربة بلده من بادية لبله، وبها توفي رحمه الله سنة (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)[١٨].

وهكذا نرى أن ابن حزم لم يستقر في عصر ملوك الطوائف في مملكة من ممالكهم، بل كانت حياته وما التزمه من مذهب فقهي معارض للمذهب المالكي تضطره إلى التنقل والترحال بسبب ما جبل عليه من معارضةٍ للتقليد المذهبي لفقهاء الأندلس، فلم يجد ترحيبا في بلاطات ملوك الطوائف، بل لعب الفقهاء دورا في تشويه فكره والاستنقاص من شخصه لدى الملوك، فكره هؤلاء نزوله لديهم، بل تعدى الأمر أن أمر المعتمد بن عباد بإحراق عدد من كتبه وتمزيقها، فعبّر ابن حزم عن تلك الحادثة الأليمة بقوله:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي	تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي	وينزل إن أنزل ويدفن في قبري
دعوني من إحراق رق وكاغد	وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري[١٩]

ولم يكن إرتحاله إلى ما ذكرنا من المدن فقط، بل ارتحل إلى البونت، ثم لجأ إلى ميورقة وهناك جرت مناظرات بينه وبين أبي الوليد الباجي. وخرج عنها إلى اشبيلية ولم يحمد مقامه في ظل بني عباد فاتجه أخيرا إلى لبله[٢٠] وهناك عكف على نشر مذهبه وتأليف كتبه[٢١].

وكانت شهرة ابن حزم عائدة إلى اعتناقة للمذهب الظاهري. وكان في بداية نشاطه العلمي مائلا إلى المذهب الشافعي، ولكنه ما لبث أن انصرف عنه إلى المذهب الظاهري الذي ينسب إصلا إلى الفقيه المشرقي داود بن علي الأصفهاني[٢٢]. فعمل على تنقيحه وصياغته في منهج فقهي متميز له

---

(١٨) ابن بسام : الذخيرة، ج ١ ق ١ (ص ١٦٧). (نقلا عن نصوص تاريخية لابن حيان).
(١٩) ابن بسام : الذخيره، ق ١ ، ج ١ والجزء (ص ١٧١) (نقلا عن ابن حيان) وانظر أيضا نفس المصدر والقسم والجزء (ص ١٦٩).
(٢٠) بلدة صغيرة في الجنوب الغربي للأندلس. الحميري: الروض المعطار (ص ٥٠٧ ـ ٥٠٨).
(٢١) عبدالحليم عويس : ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري (ص ٧٣ ـ ٧٤).
(٢٢) ابو سليمان داود بن علي بن داود بن خلف الأصفهاني. أول من سلك القول بالظاهر وألغى الرأي والقياس، وكان موصوفا بالعلم والصلاح توفي سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م. (ابن النديم : الفهرست ص ٣٠٣).

قواعده وأصوله، ثم عمل على نشره مجتهدا في ذلك وألف فيه كثيرا من الكتب(٢٣).

ومذهب ابن حزم الظاهري يعتمد فيه على قبول ما نص عليه في القرآن الكريم أو ورد فيه حديث موثوق على ظاهر معناه، إلا أن يكون هناك ضرورة من عقل أو حس تدعو إلى صرف المعنى عن ظاهره وإلى الأخذ بالتأويل(٢٤).

ويشير ابن حزم إلى منهجه الفقهي بقوله: (واعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه وجهر لاسر تحته، كل برهان لا مسامحة فيه واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان وكل من ادعى للديانة سرا وباطنا فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو ابنة أو ابن عم أو صاحب على شيء من الشريعة كتمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده عليه السلام سر ولا رمز ولا باطن غير ما دعا الناس كلهم إليه)(٢٥).

ونظرا لخروج ابن حزم على المذهب الفقهي السائد في الأندلس فقد جوبه بكفاح مرير من قبل فقهاء المالكيه فتألبوا عليه وتصدى له عدد منهم بالمناظرات والنقاش، وزاد الأمر حرجا أن ابن حزم كان شديد الوطأة في جدله ونقاشه، حاد اللسان في مناظراته العلمية، حتى وصف لسانه بأنه وسيف الحجاج شقيقان(٢٦).

وقد أكثر العلماء في الحديث عن حدة لسان ابن حزم وقسوته تجاه مواقف خصومه. والحق أننا لو أمعنا النظر في موقف ابن حزم وحالته المعنوية وتردّي

---

(٢٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ١ ج ١ (ص ١٦٧ - ١٦٨)، المراكشي المعجب (ص ٩٤)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٣٥٥)

(٢٤) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي (ص ٥٩٦)، قدري طوقان: العلوم عند العرب (ص ١٨٤).

(٢٥) الفصل في الملل والنحل، ج ٢ (ص ١١٦)، وللاطلاع أكثر على المذهب الظاهري انظر محمد ابو زهرة: ابن حزم حياته وعصره، وسعيد الأفغاني: ابن حزم الأندلسي ورسالته في المفاضلة بين الصحابة (ص ٦١) وما بعدها، عبداللطيف شرارة: ابن حزم رائد الفكر العلمي (ص ٧٢) وما بعدها، عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي (ص ٨٥) وما بعدها.

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٣٢٨)، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٣ (ص ١١٥٣ - ١١٥٤).

نفسيته أمام معارضيه الذين تألبوا وتضافروا على تحطيم فكره ومذهبه، بالإضافة إلى مواقف الملوك منه، وإحراق كتبه ومصنفاته لعذرناه بعض الشيء فيما اتصف به.

وفيما يتعلق بنشاطه في ميدان الفقه وما قدم فيه من إنتاج علمي فقد ألف كثيرا من الكتب، منها كتابه «الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع»، أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، كما ألف كتباً أخرى ككتاب الإحكام في أصول الأحكام، وكتاب «الإجماع ومسائله على أبواب الفقه»(٢٧) والكتابان الأخيران مطبوعان.

وصنف أيضا كتابا في الفقه على مذهبه واجتهاده في مجلد، ثم شرحه وأطلق عليه «المحلى» في ثمان مجلدات(٢٨).

ويذكر ابن حيان أن له من الكتب أيضا كتاب «التلخيص والتخليص» في المسائل النظرية وفروعها التي لانص عليها في الكتاب ولا في الحديث، وكتاب «منتقى الإجماع وبيانه من جملة مالا يعرف فيه اختلاف»، وكتاب «كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس»(٢٩).

وأشار السلفي في معرض حديثه عن كتب ابن حزم أن كتاب الإيصال يقع في أربعين مجلدا(٣٠)، وهذا بلا ريب يدلنا على عظم المجهود المبذول في تصنيفه، وعلى ماكان يتمتع به ابن حزم من علم واسع ومعرفة عميقة، ومصنفات ابن حزم في الفقه الظاهري كثيرة جدا ومن بينها رسائل عديدة وكتيبات كثيرة، ولكننا أشرنا إلى أبرزها. ومما لا شك فيه أن هذا الإنتاج

---

(٢٧) الحميدي : جذوة المقتبس (ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩)، الضبي : البغية (ص ٤١٥)، ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤١٥ ـ ٤١٦)، كتاب الإيصال منه قطعة بدار الكتب المصرية.

(٢٨) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج ٣ (ص ١١٤٧)، وهذا الكتاب مطبوع.

(٢٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٧١)، نقلا عن ابن حيان. وعن أماكن وجود مالم يطبع من هذه الكتب أنظر بروكلمان: تاريخ الأدب العربي. وعبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي (ص ١٧١) وما بعدها، وقد قسم عبدالحليم في كتابه المذكور مؤلفات ابن حزم إلى قسمين: ما فقد منها وما هو موجود منها سواء كان مخطوطا أو مطبوعا.

(٣٠) معجم السفر (أخبار وتراجم أندلسية) تحقيق إحسان عباس (ص ٥٣).

الفقهي يدل دلالة واضحة على منزلة ابن حزم وجلالة قدره رغم ما ناله على أيدي معاصريه من أذى وضيق، وصدق ابن حيان حيث قال: (وبالبدائع هذا الحبر علي بن حزم وغرره، ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها، وعلى ذلك فليس يبدع فيها أضيع منه، فأزهد الناس في عالم أهله...)[٣١].

وفي بلاط مجاهد العامري بدانية ثم بلاط بني الأفطس في بطليوس[٣٢] برز العلامة الفقيه أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري (٣٦٢ - ٤٦٠هـ/ ٩٧٢ - ١٠٦٧م) كانت نشأته العلمية في قرطبة حيث أخذ علمه عن كثير من العلماء والفقهاء أمثال خلف بن القاسم، وعبدالوارث بن سفيان وسعيد بن نصر، وابن الفرضي الأزدي، والطلمنكي وغيرهم[٣٣].

وكان ابن عبدالبر مائلا إلى المذهب الشافعي، ورغم ذلك فقد قدم لنا كثيرا من روائع إنتاجه ودراساته الفقهية على المذهب المالكي، فصنف في ذلك كتابه «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» في سبعين جزءا، وقد امتدحه ابن حزم الظاهري وذكر أنه ليس له نظير في فقه الحديث[٣٤].

كما صنف كتابا أسماه «الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار في شرح ما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار» وهذا الكتاب اختصار لكتابه الأول كما يقول ابن حزم[٣٥].

وصنف في مجال الفتيا كتابه الكبير «الكافي» وضمنه كثيرا من المسائل والآراء الفقهية التي لا يستغني عنها من تصدر للفتيا، وقد أدرك ابن عبدالبر حاجة أهل عصره إلى من يجمع لهم آراء وأقوال من سبقهم من ائمة الفقه وأعلام الفتيا وفي مقدمتهم إمام المذهب مالك بن أنس وأصحابه وأتباعه

---

(٣١) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٧٢) نقلا عن ابن حيان.

(٣٢) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٤٠٧ - ٤٠٨)، ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٦٧٩)، الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج ١٨ (ص ١٥٨).

(٣٣) الحميدي : الجذوة (ص ٢٦٨).

(٣٤) الحميدي : نفس المصدر (٣٦٨)، وتوجد منه نسخة خطية بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ودار الكتب المصرية.

(٣٥) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه (ص ٨٦)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٦٩ - ١٧٠)، وتوجد من كتاب الاستذكار أجزاء مخطوطة في دار الكتب المصرية.

فصنف لهم ذلك الكتاب الهام، وقد نال هذا الكتاب ثناء ابن حزم وأشار إلى ما احتواه من مسائل الفقه مما لا يستغني عنه فقهاء المذهب، وأن الناس في ذلك العصر قد استغنوا به عن غيره من الكتب المطولة، ويقع هذا الكتاب في خمسة عشر جزءا[٣٦].

ولابن عبدالبر كتاب في «اختلاف أصحاب مالك بن أنس، واختلاف رواياتهم عنه» ويشتمل على أربعة وعشرين جزءا[٣٧].

ويلاحظ الناظر في مصنفاته كثرة عدد أجزائها، ويبدو أنه كان يسلك في تصنيفه لتلك الكتب مسلك المتأني المتريث، بحيث لم يكن يُحمل نفسه مشقة الإخراج السريع لتآليفه وما يترتب على ذلك من نصب ومشقة، وما ينجم عنه أيضا من هفوات لا يخلو منها أي عمل عجل، فكان يعمل على فترات متقطعة بحيث ينجز في كل فترة جزءا من إنتاجه العلمي، وبناء عليه فلا يكتمل أيٌّ من كتبه إلا بأجزاء كثيرة متعددة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يلاحظ أن عمره المديد الذي بلغ ما يقارب قرنا من الزمان ـ حيث توفي عن ٩٨ عاما ـ كان له أكبر الأثر في رسوخ مكانته العلمية وتضلعه من ألوان متعددة من المعرفة، فلم يكن فقيها فقط بل كان أديبا شاعرا مؤرخا نسابة فأثرى بعلمه الواسع المكتبة العربية.

وكانت تصانيفه تلاقي من أهل عصره ومن أتى بعدهم كل إجلال وتقدير وتحظى بعناية أهل العلم حتى أصبحت متداولة في شتى الأقطار وهو ما يؤكده الحميدي بقوله (وألف مما جمع تواليف نافعة سارت عنه)[٣٨].

وهذا ابن خير الاشبيلي يورد عددا من كتب ابن عبدالبر النمري ضمن ما أخذه عن شيوخه[٣٩]، وهو ما يؤكد عظم قدرها وجلالتها، بل إن كتب ذلك العالم الجليل لا تزال تجد الإقبال والاستحسان من علماء هذا العصر الحديث.

---

(٣٦) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (١٧٠)، نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل علماء الأندلس، الحميدي: جذوة المقتبس (ص ٣٦٨) ويوجد من هذا الكتاب نسخ مخطوطة في الفاتيكان والمدينة المنورة.

(٣٧) الحميدي : الجذوة (ص ٣٦٨).

(٣٨) جذوة المقتبس (ص ٢٦٧)، وحول ما يتضمنه هذا المعنى انظر ابن سعيد، المغرب، ج ٢ (ص ٤٠٨).

(٣٩) فهرسة ما رواه عن شيوخه (٨٦).

وفي هذا العصر الحافل بأهل العلم برز العلامة الفقيه أبوالوليد سليمان ابن خلف الباجي القرطبي (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) وكان معدودا بين علماء بلاط بني هود في سرقسطة. وكان المقتدر يفخر بوجوده في بلاطه وبين علماء مملكته، ويعتز بذلك على غيره من ملوك الطوائف[٤٠].

وكان الباجي فقيها محدثا عظيم المنزلة بين علماء عصره، وكان قد أخذ العلم عن علماء وطنه ثم شد رحاله إلى المشرق حيث أقام ببغداد ثلاث سنوات يدرس الفقه ويكتب الحديث، وظل مواظبا على هذا الحال من تلقي العلم وتحصيل المعرفة، وامتدت إقامته في المشرق عموما ثلاثة عشر عاماً، ثم عاد إلى وطنه أعمق معرفة وأرسخ علما، وأخذ في نشر علومه فقصده الفقهاء وطلبة العلم من كل حدب وصوب[٤١].

وجدير بالذكر أن هذا الفقيه قد ضرب في سيرته العلمية أروع الأمثلة في الصبر والجلد على تحصيل العلوم والمعارف؛ إذ إنه على الرغم من حالته البائسة وقلة ما بيده لازم حلقات العلم ومجالسه، فقد كان يخرج إلى أصحابه وتلاميذه وفي يده أثر المطرقة[٤٢] .

بل إننا نراه إبان رحلته إلى المشرق واستقراره في بغداد يلجأ لسد حاجته بتنصيب نفسه حارسا على درب من دروب بغداد، وليدفع عن نفسه بذلك غائلة الفقر[٤٣].

وكان الباجي مؤمنا بما تعلم مخلصا في الانتفاع بعلمه ونفع غيره به، وقد هاله ما رأى عليه ملوك عصره من شقاق وخلاف ونزاع فسعى إلى الإصلاح بينهم والعمل على لم شعثهم والتمسك بحبل الله ونبذ خلافاتهم[٤٤].

وعلى الرغم من انشغاله بهذه المساعي الحميدة، ومواظبته على التدريس

---

(٤٠) ابن خاقان : قلائد العقيان (١٩٦ - ١٩٧)، الأصفهاني: الخريدة، ج ٢ (ص ٤٩٩ - ٥٠٠).
(٤١) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص٩٤ - ٩٥)، عياض: ترتيب المدارك، ج ٤ (ص ٨٠٢-٨٠٨)، ابن خاقان: قلائد العقيان (ص ١٩٦ - ١٩٧)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٤٠٤-٤٠٥)، الضبي: بغية الملتمس (ص ٣٠٢ - ٣٠٣)، ابن فرحون: الديباج المذهب (ص ١٢٠ - ١٢١).
(٤٢) المقري : نفح الطيب، ج ٢ (ص ٧٦ - ٧٧).
(٤٣) المقري : نفس المصدر والجزء (ص ٧٦).
(٤٤) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٩٥ - ٩٦).

والتعليم وكثرة مناظراته العلمية مع علماء عصره أمثال ابن حزم الظاهري، كان ذا باع طويل في التأليف والتصنيف، فكان متعدد النشاط، خصب الذهن، علما من أعلام عصره.

وأقر له العلماء بالمنزلة الرفيعة والقدر الجليل، ومن بينهم خصمه ابن حزم الـذي ذكـر أنه لم يكن لأتباع المذهب المالكي بعد عبدالوهاب مثل أبي الوليد الباجي، وكان الأخير قد ناظره بجزيرة ميورقة، فأضعف من شأن مذهبه، وبين تهافته مما كان سببا في إحراق كتبه، ولكن ابن حزم رغم ذلك لم يجحد منزلته أو يغض من شأنه[٤٥].

وامتدحه أبوعلي بن سكره، وجزم أنه لم ير مثله ومثل مجلسه في جلالته وعلمه وأشار إلى أنه عندما كان في بغداد قدم ابن لأبي الوليد يكنى أبا القاسم، فسارا معا إلى مجلس قاضي القضاة الشاشي فعرف أبوعلي الشاشي على أبي القاسم ووصفه بأنه ابن شيخ الأندلس، فقال الشاشي لعله ابن الباجي، فقال ابن سكره نعم فرحب به وقرب مجلسه[٤٦].

وذكره أبونصر بن ماكولا فقيه المشرق فقال (فقيه متكلم شاعر، أديب سمع بالعراق ودرس الكلام، وصنف وكان جليلا رفيع القدر والخطر. .)[٤٧].

وكان لأبي الوليد مصنفات قيمة، فمنها في الفقه كتابان في شرح الموطأ، ويدعى كتـابه الأول في ذلك بـ«الاستيفاء»، ثم انتخب منه فوائد سماها «المنتقى» في سبع مجلدات، ويعتبر هذا الكتاب أحسن مصنف في مذهب مالك لأنه أفـاض في شـرح أحاديـث الموطأ وفك غامضها، وله أيضا «أحكام الفصول في أحكام الأصول» و«الإيماء» و«مختصر المختصر» في مسائل المدونة

---

(٤٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٩٦) وعبدالوهاب المذكور هو عبدالوهاب بن علي بن نصر التغلبي كان من كبار فقهاء المذهب المالكي في المشرق ورحل إلى مصر وصنف كتابي «المعونة» و«التلقين» وتوفي بمصر سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م. (ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج ٣ ص ٢١٩).

(٤٦) المقري : النفح، ج ٢ (ص ٦٧ ـ ٦٨).

(٤٧) الداودي : طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٢٠٤)، وانظر ما يتضمنه هذا المعنى: لدى ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥، (ص ١١٤) السيوطي: طبقات المفسرين (ص ٥٢ ـ ٥٣).

و«الإشارة في أصول الفقه» و«الحدود» و«السراج في الخلاف» وغير ذلك(٤٨).

وفي مملكة بني عباد بقرطبة نشأ العلامة الكبير الفقيه محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد (٤٥٠ - ٥٢٠هـ/ ١٠٥٨ - ١١٢٦م). تألق ابن رشد في الفقه وعلت منزلته بين فقهاء عصره لما كان عليه من معرفة واسعة بهذا العلم وبراعة تامة في فهم مسائله حتى وصفه الضبي بقوله (كان أوحد زمانه في طريقة الفقه)(٤٩).

وبلغ ابن رشد من تضلعه من الفقه ومهارته فيه أنه إذا صعبت مسألة من مسائل الفقه او أشكل حلها فُزع إليه في توضيحها وكشف غامضها، فكان بحق عميد فقهاء عصره ونجمهم المتألق، وإليه شدت الرحال لأخذ العلم عنه والتفقه على يديه(٥٠).

ومما يضاف إلى سيرة هذا الفقيه الجليل ما كان عليه من حسن الخلق والتحلي بأخلاق العلماء الصالحين، من ورع وحياء ونزاهة واستقامة، مع كرم وبر بالناس وإغاثة المحتاجين منهم(٥١).

وقد التحق ابن رشد بوظائف الدولة فتولى منصب قضاء الجماعة بقرطبة، ثم استعفى من هذا المنصب، وتفرغ لنشر العلم والتأليف، فصنف كتبا قيمة في الفقه وفي غيره من العلوم. فمن مؤلفاته الفقهية «البيان والتحصيل في شرح كتاب العتبي المستخرج من الأسمعة» في عشرين مجلدا و«المقدمات» و«تهذيب كتاب الطحاوي مشكل الآثار» و«كتاب في اختصار الكتب المبسوطة من تأليف يحيى بن إسحاق بن يحيى» وغير ذلك(٥٢).

وقد امتدح العلماء مصنفات ابن رشد، حتى قيل إنه لم يسبق إلى تأليف

---

(٤٨) المقري : نفح الطيب، ج ٢ (ص ٦٩)، وانظر أيضا ابن خير: فهرسة ما رواه عن شيوخه (ص ٢٥٥ - ٢٥٦)، السيوطي : طبقات المفسرين (ص ٥٢ - ٥٣ - ٥٤)، الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٢٠٢ - ٢٠٣)، حاجي خليفة : كشف الظنون، ج ٢ (ص ١٩٠٧ - ١٩٠٨).

(٤٩) بغية الملتمس (ص ٥١).

(٥٠) عياض : الغنية (ص ٥٤).

(٥١) عياض : نفس المصدر والصفحة، ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٥٧٧)، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (ص ٩٨ - ٩٩)، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق ١، (ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

(٥٢) عياض : الغنية (ص ٥٤)، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق ١ (ص ٢٥٥)، البغدادي: هدية العارفين، ج ٢ (ص ٨٥).

مثلها، وإن كتابي البيان والتحصيل والمقدمات ليس في المذهب المالكي نظير لهما[٥٣].

وممن حضر دروسه العلمية وحلقات درسه العلامة المؤرخ ابن بشكوال مؤلف كتاب الصلة في تراجم علماء الأندلس، وقد أشار إلى مؤلفات ابن رشد وقال (سمعنا عليه بعضها وأجاز لنا سائرها)[٥٤].

وفي بلاط بني عباد بإشبيلية نشأ العلامة أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد بن العربي المعافري (٤٦٨ - ٥٤٣هـ/ ١٠٧٥ - ١١٤٨م) وكان والده وزيرا في الدولة العبادية، فلما زال سلطانها توجه بابنه إلى المشرق (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) للتزود بالعلم ولقاء العلماء، وكان أبوبكر خلال ذلك مخلصا في طلب العلم ساعيا في اكتسابه شديد الصبر والجلد في سبيل ذلك، ثم عاد إلى وطنه سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) حيث اتجه إلى نشر علومه ومعارفه[٥٥].

ويتجلى نبوغ أبي بكر مبكرا فهو يقول عن نشأته (وحذقت القرآن ابن تسع سنين، ثم ثلاثا لضبط القرآن والعربية والحساب، فبلغت ستة عشر، وقد قرأت من الأحرف نحوا من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه وتمرنت في العربية والشعر واللغة، ثم رحل بي أبي إلى المشرق. . .)[٥٦].

وقد أدرك ابن العربي مدى ما اكتسبه من العلم والمعرفة وسعة تحصيله العلمي، وعرف معرفة الواثق بنفسه لا المغرور بها ما بلغه من درجة رفيعة بين العائدين إلى وطنهم أثر رحلاتهم العلمية إلى المشرق فكان يذكر أن كل من ارتحل إلى المشرق لم يأت بمثل ما أتى به من علم سوى الباجي[٥٧].

واشتهر أبوبكر بحبه للعلم وشغفه الشديد بمطالعة كتبه بلا كلل ولا ملل، حتى إنه كان ينام والكتب عن يمينه ويساره، وكانت له ثياب واسعة

---

(٥٣) ابن القاضي : جذوة الاقتباس، ق ١ (ص ٢٥٤ - ٢٥٥).
(٥٤) الصلة، ج ٢ (ص ٥٧٧).
(٥٥) عياض : الغنية (ص ٦٦ - ٦٧ - ٦٨)، ابن خاقان: المطمح (ص ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩)، ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٥٩٠ - ٥٩١)، ابن فرحون: الديباج، ط/ المكتبة العلمية (ص ٢٨١) وما بعدها، النباهي: تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٠٥ - ١٠٦)، المقري: النفح ج ٢ (ص ٢٩ - ٣٠).
(٥٦) المقري : النفح، ج ٢ (ص ٤٣).
(٥٧) المقري : نفس المصدر والجزء (ص ٢٩).

طويلة يلبسها ليلا وينام فيها إذا غلبه النوم، فإذا استيقظ في أي ساعة من الليل مد يده إلى كتاب فيقرأه، والمصباح مضاء لا يطفأ أبدا[٥٨].

ونظرا لعلو مكانته في الفقه فقد ولي القضاء، فكان عادلا منصفا متحريا للحق في أحكامه، شديدا على أهل الباطل، صارما في معاملتهم والأخذ على أيديهم بما يمليه الحق، مما كان له الأثر في نمو روح العداوة لدى بعض الأشخاص الذين كادوا له وسعوا في التضييق عليه ونهب كتبه وأمواله، فواجه كل ذلك بقلب صابر وعزيمة لا تلين وانصرف عن القضاء فتفرغ للعلم وصنف فيه كتباً نفيسة[٥٩].

وقد صنف أبوبكر في الفقه كتبا عديدة منها كتاب «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» و«ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك» و«الإنصاف في مسائل الخلاف» في عشرين مجلدا[٦٠].

ويشير الضبي في معرض كلامه عن مصنفات ابن العربي، أنه قضى عدة مجالس علمية في قرطبة لإملاء كتابه «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس» على طلبة العلم، فأخذه الكثيرون عنه ومنهم شيوخ الضبي[٦١].

وحفل هذا العصر بجمع آخر من الفقهاء إلا أنهم أقل منزلة ممن سبق ذكرهم، يأتي في مقدمة هؤلاء العلامة الفقيه خلف مولى يوسف بن بهلول المعروف بالبربلي نسبة إلى قرية من عمل بلنسية (ت ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) وقد تمكن خلف بسعة علمه ووفور معارفه في الفقه من تولّي منصب مفتي بلنسية في عهد أميرها عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن المنصور العامري (٤١١ ـ ٤٥٢/ ١٠٢٠ ـ ١٠٦٠م) وهذا المنصب لا يتولاه إلا من رسخ قدمه في الفقه واستوعب مسائله وأحكامه، ولا غرو في ذلك فقد كان خلف فقيها حافظا للمسائل، وصنف مختصرا للمدونة، وصف بالأهمية وأنه جمع فيه أقوال وآراء

---

(٥٨) الضبي : بغية الملتمس (ص ٩٤).
(٥٩) النباهي : المصدر السابق (ص ١٠٥ ـ ١٠٦)، نقلا عن ابن الزبير في كتابه الصلة، وانظر المقري: النفح، ج ٢ (ص ٢٩ ـ ٣٠) وللتوسع في ترجمته انظر ج ٢ (ص ٢٥ ـ ٤٣).
(٦٠) المقري : النفح، ج ٢ (ص ٣٥ ـ ٣٦)، وانظر كذلك البغدادي: هدية العارفين، ج ٢ (ص ٩٠).
(٦١) البغية (ص ٩٣).

أصحاب الإمام مالك بن أنس فكان عظيم الفائدة كبير القيمة(٦٢).

ولعل من شواهد علمه وسعة معارفه ما ناله كتابه المذكور من تقدير وثناء العلماء، وما كان له من منزلة رفيعة بين طلبة العلم الذين سارعوا إلى اقتنائه لما له من فائدة جليلة وخاصة في ميدان المناظرة العلمية.

وبلغ من أهمية كتاب البربلي أن وصلت منه نسخة إلى صقلية فتنافس الفقهـاء في اقتنائها وشرائها، ولما شاهدها العلامة عبدالحق بن محمد بن هارون الصقلي (ت ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م) هاله ما حواه ذلك الكتاب من العلم الغزير فسعى إلى شرائه فلم يتيسر له ثمنه مما اضطره إلى بيع بعض أثاث داره واشترى ذلك الكتاب(٦٣).

ولا غرابة فيما وصف به هذا الكتاب وما ناله من تقريظ العلماء، فقد قال الفقيه أبو الوليد هشام بن أحمد (من أراد ان يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البربلي)(٦٤).

وفي مملكة بني عباد بقرطبة نبغ العلامة محمد بن عتاب بن محسن القرطبي (ت ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) وكـان موصـوفـا بالعلم والحفظ الواسع لعدد من العلوم، ولكنه برع أكثر في علوم الدين ومن بينها الفقه، حتى إنه قُدم للشورى وهو ابن احدى وثلاثين سنة، فتهيب ذلك تهيب العلماء الأتقياء(٦٥).

وكان المعتمد بن عباد يجله ويعرف منزلته فزاره في داره بقرطبة عندما استولى عليها، ولما توفي شهد جنازته ومشى فيها راجلا على قدميه(٦٦).

وفي مملكة بني عباد أيضا لمع نجم الفقيه أبوالقاسم حاتم بن محمد بن عبدالرحمن التميمي المعروف بابن الطرابلسي، من أهل قرطبة (ت ٤٦٩هـ/

---

(٦٢) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ١٦٩)، عياض: ترتيب المدارك، ج ٤ (ص ٨٢٩).
(٦٣) ابن فرحون : الديباج المذهب (ص ١١٣ - ١١٤).
(٦٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ١٦٩).
(٦٥) عياض : ترتيب المدارك، ج ٤ (٨١٠ - ٨١١)، ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٥٤٤)، ابن فرحون: الديباج (ص ٢٧٤ - ٢٧٥).
(٦٦) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ (ص ٤٥٦) وانظر هامش الأصل الذي كتبه ابن بشكوال نفسه.

١٠٧٦م) وأصله من طرابلس الشام، أخذ علومه ومعارفه بوطنه الأندلس ثم رحل إلى المشرق (٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م) وتنقل بين مراكز العلم المختلفة هناك، يلتقي بالعلماء والفقهاء ويأخذ عنهم ويسمع عليهم علوم الحديث والفقه ثم انصرف إلى الأندلس، وقد اكتسب علما واسعا، وجلس للتدريس حيث انجفل إليه الكثير من طلبة العلم[٦٧].

ومما يلفت النظر في سير هؤلاء العلماء مدى إخلاصهم واجتهادهم في طلب العلم ونشره. وقد مر بنا في سيرة أبي الوليد الباجي كيف انه وظف نفسه حارسا لأحد دروب بغداد في سبيل تحصيل ما يقيم أوده، وكذلك ما روي عن أبي بكر بن العربي من مواظبة على مطالعة كتبه باستمرار حتى إنه لم يكن يطفئ مصباحه ليلا لرغبته في دوام مطالعته لما بين يديه من كتبه خلال الليل.

وكان الكثير من هؤلاء الفقهاء لا يقعده عن تحصيل العلم واكتساب المعرفة وبثها كبر أو وهن بل كأنهم مع ذلك يزدادون قوة وجلدا على نيل العلم ونشره، فالعلامة الفقيه حاتم بن محمد لم يزل جادا عاملا على التزود بالمعرفة ساعيا في تعليم طلابه حتى قال فيه أبوالحسن بن مغيث (لم يزل مثابرا على حمل العلم وبثه، والقعود لإسماعه والصبر على ذلك مع كبرة السن، وانهداد القوة)[٦٨].

وكان الفقيه محمد بن عبدالله البكري المعروف بابن ميقل المرسي (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) من أعلام إمارة بني طاهر، وذاع صيته بالتمكن في الفقه وحفظه التام لمذهب الإمام مالك، مع براعته في فهم مسائله وقضاياه الفقهية حتى عد من بين من يحتج بقوله ورأيه[٦٩].

ويماثله الفقيه أحمد بن سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي الباجي (ت ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) وكان من أعلام وفقهاء مملكة سرقسطة وكان قد خلف أباه في حلقته العلمية بعد وفاته ووصف بالعلم والفهم في الفقه،

(٦٧) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ١٥٧ - ١٥٨).
(٦٨) ابن بشكوال : الصلة، (ص ١٥٨ - ١٥٩).
(٦٩) عياض : المدارك، ج ٤ (٧٥١).

وأنّ له تآليف قيمة في ذلك(٧٠).

وكان للنساء دور كبير في نشاط هذا العلم، فقد أمدتنا كتب التراجم بعـدد من أسماء الفقيهات اللاتي أسهمن في ازدهار الفقه وتعليمه لبنات جنسهن، ومنهن الفقيهـة طونـة بنت عبـدالعزيز بن موسى (ت ٥٠٦هـ/ ١١١٢م) والتي أخـذت علومها عن الحافظ أبي عمر بن عبدالبر النمري وقرأت بعض مصنفاته الفقهية، كما أخذت عن الفقيه أحمد بن عمر بن أنس العذري، ووصفت بالدين والعلم وجلالة القدر(٧١).

كما أن خديجة بنت جعفر بن نصير بن التيار التميمي، حدثت عن زوجها الفقيه عبدالله بن أسد بموطأ القعنبي(٧٢) قراءة عليه بلفظها في أصله وقيدت فيه سماعها بخطها في عام ٣٩٤هـ/ ١٠٠٣م. وقد حبست كثيرا من كتبها على ابنتها، ورأى بعضها ابن بشكوال(٧٣).

ومن فقيهات النساء راضية مولاة عبدالرحمن بن محمد الناصر، وتدعى بنجم (ت ٤٢٣هـ/ ١٠٣١م) حجت مع زوجهـا لبيب الفتى، وكانا في رحلتهما يأخذان عن العلماء، ويقيدان ما يسمعانه منهم، وروى عنها أبومحمد ابن خزرج وقال: عندي بعض كتبها(٧٤).

وأخيراً فهؤلاء هم أبرز الفقهاء في عصر ملوك الطوائف، وهناك الكثير منهم ممن لا يستـوعبهم البحث، بل تحتاج سيرهم وتراجمهم إلى مجلدات طويلة(٧٥)، هذا إلى جانب ما نهجناه في دراستنا من محاولة التركيز على أبرز

---

(٧٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٧١).

(٧١) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٩٦ - ٦٩٧).

(٧٢) هو عبدالله بن مسلمة بن قعنب (ت ٢٢١ هـ/ ٨٣٥م) مدني سكن البصرة وروى عن مالك بن انس ووصف بالعلم والفقه. (ابن عبدالبر: الانتقاء ص ٦١).

(٧٣) الصلة، ج ٢ (ص ٦٩٣).

(٧٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص٦٩٣ - ٦٩٤).

(٧٥) انظر مثلا : ترجمة عبدالرحمن بن أحمد في الصلة لابن بشكوال، ج ١ (٣٢٦)، وترجمة محمد بن عيسى السلمي في جذوة الاقتباس لابن القاضي، ق ١ (ص ٢٥٣)، وترجمة ابن حدين التغلبي في الغنية لعياض (ص ٤٦)، وترجمة اصبغ بن محمد في الصلة لابن بشكوال. ج ١ (١٠٩)، وترجمة أحمد بن محمد في الصلة، لابن بشكوال. ج ١ (ص ٦٥)، وترجمة أحمد بن محمد بن القطان في الصلة. لابن بشكوال، ج ١ (ص ٦٢)، وترجمة يونس بن محمد بن مغيث في المعجم. لابن الأبار (ص ٣٣٢)، وترجمة عبيد الله بن محمد بن مالك في الصلة لابن بشكوال، ج ١ (ص ٣٠٣)، وترجمة ابن الورد في شجرة النور الزكية لمخلوف، ج١ (ص ١٣٤)، وتاريخ الإسلام للذهبي، ج ١٢ (مخطوط) ورقة ٤٧ ب.

العلماء وأوسعهم نشاطا في ميادين العلم المختلفة.

وبعد هذا العرض ينتهي الباحث إلى حقيقة هامة وهي أن الدراسات الفقهية في هذا العصر، رغم الاضطرابات السياسية ظلت سائرة مزدهرة. ومن غير شك أن عصر الخلافة كان له أثر كبير في ترسية دعائم الحركة العلمية وتغذيتها بنوابغ العلماء الذين شهدوا كلا العصرين كالفقيه ابن حزم وصديقه ابن عبدالبر النمري، ولم يضن علينا عصر ملوك الطوائف بأمثالهم، فكان حافلا بالعديد من كبار الفقهاء أمثال أبي الوليد الباجي ومحمد بن أحمد بن رشد، وابن العربي وغيرهم. وهؤلاء العلماء قد أسهموا في نشاط تلك الدراسات وأضافوا الكثير من إنتاجهم إلى المكتبة الفقهية، وعملوا طوال حياتهم على أن يكون لهم دور فعال، وجهد واضح ملموس في تراث هذه الأمة وفكرها، وهو ما خلدته كتب التاريخ والتراجم فأشادت بهم وأسبغت عليهم الثناء العاطر لجهودهم الموفقة.

(٢) الحديث

نال هذا العلم من المسلمين عناية عظيمة قلما نالها علم آخر. وكان هذا عائدا إلى مصدره الشريف وهو رسول الله ﷺ. فعني علماء المسلمين بالحديث والتحري عن صحته ووضع قواعد وأسس لمعرفة صحيحه من زائفه. واستعانوا بالتاريخ والتراجم في دراسة أحوال الرواة ومدى توافر عوامل الثقة والأمانة فيهم ليتسنى الوقوف على سلامة الحديث من ضعفه حتى قال سفيان الثوري (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ)[٧٦].

وجدير بالذكر أن للمشارقة دورا فعالا في ازدهار هذا العلم، ودفع عجلة نشاطه في الأندلس. وكان للرحلات التي قام بها الأندلسيون أبعد الأثر في نقل كثير من معارف المشارقة ومصنفاتهم إلى الأندلس، وهذا بالتالي وسع دائرة البحث والدراسة في هذا العلم وعمق نشاطه في الأندلس.

وما من شك أن علماء الحديث كانوا في الصدارة من حيث الصبر والجلد على العلم والاستهانة بالمشاق والمتاعب في رحلاتهم التي يبتغون من ورائها لقاء العلماء وسماع الحديث من أفواههم. وتحفل كتب التراجم والطبقات بمعلومات مثيرة عن صبر أولئك العلماء على تحصيل العلم. فمن أشهر ما تعرض له الراحلون في طلب الحديث ما وقع لبقي بن مخلد (٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) عندما رحل إلى المشرق على قدميه لمقابلة الإمام أحمد بن حنبل وصادف أن كان وصوله متزامنا مع محنة الإمام أحمد وقد أمر بملازمة بيته وعدم الخروج للتدريس. فكان بقي يأتي إلى داره في هيئة فقير سائل وكأنه يسأل حاجة فيخرج إليه الإمام أحمد فيحدثه بالحديثين والثلاثة حتى زالت محنته فلازم حلقاته العلمية[٧٧].

وقد سبقت الإشارة إلى اضطرار أبي الوليد الباجي إلى القيام بالحراسة على درب من دروب بغداد ليلاً وكان يستغل ضوء سراجه في قراءة الكتب ومطالعتها[٧٨].

---

(٧٦) ابن الصلاح : علوم الحديث (ص ٣٤٣ - ٣٤٤).
(٧٧) العليمي : المنهج الأحمد في تراجم أصحاب الإمام أحمد. ج ١ (ص ٣٦٠).
(٧٨) الداودي : طبقات المفسرين ج ١ (ص ٢٠٩).

والجدير بالذكر أن علماء الحديث من الأندلسيين تناولوا كتب الصحاح والسنن المشهورة وأولوها عناية واهتماما بالغين فدرسوها وشرحوها وعلقوا عليها. فإذا تناولنا صحيح البخاري(٧٩) وجدنا بين علماء الأندلس من يحفظه عن ظهر قلب مع فهمه الواسع بأحاديثه. فهذا أحمد بن محمد بن مغيث الصدفي الطليطلي (ت ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م). كان حافظا لصحيح البخاري عالما به عارفا برجاله(٨٠).

كما أن العلامة المحدث محمد بن هاشم الهاشمي من سرقسطه عاصمة بني هود. كان يقرأ من حفظه صحيح البخاري على طلبة العلم بين صلاة المغرب والعشاء. وهو في ذلك حافظٌ للسند دقيق في سرده لا يخل بشيء منه(٨١).

ومن سرقسطة أيضاً العلامة عبدالله بن عيسى الشيباني (ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م) وصف بالحفظ والإتقان لصحيح البخاري وسنن أبي داود(٨٢).

ولم تقف همة الأندلسيين على حفظ صحيح البخاري. بل كانوا شديدي العناية بشرحه وتوضيحه وتبيان ما يلحق ببعض أحاديثه من غموض والتباس. فمن أهم شراح صحيح البخاري العلامة المحدث علي بن خلف ابن عبدالملك بن بطال المعروف بابن اللحام (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) من أعلام دولة بني جهور بقرطبة. وكان عاكفاً على دراسة صحيح البخاري، فوضع فيه شرحا يقع في عدة أسفار تناقله العلماء وتداولوه بينهم لجلالة قدره(٨٣).

وصنف العلامة المحدث علي بن خلف البكري من أعلام مملكة بني عباد بقرطبة (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م). شرحا لصحيح البخاري. نال استحسان العلماء وحاز إعجابهم لنفاسته وقيمته العلمية الرفيعة فتنافسوا في اقتنائه(٨٤).

---

(٧٩) البخاري هو: محمد بن إسماعيل الجعفي مولاهم (ت ٢٥٦هـ/ ٨٦٩) الحافظ الكبير صاحب الجامع الصحيح رحل في طلب الحديث إلى كثير من البلاد وألف كتابه العظيم الذي قال فيه: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين (ابن خلكان وفيات الأعيان ج (ص ١٨٨).

(٨٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٦١).

(٨١) ابن بشكوال : نفس المصدر ج ٢ (ص ٥٥٢) من أصحاب أبي علي الصدفي (ت ٥١٤هـ/ ١١٢٠م).

(٨٢) ابن بشكوال : نفس المصدر ج ١ (ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٨٣) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ (ص ٢١٤).

(٨٤) عياض : ترتيب المدارك ج ٤ (ص ٨٢٧).

ولكلا العالمين محمد بن علي بن إبراهيم الأموي من مملكة بني ذي النون بطليطلة (ت ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م) ومحمد بن سعيد المربي من اهل المرية (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢) شرحٌ على صحيح البخاري(٨٥).

والعلامة جابر بن غالب بن سليم الجذامي من مملكة بني عباد باشبيلية (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) وصف بالعناية الفائقة بعلوم الحديث وإحاطته بفهمها. وصنف في شرح صحيح البخاري كتابا سماه (ترتيب الطرر). ينم عن براعته ومهارته في الحديث(٨٦).

وللعلامة المحدث الكبير المهلب بن أحمد بن أبي صفرة من إمارة المرية (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) كتاب في شرح صحيح البخاري وصف بالأهمية والقيمة العلمية الكبيرة(٨٧).

وبهذا يتبين لنا مدى عناية أولئك العلماء بمصادر الحديث الشريف وما بذلوه من جهود كبيرة في دراسته وشرحه وتبيان ما يحويه من أحكام وآراء تشريعية، إلى جانب نشاطهم في نشر الأحاديث الكريمة التي حواها صحيح البخاري الذي اعتبره المسلمون المصدر الموثوق للتشريعات بعد القرآن الكريم.

ولم يكن صحيح مسلم بأقل أهمية من حيث العناية والاهتمام من قبل أولئك العلماء بل (كثرت عناية علماء المغرب به وأكبّوا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب صحيح البخاري من غير الصحيح مما لم يكن على شرطه، وأكثر ما وقع له في التراجم)(٨٨).

ونظرا لاهتمام المغاربة والأندلسيين بصحيح مسلم فقد صنف العلامة محمد بن علي بن عمر التميمي المازري (ت ٥٣٦هـ/ ١١٤١م) ـ من أهل صقلية ـ كتابا في شرح أحاديث صحيح مسلم يعتبر من أوائل شروحات هذا

(٨٥) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٥٥٥ ـ ٥٥٧).
(٨٦) ابن الأبار : تكملة الصلة ج ١ (ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٨٧) الذهبي : العبر ج ٣ (ص ١٨٤ ـ ١٨٥).
(٨٨) ابن خلدون : المقدمة. (ص ٤٤٣). ومسلم. هو مسلم بن الحجاج النيسابوري القشيري (ت ٢٦١هـ/ ٨٧٤م) أحد الأئمة الحفاظ وأعلام الحديث ارتحل إلى عدد من الأقطار في طلب العلم وكان يقول عن كتابه صنفت هذه السنن من ثلثمائة ألف حديث مسموعة (انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ج ٥ (ص ١٩٤).

الكتاب وسماه «المعلم بفوائد مسلم»، ثم أكمله العلامة القاضي عياض وسماه «إكمال المعلم». وأخيراً أضاف العلامة النووي إليه شروحا أخرى[٨٩].

وللعلامة عبدالله بن عيسى الشيباني من مملكة بني هود بسرقطة (ت ٥٣٠هـ/ ١١٣٥م). عناية بالغة بصحيح مسلم. فحفظه وصنف في شرحه كتابا لم يتمه، وعلاوة على ذلك فقد كان حافظا لصحيح البخاري وسنن أبي داود[٩٠].

وألف العلامة المحدث عبدالله بن أحمد بن سعيد من مملكة بني عباد باشبيلية (ت ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م) كتبا مختلفة في الحديث وعلومه. ومن بينها كتاب «المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج»[٩١].

ويماثله في هذا التصنيف ما ألفه أحمد بن طاهر بن علي الخزرجي من أهل دانية (ت ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) عن رجال صحيح مسلم بن الحجاج[٩٢].

وهكذا نلمس مدى اهتمام علماء الحديث من الأندلسيين بكتب الصحاح وما أضافوه من إضافات علمية مهمة، مهدت الطريق أمام المتطلعين لدراسة أحاديث المصطفى ﷺ في ذلك القطر. ووضحت سبل الإدراك لكثير من الأحاديث التي قد يشوبها شيء من الغموض والالتباس فبينوا مقاصدها وأجلوا عنها ما قد يعيق فهمها ومعرفتها.

ولم يتوقف اهتمام الأندلسيين عند كتابي البخاري ومسلم بل درسوا السنن الأربعة المشهورة. فالعلامة أبو الحسن رزين بن معاوية العبدري (ت ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) من مملكة بني هود بسرقطة صنف كتابا في جمع ما يتضمنه كتاب مسلم والبخاري والموطأ وسنن النسائي والترمذي وأبي داود وسماه «تجريد الصحاح». وقد لقي هذا الكتاب في أوساط أهل الحديث منزلة سامقة وحاز إعجاب العلماء وثناءهم في المشرق والمغرب على حد سواء[٩٣].

---

(٨٩) ابن خلدون : المقدمة (ص ٤٤٣)، وانظر محمد الشاذلي النيفر: المازري الفقيه المتكلم وكتابه المعلم (ص ٨٢) وما بعدها.

(٩٠) ابن بشكوال : الصلة ج ١، (ص ٢٩٥ - ٢٩٦)

(٩١) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٩٢) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤٤).

(٩٣) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ١٢٣) المقري : النفح ج ٣ (ص ١٨٠) وانظر ابن بشكوال الصلة، ج ١ (ص ١٨٦ - ١٨٧).

وفي هذا العصر برز الكثير من علماء الحديث سنقتصر الحديث على أبرزهم من حيث النشاط العلمي. يأتي في مقدمة هؤلاء العلامة المحدث المهلب بن أحمد بن أسيد بن أبي صفرة الأسدي من أهل المرية (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م) وقد وصف هذا العالم بالمعرفة والذكاء والفهم في علوم الدين عامة ولكنه تميز برسوخه في الحديث، حتى قال فيه العلامة أبو عمرو بن الحذاء (كان أذهن من لقيته وأفصحهم وأفهمهم)[٩٤].

وينسب إلى هذا العالم الكبير أنه أحيا العمل بصحيح البخاري ولفت أنظار العلماء لأهميته وتناوله بالدراسة والبحث.. ولم يتوان هو عن أداء هذه المهمة فقد توفر على تدريسه وشرحه لطلبة العلم. ووضع مصنفا قيما في ذلك واختصره في مصنف سماه. «النصيح في اختصار الصحيح» وعلق عليه تعليقات مفيدة أخذه عنه العلماء وطلبة العلم[٩٥].

واختصر هذا الشرح تلميذه محمد بن خلف بن المرابط الصدفي (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) وأضاف إليه إضافات قيمة[٩٦].

وتألق العلامة الكبير أبوالوليد سليمان الباجي (٤٠٣ - ٤٧٤هـ/ ١٠١٢ - ١٠٨١م) من مملكة بني هود بسرقسطة في علم الحديث، وقد سبقت الإشارة إلى ارتحاله إلى المشرق وإقامته به ثلاثة عشر عاماً ولقائه أعلام الفقه والحديث هناك ومنهم أبو ذر الهروي[٩٧].

وعاد الباجي إلى الأندلس مملوء الوطاب فقها وحديثا، فكان أحد حفاظ الحديث المشهورين، وصفه تلميذه أبوعلي بن سكره بقوله (ما رأيت مثله، وما رأيت على سمته وهيئته وتوقير مجلسه، وهو أحد أئمة المسلمين)[٩٨].

ولأبي الوليد عدد من الكتب في علم الحديث منها «التعديل والتجريح

---

(٩٤) ابن بشكوال: الصلة ج ٢ (ص ٦٣٦).
(٩٥) عياض: ترتيب المدارك ج ٤ (ص ٧٥١ - ٧٥٢) الذهبي: العبر ج ٣ (ص ١٨٤ - ١٨٥) ابن فرحون: الديباج، مطبعة المكتبة العلمية (ص ٣٤٨). ابن الخطيب: الإحاطة ج ٣ ص ٣٠٣ - الحنبلي: شذرات الذهب ج ٣ (ص ٢٥٥ - ٢٥٦) حاجي خليفة: كشف الظنون ج ١ ص ٥٤٥.
(٩٦) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ١ ص ٥٤٥ - ٥٤٦.
(٩٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٢٠٠ - ٢٠١).
(٩٨) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٢٠١ - ٢٠٢).

فيمن روى عنه البخاري في الصحيح»، وكتاب «الاستيفاء» في الفقه والحديث، وكتاب «الجرح والتعديل»[٩٩].

ونظرا لعلو منزلة الباجي العلمية وذيوع صيته بوصفه أحد أقطاب المذهب المالكي فقد رأى فيه الفقهاء خير نصير لهم على خصمهم اللدود ابن حزم الظاهري فدارت بين الاثنين مناظرات علمية مشهورة تقلص على أثرها نشاط ابن حزم الظاهري ودفعه ذلك إلى اعتزال الناس.

وللعلامة الحافظ ابن عبدالبر النمري (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) من مملكة دانية اهتمامات واسعة بالحديث، فقد كان ماهرا في الحديث بارعا في علومه عارفا بأحواله متنا وسندا حتى قال فيه أبوالوليد الباجي (لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر في الحديث)[١٠٠].

وله في هذا المضمار دراسات قيمة. فقد صنف في الحديث كتاب «التقصي لحديث الموطأ» وكتاب «الكنى في رجال الحديث..» وكتاب «الشواهد في إثبات خبر الواحد» وكتاب «الإنباء على قبائل الرواة في اسماء رجال الحديث»[١٠١]، كما أنه اختصر تاريخ أحمد بن سعيد المتجيلي الذي صنفه في تاريخ الرجال وما قيل فيهم من جرح أو تعديل[١٠٢].

ولابن حزم (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) ـ صديقه ـ مشاركة عظيمة في ازدهار علوم الحديث، فقد صنف كتاب «الجامع في صحيح الحديث..» وكتاب «شرح حديث الموطأ والكلام على مسائله» و«ترتيب مسند بقي بن مخلد» و«أجوبة من صحيح البخاري» وكتاب «مهم السنن» وغيرها[١٠٣].

وكان الحافظ أبوعلي الحسين محمد بن أحمد الغساني (٤٢٧ ـ ٤٩٨هـ/ ١٠٣٥ ـ ١١٠٤م) ـ من أعلام مملكة بني عباد في قرطبة ـ (من جهابذة المحدثين وكبار العلماء المسندين. وعُني بالحديث وكتبه وروايته وضبطه ورحل

---

(٩٩) الداودي : طبقات المفسرين ج ١ (ص ٢٠٩ ـ ٢١٠) وانظر بقية مصنفاته فيما يلي تلك الصفحة.
(١٠٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ ج ٣ (ص ١١٢٨).
(١٠١) الذهبي : المصدر السابق ج ٣ (ص ١١٢٩ ـ ١١٣٠).
(١٠٢) الحميدي : الجذوة (ص ١٢٥).
(١٠٣) عبدالحليم عويس : ابن حزم الظاهري، (ص ١١٢) وانظر بقية مصنفاته في نفس الصفحة وما يليها.

الناس إليه، وعولوا في الرواية عليه، وجلس لذلك بالمسجد الجامع بقرطبة وسمع منه أعلام قرطبة وكبارها وفقهاؤها وجلتها)[١٠٤].

ويشير القاضي عياض إلى أن انفراد أبي علي الصدفي بإمامة الحديث في الأندلس لم يكن إلا بعد وفاة أبي علي الغساني الذي كان يعتبر آخر المسندين وكبير حفاظ الحديث[١٠٥].

وكان أبو علي حريصا على نشر علمه بين الناس ساعيا في تحقيق ذلك مع جميل الأخلاق وحسن السيرة. فانجفل إليه طلبة العلم والراغبون في دراسة الحديث وعلومه، وكان بين الدارسين عليه عدد من العلماء الكبار ومنهم الحافظ أبوعلي الصدفي، والفقيه المفسر ابن عطية الذي التقى به في غرناطة (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) فاستجازه وسمع منه. ثم التقى به مرة أخرى وأقام لديهم نحوا من شهر وقرأ عليه موطأ مالك بن أنس[١٠٦].

وفيما يتعلق بإنتاجه العلمي فقد صحح بعض الكتب المصنفه في الحديث كما ألف كتابه الشهير على الصحيحين المسمى بـ«تقييد المهمل وتمييز المشكل» وضبط فيه كل لفظ مبهم يقع فيه اللبس من رجال الصحيحين ولم يدخر جهدا في توضيح ما غمض من ذلك، ووصف هذا الكتاب بعظم الفائدة وجلالة القدر[١٠٧].

وخلف أبا علي في إمامة الحديث في الأندلس تلميله وصديقه الحافظ أبو علي الحسين بن محمد بن فيرّة الصدفي (ت ٥١٤هـ/١١٢٠م) أصله من مدينة سرقسطة ونشأ فيها وأخذ عن علمائها أمثال أبي الوليد الباجي. ثم انتقل إلى المرية وبلنسية. حيث التقى بعلمائها أمثال العذري وابن سعدون، ثم شد رحاله إلى المشرق فسمع على كبار العلماء والمحدثين في مصر ومكة

---

(١٠٤) ابن بشكوال: الصلة، ج ١، (ص ١٤٢ ـ ١٤٣) وانظر ما يضمنه هذا المعنى، القاضي عياض: الغنية ص ٢٠١ ـ ابن عطية: الفهرس ص ٥٦ ـ ٥٧ ابن الأبار: المعجم ص ٧٩ ـ ٨٠ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ (ص ١٨٠).

(١٠٥) ابن الأبار : المعجم ص ٧٩ ـ ٨٠.

(١٠٦) ابن عطية : الفهرس، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(١٠٧) عياض: الغنية (ص ٢٠٢) ابن بشكوال الصلة، ج ١ (ص ١٤٣ ـ ٢٤٤) الضبي: بغية الملتمس (ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦) ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ (ص ١٨٠).

والعراق والشام[١٠٨].

ويذكر القاضي عياض أنه صنف في شيوخه كتابه «المعجم» حيث تحدث عن أبي علي وحياته وسيرته العلمية ثم أشار إلى شيوخه وأخبارهم، وهم نحو مائتي شيخ[١٠٩].

كما أن ابن الأبار أكمل ذلك الكتاب فصنف كتاب «المعجم» ذكر فيه تلاميذ أبي علي ومعاصريه ممن شاركوه العلم وأخذوا عنه وأخذ عنهم[١١٠].

وقصد أبو علي مرسية بعد عودته إلى الأندلس واستوطنها فبث علومه ومعارفه بجامعها وقصده الناس يدرسون عليه ويأخذون عنه وطار صيته بالعلم والتمكن في الحديث وعلومه، ولا غرو في ذلك فقد (كان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته. يبصر المعدلين منهم والمجرحين)[١١١].

ومن دلائل براعته وتضلعه من حفظ الصحيحين ما أشار إليه القاضي عياض من أن أبا علي قال لبعض تلاميذه: خذ الصحيح فاذكر أي متن شئت منه أذكر لك سنده، أو أي سند شئت أذكر لك متنه[١١٢].

وكان جل اهتمامه منصبا على العناية بصحيحي البخاري ومسلم وسنن الترمذي، فكان حافظا عالما بمتونها وأسانيدها. عارفا برواتها. وكتب بيده نسخة من صحيح البخاري ونسخة من صحيح مسلم أيضا[١١٣].

وكتب إليه المحدث المفسر ابن عطية يستجيزه جيمع روايته، فكتب إليه بذلك، ثم لقيه بمرسية، وقرأ عليه كتاب الترمذي رحمه الله[١١٤].

كما أن ابن بشكوال نال منه ـ أي من أبي علي الصدفي ـ إجازة ما رواه بخطه. ووصفه بقوله (هو أجلّ من كتب إلينا من شيوخنا ممن لم ألقه)[١١٥].

ويرز في عصر ملوك الطوائف في مملكة غرناطة العلامة المحدث أبوبكر

---

(١٠٨) عياض : الغنية (ص ١٩٤).
(١٠٩) الغنية : (١٩٤).
(١١٠) المعجم (ص ١)
(١١١) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ١٤٥ ـ ١٤٦).
(١١٢) ابن فرحون : الديباج، (ص ١٠٥) ـ المقري: نفح الطيب ج ٢ (ص ٩٢).
(١١٣) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ١٤٦).
(١١٤) الفهرس، (ص ٧٤ ـ ٧٥)
(١١٥) الصلة، ج ١، (ص ١٤٥ ـ ١٤٦).

غالب بن عبدالرحمن بن غالب المحاربي الغرناطي (٤٤١ ـ ٥١٨هـ/ ١٠٤٩ ـ ١١٢٤م). وكان معدودا في حفاظ الحديث الكبار، العارفين بطرقه وعلله وأسماء رجاله ونقلته، عميق الفهم في مسائله، حافظا لمتونه ومعانيه[١١٦].

وكان شديد العناية بالعلم في جميع اوقاته، حتى روي انه ربما يوقظ ابنه عبدالحق في الليلة مرتين ليدون معلومة او يسجل فائدة علمية تتعلق بكتابه الذي ألفه في التفسير[١١٧].

وهذا يعطينا دلالة واضحة على ما كان يوليه أولئك العلماء من عناية واهتمام بتآليفهم حتى تظهر في صورة رفيعة وعلى أكمل حال من الإحاطة والشمول والدقة والفائدة.

ومما تجدر الإشارة إليه ماعُرف عن العلامة غالب بن عبدالرحمن من توفره على دراسة صحيح البخاري واهتمامه بتدريسه لطلبة العلم، وقد أبدى في ذلك صبرا وجلدا حتى ذكر أحد العلماء أنه كرر قراءة وتدريس صحيح البخاري سبعمائة مرة[١١٨].

وربما كانت إصابة ذلك العلامة الكبير والمحدث الجليل بالعمى آخر عمره[١١٩] فيه ما ينم عن حياته الحافلة بالدراسة وتحصيل العلم والاطلاع الواسع على مصادر المعرفة في الحديث وغيره من علوم الدين.

وفي أواخر عصر ملوك الطوائف ظهر بعض العلماء الكبار في الحديث منهم العلامة المحدث أبوالقاسم أحمد بن محمد بن عمر بن ورد التميمي (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ/ ١٠٧٢ ـ ١١٤٥م) من أهل المرية ـ كان من المتمكنين في الفقه والحديث إلى جانب معرفته بالأصول وعلم التفسير[١٢٠].

وكان والده من أهل القيروان ورد الأندلس وحل بمدينة المرية فاستوطنها وطاب له المقام، وفيها نشأ ابنه أحمد (فكان عالمها المنظور إليه وحبرها المجمع

---

(١١٦) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٥٧).
(١١٧) الضبي : بغية الملتمس، (ص ٤٤١).
(١١٨) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٥٧ ـ ٤٥٧) الكتبي. عيون التواريخ ج ١٢ (ص ١٦٨).
(١١٩) انظر ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٥٨) والداودي: طبقات المفسرين، ج ٢ (ص ٢٧).
(١٢٠) ابن فرحون : الديباج المذهب، (ص ٤١) الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٨٥).

عليه مع التحقيق ودقة النظر ولطف الاستنباط وتوقد الذهن)[١٢١].

ومن الطريف أن أبا القاسم وأخاه عبدالملك كانا في بداية حياتها مشتغلين بالتجارة والتصرف فيها، ثم ما لبثا أن انصرفا إلى العلم ومطالعة الكتب، فدرس أبوالقاسم على علماء المرية ثم اتجه إلى قرطبة فلقي علماءها الأعلام. ثم رحل إلى سجلماسة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩) ليسمع صحيح البخاري من المحدث بكار بن نزهون. وانتهز فرصة ورود أبي علي الغساني على المرية للاستشفاء فسمع منه وقرأ عليه الحديث، ثم ارتحل إلى قرطبة فسمع من أبي علي هناك الموطأ وصحيح البخاري[١٢٢].

وقعد أبوالقاسم لتدريس الحديث بجامع المرية. حيث كان يلقي دروسه في صحيحي البخاري ومسلم على طلبة العلم. وخص يوم الخميس من كل أسبوع لتدريس التفسير[١٢٣].

وصنف أبـوالقـاسم كتابا على المدونة، وله عدة رسائل تتضمن مسائل وأجوبة مدونة عنه. كما أنه صنف في شرح صحيح البخاري كتابا كبيرا يدل على سعة علمه، ورسوخ فهمه في الحديث وعلومه[١٢٤].

وكان صديقه أبوبكر بن العربي من اشبيليه مشاركا في دراسة الحديث ونشاط علومه، وقد سبقت الإشارة إلى رحلته العلمية إلى المشرق وأخذه العلم عن كبار علمائه، وعودته بعد ذلك إلى وطنه بعلم كثير ومعارف واسعة حتى قيل إنه لم يدخل أحد قبله بلده اشبيلية بما يماثل علمه ممن رحل إلى المشرق[١٢٥]. وصفه ابن بشكوال بقوله (الإمام العالم الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس)[١٢٦].

ولابن العربي تصانيف في الحديث وعلومه تشهد له بطول الباع في هذا العلم، فمنها كتاب «النيرين في الصحيحين» وكتاب «مشكل القرآن والسنة»

---

(١٢١) ابن الأبار : المعجم، (ص ٢٠ - ٢١).
(١٢٢) ابن الأبار : المعجم. (ص ٢١ - ٢٢).
(١٢٣) ابن فرحون : الديباج المذهب، (ص ٤١) الداودي طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٨٦).
(١٢٤) الضبي : بغية الملتمس، (ص ١٦٧) - ابن الأبار : المعجم، (ص ٢٢).
(١٢٥) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٥٩٠ - ٥٩١).
(١٢٦) نفس المصدر والجزء (ص ٥٩٠).

وكتاب في «الكلام على مشكل حديث السُبحات والحجاب» وكتاب «حديث الإفك» و«شرح حديث جابر في الشفاعة» و«شرح حديث أم زرع» وكتاب «عارضة الأحوذي في شرح الترمذي»[١٢٧].

وكفى ابن العربي شرفاً أنْ قال فيه الحجاري: إنه لو لم ينسب إلى مدينة اشبيلية إلاّ ابن العربي لكفاها فخرا ومجدا يرتد عنه الطرف وهو حسير[١٢٨].

وهناك علماء آخرون أقل قدرا ممن ذكرنا، منهم العلامة المحدث عبدالله بن أحمد بن سعيد الاشبيلي (٤٤٤ - ٥٢٢هـ/ ١٠٥٢ - ١١٢٨م). من أعلام مملكة بني عباد. كان من حفاظ الحديث الماهرين في معرفته متناً وسندا. بارعا في أحوال الرواة المعدلين منهم والمجرحين[١٢٩].

ولهذا العلامة مشاركة جيدة في نشاط الدراسات المتعلقة بالحديث وعلومه منها كتاب «الإقليد في بيان الأسانيد». وكتاب «تاج الحلية وسراج البغية في معرفة أسانيد الموطأ» وكتاب «لسان البيان عما في كتاب ابن نصر الكلاباذي من الإغفال والنقصان».. وكتاب.. «المنهاج في رجال مسلم بن الحجاج»[١٣٠].

ويلاحظ في كتابه الثالث ظاهرة علمية حيدة تتجلى في كثير من إنتاج الأندلسيين العلمي، وهي ظاهرة النقد والإضافة والتصويب لما صنفه علماء المشرق في مختلف فروع المعرفة، وذلك أن الأندلسيين لم يكتفوا بقراءة ودراسة مصنفات المشارقة بل تناولوها بالعين البصيرة والنقد العلمي الثاقب، فأضافوا الكثير إلى تلك الدراسات ونقدوا البعض منها وأكدوا بذلك قدرتهم على إثبات ذاتهم وقدراتهم العلمية المميزة.

وللعلامة أحمد بن طاهر من مملكة دانية (٤٦٧ - ٥٣٢هـ/ ١٠٧٤ - ١١٣٧م) تصنيف على موطأ الإمام مالك سماه «الإيماء» ضاهى به كتاب أطراف الصحيحين لأبي مسعود الدمشقي وعرضه على أستاذه أبي علي

---

(١٢٧) المقري : نفح الطيب ج ٢ (ص ٣٥ - ٣٦).
(١٢٨) ابن سعيد : المغرب ج ١، (ص ٢٥٤ - ٢٥٥) نقلا عن الحجاري.
(١٢٩) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٩٣ - ٢٩٤). وانظر الضبي: البغية (ص ٢٤٠).
(١٣٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٩٣).

الصدفي فاستحسنه وأشار عليه بالتوسع فيه فأضاف إليه زيادات علمية أخرى[١٣١].

والعلامة المحدث القاسم بن الفتح بن أحمد من مملكة سرقسطة (٣٨٨ - ٤٥١هـ/ ٩٩٨ - ١٠٥٩م) كان بارعا في الحديث ماهرا في علومه، وله فيه تآليف عديدة أكثرها رسائل، وكان قد شرع في جمع الحديث في كتاب أسماه «الاستيعاب». ولكن أجله حال دون إكماله[١٣٢].

وكان لهؤلاء العلماء صفات رفيعة في سيرهم العلمية، من أبرزها ما أبداه الكثير منهم من الصبر والجلد والإخلاص للعلم ونشره، فهذا العلامة المحدث أحمد بن عبدالله بن جابر الأزدي من مملكة بني عباد باشبيلية (٤٤٧هـ - ٥٣٦ / ١٠٥٥ - ١١٤١م) ضرب المثل الأعلى في إخلاصه وتفرغه للعمل حيث لازم التدريس في مسجد ابن تقي باشبيلية ما يقارب ستين سنة، لم يخرج منه إلا لصلاة الجمعة أو لمنزله الملاصق للمسجد أو إلى ما يضطر إليه الإنسان وارتحل إليه طلبة العلم بأعداد كبيرة للأخذ والسماع عليه[١٣٣].

وأخيرا فهؤلاء هم أشهر المحدثين في عصر ملوك الطوائف، وقد يكون هناك من يماثلهم أو يتفوق عليهم ولكن كتب التاريخ والتراجم لم تمدنا إلا بسير من ذكرنا من هؤلاء، أو أنها بخلت علينا بالحديث عن غيرهم من الأعلام فاكتفت بالإشارة إلى أحدهم دون بسط القول في حياته العلمية[١٣٤].

وزبدة القول أن ميدان الحديث في هذه الفترة وجد من يعنى به ويعلومه فازدهر ازدهارا كبيرا، ولا يزال بين أيدينا كثير من ذلك الإنتاج النفيس لعلماء هذا العصر.

---

(١٣١) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤٤ - ابن فرحون : الديباج (ص ٤٥).
(١٣٢) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤٧٠ - ٤٧١).
(١٣٣) المراكشي : الذيل والتكملة ج ١ (ص ١٣٧ - ١٣٨).
(١٣٤) انظر مثلا : ابن الأبار: المعجم (ص ١١٨ - ١١٩) الضبي: البغية (ص ٧٣) التنبكتي: نيل الابتهاج، (ص ١٣٠ - ١٣١) ابن بسام: الذخيرة ق ٢ ج ١ (ص ٨٢ - ٨٣) السلفي: معجم السفر (ص ٥٧) ابن سعيد: المغرب ج ١ (ص ١٥٩) ابن بشكوال: الصلة ج ١ (ص ٢٤٠ - ٢٤١) ابن القاضي: جذوة الاقتباس ق ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٨. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٢ (مخطوط) ورقة ٥٩ أ.

ومن الحق أن نشير إلى أن الأندلسيين لم ينقطعوا عن الاتصال بإخوانهم المشارقة، إذ رأوا أن الرحلة من كمال الشخصية العلمية، وأن لقاء العلماء فيه توسيع لإطار المعرفة وترسيخ لها، ولكنهم مع ذلك لم يغفلوا عن محاولة تأكيد دورهم الفكري والسعي إلى تثبيت معالم تفوقهم على تيار الحركة العلمية في بلادهم، فقد أخذوا عن المشارقة كثيرا من إنتاجهم ولكنهم درسوه وعرضوه على ميزان النقد وروح التمحيص فصححوا وعدلوا وأضافوا شيئا كثيرا إلى المكتبة الإسلامية، ومن يُلْقِ نظرة سريعة على المكتبة الدينية وما يتصل بالحديث منها على وجه التخصيص فسيقف بحق على عظيم ما أسداه أمثال ابن حزم وابن عبدالبر وابن العربي وابن رشد والباجي.

(٣) علوم القرآن

القراءات

جدير بنا أن نوضح معنى القراءات قبل أن نتحدث عن نشاط دراساتها في الأندلس فقد روي أن الصحابة رضي الله عنهم رووا القرآن عن رسول الله ﷺ على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات الحروف في أدائها. ثم تناقلها الناس واشتهرت، إلى أن استقرت منها سبع طرق معينة. وتواتر نقلها أيضا بأدائها ونسبت إلى من اشتهر بروايتها، وأصبحت تلك الطرق السبع أو القراءات السبع أصولا للقراءة بين المسلمين وذاعت بينهم[١٣٥].

والقراءات التي يقرأ بها الناس اليوم وصحت روايتها عن الأئمة إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووافق اللفظ بها خط مصحف عثمان رضي الله عنه الذي أجمع الصحابة رضي الله عنهم ومن أتى بعدهم عليه ونبذ ما عداه[١٣٦].

والقراء السبعة الذين اشتهرت قراءاتهم بين المسلمين هم نافع المدني[١٣٧] وعاصم بن أبي النجود[١٣٨] وأبوعمرو بن العلاء[١٣٩] وعبدالله بن كثير[١٤٠]، وعبدالله بن عامر[١٤١]، وحمزة بن حبيب[١٤٢] وعلي بن حمزة الكسائي[١٤٣].

---

(١٣٥) ابن خلدون : المقدمة (ص ٤٣٧).

(١٣٦) مكي بن أبي طالب: الإبانة عن معاني القراءات، (ص ٢١ - ٢٢).

(١٣٧) هو نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم، إمام أهل المدينة وعليه استندوا في قراءاتهم (ت ١٦٩هـ/ ٧٨٥م) ابن الباذش : الإقناع ج ١ (ص ٥٥) وانظر ابن الجزري: تحبير التيسير (ص ١٣ - ١٤).

(١٣٨) من القراء السبعة كان ضريرا من أهل الكوفة تصدر للإقراء بعد وفاة أبي عبدالرحمن السلمي (٧٣هـ/ ٦٩٢م) ابن الباذش : الاقناع، ج ١ (ص ١١٥). الجزري: تحبير التيسير، (ص١٥).

(١٣٩) أبوعمرو بن العلاء بن عمار بن العريان كان أعلم الناس بالغريب والعربية والقرآن وتتبع حروف القرآن تتبعا استحق به الإمامة (ابن الباذش: الإقناع، ج ١ (ص ٩٢ - ٩٣).

(١٤٠) عبدالله بن كثير المكي الداري - والداري بطن من لخم ولد بمكة (٤٥ هـ/ ٦٦٥م) وتوفي (١٢٠هـ/ ٧٣٧م) (ابن الباذش: الإقناع ج ١ (ص٧٧ - ٧٨).

(١٤١) عبدالله بن عامر اليحصبي قاضي دمشق في أيام الوليد بن عبدالملك، من التابعين سمع من أبي الدرداء ومعاوية بن أبي سفيان (ابن الباذش: ج ١ (ص ١٠٣ - ١٠٤).

(١٤٢) حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي الزيات. أحكم القراءة في سن مبكرة وذاع صيته في القراءات والفرائض. توفي (١٥٦هـ/ ٧٧٢م). ابن الباذش: الإقناع ج ١ (ص ١٢٥ - ١٢٦) - ابن الجزري. تحبير التيسير (ص ١٦).

(١٤٣) علي بن حمزة بن عبدالله الكوفي - كان صادقا واسع العلم بالقرآن والعربية وكان عمدة أهل الكوفة في النحو. توفي في خلافة هارون الرشيد (ابن الباذش: الأقناع ج ١ (ص ١٣٨ - ١٣٩) ابن الجزري: المصدر السابق، (ص ١٦).

وعلم القراءات من العلوم التي تجلى فيها تفوق الأندلسيين وأحرزوا فيها نتائج رائعة فاقوا بها غيرهم من علماء الأقطار الإسلامية الأخرى(١٤٤).

ولعل أول اتصال للأندلسيين بعلوم القراءات في المشرق ما تم في رحلة العلامة الغازي بن قيس (ت ١٩٩هـ/ ٨١٤م) الذي نسب إليه إدخال موطأ مالك إلى الأندلس، وقراءة نافع بن أبي نعيم(١٤٥).

وبناء عليه فإن جهود الغازي تعتبر فاتحه النشاط العلمي في هذا الحقل المهم من الدراسات القرآنية. وجدير بالذكر أن نشير إلى ما ذكره المقدسي من أن قراءة نافع هي القراءة المنتشرة في الأندلس، مما ينم عن غلبتها على ما سواها من القراءات(١٤٦).

وحظيت القراءات في العصر التالي لعصر الإمارة وهو عصر الخلافة بمزيد من الاهتمام والعناية ـ وكان الخلفاء والأمراء حريصين على تقريب القراء والإفادة من علمهم في تنشئة أبنائهم وتربيتهم التربية الدينية الصالحة، فالخليفة المستنصر رحب بمقدم العلامة علي بن محمد الأنطاكي (٢٩٩ ـ ٣٧٧هـ/ ٩١١ ـ ٩٨٧م) الذي دخل الأندلس سنة ٣٥٢هـ/ ٩٦٣م) وأفاد الحكم وسواه من علمه.

كما أن المنصور بن أبي عامر عين العلامة المقرىء أحمد بن علي الربعي (ت ٤١٠هـ/ ١٠١٩م) مؤدباً لابنه عبدالرحمن(١٤٧).

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن معظم القراء الذين سنشير إليهم في عصر ملوك الطوائف عاصروا أيضا فترة الخلافة.

وفي عصر ملوك الطوائف شهد هذا اللون من الدراسات القرآنية نشاطا باهرا، وتألق في هذه الفترة كبار علماء القراءات الأندلسيين، ويأتي في مقدمتهم العالم الشهير أبوعمرو عثمان بن سعيد بن عثمان القرطبي الداني من بلاط مجاهد العامري أمير دانية (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م) ويعتبر الداني

---

(١٤٤) لطفي عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا، ص ٤٥.
(١٤٥) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء، ج ٢، (ص ٧).
(١٤٦) أحسن التقاسيم، (ص ٢٣٦).
(١٤٧) ابن بشكوال : الصلة، ج ١، (ص ٨٥).

أحد مفاخر الأندلس ومن يشار إليه بالبنان إذا ما ذكر أقطابها في علوم القرآن، فقد كان واسع المعرفة بالقراءات، عارفا بدقائقها بارعا في فهم أسرارها، يدل على ذلك ما خلفه بعد وفاته من مصنفات وتآليف قيمة. وكان حريصا على أن يكون علم القراءات وقواعده ميسور المأخذ. سهل المنال ليتسنى فهمه وتعلمه. فنظم في علم القراءات أرجوزة ليحفظها الطلبة ومن له رغبة في دراسة هذا العلم(١٤٨).

وعرف الداني بنشاطه الجم في تدريس القراءات وتعليمها حتى بين النساء، فيروي الضبي أن أبا الحسن نجبة بن يحيى قال: أخبرني من أثق به أن أبا عمرو المقرىء أقرأ بالمرية مدة ـ وكانت ريحانة تقرأ عليه القرآن بها، كانت تقعد خلف ستر فتقرأ ويشير لها بقضيب بيده إلى المواقف. فأكملت السبع عليه وطالبته بالإجازة فامتنع وقرأت عليه خارج السبع روايات(١٤٩).

والحق أن الداني اكتسب منزلة سامية بين علماء عصره ومن أتى بعدهم ونال من الثناء ما هو جدير به، حتى عد فريد عصره في القراءات، وأنه لم يدانِه أحد في حفظه وتحقيقه ومعرفته بالقراءات ومعانيها وطرقها، فكان العلماء من بعده عالة على كتبه ومصنفاته(١٥٠).

وأشار إليه خوليان ريبيرا فقال (تعددت تآليفه فيها، وعول الناس عليها وأرسلت بما عداها إلى زوايا النسيان)(١٥١).

ومن مؤلفات أبي عمرو: «جامع البيان في القراءات السبع» وهو من أعظم كتبه ويشتمل على نيف وخمسمائة رواية وطريقة، حتى قيل: إنه جمع فيه كل ما يعلمه في هذا العلم(١٥٢)، وله كتاب «التحديد في معرفة التجويد» و«بالتلخيص لأصول قراءة نافع بن عبدالرحمن» و«الأرجوزة المنبهة على أسماء

---

(١٤٨) الحميدي: جلوة المقتبس (ص ٣٠٥) الضبي: بغية الملتمس (ص ٤١١ ـ ٤١٢) القفطي: انباه الرواه ج ٢ (ص ٣٤١) ابن فرحون: الديباج، مطبعة دار الكتب العلمية (ص ١٨٨) الحميري: الروض المعطار (ص ٦٧) السيد عبدالعزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، ج ٢ (ص ١٩٨) لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٤٥).

(١٤٩) بغية الملتمس (ص ٤١١ ـ ٤١٢).

(١٥٠) الذهبي : تذكرة الحفاظ، ج ٣ (ص ١١٢٠ ـ ١١٢١) ابن الجزري: تحبير التيسير، (ص ٩).

(١٥١) التربية الإسلامية، (ص ٦٥).

(١٥٢) حاجي خليفة : كشف الظنون، ج ١ (ص ٥٣٨).

القراء والرواة، وأصول القراءات» و«عقد الديانات بالتجويد والدلالات[153]» وكتـاب «التيسير في القراءات» و«طبقات القراء» في أربعة أسفار ذكر فيه المقرئين من الصحابة والتابعين ومن أتى بعدهم إلى عصره على حروف المعجم[154].

ولا ريب أن أبا عمرو بهذا الجهد العلمي الكبير قد احتل منزلة فريدة ليس في وطنه الأندلس فقط وإنما خارجها أيضا، فكان بلا مبالغة فريد عصره في القراءات[155].

وإلى جانب أبي عمرو الداني برز الفقيه المقرىء مكي بن أبي طالب حموش ابن حمود بن مختـار القيسي من أعـلام دولة بني جهور بقرطبة (٣٥٥ - ٤٣٧هـ/ ٩٦٥ - ١٠٤٥م). وكان مكي قد وفد إلى الأندلس (٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م) حيث رحب به الحاجب عبد الملك بن المنصور، وعينه لتدريس القرآن وعلومه بجامع الزهراء. ولما سقطت الدولة العامرية استدعاه الخليفة المهدي محمد بن هشام إلى قرطبة. حيث تبوأ منزلة كريمة بين علماء قرطبة آنذاك وأخذ في نشر علومه وتدريس طلبة العلم في جامع قرطبة. فاشتهرت مجالسه العلمية وعظم شأنه[156].

وصفه أحد أصحابه فقال (كان نفعه الله من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علوم القرآن، محسنا في ذلك مُجَوِّدًا للقراءات السبع - عالما بمعانيها)[157].

ولمكي مصنفات كثيرة منها «كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية» وكتاب «تفسير إعراب القرآن» وكتاب «التبصرة في القراءات السبع» وكتاب «البيان عن وجوه

---

(١٥٣) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه، (ص ٤٠ - ٤١).

(١٥٤) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٧٢) وانظر مصنفاته الأخرى لدى ابن الجزري: غاية النهاية ج ١، (ص ٥٠٥) والداودي: طبقات المفسرين ج ١ (ص ٣٨٠ - ٣٨١).

(١٥٥) لطفي عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا (ص ٤٥).

(١٥٦) ابن بشكوال : الصلة ج ٢، (ص ٦٣٢ - ٦٣٣) القفطي : إنباه الرواة ج ٣، (ص ٣١٣) وما بعدها- ابن فرحون: الديباج، مطبعة دار الكتب العلمية بيروت (ص ٣٤٦)- ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج ٥ (ص ٤١) الأنباري : نزهة الألباء، (ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

(١٥٧) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٣١).

(١٥٨) عياض : ترتيب المدارك ج ٤، (ص ٧٣٧ - ٧٣٨) - الأنباري: نزهة الألباء، (ص ٢٥٤ - ٢٥٥).

القراءات في كتابه التبصرة» وصف بغزارة الفائدة[158] وقد عد ابن خلكان من مصنفاته في القراءات ما يقارب عشرين كتابا ثم قال: (وله في القراءات واختلاف القراء وعلوم القرآن تصانيف كثيرة، ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها)[159]. .

وأدرك العلامة المقرىء أبوعمر أحمد بن محمد الطلمنكي[160] من أعلام دولة بني جهور (٣٤٠ ـ ٤٢٩هـ/ ٩٥١ ـ ١٠٣٧م) عصر ملوك الطوائف، وكان قد ارتحل إلى المشرق فأخذ عن علمائه وقرائه ثم عاد إلى الأندلس فاستقر بقرطبة. وكان معدودا في ائمة القراء، قائما على دراسة القرآن الكريم ماهـرا في قراءاته، بارعا في فهم معانيه وناسخه ومنسوخه وكل ما يتعلق بعلومه. وصنف في ذلك تصانيف تنم عن سعة علمه وإحاطته بتلك العلوم ورسوخ فهمه فيها.[161].

ومن تآليف الطلمنكي «الدليل إلى معرفة الجليل» مائة جزء، وكتابه في «تفسير القرآن» و«الوصول في معرفة الأصول» و«البيان في إعراب القرآن» وغير ذلك[162].

ومن مملكة اشبيلية برز العلامة المقرىء محمد بن شريح الرعيني الاشبيلي (٣٩٢ ـ ٤٧٦هـ/ ١٠٠١ ـ ١٠٨٣م) وقد وُصِفَ ابن شريح الرعيني بأنه كان من كبار المقرئين وخيارهم. مع الثقة والأمانة في الرواية والعلم[163].

وكان ابن شريح كريم المنزلة عظيم الجاه لدى المعتضد ملك اشبيلية وقرطبة وكان يؤم به وبوزرائه في شهر رمضان، وإلى هذا يشير الضبي بقوله (أخبرني المقرىء أبو الحسن نجبة بن يحيى بن خلف بن نجبة وقرأت عليه في داره بحضرة مراكش ـ حُرست ـ حزب ﴿ومـا أبـرئُ نفسي﴾[164] في سورة

(١٥٩) وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٧٥ - ٢٧٦ - ٢٧٧).
(١٦٠) نسبة إلى طلمنكة مدينة بشمال الأندلس من أملاك بني ذي النون (الحميري: الروض المعطار (ص ١٢٨).
(١٦١) عياض : ترتيب المدارك، ج ٤، ص ٧٤٩ ـ ٧٥٠ ـ ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ٤٥) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، (ص ٣٩) الصفدي: الوافي بالوفيات ج ٨، (ص ٣٢ - ٣٣) الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج ١، (ص ٣٠٩) ابن الجزري: غاية النهاية ج ١، (ص ١٢٠).
(١٦٢) ابن فرحون : الديباج ، (ص ٣٩).
(١٦٣) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٥٥٣) الضبي: بغية الملتمس (ص ٨١).
(١٦٤) سورة يوسف. آية رقم ٥٣.

يوسف. «فلما انتهيت من سورة الرعد إلى قوله «كذلك يضرب الله الأمثال»[165] وقفت عليه، فرفع رأسه إليّ وقال لي: أخبرني شريح عن أبيه محمد بن شريح أنه صلى بالمعتضد ذات ليلة في شهر رمضان. فقرأ هذه السورة ووقف. فلما كان يوم آخر وجه عنه المعتضد وقال له: والله ما فهمت قط الآية التي قرأت بها البارحة في سورة الرعد إلا من قراءتك. كنت أجعل «الحسنى» صفة للأمثال فجزاك الله خيرا. ووجه إليه بكسوة ومركوب حسن وألف دينار وجارية)[166].

وفي هذا دليل واضح على ما كان يتمتع به العلماء من رعاية الملوك وإكرامهم. ومن جهة أخرى فيه إشارة إلى اهتمام الملوك أنفسهم بالعلم ورغبتهم في التعلم على أحسن وجه، ولا عجب أن يظهر من بينهم علماء أجلاء. كالمظفر والمقتدر ومجاهد، وأدباء كالمعتضد وابنه المعتمد.

ولابن شريح مؤلفات قيمة نذكر منها «الكافي في القراءات السبع» عن القراء السبعة المشهورين و«التذكرة في القراءات السبع»[167].

ويذكر ابن خير أن من كتبه التي أفاد منها في دراسته وتعلمه كتاب «قراءة يعقوب بن إسحق الحضرمي» وكتاب «رواية الادغام الكبير لأبي عمرو بن العلاء» وهما من تأليف المقرىء محمد بن شريح[168].

ولهذا العلامة الجليل ابن يُدعى شريح (٤٥١ ـ ٥٣٧ هـ/ ١٠٥٩م ١١٤٢م) أخذ عن أبيه معارفه الواسعة في القراءات واكتسب منه كثيراً من عمله. فنال منزلة كبيرة بين قراء عصره. وألف في القراءات (تواليف تدل على معرفته وتقدمه في صنعة الإقراء)[169].

ومن مصنفاته كتاب «توجيه حروف قرأ بها يعقوب بن إسحاق الحضرمي لم يقرأ بها أحد من الأئمة السبعة المشهورين» وكتاب «نهاية الإتقان في تجويد

---

(١٦٥) سورة الرعد آية رقم ١٧.
(١٦٦) بغية الملتمس ص ٨١.
(١٦٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢. (ص ٥٥٣).
(١٦٨) فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣٤ ـ ٣٥).
(١٦٩) الضبي: البغية. (ص ٣١٨).

تلاوة القرآن..» وكتاب «حصر جميع الآي المختلف في عددها بين أهل الأمصار المدينة ومكة والشام والبصرة والكوفة على ترتيب سور القرآن وتوجيه الحجه لاختلافهم في ذلك وترجيمها» وكتاب «الانتصاف من الحافظ أبي عمرو الداني المقرىء رحمه الله في رده ترقيق راء مريم وقرية»[170].

وهذه التصانيف تدل على إحاطة شاملة بالقراءات وفهم عميق بدقائقها وتفاصيلها، كما أن فيها إشارة إلى رسوخ عنصر المشاركة العلمية في تطوير مناهجها وطرقها وكشف ألوان الالتباس عن بعض الجوانب التي التزمها بعض القراء السابقين وهو ما يتمثل في المصنف الأول والأخير لمحمد بن شريح.

كما ذاع صيت العلامة أبوداود سليمان بن أبي القاسم نجاح (٤١٠ - ٤٩٦هـ/ ١٠١٩ - ١١٠٢م) من مملكة دانية وكان من تلاميذ المقرىء أبي عمرو الداني. وقد أخذ عنه كثيرا من علومه كما درس على يد الحافظ ابن عبدالبر النمري. وأبي العباس العذري. وعُد أبو داود من جلة المقرئين وأفاضلهم، فقد كان ماهرا في علوم القرآن، عارفا بقراءاته ورواياتها وطرقها ووجوهها المختلفة إلى جانب إسهامه الكبير في ميدان التأليف العلمي في هذه العلوم الكريمة. وقد أفاد الناس كثيرا فأخذوا عنه القراءات والتفسير[171].

وصنف أبوداود من الكتب «البيان الجامع لعلوم القرآن» في ثلاثمائة جزء. و«التبيين لهجاء التنزيل» في ست مجلدات. وكتاب «الرجز المسمى بالاعتماد» الذي عارض فيه شيخه أبا عمرو الداني في أصول القراءات وعقود الديانة «عشرة أجزاء» وعدد أبيات هذه الأرجوزة ثمانية عشر ألف بيت وأربعمائة وأربعون بيتا. وله كتاب عن قوله تعالى «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى» في مجلد وغير ذلك من المصنفات[172].

---

(١٧٠) ابن خير : فهرست مارواه عن شيوخه. (ص ٣٨) وما بعدها، انظر القاضي عياض: الغنية، (ص ٢١٣).

(١٧١) ابن بشكوال : الصلة، ج ١، (ص ٢٠٣ - ٢٠٤) الضبي: البغية (ص ٣٠٣ - ٣٠٤) ابن الأبار: المعجم، (ص ٣١٥) الذهبي: معرفة القراء الكبار، ج ١، (ص ٣٦٤ - ٣٦٥) الداودي: طبقات المفسرين، ج ١، (ص ٢٠٧ - ٢٠٨).

(١٧٢) الذهبي: معرفة القراء الكبار ج ١، (ص ٣٦٤ - ٣٦٥) الجزري: غاية النهاية، ج ١ (ص ٣١٧) الداودي: طبقات المفسرين، ج ١، (ص ٢٠٧ - ٢٠٨).

واحتل أبوداود مكانه عالية بين علماء عصره. واعترفوا له بالعلم والمعرفة والفضل مما دفع أحدهم وهو ابن عياد إلى تأليف كتاب في سيرته ومناقبه تناقله الناس بالرضا والاستحسان(١٧٣).

وممن أسهم في نشاط علم القراءات، المقرئ الفاضل إسماعيل بن خلف ابن سعيد الأنصاري من أعلام مملكة سرقسطة (ت ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م). كان موصوفا بالإمامة في علم القراءات وأن له فيها تصانيف جيدة، منها كتاب «العنوان».. في القراءات، كما أنه اختصر كتاب «الحجه» لأبي علي الفارسي(١٧٤).

وقد أشار ابن خلكان إلى أن ابن بشكوال ذكره في كتابه الصلة فأثنى عليه وعدد فضائله، ولكن الباحث وقف على ذكره في الصلة ولم يجد ما أشار إليه ابن خلكان، ولعل ذلك كان في نسخة أخرى من الكتاب لم تصلنا أو سقط منها في ترجمة ذلك المقرىء بعض المعلومات(١٧٥).

وكتاب إسماعيل المشار إليه «بالعنوان» عرض فيه لما اختلف فيه القراء السبعة بإيجاز، وصنفه للراسخين في القراءات دون المبتدئين، فإن هؤلاء قد صنف لهم كتابا سماه «الاكتفاء» فيه ما يفهم المبتدىء والمتعمق. وقصد فيه الإيضاح بحيث لا يشكل على قارئه منه شيء. وجعل الأول كالعنوان له، وقد شرحه عبدالظاهر بن نشوان الجذامي المصري (ت ٦٤٩هـ/ ١٢٥١م)(١٧٦).

وللعلامة الحافظ يوسف بن عبدالبر النمري الآنف الذكر في ميداني الفقه والحديث سهم وافر في الدراسات القرآنية فقد كان بارعا في القراءات ماهرا في علومها حتى إنه صنف فيها كتباً قيمة منها «البيان عن تلاوة القرآن» وكتاب «التجويد والمدخل إلى العلم بالتحديد» في جزأين وكتاب «الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمرو بن العلاء بتوجيه ما اختلفا فيه» جزء واحد(١٧٧).

---

(١٧٣) ابن الأبار : المعجم، (ص ٣١٧).
(١٧٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ١ (ص ٢٢٣).
(١٧٥) انظر وفيات الأعيان، نفس الجزء والصفحة. والصلة لابن بشكوال ج ١ (ص ١٠٥).
(١٧٦) حاجي خليفة : كشف الظنون، ج ٢، ص ١١٧٧.
(١٧٧) الحميدي : الجذوة، (ص ٣٦٧ـ٣٦٨) الضبي : البغية (ص ٤٩٠).

كما أن له كتاب «الإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف» أشار فيه إلى اختلاف العلماء في قراءة البسملة في الصلاة وفي كونها آية من القرآن في الفاتحة[(١٧٨)].

وللعلامة المقرىء محمد بن أحمد بن سعود الأنصاري من مملكة دانية نشاط طيب في الدراسات القرآنية، وكان من كبار تلاميذ أبي عمرو الداني، وعنه أخذ سليمان بن نجاح قراءة نافع من طريق قالون لدى قدومه دانية للأخذ عن أبي عمرو سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م)[(١٧٩)].

وله بعض التآليف في القراءات ككتابه «الاختلاف بين نافع من رواية قالون وبين الكسائي من رواية الدوري» وكتاب «السنن والاقتصاد في الفرق بين السين والصاد» وكتاب «الاقتضاء للفرق بين الذال والضاد والظاء»[(١٨٠)].

ويظهر أن هذه المصنفات لم تكن ذات حجم كبير، بل كانت أشبه بالرسائل أو الكتيبات الصغيرة، وهذا ما نلمحه من خلال أسمائها وعناوينها فإن الحديث عن بعض الاختلافات بين الحروف أو نطقها لا يستدعي اسهاباً طويلاً في الكتابة أو حشداً ضخماً للمعلومات.

ولأبي محمد عبدالله بن سهل الأنصاري المرسي، من مملكة بني عباد (ت ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) جهد بارز في القراءات حتى وصفه أبوعلي بن سكره بأنه إمام وقته في فنه. وقال عنه أبو الأصبغ بن سهل (أشكلت علي مسائل من علم القرآن لم أجد من يشفيني فيها حتى لقيت أبا محمد بن سهل)[(١٨١)].

ومن الطريف أن نشير إلى أن الأديب الشاعر علي بن عبدالغني الحصري كان له عناية بالقراءات حتى مهر فيها ونظم فيها قصيدة طويلة تشتمل على مئتين وتسعة أبيات في قراءة الإمام نافع[(١٨٢)].

---

(١٧٨) حاجي خليفة : كشف الظنون ج ١ (ص ١٨٢) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٤٣هـ.

(١٧٩) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٨٥).

(١٨٠) ابن الأبار : المصدر السابق، ج ١ (ص ٣٩٥) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، (ص ٦٤١ - ٦٤٢).

(١٨١) الذهبي : معرفة القراء الكبار، ج ١، (ص ٣٥٢ - ٣٥٣).

(١٨٢) الذهبي : تاريخ الإسلام، ج ١٢، (مخطوط) ورقة، ١٧أ.

وكان لبعض النساء مشاركة في ازدهار علم القراءات، وقد مربنا ذكر المقرئة ريحانة التي أخذت علومها بالمرية عن العلامه أبي عمرو الداني وأنها قرأت عليه القراءات السبع وطالبته بالإجازه فامتنع ثم قرأت عليه خارج القراءات السبع فأجازها(١٨٣).

وأخيرا فهؤلاء هم أبرز قراء عصر ملوك الطوائف، وما من شك أنهم لعبوا دورا هاما في نشاط علم القراءات وازدهار دراساته. ويرز من بينهم قاموا بدور مهم في نشاط علم القراءات وازدهار دراساته. ويرز من بينهم الإسلامي، أمثال ابي عمرو الداني الذي سيبقى علامة مضيئة في تاريخ هذه الدراسات القرآنية. ومن حسن الحظ أنه لا تزال بين أيدينا كثير من الدراسات التي صنفها هؤلاء الأعلام التي تنم عن سعة علومهم وعظيم جهودهم في ازدهار علوم القرآن. وهناك ظاهرة تلفت الأنظار من خلال سير هؤلاء القراء، وهي أن الكثير منهم تركز وجودهم في المناطق الشرقية للأندلس وخاصة في إمارة دانية عاصمة مملكة مجاهد العامري، وفيه تأكيد على دور هذا الأمير في نشاط العلوم القرآنية، فمن دانية ظهر أبوعمرو الداني، وابن عبدالبر النمري. وأبو داود سليمان بن نجاح. ومحمد بن أحمد الانصاري وغيرهم. وهكذا يتبين لنا مدى إسهام أولئك العلماء في حركة التأليف في العلوم القرآنية، ودورهم العظيم في ذلك. وختاما لا نبخل بالإشارة الى بعض مَن لم ترد أسماؤهم في هذا البحث ونكتفي بالإحالة الى الكتب التي تحدثت عنهم، وهم بلاشك أقل درجة ممن أشرنا إليهم(١٨٤).

---

(١٨٣) الضبي : بغية الملتمس (ص ٤١١) وما بعدها و (ص ٥٤٦).

(١٨٤) انظر : ابن قاضي شهبة: طبقات النحاة واللغويين، (ص ٢٧٨ - ٩٢) ابن بشكوال: الصلة، ج ٢، (ص ٨٦٠ - ابوالمحاسن: إشارة التعيين، (مخطوط) (ص ١٨) مؤلف مجهول: إنسان العيون في مشاهير سادس القرون (مخطوط) (ص ١٧٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٢ (مخطوط) ورقة ٤٨ ب ورقة ٦٢ ب وورقة ٣٨ أ وورقة ٧٠أ - ابن خير: فهرست مارواه عن شيوخه (ص ٧١) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء، ج ١، (ص ٤٨٢ - ٤٩٩).

التفســـير

والتفسير هو الشق الثاني من الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم وينصب اهتمامه على توضيح معاني القرآن الكريم وتبيين أسباب نزول بعض سوره وآياتـه، وشرح الأحكام المتعلقة به، وقد سادت الأندلس مدرسة التفسير بالمأثور التي تعتمد على النقل عن رسـول الله ﷺ وصحابتـه والتابعين وأقوال العلمـاء.

وتعتبر جهود بقي بن مخلد (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م) في تفسير القرآن الكريم فاتحة النشـاط العلمي في هذا الحقل، فقد كان بقي من البارعين في فهم القرآن الكريم ومعانيه وأسباب نزول آياته، وصنف في ذلك تفسيره العظيم الذي قال فيه ابن حزم إنه لم يؤلف في الإسلام مثله.

وتبع بقيـا عـدد من العلمـاء الأجـلاء كالعلامـة محمـد بن عبدالله المري (ت ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م) والعـلامـة أحمد بن محمد بن برد (ت ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) والقاضي منذر بن سعيد البلوطي، وقاسم بن اصبغ البياني وغيرهم من العلماء المشاركين في ازدهار هذا العلم[١٨٥].

وفي عصر ملوك الطوائف ظهر عدد من العلماء الماهرين في التفسير، ويكاد جميع من ذكرناهم في باب القراءات أن يكون لهم مشاركة في تفسير القرآن ودراسة أحكامه وما يتعلق به. فمكي بن أبي طالب القيسي ألف في التفسير كتابه المشهور «الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن الكريم وتفسيره وأنواع علومه» ويقع في سبعين جزءا و«المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره» و«الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه» وغير ذلك[١٨٦].

ويشيد ابن حزم الظاهري بتفسير مكي فيقول (أما القرآن فمن أجل ما صنف في تفسيره كتاب «الهداية إلى بلوغ النهاية» في نحو عشرة أسفار صنفه

---

(١٨٥) الزبيدي : طبقات النحويين، (ص ٢٩٥) الحميدي، الجذوة، (ص ١١٥ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج ٣، (ص ١٧٣).

(١٨٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥ (٢٧٦ ابن الجزري: غاية النهاية، ج ٢ (ص ٣١٠) الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٣ (ص ٢٦١).

الإمام والعالم الزاهد أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي[١٨٧].

ولمكي أيضا من التصانيف كتاب «مشكل غريب القرآن» و«مشكل المعاني والتفسير» و«الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه» في ثلاثة أجزاء و«اختصار أحكام القرآن»[١٨٨].

وارتحل إلى الأندلس أحمد بن عمار المهدوي المغربي سنة (٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وكان من البارعين في علوم القرآن ماهراً في تفسير الكتاب العزيز وصنف في ذلك كتاب «التفصيل». ولما ظهر تفسيره للناس، قيل لحاكم المدينة التي نزل بها: إن الكتاب ليس له، فأراد امتحانه واختبار قدراته العلمية في التفسير فأمره بتأليف كتاب آخر في تفسير القرآن فصنف كتابه «التحصيل» كالمختصر لكتابه الأول، وأشار القفطي إلى الكتابين فقال (والكتابان مشهوران في الآفاق سائران على أيدي الرفاق)[١٨٩].

وما ذكره القفطي ـ وهو من علماء المشرق ـ في تقريظه للكتابين المذكورين فيه دلالة على نبوغ الأندلسيين في بلوغهم درجة سامية في العلم والمعرفة حتى شهد لهم شاهد من غيرهم بالتفوق والرقي.

وللعلامة المفسر عبدالله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال من أعلام مملكة طليطلة (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) اهتمامات واسعة بعلوم الدين وخاصة التفسير الذي برع فيه. وكان له مجلس حافل يقرأ عليه فيه التفسير فيأخذ في توضيح معاني القرآن وشرح أحكامه وتبيين ما أشكل فيه. ويدلل على أقواله بأحاديث كثيرة من حفظه [١٩٠].

وتعود براعة هذا المفسر وقدرته على تفسير القرآن بصورة واضحة وجلية إلى ما كان يتمتع به من ملكة حافظة لأحاديث المصطفى عليه السلام. وتفوقه في اللغة والنحو؛ وكل هذه العلوم من أهم ما يجب أن يتقنه المتصدي

---

(١٨٧) المقري : النفح ج ٣ (ص ١٧٩) (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس) وانظر ما يتضمن هذا المعنى لدى ابن قنفذ: الوفيات (ص ٢٤٢) وما بعدها.

(١٨٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٧٦).

(١٨٩) إنباه الرواة ج ١ (ص ٩١ ـ ٩٢).

(١٩٠) ابن بشكوال : الصلة، (ص ٢٨٥ ٢٨٦) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣، (ص ٤٦٣).

لتفسير القرآن الكريم. إذ أن المفسر يحتاج إلى المهارة في اللغة والنحو. فإن كثيرا من المسائل المتعلقة بآيات القرآن لا يمكن شرحها وتوضيحها إلا بمعرفة أسرار اللغة العربية، ولا عجب فهي لغة القرآن الكريم ولسانه المتحدث.

وكان العلامة عبدالرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي من أعلام مملكة بني عباد (٤٣٣ ـ ٥٢٠هـ/ ١٠٤١ ـ ١١٢٦م). حافظا للقرآن الكريم، عارفا بتفسيره وغريبه ومعانيه. إلى جانب تضلعه من الحديث وعلومه. وكان، على علو سنه وكبره، متحمسا للعلم ساعيا في نشره بين طلبة العلم (يجلس لهم يومه كله وبين العشاءين)[١٩١].

وهناك أعلام آخرون نُسبت إليهم تصانيف في تفسير القرآن العزيز، منهم عبدالسلام بن عبدالرحمن بن أبي الرجال اللخمي من مملكة إشبيلية (ت ٥٣٦هـ/ ١١٤١م) وقد وصف بالعلم الواسع في تفسير القرآن الكريم وتبحره في علم الكلام والتصوف. ولهذا فقد صنف تفسيراً للقرآن، ولم يسلم من بعض الانتقادات بل عاب عليه بعض العلماء إمعانه في علم الحرف حتى ضمنه تفسيره للقرآن الكريم[١٩٢].

كما أن أبا الحسن علي بن عبدالله بن موهب الجذامي من علماء مملكة المرية (٤٤١ ـ ٥٣٢هـ/ ١٠٤٩ ـ ١١٣٧م). كان ماهرا في علوم الدين متمتعا بذكاء وفهم واسعين. وقد ألف تفسيرا للقرآن الكريم وصف بالجودة والإتقان وذكره ياقوت الحموي ووصفه بأنه كتاب نفيس وقيم[١٩٣].

ومن الطريف أن بعض هؤلاء العلماء كانوا موسوعيين، فلا نعجب أذا وجدنا أحدهم بارعا في العلوم التطبيقية وله مشاركة جيدة في التفسير أو الحديث، ومن هؤلاء العلامة علي بن سليمان الزهراوي من أعلام مملكة غرناطة (ت ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) فقد كان عالما كبيرا في الرياضيات والفلك

---

(١٩١) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩).

(١٩٢) السيوطي : طبقات المفسرين (ص ٦٨) الداودي: طبقات المفسرين ج ١ (ص ٣٠٠) ـ التنبكتي: نيل الابتهاج (ص ١٦٢) وأشار إلى أن كتابه في التفسير لم يكمل ـ مخلوف: شجرة النور الزكية، ج ١، (ص ١٣٣).

(١٩٣) السيوطي : طبقات المفسرين، (ص ٨٠) ـ الداودي: طبقات المفسرين ج ١، (ص ٤٠٩ ـ ٤١٠).

عارفا بعلوم الدين ومن بينها التفسير الذي صنف فيه كتابا قيما، وكان إماما وخطيبا لجامع مدينة غرناطة[١٩٤].

وفي أواخر عصر ملوك الطوائف لمع نجم العلامة الكبير محمد بن عبدالله بن العربي الاشبيلي وقد سبقت الإشارة إلى جهوده في الفقه والحديث، وكان له أيضا مشاركة جيدة في التفسير، فقد صنف كتاب «أنوار الفجر في تفسير القرآن» وقضى في تأليفه عشرين سنة وبلغت أوراقه ثمانين ألف ورقة[١٩٥].

وختاما فإن هذا العلم لقي من عناية الأندلسيين واهتمامهم ما لا مزيد عليه، ولنا أن نتصور مقدار ما صنفوه في هذا العلم من مؤلفات ضخمة[١٩٦] لو تغاضت عنها طوارق الزمان وحوادث الدهر فلم تبددها وتضيعها ضمن ما ضاع وتبدد من التراث والفكر الإسلامي. ولكن ما بقي بين أيدينا منها فيه دلالة واضحة على رقيهم ورسوخ معارفهم في ذلك العلم، ولا نرى ابن حزم مبالغا حينما أشاد بتفسير بقي بن مخلد وقطع أنه لا نظير له في الإسلام ولا تفسير ابن جرير الطبري، مع أن تفسير بقي كان في القرن الثالث الهجري فما بالنا بتفاسير من أتى بعده من الأعلام الكبار كمكي، والمهدوي، وابن العسال، وابن موهب، وابن العربي وغيرهم من أقطاب التفسير الذين مهدوا لظهور تفسيرالعلامة الشهير عبدالحق بن غالب بن عطية (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) الذي استند في تأليفه لتفسيره «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»[١٩٧] على جهود كثير من أعلام الخلافة

---

(١٩٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٤١٣) ـ المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ١، (ص ٢١٨) ـ ابن فرحون: الديباج المذهب، (ص ٢١١) الداودي: طبقات المفسرين، ج ١ (ص ٤٠٤).

(١٩٥) الداودي : طبقات المفسرين، ج ٢، (ص ١٦٥)، ويذكر ابن فرحون نقلا عن سليمان بن عبدالرحمن البراغوطي عن يوسف الحزاء المغربي أنه رأى تفسير ابن العربي كاملا في خزانة السلطان أبي عنان فارس في مدينة مراكش، وانه عد مجلداته فكانت ثمانين مجلدا. (الداودي: طبقات المفسرين ج ٢ (ص ١٦٥).

(١٩٦) لدينا تراجم قصيرة لبعض العلماء نسبت إليهم تآليف في تفسير القرآن الكريم. انظر مثلا: ابن بشكوال الصلة، ج ١ (ص ٤٢٦) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٧ (ص ٣٥٠) ـ الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢، (ص ٤٦) ـ البغدادي: هدية العارفين، ج ١، (ص ٧٦).

(١٩٧) طبع من هذا الكتاب بعض الأجزاء في الكويت.

وملوك الطوائف، فقد بنى تفسيره على تلخيص من سبقه من المفسرين في بلده وتحري أقرب التفاسير إلى الصواب وأيسرها لأذهان الناس، فصنف كتابه الذي تداوله الناس في المغرب والأندلس، وسار على نهجه القرطبي أحمد بن مسعود (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م) في تفسيره الذائع الصيت الذي انتشر انتشارا واسعا بين أهل المشرق[١٩٨].

(١٩٨) ابن خلدون : المقدمة، (ص ٤٤٠) خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية (ص ٦٧) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس، (ص ٥٥ ـ ٥٦).

(٤) علم الكلام

قبل أن نختتم حديثنا عن العلوم الدينية جدير بنا أن نتطرق إلى الحديث عن علم اختلف فيه العلماء بين مؤيدين ومعارضين، وهذا العلم هو علم الكلام كما اصطلح على تسميته آنذاك، وهو علم يقوم على الدفاع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية. والرد على الخارجين على معتقد أهل السنة والجماعة بدلائل وأقيسة عقلية[١٩٩].

ولكن نظرا لاعتماد هؤلاء على العقل والمنطق في دفاعهم عن العقائد فقد كان للفقهاء معهم مواقف متشددة بل وصارمة في كثير من الأحيان فالفقهاء يرون في هذا العلم بدعة من البدع يجب محاربتها ومطاردة أتباعها، وكان للأندلسيين مواقف حاسمة في التنكيل بأتباع علم الكلام والتضييق عليهم ومحاولة إزهاق روح أي حركة من شأنها أن ترسخ جذور هذا العلم في وطنهم أو تبسط نشاطه بين الناس.

يقول ابن عبدالبر النمري حافظ الأندلس الكبير (أجمع أهل الفقه والآثار في جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في طبقات العلماء)[٢٠٠].

وإذا كنا على يقين من سيادة المذهب المالكي في الأندلس، وضعف الاشتغال بالمذاهب الأخرى وندرة أصحابها. إلى ما كان يتصف به المالكيون من قوة ونفوذ في إرساء قواعد مذهبهم والتضييق على الاشتغال بالمذاهب

---

(١٩٩) ابن خلدون : المقدمة، (ص ٤٥٨).
(٢٠٠) الضبي : بغية الملتمس، (١٥٧).

الأخرى تبين لنا مدى ما سيواجه به كل خارج على منهج أهل السنة وطريقة السلف. وقد أشار المقدسي إلى موقفهم من علم الكلام وبغضهم لأتباعه وأنهم إن صادفوا شخصا يشتغل بالاعتزال أو يعتنق بعض أفكاره فقد يكون نصيبه القتل على أيديهم[٢٠١].

ومن آراء فقهاء المالكية أن المشتغلين بعلم الكلام. أهل أهواء وبدع لا تقبل شهادتهم في الإسلام. ويهجرون ويؤدبون على بدعهم، فإن تمادوا عليها استتيبوا[٢٠٢].

وبناء عليه فإن ما تمتعت به الأندلس من سيادة المذهب المالكي وموقفه الحازم من أصحاب الجدل وأرباب النحل والفرق المختلفة جعل من الصعب توفر المناخ الملائم لظهور المشتغلين بعلم الكلام. وعلى الرغم من ذلك فقد كان هناك فئة محدودة تؤمن بمذهب الاعتزال وتصنف فيه الكتب[٢٠٣].

ومن المشتغلين بعلم الكلام قبيل عصر ملوك الطوائف يحيى بن السمينة (ت ٣١٥هـ/ ٩٢٧م) الذي رحل إلى المشرق فلقي هناك علماء الكلام. ثم عاد إلى وطنه ليبث علومه في الاعتزال وغيره.

ومن أبرز علماء الكلام محمد بن عبدالله بن مسرة (ت ٣١٩هـ/ ٩٣١م). كانت له طريقة في التصوف ممزوجة بتعاليم فلسفية وكلامية. وكان له أتباعه الذين نهجوا نهجه وساروا على أفكاره.

ويبدو أنه كان للرحلات العلمية للأندلسيين إلى المشرق أثر في انتقال عدد من المسائل الكلامية والآراء الجدلية والاعتزالية. فابن السمينة المذكور سابقا تأثر إبان وجوده بالمشرق بأهل الكلام. كما أن محمد بن وهب القبري (ت تقريباً ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م) رحل إلى المشرق فالتقى بعدد من علماء

---

(٢٠١) أحسن التقاسيم، (ص ٢٣٦).

(٢٠٢) الضبي : بغية الملتمس، (ص ١٥٧ - ١٥٨) وللتوسع في معرفة تاريخ علم الكلام وعوامل نشأته ومواقف العلماء منه انظر: ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٥٨) وما بعدها - وابن حزم: الفصل، ج ٢ (ص ١١١) وما بعدها السيوطي: صون المنطق والكلام، (ص ١٣٦) وما بعدها - عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي (ص ٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٤ (ص ٤٥٧) وما بعدها.

(٢٠٣) المقري : نفح الطيب، ج ٣، (ص ١٧٦ - ١٧٧) نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس).

الكلام فتأثر بعلومهم ومعارفهم ثم عاد إلى الأندلس فتكلم بشيء منها مما أسخط عليه الفقهاء والعامة.(٢٠٤).

وفي عصر ملوك الطوائف نجد ابن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) قد ألف كتابه الشهير «الفصل في الملل والأهواء والنحل» فناقش أهل المذاهب والنحل والديانات المختلفة. ومن هؤلاء أهل الكلام كالمعتزلة والمرجئة ولم يقلد طائفة معينة بل كان يسلك منهجا خاصا به يقوده إليه اجتهاده ومن خالفه رد عليه بحزم وصراحة. حتى الأشعري الذي كان له اعتباره في المشرق والمغرب هاجمه بضراوة وطعن في معارفه وآرائه كما هاجم المتصوفين والمنجمين وأهل الأهواء والبدع(٢٠٥).

وفي عصر ملوك الطوائف برز بعض علماء الكلام، نذكر منهم العلامة محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الأوسي الألبيري الأصل من أعلام مملكة غرناطة (٤٥٧هـ - ٥٣٧هـ / ١٠٦٤م - ١١٤٢م). يقول عنه المراكشي (كان متكلما واقفا على مذاهب المتكلمين متحققا برأي أبي الحسن الأشعري وذاكرا لكتب الأصول والاعتقادات)(٢٠٦).

ولابن خلف من الكتب في هذا العلم «النكت والأمالي في الرد على الغزالي». و«رد الأصول إلى معرفة الله ونبوة الرسول» و«رسالة الانتصار على مذاهب الائمة الأخيار» و«رسالة البيان عن حقيقة الإيمان» و«الرد على أبي الوليد بن رشد في مسألة الاستواء الواقعة له في مقدماته(٢٠٧).

ووقوف ابن خلف على مذهب الأشعري وتضلعه من معرفته عائد إلى اتصاله بعلماء المشرق وتصنيفه لكتابه «النكت والأمالي في الرد على الغزالي»

---

(٢٠٤) انظر، ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢ (ص ١٨٨)- الحميدي: الجذوة، (ص ٩٢)- الضبي: بغية الملتمس، (ص ١٥٧)- ابن خلدون: المقدمة، (ص ٤٥٨)- سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٢٠٩) وما بعدها.

(٢٠٥) انظر : ابن حزم : الفصل في الملل والنحل، ج ٢ (ص ١١١) وما بعدها أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٥٧) - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٤ (ص ٤٧٠).

(٢٠٦) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر السادس، (ص ١٩٣) وما بعدها.

(٢٠٧) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس، (ص ١٩٣ - ١٩٤).

فيه ما يثبت أن الأندلسيين لم يقفوا موقفاً سلبياً من دراسات المشارقة وإنتاجهم العلمي، بل كان لهم ـ أي للأندلسيين ـ موقف إيجابي نحوها فقد سعوا لتنقيح تلك الدراسات ونقدها وتصحيح ما تتضمنه من أخطاء أو آراء لا تتفق مع أفكارهم وثقافتهم.

ولعل من عوامل ظهور علم الكلام في الأندلس إضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه هو دخول بعض التجار والعلماء المشارقة إلى الأندلس حاملين معهم ألوانا من المعارف والمذاهب المختلفة، فهذا أبوالحسن نافع بن العباس الجوهري دخل الأندلس (٤١٩هـ/ ١٠٢٨م)، وله رواية عالية عن علماء مصر والعراق. وكان يتمتع بمعرفة واسعة بعلم الكلام، ومسائله في العقائد وغيرها، وقد قاده ذلك إلى تصنيف كتاب «الاستبصار» في خمسة أجزاء[٢٠٨].

وورد في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى الأندلس عالم مشرقي من علماء الكلام فنزل بمرسية وأخذ في إثارة كثير من المسائل حول خلق القرآن. والنزول إلى السماء الدنيا، وأمثال ذلك من قضايا الاعتزال، فلم يجد أمامه من يفند أقواله ويرد شبهاته فانطلق رجل من أهل مرسية إلى طليطلة لمقابلة عالمها الكبير عبدالرحمن بن أحمد بن المشاط فعرض عليه تلك المسائل. حيث رد على كل منها بجواب كافٍ صحيح ووضع لتلك الردود عنواناً هو «كشف جمل من التعطيل بحجج من الأثر والنظر والتنزيل»[٢٠٩].

وهناك من العلماء من اتخذ له سبيلا غير سبيل أهل بلده، مما دفع هؤلاء إلى اتخاذ تدابير مضادة، فالعلامة عبدالوهاب بن منذر القرطبي من أعلام إمارة بني جهور (ت ٤٣٦هـ) وصف بالتقوى والنسك وكان إماما بمسجد بدر بقرطبة، إلا أنه قد نظر في شيء من علم الكلام فاتهم بالاعتزال وأن له صلة بمذهب ابن مسرة الجبلي. مما أسخط عليه الفقهاء فكادوا له وضيقوا عليه مما اضطره إلى الانقباض عن الناس وملازمته لمنزله[٢١٠].

---

(٢٠٨) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٤٠).
(٢٠٩) ابن الأبار : المعجم (ص ٢٨٩).
(٢١٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ ، (ص ٣٨٠). وانظر عن مذهب ابن مسرة، الحميدي: الجذوة، (ص ٦٣) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة الأموية في الأندلس، (ص ٢١١) وما بعدها.

وهناك علماء آخرون عرفوا بالاشتغال بعلم الكلام ولكن المصادر لم تمدنا بمعلومات وفيرة عنهم وعن أفكارهم وإنتاجهم العلمي. فمن هؤلاء يحيى ابن عبدالله بن كيس (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) من أعلام إمارة بني جهور، وكان عالما بالحديث عارفا بعلم الكلام بصيرا بالجدل حتى قال فيه ابن حيان (ما نعلم في الأندلس في وقته أبصر منه بالكلام والجدل ونحو ذلك)[٢١١]

وجدير بالذكر أن بعض العلماء قد التزموا السير على منهج السلف في الدفاع عن العقائد الإيمانية وأضافوا إلى ذلك اعتمادهم على بعض الأدلة العقلية التي لا تصطدم بتعاليم الشرع وقواعده، وهذا ما نلمسه في سير بعض علماء الكلام في الأندلس فهذا العلامة أحمد بن محمد الجذامي المرسي من أعلام مملكة بني عباد. كان كثير التجول والترحال في طلب العلم ونشره (وكان شيخ المتكلمين على مذهب أهل الحق في وقته)[٢١٢].

وله رسائل في علم الكلام، وأملى رسالته في مسألة تكليف مالا يطاق، كما أن له أشعارا تدور حول معارفه في علم الكلام. وكان موصوفا بالعلم والفضل[٢١٣].

وللعلامة المقرىء المفسر مكي بن أبي طالب إسهام في دراسة بعض المسائل الخلافيه، فقد صنف كتابا في اختلاف العلماء في النفس والروح[٢١٤]. وهذه المسألة أثارها كثير من العلماء، واختلفوا حول طبيعة النفس والروح. فمنهم من اعترف بتقصيره عن معرفة كنه الروح وأحال معرفة ذلك لعلم الله، ومنهم من لج في الجدل حتى تاه في مسالك الحيرة. وهو ما دفع العلامة مكي إلى طرق باب المشاركة في هذا الميدان فصنف كتابه الأنف الذكر. ولا ريب أنه اعتمد في تأليفه على الأدلة النقلية التي تيسر له حفظها وفهمها باطلاعه الواسع على القرآن الكريم وتفسيره فهو عالم بالقرآن بارع في علومه

---

(٢١١) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ ص ٦٦٧- الضبي: بغية الملتمس ص ٥٠٤ الا إنه يسمي أباه وجده عبدالملك بن قيس..

(٢١٢) ابن الأبار: تكملة الصلة: ج ١ (ص ٣٨ - ٣٩) ابن الأبار: المعجم (ص ٩).

(٢١٣) ابن الأبار : تكلمة الصلة، ج ١، (ص ٣٩).

(٢١٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٥ (ص ٢٧٦).

إلى جانب ثقافته الواسعه في علوم الدين بصورة عامة.

وأخيرا فإن علم الكلام لم يجد له أرضاً خصبة في الأندلس. ولم يلق من التشجيع وكثرة الأنصار ما لقيه في المشرق الذي كثرت فيه الملل والنحل والفرق. وما من شك أن المذهب المالكي، وهو صاحب السيادة المذهبية، كان له دور كبير في فرض نفوذه ومحاربة أي مذهب أو فكر ديني آخر في الأندلس[٢١٥].

(٢١٥) انظر في تراجم بعض علماء الكلام ممن لم يردوا في البحث. ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٥٣٢) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤٠٧ - ٤٠٨) ابن عطية: فهرسة ابن عطية، (ص ١٠٣).

الفصل الثاني

الحياة الأدبية واللغوية
الشعر - النثر - علوم اللغة والنحو

(١) الشعــر

ليس هناك شيء أرق وأعذب اتصالا بالأندلس في تاريخها الفكري من الشعر، فقد حظي باهتمام الناس على مختلف طبقاتهم، وكان الشعر هو القاسم المشترك بين أفراد المجتمع حتى إن مدينة شلب عرف أهلها بصراحة انسابهم وفصاحتهم، وقرضهم للشعر، وندر من لا ينظمه بينهم، ولو أن شخصا مر بحراث خلف فدانه وسأله قرض شيء من الشعر لفعل ذلك في أي معنى يقترح عليه[١].

وبناءً عليه فقد نزل الشعر لديهم منزلة عظيمة، وكان الشعراء يلقون من الملوك والأمراء كل تشجيع وتكريم، وكان ملوك الطوائف حريصين على أن يضم بلاط كل منهم فحول الشعراء وكبارهم احتفاء بهم وأعجابا بما ينظمون من روائع الشعر وأجله[٢].

وكان للطبيعة الأندلسية أثر عميق في تألق الحركة الشعرية وظهور عدد من الشعراء المبدعين في تصوير الطبيعة، بجمالها وفتنتها. وكانت الأندلس تزدهي بطبيعتها الساحرة من أنهار وأشجار وظلال وارفة ومروج خضراء، تسرح فيها العيون، ويطرب لها الوجدان، وهو ما رقق أحاسيس أهلها ومشاعرهم، وكما قال ابن خفاجة:

يـا أهــل أندلــس للــه دركــم	مــاء وظــل وأنهــار وأشجــار
مـا جنـة الخلـد إلا فـي دياركـم	ولـو تخيـرت هـذي كنـت أختـار
لا تتقــوا بعدهـا أن تدخلـو سقـراً	فليـس تدخـل بعـد الجنـة النـار[٣]

(١) القزويني : آثار البلاد (ص ٥٤١)، ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، (ص ٣٥٧ - ٣٥٨)، الحميري: الروض المعطار (ص ١٠٦)، ستانلي لينبول: العرب في أسبانيا (ص ١٣٨)، زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (ص ٥٠٧)، ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس (ص ٥٧ - ٥٨)، مدينة شلب بالجنوب الغربي للأندلس وبينها وبين قرطبة تسعة أيام للراكب. ابن سعيد: المغرب، ج ١، (٣٨١)، نقلا عن الرازي.

(٢) المقري : النفح، ج ١ (ص ٢٢٢)، أحمد أمين: ظهر الإسلام ج ٣ (ص ١٩).

(٣) انظر ديوان ابن خفاجة بإشراف البستاني، طبعة دار صادر، بيروت وكذلك ماجمع تحت إشراف مصطفى سلامة البخاري سنة ١٢٨١هـ الطبعة الخامسة بجمعية المعارف المصرية (ص ٧٢)، ط/ منشأة المعارف (ص ٣١٤).

بل أننا نجدهم ينساقون إلى وصف كثير من مظاهر حياتهم اليومية ذات الارتباط بطبيعة بلادهم، فمثلا كانت النواعير ـ جمع ناعورة ـ وهي الآلة التي يستعين بها الفلاحون في سحب المياه من النهر إلى الأراضي الزراعية، هذه الآلة نالت إعجاب كثير من الشعراء فوصفوها ودبجوا فيها أشعارا رائعة(٤).

وممن وصف ذلك الشاعر علي بن سعيد الخير الذي وصف دولاب مرسية المشهور، فقال:

للـــــه دولاب يفيـــــض بسلســـــل   فـــي دوحـــة قـــد أينعـــت أفنانـــا

وولع الأندلسيون بوصف الأزهار والرياض، حتى ألف أديبهم أبوالوليد إسماعيل بن محمد الحميري القرطبي (ت ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) كتابه «البديع في فصل الربيع» وألفه حماسة لأهل بلده بحفظ أشعارهم وجمعها، وغيرة لما عكفوا عليه من حفظ لأشعار أهل المشرق ونبذ أشعارهم البديعة، والفصل الأول يتناول فيه موضوع وصف الربيع عامة، والثاني وصف لعدة أزهار والمفاضلة بينها، والثالث مخصص للقطع التي تختص كل منها في وصف نوع واحد من النوار كالآس والياسمين والنيلوفر(٥)

أما الشعر الأندلسي فقد قيل فيه الكثير، ونكتفي برأي المستشرق الألماني فون شاك الذي قال: (إن أشعار الأندلسيين تمتاز بصفة عامة بجزالة الألفاظ، وجمال رنينها، وإبداع الأخيلة، وبعد مداها، وبدلا من أن يجعلوا الألفاظ مراكب للأفكار، وبدلا من أن يدعوا القلوب تعبر عن أحاسيسها في فيض طبيعي، نجدهم يغدقون علينا طوفانا من الألفاظ الرنينة والأخيلة البراقة، وكأنما لم يقنعوا بتحريك عواطفنا وطلبوا إعشاء أبصارنا وأن تقديرنا لأشعارهم يزداد بقدر ما يقل تكلفهم في الغوص وراء المعاني البعيدة، وبقدر ما يطامنون من طموحهم إلى الإتيان بما لم يسبقوا إليه لأنهم في هذه الحالة

---

(٤) Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P.82.

(٥) إحسان عباس : الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ١٩٤)، صلاح خالص، اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١٦٦)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٨٣)، وانظر ترجمة المؤلف لدى الصفدي: الوافي، ج ٩ (ص ٢٠٩)، وكتاب البديع نشره للمستشرق هنري بيريز في الرباط، ١٩٤٠م، وانظر في تأثير الطبيعة الأندلسية في الشعر، سعد شلبي: البيئة الأندلسية (ص ٦٧) وما بعدها وجودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٣٠).

يعبرون عن مشاعر صادقة في عبارات غير متكلفة[٦].

وعن تقليد شعراء الأندلس للمشارقة نرى أن بعض الكتاب قد بالغ في إلصاق تلك الظاهرة بشعراء الأندلس حتى نفى عنهم سمة الإبداع والأصالة في أشعارهم[٧].

والحق ان الدارس للشعر الأندلسي يرى أن ظاهرة التقليد تعود إلى الشكل والموضوع دون المضمون، فمن جهة الشكل المتمثل في تقاليد القصيدة العربية القديمة لا يستغرب من الأندلسيين التزامهم إياه، وهو اتجاه عام لدى شعراء العربية في جميع العصور وحيثما كانوا، فهو جزء من تراثهم العربي وركن من أركان شخصيتهم العربية الأصيلة، والأمر كذلك بالنسبة لفنون الشعر فهي هي في المغرب والمشرق، والعبرة الحقيقية بمدى الإجادة أو عدمها في تلك الفنون، وأما مضمون الشعر الأندلسي فينصب مثلا على تجارب الشعراء الذاتية وما تختزنه أذهانهم من معان وأفكار عن بيئتهم الطبيعية الاجتماعية، فهو مضمون يغلب عليه سمة الإبداع والتجديد[٨].

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك: هل كان للشعراء دور في محاوله تصحيح بعض الأحوال السياسية والاجتماعية؟ فنقول مع مزيد الأسف أن الجمع بين إرضاء الحاكم وتنبيهه إلى إصلاح الأمر في دولته داخليا وخارجيا آنذاك أشبه بالمستحيل، ولكن رغم ذلك نجد لمحات وضاءة وأشارات قليلة تنم عن مشاركة عدد من الشعراء في الإصلاح الاجتماعي والسياسي في ذلك العصر المضطرم، ومن أوضح الأمثلة على ذلك الدور البارز الذي لعبه الشاعر أبوإسحاق إبراهيم بن مسعود التجيبي الألبيري[٩] (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م)، عندما توجه بقصيدته الذائعة الصيت إلى بربر صنهاجة يحرضهم على إقصاء يوسف بن صمويل الوزير اليهودي لملك غرناطة باديس بن حبوس، يقول

---

(٦) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٦ ـ ٤٧).

(٧) انظر مثلا : شوقي ضيف : الفن ومذاهبه (ص ٤١٢).

(٨) عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس (ص ١٦٤ ـ ١٦٥).

(٩) الألبيري : نسبة إلى البيرة مدينة قديمة ترجع في تاريخها إلى العصر الروماني وتقع على نهر شنيل، استقر فيها عرب الشام (أحمد عطية الله: القاموس الإسلامي، ج ١ (ص ١٦١).

في مطلع قصيدته:

ألا قــل لصنهاجـــة أجمعيـــن	بـــدور النَّـــدِيِّ وأســـد العريـــن
لقـــد زَلّ سيدكـــم زلـــةً	تقـــر بهـــا أعيـــن الشامتيـــن
تخيـــر كاتبـــه كافـــرا	ولـــو شـــاء كـــان مـــن المسلميـــن
فعـــز اليهـــود بـــه وانتخـــوا	وتاهـــوا وكانـــوا مـــن الأرذليـــن

وفعلت هذه القصيدة فعل السحر في صنهاجة وأهالي غرناطة فثاروا على اليهود وقتلوا يوسف بن صمويل، ونكلوا باليهود وقضوا على قياداتهم المختلفة في الدولة وضعف شأنهم بعد ذلك[10].

وإذا كان الشاعر أبو إسحاق الألبيري قد حقق نجاحا عمليا بشعره فإن الأديب الشاعر أباحفص عمر بن الحسن الهوزني استشهد في سبيل الحق لأنه نطق في شعره بما يراه حقا وهو ما لم يستسغه المعتضد بن عباد ملك اشبيلية، وكان أبوحفص قد رحل إلى المشرق ثم عاد إلى الأندلس فنزل مرسية وبلغ سمعه ما ألم ببريشتر ووقوعها في يد النورمان (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) فأرسل رقعة إلى المعتضد يقول في مستهلها:

أعباد جـلّ الـرزء والقـوم هُجَّـعُ	على حالـة مـن مثلهـا يتوقـع
فَلَـقٍّ كتابـي مـن فراغـك ساعـة	وإن طـال فالموصوف للطول موضع
إذا لـم أبـث الـداء رب دوائـه	أضعـت وأهـل للمـلام المضيـع[11]

وضمن رسالته تلك شيئا من نثره يحث فيها على الجهاد ونبذ التخاذل، وعندما وصلت إلى المعتضد أرسل إليه خطابا يدعوه إلى بلده اشبيلية فعاد إليها سنة (٤٥٨هـ/ ١٠٦٥) وفي ليلة من الليالي وكان أبوحفص في سجن المعتضد (باشر قتله بيده، فلم ينل عباد بعده سولا، ولا متع بدنياه إلا

---

(١٠) ابن الخطيب : الإحاطة، ج ١ (ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٦٩ ـ ٨٦)، غرسيه غومس: مع شعراء الأندلس (ص ١٢٥ ـ ١٢٦)، كامل كيلاني: ملوك الطوائف (ص ١٦٤ ـ ١٧٩)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٠٨)، سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٢٧٠) وما بعدها.

(١١) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٨١ ـ ٨٢)، ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب، ج ١ (ص ٢٣٩)، سعد شلبي: البيئة الأندلسية (ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤)، ميخائيل اماري: المكتبة العربية الصقلية (ص ٦٥٤ ـ ٦٥٥).

قليلا، وإلى الله الإياب، وعليه الحساب)[١٢].

ومن طائفة الشعراء الساعين في الإصلاح ونقد الفساد بجميع ألوانه في ذلك العصر خلف بن فرج الألبيري الذي كان يمثل بشعره الرفض العميق لكل ما حوله من مظاهر التفكك السياسي. وقد آلمه ما شاع في البلاد من ذل وهوان، وما آثره الملوك من الخلود للترف واللهو في الوقت الذي تتقلص فيه بلاد الإسلام إمام الزحف النصراني الذي استغل تنازع ملوك الطوائف وانقسامهم فقال يصف حالهم:

نـــاد الملـــوك وقـــل لهـــم	مـــاذا الـــذي أحدثتـــم
أسلمتـــم الإســـلام فـــي	أســـر العـــدا وقعدتـــم
وجـــب القيـــام عليكـــم	إذ بالنصـــارى قمتـــم
لا تنكـــروا شـــق العصـــا	فعصـــا النبـــي شققتـــم[١٣]

ويذكر السلفي بسماعه عن أبي الحسن علي بن محمد بن معدان الصدفي عن أبي الحسن علي بن مروان المنكبي قال، كان لباديس بن حبوس وزير يهودي فمات واستوزر بعده نصرانيا، فقال أبوالقاسم خلف بن فرج «السميسر» ثلاثة أبيات وكتب منها نسخا كثيرة وفرقها في شوارع البلد والطرقات وانطلق من ساعته إلى المرية ملتجئا لأميرها المعتصم بن صمادح، فذاعت تلك الأبيات في غرناطة. وما لبث حتى ذاعت في أقطار الأندلس ولما علم بها باديس أرسل في أثر السميسر بعض الفرسان، ولكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به والأبيات هي:

كـل يـوم إلـى ورا	بدل الـ.... با....
فزمانـــا تهـــودا	وزمانـــا تنصـــرا
وسيصبـوا إلـى المجـو	س إن الشيخ عمرا[١٤].

(١٢) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٨٣).
(١٣) الطاهر أحمد : مرجع سابق (ص ٧٤)، وانظر بعض أشعاره لدى الأصفهاني، خريدة القصر قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ١٦٧ - ١٦٩).
(١٤) معجم السفر، أخبار وتراجم أندلسية (ص ٨٣ - ٨٤)، وانظر كذلك محمد شلبي: البيئة الأندلسية (ص ٣٥٩ - ٢٦٠)، والشطر الثاني من البيت الأول يتضمن ألفاظا بذيئة رأينا حذفها مراعاة للنزاهة.

وكان لملوك الطوائف أثر في ازدهار الشعر وزرع بذور المنافسة بين الشعراء للوصول إلى الأفضل فيما ينظمونه من الشعر، ولهذا نجد أن بني عباد في اشبيلية قد أنشؤوا ديوانا للشعراء ينزلونهم فيه مراتب متفاوتة حسب براعة كل منهم وجودة إنتاجه، وكان للشعراء في بلاط بني عباد يومٌ في الأسبوع هو الاثنين يدخلون فيه على ملك اشبيلية فينشدونه أشعارهم فإذا أراد الشاعر إلقاء قصيدته صعد على كرسي موضوع لهذا الغرض فيلقي من عليه أشعاره، وقد رُوي أن الشاعر ابن جاخ وفد على بلاط المعتضد عباد فدخل الدار المخصوصة للشعراء فسألوه إذا كان شاعرا فأجاب بنعم فطلبوا منه إنشاد بعض شعره فقال:

إنـي قصــدت إليـك ياعبـادي ... قصـد القليـق بالجـري للـوادي

فضحكوا منه وازدروه، فنصحهم أحدهم بتركه فلعله يصبح واحدا منهم، فلم يبالوا بنصيحته وأخذوا في التندر بابن جاخ، وفي ذلك اليوم المخصوص لدخول الشعراء على المعتمد وهو يوم الاثنين، دخل الجميع بلاط الملك وكان من بينهم ابن جاخ، فصعب عليهم ذلك واقترحوا تقديمه عليهم حتى يناله الطرد والإقصاء فيصفو الجو لهم، فطلبوا من المعتضد تقديم ابن جاخ عليهم فصعد على الكرسي وألقى قصيدته الرائعة الجميلة التي أخلف بها ظن خصومه من الشعراء ومطلعها:

قطعـت يايـوم النـوى أكبـادي ... وحرمـت عـن عينـي لذيـذ رقـادي

حتى قـال:

يـا أيهـا الملـك المؤمـل والـذي ... قدمـاً سمـا شرفـا علـى الأنـداد
إن القريـض لكاسـد فـي أرضنـا ... ولـه هنـا سـوق بغيـر كسـاد
فجلبـت مـن شعـري إليـك قوافيـا ... يفنـى الزمـان وذكرهـا متمـادي
مـن شاعـر لـم يضطلـع أدبـا ولا ... خطـت يـداه صحيفـة بمـداد

فقال له المعتضد: أنت ابن جاخ؟ قال: نعم، فقال: اجلس فقد وليتك

رئاسة الشعراء وقرب منزله، ولم يأذن لغيره من الشعراء في الكلام في ذلك اليوم[١٥].

ومن الغريب أنه نال هذه المنزلة العظيمة رغم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب كما يفهم من البيت الأخير، وهو ما أشار إليه أيضا ابن سعيد[١٦].

وممن كان في ديوان الشعراء لدى بني عباد الشاعر أبوالحسن سلام بن عبدالله الباهلي (ت ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) وكان أبوالحسن قد دخل على المعتمد وعمره دون العشرين فألقى قصيدة جيدة في مدحه فأجزل صلته وقربه وألحقه بديوان الشعراء[١٧].

والوزير الشاعر الكبير أبوبكر بن عمار كان خامل الذكر في موطنه بشلب في غرب الأندلس حتى إذا وفد على المعتضد امتدحه بقصيدته الرائعة التي يقول مطلعها:

أدر الزجاجــــة فالنسيـــم قـد انبرى   والنجم قد صرف العنان عن السرى

فاستحسنها وأمر أن يكتب ابن عمار في ديوان الشعراء[١٨].

وجدير بالذكر أن دولة بني عباد في اشبيلية وقرطبة لعبت دورا عظيما في ازدهار الحركة الأدبية، وبزت بقية دول ملوك الطوائف في هذا الدور، ولا غرو في ذلك فإن ملوك هذه الدولة جميعهم كانوا أدباء وشعراء يشار إليهم بالبنـان، فمؤسس هذه الـدولـة القاضي محمد بن إسماعيل (ت ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) كان (له في العلم والأدب باع، ولذوي المعارف عنده بها سوق وارتفاع، وكان يشارك الشعراء والبلغاء في صنعة الشعر وحوك البلاغة بسطا لهم وإقامة لهممهم، ولما كان في طبعه بعد ذلك أيضا)[١٩].

كما أن ابنه المعتضد عباد كان ممن أجاد قول الشعر ونظم روائعه فاجتمع

---

(١٥) المقري : نفح الطيب، ج ٤ (ص ٢٤٣ - ٢٤٤).
(١٦) رايات المبرزين (ص ٦٠).
(١٧) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٤٨ - ٤٩).
(١٨) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ١٣).
(١٩) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني، ج ١ (ص ١٣).

من أشعاره قدر كبير جمعه ابن أخيه في ديوان[٢٠].

وأتى بعد المعتضد ابنه المعتمد، وكان أشهر بني عباد سياسة وأدبا وشعرا وقد ألف ابن بسام عن شعره كتاب «الاعتماد على ماصح من شعر المعتمد ابن عباد»[٢١].

والمعتمد بن عباد من الملوك الشعراء، ورغم انشغاله بمهامه السياسية والعسكرية فقد كان ذا باع طويل في قرض الشعر، وكان شديد الاهتمام بالأدب عظيم العناية به، بارعا في نظم الشعر، وقاده ذلك إلى تقريب الأدباء والشعراء، وبذل الصلات الجزيلة لهم، فاجتمع في بلاطه من الأدباء والشعراء ما لم يجتمع لدى غيره من ملوك عصره[٢٢].

وأشعار المعتمد تنقسم حسب حالته السياسية وما آل إليه أمره إلى قسمين: قسم قاله إبان عزه وسلطانه[٢٣]. وقسم آخر قاله عندما زال ملكه وتلاشى سلطانه أسير القيود والأحزان، ففي محنته قال أعذب القصائد وأصدقها عاطفة وأبعثها على الحزن الدفين والمرارة العميقة[٢٤].

وقد جاءت أشعاره في رثاء ماضيه المجيد وسلطانه الغابر وبكاء يومه البائس كثيرة وفريدة، ولم يحدث قبله أن تفجرت ينابيع الشعر في أعماق ملك فصور لنا نكبته ومأساته بفيض عارم من الحزن والإثارة والحرقة كما فعل المعتمد، وعلى الرغم من نهايته الكئيبة فإن أشعاره تلك تشع بكبرياء وأنفة[٢٥].

ومن شعره في أسره:

---

(٢٠) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٢٩)، كامل كيلاني ملوك الطوائف (ص ٩٦).

(٢١) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٨١).

(٢٢) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤١ - ٤٢)، الأصفهاني خريدة القصر، قسم المغرب، ج ٢ (ص ٢٠)، المراكشي: المعجب (ص ١٤٩)، الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ١٢ (مخطوط) ورقة ٧٠ ب، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٣ (ص ٢٩١).

Dozy: Spanish Islam, P, 670.

(٢٣) انظر نماذج من هذا الشعر، ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١، (ص ٤٣ - ٥٢)، وانظر ديوان شعره الذي جمعه د. رضا الحبيب السويسي: الدار التونسية للنشر ١٩٧٥م.

(٢٤) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٠١)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٦٤ - ٢٦٥)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٩٢ - ٩٣).

(٢٥) الطاهر أحمد : دراسات أندلسية (ص ٢٦٤)، وانظر نماذج من أشعاره هذه لدى ابن بسام، الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٢ - ٨٠)، وانظر ديوانه الذي جمعه رضا الحبيب (ص ١٤٧ - ١٤٩).

غريب بأرض المغربين أسير ... سيبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا ... وينهل دمع بينهن غزير
إذا قيل في أغمات قد مات جوده ... فما يرتجى للجود بعد نشور
مضى زمن والملك مستأنس به ... وأصبح عنه اليوم وهو نفور
برأي من الدهر المضلل فاسد ... متى صلحت للصالحين دهور
أذلّ بني ماء السماء زمانهم ... وذل بني ماء السماء كثير[٢٦]

وفي بلاط بني عباد عاش عدد من كبار شعراء ذلك العصر، ويأتي في مقدمتهم الشاعر أبوالوليد أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون القرطبي (٣٩٤ - ٤٦٣هـ/ ١٠٠٣ - ١٠٧٠م) ويعود في نسبه إلى قبيلة مخزوم القرشية، نشأ في قرطبة وطلب الأدب وبرع فيه، وذاع صيته بالمهارة في نظم الشعر، ولحقت به تهمة[٢٧] لدى عبدالله بن أحمد بن المكوى أدت به إلى السجن فتشفع بأبي الوليد بن جهور في حياة أبيه أبي الحزم بن جهور وتمكن ابن زيدون من الخروج من السجن، وفي حكومة أبي الوليد بن جهور برزت مكانة ابن زيدون وعلت منزلته لدى أبي الوليد، بيد أن الحال لم يدم على هذه العلاقة الطيبة فتوترت العلاقة بينهما، غير أن أبا الوليد بن جهور عفا عنه وأعاده إلى مكانته ثم اتخذه سفيرا إلى عدد من ملوك الطوائف. وكان ابن زيدون أديبا فصيحا بليغا فطمع كل ملك في اجتذابه إلى بلاطه غير أنه فضل الإقامة في بلاط المعتضد فسار إلى اشبيلية سنة (٤٤١هـ/ ١٠٤٩م)، حيث أعلى المعتضد مكانته وقرب مجلسه وأدناه[٢٨].

وظل ابن زيدون في بلاط المعتضد مرعي الجانب كريم المنزلة متقلدا

---

(٢٦) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢ ج ١، (ص٧٥). وانظر الصيرفي: المختار من شعر شعراء الأندلس، (ص ٣٩) وما بعدها.
ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر، ج ٢، (ص١٦).

(٢٧) انظر تفصيل سيرته وحياته وقصة تلك الحادثة التي دخل بسببها السجن، شوقي ضيف: نوابغ الفكر العربي (ابن زيدون) (ص ١٥ - ٢٩).

(٢٨) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٣٦) وما بعدها، ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ١ (ص ١٤٠)، ابن نباتة: سرح العيون (ص ٢)، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٥ (ص٨٨)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص٦٣) وما بعدها، صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص١٧٣ - ١٧٤).

للوزارة لدى المعتضد حتى توفي الأخير وتولى بعده ابنه المعتمد الذي زاد في إكرام ابن زيدون رغم مساعي حساده وخصومه في إسقاطه عن مكانته وإبعاده عن بلاط بني عباد، حتى أشار بعضهم على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثائرة التي قام بها العامة ضد اليهود في اشبيلية فسار ابن زيدون على رأس الحملة على مضض وقد أثقلته الأمراض وأوهنت جلده الأسقام ليلفظ أنفاسه الأخيرة في رجب (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)(٢٩).

ولعل من عوامل شهرة ابن زيدون ارتباط حياته بحبه المشهور لولادة بنت المستكفي، والتي قال فيها قصائده الجميلة وأعذب اشعاره وأرقها. وولادة هذه بنت الخليفة الأموي محمد بن عبدالرحمن المستكفي (ت ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م)، الذي وصف بالخمول والتهتك(٣٠)(*)

وكانت ولادة ماهرة في الأدب بارعة في الشعر، حتى كان كثير من الأدباء والشعراء يغشى مجلسها بقرطبة يتبادلون فيه نظم ألوان من الشعر والنثر وقد عرفت رغم مكانتها الأدبية بقلة تصاونها وعفافها(٣١).

وقد ذكر كثير من المؤرخين الذي تناولوا حياة ولادة سيرتها الشخصية وذكروا أنها بعد مقتل أبيها انتقلت في حياتها الاجتماعية إلى طور آخر من الابتذال وقلة التحفظ(٣٢).

ولم يشذ عن وصفها بتلك الحال إلا المقري الذي وصفها بطهارة الأثواب ونقاء السيرة، ثم يقول: (على أنها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها..)(٣٣)

---

(٢٩) شوقي ضيف : ابن زيدون (ص ٢٨ - ٢٩)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٨٥) وما بعدها، أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، ج ٢ (ص ١٧٠).

(٣٠) الحميدي : جذوة المقتبس (ص ٢٦ - ٢٧)، الضبي: بغية الملتمس (ص ٣٣) - حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٤، (ص ٣٩٢).

(*) جانب الفتح بن خاقان الصواب عندما ذكر أنها ابنة الخليفة المهدي محمد بن هشام الذي قتل سنة (٣٩٩هـ/ ١٠٠٨م) على يد بعض الصقالبة. انظر قلائد العقيان (ص ٧٥).

(٣١) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١، (ص ٤٢٩).

(٣٢) انظر ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء والصفحة، ابن بشكوال الصلة، ج ٢ (ص ٦٩٦). ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب. (ص ٧ - ٨)، الضبي: بغية الملتمس (ص ٥٤٧)، ابن نباتة: سرح العيون (٦).

(٣٣) نفح الطيب، ج ٤ (ص ٢٠٥).

وقال في نص آخر بعد ان امتدحها بعلو القدر في الأدب والشعر (وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف)[٣٤].

وكان ابن زيدون من أولئك الأدباء الذين ارتادوا مجالسها الأدبية وكان آنذاك في ميعة الشباب ورونقه فارتبط معها بالحب الذي شابته ألوان الوصال والفراق، ودبج في كلتا الحالتين قلائد بديعة من شعره ومنها قصيدته المشهورة الذائعة الصيت ومطلعها:

بنتـم وبِنّـا فمـا ابتلـت جوانحنـا ... شوقـا إليكـم ولا جفـت مآقينـا[٣٥]

، وحدث أن حضر ابن زيدون مجلسها وفيه جاريتها عتبة، وكانت تغني فطلب منها إعادة صوت غنته فغضبت ولادة وثارت غيرتها ظنا منها أنه مال لجاريتها فقالت تخاطبه من جملة أبيات:

لـو كنـت تنصـف في الهـوى ما بيننا ... لـم تهـو جاريتـي ولـم تتخيـر[٣٦]

وزاد العلاقة توترا بينهما عندما انتقد ابن زيدون شعرها فيه إذ تقول في بيت لها:

سقى الله أرضا قد غدت لك منزلا ... بكل سكـوب هاطـل الوبـل مغـدق

فان النقاد عابوا على ذي الرمة قوله:

ألا يا اسلمي يا دار مـي على البلى ... ولا زال منهـلا بجرعائـك القطــر

فإن في ذلك ما يشبه الدعاء على المحبوب لا الدعاء له[٣٧].

ويبدو أن ابن زيدون ثلم كبرياءها بنقده فازورت عنه وصرفت قلبها إلى

---

(٣٤) نفس المصدر والجزء (ص ٢٠٥).

(٣٥) انظر هذه القصيدة وغيرها من أشعاره لدى ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٦٠) وما بعدها، وقد ذاعت قصيدته السالفة الذكر ونالت اهتمام الأدباء من أندلسيين ومشارقة، انظر صلاح خالص: مرجع سبق ذكره (ص ١٧٣)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ١٥٧)، وما بعدها.

(٣٦) ابن بسام : الذخيرة، ج ١ (ص ٤٣١)، المقري : نفح الطيب، ج ٤، (ص ٢٠٥)، شوقي ضيف: مرجع سابق (ص ٢١).

(٣٧) المقري : النفح، ج ٤ (ص ٢٠٧).

غيره وحاول ابن زيدون بشتى الوسائل أن يستميلها ويستعطفها وأن تعود إلى أيام الصفاء والوداد لكنها مضت في إعراضها عنه بعد أن ارتبطت بمحب آخر هو الوزير أبوعامر بن عبدوس[٣٨].

ولابن زيدون ديوان كبير نشره الأستاذان كامل كيلاني وعبدالرحمن خليفة، ومن يطالعه يتضح له أن الغزل والنسيب هو الطابع الغالب على شعره، وأما قصائد المدح فهي تأتي في نظمها بعد ذلك، لأن علاقاته العاطفية كانت في شبابه، ولكنه بعد خلاصه من السجن في الدولة الجهورية اتجه إلى المعتضد في اشبيلية مادحا له مفتتحا بذلك طورا ولونا جديدا في شعره[٣٩].

وفيما يتعلق بشاعريته، فقد وصفه المؤرخون والأدباء بأوصاف شتى تنم عن علو مكانته وبراعته في النظم، فابن نباتة يشير إلى أنه كان يدعى بحتري المغرب لحسن ديباجة لفظه ووضوح معانيه[٤٠].

ووصفه ابن تغري بردي بأنه حامل لواء الشعراء في عصره[٤١].

والحق أن شعره ينم عن سعة اطلاعه على أعمال من سبقه من الشعراء المشارقة والأندلسيين وأنه أفاد من كل ذلك مع احتفاظه بشخصيته المميزة في شعره وعنايته بإبراز ذاته في أعماله الشعرية[٤٢].

ولعل من أهم سماته الفنية في شعره براعته في الصياغة الشعرية وثراء مفرداته وحسن اختياره لألفاظه مع التزامه إبرازً ذاته سواء في المدح أو الغزل، مع اصطباغها بالشكل الذي تفرضه الظروف والأحوال[٤٣].

وضم بلاط بني عباد من الشعراء البارزين عبدالجبار بن محمد بن حمديس

---

(٣٨) المقري : نفس المصدر والجزء والصفحة، وبسبب هذه العلاقة كتب ابن زيدون رسالته الهزلية سخر فيها على لسان ولادة من ابن عبدوس سخرية لاذعة، وقد توسل ابن زيدون أن ترسلها لابن عبدوس إلا أنها امتنعت وهجت ابن زيدون، انظر المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦)، أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢١٥ ـ ٢١٨).

(٣٩) أنظر شوقي ضيف : ابن زيدون (ص ٣٠) وما بعدها.

(٤٠) سرح العيون (ص ٣).

(٤١) النجوم الزاهرة، ج ٥ (ص ٨٨)، وأنظر أيضا الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٤٨ ـ ٧١).

(٤٢) أحمد أمين: مرجع سبق ذكره، ج ٣ (ص ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٤٣) صلاح خالص : اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١٨٣ ـ ١٨٤).

الأزدي الصقلي (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) وكان قد لجأ إلى الأندلس سنة (٤٧١هـ/ ١٠٧٨م) بعد أن حلت النكبة بوطنه صقلية الذي وقع تحت الاحتلال النورماندي، فلاذ بكنف المعتمد بن عباد باشبيلية وأصبح من أبرز شعراء بلاطه، ولما زال ملك المعتمد ظل ابن حمديس وفياً لصاحبه فلحق به إلى منفاه زائرا ومواسيا له، ثم أدت به الظروف بعد وفاة المعتمد إلى الانتقال إلى المهدية فميورقة حيث مات بها بعد أن عمر طويلا وأصيب بالعمى[٤٤].

وذكره ابن دحية فقال: (شاعر جيد السبك، مليح الاستعارة، حسن الأخذ، لطيف التناول، رقيق حواشي المعاني، عذب اللفظ)[٤٥].

وفي شبابه تكونت النواة الأولى لشاعريته، فهو شعر الفارس المحارب الذي اصطبغ شعره بلون الجلاد والطعان، وهو ذاك المحب الذي يمتلك قلبا أرق من النسيم، يقول من ضمن قصيدة له نظمها في شبابه:

لـي قلـب من جامد الصخر أقسـى وهـو مـن رقـة النسيـم أرق[٤٦].

وجدير بالذكر أنه كان لنشأته بجزيرة صقلية - التي كانت تتمتع بجمال أخاذ في طبيعتها - أثر في شحذ ملكته الشعرية في الوصف وبراعته في تصوير مايراه من مفاتن الطبيعة في شعره، غير أن الفترة العصيبة التي مر بها الشاعر في أواخر الحكم الإسلامي لتلك الجزيرة جعله يشد رحاله ويغادر مرابع صباه في حرقة وألم[٤٧][*].

---

(٤٤) ابن خلكان وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٢١٢) وما بعدها، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ (ص ٢٠٦)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٠٠ - ١٠١)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٩٧ - ٩٨)، عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية (ص ٩١)، ميخائيل اماري: المكتبة الصقلية (ص ٦١٣ - ٦٥٣ - ٦٥٤). والمهدية مدينة ساحلية شمال تونس بناها عبيد الله المهدي وسماها بالمهدية على اسمه في سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢م، انظر الحميري: الروض (ص ٥٦١). وميورقة جزيرة في شرق الأندلس فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م، انظر الحميري: المصدر السابق (ص ٥٦٧).

(٤٥) المطرب من أشعار أهل المغرب (ص ٥٤).

(٤٦) إحسان عباس : العرب في صقلية (ص ١٤٠ - ٢٤١)، وانظر فيه بالتفصيل مدى تأثره بمحنة وطنه الذي صاغ فيه أصدق أشعاره وأعمقها عاطفة.

(٤٧) جودة الركابي : في الأدب الأندلسي (ص ١٠٠ - ١٠١)، وانظر أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ١٨٣).

(*) انظر : ابن بسام : الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ٣٢٠)، ح رقم (١) وقام احسان عباس بنشر ديوانه ١٩٦٠م، ولكن على الرغم من ذلك فإن الذخيرة تضمنت أشعاراً ليست في الديوان، وقد تكون مجموعة من القصائد التي كانت له في الأندلس والتي نقلها عنه ابن بسام الذي لقيه وسمع عنه من قصائده ضمّنها كتابه الذخيرة.

وقد أثنى ابن بسام على ابن حمديس ووصفه بالمهارة والبراعة في الوصول إلى المعاني البديعة وأنه يعبر عنها بالألفاظ الرفيعة، مع مقدرة واسعة على التشبيه والغوص على درر المعاني(٤٨).

وفي بلاط بني عباد لمع نجم الشاعر الماهر عبدالجليل بن وهبون المرسي الذي شد رحاله إلى اشبيلية حيث تلقى ألوانا من الأدب على يد الاستاذ الجليل الأعلم الشنتمري (ت ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) وكان عبدالجليل على علاقة طيبة بابن عمار وزير المعتمد فقربه إلى مجلس المعتمد حيث امتدحه بأشعاره التي استحسنها المعتمد وأعجب بمهارة عبدالجليل فرفع مكانته بين شعراء بلاطه(٤٩).

ومن أجمل قصائد عبدالجليل التي أنشدها بين يدي المعتمد القصيدة التي مطلعها:

محـــل ألبـــس الدنيـــا جمـــالا   وأن فضـــح المقاصـــر والخـــلالا
بنـــاه كمـا بنـــى العليـــاء بـــانٍ   يشيـــد مآثـــرا ويبيـــد مـــالا(٥٠).

ولابن وهبون قصائد كثيرة في مدح المعتمد ووزيره النابه ابن عمار بالإضافة إلى أشعاره الأخرى في عدد من الجوانب الاجتماعية والسياسية، ونظرا لغزارة ما نظم فقد صنف الأديب المؤرخ ابن بسام كتابا جمع فيه أشعار عبد الجليل ابن وهبون سماه (الإكليل المشتمل على شعر عبدالجليل)(٥١).

وكانت نهاية ابن وهبون مؤلمة حيث كان مسافرا من لورقة إلى مرسية في أواخر الدولة العبادية واقتراب زوالها على أيدي المرابطين، وكان بصحبته أحد

---

(٤٨) الذخيرة، ق ٤ ج ١ (ص ٣٢٠)، وانظر ما يتضمن هذا المعنى الأصفهاني، خريدة القصر، قسم المغرب، ج ٢ (ص ١٩٤ ـ ٢٠٧)، وكذلك ميخائيل اماري: المكتبة العربية الصقلية (ص ٦١٢) نقلا عن أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية للملك المنصور صاحب حماة.

(٤٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤ ـ ٤٧٥)، والشنتمري نسبة إلى شنتمريه الغرب إلى الجنوب الغربي للأندلس. (الحميري : الروض ص ٣٤٧).

(٥٠) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٥٠٨).

(٥١) انظر : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤٧٧)، وانظر أشعاره في هذه الصفحة وما بعدها وكذلك في القلائد (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٦)، الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٩٥ ـ ١٠٣)، المراكشي: المعجب (ص ١٥٢ ـ ١٥٤).

أصدقائه، فلم يلبثا يسيراً حتى ظهر لهم كمين من جند النصارى فقتل عبدالجليل وأسر صاحبه، ومن الغريب أنه توقع نهايته في شعر قاله قبل حصول هذه الحادثة(٥٢).

ومن مشاهير شعراء بلاط بني عباد الشاعر الأديب أبوبكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة (٥٠٧هـ/ ١١١٣م) وكانت أمه امرأة عاملة تبيع اللبن وتأكل من كسب يدها، وحرصت على تربية ابنيها محمد المذكور وعبدالعزيز تربية صالحة، وشق محمد طريقه في ميدان الأدب في حين أن أخاه عبدالعزيز اتجه إلى التجارة فحسنت حاله، وكان له مع ذلك مشاركة في قرض الشعر والعناية بالأدب وكان أبوبكر في أول حياته الأدبية مترددا على ملوك الطوائف حتى ألقى عصا التسيار في بلاط المعتمد، وظل ملازما له حتى بعد زوال ملكه وسلطانه(٥٣).

وأثنى الأدباء والمؤرخون على ابن اللبانة، فوصف بأنه شاعر بارع التصرف ماهر غير متكلف قوي البناء والسبك بديع الألفاظ والمعاني(٥٤).

كما أن الأصفهاني أشار إليه بقوله: (كنت أعتقد أن في طبع المغاربة يباسة، يأبى لشعرهم سلاسة، حتى أُنشدت شعر ابن اللبانة، فحصلت من رقته ورونقة باللبانة، وهو أصفى من اللبن وأحلى من الضرب وأنفى للكُرَب وأجلى للطرب)(٥٥)

وهذه شهادة رفيعة وصادقة من أحد أدباء المشرق لأحد شعراء الأندلس بأنه بلغ شأوا كبيراً في الأدب وأن اشعاره في منتهى الرقة والجمال وتشهد له بطول الباع وذروة التألق والإبداع.

وشعر ابن اللبانة نبيل المأخذ، جمع سهولة الألفاظ ورشاقتها وجودة المعاني وحسنها غير أنه ضعيف المعرفة بعلله، لم يتعمق في فنونه وإنما كان اعتماده

---

(٥٢) الضبي : بغية الملتمس (ص ٣٨٨)، وانظر قصة مقتله وما نظمه من الشعر قبل تلك الحادثة في نفس الصفحة، وانظر ايضا أنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص١١٦). ومرسية ولورقة إلى الجنوب الشرقي للأندلس انظر الخريطة.

(٥٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣ ج ٢ (ص٦٦٦ - ٦٦٧)، وانظر الضبي: البغية (ص١٠٩ - ١١٠).

(٥٤) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٦٦٦) الكتبي: عيون التواريخ ج ١٢، (ص ٣٤).

(٥٥) خريدة القصر، ج ٢، (ص ١٢٣).

على جودة طبعه وقوة قريحته وملكته[٥٦].

ولما سقطت دولة بني عباد ووقع المعتمد في الأسر، ظل أبوبكر وفيا مخلصا له فوفد عليه في أغمات عدة وفادات وزاره في سجنه ومدحه بقصائد عديدة لا يرمي من ورائها إلى عطاء، وإنما كل ذلك وفاء[٥٧]. وقد جمع أبوبكر شعره هذا في كتاب سماه «نظم السلوك في وعظ الملوك» وصنف كتابين آخرين أحدهما في شعر بني عباد سماه «سقيط الدرر ولقيط الزهر» والآخر «مناقل الفتنة»[٥٨].

ولعل من دلائل عناية هذه الدولة بالأدب واهتمامها بالشعر أنه قلما تولى الوزارة فيها من لا يكون أديبا أو شاعرا بارعا. ومن أهم وزرائها الأدباء الشعراء ابن زيدون الآنف الذكر، ونده القوي أبوبكر بن عمار المهري وأبوبكر هذا كان أول امره خاملا ينسب إلى مدينة شلب وبالذات إلى قرية تتبعها تدعى شنبوس، وأخذ يطالع كتب الأدب والشعر مع قوة ملكته في النظم، وما زال نجمه يعلو في الأدب شيئا فشيئا حتى برع فيه وخدمه الحظ بتعرفه على الأمير المعتمد بن عباد عندما توجه الأخير لغزو شلب، وهناك تعلق بصحبته وعلت لديه منزلته وبعد أن خضعت شلب للدولة العبادية عاد مع المعتمد إلى اشبيلية وهناك قويت روابط الصداقة بين ابن عمار والمعتمد حتى خشى المعتضد أن يشغله ذلك عن مهماته السياسية، وعلم ابن عمار ما يجول في صدر المعتضد فارتحل إلى سرقسطة، ولما توفي المعتضد وتولى الملك ابنه المعتمد وفد عليه ابن عمار مذكرا إياه بأيام الصحبة والرفقة، فأكرمه المعتمد وأعلى مكانته وولاه الوزارة في دولته[٥٩].

---

(٥٦) المراكشي : المعجب (ص ٢١٩ - ٢٢٠ - ٢٢١).

(٥٧) انظر ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٦٦٦ - ٦٦٧) وانظر ايضا (ص ٦٦٩ - ٧٠٢)، لتقف على نماذج عديدة من شعره. ابن خاقان: القلائد (ص ٢٥٦ - ٢٥٧)، حاجي خليفة: كشف الظنون ج ٢ (ص ٩٩٣)، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٦٩) وما بعدها.

Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P. 118.

Dozy: Spanish Islam, p, 731.

(٥٨) الكتبي : عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ٣٤).

(٥٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٣٦٨) وما بعدها، المراكشي: المعجب (ص ١٦٩)، الذهبي: تاريخ الإسلام (مخطوط) ج ١٢ ورقة ٣ أ، الذهبي: العبر، ج ٣ (ص ٢٨٨)، كامل كيلاني: ملوك الطوائف (ص ١٨٥ - ١٨٦)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣، (ص ١٨٠ - ١٨١)، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١ (ص ٢٤١ - ٢٤٢).

وكان المعتمد آنذاك طامعا في السيطرة على مرسية فأرسل وزيره ابن عمار على رأس جيش لفتحها، وتمكن ابن عمار من دخولها والاستيلاء عليها ثم سولت له نفسه الانفراد بها وحكمها بنفسه، وراسله المعتمد لعله يرجع وينثني عما عزم عليه وتبادلا خلال ذلك مقطوعات من الشعر لكن الأمر ازداد توترا بينهما، فتهاجيا بالشعر، ونسبت إلى ابن عمار أبيات مقذعة في هجاء المعتمد منها قوله:

ألا حَيِّ بالغرب حيا حِلالا ... أناخوا جمالا وحازوا جمالا
وعرج بيومين أم القرى ... ونم فعسى أن تراها خيالا
لتسأل عن ساكنيها الرماد ... ولم تر للنار فيها اشتعالا[60]

وانتهى الحال بابن عمار إلى أن قامت ضده ثورة في مرسية فخرج هائما على وجهه حتى نزل لدى بني هود بسرقسطة، وطمع أن يستولي على شقورة من صاحبها ابن مبارك، لكن هذا تمكن من خديعته فأسره وبعث به إلى المعتمد حيث قتله بيده سنة (٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م)[61].

وقد حاول ابن عمار استدراج المعتمد للعفو عنه، فبعث إليه بعدد من القصائد التي تندى أسفا وتبعث فيضا من الرأفة والشفقة، ومن أشهرها ما يقول مطلعها:

سجاياك إن عافيت أندى وأسمح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح

حتى ختمها بقوله:

وبين ضلوعي من هواه تميمة ... ستنفع لو أن الحمام يجلّح

وما من شك ان المعتمد كان سيعفو عنه ويصفح عما اقترفه لولا ما احاط

---

(٦٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤٠٥) وما بعدها، المراكشي المعجب (ص ١٨١) وما بعدها.
(٦١) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ٤١٥)، (ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠)، ابن دحية : المطرب (١٦٩)، المراكشي: المعجب (ص ١٨٥ ـ ١٩٠)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٣٨٩) وما بعدها، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٤ (ص ٤٢٥)، الأصفهاني: الخريدة قسم المغرب، ج ٢ (ص ١٧). وانظر ايضا:
Jan Read: The moors in Spain and Portugal, p. 117 - 118.
Dozy: Spanish Islam, p. 689

به من خصوم ابن عمار والحاقدين عليه حتى قالوا: أي معنى أراد، ما قال شيئا ولا كاد. فقال لهم المعتمد: مهما سلبه الله من المروءة والوفاء، فلم يسلبه الشعر، إنما قلب بيت الهذلي فأحسن وهو قوله:

وإذا المنيـــة أنشبـــت أظفارهـــا ألفيـــت كـــل تميمـــة لا تنفـــع

فسكت القوم[٦٢]

ورغم ما حصل من ابن عمار إلا أن ما يهمنا هنا هو شعره، فقد وصفه ابن الأبار فقال: (كان ابن عمار شاعر الأندلس غير مدافع ولا منازع، إلاّ أن مساوئ أفعاله ذهبت بمحاسن أقواله، أدمن الخمر، وهون على نفسه العذر، فأداه ذلك إلى رداه، وكان كالذي نفخ فوه وأوكتا يداه)[٦٣].

وقد جانبت دائرة المعارف الإسلامية الصواب عندما ذكرت أنه غير معروف النسب ولم يجمع ديوانه[٦٤]. والحق إنه يعود في نسبه إلى قبيلة مهرة اليمنية[٦٥]، كما أن الأديب محمد بن يوسف التميمي جمع أشعاره ورتبها على حروف المعجم[٦٦]. وقام حديثا صلاح خالص من العراق بجمع ديوانه وحققه سنة ١٩٥٧م[٦٧].

وقد جانب الذهبي ومن قبله ابن خلكان الصواب عندما أشارا إلى أن من بين أشعاره التي هجا بها المعتمد وبنيه قوله:

ممـــا يقبّـــح عنـدي ذكـــر أندلـــس سمـــاع معتمـــد فيهـــا ومعتضـــد

أسمـاء مملكـة فـي غيـر موضعهـــا كالهر يحكي انتفاخا صولـة الاسد[٦٨]

---

(٦٢) ابن بسام : الذخيرة، ق٢ ج ١، (ص ٤٢١ - ٤٢٢).

(٦٣) الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٣٤)، وانظر ما يتضمن هذا المعنى، ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٣٦٨)، والأصفهاني: الخريدة قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٧٣)، وانظر نماذج متعددة من أشعاره في الذخيرة، ق٢، ج ١ (ص ١٦٠) وما بعدها، الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٣١) وما بعدها، وكذلك الخريدة قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٧٧) وما بعدها، ابن سعيد: رايات المبرزين (ص ٥٥ - ٥٦)، المراكشي: المعجب (ص ١٨٥) وما بعدها.

(٦٤) دائرة المعارف الإسلامية، ج ١ (ص ٢٤٢).

(٦٥) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٤ (ص ٤٢٥)، وانظر ما يؤكد ذلك في شعره ابن بسام : الذخيرة، ج ١، ق ٢، (ص ٣٨١).

(٦٦) ابن الأبار : الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٣٤)، وقد ذكر المراكشي أن ديوانه متداول بين الناس (المعجب ص ١٦٤).

(٦٧) انظر صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١٨٩).

(٦٨) انظر : تاريخ الإسلام، ج ١٢ (مخطوط) ورقة ٣ أ، وفيات الأعيان، ج ٤ (ص ٤٢٨).

والحق أن هذين البيتين للأديب الشاعر الحسن بن رشيق القيرواني (٣٩٠ـ٤٥٦هـ)(٦٩).

ومن أجمل قصائد ابن عمار قصيدته التي بعث بها من سرقسطة للمعتمد بعد أن خشي غضب والده المعتضد لملازمتهما الواحد للآخر، يقول في قصيدته الجميلة:

علـيّ وإلا مـا نيـاح الحمائـم	وفـيّ وإلا مـا بكـاء الغمائـم
وعني أثار الرعـد صرخـة طالـب	لثأر وهـز البـرق صفحـة صارم
ومـا لبسـت زهـر النجـوم حدادهـا	لغيـري ولا قامـت لـه فـي مآتـم
وهـل شقّقـتْ هـوج الريـاح جيوبهـا	لغيري أو حـنّت حنيـن الروائـم(٧٠)

وضم بلاط بني عباد شعراء آخرين أقل شهرة ممن ذكرنا أمثال علي بن حصن الاشبيلي الذي وصف بأنه في الصدارة من شعراء عصره، وقد عاب ابن بسام على أهل عصره إغفالهم له وطمسهم لذكره، ويذكر أنه كان من الممكن لابن حصن أن يتصدر شعراء بلاط المعتضد، لولا أن المقادير وضعت في طريقه الشاعر المبدع ابن زيدون، وقد كان بينهما من المنافسة والمسابقة إلى ذروة الإجادة والتفوق ما لفت الأنظار، إلاّ ان ابن زيدون زاد عليه بتمكنه من قلب المعتضد ورسوخ منزلته في بلاطه.(٧١)

وخلاصة القول أن دولة بني عباد وعلاقتها بالحركة الأدبية كانت أوثق وأقوى من غيرها من الممالك الأخرى، وأنها حازت بذلك قصب السبق والقدح المعلى في ازدهار الأدب والشعر، ولا غرو في ذلك فإن ملوك تلك الدولة كانوا هم شعراء مجيدين ولبعضهم دواوين شعرية، ولا يزال بين أيدينا ديوان أشهرهم وأعلاهم ذكرا، وهو المعتمد بن عباد. وكان لاهتمام هؤلاء الملوك بالأدب والشعر أن ضمت بلاطاتهم كثيرا من كبار شعراء هذا العصر وفحوله(٧٢).

---

(٦٩) انظر ابن سعيد : رايات المبرزين (ص ١٣٧)، عبدالرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي (ص ٣٢٣).
(٧٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٣٧٢)، المراكشي: المعجب (ص ١٦٥).
(٧١) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ١٥٨) وما بعدها، وانظر نماذج من شعره ما يلي تلك الصفحة، صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (١٧١ - ١٧٢).
(٧٢) انظر غير ما ذكرنا من شعراء بني عباد الشاعر محمد بن عبدالعزيز المعلم في الذخيرة لابن بسام، ق ٢ ج ١ (ص ١٢٠) والشاعر أحمد بن الأبار. نفس المصدر والقسم والجزء (ص ١٣٥)، وأبا القاسم بن مرزقان. المصدر السابق، ق ٢، ج ١ (ص ٥٢٠)، والشاعر يوسف بن عبدالصمد في المغرب لابن سعيد، ج ٢ (ص ٢٠٣).

دولة بني صمادح بالمريــة

وفي دولة بني صمادح بالمرية قامت نهضة أدبية وشعرية كبيرة، وبنو صمادح يلون بني عباد في اهتمامهم بالأدب والشعر، فبلاطهم ضم عددا من كبار الأدباء والشعراء ولا عجب في ذلك فقد كان أشهر ملوك هذه الدولة ـ وهو المعتصم بن صمادح ـ شاعرا بارعا في نظم الشعر، وكان يتجاذبه مع شعراء بلاطه(٧٣).

ويأتي في مقدمة شعراء هذه المملكة الشاعر محمد بن أحمد بن عثمان القيسي (٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م) المعروف بابن الحداد الوادياشي، سكن المرية، وكان مع مهارته في نظم الشعر بارعا في العروض وصنف فيها كتابا سماه «المستنبط». عاش فترة من الزمن في كنف المعتصم ومدحه بقصائد كثيرة ثم انصرف إلى سرقسطة (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) حيث نزل في بلاط المقتدر بن هود، وما لبث قليلا حتى عاد إلى المرية حيث عاش مكرما لدى المعتصم حتى وفاته(٧٤).

ويذكر آنخل بالنثيا أن السبب في خروجه عن المرية رغم مكانته المرموقة في بلاط المعتصم ولجـوئه إلى بلاط بني هود، هو أن ابن الحداد وصف المعتصم في إحدى قصائده بالبخل والتقتير، فتغير عليه قلب المعتصم وأظهر له سخطه وتبرمه فخرج ابن الحداد عن المرية.(٧٥).

إلا أن الباحث يستبعد ذلك فإن المعتصم، من خلال النظر في خلاله وخصاله التي حدثنا عنها المؤرخون، أبعد ما يكون عن البخل. وهذه قصائد ابن الحداد نفسه وأبي الفضل بن شرف وغيرهما من شعراء بلاط المعتصم تتحدث بإسهاب ووضوح عن سخاء المعتصم وجوده وكرمه، وبالتالي من غير المسلم به أن ينعت ابن الحداد ممدوحه بالشح والبخل، ونقرب من الاطلاع على حقيقة الامر عندما ننظر فيما قاله ابن بسام عن ابن الحداد وسبب

(٧٣) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ١٩٦) وما بعدها.
(٧٤) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٩٩)، ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ١١).
(٧٥) تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٢).

خروجه عن المرية، وهو أنه طولب عند بني صمادح وسُعي به إلى السجن والاعتقال ففر إلى بني هود[٧٦]. ويزيدنا ابن عبدالملك المراكشي توضيحا لهذه القضية فيشير إلى انه كان له أخ فقتل رجلا ـ وأخفى نفسه ـ فنالت الشاعر بسبب ذلك مطالبة بدمه ففر إلى سرقسطة حتى تم القبض على أخيه ثم عاد بعد ذلك إلى بلاط المعتصم كما كان[٧٧].

وأين البخل في صفات المعتصم، وهذا ابن بسام يثني عليه فيقول (رحب الفناء، جزل العطاء، حليما عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال واتسع في مدحه المقال)[٧٨].

ونال ابن الحداد بمكانته الأدبية والشعرية ثناء الأدباء، ومنهم أدباء المشرق، فالقفطي يذكر أنه مذكور في وقته، مشهور في عصره ومصره وأنه ممن شرفت نفسه وعزفت عن مواطن الذلة والخنوع[٧٩].

وقد سأل الأصفهاني عنه القاضي الفاضل ـ وقوله حجة ـ فقال كان في الصمادحية وهو أديب فاضل وله القصيدتان المهموزتان[٨٠]، وكل واحدة أكثر من مائة بيت وليس في العرب أشعر منه[٨١].

ولعل هذه الشهادة وما قبلها لأدباء المشرق في مكانة ابن الحداد الشعرية تعطينا تأكيدا راسخا على ما ناله الأندلسيون من مكانة سامية في عالم الأدب والشعر، وخاصة ان تلك الشهادات صادرة عن، أدباء المشرق الذين لم يغمطوا حق إخوانهم الأندلسيين فحفظوا لهم جهدهم وعملهم الأدبي الرفيع.

ومن اشعار ابن الحداد في الحكم قوله:

واصل أخاك وإن أتاك بمنكر   فخلوص شيء قلما يتمكن
ولكل شيء آفة موجودة   إن السراج على سناه يدخن[٨٢]

---

(٧٦) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٩٢).
(٧٧) الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ١١)، وانظر نماذج من شعره في الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٧٠٤-٧٢٩).
(٧٨) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٧٢٣).
(٧٩) المحمدون من الشعراء (ص ٩٩).
(٨٠) انظر أبيات إحداهما في الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٠٩ - ٧١١).
(٨١) الخريدة، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٢٧١).
(٨٢) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٢٩)، ابن الأبار: تكملة الصلة ج ١ (ص ٣٩٩)، ابن عبدالملك: الذيل والتكملة، السفر السادس، (ص ١٠).

وظهر في بلاط المعتصم شاعر مبدع آخر هو الأسعد بن بليطة (ت في حدود ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، وكان موطنه الأصلي قرطبة، وتردد فترة من الزمن على ملوك الطوائف شاعرا وناثرا[٨٣]. واستقر به المقام أخيرا في بلاط المعتصم حيث قال في مدحه عددا كبيرا من القصائد الرائعة، وكان موصوفا بأنه شاعر الأندلس وأديبها، وأنه كان ذا أدب واسع، ومعرفة عميقة بالغوص على المعاني الأبكار واستخراج جواهرها.[٨٤].

كما نال الشاعر أبوالفضل جعفر بن محمد بن شرف البرجي (٤٤٤ - ٥٣٤هـ/ ١٠٥٢ - ١١٣٩م) مكانة مرموقة في بلاط المعتصم، وكان والده قد دخل الأندلس سنة (٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) في عصر ملوك الطوائف وأبوالفضل لا يزال صغيرا فاستقر به والده بالمرية وهناك نشأ وتعلم، وفي بلاط المرية لمع نجمه واشتهر بقرض الشعر والإبداع فيه، إلا أنه بعد ذلك انصرف عن الشعر وهجره واتجه إلى الطب ودراسته حتى نبغ فيه وعد من حذاقه[٨٥].

وكان أول اتصال لأبي الفضل بالمعتصم أنه دخل عليه في زي بدوي ساذج حتى إذا تهيأ لإنشاد شعره أمام المعتصم قال قصيدته الجميلة ومطلعها:

مطل الليل بوعد الفلق وتشكى النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى فاستفاد الروض طيب العبقِ

فلما سمعها المعتصم طرب لها ونالت استحسانه، فحسده بعض الحاضرين وكان من بينهم الأديب اللغوي ابن اخت غانم محمد بن معمر المالقي، فقال له: من أي البوادي انت؟ قال: أنا من الشرف في الدرجة

(٨٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٩١)، ابن خاقان: المطمح (ص ٣٢١ - ٣٢٢).
(٨٤) الأصفهاني : الخريدة، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٢٦٢ - ٢٦٤) وانظر اشمارة (ص ٢٦٣) إلى (ص ٢٧٠) وفي الذخيرة، ق ١، ج ٢، (ص ٧٩١ - ٨٠١).
(٨٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٨٦٧)، وانظر عن أشعاره (ص ٨٦٩) وما بعدها، وانظر كذلك ابن بشكوال: الصلة، ج ١، (ص ١٣٠ - ١٣١)، الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب ج ٢ (ص ١٧١ - ١٨١).

العالية، وإن كانت البادية على بادية، ولا أنكر حالي، ولا أعرف بخالي، فذاب ابن اخت غانم خجلا، وسخر منه كل من حضر(٨٦).

وهناك شعراء عاشوا في هذا البلاط الرفيع، نذكر منهم في إيجاز خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسميسر، وقد سبق ذكره وأنه فر بعد ان هجا باديس صاحب غرناطة ولجأ الى المعتصم، ولكننا لا نكاد نجد له أشعارا في مدحه.

دولة بني الأفطس في بطليوس

وحفل بلاط بني الأفطس بعدد من الشعراء يأتي في مقدمتهم الشاعر الكبير عبدالمجيد بن عبدون الفهري وكان أديبا لغويا مؤرخا شاعرا فذاً سمت به آدابه وعلومه الواسعة في مدارج الشهرة حتى نال الكتابة والوزارة لدى المتوكل بن الأفطس، وقد أوتي من قوة الحفظ والإدراك ما يبعث على العجب(٨٧) حتى قال فيه الوزير أبو مروان عبدالملك بن زهر: (أديب الأندلس وأمامها وسيدها في علم الآداب، أبو محمد عبدالمجيد بن عبدون ايسر محفوظاته كتاب الأغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته)(٨٨)

وعندما سقطت عروش ملوك الطوائف وزال سلطان بني الأفطس فُجع ابن عبدون بمصابهم وبكى مأساتهم، ورثاهم بقصيدته الرائعة الشهيرة التي سارت بها الركبان وتناقلتها الألسن(٨٩)

ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وقد شرح قصيدة ابن عبدون الأديب الشاعر عبدالله بن بدرون الحضرمي

---

(٨٦) المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٩٣ - ٣٩٠)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٠ - ١١١)، وانظر فيما يلي ذلك قصته مع المعتصم الدالة على تكريم الأخير للأدباء، ومن جهة أخرى تدل على ماكان يسود حياة أولئك الملوك والأمراء من بذخ وسيطرة على الثروات في ذلك المجتمع.

(٨٧) عن قصته مع الوزير أبي مروان عبد الملك الدالة على سعة حفظه واحاطته بكتب الأدب انظر المراكشي: المعجب (ص ١٣١) وما بعدها.

(٨٨) المراكشي: المعجب (ص ١٣٥).

(٨٩) المراكشي: نفس المصدر (ص ١١٢)، ابن خاقان: المطمح (ص ١٥١) وما بعدها.

الشلبي (من أهل القرن السابع الهجري/ الرابع عشر الميلادي، في كتاب سماه «كمامة الزهر وصدفة الدر»[٩٠].

كما درس المستشرق الهولندي دوزي هذا الشرح ونشره في ليدن سنة ١٨٤٦م، وطبعت هذه القصيدة بشرحها في مصر على طريقة تجارية سنة (١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م).

ويبرز في بلاط بني الأفطس من الشعراء الأديب أبوعبدالله محمد بن البين، أحد الشعراء المعدودين، وكان في شعره على نهج محمد بن هانىء الأندلسي الذي نهج أثره عدد كبير من شعراء الأندلس، ولابن البين قصائد مختلفة في مدح ملوك بني الأفطس ووزرائهم[٩١].

وعد من شعراء المتوكل بن الأفطس الشاعر محمد بن عبدالبر الشنتريني[٩٢] وله فيه قصائد بديعة منها قوله في المتوكل عمر وهو ممتطٍ صهوة جواده:

وكأنما عمر على صهواته   قمر تشير به الرياح الأربع[٩٣]

وذكر الحجاري في المسهب أن الشاعر عبدالله بن البُنت الترجلي كان من جلة شعراء المظفر ملك بطليوس، وأن له قصيدة في تهنئة المظفر بعد انتصاره في إحدى معاركه قال فيها:

فتح تبسمت المنى عن ثغره   والدهر يصدر واضحا عن بشره

لما دجا ليل القتام بدا لنا   منه كما انسلخ الدجى عن فجره[٩٤].

دولة بني حمود في مالقة

وفي دولة بني حمود بمالقة لمع نجم الشاعر عبدالرحمن بن مقانا

---

(٩٠) الكتبي : عيون التواريخ، ج ١٢ (٣٤٧)، وانظر نماذج من أشعاره لدى الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ج ٢، (ص ١٠٣ ـ ١٠٦).

(٩١) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٧٩٩).

(٩٢) نسبة إلى شنترين وهي مدينة بغرب الأندلس. وهي الآن في البرتغال انظر الحميري: الروض (ص ٣٤٧).

(٩٣) ابن سعيد : المغرب، ج ١ (ص ٤١٨). وحاشية رقم (١).

(٩٤) ابن سعيد : المغرب، ج ١ (ص ٣٧٧) نقلا عن الحجاري في المسهب.

الأشبوني[٩٥]. وشعره جيد جزل ينم عن مقدرته الفائقة وتمكنه من طرق الشعر وفنونه، وكان أجود شعره ماقاله في شبابه، ثم تراجع عن الشعر عندما بلغ الاكتهال، وله قصائد عديدة أشهرها قصيدته التي مدح فيها ابن حمود وأولها:

البرق لائح من أندرين ... ذرفت عيناك بالماء المعين

لعبت أسيافه عارية ... كمخاريق بأيدي لاعبين

ولصوت الرعد زجر وحنين ... ولقلبي زفرات وأنين[٩٦]

وقصد بلاط بني حمود بمالقة الشاعر النابه والطبيب الفيلسوف الأعمى المعروف بابن الحناط محمد بن سليمان الرعيني، (ت قريباً من ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وكان يتولى تأديب أبناء أبي الحزم بن جهور بقرطبة، ثم حدث ما عكر صفو العلاقة بينهما فاتجه إلى مالقة حيث مدح المعتلي بالله يحيى ابن علي بن حمود، وكلفه بتذييل بيتي تميم بن المعز في أخيه نزار صاحب مصر عندما ودعه وهما:

أقيم وترحل إذْ لا يكون ... لئن صح هذا ستدمى عيون

فإني وإياك مثل اليدين ... ولكن لك الفضل أنت اليمين

فقال ابن الحناط:

سأسلو بيحيى وأيامه ... فعذر السلو به مستبين

إمام تجمع في راحتيه ... لأهل المحبة دنيا ودين

جناب خصيب وروض أنيق ... وظل ظليل وماء معين

لئن كان من قبله جده ... علينا الوصيّ فهذا الأمين[٩٧]

---

(٩٥) نسبة إلى أشبونة وهي مدينة في غرب الأندلس وتدعى الآن لشبونة وهي عاصمة البرتغال. انظر الحميري: الروض (ص ٦١).

(٩٦) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٧٨٦ - ٧٩٤) وانظر شيئا من شعره ما بعد (ص ٧٨٦) وانظر أيضا الحميدي: الجذوة (ص ٢٧٩) والضبي: البغية (ص ٣٧١) إلا أنه جانب الصواب في ذكر اسم أبيه فقال «عبدالرحمن بن معاناة».

(٩٧) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٢٢١) وما بعدها وانظر الأصفهاني: خريدة القصر، ج ٢ (ص ٢٢٣ - ٢٢٤).

وابن الحناط من أعلام هذا العصر والمتبحرين في أكثر من علم وفن، ولا غرو في ذلك فقد كانت هذه سمة عدد كبير من العلماء والأدباء، وكانت بينه وبين أدباء وشعراء عصره مناقضات ومعارضات أدبية ومساجلات شعرية تنم عن القدر الكبير الذي تبوأه ابن الحناط وتدل على رسوخ قدمه في الأدب والشعر[٩٨].

وفيما يتصل بالحركة الشعرية في غرناطة التي كان يحكمها أسرة بربرية فإنها عانت إبان القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي من الجدب الفكري أو الأدبي على أقل تقدير، ولم يحدث أبدا أن أيا من شعراء العصر من خارج غرناطة شد رحاله إلى بلاط باديس بن حبوس أميرها، ولم يوجد بها من الشعراء سوى عدد قليل لا يذكر، من بينهم المنفتل عبدالعزيز بن خيره الذي أوقف شعره على مدح الوزير اليهودي صمويل وابنه يوسف من بعده، وقد غالى المنفتل في مديحه لذلك اليهودي حتى كاد أن يخرج عن الإسلام، وهو ما قلل من شأنه لدى المؤرخين وأضعف مكانته. رغم جودة شعره[٩٩].

والشاعر ذو الأهمية في غرناطة كان شاعر المعارضة والزهد والإصلاح السياسي، وهو الشاعر أبوإسحاق الألبيري الذي تعرضنا إلى ذكره في أثناء الحديث عن مواقف بعض الشعراء من أحداث العصر السياسية. وتعود شهرته إلى قصيدته الرائعة التي حث فيها الناس على الثورة على اليهود أصحاب الامتيازات في دولة باديس بن حبوس، وله أشعار أخرى في الزهد والحكم والمواعظ حتى كاد أن يكون شاعرا زهديا خالصا في عصر عرف الترف والمجون[١٠٠].

---

(٩٨) الحميدي : الجذوة (ص ٥٧ ـ ٥٨)، ابن بسام : الذخيرة، القسم الأول، ج ١ (ص ٣٨٣)، الضبي: البغية (ص ٧٧).

(٩٩) انظر ابن بسام : الذخيرة، ق ١ ، ج ٢ (ص ٧٥٤ ـ ٧٥٦) وما بعدها وفيها نماذج من شعره الذي شطح فيه فلم يراع معتقدات الدين الإسلامي وانظر ايضا الطاهر أحمد : دراسات أندلسية (ص ٧٣) وما بعدها.

(١٠٠) غرسيه غومس : مع شعراء الأندلس والمتنبي (٩٩ ـ ١٠٠).

دولة بني ذي النون

أما الدول الأخرى لملوك الطوائف أمثال دولة بني ذي النون بطليطلة وبني هود بسرقسطة فإنه قل فيها الاهتمام الأدبي عمن سلف ذكرهم من ملوك الطوائف وخاصة بني عباد وبني صمادح، ولكنها اشتهرت باهتمامات علمية أخرى كالعناية بالعلوم التطبيقية والفلسفية، وخاصة دولة بني هود الذين نجد من بين ملوكها علماء قديرين في الرياضيات والفلسفة.

أما دولة بني ذي النون فإنه عرف عن مؤسس دولتهم إسماعيل بن المضراس قلة عنايته بالأدب والشعر وانعدام تشجيعه لأهلهما وذلك أنه (لم يرغب في صنيعة ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، فما أعملت إليه مطية، ولا حملت أحدا نحوه ناقة، ولا عرج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم ولا ناثر)[١٠١].

أما ابنه المأمون يحيى فيختلف اختلافا كبيرا عن أبيه، فقد كان مكرما للعلماء مقربا للأدباء والشعراء فاجتمع في بلاطه من الكتاب والوزراء مالم يجتمع لدى غيره من ملوك الطوائف على حد تعبير ابن سعيد[١٠٢].

ونحن في شك من إطلاق هذا الوصف القاطع على اهتمامات المأمون الأدبية ـ وأن كنا لا نغمطه حقه في تكريم أهل العلم واتساع النشاط الأدبي في بلاطه ـ فإن بلاطه لم يضم من أهل الأدب أكثر مما ضمه بلاط المعتمد ابن عباد الذي كان أعظم الملوك نشاطا في تشجيع الحركة الأدبية والشعرية بلا منازع، يدلنا على ذلك ما اشتمل عليه بلاطه من فحول الأدباء والشعراء.

وفي بلاط المأمون برز الشاعر أبوبكر محمد بن أرفع رأس، وكان بيته في طليطلة بيت أدب وعلم، وقد أنزله المأمون منزلة راقية في بلاطه، ومن مدائحه في المأمون قوله:

---

(١٠١) ابن بسام : الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص١٤٣).

(١٠٢) المغرب ، ج ٢ (ص١٢).

دعوا الملوك وأبناء الملوك فمن ... أضحى على البحر لم يشتق إلى نهر
ياواحدا ما على علياه مختلف ... مذ جاد كفك لم نحتج إلى المطر
ومذ طلعت لنا شمسا فما نظرت ... عيني إلى كوكب يهدي ولا قمر

وله إلى جانب ذلك موشحات مشهورة ذاع صيتها حتى في بلاد المغرب، ومنها ما نظمه في مدح المأمون ايضا[١٠٣].

واشتهر من شعراء ذلك البلاط أبوإسحاق إبراهيم بن وزمر الحجاري وكان مكينا في الأدب والتاريخ، واشتغل بخدمة المأمون في بعض شؤون دولته[١٠٤].

دولة بني هود في سرقسطة

وشهد بلاط بني هود في سرقسطة مشاركة أدبية لا بأس بها، فمن شعراء بلاطهم يحيى الجزار، وكان في أول امره يبيع اللحم في دكان له بسرقسطة، ولكن ميله للأدب وتعلقه به وما أوتي من ملكة أدبية مكنه من نظم الشعر حتى أجاده ودفعه ذلك إلى الوصول إلى بلاط بني هود فمدحهم بقصائد عديدة، ثم ما لبث أن ترك التعلق بهم وعاد إلى القصابة، فعاب عليه ذلك ابن هود، وأمر وزيره ابن حسداي أن يوبخه على ذلك، فبعث إليه ببيت من الشعر يقول:

تركت الشعر من ضعف الإصابة ... وعدت إلى الدناءة والقصابة

فأجابه الجزار بقصيدة منها قوله:

تعيب عليَّ مألوف القصابة ... ومن لم يدر قدر الشيء عابه[١٠٥].

وكان الأديب الشاعر علي بن خير التطيلي[١٠٦] (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) من

---

(١٠٣) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ١٨).
(١٠٤) ابن سعيد : نفس المصدر والجزء (ص ٣٣).
(١٠٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٩٠٥)، ابن سعيد: المغرب ج ٢ (ص ٤٤٤)، صفوان بن إدريس، زاد المسافر (ص ١٤٠).
(١٠٦) التطيلي نسبة إلى مدينة تطيلة من مدن الثغر على بعد ٧٨ كلم إلى الشمال الغربي لسرقسطة. انظر الحميري: الروض (ص ١٣٣)، وح رقم ٥.

أحفظ أهل عصر الطوائف للآداب والأنساب والأخبار، وكان شاعرا مجيدا رحل من بلده إلى بلاط سرقسطة فقوبل بحفاوة وتكريم ونال درجة عالية بين شعراء ذلك البلاط[١٠٧].

وذاع اسم الأديب الشاعر إبراهيم بن معلى الطرسوني[١٠٨]. وقصد بلاط بني هود ومدح الملك المقتدر بن هود، ووصف بالبراعة في نظم الشعر، وقرض القصائد الطويلة التي تنم عن تمكن وطول نفس، ومن أشعاره في الرثاء:

رزءٌ بكت منه العلا ومصاب ... شقت عليه جيوبها الأحباب
وطفقت ألتمس العزاء فخانني ... نفس يذوب ومدمع ينساب
وتلجلج الناعي به فسألته ... عود الحديث لعله يرتاب[١٠٩]

وجدير بالذكر أنه عاش في هذا العصر عدد من الشعراء النابهين لم ترتبط حياتهم ببلاطات ملوك الطوائف، ولعل أشهرهم شاعر الطبيعة المبدع إبراهيم ابن أبي الفتح بن عبدالله المشهور بابن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣هـ/ ١٠٥٨ - ١١٣٨م)، وكانت نشأته بمدينة شقر في الجانب الشرقي للأندلس، وعرف بعزة نفسه وعلو همته وترفعه عن استرفاد ملوك عصره، فلم يعرف عنه أنه طرق باب ملك من الملوك لنيل صلاته، فعاش كريم النفس أبيها على الرغم من أنه سلك مسالك اللهو في شبابه، ولكنه عندما آذن الشباب بالرحيل ثاب إلى رشده وعرف حق ربه عليه[١١٠].

أما شعره فكان في الطبقة العالية، فنال ثناء المؤرخين والأدباء ووصف بأنه شاعر الأندلس بلا منازع وأنه لا يعرف له نظير في علو مكانته وقدراته الواسعة في الشعر وخاصة الوصف.[١١١].

---

(١٠٧) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٤٥٠ - ٤٥١).
(١٠٨) الطرسوني نسبة إلى طرسونة إحدى مدن الثغر إلى الشمال من طليطلة (الحميري: الروض ص ٣٨٩).
(١٠٩) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٤٥٧)، وانظر ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ٢ (ص ٨٤٠).
(١١٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٥٤١ - ٥٤٢)، ابن خاقان: القلائد (ص ٢٤١)، الضبي: البغية (ص ٢١٦ - ٢١٧)، ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ١٤٣ - ١٤٤)، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ (ص ٥٦).
(١١١) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٩٩)، ابن الأبار: تكملة الصلة ج ١ (ص ١٤٣ - ١٤٤)، ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ٣٦٧)، الأصفهاني: الخريدة، قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ١٤٧) وما بعدها.

وقال فيه ابن بسام: (إن مدح فلا الأعشى للمحلق، ولاحسان لأهل جلق، وإن تصرف في فنون الأوصاف، فهو فيها كفارس حصاف[112].

وتعود غزارة أوصافه للطبيعة وبراعته في ذلك إلى البيئة التي نشأ بها، فمدينته شقر كانت تمتاز بطبيعتها الجميلة الساحرة، وقد عضده شبابه في الاستمتاع بها ونيل السرور والحبور بين رياضها وحدائقها، وكان دقيق النظر في الطبيعة متأملا لألوانها شارد اللب في محاسنها وباهي جمالها مما أوحى إليه بدقة التعبير وروعة الوصف، وهو في شعره عن الطبيعة يجسد عنصر الجدة والحداثة ويعكس بيئته وما حفلت به من مفاتن الطبيعة[113].

وسعى ابن خفاجة إلى تشخيص الطبيعة فهو يقف عند المنظر الطبيعي ويصفه كله جزءا جزءا محيطاً إياه بريشته الشعرية، ولم يكتف بذلك بل وثق الرابطة العاطفية بينه وبين الطبيعة فربطها بكل موضوع يطرقه وجعلها المرتكز الذي يعول عليه نظمه عامة، فربطها بالرثاء والغناء والزهد فأمدها على ذلك بالمعاني الحزينة الباكية وبادلها الحديث في صمتها وحركتها[114].

وقد درس شعره المستشرق الفرنسي هنري بيريس عندما كان أستاذا في جامعة الجزائر قبل الاستقلال.

ويذكر ابن بشكوال أن له ديوانا متداولا بين الناس[115]. وفي عصرنا هذا جُمع شعره تحت عنوان ديوان ابن خفاجة، وطبعته دار صادر بيروت، وما من شك أن هذا الديوان ينقصه عدد من القصائد التي نظمها ابن خفاجة.

ومن هذه الفئة من الشعراء التي لم ترتبط بأيٍّ من بلاطات ملوك الطوائف، الشاعر إدريس بن اليمان بن سالم العبدري من أهل يابسة[116] وصف ببراعته في الآداب وأنه من فحول الشعراء، وكان يطوف على ملوك

---

(١١٢) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٥٤١ - ٥٤٢).
(١١٣) جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٠٥ - ١٠٦).
(١١٤) إحسان عباس: الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٢٠٤) وانظر محمد رجب، الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ٧٥) وما بعدها.
(١١٥) الصلة، ج ١ (ص ٩٩).
(١١٦) يابسة جزيرة من جزر البليار تجاه الساحل الشرقي للأندلس. ابن بسام الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٣٣٦).

الطوائف فيمدحهم أمثال بني حمود، ومجاهد العامري وغيرهم، ولم يكن عند الأندلسيين بعد الشاعر ابن دراج القسطلي من يجري عندهم مجراه[117].

وكان لهذا الشاعر طريقة فريدة ومتميزة في إلقاء قصائده بين أيدي ملوك عصره، فكان لا يمدح ملكا من الملوك أو أميرا من الأمراء إلا بعد أن يقبض ثمنا لقصيدته مائة دينار، وقد سأله المعتضد (أن يمدحه بقصيدة يعارض بها قصيدته السينية التي مدح بها آل حمود، فقال له: إشارتي مفهومة، وبنات صدري كريمة، فمن أراد أن ينكح بكرها فقد عرف مهرها)[118].

ولا ريب أن هذا المسلك من الشاعر مسلك مشين يتنافى مع صدق الشعور وصفاء الطبع ونقاء الوجدان فيأتي الشعر أبعد ما يكون عن الحقيقة لأن دافعه كان المكسب والربح لا الإعجاب والإكبار بالممدوح.

ومن بين شعراء هذا العصر الفقيه المؤرخ الأديب علي بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣) قال الحميدي: (كان له في الأدب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم)[119].

وتقع معظم أشعاره في كتابه الأدبي الاجتماعي النفسي «طوق الحمامة» وشعره فيه ينم عن تمكن في الشعر ومهارة في نظمه، ولما كان الكتاب يتحدث عن ظاهرة الحب فقد أمدنا ابن حزم بنماذج عديدة من أشعاره في الغزل والنسيب، لكنه كان يلتزم العفة والنزاهة في شعره.

ومن مآثر ابن حزم الشعرية قصيدته التي رد فيها على ما ادعاه نقفور فوكاس امبراطور الروم (٣٥٢ - ٣٦٠هـ/ ٩٦٣ - ٩٦٩م)، وكان شديد الحقد والكراهية للمسلمين فأشار على أحد أدباء بلاطه وكان مسلما فارتد أن ينظم قصيدة في الحط من الإسلام وهجاء الخليفة العباسي وبعث بها

---

(١١٧) الحميدي : الجلوة (ص ١٧٠)، الضبي: البغية (ص٢٣٦ - ٢٣٧) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ١٩٥).

(١١٨) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٣٣٦ - ٣٣٧)، وانظر نماذج من شعره فيما يلي ذلك وانظر ما يتضمن هذا المعنى ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٤٠٠) وكذلك:
Titus Burckhardt: Moorish Culture in Spain P, 89.

(١١٩) الجلوة (ص ٣٠٩ - ٣١٠).

إلى الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ - ٣٦٣هـ/ ٩٤٦ - ٩٧٤م)[١٢٠].

ومن شعراء هذا العصر أحمد بن عبدالله القيسي التطيلي الأعمى (كان حيًا ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م) كان بارعا في قول الشعر حتى عد من نوابغ الشعراء والأدباء. وأنه له فهمٌ لا يجارى وذهن لا يبارى، إلا أنه لم يطل به العمر فافتقده الأدب، وخلف بعده فراغا لم يسده غيره[١٢١].

ونظيره الأعمى أبوبكر محمد المخزومي (كان حيًا ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م) الذي قيل في وصفه بأنه بشار الأندلس، انطباعا ولسنا وأذاة، وأنه أحيا سيرة الحطيئة بالأندلس، وتجول في الأندلس واستقر لفترة من الزمن بغرناطة حيث التقى بشاعرتها نزهون، ودارت بين الاثنين مهاجاة ونقائض ساقطة[١٢٢].

وأكثر ما برع فيه المخزومي شعر الهجاء حتى وصفه ابن إدريس بقوله: (ذو هجاء قبيح وذكر لحرمات الأعراض مستبيح)[١٢٣]. ثم أورد له أشعارا في الهجاء نضرب عن ذكرها لقذارتها وطعنها في أخلاق الناس وأعراضهم.

الموشحـات والزجـل

الموشحات جمع موشح يعني «المُعلم» بلون أو خط يخالف سائر ألوانه الأخرى، أو الثوب حينما تكون فيه توشية أو زخرفة فإن الأندلسيين قد تصوروا أن هذا اللون من الشعر كرقعة الثوب فيه خطوط (أغصان) تنتظمه أفقيا أو عموديا. والأصل فيه وحدات كبيرة هي الأشطار، وجزئت أجزاء صغيرة فأصبحت أشطارا أصغر من أشطار القصيدة، فهي تتوالد وتتابع تتابع

(١٢٠) انظر تلك القصيدة لدى السبكي: طبقات الشافعية، ج ٣ (ص ٢١٤ - ٢١٥)، وكذلك عمر فروخ: ابن حزم الكبير (٨٥ - ٨٦).

(١٢١) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ٢ (ص ٧٢٨)، وانظر شعره (ص ٧٣٢ - ٧٥٣)، وابن خاقان: القلائد (ص ٢٨٥ - ٢٨٦)، الضبي: بغية الملتمس (ص ١٨٧ - ١٨٨) وانظر ايضا:
Titus Burckhardt: Moorish Culture in Spain, P. 88

(١٢٢) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٢٢٨)، وانظر عبدالوهاب بن منصور: أعلام المغرب العربي، ج ١ (ص ٢٤٤ - ٢٣٤).

(١٢٣) زاد المسافر (ص ١١٧).

النقش أو الترقيم[١٢٤].

وينسب ابن بسام اختراع هذا اللون من الشعر إلى الأديب محمد بن محمود القبري الضرير (القرنين الثالث والرابع الهجريين) (وكان يضعها على أشطار الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي أو العجمي ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان)[١٢٥].

كما يذكر ابن بسام أن الأديب ابن عبد ربه صاحب العقد كان أول من سبق إلى اختراع هذا اللون الشعري ثم أتى الشاعر يوسف بن هارون الرمادي (كان حيًا ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)، فأكثر فيها التضمين في المركز، فيضمّن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة، واستمر هذا الحال حتى أتى الشاعر عبادة بن ماء السماء (كان حيًا ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م) فأحدث التضفير بأن اعتمد مواضع الموقف في الأغصان فيضمنها فأحدث في ذلك تطورا شد الأنظار والأسماع[١٢٦].

وابن بسام يعطي الفضل أو ينسبه في تطوير الموشح لعبادة بن ماء السماء، لكن الحجاري ينسبه إلى شاعر المعتصم بن صمادح محمد بن عبادة القزاز، ومع إشارة ابن بسام إلى عبادة بن ماء السماء إلا أنه لم يغمط حق القزاز فقد أثنى عليه ووصفه بإنه من أعلام من ارتقى بهذا الفن إلى درجة عالية وأن له فضلا كبيرا في تطويره وإخراجه في حلية جميلة، وأن موشحاته تنم عن تبريزه وتفوقه[١٢٧].

ويفترض إحسان عباس في سبب نشوء الموشح أنه يخدم هدفين، الغناء

---

(١٢٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين (ص ٢٢٠ - ٢٢١)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٢٩٣).

(١٢٥) الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٦٩ - ٤٧٠).

(١٢٦) الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٦٩ - ٤٧٠)، وانظر لتوضيح أكثر ابن خلدون: المقدمة (ص ٥٨٣ - ٥٨٤)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ١٩١) وما بعدها، الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٠٩)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ٢٨٧) وما بعدها، أحمد هيكل: الأدب الأندلسي (ص ٢١٧ - ٢١٨)، عباس الجراري: أثر الأندلس على أوروبا في مجال النغم والإيقاع، مقال بمجلة الفكر ج ١٢، ١٩٨١م (ص ٣٠).

(١٢٧) الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٨٠١ - ٨٠٢)، ابن سعيد: المقتطف (ص ٢٥٥) نقلا عن الحجاري.

والكسب، ويذكر رأي ابن بسام الذي نسب اختراع الموشح لمحمد بن محمود القبري من شعراء القرن الثالث والرابع الهجريين، ورأي الحجاري الذي نسب ذلك إلى شاعر آخر من نفس الفترة يدعى المقدم بن معافى القبري وعنه أخذها ابن عبد ربه صاحب العقد، ثم يمضي إحسان عباس فيرجح أن محمد بن محمود مخترع الموشح، ويعلل ذلك بيا فرضته حالته البائسة من حاجة للتكسب، فهو ضرير قوال يسعى بإنشاد موشحاته لكسب رزقه.[128]

ولكن الباحث له ملاحظة على هذا الرأي، فان حالة محمد بن محمود القبري في كونه أعمى وسعيه للحصول على رزقه لا يعني بالتأكيد أنه ابتدع الموشحات وسخرها لكسب رزقه، ولا نستبعد أنه كان يحظى بمنزلة كريمة لـدى أمراء وأعيان ذلك العصر، وبالتالي فإن وضعه الاجتماعي يتنافى مع حالته البائسة وإنشاده الشعر للتكسب به، كما لايعني كونه ضريرا أن منزلته الاجتماعية تتحدد في صورة البائس الفقير الذي يتلمس السبل لنيل رزقه وخاصة إذا علمنا أن هناك أدباء وعلماء كبارًا كانوا أكفاء ـ جمع كفيف ـ ولم يقف بهم ذلك عن نيل المطالب والمعالي، ويميل الباحث أخيرا إلى أن مخترع الموشح هو مقدم بن معافى، لأن الحجـاري أشار إلى ذلك أولا، كما أن ابن بسام ذكر ذلك ثانيا عندما نسب اختراعها إلى ابن عبد ربه في قول آخر وهذا حسب قول الحجاري اخلها عن مقدم بن معافى إذْ كان الاثنان صديقين في بلاط الأمير عبدالله بن محمد.

ومهما يكن فإن ذينك الشاعرين ـ كما يبدو ـ لم يحققا في هذا الميدان من نظم الموشحات ما يكفل لأعمالهما الخلود والانتشار، فقد ضاع ما نُسب إليهما ليظهر بعدهما بفترة من الزمن الشاعر المبدع عبادة بن ماء السماء فيأخذ بيد هذا الفن الشعـري ويدخل عليه ضروبا من التحسينات والإضافات كفلت له التطور والرقي وشاركه في ذلك الشاعر المجيد عبادة القزاز.

ويشير خوليان ريبيرا إلى أن المسلمين في الأندلس كانوا يتكلمون اللغة العـربية الفصحى ويستعملونها كلغـة رسمية في الـدولة وشؤون الحكم

(١٢٨) تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص ٢٢٨.

ومؤسساته ومجالس العلم وندوات الدرس. ولكنهم في شؤونهم اليومية وأحاديثهم بعضهم مع بعض كانوا يستعملون لهجة من اللاتينية الدارجة، ويؤكد رأيه هذا بأن عدد العرب الخلص الذين دخلوا الجزيرة كان قليلا جدا حتى لأنه لا يعتبر الأندلسيين المسلمين ساميين أو مشارقة ابتداء من جيلهم الثالث أو الرابع بعد الفتح، وهو ما أدى إلى هذا الازدواج في اللغة وبالتالي إلى نشوء طراز شعري تختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية. وكان في بداية أمره لا يلقى غير الاستخفاف والازدراء من الأدباء والعلماء لعدم فصاحته فظل سائداً داخل البيوت والأسواق ثم ما لبث أن تطور واعتُني به حتى أصبح على صورتين: إحداهما الموشحة والثانية الزجل(129).

ونحن لا نوافق خوليان ريبيرا على القطع بأن الأندلسيين جميعهم كانوا يتخاطبون باللهجة اللاتينية في شؤونهم وأحاديثهم اليومية مع اقتناعنا بتأثرهم باللهجة اللاتينية، ولكن أثرها لم يكن بالصورة التي صورها ريبيرا، كما أن قوله: أن الأندلسيين المسلمين لا يعتبرون ساميين أو مشارقة منذ جيلهم الثالث أو الرابع فيه مغالاة واضحة.

أما الزجل فإنه غير الموشح، فعندما انتشرت الموشحات وشاع نظمها بين أهل الأندلس وأقبل عليها الناس لحلاوتها ورقة معانيها وما تقوم عليه من التفريع والأغصان استحدث الناس فنّاً آخر سموه الزجل نظموه على منوال الموشح بلهجاتهم الشعبية وألفاظهم العامية وأخرجوا فيه غرائب من نظمهم على حسب لغتهم المستعجمة(130).

وأدلى عباس الجراوي برأيه في نشأة الزجل، فأشار إلى ما يناقض قول ابن خلدون من أن الفرق واضح بين أن ينشأ فن ما وبين أن يقبل عليه الجمهور وهو ما حدث للزجل، وأنه قد ظهر مع الموشحات وربما قبلها ولكنه آنذاك لم يتهيأ له من الظروف ما يبرزه على الساحة الأدبية حتى مهدت له

---

(129) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص١٤٢ - ١٤٣)، وانظر عباس الجراوي: أثر الأندلس على اوروبا في مجال النغم والإيقاع، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، (ص٣٧).

(130) ابن خلدون : المقدمة (ص٤٤١) (طبعة المطبعة البهية) وهو مما ليس في طبعة المكتبة التجارية. وانظر حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج ٤، (ص٤٩).

الموشحات الطريق للظهور(١٣١).

والزجل في بدايته أغنية شعبية، ولا يعرف مخترعه، لأن الأغنية الشعبية تظل في العادة جهد جنود مجهولين، ومضى وقت طويل حتى انتقل هذا اللون من الشعبية الخالصة إلى الفرد الزجال الذي منحه قوة شخصيته ومهارته الفنية، وقد تأخر ظهور الزجل بعد الموشحات حتى ظهرت طبقة الزجالين التي خلفها ابن قزمان، ومن أولئك يخلف بن راشد؛ وكان لابن قزمان مآخذ كثيرة عليهم منها حرصهم على الإعراب في الزجل مع أن المطلوب فيه عدم الجزالة(١٣٢).

وتركيب الزجل كتركيب الموشح، ففيه المطلع والدور والأقفال والخرجة والأغصان والأسماط، وبينهما اختلاف يسير(١٣٣).

والزجل والموشحة من طراز شعري واحد، ولكن الزجل يطلق على السوقي والعامي فقد كان يتغنى به في الطرقات، أما الموشحات فلا تكون إلا بالعربي الفصيح(١٣٤).

ويذكر أحمد أمين ملاحظته حول التوشيح والزجل فيقول: إنهما يسمعان أحسن مما يقرآن لأنهما في كثير من الأحيان يعوض فيهما نقص الوزن بمد حرف أو تقصيره أو غنته فهذه كلها تعوض في زيادة حرف أو نقصان حرف، كما أن الموشحات والأزجال تخضع لخصائص كل بلدة من حيث اللغة الدارجة أو اللهجة. وأخيرا فإن نظرة الأدباء الارستقراطيين باحتقار إلى الموشحات والأزجال لأنها شعبية نظرة خاطئة، فإن فيهما من البلاغة والاستعارات والمجازات مالا يقل عما في اللغة الفصحى، وليست كلها مجونا وهزلا، بل إن في بعضها ما يدعو للإصلاح والنزاهة(١٣٥).

---

(١٣١) أثر الأندلس على اوروبا، مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، ١٩٨١م (ص ٣٨).

(١٣٢) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (ص ٢٥٧) وما بعدها، وانظر سامي العاني: دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٢١٥) وما بعدها.

(١٣٣) سامي العاني : المرجع السابق (ص ٢٢٠)، وانظر فيها الاختلافات بين الموشح والزجل.

(١٣٤) آنخل بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ١٤٣)، عباس الجراوي: أثر الأندلس على اوروبا، (ص ٣٧)، وانظر أيضا عبدالرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي (ص ١٢ - ١٣).

(١٣٥) ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ١٩٦) وما بعدها.

ويأتي في مقدمة وشاحي عصر ملوك الطوائف الشاعر محمد بن عبادة القزاز، وكان معدودا في شعراء بلاط المعتصم بن صمادح، وذاعت شهرته في نظم الموشحات والتفنن في تطويرها وتحسينها فكان له قصب السبق في رقي هذا اللون الشعري، وقدمه المؤرخون على سائر وشاحي عصر ملوك الطوائف، ومن أشهر موشحاته التي ذاعت بين الناس قوله:

بـــدر تـــم شمـــس ضحـــا غصـــن نقـــا مســـك شـــم
مـــا أتـــم مـــا أوضحـــا مـــا أورقـــا مـــا أنـــم
لا جـــرم مـــن لمحـــا قـــد عشقـــا قـــد حـــرم[١٣٦]

ولمع في عمل الموشحات الشاعر الأعمى أبوالعباس التطيلي (ت ٥٢٥هـ) وكان من أبرع أهل زمانه في نظم الموشحات البديعة، وحدث أن اجتمع مع طائفة من الوشاحين منهم أبو بكر بن بقي وأبو بكر بن الأبيض وقد عمل كل منهم موشحة فطلبوا من أبي العباس أن ينشد موشحته أولا ثم ينشدون موشحاتهم بعده فأنشد موشحته الجميلة:

ضاحـــك عـــن جـــان سافـــر عـــن بـــدر
ضـــاق عنـــه الزمـــان وحـــواه صـــدري

فلما سمعها بقية الوشاحين رأوا أنها أجمل مما لديهم فآثروا الصمت والاعتراف بتفوق أبي العباس[١٣٧].

وكان تلميذه وصديقه أبوالقاسم الحضرمي - الذي كان يأخذ بيده في مقاصده وحاجاته حتى لقب «بـ: عصا الأعمى» - شاعرا بديعا ووشاحا رائعا

---

(١٣٦) ابن سعيد : المقتطف (ص ٢٥٥)، ابن خلدون : المقدمة (ص٥٨٤) وانظر محمد زكريا عناني : ديوان الموشحات الأندلسية (ص ١٩)، شوقي ضيف : الفن ومذاهبه (ص ٤٥٢)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (ص ٢٣٢ - ٢٣٣).

(١٣٧) ابن سعيد : المقتطف (ص ٢٥٦)، ابن خلدون: المقدمة (ص ٥٨٤) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٥٧).

Titus Burckhardt: Moorish Culture in Spain P. 88.

وانظر مزيدا من موشحاته لدى محمد زكريا عناني: ديوان الموشحات الأندلسية (ص ٢٠ - ٢١ - ٢٢).
وابن الخطيب: جيش التوشيح، (ص ١٦).

وكان يمزج كثيرا من موشحاته بمجون واستهتار رغم ما امتازت به من عذوبة ورقة وجمال[١٣٨].

واشتهر من الوشاحين شاعر المأمون ملك طليطلة محمد بن أرفع رأس وذاعت شهرته في صنع الموشحات والبراعة في نظمها فتناقلها الناس عنه وسارت بها الركبان ورددها المنشدون في الحفلات والأفراح[١٣٩].

وكان ابن اللبانة الداني شاعر المعتمد بن عباد الآنف الذكر ينظم الموشحات البديعة، ويجيد ذلك واحتفظ له ابن سعيد ببعض موشحاته وأوردها في كتابه المغرب[١٤٠].

وكان لنزهون بنت القلاعي (ت ٥٤٠هـ) براعة في نظم الموشحات إلى ما امتازت به من ملكة أدبية ومهارة في الشعر حتى عدت من غرر مفاخر غرناطة أدباً وعلما وفكاهة[١٤١].

أما الزجل فان أشهر ناظميه من الشعراء الشاعر الأديب محمد بن عيسى ابن عبدالملك بن قزمان (٤٨٠ - ٥٥٥هـ/ ١٠٨٧ - ١١٦٠م)، وهو لم يعش في عصر ملوك الطوائف الذي زال وعمره لم يتجاوز ثمان سنين ولكن هذا لا يعني أنه لم يظهر قبله عدد من الزجالين البارعين، فقد كانت الأزجال قد عرفت وقيلت قبله، ولكنها لم تنتشر بصورة كبيرة (ولم تظهر حلاها ولا انسكبت معانيها، ولا اشتهرت رشاقتها إلا في زمانه)[١٤٢]

وما يهمنا هنا هو ذكر زجالي عصر ملوك الطوائف الذين ظهروا قبل ابن قزمان أمثال الأخطل بن نمارة ويخلف بن راشد[١٤٣]، وهذا الأخير وجد له

---

(١٣٨) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٥٧).

(١٣٩) ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ١٨)، المقتطف (ص ٢٥٦).

(١٤٠) المغرب، ج ٢ (ص ٤١٤) وما بعدها - ابن الخطيب: جيش التوشيح، (ص ٥٩).

(١٤١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣ (ص ٣٤٤ - ٣٤٥)، وانظر زكريا عناني: ديوان الموشحات الأندلسية (ص ٢٧ - ٢٨).

(١٤٢) ابن سعيد: المقتطف (ص ٢٦٣)، وانظر في ترجمة ابن قزمان أيضا ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ١٠٠)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (ص ٢٥٤)، عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس (ص ٣٩٨).

(١٤٣) لم نعثر على معلومات وافية عنهم في كتب التراجم ولا على سني وفاتهم ولكن مجيئهم قبل ابن قزمان فيه إشارة إلى أنهما ظهرا في عصر ملوك الطوائف اللذي نضجت فيه تلك الإبداعات الشعرية كالموشحات والزجل وكانا قبل هذا العصر لا يذكران.

المستشرق اشتيرن زجلا وقام بنشره في مجلة الأندلس، ويورد الأستاذ إحسان عباس قصة تدل على أن الزجل عرف بعيد منتصف القرن الخامس الهجري وربما من منشديه إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بابن الزرقال(١٤٤).

ويخلف ابن راشد كان إمام الزجل قبل ابن قزمان، وكان ينظم الزجل القوي، ولما برز ابن قزمان على الساحة الشعرية نظم السهل الرقيق العذب من الأزجال فمال إليه الناس وذاعت بينهم أزجاله(١٤٥).

أما الأخطل بن نمارة، فقد أثنى عليه ابن قزمان وامتدحه ووصفه بأنه لم ير أسلس وأخصب ريعا وأحق بالرياسة والامامة من الأديب الأخطل بن نمارة فإن منهجه وطريقته في الزجل أعذب الطرق وأجملها(١٤٦).

وعلى الرغم من هذا الثناء الجم على الأخطل، فإن ابن قزمان لم ينس أن يشير إلى سقطاته فقد انتقده وأخذ عليه التزامه الإعراب في الزجل وأشار إلى أن ذلك يعد لحنا في هذه الحالة. وضرب لذلك مثلا بقول الأخطل «كسر الله رجل كل ثقيل» فقد أساء فأعرب في هذا المقطع من الزجل(١٤٧).

وجدير بالذكر أن شوقي ضيف قد جانب الصواب عندما استخف بفن الموشحات والأزجال كفن ابتكره الأندلسيون، وأنها لم تحدث ثورة على الأوضاع القديمة في الصياغة الفنية للشعر الفصيح، وأن ذلك يرجع إلى أن الأندلسيين لم يعرفوا التفكير العميق الدقيق فاستمروا على طريقتهم في المحاكاة والتقليد، وإنما هم ينقلون ويلفقون لاعن انتخاب بل كما يقع لهم، ثم عاد إلى النغمة التي عض عليها بالنواجذ وهي استمدادهم دلالاتها وصياغاتها الفنية من معين المشرق ومذاهبه الفنية(١٤٨).

والحق أن شوقي ضيف قد تعسف في هذا الرأي وغمط الأندلسيين حقهم في الاعتزاز بما قدموه من جديد وما ابتدعوه من فن متميز جميل يعود إليهم

---

(١٤٤) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين (ص ٢٣١ - ٢٣٢)، وانظر عبدالعزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس (ص ٣٩٦).
(١٤٥) سامي العاني : دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٢٢٩).
(١٤٦) سامي العاني : دراسات في الأدب الأندلسي (ص ٢٣٠).
(١٤٧) ابن سعيد : المغرب، ج ١ (ص ١٦٧).
(١٤٨) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (ص ٤٥٥).

حق ابتكاره واختراعه على وجه القطع، فليس الأندلسيون كما وصفهم ملفقين وناقلين ولو كانوا كذلك لرأينا من نقلوا عنهم قد سبقوهم إلى الشهرة والذيوع في نظم الموشحات والأزجال الجميلة البديعة. وفي هذا الأمر يقول عباس الجراوي (ولكن ألا يحق لنا أن نتساءل مفترضين جدلا أن الأساس الموسيقي الذي أقام عليه الأندلسيون موشحاتهم وفد عليهم من المشرق ومن العراق خاصة، لماذا لم يسبق العراقيون إلى نظم الموشحات؟ بل لماذا لم يسبق المشارقة عموما إليه؟ ولماذا جاءت موشحاتهم بعد ذلك متكلفة؟! لا شك أن في الإجابة على هذه التساؤلات يكمن فضل سبق الأندلسيين)[١٤٩].

ولماذا نذهب بعيدا وهذا ابن سناء الملك أبرع من صنع الموشحات من المشارقة ومؤلف كتاب «الطراز» الذي ضمّنه قصائده من الموشحات يقول في مقدمة كتابه: (وكيفما كان فموشحاتي لتلك الموشحات (الأندلسية) كظلها وخيالها، وأشهد أنها ناقصة عن قدر كمالها، واعذر أخاك فانه لم يولد بالأندلس، ولا نشأ بالمغرب، ولا سكن باشبيلية، ولا رسا على مرسية).

وليت شوقي ضيف اطلع على قول ابن سناء الملك إذن لعرف أن الحق أبلج.

وأخيراً فهذا حال الشعر ودرجات الشعراء من أهل هذا العصر فيه ومبلغ ما وصلوا إليه من إبداع وتألق، وما من شك أنه كان لملوك عصر الطوائف دور كبير في نهضة الشعر وتشجيع الشعراء على العطاء الأدبي، حتى حفل العصر بلا مبالغة بأعظم شعراء الأندلس على مر عصورها، وليس في هذا تجنٍّ على الحقيقة ففيه عاش ابن زيدون الذي سار ذكره شرقًا وغربا وأشعاره لا تزال على ألسن الناس، وكذلك ابن عمار، وابن حمديس، وابن اللبانة، وابن الحداد الوادياشي، وابن عبدون، وابن خفاجة، وهذا الأخير يعد من أعظم شعراء العرب وأمهرهم في الوصف. وأكثر هؤلاء لا تزال دواوينهم تحتل مكانتها الرفيعة في المكتبة الشعرية العربية. وفي الشعر قدم الأندلسيون

(١٤٩) أثر الأندلس على أوروبا: مقال بمجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر، ١٩٨١م (ص ٣٥).

الجديد وأحدثوا ثورة على الأوضاع القديمة للشعر فابتكروا الموشحات والأزجال وخلدوا فيها قصائد رائعة جميلة تشهد لهم بالذوق الأدبي الرفيع، وسبقهم إلى تحرير القصيدة الشعرية من قيودها في صورة محببة للأسماع والقلوب، فاحتفل بها الناس وأخذوا في نظمها فشاعت وذاعت حتى سعى المشارقة إلى تقليدهم والعمل على منوالهم مع إقرارهم بقصورهم عن إدراك ما بلغه الأندلسيون في ذلك وهو ما شهد به ابن سناء الملك الآنف الذكر.

(٢) النثـر

النثـر الفنـي

يقصد بالنثـر الفني أسلوب الـرسائل الديوانية، والإخوانيات والوصايا والمناظرات وغير ذلك من مواضيع النثر الفني[١٥٠].

ولقد شهد هذا النوع من النثر ازدهارا ونشاطا كبيرين في عصر ملوك الـطوائف الـذين كانـوا يحرصـون أشـد الحـرص على أن تضم بلاطاتهم وحكوماتهم أبرع الكتاب وأمهرهم لأن هؤلاء يمثلون لسان الدولة ويصوغون قراراتها وأوامرها وما تحتاج إليه من خطابات ورسائل.

ولسمو منصب الكتابة لدى أهل الأندلس كان الكاتب يحظى بالتشريف والتوقير في المخاطبات[١٥١].

ويبدو أن ملوك الطوائف ساروا على نظام الكتابة الذي كان سائدا في عصر الخلافة[١٥٢]، والذي يقوم على تعيين عدد من الكُتّاب، كل كاتب منهم يختص بميدان من الميادين السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية، فكان لأهل الخدمة كاتب، وللثغور كاتب، وللعهود والتوقيعات كاتب، ولمطالب الناس وحوائجهم كاتب، وكان كل منهم في مرتبة وزير في الدولة[١٥٣].

ويضـاف إلـى هـؤلاء الـكتـاب كاتـب الـزمـام وهـو المسـؤول عـن الخـراج والـذي يجـب أن يكـون مـن المسلميـن لاحتيـاج أعيـان النـاس ووجوههـم إليـه[١٥٤].

---

(١٥٠) مصطفى الشكعة : الأدب الأندلسي (ص ٢١٠)، وانظر في تفصيل ذلك عبدالعزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس (٤٣١).
(١٥١) المقري : نفح الطيب، ج ١ (ص ٢١١).
(١٥٢) عن نظام الكتابة في عصر الإمارة انظر ابن حيان: المقتبس، تحقيق محمود مكي (ص ٣٤ - ٣٥).
(١٥٣) ابن عذاري : البيان المغرب، ج ٢ (ص ٢٢٠).
(١٥٤) المقري : مصدر سبق ذكره، ج ١ (ص ٢١٧).

ويبدو أن كتاب الأندلس في هذا العصر قد تأثروا بأسلوب الجاحظ عمرو ابن بحر عبر كتبه التي درسوها ووقفوا على أسلوبه من خلالها، وكان الذي نقلها إلى الأندلس فرج بن سلام القرطبي الذي التقى بالجاحظ فأفاد من علمه ونقل مصنفاته فكان أول من أدخلها الأندلس[١٥٥].

وممن نهج طريقة الجاحظ والتزم أسلوبه الشاعر الأديب ابن زيدون (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) في رسالته الهزلية التي يسخر فيها من ابن عبدوس منافسه في حب ولادة ففيها ما يشابه رسالة التربيع والتدوير للجاحظ التي كتبها حول أحد كتاب عصره وهو أحمد بن عبدالوهاب[١٥٦].

ويلاحظ أن ابن حيان المؤرخ (ت ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) في كتابه المقتبس، والفتح بن خاقان (ت ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م) في كتابيه قلائد العقيان ومطمح الأنفس، وابن بسام (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) في كتابه الذخيرة، يلاحظ مدى اهتمامهم، وخاصة الأخيران، بالتزام السجع الذي قل أن يشذ في تصانيفهم السالفة الذكر، واساليبهم في هذا اللون قوية الشبه بأسلوب ابن العميد في كتاباته[١٥٧].

ومع أن الأندلسيين التزموا النهج المشرقي في الحفاظ على السجع إلاّ أنهم كانوا أمهر وأحذق من المشارقة في حسن استخدام هذا الأسلوب البديعي والتصرف فيه، وتمكنوا بذوقهم وحسهم الأدبي أن يطوعوا أسلوبهم ذلك لأغراضهم وأن يعبروا به عن أدق المعاني دون أن تدفعهم السجعة إلى تشويه المعنى أو اضطراب في التعبير[١٥٨]

وأن الدارس المتعمق في الأدب الأندلسي المتفحص لنثره الفني سيلمس أن الأندلسيين قدموا ألوانا بديعة من إنتاجهم النثري الذي بدوره يدل دلالة

---

(١٥٥) ابن حيان : المقتبس، تحقيق محمود مكي (ص ١٦٤).

(١٥٦) عبدالعزيز عتيق : مرجع سبق ذكره (ص ٤٣٥)، الرسالة الهزلية شرحها جمال الدين محمد بن نباتة (ت ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) وسمى شرحه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، وطبعت الطبعة الأولى في مصر سنة ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م بمطبعة البابي الحلبي.

(١٥٧) أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٠٦ - ٢٠٧)، عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس (ص ٤٣٥).

(١٥٨) عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس (ص ٤٣٢).

واضحة على مدى ما تمتعوا به من ذوق أدبي رفيع وحس مرهف، وتضلع عميق من اللغة ووقوف على أسرارها الحيوية الفنية.

ولعل من أجمل وأنضر ما سطر في هذا الميدان تلك العبارات البديعة الجامعة على طريقة الحكم والأمثال، مثل وصف ابن برد للقلم والمداد والكتاب كقوله «ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة ويلفظ نورا ـ على غيث القلم يتفتح زهر الكلم...». وكقول أبي الفضل بن شرف «التعليم فلاحة الأذهان وليست كل أرض منبتة، الفاضل في الزمن السوء كالمصباح في البراح، قد كان يضيء لو تركته الرياح»[159].

وفي أواخر القرن الرابع الهجري وصلت مقامات بديع الزمان الهمذاني ورسائله إلى الأندلس حيث لقيت عناية الأندلسيين واهتمامهم فدرسوها وأفادوا منها، وظهر أثر ذلك في أساليبهم النثرية، وبان أسلوب الهمذاني في نثرهم الوصفي، وكذلك كان الأمر عند دخول مقامات الحريريّ الأندلس فقد درسوها وشرحوها، ولكنهم في نفس الوقت عارضوها[160].

وحظيت المقامة الأدبية في الأندلس بمنزلة عظيمة، وذاع اهتمام الأندلسيين بها فنشط الكثير منهم للاشتغال بهذا اللون من النثر الفني البديع، وممن صنف في ذلك ابن شرف القيرواني الأندلسي[161].

وجدير بالذكر انه كان لتتلمذ بعض الأدباء الأندلسيين على يد الحريري أثر في تعميق الروابط بين الأندلسيين ومقاماته، فممن أخذ عنه المقامات أحمد بن خلف الشاطبي (ت ٥٠٥هـ/ ١١١١م) ومنهم الحسن بن علي البطليوسي سمعها منه ببغداد، ولأبي القاسم بن جهور يد بيضاء في نشر مقامات الحريري في الأندلس، وعنه أخذها كثير من التلاميذ[162].

---

(١٥٩) انظر ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٩٥)، ق ٣، ج ٦، (ص٨٨١)، ابن خاقان: المطمح (ص٢٠٧).

(١٦٠) عبدالعزيز عتيق : مرجع سابق (ص ٤٣٦)، إحسان عباس: مرجع سبق ذكره (ص ٣٠٣) وما بعدها، أحمد أمين: ظهر الإسلام ج٣ (ص٢٠٦ - ٢٠٧).

(١٦١) عن ترجمته انظر ابن بسام : الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص١٦٩) وما بعدها وقد سبقت الإشارة إليه في حديثنا عن الشعر.

(١٦٢) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف (ص ٣٠٣ - ٣٠٤ - ٣٠٥).

وممن عارض الحريري وبديع الزمان في مقاماتها غير ابن شرف الآنف الـذكـر كل من أبي حفص عمـر بن الشهيد[١٦٣]، وأبي محمد بن مالك القرطبي[١٦٤]، وعبدالرحمن بن فتوح[١٦٥] وغيرهم، وكل هؤلاء من أدباء عصر الطوائف.

وليس مقـامنـا في هذا الحـديث مقـام الأديب المستقصي لفنـون النثـر وخصائصه وألوانه، فإن الباحث لو عمد إلى ذلك مع افتراض تمكنه في الأدب وتضلعه من فنونه لخرج عن منهجه كمؤرخ، ولكن نحيل القارئ إلى عدد من المراجع التي توسعت في الحديث عن ذلك[١٦٦].

وكان ملوك الطوائف كعادتهم في التنافس في اجتذاب نوابغ العلماء والأدباء يسـارعـون إلى استـدعاء مهرة الكتاب وبارعيهم من ذوي الأدب الرفيع والأسلوب البديع والثقافة اللغوية الواسعة، وقد لمع في هذا العصر عدد من الكتاب وازدانت بهم بلاطات أولئك الملوك الذين حرصوا على كل مامن شأنه أن يُعلي شأنهم وسلطانهم في ذلك العصر وأن يبدو كل منهم كحام وراع للعلم والعلماء.

ففي بلاط بني عباد باشبيلية عاش الأديب الكاتب عبدالله بن عبدالبر النمـري (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م) وكـان قد (تهادته الآفاق، وامتدت إليه الأعناق، ففاز به قدح عباد بعد طول خصام، والتفاف زحام)[١٦٧].

ولكن الحسد داء لا يبرح مثل تلك المواضع، فقد سعى أبوالوليد بن زيدون وبذل جهده في سبيل التخلص من النمري الذي رأى فيه علما من أعـلام أهـل الأدب فخشي نفوذه ومستقبله في بلاط المعتضد، حتى كره

---

(١٦٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٦٧٤).
(١٦٤) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧٤١).
(١٦٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٨٦).
(١٦٦) انظر أولاً من المصادر : ابن بسام: الذخيرة، ابن خاقان: المطمح وقلائد العقيان، ابن حيان فيا بقي من كتـابه المقتبس كنماذج للنثر الفني من خلال النظر إلى أساليب كتاباتهم. وانظر من المراجع عبدالعزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس (ص ٤٣٧)، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين (ص ٢٨٠) محمد رضوان الداية تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (ص ٤١٣) سامي العاني: دراسات في الأب الأندلسي (ص ٢٤١).
(١٦٧) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣ ج ١ (ص ١٢٥).

عبدالله ابن عبدالبر المقام وأزمع على الرحيل، فأخذ يجوب الآفاق ونزل عند عدد من ملوك الطوائف يكتب عنهم. وله في ذلك ما يشهد له بطول الباع والتمكن التام في إنشاء الرسائل السلطانية وغيرها(١٦٨).

وفي ذلك البلاط عاش الوزير أبوالوليد محمد بن عبدالعزيز المعلم وقد نشأ نشأة علمية فعكف على دراسة الأدب وقراءة فنونه مع البراعة في الإنشاء وكتابة الرسائل. ولعله في شبابه قد شعر بالمرارة من تعثر حظه في الوصول إلى مطامحه، وهو ما أشار إليه في مقامة كتبها أثناء بداية صعوده في سلم الشهرة، ولكن الحظ ابتسم له فقد بلغ المعتضد أخبار مهاراته الأدبية وقدراته الإنشائية فألحقه ببلاطه كأحد الوزراء الكتاب(١٦٩).

وكان أبوالوليد بن زيدون (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م) الشاعر المشهور كاتبا بارعا وناثرا ماهرا، ونال مكانة رفيعة في بلاط المعتضد وخاصة بعد وفاة الأديب الكاتب ابن برد، وقد حظي ابن زيدون بإعجاب ورضى المعتضد بعد أن أثبت قدرات واسعة ليس في الأدب فقط وإنما في المهام الحكومية التي أسندت إليه، فلم يكن شاعرا أو كاتبا فقط بل كان شخصية لامعة في الحكومة الاشبيلية ونال لقب ذي الوزارتين(١٧٠).

ويشير ابن بسام إلى براعته الأدبية وعلو كعبه في الشعر والنثر بقوله (وقد أخرجت من أشعاره التي هي حجول وغرر، ونوادر أخباره التي هي مآثر وأثر، ورسائله التي أخرست السنة الحفل واستوفت أمد المنطق الجزل ما يسر الآداب ويصورها، ويستخف الألباب ويستطيرها)(١٧١).

ومن أهم ما خلفه لنا ابن زيدون من إنتاجه النثري الفني رسالته الهزلية التي ضمنها سخريته بابن عبدوس، وكان الأخير قد استغل الخصام والهجران بين ابن زيدون وولادة فحاول التقرب إليها فارسل إليها رسالة يشير فيها

---

(١٦٨) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ١٢٦)، وانظر ما يلي هذه الصفحة بعض رسائله الفنية.

(١٦٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢ ج ١ (ص ١١٢) وما بعدها، وانظر صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري (ص ١٦٩ - ١٧٠).

(١٧٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٣٨ - ٣٣٩)، جودة الركابي: في الأدب الأندلسي (ص ١٨٥)، صلاح خالص: المرجع السابق (ص ١٨١ - ١٨٢).

(١٧١) الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٣٣٩).

إلى منزلته العالية وجاهه الواسع مما أغاظ ابن زيدون فبعث إليها برسالة كتبها على لسانها وفيها يتهكم ويسخر من ابن عبدوس ويستخف به بأوصاف شتى وجعلها جوابا له على رسالته وطلب من ولادة أن تبعثها إليه وقد ذاع أمر هذه الرسالة وانتشرت بين الناس(١٧٢).

وقد شرح هذه الرسالة ابن نباتة المصري، كما شرحها أيضا خليل بن أيبك الصفدي، وأسماها: «غاية المتون في شرح رسالة ابن زيدون(١٧٣)».

ولابن زيدون أيضا رسالة أخرى أسماها الرسالة الجدية، وقد خاطب بها ابن جهور من موضع اعتقاله، وفيها يستشفع بابن جهور ويستعطفه في إخراجه من السجن وضمنها ثناء ومدحا لابن جهور، ويشير فيها إلى دور خصومه وأعدائه في الإيقاع به(١٧٤).

ومن الدلائل الواضحة الجلية على تمكنه من البلاغة، وإحاطته بألوان الفصاحة وسعة معارفة في اللغة ماروي أنه كان يتقبل العزاء في وفاة بعض أهله والناس يعزونه على اختلاف طبقاتهم فكان يجيب كلًّا منهم بما لا يجيب به الآخر، وإلى هذا الأمر أشار الصفدي بقوله (إنه أقل ما كان في تلك الجنازة وهو وزير ألف رئيس ممن يتعين عليه أن يتشكر له ويضطر إلى ذلك فيحتاج في هذا المقام إلى ألف عبارة مضمونها الشكر، وهذا كثير إلى الغاية لا سيما من محزون فقد قطعة من كبده.

ولكنه صوب العقول إذا انجلَتْ   سحائب منه أعقبت بسحائب(١٧٥)

ومن كتاب الدولة العبادية الأديب محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة، وكان ممن يشار إليهم بالبنان أدبا وفهما، وهو ما دعا الوزير ابن زيدون إلى تقريبه وتعريف حاله للمعتضد الذي رفع مكانته وأعلى شأنه بين أدباء بلاطه، ولما تولى المعتمد المُلك منحه الوزارة ولقبه بذي الوزارتين، وكان

---

(١٧٢) ابن نباتة : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (ص ٧).

(١٧٣) حقق هذا الشرح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي مطبعة المدني، القاهرة ١٣٨٩هـ.

(١٧٤) ابن نباتة : سرح العيون (ص ٢٩٥) وما بعدها. وقد قام بتحقيقها وشرحها محمد سيد كيلاني، وطبعت بمطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٥٦م.

(١٧٥) الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر (مخطوط) (ص ٦ - ٧).

كثير الاعتماد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الطوائف.[١٧٦] وقد أثنى عليه القفطي وامتدح شعره ونثره وما أوتي من نظم رائع وفضل فائق.[١٧٧]

كما أن الوزير الفقيه محمد بن عبدالله بن الجد، نال مكانة عالية في الدولة العبادية وتقلد لدى المعتمد بن عباد منصب الوزارة، ولم يزل مكرما عالي المنزلة في بلاط المعتمد حتى دفعته الظروف السياسية إلى الخروج عن اشبيلية ليحل بلبلة[١٧٨]، فيتولى بها خطة الشورى مع اهتمامه بالأدب ومراسلة العلماء والأصحاب برسائل أدبية رائعة تدل على رسوخ قدمه في البلاغة[١٧٩].

وفي بلاط بني الأفطس ببطليوس برز الأديب الكاتب عبدالله بن خطاب بن يوسف المادري ويقال المرادي. وكان عالما واسع المعرفة بالأدب ماهرا في اللغة وعلومها فقعد لتعليمها، ثم رغب في الكتابة لدى المظفر بن محمد ابن عبدالله بن الأفطس وظل لديه مدة من الزمن، ثم قصد اشبيلية فكتب للمعتضد ثم لابنه المعتمد وتوفي في حياته[١٨٠].

ومن أشهر كُتّاب بني الأفطس الأديب الشاعر عبدالمجيد بن عبدون وكان كاتبا للمتوكل بن المظفر الذي حباه بكرمه وإنعامه فعاش كريم المنزلة عالي المحل في دولته، وكان ماهرا في نظم الشعر والنثر[١٨١].

ومن أشهر كُتّاب هذه الدولة بني القبطورنة وهم ثلاثة أخوة كتب منهم لدى المتوكل بن الأفطس اثنان هما: محمد وعبدالعزيز ابنا سعيد البطليوسي[١٨٢].

وحفل بلاط بني ذي النون بعدد من الكُتّاب المشهورين يأتي في مقدمتهم

---

(١٧٦) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢ ج ١، (ص ٢٣٩ - ٢٤٠)، وانظر من نثره (ص ٢٤١) وما بعدها، (ص ٢٧٢) وما بعدها، الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ٤٨).

(١٧٧) المحمدون من الشعراء (ص ٣٥٨).

(١٧٨) لبلة مدينة قديمة بينها وبين اشبيلية أربعون ميلا إلى الغرب منها، الحميري: الروض المعطار (ص ١٦٨).

(١٧٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٨٥ - ٢٨٦)، وانظر كذلك قلائد العقيان (ص ١١٣) وما بعدها، وأنظر ألوانا من نثره في الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٩٨٦) وما بعدها.

(١٨٠) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٨٠٢ - ٨٠٣).

(١٨١) المراكشي : المعجب، ص ١٣٠

(١٨٢) ابن سعيد : رايات المبرزين (ص ٥٩)، وانظر ابن الخطيب: الإحاطة ج ١ (ص ٥٢٠ - ٥٢١).

أبوالمطرف عبدالرحمن بن صبغون (ت ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥) الذي استوزره المأمون يحيى بن ذي النون ووصفه ابن حيان فقال: كان أبوالمطرف عفيفا دمثا، طاهر الأثواب، حلو الشمائل، مطلق البشر متحققا بصناعة الكتابة، بزّ أهل وقته في البيان والبلاغة[١٨٣].

وبلغ الأديب راشد بن سليمان بن موسى اللخمي الطليطلي منزلة سامية في بلاط المأمون فاتخذه كاتبا في بلاطه، واشتهر اللخمي بالبلاغة والتفوق في الكتابة والمهارة في فنون النثر[١٨٤].

وكان الأديب أبوعبدالله محمد بن شرف القيرواني أحد أعلام الأدب في هذا العصر وتردد على ملوك الطوائف حقبة من الزمن حتى استقر به المقام في كنف المأمون، فكان أحد شعراء بلاطه وكتاب دولته، وله في الأدب تصانيف منها: «أعلام الكلام» و«أبكار الأفكار»[١٨٥]. وله أيضا مؤلفات أخرى وقد تكون على شكل رسائل أدبية منها «رسالة ساجور الكلب، ونجح الطلب، وقطع الأنفاس»[١٨٦].

ويرد ذكر الأديب عبدالملك بن غصن الحجاري (ت ٤٥٤ هـ/ ١٠٦٢م) بين أدباء بلاط المأمون في طليطلة، ويبدو أنه كان أحد أعلام الأدب المشار إليهم بالبنان في فنون النثر والشعر حتى وصف بأنه (إنْ نظم فبنيان مرصوص، وإن نثر فلآلئ وفصوص)[١٨٧].

ويذكر ابن بسام أن المأمون نكبه، وأودعه السجن فصنف الحجاري رسالته المسماه «رسالة السجن والمسجون والحزن والمحزون» وضمنها قصائد طويلة يمتدح فيها المأمون ويستعطفه، كما صنف رسالة أخرى سماها «العشر كلمات» أودعها ألف بيت من الشعر يقول في مطلعها:

---

(١٨٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٤٠٩ ـ ٤١٠)، وانظر نماذج من نثره (ص ٤١٠) وما بعدها.
(١٨٤) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٢٤).
(١٨٥) ابن بسام : الذخيرة، ق ٤، ج ١ (ص ١٦٩ ـ ١٧٠)، وانظر نماذج من نثره وكتاباته (ص ١٧١) وما بعدها.
(١٨٦) نفس المصدر والقسم والجزء (ص ١٧١)، ح رقم ٣.
(١٨٧) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣ ج ١ (ص ٣٣٢).

وألــف بيــت مــن القريــض إذا   مــات جميع الأنــام لــم تمــت[188]

ويبدو أن المأمون أطلق سراحه بعد ذلك فاتجه إلى بلنسيه ولم تطل إقامته بها فلحق بقرطبة حيث استقر بها حينا من الدهر لينصرف إلى غرناطة حيث عاجلته المنية بها[189].

وهناك أدباء كثيرون كتبوا لبني ذي النون لا يتسع المجال لذكرهم جميعا، نخص بالذكر منهم غير من ذكرنا الأديب الكاتب جعفر بن يوسف بن الباجي (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م)[190] والاديب عبدالله بن سفيان بن سعيد التجيبي (ت ٥١٣هـ/ ١١١٩م)[191]

ولا ريب أن المأمون كان كريما مع أهل الأدب محتفيا بهم حتى اجتمع لديه من هؤلاء عدد كبير، ولو أن الباحث استقصاهم جميعا لأخل بالبحث وأطال الحديث عن هذا الجانب على حساب الجوانب الأدبية الأخرى، ولكن ما أوردناه فيه كفاية لمعرفة مدى ما قام به هذا الملك من دور كبير في نشاط الحركة الأدبية، وحسبنا أن نعلم أن كثرة هؤلاء الكُتّاب في بلاطه إنما تدل على سعة مهام دولته وعظم شأنها.

ولم يعدم بلاط بني هود من مهرة الكتاب، فقد ظهر فيه عدد منهم يأتي في مقدمتهم الأديب الكاتب عمر بن القلاس، الذي عد من عِلية كُتّاب هذه الدولة، فقد كان له من النثر البديع ما ينم عن أدب غزير وتمكن عميق من اللغة[192].

كما اشتهر من كُتّاب بني هود العلامة الأديب أبوعمر يوسف بن جعفر الباجي وقد نال بعلمه وأدبه ورسوخ قدمه في البلاغة والبيان مكانا جليلا في بلاط المقتدر بسرقسطة[193].

---

(١٨٨) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٣٣٣)، وانظر المراكشي: الذيل والتكملة السفر الخامس، ق ١ (ص ٣١).
(١٨٩) المراكشي : الذيل والتكملة. السفر الخامس (ص ٣١).
(١٩٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ١٨٦ - ١٨٧).
(١٩١) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٨١٣ - ٨١٤).
(١٩٢) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١، (ص ٤١٨ - ٤١٩)، وانظر ألوانا من نثره (ص ٤١٩) وما بعدها.
(١٩٣) ابن سعيد : المغرب، ج ١ (ص ٤٠٥)، وانظر ابن بسام: الذخيرة ق ٢، ج ١ (ص ١٨٦) وما بعدها، الأصفهاني : خريدة القصر قسم شعراء المغرب، ج ٢ (ص ٣٣٧) وما بعدها.

وحل الأديب اللغوي الكبير أبومحمد عبدالله بن السيد (ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) على بلاط المستعين أحمد بن هود بعد طول ترحال (فلم يخف على المستعين اختلاله، ولم تخف لديه خلاله فذكره معلما به ومعرفا وأحضره منوها له ومشرفا)[١٩٤].

ويبدو أن السيد لقي في بلاط المستعين كل تكريم وتوقير فعاش هنالك ما قدر له كعلم من أعلام سرقسطة.

وفي بلاط مجاهد العامري نبغ الأديب أحمد بن رشيق (ت بعد ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) وكان قد بسق في صناعة النثر وكتابة الرسائل وذاع صيته بالبلاغة والبيان البديع فنال منزلة عظيمة في دولة مجاهد حتى ولاه عددا من المناصب الهامة فحُمدت سيرته، وكان مغرما بالأدب حتى صنف فيه رسائل نثرية تدل على مدى ما كان يتمتع به من علم واسع بالأدب واللغة[١٩٥].

ولعل من أشهر كُتّاب هذا العصر الأديب الكبير اللامع أحمد بن محمد ابن أحمد بن برد الذي كان حيا سنة (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م)، وكان منسوبا إلى بيت أدب وعلم، وله رسائل تدل على تضلعه من الأدب وتمكنه من الإنشاء وكل ألوان النثر الفني، ويأتي في مقدمتها «رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما»[١٩٦]. وهو أول من سبق إلى القول في ذلك في الاندلس[١٩٧]. وقد ذكره ابن سعيد وأثنى عليه، وأشار إلى أنه رحل من قرطبة إلى المرية وأن المعتصم استوزره ثم رحل إلى مجاهد صاحب دانية[١٩٨].

وكتب ابن برد الأنف الذكر للمعتصم بن صمادح بالمرية، وكان وزيرا بدولته قبل أن يرحل إلى دانية كما أشرنا إلى ذلك، وكان ابن برد قد نال منزلة كريمة في بلاط المعتصم وصنف له كتابا أسماه «سر الأدب وسبك الذهب» ضمنه إنتاجه النثري من الرسائل السلطانية والإخوانية، وأضاف

---

(١٩٤) المقري : أزهار الرياض، ج ٣ (ص ١٢١).
(١٩٥) الحميدي : الجذوة (ص ١٢٢ - ١٢٣)، الضبي: بغية الملتمس (ص ١٧٨).
(١٩٦) انظر هذه الرسالة لدى ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص٥٢٣) وما بعدها.
(١٩٧) الحميدي : الجذوة (ص ١١٥ - ١١٦).
(١٩٨) المغرب، ج ١ (ص ٩١).

إلى ذلك بعض الأشعار لغيره[١٩٩].

وفي بلاط المعتصم عاش الأديب أبوالاصبغ بن الأرقم (أحد كُتّاب الجزيرة المهرة والنقدة الشعرة، ممن نهض في الصناعة بالباع الأسدّ، واخذ فيها بالساعد الأشد)[٢٠٠].

وكان المعتصم يعتمد عليه في كثير من مهامه ويركن إليه في سفاراته بين ملوك عصره، وحدث أن بعثه إلى المعتمد ملك اشبيلية فلفت نظره حسن أدبه وسعة علمه وبلاغته فحسّن إليه الوفود عليه والنزول في بلاطه، ولكن ابن أرقم اعتذر عن ذلك بالوفاء لصاحبه المعتصم[٢٠١].

وفي بلاط الفتيين مظفر ومبارك في بلنسية برز الكاتب الوزير أبوعامر بن التاكرني، وكان قبل ذلك في الدولة العامرية، فلما سقطت نزح إلى بلنسية وظل في خدمة مظفر ومبارك حتى زال ملكهما، ثم دخل في خدمة المنصور عبدالعزيز بن عبدالرحمن العامري، وأبدى في صناعة الكتابة براعة فائقة، وشهد له بذلك كثير من الأدباء، وكانت بينه وبين أحمد بن عباس الأنصاري كاتب زهير الفتى أمير المرية مكاتبات تدل على عمق فهم بالأدب وتمكن من فنونه[٢٠٢].

واشتهر الشاعر محمد بن سليمان بن الحناط الكفيف (ت ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م) بالمهارة في النثر والكتابة الفنية، وكانت بينه وبين الأديب الكبير أحمد بن عبدالملك بن شهيد مناقضات ومعارضات أدبية أكدت رسوخ ابن الحناط وتألقه في ميدان النثر الفني وعلو كعبه فيه. وقد انتهى به الحال إلى بلاط الأمير محمد بن القاسم الحمودي بالجزيرة الخضراء فكان أحد كتاب بلاطه بل وأشهرهم صيتا وأرفعهم مقاما[٢٠٣].

وصديقه المذكور ابن شهيد عاش شطرا من حياته في عصر الخلافة وتوفي

---

(١٩٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٩١).
(٢٠٠) ابن بسام : نفس المصدر، ق ٣، ج ١ (ص ٣٦٠)، وانظر ألوانا من نثره (ص ٣٦١) وما بعدها.
(٢٠١) المقري : النفح، ج ٣ (ص ٣٤٩٨ - ٤٩٩).
(٢٠٢) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١ (ص ٢٢٦ - ٢٢٧)، وانظر نماذج من نثره (ص ٢٢٧) وما بعدها.
(٢٠٣) الحميدي : جذوة المقتبس (ص ٥٧ - ٥٨)، ابن بسام : الذخيرة ق ١، ج ١ (ص ٤٣٧) وما بعدها، وانظر نماذج من نثره (ص ٤٣٨) وما بعدها.

في أوائل عصر الطوائف (ت ٤٢٥هـ/ ١٠٣٣م) ولذا يجدر بنا أن نشير إليه كأحد الأدباء اللامعين الذين اشتهروا بأدبهم الواسع وخاصة ما يتصل بالنثر الفني والبيان البديع. قال عنه ابن حيان (كان يبلغ المعنى ولا يطيل سفر سفر الكلام)[٢٠٤]. وقد أشاد به ابن حزم وأثنى عليه وعدّه من بلغاء الأندلس فقال (ولنا من البلغاء أحمد بن عبدالملك بن شهيد وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل)[٢٠٥].

ومن الطريف أن ابن شهيد على رسوخ قدمه في الأدب ومهارته في الكتابة لم يقتنِ خزانة كتب ولم يُعرف أنه خلّف بعد موته كتابا كان يستعين به في حياته الأدبية بل كان كل ماكتب من قريحته وما تسعفه به ملكته الأدبية[٢٠٦].

وفي مملكة غرناطة ذاع صيت الوزير اليهودي صمويل بن هاليفي والمعروف في المصادر العربية بإسماعيل، وكان في صغره قد درس الأدب واللغة العربية واللاتينية والعبرية ومهر في صناعة النثر، وحاز إعجاب ابن العريف وزير حبوس بن ماكسن ملك غرناطة، ومالبث أن أوصله لبلاط الملك فغدا أحد أعلامه الأدباء ثم أخذ يرتقي شيئا فشيئا حتى نال الوزارة وأصبح له نفوذ كبير في بلاط الملك، ونال من الجاه والشهرة ما لم ينله غيره من اليهود[٢٠٧].

ولم يكن النبوغ في الكتابة أو المهارة في ألوان النثر الفني مقتصرا على من ذكرنا من الكُتّاب الذين ارتبطت حياتهم ببلاطات ملوك الطوائف، بل كان هناك كُتّاب مجيدون لم تمكنهم الظروف المختلفة من الارتقاء إلى منصب الكتابة في أي من دول ملوك الطوائف، فمن هؤلاء الأديب العلامة محمد ابن مسعود بن طيب بن فرج بن خلصة الغساني (٤٦٥ ـ ٥٤٠هـ/ ١٠٧٢

---

(٢٠٤) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٩٢) فيما نقله عن ابن حيان.

(٢٠٥) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٧٨)، الحميدي : الجذوة، (ص ١٣٣ ـ ١٣٤)، وعما يتضمنه هذا المعنى انظر الصفدي: الوافي بالوفيات، ج ٧، (ص ١٤٤)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ١٤٤).

(٢٠٦) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٩٢).

(٢٠٧) الطاهر أحمد : دراسات أندلسية (ص ٦٣ ـ ٦٤)، وما بعدها وانظر ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ١١٤ ـ ١١٥).

ـ ١١٤٥م) وكـان متضلعا من عدد من العلوم، ولكنه اشتهر ببراعته في الأدب وعلو قدره في النثر والشعر ومهارته في النثر الفني، إلا أنه مع ذلك لم ينل حظا من ملوك عصره، وهي عادة الأيام مع أفاضل الزمان[٢٠٨].

وكان لابن خلصة (بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر، وإحسان لا يبلغ مداه أول ولا آخر)[٢٠٩].

وجـدير بالذكر أنه كان لما يدور بين عدد من أدباء ذلك العصر من مراسلات أدبية وما يسمى بالإخوانيات إلى جانب مناقضاتهم الأدبية أثر في نماء وتطور حركة النثر الفنية، فقد كان بين الأديب محمد بن عبدالرحمن بن خلصة اللخمي البلنسي (ت ٥٢١هـ/١١٢٧م) والأديب اللغوي الشهير ابن السيد البـطليوسي مراسـلات ومناقضات مختلفة حول كثير من الموضوعات الأدبية وكـان من أثـر ذلـك ظهور عدد من الرسائل الأدبية القيمة التي استحسنها الأدباء وتناقلوها بإعجاب[٢١٠].

وجـدير بالـذكر أيضا أن النزعة الشعوبية في عصر ملوك الطوائف قد وجدت لها أرضا خصبة، فترعرعت ونمت وأطلت برأسها البشع في الرسالة الأدبية التي صنفها الأديب الشعوبي أبوعامر أحمد بن غرسية وذم فيها العرب وافتخر بأبناء جلدته من العجم، وبعث بها إلى صديقه أبي جعفر أحمد بن محمد الجزار الذي لازم بلاط المعتصم بن صمادح ملك المرية مستنكرا عليه ذلك مستهجنا أشعاره في مدح المعتصم، ورغبه في القدوم على مولاه مجاهد العامري ملك الجزر ودانية، وقد وصفه الحجاري بأنه ـ أي ابن غرسية ـ وإن كان أعجمي المنبت فإن رسـالتـه تنم عن تضلعه من اللغة العربية وتصرفه البارع في فنونها، وذكر أنه من أبناء نصارى البشكنس، وأنه سُبي طفلا فتلقى التربية الإسلامية وتعلم الأدب في بلاط مجاهد[٢١١].

---

(٢٠٨) ابن الأبار : المعجم (ص ١٤٩) وما بعدها، ابن بشكوال : الصلة ج ٢ (ص ٥٨٨) وما بعدها، وانظر ألوانا من نثره في القلائد لابن خاقان (ص ١٨٢) وما بعدها.

(٢٠٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧٨٦) وما بعدها.

(٢١٠) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر السادس، (ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٢١١) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧).

ولهذه الرسالة تأثير كبير في تنشيط هذا اللون من الأدب وإثراء ميدان النثر الفني بروافد من الإنتاج الأدبي المتمثل في ردود الأدباء على تلك الرسالة، وقد تضمّنت كثير من الردود على ألوان بديعة من فنون البلاغة وضروب البيان. وقد رد عليها ابن الجزار الآنف الذكر حتى أفضى الأمر إلى العداء بين الصديقين، كما رد عليها عدد من الأدباء المعاصرين لابن غرسية. ولقيت رسالته ردوداً بعد عصره أيضا، ويهمنا هنا المعاصرون له، فمنهم عدا ابن الجزار الأديب أحمد بن الدودين البلنسي وقد احتفظ لنا ابن بسام برسالة ابن غرسية ورد البلنسي عليها، وكذلك رد أبي الطيب القروي (ت ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م) ورد أديب آخر يدعى ابن عباس[٢١٢].

ونذكر مقتطفات من رسالة ابن غرسية الشعوبي فيقول (سلام عليك ذا الرويّ المرويّ، الموقوف قريضه على حللة بجانة أرش اليمن، بزهيد من الشمن كأن مافي الأرض إنسان إلا من غسان. أو من آل ذي حسان...)[٢١٣] ويصف قومه معرضا بالعرب (مجد نجد، بهم لا رعاة شويهات ولا بهم. شغلوا بالماذي والمران، عن رعي البعران، وبجلب العز، عن حلب المعز، جبابرة قياصرة)[٢١٤] .ويمضي في تحقير العرب والحط من شأنهم مع الإشادة بالعجم والفخر بهم فيقول (أما علمتم أن المملكة النوشروانية والدولة الازدشيرية بقروا أجوافكم وخلعوا أكتافكم؟ ثم عطفوا ورأفوا وملكوكم الحيرة، بعد عظيم الحيرة)[٢١٥]. ويشيد ببراعة قومه في علوم الأوائل وأحاطتهم بالمعارف المختلفة. ويختم رسالته بالاعتراف بمكانة رسول الله ﷺ مع التعريض مرة أخرى بأن في الرغام يوجد التبر، والمسك بعض دم الغزال.

ومن رسالة البلنسي على ابن غرسية قوله (اخسأ أيها الجهول المارق

---

(٢١٢) انظر رسالة ابن غرسية في الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧٠٣ - ٧٠٤ - ٧٠٥)، وانظر رسالة أحمد بن الدودين في الرد عليها في نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧١٥) وما بعدها، وكذلك رسالة أبي الطيب (ص ٧٢٢) وابن عباس (ص ٧٤٦).

(٢١٣) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧٠٥).

(٢١٤) نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧٠٦).

(٢١٥) نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧١١).

والمرذول المنافق، أين أمك، ثكلتك أمك، أو ما علمت أنك إنما سحبت من عقالك لعقّالك، وقدمت أول قدمك لسفك دمك... فأقسم بباري النسم وناشر الأمم من رفات الرمم، لأُصيِّرَنّ عليك أيها السخيف المضعوف، على نذالتك وسفالتك، عرض البساط أضيق من سم الخياط ولأخلطن قصبك بعصبك ولأجمعن بين سحرك ونحرك)[٢١٦] وفي جانب آخر من رده يقول.

(وأما ما قعقعت به وعوعت من صواحب الرايات، فهن وأبيك بعض بنات ربة الاياة، إمائنا المسبيات الممتهنات، ملكتناهن ظبا البيض الهندية، وشبا السمر الردينية، فما عجنابهن عما عودتموهن من البغاء للاسترضاء، فكثّر معشر العربان من ولد سارتكم الإموان والعبدان، وفيك وأبيك من ذلك أصح دليل وأوضح برهان، فهلا يافتى ثقفت ودون هذا الفصل وقفت؟)[٢١٧].

وفي مقطع آخر يقول (وأما فخرك بعلمهم الشرائع، فمن أبدع البدائع، استنت الفصال حتى القرعى، وجهلهم بذلك أوضح من أن يشرح، وأبين من أن يبين.. ولم يزالوا يتعاورون أصلهم الإنجيل بالزيادة والنقصان إلى أن أصاروه في حيز الهذيان، وحسبك بهم جهلا أنهم يعتقدون إلها نبيهم)[٢١٨].

كما نسب لابن أبي الخصال رد على ابن غرسية في رسالة سماها (خطف البارق وقذف المارق في الرد على ابن غرسية الفاسق)[٢١٩].

ويتبين لنا أن القيمة الحقيقية في رسالة ابن غرسية في مانتج عنها من ثراء أدبي رفيع، وما أدت إليه تلك الرسالة من انتفاضة شديدة لتحطيم كل مزاعم وادعاءات ابن غرسية، كما أن في تلك الردود الأدبية عليها ما ينم عن الشعور القوي بالاصالة العربية والحمية للعرق العربي أمام تيار الشعوبية الذي تمثل بأجلى صوره في موقف ابن غرسية وآرائه الساقطة.

---

(٢١٦) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧١٥).
(٢١٧) نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٧١٦ ـ ٧١٧).
(٢١٨) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧١٩ ـ ٧٢٠).
(٢١٩) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف (ص ١٧٢).

كما اشتهرت المراسلات الأدبية التي كانت بين الأديب الشاعر ابن الحناط الأعمى وصديقه ابن شهيد، وكذلك ما كان بين الأديب أبي عامر التاكرني وأحمد بن عباس وزير زهير صاحب المرية، وأخيرا بين الأديب أبي القاسم ابن الجد وعدد من أصحابه الذين آثر الاستمرار في علاقاته الأدبية معهم وخاصة بعد اعتزاله بلبله كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذه المراسلات الأدبية يغلب عليها الطابع الإخواني أو ما يسمى «بالإخوانيات».

ومن أدباء ذلك العصر وكتابهم الأديب عبدالملك بن سراج بن عبدالله (٤٠٠ - ٤٨٠هـ/ ١٠٠٩ - ١٠٨٧م) وكان من البارعين في الأدب والماهرين في اللغة وعلومها، وتجلت قدراته الأدبية في نثره البديع. وصفه ابن خاقان فقال (أحد أعيان البيان وخاتم أعلام الكلام، ومعين الانتخاب والانتداب على طموس رسم اللغات والآداب فإنه أودى فطويت المعارف وتقلص ظلها الوارف لأنه كان لجة بحر وكان بالأندلس كعمرو بن بحر[٢٢٠].

وقبل أن نختتم حديثنا عن هذا الجانب من النثر، نود أن نشير إلى أن عصر ملوك الطوائف شهد طائفة كبيرة من الكُتّاب أو ممن اشتهروا بإجادة النثر الفني، لكن الباحث آثر اصطفاء اشهر كُتّاب هذا العصر وأبرزهم نشاطا وأذيعهم صيتا[٢٢١]

هذا ولم يعدم ذلك العصر بروز بعض النساء في الأدب والكتابة فمنهن العبادية جارية المعتضد وقد أهداها إليه مجاهد العامري من دانية وعُرفت بالأدب والظرف والمهارة في الكتابة مع العناية باللغة[٢٢٢].

كما أن فاطمة بنت زكريا الشبلاوي (ت ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م) وصفت بأنها كاتبة جزلة جيدة الخط حسنة القول والبيان فيما تكتبه، وقد عمرت ما يقارب مائة سنة[٢٢٣].

---

(٢٢٠) قلائد العقيان (ص ١٩٨).

(٢٢١) انظر تراجم بعض الأدباء الناثرين ممن لم يرد ذكرهم في البحث في الذخيرة لابن بسام: ق ١، ج ٢ (ص ٦٧٠ - ٦٧١)؛ ق ٢، ج ٢، (ص ٥٥٦)، ق ٣، ج ١ (ص ٤٠ - ٤١، ٤٤٨ - ٤٤٩)، وفي الذيل والتكملة للمراكشي، السفر السادس (ص ٣١٧ - ٣١٨)، وفي المغرب لابن سعيد، ج ٢ (ص ٣٨١)، وفي الجذوة للحميدي (ص ٣٢٧).

(٢٢٢) المقري: النفح، ج ٤ (ص ٢٨٣).

(٢٢٣) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٩٤).

النثر التأليفي

نعني بالتأليف الادبي هنا تأليف كتب أدب بالمفهوم السائد في القرنين الثالث والرابع الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين للفظ أدب، والذي كان يقصد به الثقافة العربية الخالصة الرامية إلى التأديب والتهذيب[٢٢٤] ككتاب العقد لابن عبد ربه، والأمالي لأبي على القالي والكامل للمبرد، ومن قبلها كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، ومن بعدها جميعا المستطرف للأبشيهي، ونهاية الأرب للنويري.

ويشير آنخل بالنثيا إلى أنّ لفظ أدب عند العرب يطلق على المعارف التي تستهدف رفع مستوى الثقافة الذهنية وتهذيب سلوك الفرد، وتتضمن هذه المعارف اللغة وآدابها والتاريخ والأخبار، وما يتعلق بذلك من مسائل العلم والأدب المستطرفة، ثم تطور مفهوم الأدب مع مضى الزمن فصار يطلق على الكتب التي تجمع مسائل مختلفة في فروع الأدب، وتشتمل على أشتات من الفنون والنوادر والطرف والحكايات الأدبية[٢٢٥].

وقد حظي الأدب في عصر ملوك الطوائف بعناية بالغة، فإن هذا العصر بما اتسم به من سمات المنافسة الحضارية والتسابق نحو اجتذاب أعلام الأدب ومشاهيره دفع الكثير من الأدباء إلى البحث والتحصيل والإنتاج الأدبي الواسع، فأخرجوا لنا مصنفات قيمة مازال بعضها بين أيدينا، وأما الكثير منها فقد طوته يد الزمان.

ولا عجب في هذا الاهتمام الواسع بالأدب والعناية به لدى الأندلسيين فإنه أنبل علم عندهم وبه يتقرب إلى مجالس ملوكهم وأعيانهم، ومن لم يكن له مشاركة في أدب أو شعر فقد كان مستثقل الروح غير مرغوب فيه[٢٢٦].

وإذا طالعنا كتب التراجم والطبقات الأندلسية وقفنا على مدى ما كان للأدب من منزلة رفيعة في حياة المجتمع الأندلسي، وأن الأدب كاد أن يغلب

---

(٢٢٤) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٦٩).
(٢٢٥) تاريخ الفكر الأندلسي (١٦٩).
(٢٢٦) المقري : نفح الطيب، ج ١ (ص ٢٢٢).

على جميع علماء الأندلس وأن يصبح صفة ملازمة لأكثرهم سواء من كان فيهم فقيها أو مؤرخا أو طبيبا أو فيلسوفا، وهو أمر يجلي لنا الصورة الواضحة لما كان عليه الأندلسيون من حب للأدب وشغف به وبفنونه المختلفة.

على أن المرء يتساءل: ماذا يريد نعاة التقليد أن يقوم به الأندلسيون من تجديد؟ أكانوا يريدون إنتاجا أدبيا خالصا لا يتفق مع الأدب المشرقي في شيء؟ لا شك أن طبائع الاشياء تنكر وتستهجن ذلك، فإن كل جديد يحمل في ذاته خطوط القديم ويحتذيه، والإبداع الأدبي لن يكون انفصالا عن الواقع والحقيقة الملموسة، وإلاّ استهجنه واستنكره الأدباء ولن يجد متنفسا في الحياة فيموت[٢٢٧].

وفي عصر ملوك الطوائف نشطت الحركة الأدبية ونبغ فيه أدباء بارزون، فقد ظهر في هذا العصر مئات الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بإنتاجهم الأدبي الرائع، وسوف نتطرق إلى أعظمهم مساهمة في تطورها، ويأتي في مقدمة هؤلاء الأدباء الأديب الكبير أحمد بن عبدالملك بن شهيد (ت ٤٢٦هـ/١٠٣٤م) الذي خلف لنا عدة كتب أدبية قيمة منها «كشف الدك وإيضاح الشك»، و«حانوت عطار» و«التوابع والزوابع»[٢٢٨].

وتعود شهرة هذا الأديب البارع إلى كتابه الأخير، ويقصد بالتوابع الجن التي تتبع الإنسان وتصحبه، والزوابع العواصف، والزوبعة رئيس الجن، وقد سمى ابن شهيد كتابه بهذا الاسم لاستناده في توضيح وشرح آرائه في الكتاب والأدباء والشعراء وسيرهم إلى ألسنة الجن، وقد سار على هذا المنوال أبوالعلاء المعري في كتابه الشهير رسالة الغفران.[٢٢٩].

وابن شهيد يوجه خطابه في رسالته تلك إلى شخص دعاه أبا بكر يحيى ابن حزم، وهو من أدباء عصره، وهو غير ابن حزم الفقيه الظاهري[٢٣٠].

---

(٢٢٧) محمد رجب البيومي : الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ١٤ ـ ١٥).
(٢٢٨) الحميدي : جلوة المقتبس (ص١٣٣)، الضبي: بغية الملتمس (ص ١٩١ ـ ١٩٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ (ص١١٦- ١١٧)، الذهبي: سير اعلام النبلاء، ج ١٧ (ص ٥٠١).
(٢٢٩) أحمد أمين : ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢١٠)، أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة (ص ٣٨١).
(٢٣٠) الحميدي : الجلوة (ص ٣٧٤).

وابن شهيد يستهل رسالته تلك بوصف نشأته العلمية ومدى ما بلغه من درجة سامية في العلم والأدب، فيعجب أبوبكر لهمته وسعة علمه ويحلف أن تابعة تنجده وزويعة تمده، لأن ما يملكه من أدب لا يكون إلّا لغير الإنس ويقر له أبوبكر بتفوقه ونبوغه. وهنا يوضح ابن شهيد انه كان له صديق فمات وأراد أن يقول في رثائه شعرا، ولكن ارتج عليه فلم يستطع فإذا بجني يدعى زهيربن نمير يتصور له على هيئة فارس ويقدم نفسه كصديق تابع له يعينه على الشعر متى رغب في ذلك، ثم اختفى. وكلما ارتج عليه أنجده ذلك الجني «التابع». ثم انتقل إلى موضوع الرسالة الحقيقي وأنه تذاكر أخبار الشعراء وأصحابهم من التوابع حتى اشتاق إلى لقاء بعضهم. فأبدى تابعه استعداده ـ بعد ان يأذن له شيخ الجن ـ في تحقيق رغبة ابن شهيد فطارا في الفضاء حتى أتيّا أرض الجن، وطاف به تابعه على توابع الشعراء الأقدمين كامرئ القيس وطرفة بن العبد من الجاهليين، وأبي تمام والمتنبي من الإسلاميين، وفي كل لقاء مع أحدهم يصور مقابلته معه، ويصف كلّاً منهم بملامح الشاعر التي كانت في حياته ويسمع من تابعه وينشده ابن شهيد حتى ينال إعجابه واستحسانه ويقر له بالفضل والإبداع[٢٣١].

ويتبين لنا من خلال هذا النهج الخيالي الذي سار عليه ابن شهيد مدى ما كان عليه من قدرات بارعة في التصرف بفنون الكلام وما أحرزه من بلاغة فائقة إلى ما يملكه من خيال خصب مجنح وهو ما أسعفه في إخراج صورة أدبية رائعة اشتملت على العديد من نظراته الأدبية النقدية. وأبرز الصراع بين الموهبة وسعة الاطلاع، وقد شحن رسالته بروائع نظمه ونثره معارضا بها غيره، وصاغ ذلك في صورة فكاهية طريفة[٢٣٢].

ورسالة التوابع لم تصلنا كاملة، وكل ما بين أيدينا إنما هي نقول عن

---

(٢٣١) ابن شهيد : رسالة التوابع والزوابع (ص ٧١ ـ ٧٢) وانظر سامي العاني: المرجع السابق (ص ٣٣٤)، أحمد هيكل: المرجع السابق (ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣).

(٢٣٢) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة (ص ٣٤٠).

كتاب الذخيرة لابن بسام، جمعها بطرس البستاني ونشرها مستقلة وصححها وحققها وشرحها وقدم لها دراسة تاريخية وأدبية، وقسم تلك النصوص إلى مدخل وأربعة فصول، فالأول توابع الشعراء، والثاني توابع الكتاب، والثالث نقاد الجن، والرابع حيوان الجن[٢٣٣].

ويأتي ابن حزم الظاهري وهو صديق لابن شهيد في مقدمة الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بتآليفهم النفيسة، فقد صنف في ذلك كتابه الرائع «طوق الحمامة في الألفة والآلاف» أي الحب والمحبين[٢٣٤].

والملاحظ في مادة هذا الكتاب أن قيمته لا ترتكز على فلسفة الحب وتحليل ظواهره واستجلاء دقائقه بل فيما أورده المؤلف من روايات ووقائع تصور مظاهر الحياة داخل قصورالخلفاء والأمراء وأساليب السلوك السائدة هنالك بالإضافة إلى اشتمال الكتاب على صور من تجارب المؤلف الشخصية واعترافاته الذاتية مما يلقي الضوء الكافي لاستجلاء معالم شخصيته[٢٣٥].

وجدير بالذكر أن اهمية الكتاب تعظم إذا علمنا أن الذي ألفه فقيه من فقهاء الأندلس الكبار عُرف بالحزم في دفاعه عن الدين والغيرة الشديدة على تعاليمه فصرف حياته في الاشتغال بعلومه، فتخصيصه وقتا للحديث عن هذا الموضوع العاطفي الاجتماعي فيه ما يسترعي النظر ويثير التساؤل. وقد كان ابن حزم يحس وهو يؤلف كتابه هذا ما سوف يجر عليه من نقد بعض الأشخاص لمخالفته ما كان عليه من التزام وتحفظ، ولكنه صرح بأنه لا يميل إلى المراءاة وأنّ غايته كانت رسم صورة واقعية لحياته وحياة الناس العاطفية في بيئته[٢٣٦].

---

(٢٣٣) نشر هذا الكتاب بدار صادر بيروت سنة ١٩٨٠م، وانظر فيه مزيدا من المعلومات الهامة عن ابن شهيد وعن رسالته المذكورة.
(٢٣٤) طبع هذا الكتاب بمطبعة الاستقامة بالقاهرة، بتحقيق حسن كامل صيرفي. تقديم إبراهيم الأبياري.
(٢٣٥) أحمد هيكل : مرجع سبق ذكره (ص ٣٤٢)، غرسيه غومس: الشعر الأندلسي (ص ٤١)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢١٢) وما بعدها.
Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P.100.
(٢٣٦) إحسان عباس : مرجع سبق ذكره (ص ٣٤١)، وانظر عبدالرحمن الحجي: أندلسيات (ص ١٠٨).

ويذكر ابن حزم في مقدمة كتابه أن تأليفه لهذا الكتاب كان استجابة لرغبة أحد أصحابه المخلصين من مدينة المرية، فقد طلب منه - وهو في شاطبة - تصنيف رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وأنه صنف هذا الكتاب من قبيل إعطاء النفس حقها من الراحة والانشراح تبعا للأثر القائل «أريحوا النفوس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد»[٢٣٧].

ومن أجمل ما يتحفنا به ابن حزم تلك الوقائع التي عايشها وشاهدها وما نقله عن الثقات من أصحابه، وفي ذلك يقول: (والذي كلفتني - يخاطب صديقه - لابد فيه من ذكر ماشاهدته حضرتي وأدركته عنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زماني، فاغتفر لي الكناية عن الأسماء فهي إما عورة لا نستجيز كشفها وإما نحافظ في ذلك صديقا ودودا أو رجلا جليلا)[٢٣٨].

وقسم ابن حزم كتابه ثلاثين بابا، منها في أصول الحب عشرة، وفي أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة اثنا عشر بابا. ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب، ومنها بابان ختم بهما الرسالة، وهما في الكلام في قبح المعصية، وباب في فضل التعفف[٢٣٩].

والبابان الأخيران يدلان دلالة جلية على ما اتصف به ذلك العالم الجليل من نزاهة وعفة. فتأليف مثل ذلك الكتاب قد يسوق المرء إلى الزلل وسقط الكلام. ولكن ابن حزم أكد قوة التزامه بطهارة نفسه ونقاء سريرته عندما ختم حديثه عن هذا الموضوع بقوله: (وآخر كلامنا الحض على طاعة الله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فذلك مفترض على كل مؤمن)[٢٤٠].

ومن نفائس التآليف الأدبية في هذا العصر ما قام بتأليفه العلامة الكبير

---

(٢٣٧) طوق الحمامة (ص ٧).
(٢٣٨) نفس المصدر والصفحة.
(٢٣٩) طوق الحمامة (ص ٣ - ٤).
(٢٤٠) نفس المصدر (ص ٤).

أبوعمر ابن عبدالبر النمري (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، حيث صنف كتابه الشهير «بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس»، والكتاب لحسن الحظ سلم من الضياع وطبع في ثلاثة أجزاء. ويشتمل كتاب «بهجة المجالس» على ما يقارب اثني عشر باباً في الأخلاق والآداب والسلوك والصفات الإنسانية وما يتصل بالعادات والتقاليد في حياة الإنسان إلى جانب أبواب كثيرة في تهذيب النفس وتطهيرها بارتياد الفضائل واجتناب الرذائل.

ومادة الكتاب اقتبسها ابن عبدالبر من كثير من المصادر منها ما هو معروف لدينا ككتاب عيون الأخبار لابن قتيبة، وكتب الجاحظ كالبيان والحيوان، وكتب أبي حيان التوحيدي كالصداقة والصديق، ومنها ماهو غير معروف لدينا، واعتمد ايضا على بعض دواوين الشعراء ومنهم عدد من الأندلسيين كالغزال والرمادي وابن عبد ربه فضلاً عن اعتماده في تصدير أبواب الكتاب على طائفة كبيرة من أحاديث النبي ﷺ وأقوال السلف.

وابن عبد البر تبدو شخصيته واضحة في كتابه من خلال حرصه الشديد على العبارات المهذبة والابتعاد عن الألفاظ البذيئة. واهتمامه باستقصاء المعنى وحشد الكثير من الشواهد النثرية والشعرية. كما أنه تميز بنقده لبعض الأخبار التي وردت في بعض الكتب الأدبية المشرقية كنقده للجاحظ عند حديثه عن الغيلان وأن منها ما يتزوج من البشر، وقال: إنها من دعابات الجاحظ ومجونه[(٢٤١)].

وابن عبدالبر عندما ألف كتابه المذكور كان يرمي إلى تحقيق كثير من الأهداف والغايات الأخلاقية والأدبية (ليكون لمن حفظه ووعاه وأتقنه وأحصاه زينا في مجالسه، وأنسا لمجالسه، وشحذا لذهنه وهاجسه، فلا يمر به معنى في الأغلب مما يذاكر به، إلا أورد فيه بيتاً نادرا، أو مثلا سائرا أو حكاية مستطرفة أو حكمة مستحسنة يحسن موقع ذلك في الأسماع، ويخف على النفس والطباع، ويكون لقارئه أنسا في الخلاء، كما هو زين له في الملاء

(٢٤١) ابن عبدالبر: بهجة المجالس، مقدمة المحقق (ص ٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١).

وصاحبا في الاغتراب، كما هو حلي بين الأصحاب)[٢٤٢].

وابن عبدالبر يفتتح الباب من أبواب كتابه بحديث أو بأحاديث لرسول الله ﷺ وشيء من أقوال الصحابة الأطهار والتابعين الكرام، ثم يسرد أقوال الحكماء وما ورد في ذلك الموضوع من أشعار ونثر ويلاحظ أيضا التزامه ذكر الصفة ونقيضها في كثير من أبواب كتابه كأن يتحدث عن الغنى والفقر، والرجاء والخوف، والمرض والطب، والشجاعة والجبن، والعقل والحمق... الخ.

وفي هذا العصر قدم الشاعر ابن شرف القيرواني (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) إلى الأندلس فقد نزل هو وصديقه ابن رشيق في صقلية حيث طاب للأخير المقام، وأما هو فقد شد رحاله إلى الأندلس وتردد على ملوك الطوائف الذين لم يأل أيٌ منهم جهداً في اجتذابه لبلاطه، غير انه لم يستقر إلا في بلاط المأمون بطليطلة[٢٤٣].

والذي يهمنا من سيرته العلمية تصنيفه لكتابه «أبكار الأفكار»، وهو الكتاب الذي جرى على سنن من قبله من مشاهير الأدباء كابن عبد ربه وابن عبدالبر. يقول في مقدمة كتابه المذكور: (فصنفت الكتاب الملقب بـ«أبكار الأفكار» يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال، مما عزوتها إلى من لم يحكها، وأضفت نسجها إلى من لم يحكها...)[٢٤٤].

وكان ابن شرف يرمي من وراء كتابه إلى توضيح ما هو عليه من علم وابداع فكري لايجارى، إذ إنه كتب مادته العلمية من بنات فكره لم يروها عن أحد ولم يحدث بها عن أديب أو عالم.

وقد أهدى ابن شرف كتابه المذكور إلى المعتضد بن عباد ملك اشبيلية فطالعه وأعجب به وبعث لمؤلفه خطابا يثني فيه عليه ومعه صلة مجزية[٢٤٥].

---

(٢٤٢) بهجة المجالس، ج ١ (ص ٣٦).
(٢٤٣) ابن بسام : الذخيرة، ق ٤ ج ١ (ص ١٦٩ ـ ١٧٠)، وانظر الطاهر أحمد: دراسات أندلسية (ص ٢٤٨).
(٢٤٤) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ١٧٩).
(٢٤٥) ابن بسام : المصدر السابق، ق ٤، ج ١، (ص ١٨٠).

ولأبي عبيد البكـري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) مشاركة جيدة في هذا الميدان، فقد صنف من الكتب «التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه»، وكتاب «سمط اللآلي في شرح أمالي أبي علي القالي». والكتابان مطبوعان[٢٤٦].

وفي أواخر عصر ملوك الطوائف ظهر الأديب اللامع أبوالحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م) نسبة إلى مدينة شنترين (في البرتغال حاليا). وقد غادر مدينته شنترين على أثر تغلب النصارى عليها (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) وتوجه إلى اشبيلية حيث ظل بها بعض الوقت. ويبدو أنه نزل لدى حاكمها المرابطي، ولعله سير بن أبي بكر الذي أهدى إليه ابن بسام كتابه الذخيرة وذيله باسمه[٢٤٧].

ويذكر بروكلمان أن ابن بسام كان في اشبونه (لشبونه) سنة ٤٧٧هـ/ ١٠٨٤م) وأنه ذهب إلى قرطبة سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م[٢٤٨]. . غير أن الشك يتسرب إلى صحة تاريخ دخوله قرطبة لأن ابن بسام أشار كما سيأتي إلى أنه دخل قرطبة قبل ذلك بسنة.

ويشير ابن بسام في ترجمته للأديب الشاعر محمد بن إسحاق اللخمي المشهور بابن الملح بأنه عاش حتى سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م)، وهو وقت تحريره لكتابه الذخيرة[٢٤٩]. ولكنه أشار إلى أنه أبتدأ بتصنيفه سنة (٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م). وكان ذلك بمدينة قرطبة[٢٥٠].

وعلى الرغم من أن ابن بسام ألف كتابه المذكور في عصر المرابطين إلا أننا نستشف من خلال تتبعنا لسيرته أن نشأته العلمية وتحصيله للعلم والأدب كان في عصر ملوك الطوائف. فقد أدرك أواخر هذا العصر وهو لا يزال

---

(٢٤٦) الأول طبع مذيلا على أمالي ابي علي، أما الثاني فقد نشره عبدالعزيز الميمني الراجكوتي، وصححه وعلق عليه، وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م.

(٢٤٧) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٩ - ٢٠ - ٢١)، وانظر (ص ٢٠) ح رقم ٥.

(٢٤٨) تاريخ الأدب العربي، ج ٦ (ص ١٠٨). انظر ما يؤكد صحة وجوده في لشبونه عام ٤٧٧هـ/ الذخيرة، ق ٣، ج ٢، (ص ٧٠٣).

(٢٤٩) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٤٥٢).

(٢٥٠) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٦٥٤).

في ربيع عمره. كما أن علمه الذي بثه في كتابه الذخيرة مستمد من نشاطه الأدبي في عصر ملوك الطوائف، ويؤكد ذلك ما اشتمل عليه كتابه من تراجم لعلماء وأعيان ذلك العصر الزاهر وأرفق بذكرهمْ كثيرا من إنتاجهم الأدبي شعراً ونثراً، وكتابه بذلك يعد موسوعة أدبية حفظت لنا الكثير عن الأدب الأندلسي وصانته من الضياع والاندثار الذي لحق بالكثير من التراث الفكري الأندلسي.

وكان تصنيف ابن بسام للذخيرة غيرة وحمية لأدب قومه من الأندلسيين (غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة، وتصبح بحاره ثماداً مضمحلة مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه)[٢٥١]

وقد قسم كتابه إلى أربعة اقسام:

الأول : لأهل قرطبة وما يتبعها من بلاد وسط الأندلس.

الثاني: لأهل الجانب الغربي من الأندلس ومنه اشبيلية وما يتبعها من البلدان الساحلية.

الثالث: لأهل الجانب الشرقي من الأندلس.

الرابع: لمن طرأ على الأندلس من الأدباء والكتاب[٢٥٢].

وقد استهل ابن بسام كتابه المذكور بذكر الكُتّاب، غير أنّه صدّر حديثه عن قرطبة بذكر من كان بها من الخلفاء والأمراء منذ بداية القرن الخامس الهجري وما يتعلق بسيرهم ثم تطرق لسير كُتّاب قرطبة ووزرائها، وأعيان الأدب والشعر بها وهكذا في كل قسم[٢٥٣].

وقد وازن الحجاري بين أسلوب ابن بسام في الذخيرة والفتح بن خاقان في القلائد، فأشار إلى أن ابن بسام أكثر تقييدا وعلما مفيدا. والفتح أقدر على البلاغة وحديثه أكثر تعلقا بالأنفس[٢٥٤].

---

(٢٥١) الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ١٢).

(٢٥٢) ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج١ (ص ٢٢ - ٢٥ - ٢٧ - ٢٩).

(٢٥٣) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٣٢).

(٢٥٤) ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٢٥٩ - ٢٦٠)، وانظر أيضا آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٥٩ - ٢٩٦)، وكذلك رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (ص ٣٧٢) وما بعدها.

ولابن بسام كتب أخرى غير الذخيرة، ولكنها مع الأسف ضاعت مع ماضاع من التراث الأندلسي، فمنها كتاب «الاعتماد على ما صح من أشعار المعتمد بن عباد» و«سلك الجواهر في ترسيل ابن طاهر» و«الإكليل المشتمل على شعر عبدالجليل» و«الاختيار من أشعار ذي الوزارتين أبي بكر بن عمار»[٢٥٥].

كما أسهم في الحركة الأدبية في هذا العصر الأديب محمد بن مسعود بن أبي الخصال من أهل شقوره[٢٥٦](٤٦٥ - ٥٤٠هـ/ ١٠٧٢ - ١١٤٥م). وقد وصف بالتفنن في العلوم والاستبحار في الآداب واللغة، ضليعا منها مما كان له أكبر الأثر في تألقه ككاتب بليغ، هذا إلى براعته في كثير من علوم الدين والأخبار والتواريخ[٢٥٧].

ومن أشهر تآليف ابن ابي الخصال كتابه الأدبي «سراج الأدب» وقد صنفه على منهج كتاب «النوادر» لأبي علي القالي، و«زهر الآداب» للحصري و«اللآلي» لأبي عبيد البكري، والكتاب مفقود مع الأسف[٢٥٨]. ، وصنف غير ذلك من الكتب «ظل الغمامة وطوق اليمامة» وقصيدة في نسب الرسول تسمى «معراج المناقب». ويقع نظمه ونثره في خمس مجلدات[٢٥٩].

وصنف الأديب الشاعر أبوالمطرف عبدالرحمن بن فتوح كتابا أسماه «الأغراب في رقائق الآداب» وقد أهداه للمأمون بن ذي النون، كما صنف كتابا آخر بعنوان «بستان الملوك» أهداه أيضا إلى ابن جهور أيام إمارته بقرطبة[٢٦٠]. .

ولعل من حق المرء أن يتساءل عن السبب وراء اشتهار بعض الأدباء وخمول البعض الآخر، بالرغم من أن هذه الطائفة الأخيرة لا تقل براعة

---

(٢٥٥) رضوان الداية : النقد الأدبي في الأندلس (ص ٣٧٢)، بالنثيا: مرجع سبق ذكره (ص ٢٨٨) وما بعدها.
(٢٥٦) شقورة : مدينة من أعمال جيان إلى الجنوب الشرقي للأندلس. الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٨).
(٢٥٧) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٥٨٨ - ٥٨٩)، وانظر ابن بسام: الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧٨٦ - ٧٨٧)، المراكشي: المعجب (ص ٢٥٦).
(٢٥٨) المقري : النفح، ج ٣ (ص ١٨٤)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٧٧).
(٢٥٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٧٨٦)، ح رقم ٢.
(٢٦٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٧٧٠ - ٧٧١).

وفهما وعلما عن ذوي الشهرة من الطائفة الأولى. والحق أن هذا يرجع في كثير من الأحيان إلى العلاقة القائمة بين الحكام والأدباء. فإن الأديب، إذا ارتبطت حياته ببلاط خليفة أو ملك أو أمير فإن هذا يكون مدعاة لشهرته وذيوع صيته بين أهل عصره، ومن ثم فإن المؤرخين وأصحاب التراجم ـ ومن هؤلاء طائفة كبيرة عاشت في كنف الطبقة الحاكمة ـ لا يستطيعون إغفال ذكر ذلك الأديب أو العالم الذي قضى كثيرا من عمره في بلاط الحاكم ومجلسه وما صاحبه آنذاك من مجد أدبي ومنزلة رفيعة، وبناء على ذلك فإن كتب التاريخ والتراجم أغفلت ذكر الكثير من العلماء الأجلاء أو بخلت علينا بالمعلومات الوافية عن العديد منهم ولم يتمكن إلاّ عدد قليل من الأدباء من فرض مكانتهم الأدبية على الجميع بما أوتوا من معرفة واسعة وقبول واسع بين أفراد المجتمع دون ارتباط حياتهم بملوك وأمراء عصرهم.

وكان للنساء دور كبير في نهضة الأدب، وقد احتفظ لنا التاريخ بأسماء عدد منهن شاركن في النشاط الأدبي، ولعل هذه النهضة الأدبية النسائية تعود إلى عاملين:

(١) مالبعضهن من جمال وفتنة أثارت قرائح الشعراء والأدباء لوصفهن وذكر محاسنهن.

(٢) انه كان منهن الأديبات اللاتي شاركن في ازدهار الأدب بما أنتجن فيه[٢٦١].

ومن يمثلن العـامـل الأول: ولادة بنت المستكفي، والعبـادية جارية المعتضد، واعتماد الرميكية. ومن يمثلن العامل الثاني: ولادة أيضا ونزهون بنت القلاعي الغرناطية وأم الكرام بنت المعتصم ملك المرية، والغسانية البجانية[٢٦٢].

وبهذا نختتم حديثنا عن الادب في عصر ملوك الطوائف، ونرجو ان نكون قد رسمنا صورة واضحة لما كان عليه الأدب آنذاك، وقد حرصنا على أن

(٢٦١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩).
(٢٦٢) سبقت الإشارة إلى جميعهن في الشعر.

نبرز جوانب الازدهار في ميدان التأليف الأدبي، وأن نقدم نماذج حيوية لذلك النشاط، وما من شك أن ما قدمه الأندلسيون من ثمرات جهودهم الأدبية كان نفيسا وقيما، ولا نقول ذلك ادعاءً بل إنه حقيقة واضحة لا تقبل الشك تتمثل في مؤلفات كثيرة كالتوابع والزوابع، وطوق الحمامة، والذخيرة، وبهجة المجالس، واللآلئ، وغير ذلك من التأليفات الأدبية الرائقة التي لا تزال تحتل مكانة رفيعة في المكتبة الأدبية العربية، وتدل دلالة واضحة على ما بلغه الأندلسيون من سعة العلم ودقة الفهم والنبوغ الواسع[٢٦٣].

(٢٦٣) هناك بعض الأدباء لم يرد ذكرهم في البحث فرأينا أن نشير إلى بعضهم وإلى المصادر التي ترجمت لهم، كالأديب أبي الصلت أمية بن عبدالعزيز المتوفى سنة (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) (انظر: ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص٢٦١ - ٢٦٢)، والأديب محمد بن عبدالملك اللخمي المتوفى سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م) (انظر ابن الأبار: المعجم ص١٣٧ وما بعدها)، وأحمد بن عبدالولي البلنسي المتوفى سنة (٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م) (انظر المراكشي: الذيل والتكملة، ج ١ (ص ٢٧٣) والأديب عبدالوهاب بن حزم المتوفى سنة (٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م) (انظر ابن خاقان: المطمح ص ٢٠٢)، والأديب زياد بن عبدالعزيز الجلامي (انظر ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ١٨٨ - ١٨٩).

(٣) اللغــة والنحــو

حقـق الأندلسيـون في ميـدان الدراسـات اللغويـة والنحويـة إنجـازات هامـة، فقد توفـروا على دراستـها والبحث في علومهـا ولقاء العارفيـن بها من علمـاء المشرق وتعمقـت معـارفهـم بها حتى تنـاولـوا دراسـات من سبقهـم بالتصحيح بل والإضافة. وأظهروا في ذلك ما يدل على نبوغهم وعمق فهمهم واتساع مداركهم.

هـذا وقـد حـرص الأندلسيـون في مخاطباتهم ومجالسهـم العلميـة علـى استقـامـة ألفـاظهـم وصحـة كلامهـم وخلـوه من اللحـن، وكـان الذي يلحـن في درس أو قـراءة ينظر إليـه نظـرة ازدراء واستهجـان. بـل إن العالـم منهـم في أي علـم كـان، إذا لم يكـن عارفـا بالنحـو وفنونـه لا يكـون جديـراً بالاحترام والتمييز[٢٦٤].

وسعـى الأندلسيـون إلـى ترسيـخ المعرفـة اللغويـة في أذهـان أطفالهـم فكانـوا يروونهـم الفصيـح من المنثـور والمنظـوم سعيـاً إلى تقويـة ملكاتهـم الأدبيـة جاريـن فـي ذلـك علـى النهـج العربـي القديـم في العنايـة باللغـة وحفظهـا[٢٦٥].

كما يشيـر ابن خلـدون إلى عنايـة الأندلسييـن بتعليـم ولدانهـم القـرآن مـع الـتركيـز على اللغـة والشعـر وإجـادة الخـط، فلا يـدرك أحـدهـم الشبـاب حتـى يكـون مجيـدا للعربيـة ماهـرا فيهـا، وهـو ما أدى إلـى نبوغهـم وتألقهـم أدبيـاً[٢٦٦].

---

(٢٦٤) المقري : نفح الطيب، ج ١ (ص ٢٢١)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية (ص ٧٥).
(٢٦٥) لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٧٣).
(٢٦٦) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٣٨ - ٥٣٩).

وللقاضي ابن العربي رأي في تعليم الأطفال، وذلك بتقديم علوم العربية والشعر على سائر العلوم ثم الحساب ثم القرآن، وقد أثنى على هذا المنهج العلامة ابن خلدون لكنه استصعب تطبيقه[٢٦٧].

وكان لاهتمام الأندلسيين باللغة والنحو وتلقينهما لأطفالهم أكبر الأثر في ظهور الكثير من الدراسات اللغوية والنحوية الجادة في الأندلس أفضل مما يكون في أي قطر إسلامي آخر، وهذا بلا شك عائد إلى تمكن الأطفال من تلك العلوم في سن مبكرة، وهو الشيء الذي افتقدته كثير من الأقطار الإسلامية[٢٦٨].

وليس أدل على عظمة اللغة العربية وآدابها وازدهارها في المجتمع الأندلسي من أنها قد شقت طريقها ليس فقط إلى قلوب العرب والمسلمين بل وجدت لها ترحيبا وعناية لدى الاسبان المسيحيين وذلك منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ثم زادت عنايتهم بها بعد ذلك حتى ظهر فيهم أدباء وشعراء، قال الفارو القرطبي في القرن الثالث الهجري من كلمة طويلة (إن جميع الشباب المسيحيين الذين يعتبرون لموهبتهم لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها، إنهم يقرؤون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير)[٢٦٩].

وجدير بالذكر أن الأندلسيين كانوا في بداية اشتغالهم بالنحو يعتمدون على قراءة كتب الأدب والنصوص الأدبية دون استعمال كتب النحو والتصانيف المخصصة فيه. ثم ما لبثوا أن توسعوا في دراسة النحو فأخذوا في دراسة كتبه والعكوف على قراءتها، وأول ماشاع بينهم من كتب النحو كتاب الكسائي (ت ١٨٨هـ/ ٨٠٤م) وسيبويه (ت ١٧٧هـ/ ٧٩٣م). ثم اتجه البعض إلى التصنيف في النحو، فألف جودي بن عثمان (ت ١٩٨هـ/

---

(٢٦٧) نفس المصدر (ص ٥٣٩ ـ ٥٤٠).
(٢٦٨) ريبيرا : التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٧٥).
(٢٦٩) انظر كلمة الفارو القرطبي عن اهتمام قومه باللغة العربية وآدابها في كتاب حضارة العرب في الأندلس لليفي بروفنسال (ص ٧٥) وانظر كذلك ما يتضمن هذا المعنى. محمد رجب البيومي: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ١٣ ـ ١٤)، زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب (ص ٥٢٩)، نقولا زيادة: لمحات من تاريخ العرب (ص ١٦٧ ـ ١٦٨).

٨١٣م) كتابا أسماه «منبه الحجارة» وكان ينسب لجودي انه أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس[٢٧٠].

وكان جودي هذا قد رحل إلى المشرق فالتقى بعلمائه وأدبائه وأخذ عنهم المعارف اللغوية والنحوية، ومن أشهر العلماء الذين أخذ عنهم الرياشي والفراء والكسائي[٢٧١].

هذا وقد نال كتاب سيبويه منزلة رفيعة بين الأندلسيين، فكان الكثير منهم يحفظونه عن ظهر قلب مثل حمد بن إسماعيل المعروف بحمدون (ت بعد ٢٠٠هـ/ ٨١٥م)، والاقشتين محمد بن موسى (٣٠٧هـ/ ٩١٩م)[٢٧٢].

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي اتسع نشاط الأندلسيين في ميدان اللغة والنحو وعظمت الفائدة من وراء رحلاتهم العلمية للمشرق فظهر آنذاك علماء قديرون أضافوا لمسيرة النشاط اللغوي والنحوي مزيدا من البحث والدراسة والشرح والإيضاح. فقد عكف العلامة مفرج بن مالك على دراسة كتاب الكسائي دراسة دقيقة ليضع له شرحا مفيدا في توضيح مسائله وشرح قواعده، كما أن معاصره أبا بكر بن خاطب النحوي ألف كتاباً في النحو لقي من العلماء الرضى والقبول[٢٧٣].

وعندما رحل النحوي الأندلسي محمد بن يحيى الرباحي (ت ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) الى المشرق اطلع على أساليب المشارقة ومناهجهم في تدريس النحو فحفظ ذلك وأتقنه. ولما عاد إلى الأندلس انجفل إليه الناس ليأخذوا عنه

---

(٢٧٠) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٨٥)، وانظر الزبيدي: طبقات اللغويين والنحويين (ص ٢٥٦)، والكسائي: هو علي بن حمزة بن عبدالله الكوفي أخذ النحو عن جماعة من أهل العلم ثم قدم بغداد فعينه الرشيد مؤدبا لابنيه الأمين والمأمون. مات بالري وخلف كتبا في النحو والقراءات. ابن النديم: الفهرست (ص ٩٧ - ٩٨). وسيبويه: هو عمرو بن عثمان مولى بني الحارث أخذ النحو عن الخليل حتى برع فيه فألف فيه كتابا ذاع بين الناس. ابن النديم: الفهرست (ص ٧٦ - ٧٧).

(٢٧١) الزبيدي : طبقات اللغويين والنحويين (ص ٢٥٦)، لطفي عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا (ص ٧٣). والرياشي: هو محمد بن سليمان من كبار اللغويين والنحويين كثير الرواية عن الأصمعي (ت ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) ابن النديم: الفهرست (ص ٨٦). والفراء: هو يحيى بن زياد، له كتاب معاني القرآن وكتب في النحو (ت ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م)، ابن النديم: الفهرست (ص ٩٩- ١٠٠).

(٢٧٢) لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٧٣)، وانظر الزبيدي: المصدر السابق (ص ٢٠٠، ٢٨١).

(٢٧٣) شوقي ضيف : المدارس النحوية (ص ٢٨٩).

العلم، وكان له أكبر الأثر في تعريف قومه طرائق التعليم والتأديب المشرقية، وإطلاعهم على أهمية العناية بالنحو ومسائله.[٢٧٤]

وفي هذا إشارة إلى التطور التعليمي للأندلس في مناهج التعليم والتأديب بالإضافة إلى إرساء قواعد النحو الشامل بمسائله ودقائقه لإيصال ذلك إلى أذهان التلاميذ الذين كانوا قبل ذلك يفتقرون إلى المنهج التعليمي لعلم النحو. والذي سبقهم إليه إخوانهم المشارقة.

وجدير بالذكر أن هناك طائفة من علماء اللغة والنحو كان لها دور في تربية وتأديب أبناء الخلفاء والأمراء وأعيان الأندلس. وذلك لحرص أولئك الأعيان على تنشئة أولادهم تنشئة سليمة سلوكياً وفكرياً، إذ إنّ الفصاحة والبلاغة والخطابة من الصفات التي يحرص عليها الحكام في تنشئة انجالهم الذين سيكون لهم دور كبير في مستقبل أيامهم.

وعلى سبيل المثال فقد عين المعتمد بن عباد لتأديب ابنيه محمد ويزيد الأديب اللغوي محمد بن أغلب المرسي (ت ٥١١هـ/ ١١١٧م)، وكان بارعا في اللغة والأدب[٢٧٥].

كما أن المظفر محمد بن عبدالله بن الأفطس استأدب لبنيه الأديب أباعبدالله بن يونس وكان المظفر يحضره وأبا الحزم بن عليم للمذاكرة والمناظرة في فروع المعرفة المختلفة[٢٧٦].

وكان لأبي علي القالي الذي وفد في عصر الخلافة على الأندلس أثر كبير في ازدهار الدراسات اللغوية والنحوية، وكان يلقي دروسه في النحو على مذهب البصريين وتبعه على ذلك تلميذه ابن الافليلي الذي كان على معرفة واسعة بكتاب سيبويه فكان يدرّسه لتلاميذه بجامع قرطبة[٢٧٧].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن لدينا طائفة من اللغويين والنحويين عاصروا

---

(٢٧٤) الزبيدي : مصدر سابق (ص ٣١٠ - ٣١١).
(٢٧٥) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤١٢ - ٤١٣)، ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق ١، (ص ٢٥٤).
(٢٧٦) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٣٩٣).
(٢٧٧) شوقي ضيف : المدارس النحوية (ص ٢٨٩ - ٢٩٠)، وعن مدى إسهام القالي في نهضة الدراسات اللغوية والنحوية انظر ابن خير: فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣٥٢ - ٣٥٣).

فترتي الخلافة وملوك الطوائف. وهناك طائفة أخرى نشأت في عصر ملوك الطوائف وامتد بها العمر إلى عصر المرابطين، ورأينا في البداية أن نشير إلى الطائفة الأولى ثم نعقبها بالطائفة الثانية. فمن أكبر اللغويين والنحاة المخضرمين العلامة إبراهيم بن محمد بن زكريا الافليلي (في مملكتي بني حمود ثم بني جهور) (٣٥٢ - ٤٤١هـ/ ٩٦٣ - ١٠٤٩م) عرف بتضلعه من معرفة الكثير من العلوم والآداب وخاصة اللغة والنحو والشعر والنقد، ومن إنتاجه العلمي شرحه لمعاني شعر المتنبي، وقد أثنى ابن حزم على هذا الكتاب ووصفه بالجودة والقيمة الأدبية الرفيعة[٢٧٨].

ووصفه ابن حيان بانه بز أهل عصره في علم اللسان العربي، ومعرفة غريب اللغة في لألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، (وكان غيورا على ما يحمل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه)[٢٧٩].

كما أن ابن شهيد قدح في سيرة الافليلي وتندر به فوصفه بأنه أشد الناس حرصا على أن لا يكون ببلده ماهر سواه، وأن الرأي عند ابن شهيد وإن يحل الافليلي بأرض جليقية حتى لا يسمع بها حس خطيب أو نظم شاعر فينعم هنالك وحيداً فريداً[٢٨٠].

ونحن إذ نقف على هذه الصفات التي خلعها عليه كل من ابن حيان وابن شهيد يدعونا الحق للتحري عن مبلغ صدقها ومدى صحتها فقد تطرق الشك إلينا في صحة ذلك بعد أن تصفحنا سيرته لدى الحميدي في كتابه جلوة المقتبس[٢٨١]، كما أن ابن حزم عندما تطرق لكتابه شرح معاني ديوان المتنبي أثنى عليه[٢٨٢] ولم يذكر شيئا مما أورده ابن حيان وابن شهيد، هذا

---

(٢٧٨) الحميدي : الجلوة (ص ١٥١ - ١٥٢)، الضبي: البغية (ص ٢١٣)، القفطي: انباه الرواه، ج ١ (ص ١٨٣) وما بعدها، الصفدي: الوافي ج ٦ (ص ١١٥)، والافليلي نسبة الى أفليل قرية بالشام كان أصله منها انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ (ص ٥١).

(٢٧٩) ابن بسام : الذخيرة، ق١، ج ١ (ص ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢٨٠) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٢٤١) نقلا عن رسالة التوابع والزوابع، وانظر ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٧٢ - ٧٣).

(٢٨١) انظر الجلوة (ص ١٥١ - ١٥٢).

(٢٨٢) المقري : النفح، ج ٣ (ص ١٧٣) نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس.

وقد وصفه ابن بشكوال بما ينافي تلك الصفات السيئة، فقال: (كان صادق اللهجة حسن الغيب، صافي الضمير، حسن المحاضرة، مكرما لجليسه)[٢٨٣]

ونضيف إلى ما تقدم ما عرف عن ابن حيان من حدة اللسان وقسوة الألفاظ لدى تناوله سير بعض العلماء والنبلاء، وما عرف عن ابن شهيد من أسلوب تهكمي لاذع لأبناء عصره فضلا عما اتصف به من مجون واستهتار.

ومن علماء اللغة والنحو الذين برزوا في هذا العصر أبومروان عبدالملك ابن سراج القرطبي من مملكة بني عباد (٤٠٠ ـ ٤٨٩هـ/ ١٠٠٩ ـ ١٠٩٥م) وصف بالحفظ للغة وعلومها، وأنه إمام فيها غير مدافع، وقد روى عن أبيه والقاضي يونس بن عبدالله، وعن الافليلي وغيرهم، وكان لعلمه الواسع وفهمه الدقيق بعلوم اللسان يعد قبلة طلاب العلم الذين رحلوا إليه من كل صقع، وكان مدار البحث في مسائل اللغة والآداب عليه، إلى جانب ما اتصف به من جلالة ووقار بين أهل العلم، حتى روي أنه كان لمهابة مجلسه العلمي لا يجسر أحد على الكلام فيه لغير العلم[٢٨٤].

وكان لأبي مروان عناية بالغة بكتب من سبقه من النحاة واللغويين ككتاب البارع لأبي علي القالي، وشرح غريب الحديث للخطابي[٢٨٥]، وكتاب الدلائل لقاسم بن ثابت السرقسطي[*]، والنبات لأبي حنيفة[٢٨٦]، والأمثال للأصبهاني[٢٨٧]، وكانت تلك الكتب وغيرها (قبل فتحها عليه، وإصلاحها بين يديه، طامسة الأعلام مختلة النظام، وقد سد التصحيف طرقها، وعور التبديل نسقها ففتح مستغلقها ونظم مفترقها، وعانى خللها وأزاح عللها، وقيد مهملها، وأبرز محاسنها وأثار كمائنها، وأعتقها من هجنة التعطيل، فرُغب في استعمالها)[٢٨٨].

---

(٢٨٣) الصلة، ج ١ (ص ٩٣).

(٢٨٤) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٣٦٣) وما بعدها، ابن فرحون: الديباج، طبعة المكتبة العلمية (ص ١٥٧).

(٢٨٥) الخطابي حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطابي (ت ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م) فقيه محدث، ألف تصانيف عديدة في الحديث ومن أشهرها «غريب الحديث» و«بيان إعجاز القرآن». الزركلي: الأعلام، ج ٢ (ص ٢٧٣).

(*) من أبرز علماء الحديث واللغة في الأندلس (ت ٣٠٢هـ/ ٩١٤م)، ألف كتابه المذكور في شرح غريب الحديث ولم يتمه فأكمله أبوه من بعده، ابن القرطبي تاريخ علماء الأندلس ج ١ (ص ٣٦٠).

(٢٨٦) أبوحنيفة : أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، كان بارعا في علوم مختلفة منها النحو واللغة والرياضيات وصنف كتبا كثيرة منها «الشعر والشعراء» و«الأنواء» و«النبات». الأنباري: نزهة الألباء (ص ٢٤٠).

(٢٨٧) الأصبهاني : الحسن بن عبدالله، كان من أئمة اللغة والنحو وكان بينه وبين أبي حنيفة الدينوري مناقضات ومناظرات وله ردود على كثير من العلماء كأبي حنيفة وأبي عبيد وابن قتيبة. ياقوت: معجم الأدباء، ج ٨ (ص ١٣٩).

(٢٨٨) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٨١١ ـ ٨١٢).

ورغم بلوغه الثمانين سنة فقد وصف بحسن البنية، فكان متمتعا بجميع حواسه متوقد الذهن سريع الخاطر والبديهة، يقرأ الخط الدقيق ويثابر على المطالعة ويسمع من طلبة العلم قراءاتهم عليه، شارحا لما يعترضهم من الغموض واللبس في الألفاظ والمعاني، وكانت وفاته خسارة عظمى على اللغة والنحو والأدب، فرثاه تلاميذه وأصحابه بمراث كثيرة.(٢٨٩)

وفي مملكة بني عباد تألق العلامة اللغوي النحوي الشهير أبوالحجاج يوسف بن عيسى المعروف بالأعلم (٤١٠ - ٤٧٦هـ/ ١٠١٩ - ١٠٨٣م) كان عالما باللغة، متضلعا من علومها وهو من شنتمرية الغرب(٢٩٠)، وقد رحل إلى قرطبة سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤١م) فاستوطنها حيث عكف على طلب العلم ولقاء العلماء فأخذ عنهم علوم اللغة والأدب والنحو ومن بين أولئك العلماء الافليلي الأنف الذكر، ومسلم بن أحمد، وقد وصف الأعلم بالعلم الواسع باللغة العربية وآدابها، وأنه كان من كبار الحفاظ لأشعار العرب والعارفين بمعانيها، وقد أخذ عنه الكثير من العلماء وطلبة العلم، وكان مقصدهم في التزود بالعلم والمعرفة(٢٩١).

وإذا تتبع القارئ أسماء الكتب التي تلقاها أو رواها أبوالحجاج وقف على اتساع اهتماماته العلمية بين النحو واللغة والأدب، ولكنه رغم ذلك كان يعرف بالنحوي لرسوخه في هذا العلم وبراعته فيه(٢٩٢).

ولأبي الحجاج مصنفات نفيسة في اللغة والنحو، ففي اللغة ألف كتابه «شرح أشعار الحماسة» وصنف كتابا آخر في شرح الأشعار الستة الجاهلية، وفي الكتابين من المعرفة اللغوية ما ينم عن تضلعه من اللغة ومهارته في معرفة معانيها وحل مشكلها(٢٩٣).

---

(٢٨٩) ابن بسام : نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٨١٢)، وانظر تلك المراثي بعد الصفحة المشار إليها.

(٢٩٠) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٢٥٩). شنتمرية الغرب، مدينة بغرب الأندلس وبالتحديد جنوب البرتغال. انظر الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٧).

(٢٩١) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٨١)، القفطي: أنباه الرواة، ج ٢، (ص ٢٠٧) وما بعدها، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٧ (ص ٨١ - ٨٢)، الصفدي: نكت الهميان (ص ٣١٣) (ذكر أن مولده سنة ٤١٦هـ والصحيح ما أشرنا إليه).

(٢٩٢) محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (ص ١١٩).

(٢٩٣) ابن خير : مصدر سابق (ص ٣٨٨ - ٣٨٩).

وفي النحو صنف «النكت على كتاب سيبويه» و«المخترع في النحو» و«عيون الزهد في شرح أبيات كتاب سيبويه» وله رسائل في بعض المسائل اللغوية كالمسألة الرشيدية، والفرق بين المسهِب والمسهَب، والمسألة الزنبورية وغير ذلك[٢٩٤].

وجدير بالذكر أن هناك عالماً لغوياً آخر شرح الأشعار الستة الجاهلية هو العلامة الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي (ت ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م)، ووصف هذا الشرح بالقيمة العلمية الكبيرة[٢٩٥].

ويذكر ابن خلكان أن لأبي الحجاج شرحا على كتاب «الجمل للزجاجي» وشرحا لأبياته في كتاب مفرد[٢٩٦].

وفي مملكة بني عباد أيضا برز العلامة الكبير أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، وكان عالما بالجغرافيا واللغة والانساب والتاريخ، وصفه ابن بسام فقال (الوزير الفقيه أبوعبيد، البكري وكان بأفقنا آخر علماء الجزيرة بالزمان، وأولهم بالبراعة والإحسان، وأبعدهم في العلوم طلقا، وأنصعهم في المنثور والمنظوم أفقا، كأن العرب استخلفته على لسانها)[٢٩٧].

وكانت مكانة البكري العلمية والأدبية قد دفعت ملوك الطوائف إلى التسارع في اجتذابه إليهم. فقصد أولا المرية حيث حل ضيفا مكرما على المعتصم وظل لديه بعض الوقت، ثم شد رحاله إلى بلاط المعتمد بن عباد حيث نال لديه مكانا عليا حتى نهاية الدولة العبادية[٢٩٨].

وفيما يتعلق بثقافته اللغوية الأدبية، فقد كان لقدوم أبي على القالي إلى الأندلس ومارافق دخوله من انتشار الكتب المشرقية في اللغة والأدب بين

---

(٢٩٤) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣١٤ - ٣١٥) وانظر البغدادي: هدية العارفين، ج ٢ (ص ٥٥١).

(٢٩٥) محمد رضوان الداية: مرجع سبق ذكره (ص ١٣٥ - ١٣٦) (والكتاب مازال مخطوطا ومنه نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة).

(٢٩٦) وفيات الأعيان، ج ٧ (ص ٨١ - ٨٢).

(٢٩٧) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٣٢).

(٢٩٨) عبدالله يوسف غنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي (ص ٢٢ - ٢٣).

الأندلسيين أثره الأكبر في ازدهار مثل تلك الدراسات وإقبال العديد من العلماء على دراستها وتصفح مصادرها، ومن بين هؤلاء أبوعبيد البكري الذي عكف على دراسة كثير من الكتب اللغوية والمصنفات الأدبية المشرقية من مخطوطات مقروءة على مؤلفيها مضبوطة أتم الضبط ومصححة بسماع أبي علي أو بروايته عن علماء العراق أمثال أبي عبيد ونفطويه، ثم تصفح مؤلفات القالي فقرأها بتمعن وتدبر ثم نقدها نقد العارف بدقائق اللغة وأسرارها[٢٩٩].

ولأبي عبيد تصانيف لغوية تدل على علو كعبه في اللغة منها «صلة المفصول في شرح أبيات الغريب المصنف»، وكتاب «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال»[٣٠٠]. وله أيضا كتاب «التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه». وكتاب «اللآلي في شرح الأمالي لأبي علي القالي»[٣٠١] ولأبي عبيد كتب أخرى لم تطبع أو فقدت «كاشتقاق الأسماء» و«شفاء عليل العربية»، و«الإحصاء لطبقات الشعراء» و غير ذلك[٣٠٢].

ويكفي الأندلس فخرا أن تزهو بأمثال العلامة اللغوي النحوي الشهير علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى من مملكة دانية (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) كان عالما باللغة، متضلعا من علومها، حتى وصف بأنه لا نظير له اعتناء باللغة ولا أمهر منه في معرفة أسرارها، وأن مؤلفاته فيها تعد أعظم ما أنجز في ذلك[٣٠٣].

وقد اكتسب ابن سيده بسيرته العلمية الفذة ثناء العلماء حتى وصفوه

---

(٢٩٩) ابوعبيد البكري: معجم ما استعجم مقدمة للمحقق مصطفى السقا. وأبوعبيد : هو القاسم بن سلام من كبار علماء الحديث واللغة وله من الكتب غريب الحديث (ت ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م). الأنباري: نزهة الألباء (ص ١٣٦). نفطويه: هو إبراهيم بن محمد الأزدي كان عالما بالحديث واللغة صنف غريب القرآن و«التاريخ» (ت ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م). الأنباري: نزهة الألباء (ص ٣٦٠).

(٣٠٠) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣٤٣ - ٣٤٤)، والكتاب الثاني طبع بالخرطوم سنة ١٩٥٨م، بتحقيق عبدالمجيد عابدين وإحسان عباس.

(٣٠١) ابن خير : مصدر سابق (ص ٣٢٥ - ٣٢٦)، وهذان الكتابان مطبوعان، الأول سنة ١٩٢٦م والثاني طبع سنة ١٩٣٦م بتحقيق عبدالعزيز الميمني.

(٣٠٢) انظر عبدالله الغنيم : مصادر البكري (ص ٢٤).

(٣٠٣) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٢٥٩).

بشيخ اللغـويين والنحاة وأنه أعلم أهل الأندلس بالنحو واللغة والأشعار وأحفظهم لذلك فكان يحفظ الكثير من المصنفات اللغوية والنحوية عن ظهر قلب(٣٠٤).

ولم يكن صيته العلمي مقتصرا على وطنه الأندلس بل تعداه إلى المشرق؛ فقد روى السلفي بقوله (سمعت أبا عبدالله محمد بن الحسن بن أبي زرارة اللغوي يقول «كان بالمشرق لغوي وبالمغرب لغوي في عصر واحد. ولم يكن لهما ثالث وهما ضريران، فالمشرقي أبوالعلاء التنوخي المعري، والمغربي ابن سيده الأندلسي، وابن سيده أعلم من المعري)(٣٠٥).

وكان ابن سيده قد حل ضيفا على الملك مجاهد العامري بدانية وكان هذا مولعا بالدراسات اللغوية، محبا للعلم والعلماء وخاصة الماهرين منهم في اللغة والنحو والقراءات، فوجد ابن سيده لديه كل تكريم وإجلال وكلفه مجاهـد بتـأليف معجم كامـل في اللغة، فصنف ابن سيده كتابه الشهير «المخصص» وذكر في مقدمته أن مجاهدا العامري أزمع على تأليف معجم في اللغة بنفسه (إلا أنه عاقه عن التصنيف فيها مانيط به من علائق السياسة وأعبـاء الـرياسـة وشغله عن ذلـك ما حُبي به من إدارته الممالك وتأمينه المسالك.. فالتمس من يؤهل لذلك لباب عبيده، وصياب عديده، فوجد منهم فضلاء أحباراً، ونبلاء أخياراً، لكن رآني أطولهم يدا وأبعدهم في مضمار العتاق مدى، فأمرني بالتجرد لهذه الإرادة... وألفت كتابي الملخص الذي سميته المخصص... ثم أمرني بالتأليف على حروف المعجم فصنفت كتابي الموسوم بالمحكم)(٣٠٦).

وفي النص إشارة واضحة إلى ما أسداه هذا الملك من أياد بيضاء إلى المعرفة والتصنيف العلمي، كما أن فيه إشارة إلى تضلعه هو من العلم ورغبته

---

(٣٠٤) صاعد: طبقات الأمم (ص ١٠٣)، الحميدي: الجذوة (ص ٣١١ ـ ٣١٢)، ابن خاقان: المطمح (ص ٢٩١ ـ ٢٩٢)، ابن بشكـوال: الصلة، ج ٢ (ص ٤١٧ ـ ٤١٨)، القفـطي: أنبـاه الـرواة، ج ٢ (ص ٢٢٥) الصفدي: نكت الهميان (ص ٢٠٥)، الذهبي: العبر، ج ٣ (ص ٢٤٣) المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠)، أبو المحاسن: إشارة التعيين (مخطوط) (ص ١٥).

(٣٠٥) معجم السفر (أخبار وتراجم أندلسية) (ص ٧٠).

(٣٠٦) انظر ابن سيده: المحكم، تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار، ط/ الاولى ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ج ١ (ص ٦).

في البداية أن يصنف بنفسه معجما لغويا.

وقد استمر ابن سيده مرعي الجانب، مكرم القدر في بلاط مجاهد ثم حدث ما أقلقه في عهد إقبال الدولة بن مجاهد بسبب ما حاكه منافسوه من دسائس فاضطر إلى مفارقة دانية[٣٠٧].

وكتاب المحكم يعد من أحسن المعاجم اللغوية التي سار مؤلفها على نهج الخليل بن أحمد الفراهيدي من حيث ترتيب الأبواب داخل كل كتاب من كتبه ومن حيث توزيع المواد اللغوية في أبواب الكتاب، وكذلك من حيث إيجازه أثناء العرض، ولما تضمنه من تخريج وتعليق وتعليل حول المسائل الصرفية والنحوية، بالإضافة إلى اشتماله على صيغ ومصطلحات وشروح[٣٠٨].

وقد نال هذا الكتاب استحسان العلماء، بل وصفه البعض بأنه ليس في كتب اللغة أحسن ولا أنفع منه[٣٠٩].

وفيما يتعلق بكتابه المخصص فقد بين في مقدمته هدفه من تصنيفه وتأليفه بأنه رمى من تأليفه إلى أن يصنفه مبوبا ليكون أسهل منالا للراغبين في انتقاء أوفى الصفات وأقرب الأسماء التي تؤدي المعنى التام (فإنه إذا كانت للمسمى إسماء كثيرة، وللموصوف أوصاف عديدة تنقى الخطيب والشاعر منها ما شاء واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية...)[٣١٠]

والحق أن من يطلع على هذا الكتاب فانه سيلمس ما كان عليه ذلك العلامة من علم واسع ومعرفة عميقة وشاملة لم تتأتّ لغيره، والكتاب في مضمونه لغوي مرتب حسب المعاني وكل موضوع من موضوعات الحياة البشرية من مادي ومعنوي يذكره مفردا، ويضع له بابا خاصا به ثم يذكر جميع ما ورد فيه عن العرب من ألفاظ وجمل[٣١١].

---

(٣٠٧) الحميدي : الجذوة (ص ٣١١ - ٣١٢)، ابن خاقان: المطمح (ص ٢٩١ - ٢٩٢)، داريو كاباتيلاس: ابن سيده المرسي (ص ٥٧ - ٥٨).

(٣٠٨) داريو كاباتيلاس : ابن سيده المرسي (ص ١٠٥) وانظر (ص ١٠٨).

(٣٠٩) السلفي: معجم السفر (اخبار وتراجم أندلسية) (ص ٧٠)، القفطي: إنباه الرواة، ج ٢ (ص ٢٢٥)، القلقشندي: صبح الاعشى، ج ١، (ص ٤٦٨).

(٣١٠) انظر المخصص، ج ١ (ص ١٠).

(٣١١) شكيب أرسلان : الحلل السندسية، ج ٣ (ص ٤٦٤)، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٤ (ص ٤٧٧).

ولابن سيده مصنفات أخرى منها «شرح أبيات الجمل للزجاجي» وكتاب «الأنيق في شرح الحماسة»[٣١٢]، و«شرح مشكل شعر المتنبي»[٣١٣].

وفي مملكة مجاهد أيضا لمع اسم العلامة تمام بن غالب التياني (ت ٤٣٦هـ/ ١٠٤٤م) كان من البارعين في علوم اللغة، مع المعرفة التامة بعلومها وما يتصل بها، وكان قد انتقل من قرطبة إلى مرسية حيث انصرف إلى التدريس، وبث علومه، ثم عكف على التأليف فصنف كتابا في اللغة، ولما سمع به مجاهد حاكم دانية أعجب بالكتاب فبعث إلى تمام بألف دينار وكسوة مقابل أن يذكر في مقدمته أنه صنفه باسمه، ولكن العلامة اللغوي أبت عليه نفسه وحبه للعلم وإخلاصه في نشره لوجه الله أن يدبج كتابه باسم ملك، وقال: كتاب صنفته لله ولطلبة العلم لا أصرفه إلى اسم ملك، وحلف أن لا يفعل ذلك، ورد الألف دينار والكسوة، فعظم في عين مجاهد والناس، وأثنى عليه العلماء ووصفوه بالنزاهة والقدر العلمي الكبير[٣١٤].

وكتاب تمام اسمه «تلقيح العين في اللغة» وقد حظي باستحسان وإعجاب العلماء ووصفوه بأنه من الكتب القيمة العظيمة الفائدة[٣١٥].

وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي شهدت الأندلس ظهور عدد من اللغويين والنحاة أسهموا بدرجة كبيرة وموفقة في دفع عجلة الدراسات اللغوية والنحوية بما أسدوه من جهود نلمسها في أبحاثهم ودراساتهم القيمة التي لا يزال بعضها بين أيدينا.

يأتي في مقدمة علماء اللغة والنحو آنذاك العلامة (ابن الطراوة) سليمان

---

(٣١٢) ابن خير : فهرست ماروله عن شيوخه (ص ٣٥٦)، البغدادي: هدية العارفين، ج ٥ (ص ٦٩١).

(٣١٣) ابن فرحون : الديباج، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (ص ٢٠٥)، وقد حقق هذا الكتاب رضوان الداية وصدر عن دار المأمون للتراث بدمشق.

(٣١٤) ابن سعيد : المغرب، ج ١ (ص ١٦٦)، القفطي: إنباه الرواة، ج١، (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠)، الحميري : الروض المعطار (ص ١٨٢)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٧٢)، أبوالمحاسن: إشارة التعيين (مخطوط) (ص ٩٠)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٨٩)، شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج ٣ (ص ٤٥٩).

S. P. Scott: History of the Moorish Empire in Europe Vol III, P. 495.

(٣١٥) انظر المقري : النفح، ج ٣ (ص ١٧٢)، نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس، ابن خير: فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٣٦٠ ـ ٣٦١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١ (ص ٣٠٠).

ابن محمد بن عبدالله السبتي المالقي من مملكة غرناطة (٤٤٠ ـ ٥٢٨هـ/ ١٠٤٨ ـ ١١٣٣م) أخذ علومه في اللغة والأدب عن معاصريه أمثال أبي بكر المرشاني الذي قرأ عليه كتاب سيبويه باشبيليه (٤٦١هـ/ ١٠٦٨م) وسمع على أبي الحجاج الأعلم ولزمه واستفاد من علومه ثم شد رحاله إلى قرطبة فسمع بها كتاب سيبويه على العلامة أبي مروان بن سراج[٣١٦].

وكان لبراعة ابن الطراوة في النحو ورسوخ قدمه في علومه أثر في استقلاله بكثير من الآراء النحوية التي خالف فيها عددا من النحاة مما أكسبه نقمة بعضهم وفي مقدمتهم أبوالحسن بن خروف الذي انتقده (وأتبع شرحه كتاب سيبويه التعقب عليه في مقدماته على كتاب سيبويه وتنبيهاته على إيضاح الفارسي)[٣١٧].

وكان في دراسته لكتب من سبقه من النحويين دقيق النظر واسع المدارك، واثق النفس مستقل الشخصية، فتعرض لنقد أعمال من سبقه من النحاة في كتابه «المقدمات» الذي ألفه لحل كثير من مشكلات الكتاب، فضعف سيبويه في النحو، كما أنه انتقد عددا من مسائل كتاب الزجاجي «الجمل» وصنف رسالة نقدية عن الإيضاح لأبي علي الفارسي[٣١٨].

وفيما يتصل بآثاره العلمية فقد ألف عددا من الكتب منها «الإفصاح ببعض ما جاء من الخطأ في الإيضاح»[٣١٩] وكتاب «رد الشارد إلى عقال الناشد» وفيه ردود نحوية على النحوي المشرقي الزجاجي. كما صنف عددا من الرسائل النحوية «ورسالة فيما جرى بينه وبين أبي الحسن بن الباذش» «ومقالة في الاسم والمسمى»، و«المقدمات إلى علم الكتاب» «وشرح المشكلات على توالي الأبواب»[٣٢٠].

---

(٣١٦) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٧٩ ـ ٨٠)، الكتبي: فوات الوفيات، ج ٢ (ص ٧٩)، وانظر ابن الأبار: المقتضب من تحفة القادم (ص ٦٤).

(٣١٧) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٧٩ ـ ٨٠).

(٣١٨) البغدادي : هدية العارفين، ج ١ (ص ٣٩٨)، وانظر عياد الثبيتي: ابن الطراوة النحوي (ص ٧٨). الزجاجي: هو عبدالرحمن بن إسحاق كان من كبار النحاة ومن أشهر كتبه «الجمل» و«الإيضاح» (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م). الأنباري: نزهة الألباء (ص ٣٠٦). الفارسي: سبق التعريف به.

(٣١٩) من هذا الكتاب نسخة خطية بمكتبة الاسكوريال رقم (١٨٣٠).

(٣٢٠) عياد الثبيتي : ابن الطراوة النحوي (ص ٨٢) وما بعدها.

ويشير المراكشي إلى أنّ له كتابا أسماه «التّرشيح»[٣٢١].

وقد نال ابن الطراوة ذكرا طيبا وثناء جما من كثير من العلماء فوصفه عدد منهم بأنه من أئمة الأدب والنحو والراسخين فيهما مع البراعة في معرفة كتاب سيبويه وغيره من كتب النحو[٣٢٢].

وقال فيه أبوبكر بن سمجون ـ من النحاة المعاصرين لابن الطراوة ـ (ما يجوز على الصراط أعرف منه بالنحو).

وفي مملكة غرناطة ظهر العلامة اللغوي النحوي أبو الحسن علي بن أحمد ابن خلف المعروف بابن الباذش (٤٤٤ ـ ٥٢٨هـ/ ١٠٥٢ ـ ١١٣٣م) وأصله من مدينة جيان وكان والده قد انتقل عنها إلى غرناطة فسكنها، فولد ونشأ بها أبوالحسن وتلقى بها علومه ثم رحل إلى غيرها من مدن الأندلس للقاء العلماء، وكان معروفا بهمته ونشاطه وسعة إدراكه لمسائل النحو، وعد من حفاظ كتاب سيبويه العارفين بمسائله الماهرين في دقائقه[٣٢٣].

وكان لسعة علمه باللغة وبراعته في النحو، واثق النفس، قوي الهمة؛ فقد روى أحد أصحابه وهو القاضي جابر بن يحيى قال: (سمعت أباالحسن بن الباذش يقول: نحاة الأندلس ثلاثة، أبوعبدالله بن أبي العافية، وأبومروان بن سراج أو ابنه أبوالحسين، وكان يسكت عن الثالث فيرونه يريد نفسه)[٣٢٤].

ولم تخف منزلة أبي الحسن على ابنه أبي جعفر الذي كان عظيم الثناء والإشادة بوالده، فقد أشار في كتابه «الإقناع» إلى منزلة والده العلمية وعظم مكانته وما ناله على يديه من علم ومعرفة، وأنه يرى من الواجب أن ينشر ما أخذه عنه ويبث ما رواه عنه من المعارف القيمة[٣٢٥].

---

(٣٢١) الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٨٠).
(٣٢٢) انظر عياض: الغنيه، ص ٢٢٣، الضبي: بغية الملتمس، (ص ٣٠٤) القفطي: إنباه الرواة، ج ٤ (ص ١٠٧ ـ ١٠٨)، ابن سعيد: المغرب ج ٢ (ص ٢٠٨).
(٣٢٣) ابن عطية: الفهرس (ص ٧٦)، عياض: الغنية (ص ١٧٤ ـ ١٧٥) الضبي: البغية (ص ٤١٩)، ابن الأبار: المعجم (ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧).
(٣٢٤) ابن الأبار: المعجم (ص ٢٨٧).
(٣٢٥) انظر الإقناع، ج ١ (ص ٥٠ ـ ٥١).

وفيما يتصل بإنتاج أبي الحسن العلمي فقد صنف كتابا في شرح كتاب سيبويه، وشرح المقتضب، وشرح أصول ابن السراج، وشرح الإيضاح، وشرح الجمل، وشرح الكافي للنحاس[٣٢٦].

ولا ريب أن في شروحه الواسعة تلك لعدد من كتب اللغة والنحو ما يدل دلالة قاطعة على سعة علمه وشمول ثقافته اللغوية والنحوية؛ فإن الشرح والتوضيح يستدعيان التبحر في معرفة معاني الألفاظ، والوقوف على مسائل اللغة والنحو، ومعرفة دقائقها وأسرارها، وفهمها فهما عميقا.

ويحق لهذا العصر أن يزهو بأمثال العلامة اللغوي النحوي الفيلسوف أبي محمد عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي (٤٤٤ - ٥٢١هـ/ ١٠٥٢ - ١١٢٧م)، وأصله من مدينة شلب، ولكنه ولد ونشأ ببطليوس وتلقى فيها علومه ومعارفه، وكان ملازما لحلقات الدرس ولقاء العلماء في مدينته حتى لمع نجمه، وكان متعدد الاهتمامات العلمية فكان بارعا في اللغة والنحو والأدب وعلوم الدين والكلام، عارفا بالمنطق والفلسفة[٣٢٧].

وكان لمكانته العلمية وغزارة علمه أثر في تهافت ملوك الطوائف على اجتذابه إليهم فسار إلى بلاط ابن رزين في السهلة (٤٣٦ - ٤٩٦هـ/ ١٠٤٤ - ١١٠٢م)، وعاش مكرما لديه حتى وقع ما عكر صفو العلاقة بينهما فغادر حاضرته ويمم صوب بني هود في سرقسطة حيث حل ضيفا على المستعين ابن هود، فأكرم مثواه وأعلى مكانه فعاش هنالك في خير حال، ثم ما لبث أن خرج عن سرقسطة فاتجه إلى طليطلة. ويذكر المقري أن ابن السيد مدح أميرا من أمراء بني ذي النون وهو الظافر عبدالرحمن بن عبيد الله، ومن الغريب أن دعاه بالملك في قصيدته التي مدحه بها[٣٢٨]، ولابن

---

(٣٢٦) انظر: ابن الأبار: المعجم. (ص ٢٨٦) وما بعدها - ابن عطيه: الفهرس (ص ٤١٩) والنحاس هو: أبوجعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل الصفار المعروف بالنحاس (ت ٣٣٨هـ/ ٩٤٩م) كان معدودا في علماء النحو وأخذ علومه عن كبار النحاة كالأخفش ونفطويه والزجاج، وصنف عددا من الكتب منها «إعراب القرآن» و«شرح السبع الطوال» وفي النحو كتابه المذكور أعلاه. انظر الأنباري: نزهة الألباء (ص ٣٩١).

(٣٢٧) عياض: الغنية (ص ١٥٨ - ١٥٩)، القفطي: انباه الرواة، ج ٢ (ص ١٤١) وما بعدها، وانظر محمد رضوان الداية: تاريخ النقد الأدبي في الأندلس (ص ١٧٩).

(٣٢٨) انظر أزهار الرياض، ج ٣ (ص ١١٧ - ١٢١ - ١٢٣)، محمد رضوان الداية: النقد الأدبي في الأندلس (ص ١٨٠ - ١٨١).

السيد قصيدة في مدح آخر ملوك بني ذي النون القادر يحيى، مما يدل على أنه أقام فترة من الزمن في بلاط بني ذي النون(٣٢٩).

وبعد أن طوف ابن السيد ببلاطات هؤلاء الملوك آثر الاستقرار فاستوطن مدينة بلنسية حيث انصرف للعلم وبث معارفه في اللغة والنحو، وبها كانت وفاته. وصف ابن السيد بالتبحر في علوم اللسان، وكثرة من يقصد مجلسه العلمي من الطلبة، مع اتصافه بحسن التعليم وإجادة التلقين(٣٣٠).

ولابن السيد مصنفات كثيرة في اللغة، منها كتاب «المثلث» في مجلدين وهو ينم عن سعة علمه باللغة، وكتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب» لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، «وشرح سقط الزند لأبي العلاء المعري»، وفاق فيه شرح أبي العلاء نفسه صاحب الديوان، وله كتاب في «الحروف الخمسة وهي السين والصاد والضاد والطاء والذال»، وكتاب «الحلل في شرح أبيات الجمل» «وإصلاح الخلل الواقع في الجمل»... وغير ذلك(٣٣١).

ولابن السيد كتب أخرى مثل «مسائل منثورة في النحو»، و«شرح الكامل للمبرد»، و«شرح فصيح ثعلب»، و«شرح الجمل في النحو للجرجاني» (ت ٤٧٤هـ/ ١٠٨١م)، و«شرح ديوان المتنبي»، و«الانتصار لمن عدل عن الاستبصار»، وهذا الأخير ضمّنه ردوده على ابن العربي الذي نقد شرح ابن السيد لديوان أبي العلاء المعري، فيبدأ بذكر المسألة التي اعترض عليها ابن العربي ثم يعقبها بالرد عليه مظهرا اخطاءه وهفواته(٣٣٢).

وقد أجمعت كتب التاريخ التي تناولت سيرة ابن السيد على أنه إمام كبير

---

(٣٢٩) المقري: أزهار الرياض، ج ٣ (ص ١٣٥) وما بعدها.

(٣٣٠) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٩٢)، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٣ (ص ٩٦ - ٩٧)، ابن فرحون: الديباج، ط/ المكتبة العلمية (ص ١٤٠ - ١٤١)، الكتبي: عيون التواريخ، ج ٢ (ص ١٩١). السيوطي: بغية الوعاة، ج ٢، ص ٥٥.

(٣٣١) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٩٦-٩٧)، وانظر الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٤ (ص ٦٥)، و«كتاب المثلث» منه نسخة بمعهد المخطوطات وقد طبع، و«الاقتضاب» مطبوع و«شرح السقط» مطبوع، و«الحروف الخمسة» مخطوط بمعهد المخطوطات العربية و«الحلل» منه نسخة بمكتبة بغداد، و«إصلاح الخلل» منه نسخة في دار الكتب المصرية.

(٣٣٢) ابن السيد : التنبيه، مقدمة المحقق (ص ٢٩ - ٣١-٣٢) وانظر البغدادي : هدية العارفين، ج ٥ (ص ٤٥٤).

في اللغة والنحو بل شيخ النحاة، وكان البطليوسي يستند إلى النحو كقاعدة في شروحه اللغوية، فلم يترك أي مسألة صغيرة أو كبيرة إلا عالجها مستغلاً تضلعه من النحو وتبحره في مسائله. فهو يبدي رأي البصريين والكوفيين، ثم ينهي حديثه بقوله والمختار هو كذا. وإذا طالع القارئ دراساته وشروحه فسيلمس عظم ما كان يتمتع به من علم واسع يتمثل في ذلك التيار الزاخر من الأقوال والآراء النحوية التي يدعمها بالشواهد القرآنية والأحاديث الكريمة وأشعار العرب[٣٣٣].

ولهذا فقد نال ثناء العلماء حتى وصفه ابن بسام فقال (إمام الأوان وحامل لواء الإحسان وهو بالأندلس كالجاحظ بل أرفع درجة)[٣٣٤].

ووصف بأوصاف رفيعة شتى، فهو إمام اللغويين والنحاة، وأحد السابقين المبرزين، وعد من مفاخر الأندلس، وأعلامها العظام[٣٣٥].

وهناك أعلام آخرون في اللغة سنشير بإيجاز إلى بعضهم منهم العلامة محمد بن عبدالرحمن بن خلصة اللخمي من أعلام بلنسية (ت ٥٢١هـ/ ١١٢٧م) وكان من البارعين في علوم اللسان، وله ردود علمية على ابن السيد وصفت بالجودة والإتقان[٣٣٦].

ومن بين ردوده على ابن السيد ما زعمه من أن شرح أدب الكتاب ليس لابن السيد وإنما مصنفه ابن بلال المرسي، وابن السيد أغار على تأليفه فانتحله[٣٣٧].

ولكننا نستبعد ذلك فابن السيد بعلمه الواسع وثقافته اللغوية العميقة أغنى ما يكون عن أن ينتحل جهد غيره من العلماء.

وهناك عالم آخر يتشابه في اسمه مع العلامة ابن خلصة وهو محمد بن

---

(٣٣٣) ابن السيد : التنبيه، مقدمة المحقق (ص ٢٨)، وانظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٢ (ص ١٩٨).

(٣٣٤) الذخيرة، ق ٣، ج ٢ (ص ٨٩٠)

(٣٣٥) انظر الضبي: البغية (ص ٣٣٧)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٣٨٥ - ٣٨٦).

(٣٣٦) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤٢٦)، المقتضب (ص ٥٤ - ٥٥) ابن قاضي شهبه: طبقات النحويين واللغويين (ص ١٥٦ - ١٥٧).

(٣٣٧) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٠)، المراكشي: الذيل والتكملة ج ١ (ص ٣٩٢ - ٣٩٣)، وانظر فيها ترجمة ابن بلال المرسي. وانظر ايضا السيوطي: بغية الوعاة، ج ١ (ص ٣٦١).

خلصة الشلوني المكنى بأبي عبدالله البصير (من أعلام مملكة دانية) وصفه الحميدي فقال: (كان من النحويين المتصدرين والأساتيذ المشهورين والشعراء المجودين)[٣٣٨].

وكان لبعض النساء دور في هذا النشاط اللغوي والنحوي، فهذه الأديبة العروضية (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) مولاة أبي المطرف عبدالرحمن بن غلبون الكاتب (من إمارة بلنسية) أخذت علومها عن مولاها الذي كان معدودا في علماء اللغة، ومازالت عاكفة على طلب العلم والقراءة حتى فاقته، وبرعت في العروض، وكانت تحفظ الكامل للمبرد، والنوادر لأبي علي القالي[٣٣٩].

وكانت إلى جانب حفظها للكتابين المشار إليهما عارفة بمعاني نصوصها وشروح ألفاظها، فكانت تعقد مجلسا للتدريس، وممن أخذ عنها العلامة المقرئ الكبير سليمان بن نجاح، وكانت وفاتها بدانية[٣٤٠].

وأخيرا هؤلاء هم مشاهير أعلام اللغة والنحو في عصر ملوك الطوائف ولا نغمط لمن لم نذكر حقا، فقد تكون كتب التراجم والتاريخ أغفلت البعض أو أنها شحت بمزيد من المعلومات عن البعض الآخر، وعلى أي حال فإننا نحيل القارئ إلى بعض من ذكر لهم مشاركة في اللغة والنحو[٣٤١].

وزبدة القول: إنه يتضح لنا في هذه الدراسة مدى ما لقيته علوم اللسان من ازدهار وتطور، فإن هذا العصر قد حفل بأعلام كبار قدموا لهذه الدراسات جهودا موفقة وحميدة، ولعل ما تركوه لنا من نفائس التصانيف وروائع التأليف فيه ما يشهد بعظمتهم وعظمة عصرهم الحافل بالعلم، الناهض بالمعرفة.

---

(٣٣٨) جلوة المقتبس: (ص ٥٤)، والشلوني نسبة الى كورة شلونة في جنوب الأندلس وقد نزلها جند فلسطين. الحميري: الروض المعطار (ص ٣٣٩).

(٣٣٩) المقري: النفح، ج ٤ (ص ١٧١).

(٣٤٠) المقري: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣٤١) انظر مثلا: ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٥٣٥)، الحميدي الجذوة (ص ٢٨٤)، ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٩٦، ١٠٩٢) عياض: الغنية (ص ٥٩)، الأنباري: نزهة الألباء (ص ٢٥٤)، القفطي: إنباه الرواة، ج ٢ (ص ٢٦٣ - ٢٦٤)، (ص ٣٥٢) المراكشي الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٣٩)، السفر الخامس، القسم الأول، (ص ٥٣).

الفصل الثالث

العلوم الإنسانية

- التاريخ.
- الجغرافيا والرحلات الجغرافية.
- الفلسفة

---

(١) التاريـخ

يعتبر علم التاريخ من بين العلوم التي حازت على اهتمام وعناية الأندلسيين، ويمكن أن نرجع أهم العوامل المؤثرة في نشاط الدراسات التاريخية إلى ما كان يعتمل في نفوس بعض مؤرخي الأندلس من حماس شديدة وغيرة على تاريخ وطنهم وسير أعلامه ورجاله، هذا إلى جانب اهتمام الحكام أو بعضهم على الأصح بالدراسات التاريخية والتراجم، مما دفع عددا من المؤرخين نحو تصنيف وتأليف ما ينشده أولئك الحكام من أمراء وخلفاء وملوك، ولا غرو في ذلك فإن بين أيدينا الآن مما تبقى من التراث التاريخي الأندلسي ما يثبت ذلك.

وجدير بالذكر أن المسلمين في صدر الإسلام وما بعده بقليل كانوا أكثر عناية وحرصا على معرفة الصحيح وغير الصحيح من أحاديث الرسول ﷺ، فعمدوا إلى تمحيص سير الرواة ومعرفة حالهم جرحا أو تعديلا وهو ما قادهم إلى دراسة التاريخ والاعتماد عليه في تحقيق غاياتهم السامية، ولهذا قال سفيان الثوري «لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ»[1].

كما أن اهتمام أولئك العلماء بسيرة رسول الله ﷺ وأخباره وغزواته وقدوم وفود العرب عليه إلى غير ذلك من جوانب سيرته عليه الصلاة والسلام قادهم إلى تسجيل الأحداث التاريخية شيئا فشيئا وشجعهم على ذلك أيضا ما تم من فتوحات إسلامية واسعة فاتجهوا أكثر إلى التاريخ حتى احتل هذا العلم مكانته الكبرى بين العلوم الإسلامية.

وتبدو لنا بداية التاريخ الأندلسي غامضة تقريبا، ويمكن أن تكون مقترنة ببداية الدولة الأموية التي سعى أمراؤها لحفظ مآثرهم وتخليد سيرهم في ميدان الحرب والسياسة، ولهذا نجد أن الإخباريين أو المؤرخين الأول كانوا من موالي الأمويين الذين سجلوا تواريخ ملوكهم ووقائعهم[2].

ويلاحظ دارس الحركة التاريخية عظم اهتمام الأندلسيين بتصنيف معاجم

---

(١) ابن الصلاح : علوم الحديث (ص ٣٤٣ - ٣٤٤).
(٢) لطفي عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا (ص ٦٦).

الأعلام وفهارس الكتب واتساع نشاط هذا اللون من الدراسات التاريخية والحضارية، وما من شك أن هذا يعود إلى المستوى الرفيع الذي بلغه الأندلسيون في العلوم والمعارف الإنسانية، ومن أمثلة تلك المعاجم ما ذكره العلامة ابن بشكوال في مقدمة كتابه الشهير «الصلة» من الكتب التي اعتمد عليها في تصنيف كتابه المذكور فأشار إلى كتاب طبقات القراء لأبي عمرو الداني وجذوة المقتبس للحميدي، والمؤتلف في فقهاء قرطبة لأبي عمر بن عفيف، وكتابه الآخر الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال، وتاريخ فقهاء طليطلة لأبي جعفر بن مظاهر، وفهرست شيوخ أبي عمربن مهدي المقرئ وغير ذلك[3].

ويلفت نظر الدارس للتاريخ الأندلسي مدى اهتمام الأندلسيين بتراجم أعلام وأعيان وطنهم. ولكن من الحق أن نشير إلى أن أول الدراسات التاريخية تقريبا كان يتناول تاريخا عاما وهو ما ألفه العلامة المحدث المؤرخ عبدالملك بن حبيب، فقد صنف كتابا تناول فيه تاريخ العالم من ابتداء خلق الدنيا وذكر ما خلق الله فيها ثم تاريخ آدم عليه السلام ومن بعده من الأنبياء والرسل حتى نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ثم الخلفاء، حتى إذا بلغ فتح الأندلس أفاض في ذكر الفتح وما غنمه المسلمون من الكنوز والغنائم والذخائر الثمينة، وحشد إلى جانب ذلك أساطير مختلفة عن الجن والطلاسم. وقد أكمل هذا الكتاب بعد وفاة مصنفه تلميذه ابن أبي الرقاع[4].

ورغم ظهور كثير من التآليف التاريخية الأندلسية إلا أن التراجم وكتب الطبقات غلبت على ما عداها من الدراسات التاريخية، وتفنن الأندلسيون في هذا اللون فكان البعض يصنف في سير علماء الأندلس كالذي قام به العلامة محمد بن حارث الخشني (ت ٣٧١هـ/ ٩٨١م) فقد صنف كتابه «تاريخ علماء الأندلس» والكتاب مخطوط يضم ١٨٢ ورقة مكتوبة بخط

---

(٣) الصلة، ج ١ (ص ٢ - ٣ - ٤).

(٤) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١٩٥)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (٢٧٤ - ٢٧٥)، وقد ذكر أحمد أمين أن من الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة اكسفورد بانجلترا وأن ليس له قيمة علمية كبيرة. وقد حققه د. محمود مكي ونشره بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.

أندلسي عتيق[٥].

وهذا الكتاب يعد من أوائل كتب التراجم الأندلسية، وقد اعتمد عليه ابن الفرضي في تأليفه لكتابه «تاريخ علماء الأندلس» وأشار اليه كأحد المصادر التي اقتبس عنها كثيرا من المعلومات[٦].

واتجه كثير من مؤرخي الأندلس إلى تأليف كتب تراجم أكثر تخصيصاً، فالخشني المذكور صنف كتابا في قضاة قرطبة، كما صنف العلامة عثمان بن ربيعة الأندلسي القرطبي (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م) كتابا في «طبقات شعراء الأندلس»، ومثله أيضا صنف العلامة محمد بن هشام بن عبدالعزيز المرواني (ت ٣٤٠هـ/ ٩٥١م) كتابا في «أخبار شعراء الأندلس». بل وجدنا بعض المؤرخين يصنفون تراجم حسب فنون العلم مثل ما ألفه ابن جلجل (كان حياً ٣٧٧هـ/ ٩٨٧م)، عن «طبقات الأطباء» ومحمد بن موسى (ت ٣٠٧هـ) عن «طبقات الكتاب» ومحمد بن الحسن الزبيدي (ت ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م) عن «طبقات النحويين». وذهب البعض إلى التصنيف في تراجم علماء ناحية من النواحي كتأليف أحدهم عن «أخبار شعراء البيرة» أو في ترجمة شخص ما كالذي ألفه حسين بن عاصم عن سيرة المنصور ونشاطه العسكري والسياسي وأسماه «المآثر العامرية»، ومثل ذلك ما ألفه احمد بن محمد الرازي في «سيرة عمر بن حفصون الثائر بريّه وحروبه ووقائعه»[٧].

وقد امتد هذا اللون من الدراسات التاريخية إلى عصر ملوك الطوائف فقد صنف المؤرخ صالح بن سيد كتابا سماه «وسطى السلوك» ذكر فيه بناء المعتمد لحصن الزاهر، وقد ضاع هذا الكتاب[٨].

---

(٥) المخطوط موجود بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم (٦٩١٦).

(٦) انظر مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب (ص ٦٦٩).

(٧) عن الدراسات التاريخية في الأندلس في عصر الخلافة انظر الحميدي: الجذوة، ص ١٩٣ ـ الضبي: البغية، (ص ١٥١)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢، (ص ٤٩١) ـ لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا، (ص ٦٨ ـ ٦٩). ورسالتنا لدرجة الماجستير عن الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة (ص ٢٨٠) وما بعدها.

(٨) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ٢ (ص ٧٦٢) ـ المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ١٣٢ ـ ١٣٣).

وهذا العلامة المؤرخ إبراهيم بن وزمور الحجاري الذي عاش في أواخر القرن الخامس الهجري ألف كتابا سماه «مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار» وقد صنفه بناء على طلب المأمون ملك طليطلة(٩).

وللمؤرخ أبي عبدالله محمد بن الخلف بن إسماعيل المعروف بابن علقمة (٤٢٨ - ٥٠٩هـ/ ١٠٣٦ - ١١١٦م) كتاب في تاريخ الأحداث التي وقعت بمدينة بلنسية على أيدي النصارى سماه «البيان الواضح في الملم الفادح»(١٠).

كما أرخ المؤرخ محمد بن يوسف الشلبي (عاش بين القرنين الخامس والسادس الهجريين) لسير وحياة بني عباد ملوك اشبيليه وألف في ذلك مصنفا أثنى عليه ابن الأبار وأشاد بما ضمه من معلومات تاريخية قيمة(١١).

ويذكر البغدادي أن المؤرخ الأديب الشاعر محمد بن عيسى اللخمي المعروف بابن اللبانة صنف تاريخا لبني عباد أسماه «الاعتماد في أخبار بني عباد»(١٢)، ولكن الكتب المعاصرة لحياة ابن اللبانة أو التي ألفت بعد وفاته بقليل لا تشير إلى هذا الكتاب. فابن بسام في ترجمته للمعتمد بن عباد ذكر إن ابن اللبانة صنف في تاريخ بني عباد كتابا سماه «نظم السلوك في وعظ الملوك»(١٣).

وهذا الكتاب أشار إليه أيضا ابن الأبار وذكر أيضاً من تآليف ابن اللبانة كتابين هما «مناقل الفتنة» و«سقيط الدرر ولقيط الزهر» وأنه سمع منه بعضها في المرية في محرم سنة (٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م)(١٤)، وبناء عليه فإننا نشك في نسبة كتاب «الاعتماد في أخبار بني عباد» إلى ابن اللبانة كما زعم البغدادي.

ولأبي بكر بن قاسم الشلبي كتاب في حياة الشاعر الوزير ابن

---

(٩) آنخل بالنثيا، مرجع سابق، (ص ٣٠٤).
(١٠) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤١١ - ٤١٢)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ١٨٤)، الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ٦٩).
(١١) الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٣٦).
(١٢) هدية العارفين، ج ٢ (ص ٨٣)، وذكر ذلك أيضا في إيضاح المكنون ج ٣ (ص ٩٨).
(١٣) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٦٢).
(١٤) تكملة الصلة، ج ١ (ص ٤١٠ - ٤١١)

عمار وزير المعتمد بن عباد[١٥]

وهكذا يلحظ المتتبع لمثل هذه الدراسات التاريخية سعة النشاط التأليفي وامتداده إلى فروع مختلفة وجوانب متعددة تتعلق بتاريخ هذا القطر وإعلامه وشخصياته اللامعة في السياسة والعلم. ولكننا نرى من الضروري الإشارة إلى أبرز مؤرخي هذا العصر الراقي بالعلم والعلماء.

وتجدر الإشارة أن عصر ملوك الطوائف اشتمل على أعداد كبيرة جدا من المؤرخين الذين أثروا هذا الجانب من العلم بالكثير من دراساتهم القيمة التي تنم عما بلغوه من مكانة علمية راقية، ووعي عميق بالتاريخ وقيمته بين العلوم الأخرى.

ففي هذا العصر أظهر العلامة الكبير والمؤرخ القدير علي بن أحمد بن حزم (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) في ميدان البحث التاريخي مقدرة كبيرة ورؤية عميقـة، فقد كان له نظرات فلسفية في تحديد الغايات من وراء دراسة التاريخ كالتزهيد في متاع الدنيا واتباع القدوة الحسنة، والعبرة بالفناء وتمييز الصواب من الخطأ في الأخبـار، وإمتـاع النفـس بإطلاعهـا على أخبار الأمم الماضية، وللتاريخ عنده أهمية بالغة في بناء شخصية الإنسان من الناحية الأخلاقية والنفسية[١٦].

وشخصية ابن حزم التاريخية تستند إلى روافد ثقافية متنوعة، فقد كان واسع الاطلاع على المصنفات التاريخية السابقة ومناهج أصحابها، كما أنه درس التـوراة والأنجيل واطّلع على تاريخ هورشيوش، هذا بالإضافة إلى دراساته المتعددة لتواريخ عصره، ولقائه العلماء والشيوخ، وما جناه من تجارب ومشاهدات شخصية إبان حياته في الدولة الأموية وبعد توليه الوزارة ثم بعد زوال سلطان بني أمية وانتقاله في بلدان الأندلس المختلفة، كل هذا أكسبه حصيلة علمية مع تمتعـه بالذكاء الحاد والبصيرة النافذة، وتولد عن ذلك خاصيتان هما أهم ما يحتاج إليها المؤرخ وهما القدرة على التصور الصحيح،

---

(١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٧٣).
(١٦) إحسان عباس : رسائل ابن حزم، ج ٢ (ص ١٠).

والنقد الدقيق[١٧].

ومن أبرز إسهامات ابن حزم في التأليف التاريخي كتابه «جمهرة أنساب العرب» الذي وصف بانه أوسع كتب الأنساب و أشملها مع الإيجاز، وكان لثقافته الواسعة واطلاعه الشامل على كتب التاريخ ودراسته ـ للتوراة ـ كما ذكرنا آنفا ـ أثره الواضح في علو قيمة الكتاب[١٨].

وكـان لتـوسـع ابن حزم في فنـون المعرفة، وإلمامه بالعديد من العلوم المختلفة، وخاصة العلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير والعقائد أثر فيما توصل إليه من نتائج علمية قيمة في ميدان التاريخ والأنساب. وكان لعكوفه الطويل على دراسة كتب اليهود والنصارى وبحثه في تواريخهم وسيرهم قد ولد لديه نظرات صائبة وآراء حكيمة في دراسته لمذاهبهم ودياناتهم التي تناولها في كتابه الفصل، . مما آزره وشد عضده في الدفاع عن الإسلام ضد مزاعم اليهود والنصارى ومن يجري مجراهم. هذا بالإضافة إلى وضوح طريقته في ذكر أنساب بني إسرائيل وقبائلهم المختلفة كما يلاحظ في كتابه عن الأنساب.

ويجدر بنا أن نشير إلى ما أسهم به ابن حزم من دراسات قيمة عن الأديان والمذاهب في كتابه العظيم «الفصل في الملل والأهواء والنحل» وتعتبر كتاباته في هذا المصنف تاريخا نقـديًّا للأديان والفـرق والمـذاهب على اختـلافها كالسفسـطائيين الملحدين مرورا بالنصارى ثم اليهود ثم الفرق الإسلامية ومعتقداتها المختلفة، ثم جوانب من سير الأنبياء عليهم السلام ليختم حديثه عن قضايا متعددة في الحياة والفلسفة والعلم. ويستطيع القارئ أن يقف على عظم ما حواه ذلك الكتاب القيم من معلومات تاريخية إذا ألقى نظرة على فهارسه[١٩].

---

(١٧) إحسان عباس : رسائل ابن حزم (ص ١٠) وما بعدها، وانظر فيها أيضا آراء قيمة حول منهج ابن حزم في التاريخ.

(١٨) انظر ابن حزم : جمهرة أنساب العرب. الجزء الخاص بأنساب بني إسرائيل وقد استند في كتابته على ما قرأه من التوراة، وانظر مقدمة للمحقق عبدالسلام هارون.

(١٩) انظر بعض الآراء من هذا الكتاب «الفصل» لدى: عبدالحليم عويس: ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري (ص ٣٤٠ ـ ٣٤١)، ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٣ (ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٢١)، أحمد هيكل: الأدب الأندلسي (ص ٣٦١ ـ ٣٦٢).

وقام المستشرق الاسباني (ميجيل اسين بلاسيوس) بترجمة كتاب الفصل إلى الاسبانية وصدّر الترجمة بمقدمة حافلة تقع في مجلد تحدث فيها عن ابن حزم ومكانته وفضله في تاريخ الفكر الديني، واعترف له بحيازته قصب السبق في هذا الميدان وتميزه من غيره من السابقين بمنهجه العلمي النقدي الذي لم يعرفه مؤرخو الأديان في أوروبا إلا في القرن العشرين[٢٠].

ولابن حزم آثار أخرى منها عدد من الرسائل التاريخية جمع بعضها وحققها إحسان عباس في كتاب أسماه «رسائل ابن حزم الأندلسي» وهذه المجموعة تضم الرسائل التالية:

١ ـ رسالة نقط العروس في تاريخ الخلفاء ويطلق عليها «رسالة في النوادر والغرائب».

٢ ـ رسالة في أمهات الخلفاء.

٣ ـ رسالة في جمل فتوح الإسلام.

٤ ـ رسالة في أسماء الخلفاء.

٥ ـ رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها.

٦ ـ رسالة في ذكر أوقات الأمراء وأيامهم في الأندلس.

٧ ـ فصل في ذكر أوقات الحكام من بني إسرائيل.

٨ ـ شذرات من روايات تاريخية.

وأهم هذه الرسائل هي الرسالة الأولى وتتضمن تناقضا بين اهتمام ابن حزم بالألقاب وكراهيته لها، وتشتمل الرسالة على معلومات مختلفة خارجة عن عنوان الرسالة[٢١].

والرسالة تحوي بعض المعلومات القيمة النادرة التي تساعد الباحثين في دراسة النواحي الاجتماعية في الدولة الإسلامية.

والرسالة مهمة أيضا في كونها خير معين لمن يبتغي دراسة نظام الخلافة

---

(٢٠) انظر آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٢١)، وقد ترجمت هذه المقدمة إلى العربية بعناية الطاهر مكي.

(٢١) إحسان عباس : رسائل ابن حزم (ص ٣١ ـ ٣٢)، وانظر شرحا عن تلك الرسائل في نفس الكتاب (ص ٢٩ ـ ٣٨)، وقد طبع هذا الكتاب بالمؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، سنة ١٩٨١م.

الاسلامية والاطلاع على ما تتصف به في مراحلها المختلفة من إيجابيات وسلبيات[٢٢].

وإضافة إلى ذلك فإنه لكي يفهم الباحث ذلك اللون من الأدب الذي ارتبط بالملوك وأحداث التاريخ كان من الضروري دراسة المصنفات التاريخية ومن بينها هذه الرسالة التي تكشف عن كثير من المعلومات القيمة النادرة[٢٣].

ورسالته الخامسة في «فضل الأندلس» ذات قيمة كبيرة وقد أوردها المقري في كتابه نفح الطيب، وتعد هذه الرسالة ثبتا بما أنتجه كثير من علماء الأندلس في شتى حقول المعرفة، ولو أن ابن حزم اغفل الكثير من العلماء المبدعين فلم يتطرق إلى إنتاجهم العلمي، ولعل هذا ما حدا بابن سعيد (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) إلى تذييلها برسالة أخرى استدرك فيها ما فات ابن حزم من علماء عصره وأضاف إلى ذلك ما تلا عصر ابن حزم من كبار العلماء وأشهرهم[٢٤].

وجدير بالذكر أن في هذه الرسالة التاريخية ما ينم عن سعة ثقافة ابن حزم واطلاعه الواسع على تيار الحركة الفكرية في وطنه، فهو يشير في أكثر من جانب في تلك الرسالة إلى أنه اطّلع على تآليف علماء وطنه كقوله ـ بعد ان أورد عددا من كتب التاريخ والسير (فقد رأيت من ذلك كتبا مصنفة في غاية الحسن). وكقوله فيما يتصل بالشعر (ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى رأيت منها «أخبار شعراء البيرة») وكقوله عن كتاب الطبيب الزهراوي «التصريف» (ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن) وفي الفلسفة قوله (رأيت فيها رسائل مجموعة وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي . . .)

ولابن حزم في التاريخ أيضا كتاب «جوامع السيرة» في سيرة رسول الله ﷺ

---

(٢٢) انظر مقدمة محققها د. شوقي ضيف والمنشورة في مجلة كلية الآداب، المجلد ١١٣، الجزء الثاني، ديسمبر ١٩٥١م.

(٢٣) مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب (ص ٧٠١).

(٢٤) انظر : نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٥٦) وما بعدها، (ص ١٧٩) وما بعدها.

وهو يضم كل ما يتصل بسيرته ﷺ ومبعثه ومعجزاته وحجه وعمراته وصفته وأسمائه وكتابه ورسله ونسائه وأولاده وأخلاقه ثم ما يتعلق بالمسلمين الأوائل من دخول الإسلام وما لاقوه من تعذيب، ثم بيعة العقبة، وأخيرا هجرة المصطفى عليه السلام وغزواته وبعوثه فحجة الوداع فوفاته عليه الصلاة والسلام[٢٥].

ويمكن أن نشير إلى ما حفظ لابن حزم من آراء تتعلق بأوضاع عصره السياسية، فقد كان يرى أن دولة بني أمية هي أنبل الدول وأكثرها جهادا ضد أعداء الإسلام، وينظر إلى ملوك عصره على أنهم مغتصبون ومفسدون في الأرض، وقد توقع انهيار الحكم الإسلامي بانهيار دولة الخلافة الأموية في الأندلس[٢٦].

وكان لهذه الجهود الكبيرة لابن حزم في ميدان الدراسات التاريخية أثر في انصراف بعض الباحثين إلى تتبع نشاطه العلمي في التاريخ، ومن هؤلاء الباحثين عبدالحليم عويس الذي ألف كتابا بعنوان «ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري»، كما أن إحسان عباس جمع بعض رسائل ابن حزم كما أسلفنا وشرحها وحققها وكشف بذلك عن وجوه الإبداع في شخصية ابن حزم التاريخية.

وفي مملكة طليطلة نبغ العلامة الكبير صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد الطليطلي (٤٢٠ - ٤٦٢هـ/ ١٠٢٩ - ١٠٦٩م) وكان مولده بالمرية وأصله من قرطبة، وعرف بمهارته الواسعة في أكثر من علم، فأخذ علومه عن علماء عصره كابن حزم الآنف الذكر وأبي الوليد الوقشي وغيرهم، ولما كان بارعا في علوم الدين فقد استقضاه ملك طليطلة المأمون على قضاء مدينته ومركز ملكه، وقد أظهر في عمله هذا كفاءة جيدة وحُفِظت عنه

(٢٥) طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذين إحسان عباس وناصر الدين الأسد وذلك بدار المعارف بمصر، وانظر مؤلفات تاريخية أخرى لابن حزم لدى عبدالحليم عويس: ابن حزم وجهوده في البحث التاريخي (ص ١١٧) وما بعدها، وآنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٢٠) أحمد هيكل: في الأدب الأندلسي (ص ٣٦٣ - ٣٦٤)، عبداللطيف شرارة: ابن حزم (ص ١١٣)، عبدالرحمن الحجي: أندلسيات (ص ١٢١ - ١٢٢).

(٢٦) انظر: الكتب نقد وعرض (جوامع السيرة وخمس رسائل اخرى) تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد) مقال بمجلة معهد الدراسات بمدريد، ج ٤ العدد ١ - ٢ (ص ١٨٨) وكذلك.
Dozy : Spanish Islam. P,576.

اجتهادات فقهية في ميدان القضاء[٢٧].

ولكن شهـرة القاضي صاعد كانت نابعة من مصنفه القيّم في التاريخ المسمى «طبقـات الأمم»، وهـذا الكتـاب يعد من ذخائر الفكر التاريخي الأندلسي، فمؤلفه صاعد استطاع ببصيرته النافذة ونظرته العميقة في تراث الفكر العالمي أن يجمع في كتابه ذلك على صغر حجمه ألوانا من ذلك التراث مشيرا إلى حياة العديد من الأمم وطبائعها وسماتها وجهودها في رقي العلوم، القديمة فتحدث عن الفرس والكلدانيين واليونان والروم والسريان والقبط والهنود والصينيين والعرب في جاهليتهم ثم في الإسلام حتى يخلص إلى أهل بلده «الأندلس» فيعرض لأبرزهم في علوم الأوائل، وما قدموه في هذه العلوم[٢٨].

وقد أثنى جايانجوس على الجزء الذي تحدث فيه القاضي صاعد عن اليونان والرومان وماتم في عصريهما من نشاط علمي وأبرز العلماء آنذاك لكون ذلك صادراً عن مؤرخ عربي منصف وفيه ما يدل على ما عرفه العرب من علوم اليونان والرومان[٢٩].

والقـاضي صاعـد من نوابغ علماء طليطلة واحد مفاخرها بل الأندلس كلها، ويماثله في التفوق العلمي في علوم الدين وعلوم الأوائل الفيلسوف الفقيه ابن رشد (٥٢٦ ـ ٥٩٥هـ/ ١١٣٠ ـ ١١٩٨م)[٣٠].

وقـد جانب حاجي خليفـة الصـواب عندما ذكر تاريخ وفاته في سنة ٢٥٠هـ[٣١]، كما أن البغدادي ذكر ذلك التاريخ المغلوط[٣٢]، والصحيح ما أشرنا إليه آنفا. ولصاعد كتب أخرى في التاريخ غير أنها ضاعت ولم تصلنا فمنها «جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم» و«مقالات أهل النحل والملل»

---

(٢٧) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج ٢ (ص ١١).
(٢٨) نشر الكتاب بتحقيق حياة بوعلوان وطبع بمطبعة دار الطليعة بيروت ١٩٨٥م.
(٢٩) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠).
Scott: History of the Moorish Empire in Europe, Vol. IIIp. 468.
(٣٠) شكيب أرسلان: الحلل السندسية، ج ٢ (ص ١٨).
(٣١) كشف الظنون، ج ٢ (ص ١٠٨٣).
(٣٢) هدية العارفين، ج ١ (ص ٤٢١).

وينسب إليه «صوان الحكم في طبقات الحكماء» و«تاريخ الأندلس» و«تاريخ الإسلام»[٣٣].

ونبغ في مملكة دانية ثم في مملكة بطليوس العلامة الموسوعي يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري (٣٦٢ ـ ٤٦٠هـ/ ٩٧٢ ـ ١٠٦٧م) والذي أسهم إسهاما فعالا في ازدهار كثير من العلوم ومن بينها التاريخ والأنساب والتراجم[٣٤]، ومن أهم مآثره كتابه القيم المسمى «الاستيعاب» في أسماء المذكورين في الروايات والسير والمصنفات من الصحابة رضي الله عنهم، والتعريف بهم وتلخيص أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم على حروف المعجم ويقع في اثني عشر جزءا، وكتاب «الدرر في اختصار المغازي والسير» في ثلاثة أجزاء، وكتاب «أخبار أئمة الأمصار» في سبعة أجزاء[٣٥].

ويعد كتاب «الاستيعاب» من أهم كتب التراجم التي تناولت حياة الصحابة رضي الله عنهم والتي يُعتمد عليها في معرفة سيرهم وأخبارهم فهو لهذا عظيم القدر غزير الفوائد، ونال من العلماء كل استحسان وإعجاب فوصفه ابن خير في الفهرست بأنه مفيد جليل حافل يطابق اسمه معناه[٣٦]. وقال فيه ابن حزم «ليس لأحد من المتقدمين مثله على كثرة ما صنفوا في ذلك»[٣٧].

وقد فاق ابن عبدالبر من سبقه من المؤلفين في تاريخ الصحابة؛ إذ إن ابن عبدالبر أكد على الجانب التاريخي في تراجم الصحابة وانتقد من سبقه لأنهم أغفلوا ذلك. وقد أثنى عليه ابن الأثير وامتدح منهجه التاريخي[٣٨].

وعلى الرغم مما تقدم فان ابن حجر العسقلاني (٧٧٣ ـ ٨٥٢هـ/ ١٣٧١

---

(٣٣) انظر الزركلي: الاعلام ج ٣ ص ١٨٦ ـ ويذكر ان لصاعد كتاباً في التاريخ منه نسخة بمكتبة بولادين.

(٣٤) انظر عن مصنفاته التاريخية المطبوعة والمفقودة ليث سعود جاسم: ابن عبدالبر الاندلسي وجهوده في التاريخ، ص ٢٢٣ وما بعدها. (٣٥) الحميدي: الجذوة (ص٣٦٨ ـ ٣٦٩)، الضبي: البغية (ص٤٨٩ ـ ٤٩٠)، ابن بشكوال: الصلة، ج ٢ (ص ٦٧٧ ـ ٦٧٨ ـ ٦٧٩)، وانظر ابن جابر: برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ٢١١ ـ ٢١٥)، وفيه ان الاستيعاب طبع بتحقيق محمد علي البجاوي بمصر بدون تاريخ في أربعة أجزاء (ص ٢١٥)، ح رقم ١، وكتاب الدرر طبع بمصر سنة ١٩٦٦م بتحقيق د. شوقي ضيف (ص ٢١١) ح رقم ١.

(٣٦) فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٢١٤).

(٣٧) نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٧٠) نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس.

(٣٨) ليث سعود جاسم: ابن عبدالبر الأندلسي وجهوده في التاريخ، (ص ٢٩٧).

ـ ١٤٤٨م)، يذكر في مقدمة كتابه «الإصابة» أن ابن عبدالبر سمى كتابه الاستيعاب لظنه أنه استوعب الأصحاب رضي الله عنهم مع انه فاته شيء كثير[٣٩].

وقد ذيل على كتاب الاستيعاب المؤرخ أبوبكر محمد بن خلف بن سليمان (ت ٥١٩هـ/ ١١٢٥م) بكتاب وصف بالجودة والنفاسة، كما صنف كتابا آخر نبه فيه على أغلاط في نفس الكتاب سماه التنبيه[٤٠].

وصنف ابن عبدالبر في السيرة النبوية كتابه القيّم «الدرر في اختصار المغازي والسير»، ولما كان مؤلفه إماما في التاريخ والحديث فقد كان هذا الكتاب مصدرا غنيا لمن صنف بعد ذلك في هذا الجانب من التاريخ الإسلامي أمثال ابن حزم والسهيلي والكلاعي من الأندلسيين وابن سيد الناس وابن كثير والصالحي من أهل المشرق[٤١].

ولابن عبدالبر أيضا في التاريخ «الإنباه على قبائل الرواه» عن النبي ﷺ» بما انضاف إلى ذلك من أنساب العرب ويعد هذا الكتاب مدخلا لكتاب الاستيعاب الآنف الذكر[٤٢].

وصنف ابن عبدالبر أيضاً كتاباً صغيراً أسماه «القصد والأَمَم في معرفة أخبار العرب والعجم»[٤٣]، وعلى الرغم من صغر حجم الكتاب وقلة ما احتوى من المعلومات التاريخية إلا أنه حظي باهتمام كبير من قبل بعض الدارسين الغربيين، فكراتشكوفسكي وصف هذا الكتاب بأنه رسالة صغيرة تقع في عشرين صفحة، وأنها لا تتضمن شيئا عن العرب بل تدور حول أصول الشعوب الأخرى التي ورد ذكرها في الحديث، وأن العلامة شيفير Schefer كان مصيبا في نشره لقطعة من الرسالة مقرونة بترجمة فرنسية، وهي القطعة التي تتضمن الإشارة إلى وجود قبائل الإينو Aino في شمال الصين، وعلى الرغم من أن أحد العلماء وهو فيران Ferrand أبدى تشككه في تلك

---

(٣٩) الأصابة، ج ١ (ص٣).
(٤٠) عياض : الغنية (ص ٨١)
(٤١) ليث سعود : ابن عبدالبر، (ص ٢٧٢).
(٤٢) ابن خير : فهرست ما رواه عن شيوخه (ص ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٤٣) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٨٢).

الإشارة إلّا أن ذلك لم يمنعه من الاستشهاد بما ذكره ابن عبدالبر حول مسألة علاقة الصين بسكان الملايو[٤٤].

ولابن عبدالبر مصنفات أخرى لها صلة بالتاريخ والتراجم ككتابه «الاستغناء في أسماء المشهورين من حملة العلم بالكنى» وكتاب «الانتقاء» في فضائل الثلاثة مالك والشافعي وأبي حنيفة[٤٥].

وبناء عليه يتضح لنا مدى ما تمتع به ابن عبدالبر النمري من نشاط علمي في هذا الحقل، وعظم مشاركته في إثرائه بنفائس التصانيف وأرفعها حتى قيل إنه (كان مع تقدمه في علم الأثر، وبصره بالفقه ومعاني الحديث له بسطة كبيرة في علم النسب والخبر)[٤٦].

وأخيراً فقد كان لثقافة ابن عبدالبر الموسوعية أثر في كتاباته التاريخية فهو يقدم مادة تاريخية موثقة بلغة سهلة واضحة مقبولة ولايفوته الاستنباط والتحليل، واهتمامه بالسنة وذكر الأحكام الفقهية خلال سرد الأحداث التاريخية، وكثرة استشهاده بالشعر كمعضد للخبر التاريخي[٤٧].

ونأتي الآن إلى ذكر أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس في تاريخها وهو المؤرخ القدير حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي، ويكني بأبي مروان (٣٧٧ ـ ٤٦٩هـ/ ٩٨٧ ـ ١٠٧٦م) «من أعلام الدولة الجهورية» وقد نشأ نشأة علمية حيث تلقى علومه في اللغة والأدب على يد أبي عمر بن أبي الحباب النحوي صديق أبي على القالي، كما درس الأدب أيضاً على الأديب صاعد بن الحسن الربعي وأخذ عنه كتاب «الفصوص»، وأخذ الحديث عن العلامة عمر بن حسين بن نابل وغيرهم[٤٨].

ويسق أبومروان في التاريخ والأدب مما هيأ له مكانا عليا في الدولة العامرية

---

(٤٤) الأدب الجغرافي العربي، القسم الاول (ص٢٧٣).

(٤٥) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه (ص ٢١٤، ٢٨١). وكتاب الاستغناء مخطوط ويذكر ليث سعود جاسم ان أحد الطلاب الدارسين بالجامعة الإسلامية بالمدينة قد قام على تحقيقه في السنة الدراسية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، وأما كتاب الانتقاء فهو مطبوع.

(٤٦) ابن بشكوال : الصلة، ج ٢ (ص ٦٧٩).

(٤٧) ليث سعود: ابن عبدالبر (ص ٤٠٥).

(٤٨) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص١٥٣ ـ ١٥٤)، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٢ (ص ٢١٨ ـ ٢١٩)، محمد عنان : تراجم إسلامية (ص ٢٧٢).

حيث انتظم في سلك وظائفها فشغل وظيفة صاحب الشرطة أو صاحب المدينة لفترة من الزمن[٤٩].

ونظرا لبراعته في التاريخ وجودة إنشائه وجمال أسلوبه في الكتابة التاريخية فقد عُين في وظيفة علمية تقوم على إملاء التاريخ في ديوان الرئيس أبي الوليد بن جهور بمرتب كبير[٥٠].

وتتجلى لنا مكانة ابن حيان التاريخية فيما خلّفه من دراسات وكتابات تاريخية نفيسه يأتي في مقدمتها كتابه «المقتبس» ويقع في عشرة أجزاء و«المتين» في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلدا[٥١]، وله كتب أخرى مثل «البطشة الكبرى في تاريخ الدولة العامرية» و«كتاب انتخاب من أخبار القضاة»[٥٢].

ورغم المنزلة العظيمة التي نالها ابن حيان بين مؤرخي عصره ومن أتى بعده إلاّ أنه مع بالغ الأسف لم تصلنا مصنفاته كاملة، وكل ما وصلنا قطع متفرقة من كتابه المقتبس.

فالقطعة الأولى عثر عليها ليفي بروفنسال في خزانة القرويين بفاس وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (١٨٨هـ - ٢٣٢ هـ/ ٨٠٣ - ٨٤٦م)، وتقع في ستين لوحة لم تنشر، ولم يعثر عليها بعد وفاة بروفنسال.

أما القطعة الثانية فهي محفوظة بخزانة جامع القرويين بفاس، وتقع في خمس وتسعين لوحة وتحتوي على تاريخ الأندلس من سنة (٢٣٢ - ٢٦٧هـ/ ٨٤٦ - ٨٨٠م)، أي إنها متممة لما قبلها وقد قام على نشرها وتحقيقها د. محمود علي مكي سنة ١٩٧٣م.

والقطعة الثالثة تضم مائة وسبع لوحات وتتناول التاريخ الأندلسي من سنة (٢٧٦ - ٣٠٠هـ/ ٨٨٩ - ٩١٢م)، وقام على نشرها الراهب الاسباني ملتشورا انطونيا بباريس سنة ١٩٣٧م.

---

(٤٩) ابن خير : فهرست مارواه عن شيوخه (ص ٣٢٦)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢٠٨)، وانظر مقدمة محمود مكي للقطعة الثانية من المقتبس (ص ٤٣ - ٤٤).

(٥٠) انظر مقدمة محمود مكي للقطعة الثانية من المقتبس (ص ٤٤ - ٤٥).

(٥١) الصفدي : الوافي، ج ١ (ص ٤٩). المقري : النفح، ج ٣ (ص ٤٩).
وانظر Jan Read: The Moors in Spain and portugal, P.100

(٥٢) انظر مقدمة عبدالرحمن الحجي في تحقيقه للقطعة الرابعة من المقتبس (ص ١٤).

والقطعة الرابعة تضم تاريخ أربعة اعوام من حكم الخليفة المستنصر من سنة (٣٦٢ ـ ٣٦٥هـ/ ٩٧٢ ـ ٩٧٥) وقام بنشرها وتحقيقها د. عبدالرحمن الحجي سنة ١٩٦٥م.

وأخيراً أحدث القطع وهي خاتمة ما عثر عليه من المقتبس وتعد هذه القطعة أهم القطع وأنفسها، وقد عُثر عليها بين محتويات الخزانة الملكية بالرباط، وتتعلق بعصر الخليفة عبدالرحمن النصر فتبدىء من سنة ٣٠٠هـ، وتنتهي بسنة ٣٣٠هـ (٩١٢ ـ ٩٤١م)، وقد نشرت هذه القطعة بعناية بعض الباحثين وهم تالميتا و. ف. كورنيطي وم. صبح بالمعهد الاسباني العربي للثقافة بمدريد ١٩٧٩م.

ويستهل ابن حيان هذا الجزء من كتابه بالحديث عن الخليفة الناصر ونسائه وأبنائه، وموقفه من مذهب ابن مسرة، وسعيه للقضاء على حركته وأفكاره ولم يمنع ذلك ابن حيان من نقد الخليفة فذكر عيوبه وسقطاته[٥٣].

وابن حيان، كشأن من سبقه من المؤرخين، يعتمد على من قبله منهم كالمؤرخ أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى، كما ينقل عن ابن الفرضي في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» وعن يوسف بن عبدالله الوراق الذي يصفه بأنه حافظ المغرب، ويأخذ عن أعلام المؤرخين الآخرين كابن القوطية، ومحمد بن حارث الخشني، ومعاوية بن هشام، وابن عبدالبر النمري، والحسن بن محمد القبشي، وإسحاق بن سلمة؛ على أن أكثر اعتماده كان على المؤرخ أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى.

وابن حيان في كتاباته التاريخية يبدو حريصا على استقصاء ما يمكن استقصاؤه من الوثائق التاريخية. فيورد منها مالا نكاد نجده في أي مصدر آخر من مصادر التاريخ الأندلسي، ومثال ذلك البيان الذي أصدره الحكم بن هشام بعد ثورة الربض المشهورة سنة (٢٠٢هـ/ ٨١٨م) وكتاب الخليفة الناصر عن حركة ابن مسرة ومذهبه وتعاليمه[٥٤].

---

(٥٣) انظر ابن حيان: المقتبس، القطعة أو الجزء الخامس (ص ٣٧ ـ ٣٩).
(٥٤) محمد عنان : تراجم إسلامية (ص ٢٧٥)، وانظر كذلك مقدمة محمود مكي للجزء الثاني من المقتبس(ص ٩١).

وفيما يتعلق بمصادره عن الدولة العامرية وكتابه «المتين» فهي تختلف تماما عن مصادره في المقتبس، فحياته التي قضى شطراً منها في الدولة العامرية أكسبته الكثير من الخبرات والمشاهدات الشخصية، وعلاقاته اليومية بالدولة العامرية ورجالها بالإضافة إلى اعتماده على آراء والده خلف الذي عمل كاتبا للحاجب المنصور، واقتباسه الكثير من المعلومات من كُتّاب المنصور، كل ذلك أكسب كتاباته التاريخية طابع الصدق والموضوعية، وكان حريصا أيضاً على لقاء من لهم علاقة بالأحداث والقضايا التي يكتب عنها فيسأل من شارك في صنعها أو شاهدها، ونراه يعتمد على الفقيه عبدالرحمن بن محمد القرطبي في كتابته عن الفتنة البربرية الواقعة بين سنتي (٣٩٤ ـ ٣٩٩هـ/ ١٠٠٤ ـ ١٠٠٩م)، والتي انتهت بمقتل عبدالرحمن شنجول[٥٥]، كما نقل عن الكاتب أحمد بن برد وعن صديقه ابن زيدون وغيرهم من الأدباء والعلماء. ونجد ابن حيان أيضاً يُعنى بتوثيق علاقاته مع أصدقائه في المدن الأخرى ويرغب إليهم في الكتابة إليه بما يحدث في مدنهم وبلدانهم من أحداث ووقائع حتى إذا وصلته رسائلهم اطلع على مابها من معلومات تاريخية يضيفها إلى كتاباته وتسجيلاته التاريخية[٥٦].

وتتجلى في كتابات ابن حيان أهم صفات المؤرخ القدير، وهو الالتزام بالموضوعية وتحري الحقيقة والالتزام بالصدق والصراحة في آرائه وعدم التملق والتزلف، فهو يدلي برأيه من غير تحامل أو هوى[٥٧].

وإذا نحن طالعنا كتب مؤرخي العصور الوسطى سواء كانت إسلامية أو غيرها نجد أكثرها كتبت في ظل الرغبة أو الرهبة، فلم تسلم من أحط آفة على التاريخ وهي الكذب والتزوير، فأكثر مؤرخي الأندلس قبل ابن حيان

(٥٥) انظر ما يدل على ذلك ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧).

(٥٦) انظر مقدمة محمود مكي للجزء الثاني من المقتبس (ص ٨٩) وما بعدها، وكذلك ابن بسام: الذخيرة، ق ١ ج ٢ (ص ٥٧٤).

(٥٧) ابن بشكوال : الصلة (ص ٢١١)، ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ١١٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢ (ص ٢١٨ ـ ٢١٩)، أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧)، البستاني: دائرة المعارف ج ٧ (ص ٣٠٣)، آنخل بالنثيا: مرجع سابق (٢١٠ ـ ٢١١)، مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب (٧٠١) وما بعدها.

كابن عبدربه وآل الرازي وابن القوطية وعريب بن سعد كانوا يعيشون تحت مظلة الدولة الأموية، وكانت كتاباتهم تسيرها أهواء الخلفاء والأمراء فتسجل الأحداث والوقائع التاريخية حسب ما يروق لهم ويحذف منها ما لا يوافق سياستهم أو ينسجم مع أهوائهم وميولهم. والذين خلفوا ابن حيان في عصر المرابطين كالصيرفي وفي عهد الموحدين كالبيذق والقطان كانوا هم أيضا واقعين تحت تأثير علاقاتهم بملوكهم فخلعوا عليهم كثيرا من الصفات تنافي حقيقة الأمر ويكذبها الواقع، أما ابن حيان فهو وحده تقريبا الذي استطاع أن يحطم قيود الرهبة ويخلص من التهافت على أعتاب الملوك والحكام، فكان تاريخه ذخيرة قيمة نفيسة قوامها الصدق والنزاهة[٥٨].

ولا يعني هذا أن ابن حيان لم يتصل بأحد من ملوك عصره، بل رأيناه كما سبق القول يعمل في الدولة العامرية، ثم في الدولة الجهورية، وأخيرا نجده يهدي كتابه «المتين» إلى المأمون بن ذي النون ملك طليطلة فيقول في مقدمة كتابه بعد أن ذكر مسلكه في تأليفه وما ينصب عليه من أحداث (وكنت اعتقدت الاستئثار به لنفسي، وخبأه لولدي، والضن بفوائده الجمة على من تنكب إحمادي به إلى ذمي ومنقصتي، طويت على ذلك كشحا وأوجبته عزما، إلى أن رأيت زفافه إلى ذي خطبة سنية أتتني على بعد الدار، أكرم خاطب وأسنى ذي همة الأمير المؤثل الإمارة المأمون ذي المجدين الكريم الطرفين، يحيى بن ذي النون)[٥٩].

وأسلوب ابن حيان في التاريخ أسلوب رفيع بليغ فقد كان في كتاباته التاريخية ثاقب النظر عميق الفكر يبدي رأيه وحكمه فيما يعرض من قضايا ويسعى إلى الكشف عن أسباب الوقائع ويناقش كل ذلك في علم وفهم وذكاء، هذا مع التزامه أسلوباً قويا صافيا غير ركيك ولا ضعيف[٦٠].

ومما يميز كتاباته التاريخية حرصه الشديد على الدقة والضبط فقد فاق بهما

---

(٥٨) مقدمة محمود مكي على الجزء الثاني من المقتبس لابن حيان (ص ١٢٥).
(٥٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٥٧٨).
(٦٠) أنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢١١)، أحمد هيكل: الأدب الأندلسي (ص ٣٦٦)، عبدالرحمن الحجي: أندلسيات (ص ١٠٢).

كل مؤرخ قبله، فهو يغربل ما بين يديه من معلومات تاريخية بميزان نقدي علمي سابق لعصره حتى كأنه من نتاج هذا العصر، كما أنه كان معنيا باستقصاء أخبار الوقائع والأحداث وما يتعلق بها من أقوال وآراء فلا يكاد يغرب عنه شيء مهما صغر ودق مع المعرفة التامة بقيمة هذه الأشياء الصغيرة التي كثيرا ما تكمل الصورة الكبرى للأحداث والشخصيات، فقيمتها لا تقل عن تسجيل عظائم الأحداث، والخيط الدقيق أو الشعرة الفاصلة بين الأمرين شيء لا يفطن إليه إلا من أوتي الحاسة التاريخية التي يندر وجودها إلّا مع القليل[٦١].

ومنهج ابن حيان في الكتابة التاريخية مزيج بين طريقة الفصول ومنهج الحوليات فيما يخص الغزوات والأحداث العسكرية، ويتخلل تلك المعلومات تراجم للكثير من الشخصيات البارزة في ذلك العصر.

وأخيرا فان ابن حيان بمنهجه العلمي المتميز، وطريقته الفريدة في عرض التاريخ إلى جانب ما تمتع به من صفات المؤرخ القدير قد فرض مكانته العلميه ومنزلته السامية في علم التاريخ على جميع المهتمين بالدراسات التاريخية وخاصة الأندلسية منها، حتى عد أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس في تاريخها والغرب كله الإسلامي والمسيحي منه على السواء طوال العصور الوسطى، بل لا نغالي إذا قلنا إنه يقف موقف الند مع فحول مؤرخي المشرق أمثال أبي الحسن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، والمؤرخ الفذ ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، فابن حيان جمع في أسلوبه القوي بين البلاغة التي اتسم بها المسعودي، وروح التحقيق التي تميز بها ابن الأثير[٦٢].

ومن مملكة بني عباد باشبيلية ظهر المؤرخ محمد بن عيسى المعروف بابن مزين (ت بعد ٤٧١هـ/١٠٧٩م)، ويبدو أنه كان من كبار المساهمين في نشاط الدراسات التاريخية، فقد صنف كتابا في تاريخ الأندلس كثرت الإشارة

---

(٦١) مقدمة محمود مكي على الجزء الثاني من المقتبس لابن حيان (ص ١٠٦ ـ ١٠٧)، وانظر كذلك لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٢٨١).

(٦٢) محمد عنان : تراجم اسلامية (ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

إليه ممن جاء بعده من المؤرخين الذين اعتمدوه كمصدر نفيس[٦٣].

ويشير آنخل بالنثيا إلى أن من بين أهم ما أشار إليه من معلومات تاريخية قيمة، حديثه عن «الرايات» التي دخلت الأندلس مع الجيش الإسلامي الفاتح، والقبائل العربية التي كانت تنضوي تحت تلك الرايات، كما أنه أفرد في كتابه فصلا هاما عن الملكية العقارية في الأندلس بعد الفتح[٦٤].

لكن الباحث في شك من مدى صحة نسبة هذه المعلومات إلى ابن مزين، فالحق أن خبر الرايات منسوب إلى المؤرخ محمد بن موسى الرازي (ت ٢٧٣هـ/٨٨٦م)، يدل على هذا ما ذكره محمد بن عبدالوهاب الغساني سفير الملك إسماعيل ملك المغرب إلى كارلوس الثاني ملك اسبانيا فقد أورد في كتابه «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» إشارة عظيمة الفائدة عن كتاب الرايات لمؤلفه محمد بن موسى الرازي فيقول «قال محمد بن مزين وجدت في خزانة باشبيلية سنة ٤٧١هـ أيام الراضي بن المعتمد سفرا صغيرا من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نصير، وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدها نيفا وعشرين راية...)[٦٥].

وبناء عليه نجد أن دور ابن مزين هنا كان دور الراوي الذي روى قصة عثوره على الكتاب وليس هو الذي ألفه أو تنسب إليه معلوماته، وبهذا يزول الالتباس الذي وقع فيه بالنثيا، وهذا الالتباس غالبا ما نجده في سير بعض العلماء ممن يلف الغموض حياتهم أو يقل ما نجده عنهم من معلومات تكشف عن سيرهم وحياتهم وتصانيفهم.

---

(٦٣) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢١٢)، وقد جانب الصواب في ذكر تاريخ وفاته عندما نص على أنها كانت سنة ٤٧٠هـ، والصحيح ما أوردناه أعلاه إذ أن النص الذي سيورده سفير مولاي إسماعيل الآتي ذكره يفيد أنه كان في الحياة سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م.

(٦٤) تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢١٢).

(٦٥) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ج ٧ - ٨، ١٩٥٩- ١٩٦٠) (ص ٢٢٥)، نقلا عن رحلة الوزير لمحمد بن عبدالوهاب، بتحقيق الفريد البستاني (منشورات مؤسسة الجنرال فرانكو) تطوان ١٩٣٩م. وانظر بقية النص عن الرايات في نفس الصفحة المذكورة، وانظر أيضا لطفي عبدالبديع : الإسلام في اسبانيا (ص ٦٨). وكذلك عبدالواحد ذنون طه : دراسات في التاريخ الأندلسي، (ص ٩٦ - ٩٧).

وقد قام رينهارت دوزي بنشر قطعة هامة من تاريخه عن افتتاح الاندلس وما اتّبعه المسلمون من نظم في توزيع أراضيها، وقد أثنى على أسلوبه فوصفه بالبساطة والوضوح والعمق[٦٦].

وجدير بالذكر أن نشير إلى ما صنفه ملك بطليوس المظفر بن الأفطس (ت ٤٤٥هـ/ ١٠٦٣م)، في هذا الميدان وهو كتابه الكبير المسمى «المظفري» على غرار «المتين» لابن حيان، وقد ضمّن كتابه المذكور ـ كما يقول بعض المؤرخين ـ كثيرا من الآداب والأخبار والأنساب[٦٧].

هذا وقد أمدنا المؤرخون وأصحاب التراجم بأسماء الكثير من المؤرخين، ولكن قلة المادة العلمية عنهم وعن سيرهم وآثارهم قليلة جدا فرضت علينا التعرض لهم بإيجاز. فمن بينهم العلامة أحمد بن سعيد بن أبي الفياض الاستجي من أعلام مملكة المرية (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م)، وكان من شيوخه العلامة المقرىء أحمد بن محمد الطلمنكي (ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) وقد صنف أبوالفياض كتابا في التاريخ والجغرافيا أسماه «العبر» نشر ميخائيل الغزيري جزءا منه ظنا منه انه للرازي[٦٨].

والحق أنه ليس لدينا من كتابه المذكور سوى ما أشرنا إليه وعدد من الأوراق التي اندرجت خطأ في نهاية مخطوطة «الحلة السيراء» وتبدأ بالتفاصيل الأخيرة لحملة طارق على الأندلس، وفي نهاية الصفحة الأولى من هذه الأوراق نجد عبارة «تم الجزء الأول» مكتوبة بخط يختلف عن خط المخطوطة، ثم يلي ذلك عنوان كبير هو «ذكر استفتاح طارق لجزيرة الأندلس» وهو خطأ والصحيح من السياق أن يكون العنوان: «ذكر استفتاح موسى لجزيرة الأندلس»[٦٩].

وفي هذه الأوراق وصف تفصيلي لحملة موسى بن نصير وفيها معلومات

(٦٦) ابن الأبار : الحلة السيراء، ج ٢ (ص ١٧) ح رقم ١.
(٦٧) المقري : النفح ، ج ٣ (ص ١٨١).
(٦٨) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٢١٢)، وانظر البغدادي: هدية العارفين، ج ١ (ص ٧٨).
عبدالواحد ذنون طه: دراسات في التاريخ الأندلسي، (ص ١١٥).
(٦٩) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون، مقال سبق ذكره (ص ٣٠١).

قيمة عن كيفية إعادة بناء جامع سرقسطة في القرن الخامس الهجري مع الاحتفاظ بالمحراب على هيئته الاولى، وهناك معلومات مفصلة عن فتح مدينة ماردة ولقاء موسى وطارق وولاية عبدالعزيز بن موسى ومقتله ثم عن عمال الأندلس ومددهم وحروبهم ومنازعاتهم(٧٠).

ومن مؤرخي مملكة بني عباد باشبيلية العلامة الأديب الشاعر أحمد بن عبدالله بن أحمد بن غالب بن زيدون (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، فإلى جانب مكانته الأدبية والشعرية كان بارعا أيضا في ميدان التاريخ والأنساب، وكان لعمره المديد واطلاعه الواسع على تاريخ بني أمية في الأندلس أثر في انصرافه لتسجيل أخبارهم وسير ملوكهم وأعيانهم فأملى على أخيه المسمى زيدون كتابا في أمراء بني أمية وبني هاشم وسلك فيه مسلك المسعودي في كتابه «التعيين في خلفاء المشرق» وسمى مصنفه «التبيين في خلفاء بني أمية بالأندلس»(٧١)

وفي هذا العصر لمع نجم الأديب المؤرخ أبوطالب عبدالجبار من أعلام مملكة بني عباد باشبيلية وقرطبة (٤٥٠ - ٥٠٦هـ/ ١٠٥٨ - ١١١٢م). ويذكر إحسان عباس أن المصادر التاريخية لم تذكر نسبه وأن المغرب والمسالك يعتمدان على الذخيرة في إيراد ترجمته، وأن العماد في الخريدة يعتمد في ذكر سيرته على تاريخ الأندلسيين بمصر فتعرف إلى كنيته، ثم وجد في مجموع ابن الصيرفي المصري أن كنيته أبوالوليد(٧٢).

والحق أن الباحث يود أن يشير إلى أن إحسان عباس قد استعجل في إصدار حكمه على شح المصادر التاريخية في ذكر نسب أبي طالب، فابن بشكوال أورد اسمه بالكامل وذكر نسبه أيضا وموطنه فقال (عبدالجبار بن عبدالله بن أحمد بن اصبغ بن عبدالله بن أحمد القرشي المرواني من أهل قرطبة ويكنى بأبي طالب)(٧٣).

وذكر أن له كتاباً في التاريخ اسمه «عيون الإمامة ونواظر السياسة» وأن

---

(٧٠) عبدالواحد طه : دراسات في التاريخ الأندلسي (ص١١٥ - ١١٦).

(٧١) المراكشي : الذيل والتكملة، ج ١ (ص ٣٦٨ - ٣٦٩)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ١٨٢). البغدادي: هدية العارفين، ج ١، (ص ٧٩).

(٧٢) انظر ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٩١٦) ح رقم ١).

(٧٣) الصلة، ج ٢ (ص ٣٧٩ - ٣٨٠).

له معرفة واسعة بالأدب والتاريخ، كما أشار إلى مولده ووفاته[٧٤] وهما ما ذكرناه سابقا.

وبناء عليه فإن ظلال الغموض التي تصورها إحسان عباس حول سيرة أبي طالب، ونسبه وتاريخ مولده ووفاته، ليس لها مبرر ولا تستند إلى الحقيقة.

ولأبي طالب أرجوزة في التاريخ ضمّنها الكثير من المعلومات الهامة عن أحداث التاريخ، وقد استهلها بذكر آلاء الله ونعمه على الإنسان، ثم بديع صنعه في الملكوت، وبعد ذلك وصف بدء الخليقة وأولية الخلق وسرد أسماء الأنبياء المذكورين في القرآن الكريم ثم بدأ في ذكر خلفاء بني أمية في المشرق ثم بني العباس حتى خلافة القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م)، وأخيراً ذكر دولة بني أمية في الأندلس ونهاية حكمهم ثم ملوك الطوائف ونهاية سلطانهم، وختم أرجوزته بدولة المرابطين حتى عصر علي بن يوسف بن تاشفين[٧٥].

ولا بأس أن نشير إى بعض أبيات الأرجوزة حول عصر الطوائف في الأندلس فقال:

ثم تمادت هذه الطوائف   تخلفهم من آلهم خوالف
دانت بدين الجور والعدول   إذ سلبت عقائل العقول
فأهملوا البلاد والعبادا   وعطلوا الثغور والأجنادا
واشتغلت أذهانهم بالخمر   وبالأغاني وسماع الزمر
وزادهم في الجهل والخذلان   أن ظاهروا عصابة الصلبان
لما طوت صدورهم من غل   ولاختبار البعض حال الكل

---

(٧٤) نفس المصدر والجزء (ص ٣٨٠)، وانظر أيضا: البغدادي : هدية العارفين، ج ١ (ص ٣٩٩) وكذلك إيضاح المكنون، ج ٤ (ص ١٣٣).

(٧٥) انظر : ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٩٢٠ ـ ٩٤٤) وانظر ابن الوردي: تتمة المختصر، ج ١ (ص ٤٩٩).

فخسفت (.....)[76] بالأرض وضيقوا من طولها والعرض
فاستولت الروم على البلاد واستعبدوا حرائر العباد[77]

ولعل أهمية هذه الأرجوزة تعود إلى الجزء الخاص منها بالأندلس وخاصة ما يتعلق بملوك الطوائف وما كانوا عليه من سلوك وصفات أوردها في أرجوزته وصور فيها حالهم آنذاك ـ وهو الذي عاصرهم ـ أتم تصوير على الحقيقة، وهو ما يفسر لنا تعاظم الخطر النصراني وضعف أولئك الحكام من المسلمين إزاء ذلك الخطر الداهم، ويمكن لدارس تلك الأرجوزة الحصول منها على بعض المعلومات الهامة عن تاريخ الأندلس وأوضاعها السياسية والاجتماعية. وهذه الأرجوزة بما تحويه من معلومات تاريخية تدل دلالة واضحة على سعة علم أبي طالب واطلاعه العميق على التاريخ وحقائقه، وحق لابن بسام أن يقول (وله أرجوزة في التاريخ أغرب فيها، وأعرب عن لطف محله من الفهم، ورسوخ قدمه في مطالعة أنواع العلم، وقد أثبتناها على طولها، لاشتمال فصولها على علم جليل، وباع في الخبر طويل)[78].

ولابن بسام المذكور ـ الذي نشأ في مملكة بطليوس وكانت وفاته ٥٤٢هـ[79] ـ يد بيضاء على هذا العلم، فقد صنف كتابه الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة وقد سبقت الإشارة إلى هذا العالم وكتابه في ميدان الأدب، إلاّ أن كتابه هذا حفظ لنا الكثير من المعلومات التاريخية القيمة عن ملوك الأندلس وأمرائها ووزرائها وأعيانها وعلمائها وأدبائها وشعرائها في المئة الخامسة للهجرة، وقد اعتمد في هذا الجانب التاريخي على مؤرخ هذا العصر ابن حيان، فهو يقول (وسينخرط في سلك ما أوشح به هذا التصنيف، من تلخيص التعريف بأخبار ملوك الأندلس، وسرد قصصهم المأثورة، ووقائعهم المبيرة المشهورة لابن حيان، فصول من غرائبه وجمل وتفاصيل من عجائبه لأني إذا وجدت

---

(٧٦) الفراغ بين الحاصرتين ساقط في الأصل.
(٧٧) ابن بسام: نفس المصدر والقسم والجزء (ص ٩٤٣).
(٧٨) الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٩١٦).
(٧٩) كانت ولادته ونشأته العلمية بمدينة شنترين القريبة من بطليوس عاصمة بني الأفطس. انظر الحميري: الروض المعطار (ص ٣٤٦).

من كلامه فصلا قد أحكمه، أو خبرا قد سرده ونظمه، عولت على ما وصف وليته خطة ما سطر وصنف)[٨٠].

وتتضح أهمية ما نقله ابن بسام من النصوص التاريخية لابن حيان إذا ما علمنا أن تآليف الأخير قد فقدت ولم يسلم من الضياع إلّا شيء يسير بالنسبة لما فقد منها، فابن بسام بذلك له فضل كبير لا ينكر على التاريخ الأندلسي رغم موقفه النقدي لابن حيان من أنه كان شديد الوطأة في نقد كثير من الأعلام وتجريحهم وذكر مثالبهم[٨١].

ولكن الباحث له ملاحظة على هذا النقد من ابن بسام لابن حيان، فمع التزامنا بتقدير الناس ومراعاة منازلهم إلّا أن المؤرخ الصادق يجب عليه ان لا يحابي أحدا أو يتملق ذا سلطان بل عليه أن يحرص على قول الحق وذكر الحقيقة من غير هوى أو تحامل، وما من شك أن هذه الصفة الهامة من الصفات التي رفعت شأن ابن حيان وجعلته في الصدارة من مؤرخي الأندلس والغرب في العصور الوسطى ونظيراً لكبار مؤرخي المشرق من غير شك. ولكم عانى تاريخنا من كثير من المؤرخين الذي افتقدوا تلك الصفة فغيروا الحقائق وقلبوا وجوهها وطمسوا الكثير من الأحداث واختلقوا بدلا منها أحداثا أخرى فغدا قسم من تاريخنا يدعو للشك فيما ورد فيه من كتابات ومعلومات وبحاجة أشد للتمحيص وإعادة كتابته بعد المراجعة الدقيقة وتحري صحة ما يشتمل عليه من أحداث ووقائع.

هذا ولابن بسام فضل آخر في تأليفه لكتابه الذخيرة، فقد ضم كثيرا من تراجم ملوك وعلماء وأدباء الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ولهذا فهو من أنفس الكتب التي لا يستغني عنها أي باحث في تاريخ الأندلس وآدابه.

وقد تفوق ابن بسام على معاصره الفتح بن خاقان (ت ٥٢٩هـ) مؤلف القلائد والمطمح، فابن بسام في الذخيرة يفوقه بمراحل، فهو شديد العناية

(٨٠) الذخيرة، القسم الاول، ج ١ (ص ٣٤ - ٣٥)، وانظر فيما يتضمن هذا المعنى مصطفى الشكعة: مناهج التأليف (ص ٦٣٤).

(٨١) انظر ابن بسام: الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٥٧٤).

بفحص الروايات والأخبار ومعرفة صحيحها من سقيمها، كما أنه يلتزم في معظم ما عرضه من تراجم جانب الصدق والتحلي بالموضوعية وهو أمر يفتقده ابن خاقان الذي ارتبط مدحه أو ذمه بعلاقته الشخصية بصاحب الترجمة ومدى ما كان قد أسدى إليه من مصلحة أو نفحه بصلة. فهو مثلا عند ترجمته لأبي بكر بن الصائغ المعروف بابن باجه في كتابه القلائد حط من شأنه وألصق به كثيرا من النقائص بل طعن في دينه. ثم نراه يترجم له بعد ذلك في المطمح فيخلع عليه من المحاسن والمناقب ما رفعه بها مكانا عليا، وهو بهذا قد نهج مسلكا ينافي النزاهة والصدق والموضوعية فكثير من تراجمه في كلا كتابيه معرضة للشك وعدم التسليم بها تقريبا.

وذاع صيت آخر ملك من ملوك غرناطة المسمى بعبدالله بن بلقين وكان قدتولى العرش بعد وفاة جده باديس بن حبوس (٤٦٩هـ/ ١٠٧٧م) وظل ملكا على غرناطة فترة من الزمن اتسمت بالاضطرابات والصراعات مع جيرانه حتى أسقط المرابطون عرشه سنة (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) وأرسلوه إلى أغمات فكتب بها مذكراته التي تحدث فيها عن نشأة دولة بني زيري في غرناطة، وتحدث عن عهد باديس بن حبوس والأحداث التي وقعت في عصره وصراعه مع جيرانه على المناطق المجاورة، ويتحدث أيضا عن حكمه لغرناطة وعلاقاته مع جيرانه كصاحب المرية والفونس السادس والمعتمد، هذا إلى جانب توضيحه للأحداث عن نجدة المرابطين لأهل الأندلس وموقعة الزلاقة، وتوجس عبدالله خيفة من المرابطين بعد حصار حصن لييط ثم تسليمه مدينة غرناطة للمرابطين وحديثه عن ذلك، وأخيرا يتحدث عن إسقاط المرابطين لعروش ملوك الطوائف. ويختم كتابه بتأملات ونظرات في العلوم والآداب. والكتاب يمتاز بقيمته التاريخية عن عصر الطوائف كما أنه يوضح لنا صورا شتى عن الحياة الاجتماعية السائدة في ذلك العصر[٨٢].

ويلحق بمؤرخي هذا العصر العلامة أبو محمد عبدالله بن علي

---

(٨٢) انظر الأمير عبدالله : التبيان (ص١٦، ٣٠، ٥٠، ٦٩، ٨٤، ١٠١، ١١٤، ١٤٧).

الرشاطي[٨٣] (٤٦٥ ـ ٥٤٢هـ/ ١٠٧٢ ـ ١١٤٧م) من أهل أوريوله[٨٤]، وحل بمملكة المعتصم بن صمادح بالمرية في بداية حياته، وكان متضلعا من التاريخ والأنساب عارفا باللغة والادب، وتعود شهرته إلى كتابه القيم المسمى «اقتباس الأنوار والتماس الأزهار في أنساب الصحابة رواة الآثار»[٨٥].

وكان للقاضي المفسر عبدالحق بن عطية (٤٨١ ـ ٥٤٢هـ/ ١٠٨٨ ـ ١١٤٧م)، انتقادات على كتاب الرشاطي، لكن الأخير رد عليه في كتاب أسماه «إظهار فساد الاعتقاد ببيان سوء الانتقاد»، وفيه أظهر بطلان آراء وأفكار عبدالحق وفساد ما استدل به من شواهد، وقد اتسم رده على عبدالحق بالتعسف والشدة[٨٦].

ولمع من المؤرخين في أواخر هذا العصر العلامة عبدالله بن إبراهيم الحجاري الصنهاجي. وكان والده إبراهيم من علماء بلاط المأمون في طليطلة وله صنف كتابه «مغناطيس الأفكار فيما تحتوي عليه مدينة الفرج من النظم والنثر والأخبار»[٨٧].

وبناء عليه فان ابنه عبدالله قد قضى شطرا من عمره في مملكة طليطلة وكان لمنزلة أبيه العلمية أثرها الكبير في حياته العلمية، ويبدو أنّه نهج نهجه في الاهتمام بالتاريخ والتراجم.

وكان النصارى عند تغلبهم على مدينة الفرج بقيادة الفونسو السادس ملك قشتاله وليون سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، قد أجبروا الكثير من علمائها على الهجرة عنها وكان من بين هؤلاء مؤرخنا عبدالله بن إبراهيم الحجاري الذي

---

(٨٣) الرشاطي : نسبة إلى ما ذكر عن أحد أجداده وكانت بجسمه شامة كبيرة، وكانت له خادمة أعجمية تحضنه في صغره، فإذا لاعبته قالت له رشطاله، وكثر ذلك منها فقيل له الرشاطي. انظر ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٨٤) أوريوله، مدينة بشرق الأندلس بينها وبين مرسية اثنا عشرميلا. الحميري: الروض (ص ٦٧).

(٨٥) الضبي : بغية الملتمس (ص ٣٤٩)، ابن الأبار : المعجم (ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨)، ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ١٠٦ ـ ١٠٧)، ابن كثير : البداية والنهاية، ج ١٢ (٢٢٣)، إلاّ أن ابن الأبار وابن خلكان ذكرا أن مولده كان سنة (٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م).

(٨٦) انظر ابن الأبار : المعجم (ص ٢٢٨).

(٨٧) ابن الخطيب، الإحاطة، ج ٣ (ص ٤٣٢)، الحجاري نسبة إلى وادي الحجارة وهي مدينة تعرف بمدينة الفرج من أملاك مملكة بني ذي النون وتقع إلى الشمال الشرقي لقرطبة، وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا. الحميري: الروض (ص ٦٠٦).

خرج عن مدينته وهو في طور الشباب حيث قصد مدينة شلب، لكنه ما لبث أن غادرها إلى غرناطة، ومنها إلى قلعة بني سعيد المعروفة بقلعة يحصب حيث نزل لدى صاحبها عبدالملك بن سعيد بن خلف بن سعيد الذي يرجع في نسبه إلى الصحابي الجليل عمار بن ياسر، فأكرم نزل الحجاري وقربه إليه، فاقام الحجاري لديه ما يقارب السنة ألف فيها كتابه «المسهب في غرائب المغرب»[٨٨]، ثم فارق مكانه إلى روطه ليحل ضيفا على أميرها عماد الدولة عبدالملك بن أحمد بن هود الملقب بالمستعين الذي اشتبك في إحدى معاركه مع البشكنس فهزم جيشه وكان معه مؤرخنا المذكور الذي وقع في الأسر وأخذ في أسره يستعطف ابن هود في تدبير فديته لينطلق من أسره، غير أنه لم يجد لديه أذناً صاغية، فخاطب عبدالملك بن سعيد في ذلك فأرسل بفديته مما كان له أبلغ الأثر فيه فعاد إلى قلعة بني سعيد مادحا لهم شاكراً إحسانهم وحسن صنيعهم به[٨٩].

ويذكر بونس بويجس أن مولد الحجاري كان سنة (٥٠٠هـ/ ١١٠٦م)، ووفاته سنة (٥٥٠هـ/ ١١٥٥م)، ولا شك أنه جانب الصواب في ذلك، فإذا سلمنا بأنه غادر مدينة الفرج بعد استيلاء الفونسو عليها سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) فإن من الطبيعي أن يكون على قيد الحياة بل وفي سن من يهاجر ويرتحل ونفترض على ذلك أن عمره كان في حدود العشرين سنة، فهو على هذا الافتراض من مواليد ٤٦٧هـ[٩٠]. ووفاته أيضا لا تصمد للنقد، على الرغم من أن حسين مؤنس يرى إمكان وقوعها ولكنها ليست مؤكدة، كما يذكر محمد عنان أن وفاته كانت سنة ٥٢٠هـ/ ١١٢٦م[٩١].

ويشير علي بن سعيد في كتابه المغرب الذي بناه على تأليف الحجاري أن هذا كان من أهل العلم الواسع وأنه ممن بسق في صناعة النظم

---

(٨٨) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٣٥)، ابن الخطيب: الإحاطة ج ٣ (ص ٤٣٣)، حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ج ٧-٨، ١٩٥٩ - ١٩٦٠م (ص ٣٤٦ - ٣٤٧).

(٨٩) ابن الخطيب: الإحاطة، ج ٣ (ص ٤٣٣ - ٤٣٤).

(٩٠) حسين مؤنس : المقال السابق (ص ٣٤٩).

(٩١) انظر، الإحاطة، ج ٣ (ص ٤٣٥) ح رقم ٥.

والنثر، وأنّ تصنيفه «المسهب» هو أصل كتاب المغرب، فهو أول من فتح باب التصنيف في ذلك[٩٢].

ويتضح من الطريقة والمنهج الذي سار عليه المؤلف ومن أتى بعده من بني سعيد المكملين لتأليف ذلك الكتاب، أنه يضم معلومات جغرافية وتاريخية وأدبية عن كل كورة من كور الأندلس، ويمكن ان نُرجع مصادره إلى ثلاثة انواع هي: المشاهدة، والرواية الشفوية، والمصنفات التي استمد منها معلوماته. والوسيلة الأولى وهي المشاهدة والمعاينة وسيلة صادقة لجمع المعلومات الجغرافية عن الكور المختلفة وخصائصها المعدنية والنباتية، والحجاري هو فاتح هذا الباب والفضل للمتقدم، أما الرواية الشفوية فتتم بلقاء العلماء والأدباء والأخذ عنهم مشافهة. وأما مصادر الكتاب فهي كتب السابقين ككتابات أحمد الرازي، وتاريخ ابن حيان والحميدي، والمغرب لابن اليسع، والبديع لحبيب، والحدائق للجياني وغير ذلك[٩٣].

وأخيراً فإن ميدان التاريخ شهد تطورا وازدهارًا ملحوظين في هذه الفترة، فبرز في هذا العلم عدد وافر من العلماء وأثروا ميدانه بالكثير من الدراسات التاريخية القيمة الدالة على عظم مكانتهم وتألقهم العلمي.

وجدير بالذكر أن كتب التاريخ والتراجم تشير في الكثير من المواضع إلى اعداد كبيرة ممن كانت لهم مشاركة في التاريخ وإسهام في نمائه. ولكن من ذكرناهم يعدون أبرز مؤرخي تلك الفترة وأشهرهم على الساحة العلمية في علم التاريخ، ولكن من حق غيرهم ممن شارك في ذلك النشاط ولم يرد ذكرهم آنفا إن نشير إليهم إشارات سريعة. فمن هؤلاء ابن العربي الذي ألف كتابه «العواصم من القواصم» وفيه دافع بشدة عمّا لحق بسير بعض الصحابة من تزييف وتشويه للحقائق أمثال علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما[٩٤].

---

(٩٢) المغرب، ج ٢ (ص ٣٥)،

(٩٣) انظر مقدمة شوقي ضيف للمغرب، ج ١ (ص ١٣ وما بعدها).

(٩٤) هذا الكتاب مطبوع وحققه محب الدين الخطيب.

وينسب لابن العربي أيضاً كتاب آخر اسمه «أعيان الأعيان»[٩٥].

وللعلامة المؤرخ احمد بن عبدالرحمن بن مظاهر الانصاري الطليطلي (ت ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م) (من أعـلام مملكـة بني ذي النون) مشاركة جيلة في التاريخ بتصنيفه كتابه «تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها» وقد اعتمد عليه ابن بشكوال كأحد مصادر كتابه «الصلة» وفي ذلك دلالة على القيمة الكبيرة لكتاب ابن مظاهر[٩٦].

كما ألف المقرئ أبوعمرو عثمان بن سعيد الداني كتابا في تاريخ طبقات القراء والمقرئين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من الخالفين إلى عصر مؤلفه وجامعه على حروف المعجم[٩٧].

وفي ذلك إشارة إلى النشاط الواسع الذي تمثل في تأليف كتب المعاجم والطبقات إلى جانب ماذكرناه سابقا في مقدمة الحديث عن التاريخ وظهور كثير من الدراسات التاريخية المتخصصة في فئات أهل العلم والمعرفة.

كما ينسب لابن حمديس الصقلي شاعر المعتمد بن عباد (ت ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م) كتاب في «تاريخ الجزيرة الخضراء»[٩٨].

ومن الكتب النفيســة في تاريخ الأنــدلس كتــاب محمـد بن علقمـة (ت٥٠٩هـ/ ١١١٥م) «البيان الواضح في الملم الفادح»، وقد سبقت الإشارة إليه في مقدمة الحديث عن التاريخ كمثال على الكتب المتخصصة في تواريخ الأقـاليم المحددة وفي هذا الكتاب وصف لسقوط مدينة بلنسية في أيدي النصارى بزعامة السيد القمبيطور (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م) وما حل بها من البلاء والوبال، وما من شك أن ما حواه ذلك الكتاب من معلومات تاريخية يُعدّ من أصدق الكتابات لأن صاحبها كان شاهد عيان لما دار في مدينته من أحداث ووقائع. وقد تضمن ذلك الكتاب المرثية الشهيرة التي نظمها الأديب الفيلسوف أبوالوليد هشام بن أحمد الكناني الوقشي ـ نسبة إلى وقشة من أعمال

---

(٩٥) البغدادي : إيضاح المكنون، ج ٣ (ص ١٠٥).
(٩٦) ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٧٠).
(٩٧) ابن خير : فهرسة ما رواه عن شيوخه (ص ٧٢).
(٩٨) حاجي خليفة : كشف الظنون، ج ١ (ص ٢٩٠).

طليطلة ـ وفي تلك المرثية بكى بلنسية وماحل بها، ومن المؤسف أن أصل هذه المرثية قد فقد ولم يبق منها إلاّ نسخة مكتوبة بحروف لاتينية فيما وجد من نسخ «تاريخ اسبانيا العام» الذي سعى لتصنيفه الفونسو العاشر[٩٩].

---

(٩٩) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ١١٦ ـ ١١٧)، حسين مؤنس: السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، مقال بالمجلة التاريخية المصرية، ج ٣، ١٩٥٠م، العدد الأول (ص ٦٥).

(٢) الجغرافيا والرحلات الجغرافية

الجغرافيا

لم يكن معروفاً لدى العرب حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كلمة «جغرافية» للدلالة على هذا العلم الذي يدرس الأرض والذي كانوا يدرسونه فعلا. فهذه الكلمة التي أخذت عن اليونانية كحال الكلمة المستعمله في الفرنسية والانجليزية ظلت تعتبر في الشرق حتى العصر الحديث كلمة علمية لانجد لها في العربية مقابلا كما أشار إلى ذلك حاجي خليفة أثناء حديثه عن هذا العلم[١٠٠]. كما انها لم تكن تمثل فكرة علماء العرب عن هذا العلم، بل تمثل فكرة الجغرافيين اليونانيين وبالأخص فكرة بطليموس عنه. وقد اعتبر العرب هذه الكلمة أجنبية فلم يضيفوا لها أل التعريف وفي حالات نادرة استخدموها كعنوان لبعض مؤلفاتهم كالذي سلكه العلامة محمد الزهري الأندلسي. وكان ذلك ابتداء من القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي وقصد بها خارطة البلدان والطرق. كما نجد أن أخوان الصفا أول من استخدمها للدلالة على علم خاص.. ونلحظ ان الاصطلاحات التي استخدمها العرب للدلالة على العلوم الجغرافية هي علم الأطوال والعروض. وعلم تقويم البلدان. وعلم المسالك والممالك وعلم عجائب البلدان[١٠١].

وجدير بالذكر أن الجغرافيين العرب كانوا أول من حطم القيود التي فرضتها الكنيسة في أوربا على الدراسات الجغرافية فقد كانت الكنسية تعدها ضربا من السحر والشعوذه والدجل وانها لا تفيد الإنسانية. فسعى العرب إلى بعث النظريات الإغريقية فدرسوها وصححوا بعضها. كما أفادوا من الثقافات الأخرى للأمم الأخرى كالمصريين والهنود والفرس[١٠٢].

وفيما يتصل بالأندلسيين لا نلمس في إنتاجهم الجغرافي ذلك التأثر العميق

---

(١٠٠) كشف الظنون، ج ١، ص ٥٩٠.
(١٠١) عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب. (ص ٢٩ - ٣٠).
(١٠٢) عبدالرحمن حميدة : المرجع السابق، (ص ٢٨).

بالنظريات الشرقية واليونانية الذي نجده غالبا في كثير من المؤلفات الجغرافية في المشرق. غير ان الأندلسيين أفادوا من الإغريق واللاتين في الوصف العام للجزيرة الاسبانية، وتحديد المواقع وتقدير المسافات، ولكنهم لم يلتزموا بما أوردوه عن التقسيم الجامد إلى أقاليم ذات خصائص فلكية أو مرتبطة ببروج الفلك. وغاية ما نلحظه تأثرهم بالتقسيم البطليموسي. وهو تحديد موقع الأندلس في الأقاليم الرابع والخامس والسادس لتحديد موقعه بالنسبة للأقطار الأخرى(١٠٣).

والعرب بحكم فتوحاتهم الإسلامية ولعوامل أخرى تتعلق بالتجارة وطلب العلم والحج اتجهوا للعناية بعلم الجغرافيا واتصلوا بالعالم الخارجي وأثبتوا من خلال ذلك أنهم مهرة حاذقون في معرفة البلدان ومسايرة الحضارات المختلفة وهضمها والتعامل معها بما ينم عن ذكائهم وحسن درايتهم بما يلاقونه ويواجهونه من أحوال وظروف مختلفة(١٠٤).

وفي القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وما بعده نلاحظ أربعة اتجاهات في التأليف الجغرافي العربي وهي:

١ . العناية بأقطار العالم الإسلامي وهذا ما يبدو من كتابات البلخي والاصطخري والمقدسي.
٢ . التخصص في قطر واحد كالهمداني في «جزيرة العرب» والبيروني في الهند.
٣ . وضع المعاجم الجغرافية وهذا شيء بدأ في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فالبكري صنف في ذلك.
٤ . وضع الموسوعات الكبيرة التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي كنهاية الأرب للنويري والمسالك للعمري وهي كتب اعتنت بما يسمى بالجغرافيا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية(١٠٥).

ومن الواضح أن الجغرافيا آنذاك قد ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتاريخ وهو

---

(١٠٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ج ٧ ـ ٨، (ص ٢١٠ ـ ٢١١).

(١٠٤) قدري طوقان : العلوم عند العرب ص ٧١ ـ نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، (ص ١٢) ـ وانظر العوامل التي دفعت العرب للاهتمام بالجغرافية غير ما ذكر، لدى عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، (ص ٣٣) وما بعدها.

(١٠٥) نقولا زيادة : المرجع السابق، (ص ١٢ ـ ١٣).

ما نلحظه لدى المؤرخين الجغرافيين في المشرق والمغرب على حد سواء كالعلامة المسعودي (٣٤٦هـ/ ٩٥٧م) واليعقوبي (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م) في المشرق، وكذلك لدى أحمد بن الرازي (ت ٣٤٤/ ٩٥٥م) والعذري في المغرب لأنهم رأوا ـ أثناء الكتابة التاريخية ـ ضرورة وصف مسرح الأحداث وأماكن وقوعها.

ومن المؤسف ان الذي وصل إلينا من الإنتاج العلمي الأندلسي في ميدان الجغرافيا يعد ضئيلا، فمثلا لا نملك باستثناء الإدريسي كتابا واحدا كاملا ألفه أندلسي في جغرافية الأندلس فمن بين أشهر جغرافييها العلامة أحمد بن عمر بن أنس العذري (٣٩٣ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٠٢م ـ ١٠٨٥) لا نجد من مؤلفاته القيمة إلا قطعة أعدها للنشر عبدالعزيز الأهواني.. ولا نملك إلا أوراقا ضئيلة للبكري في جغرافية بلده الأندلس، ومثلهما أبوبكر عبدالله بن الحكم المعروف بالنظام (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي)[١٠٦]

وكان لكتاب هروشيش[١٠٧] ـ كما يسميه العرب ـ في التاريخ تأثير لا بأس به على الكتابة التاريخية والجغرافية عند الأندلسيين وأهم ما نقلوه عنه في ميدان الجغرافيا وصفه لاسبانيا حيث قال (البلد الذي يدعى الأندلس جميعه محدق عليه إلا قليلا بالبحر المحيط والبحر المتوسط وهو بلد مركن ذو ثلاثة أركان: فركنه الواحد يقابل الشرق فيما بين اقطانية وبين البحر المتوسط مقابل جزيرة ميورقة ومنورقة وهنالك يجاور بحر نربونه، وركنه الثاني فيما بين الغرب

---

(١٠٦) حسين مؤنس: المقال السابق، (ص ٢١٩ ـ ٢٢٠).

(١٠٧) هو المؤرخ الاسباني بول اوروسيوس Paulus Orosius أصله من اقليم براكارا Bracara في مقاطعة جليقيه في الشمال الغربي من اسبانيا ومولده بين سنتي ٣٧٥م، ٣٨٠م، وكان قسيساً وحدث أن سقطت روما ٤١٠م تحت هجمات القوط واتفق في ذلك الوقت وما قبله بقليل ابتداء من قسطنطين الأول (٣٢٤ ـ ٣٣٧م) اعتناق المسيحية في الدولة الرومانية مما جعل الوثنيين يشيرون إلى أن سبب انهيار عاصمة الدولة الرومانية هو اعتناقها المسيحية، فرد عليهم القديس أوغسطين بكتابه مدينة الله ثم رأى أن عمله ناقص فطلب من اوروسيوس ـ وكان هذا قد وفد عليه في تونس حيث كان بها مركز أسقفية أوغسطين ـ تأليف كتاب عن أحوال الأمم وتاريخ الإنسانية منذ البداية حتى سنة ٤١٦م يبين فيه ما أصاب الإنسانية من كوارث ومصائب على مدى تاريخها ويبرهن فيه للوثنيين أن ما أصاب روماليس من عمل المسيحية بل هو أمر طبيعي يمر بالإنسانية. فقام اوروسيوس بإنجاز تلك المهمة ونشر كتابه في التاريخ ٤١٧م ـ٤١٨م (انظر أوروسيوس: تاريخ العالم الترجمة العربية القديمة تحقيق وتقديم د. عبدالرحمن بدوي ص ٥ ـ ٦).

والجوف من ناحية برغنسيه في جليقية حيث الجبل العالي الذي فيه المنارة مقابل بلد برطانية، وركنه الثالث بناحية جبل قادس)[١٠٨].

وكانت مقدمة هروشيش الجغرافية على تاريخه والتي ابتدأها بتقسيم الأرض إلى آسيا وأوروبا وافريقيا وما بها من البلدان وحدودها وما يتخللها من البحار أو الأنهار ثم الحديث عن الجزر في البحر المتوسط ثم وصف كبار البلدان وما بها من الجبال والكور والأنهار في المشرق والمغرب، هذه المقدمة الجغرافية التاريخية أصبحت منهجا علميا سار عليه مؤرخو الأندلس في تصديرهم لكتبهم التاريخية بمقدمة جغرافية. وجدير بالذكر أن جغرافيي الأندلس لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام النصوص التي نقلوها عن هروشيش بل إنهم أضافوا إليها الكثير مما اكتسبوه من معلومات وخبرات توفرت لديهم عن طريق الخبر والتجربة العملية من رحلات ومشاهدات للظواهر والمعالم الجغرافية[١٠٩]..

هذا وقد ذكرنا فيما مضى أنه لم يصلنا من الإنتاج العلمي الجغرافي للأندلسيين إلا شيء ضئيل وهو أمر يجبرنا على التريث والتمهل في إصدار أحكامنا وآرائنا تجاه هذا اللون من النشاط العملي ومدى ما أسهم به الأندلسيون في تطور الفكر الجغرافي الإسلامي. إنّ ضياع أو اختفاء الكثير من ألوان الإنتاج الجغرافي للمؤرخ الجغرافي أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤ - ٣٤٤هـ/ ٨٨٧ - ٩٥٥م) ومن بعده محمد بن عمر الوراق، وأحمد بن عمر العذري، ومحمد بن أبي بكر الزهري (كان حيا في القرن السادس الهجري) لا يسمح لنا بوضع التصور الصحيح لما كانت عليه حال الدراسات الجغرافية آنذاك، وكل ما يمكننا عمله محاولة رسم أقرب التصورات عن ذلك النشاط بتلمس بقية آثارهم المبعثرة في بطون الكتب، أو على شكل قطع وأجزاء صغيره سلمت من الضياع..

وجدير بالذكر أن نشير بإيجاز إلى النشاط العلمي في هذا الحقل قبيل

(١٠٨) تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة، (ص٦٧). وانظر فيها وما بعدها تقسيمه للأندلس وذكره لجزرها.

(١٠٩) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال سابق ٢١٨).

عصر الطوائف حتى تتضح لنا بدايات الاشتغال بهذا العلم. ففي عصر الخلافة نبغ العلامة أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤ - ٣٤٤هـ/ ٨٨٧ - ٩٥٥م) الذي أسهم بجهد قوي في رقي الدراسات الجغرافية فصنف فيها كتابا عن مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها والأجناد العربية الستة التي نزلها العرب بعد الفتح، وكان دقيقا في أوصافه الجغرافية فذكر ضواحي كل بلد منها وما يتميز به عن البلدان الأخرى. وضمن ذلك معلومات نادرة قيمة.

والرازي تناول الجغرافيا على أنها علم متمم للتاريخ، وما تبقى من نصوص عن معارفه الجغرافية التي بين أيدينا هي في الغالب مقدمة لكتاب في التاريخ اسمه «أخبار ملوك الأندلس» وذلك أن النصوص الجغرافية الباقية والمترجمة إلى البرتغالية والاسبانية تستطرد إلى الحديث عن ملوك الأندلس ومن قطنها من الأمم قبل الإسلام.

ومن المفيد أن نذكر أنه لو أردنا أن نكتب وصفا جغرافيا جامعا للأندلس لما أضفنا شيئا إلى ما ذكره الرازي. وقد بلغ من أهمية معلوماته الجغرافية أن اعتمد عليها الاسبان حتى القرن السابع الهجري/ القرن الثالث عشر الميلادي في حل الكثير من مشكلات التنظيم الإداري التي اعترضتهم فيما استولوا عليه من بلاد المسلمين أثناء حركة الاجتياح الصليبي لاسبانيا الإسلامية.

وكان العلامة محمد بن يوسف الوراق لا يقل عن الرازي اهتماما بالجغرافيا والمسالك والممالك، فقد صنف للخليفة الحكم كتاب مسالك افريقيا وممالكها ومصنفات أخرى عن بعض المدن الافريقية كوهران وتنس وغيرهما[110].

وهذان العالمان يعتبران في مقدمة من طرق باب الدراسات الجغرافية في ذلك العصر.

وشهد عصر ملوك الطوائف بروز عدد من الجغرافيين الذين لاتزال أعمالهم خالدة في ذاكرة الفكر الجغرافي. فمن مملكة المرية لمع نجم العلامة أحمد

(١١٠) الحميدي: الجذوة، ص٩٧ - ابن الأبار: التكملة، ج ٢، ص ٦٧١.

ابن عمر بن أنس العذري (٣٩٣ ـ ٤٧٨هـ/ ١٠٠٢ ـ ١٠٨٥م) وصف بالتمكن التام في عدد من علوم الدين، ورحل مع أبيه إلى المشرق في طلب العلم ثم عاد إلى الأندلس لينشر علومه فأخذ عنه كبار العلماء أمثال ابن حزم الظاهري وابن عبدالبر النمري[111].

وقد أبدى العذري مقدرة واسعة وعميقة في دراسة الجغرافيا واستيعاب علومها. فكتب فيها أبحاثا ودراسات موفقة. ولكن الأمر الذي يثير الدهشة أن المؤرخين الذين ترجموا له كالحميدي والضبي وابن بشكوال لم يتطرقوا إلى علمه بالجغرافيا ونشاطه المتعلق بها بل اكتفوا بالإشارة إلى معرفته بالحديث وعلومه. ذكر الأول منهم إن العذري كتب في المشرق قطعة كبيرة من دراساته ومن بينها كتابات تاريخية[112]. وهو أمر يدعونا إلى التفكير فيما إذا كان هنالك أعلام أخرون برزوا في علوم اخرى غير علوم الدين لم يتطرق أصحاب التراجم إليهم والإشارة إلى معارفهم في غير تلك العلوم. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الكثير من مؤلفي كتب التراجم هم أنفسهم من علماء الحديث والفقه فكان اهتمامهم منصبا بالتالي على أصحاب الحديث والفقه وعلوم الدين أكثر من غيرهم، فإذا اتسع اهتمامهم كتبوا عن أهل اللغة والأدب وأما ماعدا ذلك فإن الإشارات إلى غيرهم قليلة جدا وخصوصا ما يتعلق بالعلوم التجريبية والإنسانية، ولولا أنه حفظت لنا بعض الآثار العلمية لعدد من العلماء لطواهم النسيان.

وقد ذكر ابن حزم عددا من علماء المسالك والممالك الجغرافيين في رسالته التي كتبها في فضل الأندلس ولكنه لم يذكر العذري أو يشر إليه وإلى دراساته الجغرافية[113].

ولكن كيف عرفنا أن للعذري باعاً طويلاً في علم الجغرافيا؟. لقد كان ذلك عن طريق من أتى بعده من المشتغلين بالجغرافيا الذين ذكروه في كتبهم

(١١١) الحميدي : الجذوة، (ص١٣٦ ـ ١٣٧) الضبي: بغية الملتمس، (ص ١٩٥ ـ ١٩٦م) ابن بشكوال الصلة، ج ١ (ص ٦٦ ـ ٦٧).
(١١٢) الحميدي : الجذوة، (ص ١٣٦ ـ ١٣٧).
(١١٣) انظر رسالة ابن حزم المذكور في كتاب المقري: نفح الطيب ج ٣، (ص ١٦٣ ـ ١٦٤).

فالبكري أشار إليه وإلى كتابه «نظام المرجان في المسالك والممالك» وكذلك ذكره العلامة الجغرافي المشرقي زكريا بن محمد القزويني (٦٠٠ - ٦٨٢هـ/ ١٢٠٣ - ١٠٨٣م) صاحب كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد». ونقل عنه الكثير من النصوص الجغرافية المتعلقة بالأندلس وغيرها من البلدان(١١٤).

هذا ومما يُسر له أنه بقيت لنا قطعة من كتاب العذري قام على تحقيقها عبدالعزيز الأهواني وعنوانها: «نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان، والمسالك إلى جميع الممالك(١١٥). وجدير بالذكر أن د. عبدالعزيز الأهواني قد أشار في مقدمة دراسته تلك إلى أنّ الجزء المتبقي يمثل عشر الكتاب لأن العذري جعله كتابا كبيرا في المسالك والممالك ولكنه في الجزء المنشور لا يسير على طريقة المسالكيين بل يلاحظ مزجه بين الجغرافيا والتاريخ وأن المادة التاريخية تتخلل كل جزء من أجزاء الكتاب(١١٦).

ويبدو لنا من دراسة ما حفظه القزويني من كتابات العذري ما كان يتمتع به الأخير من معارف واسعة ونظر دقيق وبراعة فذة في الوصف الجغرافي، فهو إذا وصف كورة من الكور تجلى فيه إتقانه وشموله وصدق أقواله. وإذا تحدث عن مدينة صورها تصويراً جليا واضحا وضمنّ حديثه عنها إشارات هامة عن أحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية(١١٧).

والعذري في كتابه المذكور يسلك منهجا جغرافيا اختص به دون غيره من الجغرافيين فهو يقوم على ما يلي:

١) قسم العذري كتابه إلى ما يشبه الفصول. كل فصل يدور حول كورة من كور الأندلس.

---

(١١٤) انظر مثلا (ص٥٠٣ - ص ٥١٢ - ٥٤٢ - ٥٤٥).
(١١٥) هذا الاسم والاسم الذي قبله لكتاب واحد وليس لكتابين كما أفترض.
(١١٦) انظر الكتب نقد وعرض (أحمد بن محمد بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك) تحقيق عبدالعزيز الأهواني مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٦٥- مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ١٣، ١٩٦٥ - ١٩٦٦م (ص ٢١١).
(١١٧) ضياء الدين الريس: نفس المقال ص ٢١١.

٢) يستفتح كلامه بمكان الكورة من قسمة قسطنطين الكنسية التي اتفقت عليها المجامع النصرانية بعد اعتراف قسطنطين بالمسيحية والهدف منها تقسيم البلاد التي فيها المسيحيون إلى مناطق أسقفية وقد حافظ عليها العرب في الاندلس تقريبا.

٣) يعقب ذلك بذكر الطريق من قاعدة الكورة السابقة إلى قاعدة الكورة التي يتحدث عنها ويصفه على أساس المحلات أو الأميال أو الفراسخ، والمحلة في عرفه الموضع الذي يستطيع المسافر أن يرتاح فيه ويتزود فيه لسفره.

٤) ثم يتحدث بعد ذلك عن المدن التابعة للكورة واحدة بعد واحدة بمقدرة فائقة واطلاع عميق بكل ما يتصل بها.

٥) يعتني بذكر الطرق ومسافاتها والمحلات التي تمر بها، وإلى أي النواحي يوصل كل منها وأي باب من أبواب المدن يفضي إليها.

٦) حريص على ذكر أقاليم كل كورة وأجزائها.(١١٨)

هذا وقد اطلع الباحث على قطعة من كتاب ترصيع الأخبار تمثل السفر السابع من الكتاب، ومن المؤسف أن هذه القطعة قد تعرضت لعوامل التآكل والرطوبة مما أثر في وضوح كثير من ورقاتها وشكّل صعوبة في قراءة نصوصها. وسنختار بعض النصوص من هذه القطعة كتدليل على طريقة العذري في كتاباته الجغرافية. يقول عن الجزيرة الخضراء (ومدينة سبتة قريبة جدا) أي من الجزيرة الخضراء - يرى الناس سورها ودررها (كلمة غير واضحة وقد تكون دورها) وبياض ثياب القصارين بها وتتحرك السفينة من مرسى الجزيرة عند بزوغ الشمس فلا ترتفع قدر رمحين إلا وقد رست بمدينة سبتة، والجزيرة شرق شلونه وقبلة من قرطبة(١١٩).

---

(١١٨) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس مقال سابق ص ٢٨٠ - ٢٨٤ بتصرف. وقسمة قسطنطين تقوم على تقسيم اسبانيا إلى ست ولايات هي باطقة ولشدانية وجليقية والولاية الطركونية والولاية القرطاجنية ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية والجزائر الشرقية (انظر تفصيل ذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس (ص ٥٣٨ وما بعدها.)

(١١٩) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك (مخطوط) السفر السابع ورقة ٢ ب.

ولا ريب أن هذه المعلومات المؤكدة بالتجربة والمشاهدة فيها ما ينم عن صدق هذا العالم وما اشتملت عليه كتاباته الجغرافية من مادة علمية هامة من جهة وممتعة وطريفة من جهة أخرى.

ويقول عن مدينة سرقسطة (قال أحمد بن عمر تفسير سرقسطة باللسان اللاتيني جاجراغشت. مشتق من اسم قيصر أوغسطس وهو الذي بناها وجعل لها أربعة أبواب باب إذا طلعت الشمس أول الطالع في الصيف قابلت عند بزوغها ذلك الباب فإذا غربت قابلت الباب الذي يليه من الغرب، وإذا طلعت في آخر المطالع في الشتاء قابلت الباب الذي يليه وهو باب القبلة، فإذا غربت قابلت الذي يليه)[١٢٠].

والعذري يمدنا بمعلومات غزيرة عن الزراعة وطرق السقيا المتبعة كحديثه عن النواعير التي تسقي المزارع في مرسية وغيرها من المدن التابعة لكورة تدمير، وهو في ذلك يعين المسافات والأبعاد بين المدن[١٢١].

والعذري بهذا المنهج العلمي المتميز قد قام بدوره العلمي على الوجه الأكمل، فقد أضاف طرفا من المعلومات القيمة عن الجغرافية السياسية والاقتصادية للبلاد في ضوء قسمة قسطنطين فقفز بمفهوم الجغرافيا إلى العصر الحديث[١٢٢].

ومن مملكة المرية أيضا برز العلامة أبوبكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض (٣٧٥هـ - ٤٥٨هـ/ ٩٨٥ - ١٠٦٥م). ولد في استجة وعاش في المرية وتلقى العلم على عدد من العلماء أمثال ابن عبدالبر النمري، وأبي عمر الطلمنكي المقرئ. ويبدو أنه كان واسع الاطلاع على التاريخ والجغرافيا وألف في التاريخ كتابا سماه «العبر» نشر ميخائيل الغزيري قطعة منه على أنها للرازي. كما أنه صنف كتابا آخر عن «الطرق والأنهار» ولكن كلا الكتابين ضاعا ضمن ما ضاع من تراث الأندلس[١٢٣].

---

(١٢٠) ترصيع الأخبار (مخطوط) السفر السابع ورقة ١٠ أ.
(١٢١) نفس المخطوط ورقة ١ أ.
(١٢٢) حسين مؤنس: مقال سابق، (ص ٢٩٠).
(١٢٣) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٢١٢)، وانظر ابن الأبار: الحلة السيراء، ج ٢، (ص ١٠) وح رقم ١. وانظر الدراسة التي قام بها عبدالواحد طه عن القطعة المتبقية من كتاب ابن الفياض في كتابه دراسات في التاريخ الأندلسي، (ص ١١٥) وما بعدها.

وأشار حسين مؤنس في مناقشته لما عثر عليه من ورقات مندرجة في نهاية كتاب الحلة السيراء ـ إلى أن الجزء الأول من كتاب العبر يدور حول جغرافية الأندلس، ويشير إلى ما قاله المراكشي في الذيل الجغرافي الذي ألحقه بكتابه المعجب وهو قوله (... هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف وداخل في باب المسالك والممالك، وقد وضع الناس فيه كتبا كثيرة ككتاب أبي عبيد البكري الأندلسي، وكتاب ابن أبي فياض الأندلسي أيضا، وكتاب ابن خرداذبه الفارسي، وكتاب الفارغاني وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له..)[١٢٤].

ثم يقول حسين مؤنس (ولم تذكر مراجعنا أن ابن أبي الفياض كتب كتابا مفردا في المسالك والممالك أي الجغرافية. فلم يبق إلا القول بأن المقدمة الجغرافية لتاريخه كانت طويلة مستوعبة جعلت عبدالواحد المراكشي يدرج ابن أبي الفياض ضمن أصحاب كتب المسالك والممالك[١٢٥]) وما من شك أن حسين مؤنس قد استعجل في إصدار حكمه على مقدار ما أسهم به ابن أبي الفياض في ميدان الجغرافيا واستدل بها لا يكفي على إثبات أن ما لابن أبي الفياض من إنتاج علمي كان محصورا في مقدمته لكتابه العبر مع أن المراكشي أشار إشارة واضحه إلى أن تلك الكتب ومن بينها كتاب ابن أبي الفياض (من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعبة له). وهو أمر يدل دلالة واضحة على أن ابن أبي الفياض صنف كتابا خاصا بالجغرافيا أو المسالك والممالك غير كتابه العبر في التاريخ الذي أشار إليه المراكشي صراحة عندما قال «حكى ابن أبي الفياض في تاريخه في أخبار قرطبة قال..»[١٢٦]. ثم أن آنخل بالنثيا يذكر أنه صنف كتابا غير العبر عن «الطرق والأنهار». وهو دليل يؤكد ماذهب إليه من ان ابن أبي الفياض قد أسهم في نشاط الدراسات الجغرافية بكتاب مستقل، كما أن ابن أبي زرع الفاسي يذكر في

---

(١٢٤) المعجب، ص ٤٩٠.
(١٢٥) الجغرافية و الجغرافيون في الأندلس مقال سابق، ص ٣٠٢.
(١٢٦) المعجب، ص ٥٢٠.

كتابه «الأنيس المطرب» في أحداث ٣٨١هـ ظهور نجم في السماء وكان في رأي العين كالصومعة العظيمة طلع من جهة المشرق وتطاير منه شرر عظيم ففزع الناس إلى الدعاء وأن الشمس كسفت في أواخر هذا الشهر ونسب هذا الخبر إلى ابن أبي الفياض في كتابه القبس[١٢٧]، وقبل ذلك أشار إلى قول له من غير تعيين اسم الكتاب[١٢٨]. والأستاذ حسين مؤنس ذكر هاتين الإشارتين ولكنه لم يشر إلى أن اسم الكتاب الذي ورد هو «القبس» وليس العبر كما قال[١٢٩] ومن الجائز أن يكون الكتاب المسمى «بالقبس» هو كتابه الآخر في الجغرافيا، وابن الشباط اعتمد على كتاب ابن أبي الفياض العبر ـ ويسميه «العبرة» ـ في الجزء الخاص بالأندلس من كتابه صلة السمط[١٣٠].

وهكذا يتبين لنا أن ابن أبي الفياض لم تكن جهوده الجغرافية مقتصرة على مقدمته على كتابه العبر وإنما نرجح أن له إنتاجًا متخصصا في هذا العلم ويؤكد ذلك ما أورده الباحث من إشارات مهمه حول ذلك.

ومن مملكة بني عباد في اشبيلية وقرطبة ذاع صيت العلامة أبي بكر عبدالله ابن عبدالحكم بن النظام ولا نعرف بالدقة تاريخ مولده، ولكن ابن الأبار أشار إليه وقال عنه (كان أديباً أخبارياً تاريخيا يحكي عنه ابن حيان في كتابه[١٣١].

وتعود شهرة ابن النظام إلى النص الجغرافي الذي أورده المقرّي في كتابه[١٣٢] والذي يدل دلالة واضحة على ملكة علمية راسخة ونظر دقيق في الجغرافيا المناخية للأندلس وعلى الرغم من نقله واقتباسه عن الرازي فقد أثبت بوضوحه ودقته وإضافاته العلمية ما كان يتمتع به من علم واسع وعميق بالجغرافيا. والمقرّي عندما أورد هذا النص لابن النظام كان قد أورد

---

(١٢٧) انظر الأنيس المطرب (ص ١١٥).
(١٢٨) نفس المصدر (ص ٩٤).
(١٢٩) انظر الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد. ج ٧ ـ ٨، (ص ٣٠٢).
(١٣٠) أحمد مختار العبادي : نص جديد لابن الشباط في وصف الأندلس (ص ١٣٢ ـ ١٣٣ ـ ١٣٤) وغيرها.
(١٣١) تكملة الصلة، ج ٢، ص ٧٨٨.
(١٣٢) انظر هذا النص كاملا في نفح الطيب، ج ١، (ص١٣١ ـ ١٣٢).

قبل ذلك نصا جغرافيا للرازي حول مناخ الأندلس وأمطارها وأثر ذلك في مجاري الماء فيها[١٣٣] وفكرة النصين تقوم على انقسام شبه الجزيرة الاسبانية من حيث الأمطار والريح واتجاه مجاري الأنهار إلى قسمين: غربي وشرقي. ويفصل بينهما منطقة وسطى اختلف الجغرافيون في تحديدها[١٣٤].

ونص ابن النظام عن مناخ الأندلس يكاد يكون أحسن مالدينا عن مناخ الأندلس وأمطارها وأثر ذلك في مجاري الماء فيها. ولعل اعتماد ابن حيان على نص ابن النظام رغم اقتباساته الكثيرة عن الرازي فيه ما يؤكد مكانة ابن النظام العلمية وتألقه في هذا العلم[١٣٥].

ويلاحظ في هذا التقسيم للأندلس من حيث المناخ تأثر جغرافيي الأندلس بتقسيم هروشيش (اورسيوس) في كتابه تاريخ العالم. حيث ذكر أن الأندلس أندلسان، ثم أخذ في تعريف حدود كل منهما وجهاته[١٣٦].

ويتجلى في وصف ابن النظام الوضوح الذي بزّ به سلفه الرازي في تقسيم الأندلس إلى منطقتين مختلفتين من حيث هبوب الرياح وسقوط الأمطار وجريان الأنهار، وكل هذا في دقة وإتقان عميقين في تحديد اتجاهات الأودية والأنهار وسلاسل الجبال، ويتم فهمنا لهذا النص إذا تصورنا الشكل المثلث لشبه الجزيرة الاسبانية[١٣٧].

وهكذا يتضح لنا مدى ماضاع من تراثنا الجغرافي، فمثل هذا العالم القدير لا نعرف عن حياته شيئا يذكر تقريبا، ومثل ذلك جهوده العلمية ومصنفاته في الجغرافيا اللهم إلا ما أشرنا إليه حول النص السابق. مع أنه يأتي في مقدمة جغرافيي الأندلس الذين أضافوا شيئا جديدا للجغرافيا. وكان من الممكن، لو سلمت كتاباته الجغرافية من الضياع، أن يمدنا بمعلومات قيمة وأفكار فريدة عن الجغرافيا وعلومها ويحتل بذلك مكانة رفيعة ليس في

---

(١٣٣) انظر النفح، ج ١، (ص ١٣١).

(١٣٤) حسين مؤنس : مقال سبق ذكره (ص ٢٩٩)، وانظر بالتفصيل عن المنطقة المشار إليها في نفس الصفحة وما بعدها.

(١٣٥) حسين مؤنس : مقال سابق (ص ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

(١٣٦) انظر اورسيوس : تاريخ العالم، (ص ٦٧).

(١٣٧) انظر المقري : النفح ج ١، ص ٢٣٢ ـ ١٣٣ وحسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ج ٧ ـ ٨ (ص ٣٠٠ ـ ٣٠١).

الأندلس فقط وإنما في العالم الإسلامي.

وفي دولة بني جهور ثم في مملكة المرية وأخيراً في مملكة اشبيلية لمع نجم العلامة الكبير أبوعبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري، أصله من شلطيش، وقد اختلف العلماء قديمهم وحديثهم في تاريخ مولده وذكر البعض أن مولده كان سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م كالمؤرخ الاسباني آنخل بالنثيا[١٣٨] والأستاذ جاينجوس وغيرهما[١٣٩].

وهو أمر لم تثبت صحته حيث إن ابن حيان أشار إليه وإلى أبيه عند دخولهما قرطبة سنة (٤٤٣هـ/ ١٠٥١م) ووصف أبا عبيدة فقال (فتى بزَّ الأقران جمالاً وبهاءً وأدباً)[١٤٠] وهو أمر لا يعقل أن يتصف به صبي عمره أحَدَ عشر عاما وابن حيان حريص أشد الحرص على إظهار الحقيقة واختيار الكلمات الصادقة المعبرة عن حقيقة الحال، فالفتى عند العرب هو الكامل الجزل من الرجال[١٤١]. وبناء على هذا فإن سن أبي عبيدة آنذاك بين العشرين والثلاثين[١٤٢].

وأما عن وفاته فقد أشار كل من ابن بشكوال وابن الأبار إلى انها كانت (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)[١٤٣]، ولكن الضبي يذكر انها كانت (٤٩٦هـ/ ١١٠٢م)[١٤٤] وهذا بخلاف ما قال حسين مؤنس من أن تاريخ وفاته متفق عليه، والحقيقة ليست كذلك. والتاريخ الذي أشار إليه الضبي هو الأقرب للحقيقة لأن ابن خاقان (٤٨٠ - ٥٢٨هـ/ ١٠٨٧ - ١١٣٣م) يقول (رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالي ولا نبغ في كوثري ولا زلالي في مجلس ابن منظور في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور، وله سبلة كأنما يروق العين إيماضها

---

(١٣٨) تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٠٩). وشلطيش: جزيرة في الجنوب الغربي للأندلس الحميري: الروض المعطار، (ص ٣٤٣ - ٣٤٤).

(١٣٩) انظر حسين مؤنس - المقال - السابق ص ٣١٠.

(١٤٠) الذخيرة، ق ٢، ج ١، ص ٢٣٤.

(١٤١) ابن منظور: لسان العرب ٥، ص ٢٠.

(١٤٢) عبدالله الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ص ١٩ وانظر حسين مؤنس: المقال السابق (ص ٣١٠).

(١٤٣) انظر الصلة، ج ١، (ص ٢٨٧ - ٢٨٨) - الحلة السيراء ج ٢، (ص ١٨٦).

(١٤٤) بغية الملتمس (ص ٣٤٦).

ويفوق السواد بياضها وقد بلغ سن ابن محلم»[١٤٥]. أي إن عمره كان ثمانين سنة وهو عمر ابن محلم الشيباني الذي قال:

إن الثمانيـــــن وبلغتهـــــا قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

فلو افترضنا أن عمر ابن خاقان عندما رأى أبا عبيد البكري كان عشر سنوات فإن تاريخ ذلك اللقاء كان (٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م) وعليه فإن ما ذكره الضبي أقرب للصواب[١٤٦].

وكان والد أبي عبيد أميراً على شلطيش وأونبه ـ وتقعان في الركن الجنوبي الغربي للأندلس ـ فقاتله المعتضد وطمع في أملاكه فزحف عليه واستولى على اونبه أوولبه ثم حاصره في جزيرة شلطيش حتى استسلم فغادرها إلى قرطبة بأهله وابنه أبي عبيد الذي ذاع صيته آنذاك بحسن أدبه وكمال معرفته[١٤٧].

وكان أبو عبيد البكري قد نشأ نشأة علمية، ولما استوطن والده قرطبة وجه همته للقاء من بها من العلماء والأدباء مثل المؤرخ القدير ابن حيان وأبي بكر المصحفي، كما أجاز له العلامة الحافظ ابن عبدالبر النمري[١٤٨].

ويهمنا في هذا الصدد من حياته ونشاطه العلمي ما يتصل بميدان الجغرافيا، فقد جمع إلى تضلعه من اللغة والأدب براعة تامة في الجغرافيا ونظراً صائباً ودقيقاً في معرفة ما يطرق من مناحيها المختلفة، فمما ألفه فيها من الكتب كتاباه الشهيران «الممالك والمسالك»[١٤٩] و«معجم ما استعجم»[١٥٠].

وكان أبوعبيد قد انتقل من قرطبة إلى المرية حيث حل ضيفا مكرما لدى الملك محمد بن معن، والتقى هناك بعدد من العلماء في مقدمتهم أحمد بن أنس العذري الذي استفاد منه فيما يتصل بالجغرافيا لكن طموحه دفعه إلى

---

(١٤٥) انظر قلائد العقيان، (ص٢١٨ ـ ٢١٩).
(١٤٦) انظر عبدالله يوسف الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، (ص١٩).
(١٤٧) ابن بسام: الذخيرة، ق٢ ج١، (ص٢٣٤).
(١٤٨) ابن بشكوال: الصلة، ج١، (ص٢٨٧).
(١٤٩) الموجود من هذا الكتاب بعض أقسامه ومنها جزء خاص بالمغرب وقد طبع.
(١٥٠) هذا الكتاب مطبوع في جزئين قام على تحقيقه مصطفى السقا طبع ١٩٤٥م ومن قبله نشره Wustenfeld ١٨٧٦م.

بلاط المعتمد بن عباد الذي حفل بعدد وافر من أهل العلم والأدب. حيث أنزله المعتمد منزلة سامية(١٥١).

وفيما يتصل بجهوده العلمية فإن كتابه المهالك والمسالك.. يعد من أكبر وأوسع المؤلفات المصنفة في هذا الميدان، وينقسم الكتاب إلى سفرين الأول يحتوي على الموضوعات الآتية:

١ - مقدمة تاريخية، تناول فيها عمر الأرض وما أورده الفقهاء والعلماء في ذلك وتواريخ الأنبياء عليهم السلام وغير ذلك.
٢ - القول في الأرضين والأنهار والبحار.
٣ - ذكر المهالك المختلفة كالهند والصين والسند والفرس واليونان والروم والصقالبة وملوك اليمن.
٤ - الجزيرة العربية وحدودها ومعادنها ومنتوجاتها وتحدث عن اليمن وعمان والبحرين واليمامه ومكة والمدينة.
٥ - المشهور من أخبار الشرق ومدنه فتحدث عن العراق ومدنه المشهورة وفارس وخواصها وبابل وبلاد ماوراء النهر.
٦ - تحدث فيه عن بلاد الشام وأقسامها وفلسطين ثم ختم ذلك بالكلام على بيت المقدس.
٧ - تحدث في هذا الموضع عن بلاد الروم وأخبارهم وكذلك عن جزر البحر المتوسط كقبرص وكريت وصقلية. كما تكلم عن المناطق الواقعة على شمال البحر المتوسط فأشار إلى الأنقلش. وأنهم جنس من الأتراك يجاورون الصقالبة. وتحدث عن شبه جزيرة ايطاليا وعاصمتها روما.

السفر الثاني تناول فيه عددا من الموضوعات هي:

١ - ذكر جملة القول في الأمصار ومساحات المهالك وتطرق إلى فضائل البلدان وأقسام إيران شهر.

---

(١٥١) انظر ابن بشكوال : الصلة، ج ١، (ص ٢٨٧) وابن بسام: الذخيرة ق ٢ ج ١، (ص ٢٣٥) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٠٩) عبدالرحمن حميدة : أعلام الجغرافيين العرب (ص ٢٨٩) حسين مؤنس: مقال سبق ذكره، (ص ٣١٤) عبدالله الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، (ص ٢٢).

٢ ـ ذكر مصر: فضائلها، خصائصها، نهر النيل، تاريخ ملوكها، كورها، ما فيها من المدن المشهورة والمسافات بينها.
٣ ـ بلاد افريقية والمغرب، وهو الجزء الكامل الذي نُشر.
٤ ـ بلاد الأندلس. وهذا الجزء ليس كاملا في كثير من نسخ المخطوط[١٥٢].

وأكبر القطع التي لدينا من هذا الكتاب محفوظة في مكتبة نور عثمانية تحت رقم ٤٠٣٤ وتقع في ٢٤٦ ورقة، ومنها نسخة مصورة بدار الكتب، ومعلوماتها في أكثرها حول موضوعات لا تمت بصلة للجغرافيا كحديثه عن القول في خلق الجنين، وذرية نوح عليه السلام، وقصص الأنبياء، ولكنها رغم ذلك تشتمل على موضوعات هامة كحديثه عن جزيرة العرب وبعض أخبارها قبل الإسلام ومعبودات العرب، وبيوت النيران وفي إيراده لهذه الأخبار يقتبس البكري بعض الأحيان من صديقه وتلميذه الجغرافي العذري، ومن غيره من الجغرافيين والإخباريين[١٥٣].

وفيما يتصل بالجزء المتعلق بشمال افريقيا فقد حققه ونشره البارون دي سلان سنة ١٨٥٧م بمدينة الجزائر، ثم أُعيد طبع هذا الجزء سنة ١٩١١م. وتُرجم إلى الفرنسية وطُبع ١٩١٣م.

وقد وصف فيه البكري الشمال الافريقي من برقة حتى المغرب الأقصى وموريتانيا، وتحدث فيه أيضا عن السودان الغربي فأشار إلى غانا ووصف ملكها وسيرته وعادات شعبه، وتحدث عن نهر النيجر والمدن الواقعة عليه وما يتصل بذكر أهالي تلك البلاد وبعض عاداتهم المرتبطة بتأثير البيئة وأحوالها[١٥٤].

هذا وقد نشرت قطعة من ذلك الكتاب تتعلق بجغرافية بلاد الروس والصقالبة مع ترجمة روسية بتحقيق كونيك والبارون «فون روزن» تحت عنوان

(١٥٢) عبدالله الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ص ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧.
(١٥٣) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس. مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ٧ ـ ٨. (ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨).
(١٥٤) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، (ص ١٧٤) وما بعدها تحت عنوان (غانه وسير أهلها)

أخبار البكري عن الروس والصقالبة في بطرسبرج ١٨٧٧م، معتمدين على المخطوطة المحفوظة في مكتبة نور عثمانية بالآستانة التي عثر عليها شيفر Schefer سنة ١٨٧٥م.

وجدير بالذكر أن عبدالرحمن الحجي قد قام بنشر قطعة من الكتاب تتصل بجغرافية الأندلس وأوربا سنة ١٩٦٨م. إذ جمع نصوصها المتعلقة بالأندلس وجزر البحر المتوسط وإيطاليا وما يقع من المناطق شمال البحر المتوسط. وفي هذا الجزء يعتمد البكري كثيرا على أقوال الرحالة الجغرافي اليهودي إبراهيم ابن يعقوب الطرطوشي الذي رحل إلى بلاد الجرمان في عصر الحكم المستنصر، فيقتبس منه معلومات عن جنس الصقالبة ووصف بلادهم وملوكهم، وفي موضع آخر يتحدث عن البلغار وكيف أنه قابل وفدهم بمدينة مجد برغ حين وفدوا على الملك هوته فوصف ملابسهم وزيهم، وجلالة قدرهم وعظم ملكهم وما عليه مَلِكهم من هيبة وجلال، وينقل عن الطرطوشي وصف بلادهم وأحوالهم المختلفة[١٥٥].

ويلاحظ في مقدمة كتاب المسالك والممالك أن للبكري نظرات جغرافية ذكية ولمحات علمية ثاقبة تنم عما كان عليه من قدرات علمية راسخة وملكة جغرافية متأصلة، فهو يشير بقوله (وأقيانس البحر المحيط لا يُدرى ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا، والشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في (الجزائر الخالدات). وهي الفكرة التي أدخلت كولمبوس التاريخ وحفظت اسمه كمكتشف لأمريكا[١٥٦].

والبكري يلخص اقوال المؤرخين والجغرافيين عن محيط الأرض قائلا (فهي ككورة الأرض المحيطة بالبر والبحر. فقطرها على هذا ٦٤٢٤ ميلا بتقريب وهو تقرير واضح لكروية الأرض[١٥٧].

وانظر أيضا كراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي العربي، ج ١، (ص ٢٧٥).

(١٥٥) انظر البكري : المسالك والممالك (جغرافية الأندلس وأوربا) (ص ٥٥٥ وص ١٥٦ - ١٥٧) وكذلك (ص ١٧٥ - ١٧٦ - ١٧٨).

(١٥٦) حسين مؤنس : مقال سابق، (ص ٣٢٩).

(١٥٧) حسين مؤنس : مقال سابق، (ص ٣٢٩).

وكتاب البكري الآخر في الجغرافيا وهو «معجم ما استعجم» معجم لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب ويسهب في وصف معالمها ومشاهدها وآثارها ومناهلها ومواردها، وتتبع الهجرات القبلية ونزوحها بين أنحاء الجزيرة العربية، وما من شك أنه أثر نفيس قيّم فهو يضم ما خلّفه العرب إبان نضجهم العقلي والعلمي فلا نكاد نجد له نظيراً بين معاجم البلدان في غزارة المادة، . وكثرة التفاصيل وسلامة المنهج وجمال الأسلوب ودقة الوصف(١٥٨).

وكتاب «معجم ما استعجم» لاغِنى عنه لكل من يهتم بتاريخ الجزيرة العربية وتاريخ سكانها وأوضاعهم الاجتماعية قديما، فهو من أعظم مصادر تاريخ العرب وجغرافية موطنهم الأصلي، وما يحويه من معالم جغرافية مختلفة وما حفلت به هذه المنطقة من وقائع وأحداث سجلها الشعر العربي القديم وحفظها وحفظ أسماء أماكنها(١٥٩).

يقول أبو عبيد البكري في مقدمة كتابه (هذا كتاب ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار، والدارات والحرار، منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة، فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مبين البناء، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف)(١٦٠).

والكتاب مرتب على حروف الهجاء فيبدأ بالهمزة والألف ثم بالهمزة والباء ثم بالهمزة والتاء وهكذا إلى نهاية الحروف «والكتاب يضم ٧٨٤ بابا وهو ناتج ضرب ٢٨ حرفا في مثلها. وهو في ذلك يبين المشكل بالمعجم والمهمل ويذكر بناءه وضبطه واشتقاقه ناسبا كل قول إلى قائله من اللغوين والإخباريين»(١٦١).

وإذا تذكرنا أن البكري كان عالماً ماهراً في اللغة والأدب وقفنا على سهولة مهمته العظيمة في معرفته ضبط الكثير من أسماء الأماكن والمواقع وتمييز

(١٥٨) البكري : معجم ما استعجم . مقدمة المحقق، وانظر حسين مؤنس المقال السابق (ص ٣٢٤).
(١٥٩) انظر Scott: History of the Morrish Empire in Europe Vol III P. 460
(١٦٠) معجم ما استعجم، ج ١، (ص ١).
(١٦١) انظر معجم ما استعجم، ج ١، (ص ٤).

بعضها من بعض مما أعطى كتابه منزلة راقية قل أن يكون لها نظير، ولا غرابة في ذلك فقد كان ملوك عصره يتهادون كتبه لنفاستها وقيمتها العلمية الكبيرة.

وأخيراً فإن البكري يعد في طليعة جغرافيي الأندلس وأكثرهم حظا في بقاء بعض مصنفاته الجغرافية التي كشفت لنا عما كان عليه من دراية ومعرفة بالجغرافيا بأوسع ميادينها. وكان المؤرخ الهولندي رينهات دوزي شديد الإعجاب بالبكري وجهوده العلمية الجغرافية حتى عده أكبر جغرافي أنجبته الأندلس(١٦٢).

أتى بعد البكري العلامة عبدالله بن إبراهيم الحجاري من مملكة طليطلة وقد سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه المسهب لدى الحديث عن التاريخ. وقد ضمّن الحجاري كتابه المذكور كثيرا من المعلومات الجغرافية عن الكور المختلفة وخصائصها النباتية والمعدنية. وكان كثير من معلوماته التي سجلها في كتابه يعتمد فيها على مشاهداته ومعايناته(١٦٣).

وكفى بالحجاري عالما أنه حدد معالم ما يسمى بالجغرافيا الأدبية أو الفكرية وسار بها شوطا بعيدا نحو الجغرافيا بعد أن كان ابن بسام في كتابه الذخيرة يعدها مجرد تقسيم للتسهيل والتيسير.

ولو تيسر لنا وجود السفر الأول من «وشي الطرس في حلى جزيرة الأندلس» لفتح علينا آفاقا واسعة في دراسة شخصية الحجاري الجغرافية وما أسهم به في ذلك، وعلى أي حال فهو في تاريخ الجغرافيا يحتل مكانة رفيعة(١٦٤).

وجدير بالذكر أن هناك عددا من العلماء لم يتخصصوا في علم الجغرافيا ولكن حفظت لهم بعض الآراء والأفكار في ميدان الدراسات الجغرافية، نذكر منهم ابن حزم الظاهري الذي أشار إلى كروية الأرض وأنه ليس هناك من

---

(١٦٢) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٠٩).
(١٦٣) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٨٣).
(١٦٤) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ٧ - ٨، (ص ٣٥٨ - ٣٥٩).

أئمة المسلمين المستحقين لإمامة العلم من ينكر تكوير الأرض. بل إن البراهين النقلية والعقلية تؤيد ذلك، ويورد في سبيل تأكيد ذلك عدداً من تلك البراهين(١٦٥).

كما أن ابن حزم خالف الأقوال الواردة في أن النيل وجيحون وسيحون والفرات تنبع من الجنة وتهكم على قائليها، ثم وضح منابعها الحقيقية كما هي في كتب الجغرافيا(١٦٦).

كما أن ابن سيده ضمّن كتابه «المخصص» الكثير من المعارف الجغرافية المتعلقة بالأرض وأوصافها وما يتصل بذلك من خصب وجدب ورمال وانخفاض وارتفاع واستواء وصحة وحرث ونبات وكذلك ما يتعلق بالشجر. وأوصافها، والنبات والثمار وغير ذلك من الموضوعات ذات الصلة القوية بعلم الجغرافيا(١٦٧).

ولا ريب أن ذلك ينم عما كان عليه ابن سيده من علم واسع واطلاع شامل ليس في اللغة فقط وإنما بمظاهر الحياة وما تحويه البيئة. فنجد من بين معلوماته تلك جانباً كبيراً يتعلق بالنبات والشجريات، وتعد هذه المعلومات أكثر ارتباطا بما يدرسه الجغرافيون المعاصرون في ميدان الجغرافيا الإقليمية والنباتية.

هذا وللمؤرخ صاعد الطليطلي آراء وإشارات في علم الجغرافيا، فهو عندما تعرض للأمم التي لم تعن بالعلوم ربط بين تخلفهم وتبلدهم ومواقعهم الجغرافية وما يتعرضون له من تأثيرات مناخية معينة فهو يقول عنهم (أشبه بالبهائم منهم بالناس لأن من كان منهم موغلا في بلاد الشمال ما بين آخر الأقاليم السبعة التي هي نهاية - المعمور في الشمال، فإفراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برّد هواءهم، وكثّف جوهم فصارت لذلك أمزجتهم باردة وأخلاطهم فجة فعظمت أبدانهم وابيضت ألوانهم وانسدلت شعورهم فعدموا

---

(١٦٥) الفصل في الملل والنحل، ج ٢، (ص ٩٧).
(١٦٦) نفس المصدر، ج ١، (ص ١١٨ - ١١٩).
(١٦٧) عمر كحالة : العلوم البحتة، (ص ٢٩٥ - ٢٩٦).

بهذه دقة الأفهام وثقوب الخواطر، وغلب عليهم الجهل والبلادة، وفشا فيهم العي والغباوة كالصقالبة والبلغر ومن اتصل بهم)[١٦٨].

كما يشير صاعد في موضع آخر إلى أنّ من كان موطنه قريبًا من خط معدل النهار وخلفه إلى نهاية العمران في الجنوب، فإن تعرضهم للشمس سخن أجواءهم فكانت أمزجتهم حارة وأخلاطهم محرقة فهم سود الألوان مفلفلي الشعور. فقصرت أحلامهم وضعفت بصائرهم. فانتشر فيهم الجهل والحمق كساكني أقصى بلاد الحبشة والنوبة والزنج[١٦٩].

ومع تقديرنا لأهمية ما ذكره صاعد فإنه يبدو أن تلك العلاقة بين الموقع الجغرافي والأجواء المناخية وبين سعة الفهم وضحالته كما وصف أمر بالغ فيه وحمّله أكبر من حقيقته العلمية.

هذا وقد ضمّن المؤرخ الكبير ابن حيان كتابه المقتبس معلومات جغرافية متنوعة وهامة ويغلب على الظن أنه نقل الجزء الجغرافي الذي استهل به أحمد ابن محمد الرازي تاريخه، فإن المقري يورد في النفح نقلا عن المقتبس لابن حيان فقرة خاصة باشبان والأمم التي حكمت الأندلس قبل المسلمين وهي جزء من المقدمة الجغرافية للرازي، وقد سار على هذا النهج في بقية كتابه فيورد في ثناياه فقرات جغرافية على سبيل التوضيح، فمن ذلك ما نقله المقري عنه حول حديثه عن جسر قرطبة ووصفه لمدينة الزهراء[١٧٠].

وختاما فإننا نؤكد أن هنالك عددًا من الأعلام الذين عدوا من المهتمين بالدراسات الجغرافية، ولكن لم يصلنا من إنتاجهم العلمي مع الأسف ما يكفي لإلقاء الضوء على حياتهم العلمية وما أسدوه من جهد علمي. ومن

---

(١٦٨) طبقات الامم ، (ص ٩).

(١٦٩ نفس المصدر والصفحة.

(١٧٠) انظر المقري : النفح ج ١، (ص ١٣٧)، وحسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مقال سابق (ص ٢٩٧) وكذلك أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣، (ص ٢٨٨) و(ص ٢٩٧). واشبان المذكور، كما يذكر المقري نقلا عن ابن النظام هو ملك عجم رومة الذين نزلوا الأندلس. وهو اشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس اشبانية. ويقال إن اسمه اصبهان فحرفه العجم إلى اشبان ونسب إليه بناء مدينة اشبيلية وكان اشبانية اسما خاصا لاشبيلية التي كان نازلا بها اشبان ثم عم الاسم الأندلس كلها وعظم سلطان اشبان المذكور حتى غزا ايلياء وأباد الكثير من اليهود (انظر المقري: النفح، ج ١، (ص ١٣٢) وما بعدها، وكذلك ما نقله عن ابن حيان (ص ١٣٧ ـ ١٣٨) وماورد عن اشبان المذكور يغلب عليه طابع الأسطورة والقصص المختلقة.

الحقائق المؤلمة التي لا يجهلها أي دارس للأندلس وتراثه أن هذا القطر قد تعرض لنكبات مروعة أدت إلى ضياع الكثير من تراثه الحضاري وخاصة الكتب التي فقد الكثير منها. ولهذا لا نعجب إذا لم يصلنا إلا شيء قليل من التراث الجغرافي لأولئك الأعلام الذين ذكرناهم وحاولنا بالترجمة لهم وبالتعريف بأهم مؤلفاتهم أن نرسم قدر الجهد صورة قريبة لما كانت عليه حال الدراسات الجغرافية في عصر ملوك الطوائف.

الرحلات الجغرافية

نرى لزاما علينا ونحن نتحدث عن الجغرافيا ونشاطها في الأندلس أن نلم بميدان الرحلات الجغرافية، وذلك لأن الأندلسيين عرفوا بشغفهم الشديد بالتنقل والأسفار وحبهم العميق للترحال في سبيل العلم أو التجارة أو السياحة.

ويذكر آنخل بالنثيا أن الحج كان السبب في تأصل حب الرحلة في قلوب الأندلسيين ومن ثم أولعوا بالرحلات، وكانت النتيجة المترتبة على ذلك أن ظهر من بينهم من ألف في وصف رحلاته وأسفاره بين البلدان(١٧١).

ومع تقدير الباحث لوجهة نظره إلا أننا لا نقتنع بأن الحج كان هو السبب الرئيسي في تألقهم في هذا الميدان من النشاط العلمي. فإن كثيرا من الرحالة الأندلسيين لم يكن الحج وحده يحدوهم لارتياد الأصقاع وقطع المفاوز والمجاهل في نواحي الأقطار المختلفة، فالحج ركن من أركان الدين يؤديه المسلم ثم يعود إلى بلده أو يعرج على بعض مدن المشرق للقاء العلماء. أما من ينوي الرحلة بمعناها الجغرافي الواسع فلا يكون في حاجة للوصول إلى غايته عن طريق الحج، ولا ينقض هذا أن بعض الرحالة الجغرافيين أدوا خلال رحلاتهم للمشرق مناسك الحج، ولكن لم تكن هذه المناسك السبب المباشر في القيام برحلاتهم الجغرافية الواسعة.

وجدير بالذكر أن الرحلات الجغرافية والاستكشافية قد بدأت قبل هذا العصر الذي نحن بصدد دراسته، ففي القرن الثالث الهجري تقريبا التاسع الميلادي اقتحم مجموعة من الفتيان وعلى رأسهم فتى يدعى الخشخاش المحيط الأطلسي بعد أن تجهزوا تجهيزاً تاما لهذه الرحلة البحرية وشقوا

---

(١٧١) تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٠٩) وانظر فيما يتصل بدوافع الرحلات الجغرافية عند المسلمين، انور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة، (ص ٤٤٦).

طريقهم في المحيط الأطلسي (بحر الظلمات) وغابوا مدة طويلة ثم عادوا وهم يحملون غنائم كثيرة غنموها من مناطق مجهولة لم يسعفنا التاريخ بمعرفتها.

وتَلاَ هذه الخطوة الجرئية مغامرة الفتيان المغررين الذين انطلقوا في رحلة بحرية استكشافية من مدينة لشبونة وكان عددهم ثمانية رجال فاخترقوا المحيط الأطلسي وظلوا مبحرين فيه ٣٥ يوما تقريبا[١٧٢].

كما نشير إلى الرحلات الهامة التي قام بها التاجر اليهودي الأندلسي إبراهيم ابن يعقوب الطرطوشي الذي كان يمتهن المتاجرة بالرقيق الأوربي وجلبه إلى الأندلس. فقام برحلات إلى ألمانيا وبلاد الصقالبة وشمالي أوروبا وقد احتفظ لنا البكري بجزء من أوصافه عن رحلاته إلى تلك المناطق، وخصوصا ما يتعلق ببلاد البلغار وعاداتهم[١٧٣].

وهكذا نلمس مدى ما كان للرحلات الجغرافية من مكانة رفيعة في الفكر الجغرافي الأندلسي وهو نشاط اتسع وتعاظم حتى بلغ ذروته في القرن السادس الهجري (عصر ابن جبير والإدريسي وأبي حامد الغرناطي).

وفي عصر ملوك الطوائف وبالرغم من ازدهاره الباهر في العلوم والمعارف فإن مصادرنا لا تمدنا إلاّ بلمحات خاطفة عن الرحلات الجغرافية، ولا تسعفنا إلاّ باشارات ضئيلة عن الرحالة الأندلسيين في هذا العصر. فيأتي في مقدمة هؤلاء العلامة محمد بن إبراهيم بن بصال الطليطلي، كان بارعا في علم الفلاحة، فقام برحلات وأسفار متعددة بين أقطار مختلفة زار فيها المغرب ومصر وصقلية. وكان عظيم الاهتمام خلال رحلاته تلك بدراسة النباتات والأعشاب ووصف خصائصها ووجوه منافعها وجمع منها شيئا كثيرا زرعه في بستان أنشأه في اشبيلية، ويبدو أنه كان في خدمة المعتمد بن عباد

---

(١٧٢) انظر بالتفصيل عن هاتين الرحلتين المسعودي: مروج الذهب، ج ١ (ص ١١٩) الحميري: الروض المعطار، (ص ١٧ - ١٨).

(١٧٣) حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث، ج ٧ - ٨ (ص ٢٧٢) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٣٢٦) وما بعدها.

ومن أجله أنشأ ذلك البستان وكان يسمى بستان السلطان[١٧٤] وسوف نتطرق فيما بعد للحديث عن ابن بصال في علم الفلاحة.

وكان العلامة أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) قد رحل عن الأندلس إلى مصر فأقام بها مدة من الزمن ثم عزم على الرجوع إلى وطنه ولكن أدركته الوفاة بالمهدية[١٧٥].

والذي يهمنا في سيرة أبي الصلت هنا ما ألفه عن رحلته لمصر والتي ضمّنها ما رآه بمصر من الآثار والمعالم، ومن اجتمع بهم فيها من الأطباء والمنجمين والشعراء... ونقل في رسالته تلك بعض آثارهم العلمية والأدبية، وقد أطلق على هذه الرسالة اسم «الرسالة المصرية» وأهدى تأليفه المذكور إلى أبي طاهر يحيى بن تميم[١٧٦].

وهذا الكتاب يدخل في كتب الرحلات التي حرص أبو الصلت على أن يسجل فيه كل مشاهداته وانطباعاته المختلفة عن مصر. وما من شك أن لكتابه قيمة رفيعة لما اشتمل عليه من نصوص هامة عن آثار ذلك القطر ورجاله.

ويلاحظ أن أبا الصلت وصف جغرافية مصر وتاريخها منذ الفراعنة إلى الإسلام كما أنه تعرض للأوضاع الاجتماعية للمصريين فتحدث عن عاداتهم وتقاليدهم آنذاك وأشار إلى البارعين من الأطباء وإلى ولع المصريين بأحكام النجوم وتعلقهم بذلك، والكتاب يضم معارف بلدانية قيمة مما أعطاه منزلة رفيعة رغم صغر حجمه[١٧٧].

وجدير بالذكر أن هنالك من العلماء من ذكر لهم نشاط في ميدان

---

(١٧٤) انظر. سيد حسين: العلوم في الإسلام، (ص ١٩٣) الكتب نقد وعرض (ابن بصال وكتابه الفلاحة) مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ٥ (ص ٢٨٠).

(١٧٥) ابن سعيد، المغرب، ج ١، (ص ٢٦١ - ٢٦٢). والمهدية مدينة بتونس بينها وبين القيروان ستون ميلا بناها أبوعبدالله الشيعي الملقب بالمهدي وإليه تنسب. الحميري: الروض المعطار، (ص ٥٦١).

(١٧٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٥١٤). ويحيى بن تميم من ملوك الدولة الصنهاجية (٥٠١ - ٥٠٩هـ) بشمال افريقيا. وكانت المهدية قاعدة ملكه بعد أن خرب العرب القيروان (السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي. ص ٥٨٦).

(١٧٧) انظر محتويات هذه الرسالة القيّمة في المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات تحقيق عبدالسلام هارون من (ص ١١ الى ص ٥٦).

الرحلات الجغرافية والتنقل بين الأقطار المختلفة، ولكن ليس لدينا معلومات مفصلة عن رحلاتهم المشار إليها وبالاقوه من أحداث ومواقف، وما وصفوه من وقائع وآثار ومعالم. فهذا العلامة عبدالقوي بن محمد العبدري (كان حيا ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) أخذ علومه عن عدد من علماء الأندلس كأبي عمر الطلمنكي، ثم قام برحلة إلى المشرق، ويقول عنه تلميذه أبوالحسن بن أحمد بن حنين «سافرت معه في مركب واحد من مصر إلى الهند»[١٧٨]..

كما عُرف عن العلامة أبي بكر محمد بن اغلب (ت ٥١١هـ/ ١١١٧م) أنه (كان كثير التحوّل عظيم التجول لا يستقر في بلد. ولا يستظهر على حرمانه بجلد، فقذفته النوى وطردته عن كل قوى، ثم استقر آخر عمره بأغمات وبها مات)[١٧٩].

ولأبي بكر محمد بن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣هـ/ ١٠٧٦ ـ ١١٤٨م) كتاب أسماه «ترتيب الرحلة»، ولكن المقّري نقل عن كتابه قانون التأويل وصفا ممتعا لغرق السفينة التي كان مبحرا فيها من افريقية، وفي هذا النص يقول ابن العربي (وقد سبق في علم الله أن يعظم علينا البحر بزوله. ويفرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميت من القبر، وانتهينا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب بن سليم ونحن من السغب على عطب، ومن العُري في أقبح زي، قد قذف البحر زقاق زيت مزقت الأحجار منيئتها (أي جلدها) ودسمت الأدهان وبرها وجلدتها، فاحتزمناها أُزُراً واشتملناها لُفُعاً، تمجنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف أميرهم علينا، فأوينا إليه فآوانا وأطعمنا الله تعالى على يديه وسقانا..)[١٨٠].

ويشير ابن العربي إلى ما لاقاه من المواقف والأحداث خلال وجوده في المشرق فهو يذكر أنه حل ضيفا على أحد أكابر مدينة دمشق فلاحظ في منزله نهرا يجري إلى موضع جلوسهم ثم يعود من جهة أخرى إلى مصدره،

---

(١٧٨) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع، (ص ٢٣٢).
(١٧٩) ابن خاقان : المطمح، (ص ٣٠٠ ـ ٣٠١).
(١٨٠) أزهار الرياض، ج ٣، (ص ٨٩). وانظر النص أيضا في نفح الطيب، ج ٢، (ص ٣١).

فلم يفهم معنى ذلك حتى جاءت موائد الطعام في النهر المقبل إليهم فأخذها الخدم ويسطوها أمام الضيوف فلما فرغوا من الطعام ألقى الخدم الأواني في النهر العائد فذهب بها الماء إلى ناحية الحريم من غير أن يصل الخدم إلى موضعهن في تلك الجهة(١٨١).

وما من شك أن في هذا إشارة واضحة إلى الأوضاع الاجتماعية السائدة آنذاك في الشام وخاصة ما يتصل منها بتقاليد وأخلاق الأسرة.

ويورد ابن العربي أيضا مشاهداته لبعض المعالم والآثار كحديثه عن الصخرة التي أنزل الله عليها المائدة، ووصف ما بها من الآثار المنحوتة وأنه كان يخلو فيها للدراسة، وذكر أنه أفاض في الحديث عنها في كتابه «ترتيب الرحلة»(١٨٢).

وابن العربي يمدنا بمعلومات طريفة عن مجالسه العلمية التي حضرها في المشرق وماجرى له بها من مواقف مع العلماء كالعلامة علي بن عقيل إمام الحنابلة في بغداد، وابن الكازروني في المقدس، بل إنه ذكر اجتماعه بعدد من كبار السحرة بأرض بابل فأخبروه أن من كتب آخر آية من كل سورة وعلقها لم يضره سحرهم(١٨٣).

وبهذا يتبين لنا أن ابن العربي كان له اهتمام بتسجيل رحلاته بين الأقطار الإسلامية وعناية بذكر ما واجهه من أحداث ومواقف، وماشاهده من معالم وآثار. ولا ريب أنه لو سلم كتابه الذي ألفه عن رحلته وحفظ من الضياع لكشف لنا عن الكثير من المعلومات القيّمة والطريفة التي تنم عما لاقاه وواجهه من معاناة من جهة، وما حفلت به حياته العلمية من مواقف جديرة بالتسجيل والتنويه من جهة أخرى؛ ولكن ما حفظه لنا المقرّي عنه من نصوص فيه ما يلقي شيئا من الضوء على هذا الجانب العلمي الهام.

ومن المظنون أن كتاب ابن العربي المذكور هو أحد الأصول التي اهتدى

---

(١٨١) المقري : نفح الطيب، ج ٢، (ص ٣٣).
(١٨٢) المقري : نفس المصدر والجزء، (ص ٣٧).
(١٨٣) المقري : نفح الطيب ج ٢ ص ٤٠ - ٤١ - ٤٢ - ٤٣.

بها ابن جبير في رحلاته المشهورة[184].

وأخيراً فقد ولد في أواخر هذا العصر رحالة أندلسي كبير احتل مكانة مرموقة بين رحالي الأندلس وهو العلامة الرحالة أبوحامد محمد بن عبدالرحيم المازني القيسي الغرناطي (٤٧٣ ـ ٥٦٥هـ/ ١٠٨٠ ـ ١١٧٠م)[185] الذي لم يدرك من عصر ملوك الطوائف سوى خمسة عشر عاما. ولذلك فإن المقام لا يسمح بإدراجه بين رحالي عصرالطوائف.

وختاما فإن هذا الميدان من النشاط العلمي لم يكن خلوا من المهتمين والمعتنين بأمره، فقد ظهر عدد من هؤلاء، ولكن كما سبقت الإشارة كانت مصادرنا عن هذا اللون من الدراسات الجغرافية شحيحة بعض الشيء وخصوصا في هذا العصر الزاهر بالمعرفة. وكل ما نرجوه أن نكون قد وفقنا إلى تلمس بعض الحقيقة ورسم صورة واضحة بعض الشيء عن الرحلات الجغرافية في عصر ملوك الطوائف.

---

(١٨٤) بول خليونجي وآخرون : موسوعة العلوم الإسلامية، (ص ١٣٢).

(١٨٥) انظر : المقري: النفح، ج ٢، (ص ٣٣٥)، وكراتشكوفسكي: الأدب الجغرافي العربي، ج ١، (ص ٢٩٥) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣١٢).

(٣) الفلسفـة

الفلسفـة مشتقة من كلمة يونانية وهي «فيلاسوفيا» أي محبة الحكمة، فالفيلسوف هو محب الحكمة[١٨٦].

وكان العرب قبل الإسلام لا يعرفون تماما هذا العلم ولم يكن لهم به اتصال إلا عندما انتشر الإسلام في الأقطار المختلفه وأخذ المسلمون في محاولة التعرف على آثار الشعوب الأخرى العلمية. فكان نشاط الترجمة والتعريب خير وسيلة ليطلعوا على نتاج الفكر العالمي، فظهر عدد من العلماء المشتغلين بعلوم الأوائل وكان من بينها الفلسفة، ونبغ بعد حين بعض العلماء فيها وحق أن يطلق عليهم فلاسفة.

ولكن الاستغراق في دراسة الفكر اليوناني والاهتمام به قاد البعض من العلماء إلى محاولة إقحام الفلسفة اليونانية في الفكر الإسلامي مما أحدث بلبلة بل تصادماً بين ما يعتنقه الإسلاميون وما تنادي به الفلسفة، ومن أجل هذا كان بعض العلماء المحـافـظين ينصحـون أهل العلم بتجنب الاتصال أو الجلوس مع المشتغلين بعلوم الأوائل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، في حين كان هؤلاء يخفون تعلقهم واشتغالهم بالدراسات الفلسفية بإظهار اشتغالهم بالطب والرياضيات[١٨٧].

كما أن المنطق اليوناني قوبل بحرب لا هوادة فيها من قبل أهل السنة لأن منـاهج البرهان الارسطاطاليسية كانت تمثل خطرا وفكرا مسموما على صحة الإيمان، ولهذا فقد قيل لديهم: إن «من تمنطق تزندق»[١٨٨].

وكـان حال الأندلس كحال بقية الأقطار الأسلامية من حيث الشعور الديني تجاه الفلسفة وما مورس ضدها وضد أتباعها من الأنكار والتشنيع. ولكن متى ظهرت الفلسفة في الأندلس؟.

---

(١٨٦) الخوارزمي : مفاتيح العلوم، (ص ٧٩).

(١٨٧) توفيق الـطويـل : قصـة الصراع بين الـدين والفلسفة (ص١١٧) وانظر آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٢٥ - ٣٢٦).

(١٨٨) توفيق الطويل : المرجع السـابق، ص ١٢٠ ، سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر. (ص ٤٨).

يجيب على هذا التساؤل الهام أحد مؤرخي عصر ملوك الطوائف وهو العلامة القاضي صاعد الطليطلي فيذكر أن اسبانيا كانت خالية الوفاض من الاشتغال بالفلسفة قبل الإسلام فلم يعرف عن أحد من أهلها أنه درس الفلسفة ونبغ فيها، واستمر الحال على هذا الوضع حتى دخلها المسلمون سنة ٩٢ هـ/ ٧١٠ م. فأرسوا قواعد الحكم، ولما استتب الأمر لبني أمية انصرف الناس في عهدهم نحو تحصيل المعارف ودراسة العلوم ومن بينها علوم الأوائل(١٨٩).

ويلاحظ أن الفلسفة دخلت هذا القطر بقناع ساتر وبرفقة العلوم التطبيقية كالطب والفلك والرياضيات، أو دخلت متخفية في ثنايا علم الكلام وفكر أتباع الباطنية الذين كانوا يتظاهرون بالنسك والتصوف.

هذا بالإضافة إلى ما عرف عن اهتمام الأمير عبدالرحمن الأوسط بعلوم الأوائل ومن بينها الفلسفة وحرصه الشديد على جمع تصانيفها من خارج الأندلس وبالأخص ما يتعلق منها بالفلسفة فنسب إليه أنه أول من أدخل الفلسفة إلى الأندلس(١٩٠).

ويحدثنا ابن طفيل عن تاريخ الفلسفة في وطنه فيشير إلى بداية اهتمام علمائه بالعلوم المختلفة وكيف أفضى بهم الحال إلى النظر في علوم الأوائل وخاصة العلوم الرياضية، ثم أتت طائفة اهتمت بالمنطق والنظر فيه ودراسته ولكنهم لم يبلغوا درجة الكمال في ذلك، لتأتي طائفة ثالثة أحلق ممن سبق نظرا وأقرب إلى الصواب وفي مقدمتهم الفيلسوف أبوبكر بن الصائغ المعروف بابن باجه (ت ٥٣٣هـ/)(١٩١)

وقد يتساءل المرء عن العامل أو العوامل التي أضعفت الاشتغال بالفلسفة قرونا عديدة حتى ظهر نجومها البارزون أمثال ابن حزم وابن باجه وابن

---

(١٨٩) طبقات الأمم، ص ١٥٥ ـ ١٥٦.
(١٩٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٥٥٦.
(١٩١) حي بن يقظان، ص ١١١، وانظر كذلك محمد الجابري: نحن والتراث (ص ٢٥١) أحمد الأهواني: الفلسفة في الأندلس الدور الأول، (مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ج ١٥، الجزء الأول، سنة ١٩٥٣م (ص ١٠١ ـ ١٠٢).

السيد وابن رشد وابن طفيل وغيرهم.

والحق أن ذلك عائد إلى أمور منها انشغال الأندلسيين آنئذ - أي قبيل القرن الرابع الهجري تقريبا - بالدراسات الشرعية واللغوية والأدبية إذْ كانت هذه العلوم جل ما استحوذ على عناية واهتمام الأندلسيين فصرفهم عن الاشتغال بغيرها من العلوم. ونضيف إلى ذلك ما ذكرناه آنفا من موقف الفقهاء والعامة من الفلسفة والمنطق، فقد كانت هاتان الفئتان من الشعب تنظران إلى الفلسفة نظرة كراهية ومقت شديدين. ولهذا أصبحت الفلسفة (علمًا ممقوتًا بالأندلس لا يستطيع صاحبه إظهاره فلذلك تُخفى تصانيفه)[١٩٢].

بل إن أي شخص يقرأ الفلسفة أو يأخذ عنها شيئا ولو يسيرا تطلق عليه العامة: زنديق، ويسلك بنفسه طريقا إلى الهلاك، وتنتهي به الحال إلى مالا يحمد عقباه[١٩٣].

ولهذا قال ابن طفيل إن الفلسفة (أعدم من الكبريت الأحمر ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلاّ الفرد بعد الفرد، ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به إلاّ رمزا فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه. وحذرت عنه)[١٩٤].

كما أن المنصور بن أبي عامر عندما سيطر على زمام الأمور بعد وفاة الخليفة الحكم المستنصر أراد أن يظهر للفقهاء والعامة حميته للدين فأمر بإحراق وتمزيق كتب الفلسفة والمنطق وطارد المشتغلين بها[١٩٥].

ولهذا يلاحظ ما لحق بالفلسفة من ضعف وما جرى لأتباعها من التنكيل

---

(١٩٢) المقري: النفح، ج ٣، ص ١٨٦ وانظر أيضاً S.M. Imamuddin: Muslim Spain. P. 152 .

(١٩٣) المقري : نفح الطيب، ج ١، (ص ٢٢١) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٨٧) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ج ٣ (ص ٢٣٤). ويكفي أن نشير مثالا على ما ذكرناه ما حل بالفيلسوف ابن مسرة (٢٦٩هـ - ٣١٩هـ) من محاربة واضحة له ولمذهبه ولأتباعه، وقد أفرد لنا أبن حيان جانبا من تاريخه لحركة ابن مسرة والقضاء على مذهبه ومطاردة أتباعه واحراق كتبه (انظر المقتبس الجزء الخامس ص ٢٠) وما بعدها، وانظر ايضا ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، (ص ٣٩) وصاعد: طبقات الأمم (ص ٢٨).

(١٩٤) حي بن يقظان ، (ص ١١١).

(١٩٥) انظر صاعد : طبقات الأمم، (ص ٨٨ - ٩٨) ابن عذاري : البيان المغرب، (ص ٢٩٣).

فآثر البعض السكوت والاختفاء وآثر البعض الآخر الخروج عن الأندلس في حين تسترت فئة منهم بالاشتغال بالطب والفلك والرياضيات[١٩٦].

ولكن الحال ما لبث أن تغير في عصر ملوك الطوائف بل إنه ما كادت الفتنه تطل برأسها حتى بيعت خزائن كتب بني أمية بأرخص الأثمان، فانتشرت تلك الكتب في أنحاء البلاد ووجد من بينها كتب كثيرة في علوم الأوائل لم تنلها أيدي الإعدام والتدمير في عصر المنصور العامري، وكان لانشغال الخلفاء في هذه الفترة العصيبة ـ أي بعد الفتنة ـ بالقضايا السياسية قد وفر فرصة عظيمة للمهتمين بالفلسفة والمنطق فانصرفوا لدراستها وإظهار ما لديهم من النشاط، وازداد هذا النشاط أكثر عندما ظهر ملوك الطوائف الذين أباحوا الاشتغال بالفلسفة، وأعرضوا عن التضييق على أتباعها[١٩٧].

وازدهرت حال الدراسات الفلسفية في هذا العصر حتى وجد بين ملوك الطوائف أنفسهم ملوك عنوا بالفلسفة وشغفوا بها كملوك بني هود في سرقسطة والمأمون بن ذي النون في طليطلة.

وكان لقرب تلك المملكتين من الوجود النصراني في الشمال، وما عرف عن المسلمين من تسامح قد فرض لونا من الانفتاح والمرونه أمام مثل تلك الدراسات، فقد عرف عن بني هود ترحيبهم بالفلسفة وأتباعها فلجأ إلى مملكتهم كثير من الفلاسفة مثل عمرو بن أحمد الكرماني، وثابت بن محمد الجرجاني. وسليمان بن يهود وأبوبكر الصائغ وغيرهم. كما ضم بلاط المأمون ومملكته العديد منهم، مثل أبي الوليد الوقشي، وصاعد الطليطلي، وابن البغونش. وكل هؤلاء سيأتي ذكرهم.

وفي هذا العصر برز اسم العلامة علي بن أحمد بن حزم الظاهري كأحد أعلام الفلسفة في الأندلس، وكان قد درس الفلسفة على يد أستاذه محمد بن الحسن المذحجي، وقد أثنى عليه ووصف رسائله الفلسفية بالقيمة العلمية الكبيرة وعظم

---

(١٩٦) صاعد: طبقات الأمم، ص ٨٨ ـ ٨٩.
(١٩٧) صاعد: المصدر نفسه ٨٩ ـ ٩٠.

الفائدة، وأنها متداولة بين الناس[198].

والفلسفة عند ابن حزم كما يقول: (إنها معناها وثمرتها والغرض المقصود بتعلمها ليس هو شيئا غير إصلاح النفس بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية وهذا نفسه لا غير هو غرض الشريعة)[199].

ويلاحظ في هذا التعريف أن ابن حزم، وهو الذي ينهج المذهب الظاهري القائم على استقراء ظاهر النص، لم يقصد أن يضع فلسفة عقلية أو ينشئ فلسفة عامة لأن مثل ذلك يصطدم بمذهبه الظاهري، ولذلك اكتفى بتعريف الجانب العملي من الفلسفة لا النظري والعقلي[200].

وابن حزم أكثر مرونة وأوسع أفقاً في تقسيمه لأهل وطنه من حيث نظرتهم لعلوم الأوائل ومن بينها الفلسفة، فقسمهم إلى أربع طوائف:

الطائفة الأولى: حكمت على تلك العلوم بأنها تتضمن الكفر والإلحاد دون أن يدرسوها أو يطالعوها.

الطائفة الثانية: عدت تلك العلوم هذرا ومضيعة للوقت فهم يحتاجون إلى من يفهمهم أنهم على خطأ في تفكيرهم ذلك.

الطائفة الثالثة: قرأت ودرست تلك العلوم بعقول منحرفة وأهواء ضالّه فلابد من إرشادهم إلى الحق.

الطائفة الرابعة: نظرت إليها بأذهان صافية وأفكار نقية سليمة فاستنارت بتلك الكتب وأفادت منها[201] ولعل شهرة ابن حزم في الفلسفة تعود إلى أنه ابتكر نظاما فلسفيا بنظريته الفذة عن المعرفة التي ضاهى بها أفكار فلاسفة العصر الحديث وأتى بأعظم مما عرفوه عن المعرفة الإنسانية، وكان له فضل السبق في وضعها في

---

(198) المقري : نفح الطيب، ج ٣، (ص ١٧٥) نقلا من رسالة ابن حزم في فضل الأندلس - الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج ٣، (ص ١١٤٦ - ١١٤٧).

(199) الفصل في الملل والنحل، ج ١، (ص ٩٤).

(200) انظر تفصيل الحديث عن هذا الجانب لدى الخوارزمي: مفتاح العلوم، (ص ٧٩) وما بعدها.

(201) ابن حزم : التقريب لحد المنطق، ص ٦ - ٧ وانظر بتفصيل أكثر، عبدالمجيد التركي: موقف ابن حزم الأصولي من منطق أرسطو (مقال من كتاب أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥ ، (ص ٢٨٥) وما بعدها.

ذلك إطار الرائع[٢٠٢].

والعلم والمعرفة عند ابن حزم اسمان لمعنى واحد. وهو اعتقاد الشيء على ما هو عليه وتيقنه به وارتفاع الشك عنه، ومصادرهما عنده أربعة:

١ ـ النصوص من القرآن والأحاديث النبوية.

٢ ـ ما أوجبته اللغة من المعاني التي تحملها الكلمات، وما اصطلح عليه العرب من الفهم عند سماع هذه الكلمات.

٣ ـ الاكتساب ونقل التواتر.

٤ ـ الحس السليم، وبديهة العقل[٢٠٣].

وابن حزم بجهده العلمي الفلسفي ومساهمته الكبيرة في بناء تلك النظرية الإنسانية قد حل أعقد مشكلة في تاريخ هذه النظرية، وهي المشكلة التي زعم مؤرخو الفلسفة الأوروبية بأنهم قد انتهوا إلى حلها وكشف غموضها بواسطة فيلسوفهم الالماني كانط kant (ت ١٨٠٤) والذي وقف متحيرا أمام هذا السؤال: كيف تكون الأحكام المبنية على الاختبار الحسي ممكنة البديهية؟ ومن ثم توصل إلى أن المعرفة التي نعتقد أننا قد عرفناها بواسطة بديهة العقل راجعة إلى الحواس في زمن متقدم وسابق ثم أطلق على ذلك Apriori Apos-teriori ، ولم يعلم أن المفكر العظيم ابن حزم الذي عاش قبله بسبعة قرون قد سبقه إلى حل تلك المسألة حلاً لا يقصر عما توصل إليه اللهم إلا في بسط القول وشكل المنطق اللذين تميز بهما العالم الألماني مع احتفاظ ابن حزم بقصب السبق في هذا الكشف العلمي[٢٠٤]

وفيما يتعلق بنشاطه الفلسفي في المنطق فإنه حاول تلخيص كتاب ايساغوجي «المدخل إلى علم المنطق» لفرفوريوس الصوري فصنف كتابه «التقريب لحد المنطق» بالإضافة إلى أنه حاول أن يعرض كتبا من تأليف

---

(٢٠٢) عمر فروخ : ابن حزم الكبير، (ص ١٦١ ـ ١٦٢).

(٢٠٣) انظر حديث ابن حزم عن هذه النظرية في الفصل، ح ٥، (ص ١٠٨ ـ ١٠٩) وما بعدها وللتوضيح والشرح. انظر عمر فروخ: ابن حزم الكبير، (ص ٦٦) وما بعدها وكتابه الآخر، تاريخ الفكر العربي، (ص٥٩٦ ـ ٥٩٧) وكذلك عبداللطيف شرارة: ابن حزم رائد الفكر العلمي، (ص ٨٠) وما بعدها.

(٢٠٤) عمر فروخ : ابن حزم الكبير، (ص ١٧٧) وكتابه الأخران العلوم عند العرب، (ص ١٨٣)، وتاريخ الفكر العربي، (ص ٥٩٨). قدري طوقان: العلوم عند العرب ، (ص ١٨٢ ـ ١٨٣).

أرسطو في المنطق وحرص على تبديل أسماء فصول المنطق فقال في هذا الصدد: (اعلم أن القضيتين المذكورتين: (المقدمة الأولى والمقدمة الثانية) إذا اجتمعتا سمتهما الأوائل القرينة واعلم أن باجتماعها كما ذكرنا ـ يحدث عنهما أبداً قضية ثالثة صادقة أبداً لازمة ضرورية لا محيد عنها وتسمى هذه القضية (الثالثة) الحادثة عن اجتماع القضيتين (الأولى والثانية) نتيجة، والأوائل يسمون القضيتين والنتيجة معاً في اللغة اليونانية ـ السلجموس وتسمى كلها في العربية الجامعة)(٢٠٥).

ومثال ما تقدم:

المقدمة الأولى : كل إنسان حي.
المقدمة الثانية : كل حي جوهر.

فإذا اجتمعت المقدمتان سميتا بالقرينة. ولابد أن يحدث عن اجتماعهما قضية ثالثة صادقة أبدا، وهي أن كل إنسان جوهر = وهي النتيجة.

ويحدثنا صاعد عن منهج ابن حزم في تأليفه لهذا الكتاب فيقول (بسط فيه القول على تبيين طرق المعارف واستعمل فيه أمثلة فقهية وجوامع شرعية وخالف أرسطاطاليس واضع هذا العلم في بعض أصوله مخالفة من لم يفهم غرضه ولا ارتاض في كتبه فكتابه من أجل هذا كثير الغلط بَيِّن السقط)(٢٠٦).

ولكن صديق ابن حزم، الحميدي أشار إلى كتابه المذكور وذكر أنه نهج فيه طريقة فريدة في بيانه وإزالة الغموض والشبهات عنه(٢٠٧).

ويبدو أن صاعدا أقرب إلى قول الحق في كتاب ابن حزم، وذلك أن صاعدا كان على علم واسع بكتب الأوائل ومعرفة المشتغلين بها والمطلعين على علومها، فقد كان شديد الشغف بعلوم الأوائل راغبا في دراسة الفلسفة،

---

(٢٠٥) ابن حزم : التقريب لحد المنطق، ص ١٠٦ وانظر لإيضاح ذلك عبدالمجيد التركي: موقف ابن حزم الأصولي من منطق أرسطو، مقال في كتاب أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية منشورات كلية الآداب بالرياض (ص ٢٨٩) وما بعدها.
(٢٠٦) طبقات الأمم (ص ١٠١).
(٢٠٧) جذوة المقتبس، (ص ٣٠٩).

والحميدي أبعد عن ذلك، فهو فقيه محدث وليس له صلة بالفلسفة والمنطق، ويبدو أنه قال ما قال مجاملة ومودة لصديقه ابن حزم الظاهري[٢٠٨].

وابن حزم عندما صنف كتابه «تقريب حد المنطق» لم يسع إلى إبراز المنطق كعلم مستقل، ولا حاول أن يقيد حدوده على أنها قواعد جازمة، بل قصد أن يجمع أشياء من حدوده وفصوله وألفاظه وتراكيبه وقضاياه كي يستند إليها في نصرة مذهبه الظاهري، واعتمد في تحقيق غايته على الكتب المنقولة عن اليونان، وكانت مليئة بالأغلاط والتحريفات لسوء ترجمتها للعربية أو بواسطة السريانية فلم يسلم كلامه عن المنطق من تلك الأخطاء بالإضافة إلى محاولته التنصل عن كل ما يناقض مذهبه الظاهري فلم يقبل القياس المنطقي[٢٠٩].

ولدينا كتاب لابن حزم يسمى «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» ويحوي مايشبه المذكرات اليومية حول ملاحظاته المنتزعة من تجاربه ومشاهداته الشخصية وقد صاغها في تركيز ودقة فجاءت كانها مبادىء عامّة أو حكم بالغة[٢١٠].

ومن أقواله تلك (استبقاك من عاتبك، وزهد فيك من استهان بسيئاتك. العتاب للصديق كالسبك للسبيكه فإما تصفو وإما تطير)[٢١١].

(أصول الفضائل كلها أربعة منها تتركب كل فضيلة. وهي العدل والفهم والنجدة والجود)[٢١٢].

وكان ابن حزم شديد التأثر بما وقع له مع خصومه ومكابدته تدابيرهم ووقوفهم في وجهه فهو يقول (من بديع ما يقع في الحسد قول الحاسد إذا

---

(٢٠٨) انظر كتاب طبقات الأمم، لصاعد وتعليقه على سير فلاسفة الأمم المختلفة ومن بينهم فلاسفة الإسلام لتقف على سعة علمه في ذلك وانظر ترجمة الحميدي لدى الضبي: بغية الملتمس (ص ١٢٣ - ١٢٤).

(٢٠٩) عمر فروخ : ابن حزم الكبير، (ص ١٨١ - ١٨٢) وانظر ابن سعيد: المغرب، ج ١، (ص ٣٥٤ - ٣٥٥). وكذلك عبداللطيف شرارة: ابن حزم (ص ٧٩).

(٢١٠) أحمد هيكل : الأدب الأندلسي (ص ٣٦٢ - ٣٦٣) وانظر عبداللطيف شرارة: ابن حزم رائد الفكر العلمي (ص ٧٧).

(٢١١) الاخلاق والسير، (ص ٤٠).

(٢١٢) نفس المصدر، (ص ٦٠).

سمع إنسانا يغرب في علم ما: هذا شيء بارد، لم يتقدم إليه ولا قاله مثله أحد، فإن سمع من يبين ما قد قاله غيره قال: هذا بارد، وقد قيل قبله، وهذه طائفة سوء قد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم يصدون الناس عنها ليكثر نظراؤهم من الجهال)[٢١٣]

وحق على كل من يطالع كتاب ابن حزم «الفصل» أن يشهد له بالنبوغ والإبداع الفكري الفلسفي الذي بدا فيه من أقدر فلاسفة الإسلام اللامعين والذي استغل فيه تضلعه من الفلسفة إلى جانب ثقافته الإسلامية في الدفاع عن الإسلام ضد أهل الملل والنحل الأخرى.

وفي عصر الطوائف نبغ العلامة أبومحمد عبدالله بن محمد البطليوسي المعروف بابن السيد (٤٤٤ - ٥٢١هـ/ ١٠٥٢ - ١١٢٧م) وقد أشرنا إليه عند الحديث عن اللغة وعلومها وأنه تنقل بين إمارة بني رزين ثم سرقسطة فطليطلة ليستقر آخر عمره ببلنسية حيث انصرف كلية للتدريس ونشر معارفه بين طلبة العلم.

ولابن السيد مساهمة جيدة في الدراسات الفلسفية، فقد صنف كتابا في الفلسفة أسماه كتاب «الحدائق»[٢١٤] يقع في نحو ستين صفحة من القطع الصغير، استعرض فيه عددا من وجوه الفلسفة القديمة كالفيض والنفس وقواها. وتناول بصورة فلسفية عدداً من المسائل الإسلامية المتعلقه بصفات الله والخلود وغير ذلك[٢١٥].

وهذا الكتاب نشره آسين بلاثيوس مع ترجمة اسبانية في سنة ١٩٤٠م وقال إنَّ اهمية الكتاب تكمن في عرضه صورة صادقة لحال الدراسات الفلسفية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف. وهو العصر الذي ألف فيه المؤلف

---

(٢١٣) نفس المصدر، (ص ٧٠).

(٢١٤) اسم الكتاب بالكامل «الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة» انظر إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين (ص ٦٥)، محمد رضوان الداية : تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، (ص٢٠١).

(٢١٥) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي، (ص ٦٠٥)، وانظر ايضا
Titus Burckhard: Moorish Culture in Spain, P. 134.

كتابه المذكور وأنه سعى من خلال دراسته الفلسفية إلى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني[٢١٦].

ويرى الباحث استحالة التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني نظراً للبون الشاسع والاختلاف الواسع بين مصدريهما.

وابن السيد خصص كتابه «الحدائق» للإجابة على سبع مسائل: أولها أن ترتيب الموجودات عن السبب الأول يمثل دائرة وهمية، وأن الشخص تبلغ ذاته بعد وفاته إلى حيث يبلغ علمه في حياته ويمثل علمه دائرة وهمية، وأن صفات الله لا يصح أن يوصف بها إلا عن طريق السلب، وقولهم لا يعرف الله إلا نفسه. والبرهان على خلود النفس الناطقة بعد الموت، وزاد إلى النفوس الثلاث المعروفة وهي النباتية والغضبية والناطقة ثلاث نفوس هي الفلسفية والنبوية والكلية غير قاصد أن هذه الأنواع الثلاثة في القسمة الأصلية للنفوس ولكنه مزج صفات بعض النفوس الناطقة وميز بعض أقسامها وهو في ذلك يعتمد على الفلاسفة الإغريق كزينون وأرسطو وأفلاطون[٢١٧].

ويلاحظ أن ابن السيد سعى في كتابه إلى حل عدد من التساؤلات والقضايا الفلسفية التي طالما استقطبت أذهان الناس وترددت على أسماعهم، وشغلت الفكر الإسلامي بعد أن استمدت أصولها من الفلسفة الإغريقية دون أن يصطدم بالدين أو يخرج على تعاليمه[٢١٨].

ولابن السيد آراء ونظرات فلسفية عميقة في كتبه الأخرى، ففي كتابه «التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم» يقدم لنا فكرة جديدة تتضمن أن الاختلاف بين

---

(٢١٦) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥) وانظر إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف، (ص ٦٥ ـ ٦٦) وبشير محمد رضوان في كتابه تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، (٢٠١، ح رقم ٢ ان الكتاب نشره عزت العطار ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م بعناية السيد زاهد الكوثري وقدم له بمقدمة قصيرة.

(٢١٧) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، (ص ٦٥ ـ ٦٦).

(٢١٨) انظر مقدمة محقق كتاب «التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين» لابن السيد.

الناس في الآراء والمعتقدات أمر طبيعي ودليل على البعث وأن هناك حياة غير هذه الحياة، فهو يقول (إذا كان وجود الخلاف يقتضي وجود الائتلاف لأنه ضرب ونوع من المضاف.. وكان لابد من حقيقة. وأن لم نقل ذلك صرنا إلى مذهب السوفسطائية في نفي الحقائق فقد صار الخلاف الموجود في العالم - كما ترى - أوضح الدلائل على كون البعث الذي ينكره المنكرون وينازع فيه الملحدون)(٢١٩).

وكان لابن السيد معرفة بالمنطق وبراعة في ألفاظه ومصطلحاته ولكنه كان شديد الحرص في مناظراته على عدم إقحامه في مناقشاته وجدله مع العلماء.. وقد عاب على أحد مناظريه في النحو اعتماده على المنطق وأساليبه فذكر أن كل علم يجب أن يستند فقط إلى قوانينه المتعارف عليها وليس على قوانين وأساليب أخرى(٢٢٠).

وشهد هذا العصر تيارا علميا زاخرا بين الشرق والأندلس فكان من نتيجة الرحلات العلمية إلى المشرق دخول بعض الكتب الفلسفية الأندلس فيذكر، صاعد في كتابه طبقات الأمم أن العلامة الطبيب الفيلسوف أبا الحكم عمرو بن أحمد الكرماني (ت ٤٥٨هـ) أول من أدخل رسائل إخوان الصفا إلى الأندلس(٢٢١).

وفي قول صاعد إشارة هامة تنقض كلام كثير من المؤرخين الذين أشاروا إلى أن لمسلمة المجريطي دراسات حول رسائل إخوان الصفا، وأنه أسهم في كتابة بعض فصولها(٢٢٢).

ومن مملكة طليطلة ظهر الفيلسوف القدير سعيد بن محمد بن البغونش (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م). وكان ماهرا في الفلسفة، تجلى ذلك فيما حفظ له

---

(٢١٩) التنبيه (ص ١١).
(٢٢٠) السيوطي: صون المنطق والكلام، (ص ٢٠٠)
(٢٢١) (ص ٩٧) وورد هذا الاسم عند القفطي وعمره.
(٢٢٢) انظر مثلا: البغدادي: هدية العارفين، ج ٦، (ص ٤٣٢) وعبدالحليم منتصر: تاريخ العلم، (ص ١٨١) وبول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية (ص ١٦٠) انخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ١١).

من أقوال وآراء حكيمة تنم عن جودة قريحته ورسوخ قلمه في هذا العلم، وقد وصفه صديقه صاعد فقال (لقيت منه رجلاً عاقلاً جيل الذكر والمذهب حسن السيرة نظيف الثياب ذا كتب جليلة في أنواع الفلسفة وضروب الحكمة وتبينت منه أنه قد قرأ الهندسة وفهمها والمنطق وضبط كثيراً منه ثم أعرض عن ذلك وتشاغل بكتب جالينوس وجمعها)[٢٢٣].

ومع الأسف فليس لدينا من كتبه أو دراساته الفلسفية ما يعيننا على دراسة فلسفته أو معرفة مذهبه وأفكاره الفلسفية، فقد ضاعت مصنفاته ضمن ما ضاع من تراث الأندلس.

وكان على شاكلته في حسن السيرة والمذهب الفيلسوف أبو مسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م) الذي وصف بالمعرفة الواسعة بالفلسفة إلى جانب شهرته في معرفة علوم أخرى كالطب والرياضيات والفلك. وكان يسير على نهج الفلاسفة في سلوكهم ونظرتهم العميقة في التفكير والتأمل متسما بدماثة الخلق ونزاهة النفس[٢٢٤].

وجدير بالذكر ان الجانب الفلسفي الذي كان يجد قبولا واستحسانا بين الأندلسيين هو الجانب المتعلق بما يسمى اليوم بعلم الأخلاق والعلاقات الإنسانية.. يدل على ذلك ما أورده ابن حزم عن شيخه محمد بن الحسن المذحجي فيقول (سمعته يقول لي ولغيري: إن من العجب من يبقى في العالم دون تعاون على مصلحة، أمّا يرى الحراث يحرث له، والبناء يبني له، والخراز يخرز له، وسائر الناس كلٌ يتولى فيه شغلا له فيه مصلحة وبه إليه ضرورة. أما يستحي أن يبقى عيالا على كل من في العالم؟ ألّا يعين هو أيضا بشيء من المصلحة.

قال ابومحمد : ولعمري إن كلامه هذا لصحيح وقد نبه الله تعالى عليه بقوله: (وتعاونوا على البر والتقوى)[٢٢٥].

(٢٢٣) طبقات الأمم (ص ١٠٩ ـ ١١٠).
(٢٢٤) صاعد : طبقات الأمم، ص ٩٥ ـ القفطي: تاريخ الحكماء، ص ٢٤٣، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٤٨٥).
(٢٢٥) سورة المائدة آية رقم ٢.

فكل ما لمخلوق فيه مصلحة في دينه أو فيما لا غنى عنه في دنيا فهو بر وتقوى(٢٢٦).

وهذا الحديث الذي أورده الفيلسوف ابن حزم عن شيخه الحكيم يعطينا تصورا واضحا للمفاهيم الصائبة والتفكير البنّاء حول الإنسان ودوره في المجتمع، فالمذحجي أحد فلاسفة ذلك العصر قصد أن يشارك بعلمه وفلسفته في ميدان الإصلاح الاجتماعي والسلوك الأخلاقي. ويقدم خلال ذلك من البراهين ما يقنع كل عاقل لبيب يسعى للمشاركة والتعاون في بناء المجتمع وإصلاحه والقضاء على الظواهر الاجتماعية الفاسدة كالبطالة التي أهمت ذلك الفيلسوف ودفعته لرسم سياسة مدنية هادفة.

وهناك ظاهرة تلفت النظر في السلوك الاجتماعي لفلاسفة ذلك العصر ومنهم المذحجي شيخ ابن حزم وابن البغونش وابن خلدون وهي مدى اتصاف أولئك الفلاسفة بجميل الأخلاق وحسن السيرة والمسلك وكمال العقل. وهي الصفات التي خلعها عليهم من أرخ لهم وترجم لحياتهم. وما من شك ان ذلك يعود إلى ما اكتسبه أولئك الفلاسفة من علم وآداب وفلسفة أخلاقية سامية انعكست على سلوكهم الاجتماعي فتميزوا بذلك من الكثير من الناس.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن أهل الذمة لعبوا دورا في نشاط الفلسفة، فظهر منهم عدد من الفلاسفة منهم إسحاق بن قسطار (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦) وكان في خدمة مجاهد العامري، وابنه إقبال الدولة، وعرف عنه تضلعه من الطب والمنطق والفلسفة وأثنى عليه صاعد ووصفه بكمال المروءة ورجاحة العقل وصدق القول(٢٢٧).

وتعتبر مملكة بني هود مركزا كبيرا لظهور عدد من فلاسفة اليهود كالطبيب الفيلسوف منجم بن الفوال وكان ماهرا في المنطق والفلسفة وصنف في المنطق كتابا أسماه «كنز العقل» رتبه على المسألة والجواب وضمنه معارف غزيرة في

(٢٢٦) الحميدي: جذوة المقتبس. (ص ٤٩).
(٢٢٧) طبقات الأمم، ص ١١٧.

قوانين المنطق وأصول الطبيعة[٢٢٨].

ونبغ من فلاسفة اليهود سليمان بن يحيى المعروف بابن جبرول السرقسطي (ت تقريبا من ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ويطلق عليه النصارى اسم افيسبرون Av-icebron وكان قد درس مؤلفات العرب الفلسفية وأفاد من دراساتهم المختلفة في ذلك وتعود شهرته إلى براعته في الفلسفة وتوفره على دراستها فصنف فيها كتاب «ينبوع الحياة» باللغة العربية وكان متأثرا في تأليفه بآراء وأفكار الفيلسوف ابن مسرة (ت ٣١٩هـ/ ٩٣١م) القائمة على فلسفة انباذقليس ومذهب الافلاطونية الحديثة. وقد حظي الكتاب بشهرة واسعة بين المسيحيين عن طريق ترجمته اللاتينية التي قام بها دومنجو جنذالد فكان له تأثيره الكبير عند مفكري المدرسة الاوغسطينية وغيرهم[٢٢٩].

ولابن جبرول كتب أخرى «كإصلاح الأخلاق»، و«مختار اللآلي» وهو مجموعة من الحكم لعدد من فلاسفة اليونان[٢٣٠].

وفي بلاط بني هود نبغ الفيلسوف المنطقي أبو الفضل حسداي بن يوسف ابن حسداي السرقسطي (حياً ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م) وكان واسع الاطلاع على عدد من العلوم والمعارف منها الرياضيات والفلك والشعر والبلاغة والموسيقى (وأتقن عمل المنطق وتمرس في البحث والنظر ثم ترقى إلى علم الطبيعة فبدأ منه بسماع كتاب «الكيان» لأرسطاطاليس حتى أحكمه ثم شرع في كتاب السماء والعالم)[٢٣١].

ولابن النغريله صموئيل بن هاليفي وزير حبوس بن ماكسن ملك غرناطة، معرفة بالدراسات الفلسفية، فقد أحكم معرفة اللسان العربي، ومهر في آدابه ثم درس الفلسفة على أيدي عدد من الفلاسفة في غرناطة ومنهم

---

(٢٢٨) نفس المصدر، (ص ١١٦ ـ ١١٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٤٩٨).

(٢٢٩) آنخل بالنثيا: مرجع سابق، (ص ٤٩٣) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، (ص ٩٥) ول ديورانت: قصة الحضارة، الجزء الثاني، المجلد الرابع، (ص١١٤ ـ ١١٥) عمر كحالة: العلوم البحتة، (ص ٤٧).

(٢٣٠) آنخل بالنثيا : مرجع سابق، (ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٢٣١) صاعد : طبقات الأمم، (ص ١١٧ ـ ١١٨).

يحيى بن داود[٢٣١].

وقبل ان نختتم حديثنا عن هذا العلم ورجاله يجدر بنا الإشارة إلى بعض الشخصيات التي وصفت باتصـالها بالفلسفة، وعرف عنها الاشتغال بها، ولكن لم تصلنا مصنفاتهم أو تتوافر لدينا مادة علمية غنية تدفعنا إلى الإسهاب في ترجمتهم ومن ثم نكتفي بالإشارة إليهم، فمنهم العلامة مالك بن وهيب وقـد ذكـره المراكشي فقال (ولمالك بن وهيب هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفـة، رأيت بخـطه كتـاب الثمـرة لبـطليمـوس في الأحكام، وكتاب المجسـطي في علم الهيئة وعليه حواشٍ بتقييده أيام قراءته إياه على رجـل من أهل قرطبة اسمه أحمد الذهبي[٢٣٢]

وكان ابن وهيب بارعا في الفلسفة غير أنّه حيكت ضده المؤامرات واتهم في دينه لعكوفه على دراسة الفلسفة مما دفعه إلى التستر على نفسه والاشتغال بعلوم الشريعة[٢٣٤]

ووصف محمد بن إبراهيم الشعباني (ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) بأنه فيلسوف زمانه وقد تولى قضاء جيان[٢٣٥].

ولأبي الحسن بن سيده اللغوي المشهور إسهام في نشاط المنطق فصنف فيه كتابا ذهب فيه مذهب متى بن يونس[٢٣٦].

وصنف أبوالصلت أمية بن عبدالعزيز الداني (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) في المنطق كتـابـا سماه «تقويم الذهن» قام بنشره آنخل جونثالث مع ترجمة اسبانية ١٩١٥م في مدريد والكتاب يوجز آراء أرسطو في المنطق...

ولعل الفضل يعود إلى عصر ملوك الطوائف في إنجاب فيلسوف من أشهر فلاسفة الأندلس. وهو الوزير الفيلسوف أبوبكر محمد بن يحيى بن باجه التجيبي السرقسطي، ولكنه قضى معظم حياته في عصر المرابطين حيث توفي

---

(٢٣٢) الطاهر أحمد : دراسات أندلسية، (ص ٦٣).
(٢٣٣) المعجب، (ص ٢٧١ - ٢٧٢).
(٢٣٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٥١٥)
(٢٣٥) الضبي : بغية الملتمس، (ص ٥٦).
(٢٣٦) صاعد : طبقات الأمم، (ص ١٠٢).

مسموماً بفاس (٥٣٣هـ/ ١١٣٨م) وهو مازال في ريعان شبابه[٢٣٧].

وأخيراً، فهؤلاء هم أشهر فلاسفة عصر ملوك الطوائف. وما من شك أن أعظمهم عطاءً في هذه الحقبة هو المفكر الإسلامي القدير ابن حزم الظاهري والذي خلف لنا بعضا من آثاره التي أنارت لنا طريق التعرف على أفكاره وآرائه الفلسفية. ولا ننسى أيضا ابن السيد البطليوسي الأديب اللغوي والفيلسوف اللامع الذي تبينا منزلته في الفلسفة من خلال كتابه «الحدائق». ولا ريب أن هذا النشاط أثمر أينع الثمرات وخاصة في العصر الذي تلا عصر الطوائف: عصر ابن باجه وابن رشد وابن طفيل وغيرهم.

وختاما فإن العلوم الإنسانية لقيت من الأندلسيين خلال هذا العصر عناية تامة واهتمامًا عميقا ـ فتألق كثير من المؤرخين في علم التاريخ وأسدوا لهذا العلم أيادي بيضاء، ولا نرمي القول جزافا ففي عصر ملوك الطوائف برز أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس وهو ابن حيان القرطبي صاحب المقتبس كما لمع نجم العلامة ابن حزم الذي أثبت أن له قدرات واسعة في ميدان التاريخ.

وفي الجغرافيا برز عدد من العلماء يأتي في مقدمتهم العلامة الكبير أبوعبيد البكري الذي يقف في الصف الأول بين جغرافيي العالم الإسلامي ومهدت كتاباته لكثير من الإنجازات والاكتشافات الجغرافية الحديثة.

وفي الفلسفة أثبت الأندلسيون أن لهم عطاءً سخيا في هذا العلم رغم ما أحيط به من قيود ومحاذير فساهم ابن حزم كفيلسوف لا يستهان به وحفظت له مآثر جيدة في هذا العلم أشرنا إليها بالتفصيل سابقا، كما برز عدد من الفلاسفة في هذا العصر منهم الكرماني الذي نُسب إليه إدخال رسائل إخوان الصفا. ومثل هذا النشاط في ميدان الفلسفة مهد لظهور كبار فلاسفة الأندلس كابن باجه الذي ولد في عصر الطوائف وابن رشد وابن طفيل وسواهم في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

---

(٢٣٧) آنخل جونثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦).

الفصل الرابع

العلوم التطبيقية

- الطب والصيدلة.
- الرياضيات والفلك.
- الكيمياء.
- العلوم الطبيعية.
- الميكانيكا.
- الفلاحة.

الطب والصيدلة

أسدى الأندلسيون للإنسانية في علم الطب كثيرا من الجهود الموفقة والإنجازات العلمية القيمة التي دفعت الطب نحو الأمام، ولا شك أن هذا العلم يأتي عند الأندلسيين في مقدمة العلوم التطبيقية من حيث الاهتمام والعناية، ووفرة الإنتاج العلمي.

وكان لعلم الطب منزلته السامية في المجتمع الأندلسي فنجد صدى ذلك في شعر السميسر خلف بن فرج الذي قال:

كل علم ما خلا الشرع	وعلم الطب باطل
غير أن الأول الطب	على رأي الاوائل
هل تمام الشرع إلا	أن يكون الجسم عامل
فإذا كان عليلا	بطلت تلك العوامل[1]

وبداية اتصال الأندلسيين بالطب تتمثل في قراءة الكنانيش المؤلفة في فرع الطب، ولم يكن هناك اهتمام بدراسة أصول كتب الطب ككتاب أبقراط وجالينوس[2]، وكان الدافع لتلك الطائفة من الأطباء غير الراسخين في هذا العلم خدمة الملوك والأعيان ونيل المراتب بأسرع طريق دون التثبت والتمكن في هذا العلم ومعرفة أصوله بعمق ودراية.

ويبدو أن جل اهتمام تلك الطائفة كان معرفة منافع الأغذية ومضارها وما يحقق للطبقة الحاكمة كمال الصحة وما يوفر لهم القدرة على التمتع بمباهج الحياة، ولهذا نرى أن الوسط الذي ترعرع فيه الطب كان قصورالحكام والأمراء آنذاك.

وأكثر ماكان يستند إليه الأطباء آنذاك في دراسة مسائل الطب وبعض

---

(١) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ٢ (ص ٨٩٢).

(٢) انظر عن بداية اشتغال الأندلسيين بالطب، عبدالرحمن الحطابي، الطب والاطباء في الأندلس الإسلامية، ج ١ (ص ١١) وما بعدها، كما سبق للباحث تفصيل الحديث عن ذلك في رسالته التي نال بها درجة الماجستير وعنوانها الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٣٥٠) وما بعدها.

فروعه كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له «الابريشم» أي الجامع[٣].

وكان علم الطب من بين العلوم التي اعتمدت في تطورها وازدهارها على التيار العلمي بين الأندلس والمشرق. فقد وفد بعض الأطباء المشارقة إلى الأندلس في عصر الإمارة الأموية مثل الطبيب يونس بن أحمد الحراني وكان عارفا بالكثير من مسائل الطب واقفا على عدد من التجارب.

ويلاحظ المتتبع لتاريخ الدراسات الطبية أن أطباء تلك الفترة كان معظمهم من النصارى وأهل الذمة، وأنهم بلغوا منزلة سامية لدى الحكام والأمراء. وما من شك أن ذلك فيه دلالة واضحة على التسامح الإسلامي وما جبل عليه المسلمون من إنصاف لأهل الذمة[٤].

ومنذ بداية عصر الخلافة اتخذت مسيرة الدراسات الطبية أبعادا جديدة، ففي عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر (دخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم، وقامت الهمم وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين). كما ذكر ذلك ابن جلجل.

ومن بين كتب الطب التي دخلت الأندلس كتاب «زاد المسافر» لمؤلفه الطبيب القدير أبوجعفر بن الجزار القيرواني، وقد أدخله الأندلس الطبيب عمر بن بريق، وكان لهذا الكتاب تأثير واسع، وإعتمد عليه الطبيب الجراح خلف بن عباس الزهراوي[٥].

وجدير بالذكر أن كتاب النباتات الطبية لديسقوريدس[٦]، يعد من بين الكتب الهامة التي استفاد منها أطباء وصيادلة الأندلس، وقد ترجم في المشرق

---

(٣) ابن جلجل : طبقات الأطباء، (ص ٩٢) وقد ذكر محقق الكتاب فؤاد سيد أن المقصود بالابريشم Aphorlemi ومعناه الفصول هو كتاب أبقراط الشهير غير أنه ليس كذلك وإنما سُمي ذلك الكتاب بذلك الاسم لما يضمه من جوامع الكلم في علم الطب لأن الفوريسم في اللاتينية معناها الحكمة التي تجري مجرى القول الفاصل من الخبرة والتجربة (انظر عبدالرحمن الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، ج ١، ص ١٣).

(٤) انظر صاعد : طبقات الأمم، تحقيق حياة بوعلوان، (ص ١٨٦).

(٥) عبدالرحمن الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس، ج ١، (ص ١٦).

(٦) طبيب ونباتي من أهل مدينة عين زربة بالشام، عاش بعد عصر أبقراط وكان بارعا في معرفة النباتات والاعشاب واعتمد عليه جالينوس في دراساته الطبية. القفطي: أخبار العلماء، (ص ١٢٦).

في العصر العباسي على يد اصطفن بن بسيل، ولكنه لم يكمل ترجمة كثير من الأسماء في ذلك الكتاب. وحدث أن بعث الامبراطور البيزنطي أرمانوس سنة (٣٣٧هـ/ ٩٤٨م) إلى الخليفة الناصر بكتاب ديسقوريدس المذكور وكتاب هروشيش[٧] في التاريخ، فترجم الكتاب الأول راهب يدعى نقولا سنة (٣٤٠هـ/ ١٩٥١م) بمساعدة بعض الأطباء كحسداي بن شبروط، ومحمد الشجار وعالم آخر يعرف بالبسباسي وأبي عثمان الجزار، ومحمد بن سعيد وعبدالرحمن بن إسحق بن هيثم، وأبي عبدالله الصقلي.

وقد امتدح الطبيب ابن جلجل هذه الترجمة ووصفها بالإتقان والصحة والإجادة، ولكن ذلك لم يمنعه من دراسة ذلك الكتاب دراسة عميقة الأمر الذي جعله يتبين أن ديسقوريدس قد أغفل الكثير من الأدوية، فصنف مقالة قال في مقدمتها: (إن ديسقوريدس أغفل ذلك ولم يذكره إمّا لأنه لم يره ولم يشاهده عيانا وإمّا لأن ذلك كان غير مستعمل في دهره وأبناء جنسه)[٨]

وتعد ترجمة كتاب ديسقوريدس في النباتات الطبية واطلاع الأندلسيين عليه تحولا كبيرا في ازدهار الدراسات الصيدلية، وهو العلم الذي لا ينفك بحال من الأحوال عن الطب وممن يعانون هذا العلم ويشتغلون به[٩]. لأن الطبيب يفترض فيه آنذاك معرفة ضروب النباتات والحشائش والأعشاب الطبية وخواصها ليصف من خلال ذلك العلاج لمرضاه، ولهذا نجد الكثير من أطباء ذلك الوقت بل أكثرهم قد برعوا في كلا العلمين، ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نفصل بينهما أثناء حديثنا عن الطب والصيدلة.

وبهذا يتبين لنا مدى مالقيه كتاب ديسقوريدس من اهتمام وعناية الأندلسيين، وأنه قام بدور كبير في توسيع دائرة النشاط والبحث العلمي في النباتات الطبية وما يتعلق بها من تركيب الأدوية، وأن الأندلسيين في

---

(٧) سبق التعريف به في ميدان الجغرافيا.
(٨) انظر ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٤٩٥).
(٩) انظر عبدالرحمن الخطابي، الطب والأطباء، ج ١، (ص ١٩).

تلك الفترة قد بلغوا مرحلة جيدة من النضج العلمي، فهم لم يسلموا بما في كتاب ديسقوريدس، بل درسوه بعناية وفهم ودراية، ونظروا فيه نظر الفاحص الممحص، وقد سبقت الإشارة إلى ماقام به ابن جلجل في هذا الصدد.

وشهد عصر الخلافة ظهور عدد من الأطباء الماهرين يأتي في مقدمتهم الطبيب والجراح اللامع خلف بن عباس الزهراوي والذي ينسب إليه وضع أسس الجراحة الطبية الحديثة، كما برز من الأطباء آنذاك عريب بن سعد القرطبي الذي صنف كتابا في طب الأطفال، واشتهر ايضا الطبيب سليمان بن جلجل بدراساته العميقة في الطب والصيدلة[10].

وفي عصر ملوك الطوائف ازدادت العناية بدراسة الطب والصيدلة وحقق الأندلسيون آنذاك نتائج علمية رائعة بما ألفوه من روائع التأليف في الطب والصيدلة التي ضمّنوها جهودهم وأعمالهم، والتي لا يزال بعضها بين أيدينا تشهد لهم بما نقول.

فمن مملكة بني هود بسرقسطة نبغ الطبيب أبوالحكم عمرو بن عبدالرحمن بن علي الكرماني (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، وكان هذا العلامة موسوعيا - إذا صح التعبير - فهو طبيب وفيلسوف ورياضي ومهندس، ولكنه اشتهر أكثر بمعرفته الواسعة بالهندسة والطب خاصة، فقد أبدى مهارة فائقة في ميدان الجراحة الطبية[11].

وكان أبوالحكم قد أفاد في حياته العلمية من علماء وطنه في قرطبة وغيرها ثم شد رحاله ميمما نحو المشرق لينهل مزيدا من العلم والمعرفة فقصد حران من بلاد الجزيرة، حيث توفر بها على دراسة الطب والهندسة حتى تضلع

---

(١٠) عن الطب وتطوره في عصر الخلافة، وعن أولئك الأطباء المذكورين أعلاه انظر: ابن جلجل: طبقات الأطباء، (ص ٩٢) صاعد: طبقات الأمم، (ص ١٠٤) ابن أبي أصيبعة. عيون الأنباء، (ص ٤٩٣) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ١، (ص ١٤١-١٤٢) المقري: نفح الطيب. ج ٣، (ص ١٧٥) أنخل بالنثيا. تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٤٦٦) سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٣٥١) وما بعدها.

(١١) صاعد : طبقات الامم (ص ٩٤-٩٥)، القفطي: اخبار العلماء (ص ١٦٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٨٤-٤٨٥)، بول خليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية (ص ١٥٢)

منها، ثم صرف وجهه إلى قرطبة فاستقر بمدينة سرقسطة عاصمة بني هود، وفيها بث علومه ومعارفه بين تلاميذه ومن قصده من العلماء[١٢].

وجدير بالذكر أن أباالحكم الكرماني عاش ما يقارب تسعين سنة قضاها في خدمة العلم ونشر معارفه في الجراحة الطبية، وما من شك أن هذا العمر المديد الذي بلغه أبوالحكم كان له أكبر الأثر في انتشار علومه بدرجة واسعة كما يوضح لنا كثرة من تخرج على يديه من العلماء في الطب والجراحة الطبية فقد كان طبيبا مجربا عمليا لا يتطرق الشك إلى سيرته العلمية وما أسداه من جهود سواء كانت إنتاجا علميا مؤلفا أو ما خلفه بعد موته من تلاميذ نجباء.

وفي مملكة سرقسطة أيضا أشتهر الطبيب اليهودي يونس بن إسحق بن بكلارش الذي عده ابن أبي أصيبعة من كبار أطباء الأندلس. وكان ماهرا في معرفة الأدوية وتركيبها، ونظرا لعلمه الواسع في الطب والصيدلة، فقد قربه بنو هود إليهم وأنزلوه منزلة سامية في بلاطهم فخدمهم بعلمه، وألف لأحدهم وهو المستعين كتاب «المجدولة» على هيئة جداول في الأدوية المفردة[١٣].

وللكتاب اسم آخر وهو «المستعيني» نسبة للمستعين أحمد بن المؤتمن ويتضمن الكتاب بحثا نظريا في العقاقير مع مقابلات أسماء النباتات بالعربية والفارسية واليونانية والسريانية واللاتينية[١٤].

ونبغ في هذه المملكة من الأطباء اليهود غير ابن بكلارش الطبيب منجم ابن الفوال، الذي كان موصوفا بالبراعة في الطب[١٥].

وكان صديقه مروان بن جناح السرقسطي ماهرا في علوم مختلفة ومن بينها الصيدلة، فألف كتابا في الأدوية المفردة وتحديد المقادير المستعملة في ذلك

---

(١٢) صاعد : مصدر سابق (ص ٩٤ ـ ٩٥). وانظر أيضا، عبدالرحمن الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس، ج ١، ص ٢١.

(١٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٥٠١).

(١٤) سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام (ص ١٦٢)، عبدالرحمن بدوي: نصوص ودراسات في الفلسفة والعلوم عند العرب (ص ٣٤).

(١٥) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٦).

من الأوزان والمكاييل[١٦].

ومن مملكة طليطلة برز الطبيب أبو العرب يوسف بن محمد (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) وقد عرف بتفوقه الكبير في الطب ومهارته في معرفة أصوله حتى عد من الراسخين في علمه، وشهد له علماء عصره بالتفوق، وأقروا له بالمعرفة الواسعة، ومن هؤلاء الطبيب عبدالرحمن بن وافد، والطبيب سعيد بن البغونش[١٧].

ويذكر صاعد نقلا عن معاصري أبي العرب، أن أبا العرب احتل مكانته العالية في ميدان الطب وذاع صيته بشكل واسع بعد وفاة الطبيب محمد بن عبدون الجبلي الذي كان من مشاهير أطباء عصر الخلافة[١٨].

والدارس يقف متحيرا أمام هذا القول. فإن الزهراوي الجراح العظيم الذي نعتبره من أكبر أطباء الإسلام وأولهم في الجراحة الطبية لم يُعط من الثناء كما أُعطي أبو العرب ومن قبله ابن عبدون الجبلي، وإذا صح كلام صاعد الذي نقله عن معاصري ابن عبدون الجبلي فإن المؤرخ يقف مذهولا مما أصاب تراث المسلمين في الأندلس من ضياع وما ألم بإنتاجهم من فناء وزوال، فلم يبق لدينا إلا أوصاف أولئك الأطباء وبعض الكلمات التي تتضمن الثناء عليهم، وأما كتبهم ودراساتهم فمن المؤسف إنها ضاعت وفقدت.

ومما يؤسف له أن أبا العرب قد ابتلي في آخر عمره بحب الشراب وأدمن ذلك حتى أضاع به وقته وقطع به ليله ونهاره فحرم كثيراً من التلاميذ والعلماء الإفادة من علمه وتجاربه. وكان قد امتد به العمر حتى التسعين سنة[١٩].

ومن مملكة طليطلة ظهر الطبيب أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش

---

(١٦) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٧).
(١٧) صاعد : طبقات الأمم (ص ١٠٩).
(١٨) طبقات الأمم (ص ١٠٩).
ومحمد بن عبدون من أطباء عصر الخلافة، رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧هـ فدخل البصرة ومصر ودبر مارستانها وأخذ كثيرا من العلم عن علماء المشرق ثم عاد إلى الأندلس سنة ٣٦٠هـ فالتحق بخدمة الحكم المستنصر ثم ابنه هشام المؤيد. انظر صاعد: المصدر السابق (ص ١٠٧).
(١٩) صاعد : مصدر سابق (ص ١٠٩).

الطليطلي (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، وكان قد تلقى علومه ببلده ثم اتجه إلى قرطبة حيث أخذ عن أطبائها وعلمائها كثيرا من المعارف المختلفة فأخذ الرياضيات والهندسة عن العلامة مسلمة بن أحمد، والطب عن محمد بن عبدون الجبلي وسليمان بن جلجل، وبعد أن أتم علمه عاد إلى طليطلة حيث حظي بمنزلة كريمة لدى ملكها الظافر إسماعيل بن ذي النون. وذكر صاعد أنه التقى به في صدر دولة المأمون، وأنه قد انصرف عن تلك العلوم واتجه إلى النسك وقراءة القرآن ولكنه تشاغل مع ذلك بقراءة كتب جالينوس ودراستها حتى نال من ذلك علما واسعا، إلا أنّه لم يكن له مهارة في علاج المرضى وفهم ثاقب في فحصهم[٢٠].

ومن مملكة طليطلة أيضا نبغ الطبيب محمد التميمي الطليطلي ويبدو، أن هذا الطبيب كان من كبار أطباء الأندلس والعارفين بهذا العلم والماهرين في ممارسة الجراحة الطبية، فإن الكتاب الذي صنفه والذي لا يزال باقيا بين أيدينا في صورة «مخطوط بمكتبة الاسكوريال» يؤكد مكانة التميمي ويضعه في الصف الأول من أطباء عصر ملوك الطوائف، فهو في كتابه قد شرح الكثير من الأمراض وشخصها ووصف أعراضها، وكان منهجه في تأليف كتابه ينم عن رسوخه في الطب ومعرفته العميقة به، كما أن في الكتاب ما يشير إلى براعته في أساليب التعليم الطبي عن طريق الممارسة العملية وإجراء العمليات الجراحية كتطبيق للدراسات النظرية[٢١].

ومن هذه المملكة أيضا ظهر أبرع أطباء هذه الفترة وأعظمهم تمكنا في الصيدلة، وهو الطبيب والصيدلي المشهور الوزير أبو المطرف عبدالرحمن بن محمد بن عبدالكبير بن وافد اللخمي الطليطلي (٣٩٨ - ٤٦٠هـ/ ١٠٠٧ - ١٠٦٧م)، وكانت نشأته نشأة علمية ناجحة، فقد اتجه منذ بداية حياته العلمية إلى دراسة علوم الأوائل وخاصة الطب والصيدلة، فعكف على دراسة كتب جالينوس حتى وعاها، ثم عكف على دراسة كتب أرسطاطاليس وغيره

(٢٠) صاعد : طبقات الأمم (ص ١٠٩ - ١١٠)، وانظر ابن أبي أصيبعة : مصدر سابق (ص ٤٩٥ - ٤٩٦).
(٢١) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٧٦).

من فلاسفة اليونان، وكان نبوغه منصبا على معرفة الأدوية وخصائصها، فمهر في هذا العلم حتى بز غيره من العلماء وفاقهم(٢٢)

وبلغ من اهتمام ابن وافد وحرصه على الدراسة العميقة الجادة لأنواع النباتات والأعشاب الطبية أن استأذن ملك طليطلة المأمون في إنشاء حديقة نباتية تشتمل على أنواع مختلفة من النباتات وذلك لكي يتسنى له دراستها عن كثب وليسهل عليه إجراء التجارب الصيدلية على أنواعها ومعرفة خصائصها ومميزاتها الطبية والعلاجية(٢٣).

ويذكر المقري أن ابن وافد آية الله تعالى في معرفة الطب والعلم بالأدوية وخصائص النباتات(٢٤).

وبلغ من منزلة ابن وافد العلمية ونبوغه أن اعترف له علماء عصره بالإمامة في ذلك وصحة النظر وجودة القريحة ونفاسة الإنتاج في ميداني الطب والصيدلة(٢٥).

وابن وافد عُرف لدى الأوربيين بابن ويفيت Eben Cuefith وكان لشهرته العلمية ومكانته الاجتماعية قد تولى الوزارة في دولة المأمون ملك طليطلة، ولم تكن شهرته وقفا على معرفته الواسعة بالطب عامة بل كان بارعا أيضا في طب العيون أو ما يسمى بالكحالة عند العرب، وفي هذا الحقل صنف كتابه «تدقيق النظر»(٢٦).

وكان لابن وافد طرائق ومناهج ابتدعها في العلاج الطبي وشفاء المرضى، فقد كان معتنيا بالعلاج عن طريق التغذية، كثير التركيز على هذا الجانب

---

(٢٢) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٠ - ١١١)، القفطي: اخبار العلماء (ص ١٥٢)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٩٦)، المقري: نفح الطيب، ج ٣ (ص ٣٧٧)، وانظر عمر فروخ: عبقرية العرب (ص ١٢٥)، عمر كحالة: العلوم البحتة (ص ٣١٢)، علي الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات (ص ١٧٨).

(٢٣) حكمت الأوسي : كتاب الوساد لابن وافد الطليطلي (مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث عشر (ص ١٧٥)، وانظر بنعبد الله: الفكر العلمي في المغرب الأقصى (مقال بمجلة الدارة (ص ١٦٤ - ١٦٥).

(٢٤) نفح الطيب، ج ٣ (ص ٣٧٧).

(٢٥) القاضي عياض : ترتيب المدارك، ج ٤ (ص ٦٧١).

(٢٦) فرات فائق : الكحالة عند العرب (ص ٢٩ - ٣٠)، آنخل بالنثيا: مرجع سابق (ص ٤٦٧).

ويقدمه على جانب المعالجة الدوائية، فإن اضطر إلى العلاج بالأدوية قصد إلى المفرد منها دون المركب الذي يحوي في تركيبه عدة نباتات أو وصفات مختلفة، فإن رأى أن لا مناص من التركيب عمد إلى أخفه وأيسره تركيبا[٢٧].

وجدير بالذكر أن منهج ابن وافد في معالجة الأمراض بالتغذية قد ثبتت أهميته ونجاحه الواسع في هذا العصر، وهو منهج نادى به الأطباء المعاصرون وعلماء الصحة واتجهوا إلى تأليف الكثير من الكتب والمقالات حوله، ولعل كتاب الدكتور جايلورد هوزر (الغذاء يصنع المعجزات) من أشهر الكتب التي سلكت هذا النهج العلاجي لكثير من الأمراض وفي سبيل المحافظة على صحة الإنسان. وبهذا يتضح لنا سَبْقُ ذلك العالم الكبير إلى طرق هذا الجانب الهام من طرق العلاج[٢٨].

وهكذا نكتشف كل يوم الجديد مما أضافه أجدادنا إلى التراث العلمي الإنساني، ومنه الطب. كما أن ابن وافد سبق العديد من الأطباء المعاصرين إلى تأكيده الاعتماد على الأقل من الأدوية في معالجة المرض، وكان ضد الوصفات الطبية الطويلة المعقدة التي لا يجني المرضى منها سوى المعاناة والآثار الجانبية السيئة. ولهذا قال صاعد: (ولابن وافد نوادر محفوظة وغرائب مشهورة في الإبراء من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر علاج وأقربه)[٢٩].

ولابن وافد كتبٌ متعددة في الطب والصيدلة، منها كتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «تدقيق النظر في علل حاسة البصر» وكتاب «الوساد» في الطب، وكتاب «مجربات في الطب» وكتاب «المغيث»[٣٠]

ومما ينسب إليه من الكتب غير ماذكرنا كتاب «المجموع في الفلاحة»

---

(٢٧) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٠ ـ ١١١)، القفطي: أخبار العلماء (ص ٢٢٦)، ابن أبي أصيبعة: مصدر سابق (ص ٤٩٦)، بطرس أمين الورد: معجم علماء العرب، ج ١ (ص ٧٣ ـ ٧٤).

(٢٨) كتاب «الغذاء يصنع المعجزات» لجايلورد هوزر، ترجمة أحمد قدامة دار النفائس، ط/ السابعة ١٤٠٣هـ.

(٢٩) طبقات الأمم (ص ١١٠ ـ ١١١).

(٣٠) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٩٦) حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم (ص ٣٤٢)، علي الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات (ص ١٨١).

وكتاب آخر لا نعرف عنه سوى عنوانه باللاتينية هو[٣١] De balneis Sermo

وفيما يتصل بكتابه عن الأدوية المفردة فقد قال عنه معاصره وصديقه المؤرخ صاعد بن أحمد الطليطلي (أخبرني عنه أنه عانى جمعه، وحاول ترتيبه، وتصحيح ما ضمّنه من أسماء الأدوية وصفاتها وأودعه إياه مع تفصيل قواها وتحديد درجاتها من عشرين سنة حتى كمل موافقا لغرضه مطابقا لبغيته)[٣٢].

ويكفي الدارس لمعرفة أهمية ما تضمنه ذلك الكتاب من علوم ومعارف طبية وصيدلية تلك المدة الزمنية التي قضاها ابن وافد في تأليف كتابه وهي عشرون سنة، وما من شك أن كتابه تضمن الكثير من تجاربه العلمية وخبراته ومشاهداته في ميدان العلاج الطبي وأنواع الأدوية المفردة.

وجدير بالذكر أن كتاب ابن وافد في الأدوية المفردة لقي قبولا عظيما من الأطباء آنذاك ومن أتى بعدهم أيضا، وقد اعتمد عليه الأوربيون في معرفة الكثير من علوم الصيدلة وأنواع الأدوية فترجم إلى اللاتينية والعبرية والقطلانية[٣٣].

وبعد هذا فلا عجب أن يوصف ابن وافد بانه مؤسس علم الصيدلة الحديث[٣٤]

وفيما يتعلق بكتابه «الوساد» فقد اطلع الباحث على مخطوطة هذا الكتاب بمكتبة الاسكوريال تحت رقم (٨٣٣) في مجموع يضم المخطوط المذكور ضمن مخطوطات أخرى. ويبدأ المخطوط بعرض للأدهان والأشربة المفيدة في تجميل وعلاج الأسنان، ويصف عند حديثه عن الشعر دواء لتسويده وغيره لتقويته وعلاج ما يتساقط منه، ثم يتعرض للدماغ والأدوية المقوية له والشافية لأوجاعه[٣٥]. ومما يلاحظ في عرضه للأدوية أنه لا يكتفي بوصفة

---

(٣١) حكمت الأوسي. المقال السابق، ص ١٧٦.

(٣٢) طبقات الأمم (ص ١١٠ - ١١١)، وانظر ما يتضمن هذا المعنى:
Scott: history of the Moorish Empire in Europe, Vol III. P.512

(٣٣) حكمت الأوسي : الوساد لابن وافد، مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر (ص١٧٦)، علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات (ص ١٧٩، ١٨٠). الخطابي، المرجع السابق، ج ١ (ص ٢٢).

(٣٤) باقر أمين الورد : معجم علماء العرب، ج ١ (ص ٧٣).

(٣٥) ابن وافد : الوساد (مخطوط) ورقة ٢ ب وورقة ٤ ب.

واحدة لوجع ما في أكثر الأحيان بل إن تمكنه في صناعة الطب ومعرفته الواسعة بالأدوية وخصائصها العلاجية دفعه إلى عرض أكثر من علاج ووصفة طبية لحالة من الحالات المرضية. وقد يكون لهذه الطريقة مغزى اجتماعي وهو أن أوضاع الناس الاجتماعية والاقتصادية في عهده تمنع الكثير من شراء بعض الوصفات الطبية الغالية الثمن، والإقبال على تلك الوصفات الطبية السهلة التركيب الرخيصة الثمن التي تسمح لذوي العوز والفاقة بالحصول عليها بأقل كلفة وأيسر ثمن.

وابن وافد يصف أدوية وعلاجات موسمية يصلح البعض منها في الصيف في حين أن البعض الآخر لا يفيد إلاّ شتاء مثل قوله (بخور نافع بإذن الله يستعمل في الصيف)، وكقوله في موضع آخر (دواء لتقوية عصب الدماغ وشرط استعماله في الشتاء)[٣٦].

ويتطرق ابن وافد في كتابه الوساد إلى العين وما يعتريها من الضعف وما يلحقها من الأوصاب والأوجاع. ويصف لكل حالة مرضية دواء أو كحلا. وجدير بالذكر أن كتاباته الطبية والعلاجية عن العين تنم عن مهارته في هذا الفرع الطبي وهو طب العيون أو ما يعرف عند العرب بـ«الكحالة». ومما يلاحظ عند وصفه لعلاج أمراض العين كثرة اعتماده على ماء الورد كوصفة طبية، فهو يقول مثلا (صِفَةٌ لمن يجد وجعا في عينيه وصدغيه، يفصد الشريانات ثم يكمد موضع الوجع بشيء من ماء الورد) وفي موضع آخر (ثم يقطر في العين ماء ورد بارد إن شاء الله)[٣٧].

ويستمر ابن وافد في عرض أوجاع العين وآلامها مع وصفه لضروب الأدوية والعلاجات والضمادات النافعة بأسلوب علمي رصين يعتمد على ألوان مختلفة من النباتات والأعشاب والأزهار مع مراعاة التناسب الكمي في تركيبها. وكثيرا ما يختتم حديثه عن وصفة ما بقوله (نافع إن شاء الله تعالى، أو بإذن الله تعالى).

---

(٣٦) ابن وافد : نفس المصدر، ورقة ٧ أ.

(٣٧) ابن وافد : الوساد ورقة ١٥ أ.

ويأخذ ابن وافد في عرض طرائق العلاج لكل من علل وأوجاع الأذن والفم واللثة والأسنان والحلق عامة ثم القلب، ثم يعرض لبعض الأمراض النفسية والعصبية كالوحشة والاكتئاب والهم والفزع والقلق[٣٨].

وابن وافد في كتابه يتطرق إلى معالجة أمراض وأوجاع المعدة والكبد والطحال والأحشاء والأجهزة الباطنية بشكل عام، ثم يصف بعد ذلك طرق معالجة الكلى والمثانة وكيفية علاج سلس البول وتفتيت الحصاة ويقول عن ذلك (صفة دواء للحصاة، تأخذ من زهر الزيتون مثقالا، ومن زهر الشبث مثل ذلك ويعجن بالسمن ويشرب إن شاء الله تعالى). ثم ينتقل بعده إلى علاج ما يعتور المقعدة من أوجاع كالبواسير فيصف لها ضروب العلاج حسب كل حالة مرضية. ثم يلي ذلك حديثه عن الأمراض التناسلية لدى الرجل والمرأة، ويتكلم عن الأمراض الجلدية في صورة تنم عن براعته وسعة أفقه في الجمع بين الحديث عن الأمراض التناسلية والجلدية كأساس لاقتراب هذين الفرعين من الطب في تخصص واحد كما هو حاصل في عصرنا الحاضر. ويختم ابن وافد كتابه بالحديث عن كيفية عمل الأشربة والمربيات من السفرجل والتفاح والجوز وأنواع اللبوب والبزور[٣٩].

وبهذا الموضوع يختتم ابن وافد كتابه الوساد الذي يقع في ٨٢ ورقة ولا نعلم على وجه القطع هل كل ما اطلعنا عليه هو كتاب الوساد كاملا أم أن هناك نسخا أخرى تضم موضوعات لم تذكر في النسخة الموجودة في الاسكوريال؟ وعلى أية حال فإن ما أشرنا اليه من ذلك الكتاب القيّم يدل على مكانة ابن وافد الطبية وسعة علمه في الصيدلة والدراية بالأدوية وخصائصها. وبناء عليه فإن ابن وافد يعتبر بحق من ألمع المشتغلين بعلوم الطب والصيدلة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. وهو أمر أكده كثير من العلماء والأطباء سواء في عصره أو ما تلاه أو في عصرنا الحاضر، ولعل ما حداهم إلى ذلك ما خلفه من إنتاج طبي وصيدلي نفيس

(٣٨) ابن وافد: الوساد (مخطوط) ورقة ٣٥ ب.
(٣٩) انظر الوساد: (مخطوط) ورقة ٨١ أ.

لازال بعضه شاهدا على ما قيل عنه من ثناء وإطراء كبيرين.

ومن أشهر تلاميذ ابن وافد علي بن عبدالرحمن الخزرجي الطليطلي (ت ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م) وقد استقر به المقام بعد خروجه من طليطلة في مدينة قرطبة، وكان ماهرا في الطب وأساليب المعالجة، وله تجارب وخبرات نافعة اكتسبها من أستاذه ابن وافد وذاع بها صيته في الطب[٤٠].

ومن مملكة دانية ظهر الطبيب الفيلسوف الفلكي أبوالصلت أمية بن عبدالعزيز الداني (ت ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) وكان من أهل التفنن والإحاطة بعدد من العلوم التطبيقية وعلى رأسها الطب والصيدلة، حتى إنه (بلغ في صناعة الطب مبلغا لم يصل إليه غيره من الأطباء[٤١].

ويذكر ابن أبي أصيبعة ان ابا الصلت رحل عن وطنه الأندلس ودخل مصر في حدود سنة (٥١٠هـ/ ١١١٦م)[٤٢]، ولكن ابن الأبار يشير إلى أنه خرج من بلده وهو ابن عشرين سنة يطلب العلم فنبغ في الطب وغيره من العلوم وسجن أثناء ذلك، ثم عاد إلى المغرب فنزل المهدية على رأس الخمسمائة وأقام بها في كنف أمرائها الصنهاجيين تميم بن المعز وولده عشرين سنة[٤٣].

ونحن نميل إلى قول ابن الأبار لأنه استقى معلوماته من بعض العلماء القاطنين بالمدينة التي توفي بها وممن كانوا على مقربة من عصر أبي الصلت وما جرى له من أحداث.

وهناك رأي آخر يورده ابن سعيد، وهو أن أباالصلت خرج من إشبيلية واتجه إلى المهدية حيث نزل في بلاط ملوكها الصنهاجيين، ثم توجه رسولا إلى الفاطميين بمصر فسجن في القاهرة وكان في السجن خزائن كتب فعكف على مطالعتها فأورثته علما واسعا في الطب والفلك والموسيقى وغيرها[٤٤].

ونحن نستبعد أن يسجن هذه الفترة الطويلة، ولربما كان ابن سعيد يقصد

---

(٤٠) المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول (ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢).
(٤١) ابن أبي أصيبعة : مصدر سابق (ص ٥٠٢).
(٤٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٠٢).
(٤٣) تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤)، وكذلك المقتضب من تحفة القادم (ص ٥٦).
(٤٤) المغرب في حلي المغرب، ج ١ (ص ٢٦٢).

بالسجن هنا الإقامة الجبرية في مكان محدد أو في منطقة معينة خاصةً أن ابن سعيد يورد خبرا نقله عن غيره، فهو يقول (يقال إن عمره ـ أي أميه ـ كان ستين سنة، عشرون في إشبيلية، وعشرون في المهدية وعشرون في مصر محبوسا في خزانة كتب)[٤٥]. وإن مجرد اعتماد ابن سعيد على لفظ «يقال» من شأنه أن يزعزع الثقة بصحة الخبر، كما أن تقسيم عمر أبي الصلت بين هذه الأقطار بالتساوي يجعلنا أكثر تريثا في صحة أنه سُجن هذه المدة الطويلة، كما أن ابن أبي أصيبعة لم يشر إلى هذه المدة ولم يحددها. ويشير ياقوت لأبي الصلت ويورد سببا لسجنه وهو أن الافضل وزير الخليفة الفاطمي تغير عليه بسبب وشاية بعض تلاميذه ممن سعى في تقبيح سيرته، وأن أبا الصلت لما علم بالواشي دعا عليه وأن الله سبحانه قد استجاب دعوته فلقي الواشي ما نكبه وغير حاله. وإلى هذه الحادثة يشير أبوالصلت بقوله:

قد كان لي سبب قد كنت أحسب أن أحظى به فإذا دائي من السبب
فما مقلم أظفاري سوى قلمي ولا كتائب أعدائي سوى كتبي[٤٦]

ولأبي الصلت آراء صائبة وأقوال حكيمة في الطب، ويبدو أنه عانى أثناء دراسته للطب بمصر من بعض مدعي الطب أو ممن اشتغلوا بالخلاف والجدل دون العمل. وقد كان أبوالصلت شديد العناية في دراسته للطب بقراءة كتب جالينوس وأبقراط، عظيم الاهتمام بكل صغيرة وكبيرة، ساعيا في فهم دقائق الطب وشرح مسائله المختلفة، وكان يرى أن الطبيب محتاج إلى العلوم الطبيعية والقوانين القياسية في فهمه لعلم الطب، وتوضيح مشكله[٤٧].

ويذكر أبوالصلت في رسالته المسماة «الرسالة المصرية» بعض الملاحظات الطبّيّة، فيشير إلى اتباع القائمين على إحدى البيمارستانات بمصر العلاج النفسي في معالجة مرضاهم من ذوي الحالات العصبية والنفسية وكيف أن المعالج كان يسرد على مرضاه الحكايات والروايات المسلية والمضحكة وكيف

---

(٤٥) المغرب، ج ١ (ص ٢٦٢).
(٤٦) ياقوت، معجم البلدان، ج ٤ (ص ٦٧ ـ ٦٨).
(٤٧) الرسالة المصرية، تحقيق عبدالسلام هارون، ضمن نوادر المخطوطات، ج ١، ص ٣٢.

أنه ـ أي المعالج ـ كان يظهر متقنعا بوجه مضحك ويقوم بأداء بعض الحركات البهلوانية المضحكة فيشيع جوا من المرح والسعادة في نفوس المرضى، وهكذا إلى جانب وسائل العلاج الأخرى حتى يبرأ المريض ويُشفى من علته. ويعلق أبوالصلت على هذه الظاهرة مبديا رأيه في ذلك بما ينم عن تمكنه الواسع في الطب ومعرفته بأسباب العلل وطرق العلاج والشفاء فيقول:

(فليت أطباء عصرنا هذا باسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذي لا مضرة فيه ولا غائلة له، بل أمره على العليل هين، ونفعه ظاهر بين، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ويقوي القوة الطبيعية، ويقوي البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول)[٤٨].

وغادر أبوالصلت مصر عازما على العودة إلى وطنه الأندلس، فمر بالمهدية حيث نزل بها، على أن يغادرها إلى وطنه، لكن الوفاة أدركته هناك سنة[٤٩] (٥٢٠هـ/ ١١٢٦م) تقريبا[٥٠].

وخلف أبوالصلت أمية كتبا في الطب منها «الانتصار لحنين بن إسحق على ابن رضوان لنفيه ما ورد في كتاب المسائل لحنين» وكتاب «الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء الأولية» و«الرسالة المصرية»[٥١].

ويشير ابن الأبار إلى أن لأبي الصلت تواليف قيمة مفيدة في الطب وأن هذا هو الغالب عليه[٥٢].

ومن مملكة دانية أيضا، ظهرت أسرة آل زهر وهي الأسرة التي ذاع صيت أبنائها في الطب والفلسفة. وقد لقيت هذه الأسرة الجليلة ثناء العلماء والمؤرخين ليس في الأندلس فحسب بل في المشرق أيضاً، حتى قال عنها أحد مؤرخي المشرق: (أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء نالوا المراتب العلية وتقدموا عند الملوك ونفذت أوامرهم)[٥٣].

(٤٨) الرسالة المصرية، ص ٣٤.
(٤٩) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٥٠٤ ـ ٥٠٥)
(٥٠) ابن الأبار : تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٠٤)٠
(٥١) ابن أبي أصيبعة : مصدر سابق (ص ٥١٤ ـ ٥١٥)، ياقوت: معجم الأدباء، ج ٤ (ص ٦٤)، عمر كحالة : العلوم العملية (ص ٥٢).
(٥٢) المقتضب من تحفة القادم (ص ٥٧).
(٥٣) مؤلف مجهول: إنسان العيون في مشاهير سادس القرون (مخطوط) (ص ١٨١).

وأسرة بني زهـر أنجبت عدداً من مشـاهـير الأطباء خلال ستة أجيال متتابعة، وقد استوطنت إشبيلية مقر ملك بني عباد وكان هذا الانتقال من دانية إلى إشبيلية على يد الشيخ الطبيب أبي العلاء زهر كما سيأتي ذكره.

وأول طبيب في هذه الأسرة هو أبومروان عبدالملك بن محمد، وكعادة علماء الأندلس في السعي لنيل العلوم والاستزادة من المعارف فقد شد رحاله إلى المشرق فدخل القيروان ثم مصر وغيرها من أقطار المشرق ثم عاد بعد ذلك إلى وطنه ومسقط رأسه دانية. وطار ذكره في الطب ورسوخه فيه(٥٤).

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن أبا مروان تولى رئاسة الطب في بغداد ثم بمصر ثم بالقيروان وهو ما أشار إليه المقّري(٥٥)، وإذا صح هذا فإن فيه دلالة واضحة وعميقة على مدى ما بلغه الأندلسيون من تفوق وأحرزوه من سبق في هذا العلم، واعتراف المشارقة بذلك.

وكان أبومروان بسعة علمه ومهارته في الطب قد بلغت أخباره مسامع الأمير مجاهد العامري ملك دانية، فسر بقدوم أبي مروان وأعجب بمكانته العلمية فاستدعاه إلى بلاطه وبالغ في الاحتفاء به وإكرامه وأحله في بلاطه مكانا عاليا(٥٦).

وعلى الرغم من شهرة أبي مروان في الطب وذيوع اسمه بين أهل عصره فإنه لم يسلم من الزلل والوقوع في الخطل في بعض آرائه الطبية، حيث أشار إلى أن ورود الحمام واستخـدامه يؤدي إلى عفن الأجسام وإفساد تركيب الأمزجة، وقد رد عليه مؤرخ تلك الفترة صاعد الطليطلي، ووصف رأي أبي مروان بأنه رأي خاطىء لا يقره عليه أهل المعرفة في الطب وصحة الإنسان

---

(٥٤) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١١)، ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١، (ص ٢١٩)، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٥١٧)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ١ (ص ٣٧)، المقري: النفح، ج ٢، (ص ٢٤٤)، فوزي سعد: ابن زهر (الحفيد) (ص ١٠).

Anwar, ch: Muslim Spain. Tts History and Culture, p. 356.

محمد الصادق: تطور الفكر العلمي (ص ٢٠٠).

(٥٥) نفح الطيب، ج ٢ (ص ٢٤٤).

(٥٦) ابن أبي أصيبعة : مصدر سابق (ص ٥١٧)، لطفي عبدالبديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٥٩ ـ ٦٠)، فوزي سعد: ابن زهر (الحفيد) (ص ١٠).

وأن استعمال الحمام رياضة ذات فائدة بالغة لجسم الإنسان وعامل هام في فتح مسام الجلد وبث الحيوية في نفس وجسم الإنسان، هذا إلى أهمية ذلك في نظافة الإنسان ونزاهته(٥٧)

وقبل وفاة أبي مروان كان ابنه النابه أبوالعلاء زهر يصعد مدارج الشهرة في الطب، وكان قد تلقى علومه على يد والده وبعض مشاهير الأطباء آنذاك، وكان موصوفا بالذكاء وسعة الأفق والمعرفة الواسعة بالطب. ولعل من دلائل نبوغه ونفاذ بصيرته في معالجة المرضى أنه كان يكتفي لمعرفة حال المريض بفحص بوله أوجسّ نبضه(٥٨).

ذكره ابن بسام فقال (نشأ بشرق الأندلس والآفاق تتهادى عجائبه، والشام والعراق تتدارس بدائعه وغرائبه، ومال إلى علم الأبدان، فلولا جلالة قدره لقلنا جاذب هاروت طرفا من سحره)(٥٩).

ونظرا لشهرة أبي العلاء وذياع صيته في أنحاء الأندلس، فقد سعى المعتمد ابن عباد إلى استمالته إبان دخول يوسف بن تاشفين الأندلس لنصرة ملوك الطوائف. وكان أبوالعلاء قد انضم إلى المجاهدين لقتال ألفونسو السادس، وهناك تعرف عليه المعتمد واستدعاه للعمل في بلاطه في إشبيلية ووافق أبوالعلاء وأقام فترة من الزمن، ثم استأذن المعتمد في العودة إلى مسقط رأسه «دانية» فأذن له ولم يعد إلى إشبيلية إلا بعد زوال سلطان المعتمد فدخل في طاعة المرابطين وعمل في خدمتهم(٦٠).

وبلغ من براعة أبي العلاء ونبوغه في الطب، ومدى ما قدمه هو وابناؤه من بعده من خدمات طبية جليلة أن أهل المغرب يفاخرون به وبأهل بيته، وأن أبا العلاء المذكور قد أنسى من قبله من الأطباء والحكماء إحاطة بالطب

---

(٥٧) طبقات الأمم (ص ١١١) وانظر فيا يتعلق بهذا الجانب:
Anwar, ch: Muslim Spain, P. 356

(٥٨) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥١٧)، وانظر أيضا أحمد الأهواني: الفلسفة في الأندلس، مقال بمجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، ج ١٥، الجزء الاول (ص ٩٥).

(٥٩) الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٢٠)

(٦٠) ابن بسام: الذخيرة، ق ٢، ج ١ (ص ٢٢٠)، وانظر محمد الصادق: تطور الفكر العلمي عند المسلمين (ص ٢٠٠).

وحذقا به[٦١].

وكانت الأندلس آنذاك تموج بالعلماء الغادين والرائحين من وإلى الشرق، وكانوا في عودتهم إلى وطنهم يصطحبون معهم أرقى التصانيف وأجود التآليف العلمية، وحدث أن دخل أحد العلماء التجار الأندلس وبرفقته نسخة من كتاب القانون في الطب لابن سينا، وكان التاجر المذكور قد حرص على أن تكون هذه النسخة جميلة وفاخرة ليتحف بها أبا العلاء زهر ولما قدمها له أخذ في تقليب الكتاب وتصفحه ثم أظهر امتعاضه منه واحتقاره لما فيه ولم يدخله خزانة كتبه، بل إنه لم يكتف بذلك فأخذ يقتطع منه أوراقا صغيرة يكتب فيها وصفاته الطبية للمرضى[٦٢].

والحق أنّ أبا العلاء قد تحامل كثيرا على ابن سينا وعلى كتابه وبالغ في تنقيصه وإهماله. وليس في هذا ـ في رأي الباحث ـ مايوافق أخلاق العلماء الأفاضل ويتفق مع ما يجب أن يلتزم به أهل العلم من صدق وموضوعية ونقد بناء. وكان الأولى بأبي العلاء عندما لاحظ ما لاحظه من أقوال وآراء ابن سينا في الطب أن ينهج مناهج المنصفين في الإشارة إلى الخطأ والصواب ونقد محتويات ذلك الكتاب نقدا علميا صحيحا. وليته فعل ذلك كما فعله مع كتاب ابن سينا الآخر الذي صنفه عن الأدوية المفردة[٦٣] وعندئذ يكون موقف أبي العلاء موقفا سليما لا غبار عليه، فالعلم أن يفيد الإنسان ويستفيد وأن تكون الحقيقة غايته في كل حال.

ولهذا لا يستغرب الدارس ما قاله الكتبي عن سلوك أبي العلاء وموقفه من كتاب ابن سينا بأنه (إفراط في التعصب والحسد)[٦٤].

وخلف أبوالعلاء آثاراً وتصانيف في الطب، منها كتاب «الخواص» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «حل شكوك الرازي على كتاب جالينوس مجربات»، «مقالة في الرد على ابن سينا في مواضع من كتاب الأدوية المفردة» ألفها لابنه

(٦١) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١، ص ٢٣٤.
(٦٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥١٨).
(٦٣) ابن ابي اصيبعة: نفس المصدر (ص ٥١٩).
(٦٤) عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ٢٣٥).

أبي مروان، وكتاب «النكت الطبية» ألفه لابنه أبي مروان أيضا، و«مقالة في بسطه لرسالة يعقوب بن إسحق الكندي في تركيب الأدوية»، وله غير ذلك تجارب وملاحظات ووصفات طبية أمر بجمعها بعد موته علي بن يوسف بن تاشفين، فجمعت بمراكش وسائر بلاد المغرب والأندلس وانتسخت في جمادى الآخرة سنة (٥٢٦هـ/ ١١٣١م). وله كتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن إسحق في كتاب المدخل إلى الطب»(٦٥).

وينسب لأبي العلاء زهر تأليف كتاب اسمه «التذكرة»(٦٦).

وجدير بالذكر أن أعدادا من الأطباء قد ظهرت في هذا العصر إلا أن من ذكرناهم آنفاً هم أشهرهم وأبرزهم، وعلى الرغم من أن المصادر المعاصرة لا تبسط الحديث عن هؤلاء إلا أننا نستطيع أن نستخرج منها ما يشير إليهم وإن كانت إشارات عابرة وموجزة. فمن هؤلاء محمد بن خلف الأنصاري الألبيري (ت ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م)، وكان معدودا من كبار العلماء المشتغلين بعلم الكلام مع براعة في الطب اكتسبها من مطالعاته الواسعة في ذلك العلم، فنبغ كثيرا في طب العيون «الكحالة» وألف في ذلك كتابا قيما(٦٧).

ولأبي جعفر أحمد بن خميس الطليطلي نشاط في دراسة علوم الطب، فقد قرأ كتب جالينوس واطّلع على أسرارها ومعلوماتها فوعاها وأخذ في ممارسة مهنة الطب ومعالجة المرضى(٦٨)

وعرف عن الأديب الشاعر محمد بن سليمان الرعيني الأعمى تضلعه من

---

(٦٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٥١٩)، وانظر الصفدي: الوافي بالوفيات ج ١٤ (ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦)، الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢، (ص ٢٣٥)، البغدادي: هدية العارفين، ج ١ (ص ٣٧٥)، عزالدين فراج: فضل علماء المسلمين (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣). عمر رضا كحالة: العلوم العملية (ص ٥٢). عبدالرحمن الخطابي: الطب والأطباء في الأندلس، ج ١، (ص ٢٣).

Anwar, Ch: Muslim Spain, P. 356.

(٦٦) قام بدراسته المستشرق الفرنسي جورج كولان، ونشر دراسته هذه في مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد ١٤.

(٦٧) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ١٩٤ ـ ١٩٥) الداودي: طبقات المفسرين، ج ٢ (ص ١٤٢).

(٦٨) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٩)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٩٧)، المراكشي: الذيل والتكملة، ج ١ (ص ١١٤ ـ ١١٥).

الفلسفة والطب. وقد ولد أعشى النظر ضعيفه، ولكنه تميز بتوقد الذهن وصفاء العقل وحدة الذكاء والفطنة، وكان ابنه يصف له أبوال المرضى الذين يقصدونه للعلاج فيستدل بعلمه الواسع في الطب على عين الحقيقة وكنه الحالة المرضية التي يعانيها المريض فيصف له العلاج المناسب. وكان عدد من الملوك والأمراء يستدعونه لمعالجتهم مما يعرض لهم من العلل[٦٩].

ولابن الخياط يحيى بن أحمد (ت ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) وهو من تلاميذ مسلمة المجريطي، معرفة واسعة بعلوم الأوائل، وتفوق في الطب ومعالجة المرضى[٧٠].

وهناك أيضا أبوالحسن عبدالرحمن بن خلف بن عساكر، وكان معتنيا بكتب جالينوس ودراستها دراسة عميقة مكنته من ممارسة هذا العلم على درجة عالية تنم عن جودة قريحته وصفاء ذهنه[٧١].

وكان لعلي بن سليمان الزهراوي (ت ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م) اهتمام بالطب وشغف بدراسة كتبه إلى جانب عنايته بالهندسة والرياضيات[٧٢].

وصنف الزهراوي في الطب «كتاب الزهراوي في الطب»[٧٣]، ويذكر البغدادي أن له كتاب «الأمثلة والتجارب والأخبار والنكت والخواص الطبية» و: «مقالة في أن قبول الجسم التجزؤ لا يقف ولا ينتهي»[٧٤].

ولأبي عبدالله محمد بن عبدالله التجاني المعروف بابن النباش معرفة جيدة بالطب، ومهارة في علاج المرضى، وكان يشتغل بمهنته في مدينة مرسية[٧٥].

وللجغرافي الشهير أبي عبيد البكري معرفة جيدة بعلم الصيدلة وما يتعلق

---

(٦٩) ابن بسام : الذخيرة، ق ١، ج ١ (ص ٤٣٨)، وانظر: المراكشي: الذيل والتكملة، السفر السادس (ص ٢٢١ ـ ٢٢٢)، عمر كحالة: العلوم العملية في العصور الإسلامية (ص ٤٦).

(٧٠) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٢)، ابن أبي أصيبعة: مصدر سابق (ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨)، أحمد عيسى: معجم الأطباء (٥٠٨)، عمر كحالة: العلوم العملية (ص ٤٧).

(٧١) صاعد : مصدر سابق (ص ١١٢)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٩٧).

(٧٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق (ص ٤٨٤)، وانظر الضبي: البغية (ص٤٢٣)، أحمد عيسى: معجم الأطباء (ص ٣٠٦).

(٧٣) ابن فرحون : الديباج المذهب، ج ٢ (ص ١١٧).

(٧٤) هدية العارفين، ج ١ (ص ٦٨٦).

(٧٥) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٢).

بالأدوية المفردة وألوان النباتات والأعشاب ومنافعها وأسمائها، وصنف في ذلك كتاب «أعيان النبات والشجريات الأندلسية»(٧٦).

وجدير بالذكر أن نشير قبل الختام إلى دور أهل الذمة أو بعض من أسهم منهم في نشاط ميداني الطب والصيدلة، فمنهم مروان بن جناح السرقسطي الذي برز في علم الأدوية وقد سبقت الإشارة إليه لدى الحديث عن أطباء مملكة سرقسطة، ومنجم بن الفوال الطبيب من أهل سرقسطة أيضا. ومن أطباء اليهود الطبيب إسحق بن قسطار (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) وكان بارعا في الطب وخدم به مجاهداً العامري وابنه إقبال الدولة(٧٧).

وهناك عدد آخر من هؤلاء العلماء الذين اكتفت المصادر بالإشارة إلى اشتغالهم بالطب والصيدلة، ونحن بدورنا نكتفي - في هذا المجال - بأن نحيل القارئ إلى تلك المصادر التي أشارت إليهم(٧٨).

---

(٧٦) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥٠٠).
(٧٧) صاعد : طبقات الأمم (ص ١١٧).
(٧٨) انظر : ابن أبي صيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٨٤ - ٤٩٦ - ٤٩٧ - ٤٩٩)، أحمد عيسى: معجم الأطباء (ص ٥٣، ٨٢، ٢١١، ٥١٢)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، القسم الأول (ص ٢٣٩)، ابن الأبار: المعجم (ص ٢٩٠ - ٢٩١)، وتكملة الصلة، ج ١ (ص ٤١٧) القاضي عياض: الغنية (ص ١٠١)، ابن خاقان: القلائد (ص ٢٦٣). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٣ (ص ٣٢٦)، ابن بسام: الذخيرة ق ٣، ج ٢ (ص ٦٥٢)، الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٣ (ص ٢٨٧) ابن بشكوال: الصلة، ج ١ (ص ١٢٩)، الداودي: طبقات المفسرين ج ١ (ص ٢٩٠).

الرياضيات والفلك

إذا نظرنا إلى التاريخ الفكري لاسبانيا قبل الإسلام وقفنا على حقيقة واضحة وهامة وهي أن أهلها لم يعنوا بعلوم الأوائل عناية كبيرة ومن تلك العلوم الرياضيات والفلك، فلم يظهر بين الاسبان آنذاك علماء بارزون، ولم تجد تلك العلوم تربة خصبة في اسبانيا. وفي هذا الصدد يقول صاعد (وتمادت على ذلك أيضا لا يُعنى أهلها بشيء من العلوم إلا بعلوم الشريعة وعلم اللغة إلى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتحرك ذوو الهمم منهم لطلب العلوم وتنبهوا لإشارة الحقائق)(٧٩).

وبناء عليه فإن قيام الدولة الأموية، وما أدى إليه من استقرار في جميع نواحي الحياة، وما ترتب على ذلك من رخاء وأمن وسلام صرفت كثيراً من الناس إلى تحصيل العلوم والآداب، فاتجه بعضهم إلى دراسة علوم الأوائل وأخذوا في النظر ودراسة ماكتبه السابقون فيها من اليونان ثم أهل المشرق.

ويلاحظ الدارس لتراجم علماء تلك الفترة أنهم قد جمعوا في تعليمهم ودراساتهم بين علوم مختلفة، فنجد أحدهم بارعا في الطب والرياضيات والفلك والفلسفة وغيرها من العلوم، ومن الحق أن نشير إلى الارتباط الوثيق بين الدراسات الرياضية والفلكية، وهو أمر راجع بلا شك إلى حاجة الفلكي إلى الحساب والهندسة لمعرفة مواضع وحركات الكواكب، ولنأخذ الزيج مثلا فإنه وسيلة هامة من الوسائل التي يعتمد عليها الفلكي في أبحاثه الفلكية، وقد عرّفه ابن خلدون بأنه صناعة حسابية على قوانين عددية فيما يخص كل كوكب من طريق حركتها وما أدى إليه برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع الكواكب في أفلاكها(٨٠).

وبهذا نلمس أن المشتغلين بعلم الفلك لابد أن يتوفروا أيضاً على دراسة علوم الرياضيات كالهندسة والحساب لأن في ذلك سنداً لهم على الإحاطة

---

(٧٩) طبقات الأمم (ص ٨٣ - ٨٤).

(٨٠) المقدمة (ص ٤٨٨ - ٤٨٩)، وانظر التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ج ١ (ص ٧٠).

بعلم الفلك، ومن النادر جدا أن تجد في تراجم علماء الأندلس من يكون فلكيا فقط، والعكس صحيح.

ويمكن أن يتساءل المرء عن تأخر الاشتغال بهذه العلوم، وعدم ازدهارها إلّا في القرن الرابع الهجري وما بعده، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك عند الحديث عن الفلسفة ونشاطها في الأندلس، وأن الأندلسيين كانوا أول عهدهم أكثر التصاقا بعلوم الدين واللغة مع كراهيتهم للعلوم القديمة نظراً لما رسمه الفقهاء حولها من ألوان التكفير والإلحاد والزندقة، وهو ما أخر أو حصر موجة الاشتغال بها في فئة محدودة ذات تأثير محدود، ويمكن أن نذكر منهم العلامة عباس بن فرناس الذي ترك بصمات واضحة من نشاطه العلمي في هذه العلوم، فاخترع صناعة الكريستال «البلور»، كما صنع في منزله نموذجاً لهيئة السماء يخيل للناظر فيها النجوم والرعود، وهو صاحب محاولة الطيران[٨١].

والرياضي الفلكي أبوعبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة، عرف بعنايته الشديدة بعلم الفلك ورصد حركات الكواكب وتأثيرها في الارض وما ينتج عن ذلك[٨٢].

وجدير بالذكر أن محمد عيسى قد جانب الصواب عندما أشار إلى أنّ الحساب والهندسة والفلك لم تواجه أية مشاكل في دراستها أو تدريسها وذلك لارتباطها بالعلوم الدينية وتطبيق الشريعة[٨٣].

فإن صح هذا الأمر على الحساب والهندسة فإن لا يصح على الفلك اللهم إلا بقدر ما يعرف به اتجاه القبلة، وماعدا ذلك فإن الفلك لاقى ما لاقته الفلسفة والتنجيم من المنع والتحريم، وفي الوقت الذي كان فيه الناس يتجاوزون عن صناع الحُجُب والطلاسم والعرافين ومستخرجي الفأل، كان الفلك محرما رغم أنه أقرب للعقل[٨٤].

---

(٨١) لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا (ص ٥٦ ـ ٥٧).

Anwar, Ch: Muslim Spain, p. 163.

(٨٢) صاعد: طبقات الأمم (ص ٨٦ ـ ٨٧)، قدري طوقان: تراث العرب العلمي (ص ٢٦٣)، خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٩٠).

(٨٣) تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

(٨٤) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس (ص ٨٩)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٤٧).

وكما أن محمد عيسى جانبه الصواب في إشارته إلى إباحة وتيسر الاشتغال بالفلك وعلومه، فإن آنخل بالنثيا بالغ في تهويله لموقف المجتمع الأندلسي من الرياضيات، وأن الفقهاء كانوا يتشددون في الاشتغال بها ولم يكونوا يبيحون إلا الحساب المتعلق بالميراث[٨٥]. وهذا أمر مناف للحقيقة فالرياضيات لم تلق من التحريم والمنع ما لقيته الفلسفة والفلك مثلا، فنحن نعلم أن الرياضيات علم هو أبعد ما يكون عن مواطن الانحراف العقائدي ونزاعات الزندقة والإلحاد، فالرياضيات تتضمن الحساب والجبر والهندسة. فقد احتاج الناس إلى الحساب والجبر لمعرفة مسائل الفرائض والضرائب وموارد الدولة ونفقاتها وما يتصل بالأرقام عامة، وأمّا الهندسة فقد احتاجوا لها في ميادين البناء والعمارة وشق القنوات وتخطيط المدن وغير ذلك.

ويمكن أن نجمل سير حركة الدراسات الرياضية والفلكية فيما قبل عصر ملوك الطوائف بالإشارة أولاً إلى الدور الذي أدّاه الأمير عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦هـ - ٢٣٨هـ/٨٢١م - ٨٥٢م)، في تنشيط مثل هذه الدراسات وأنه بعث عدداً من الرسل إلى المشرق ليجمعوا له تصانيف الفكر اليوناني والهندي والفارسي.

وفي عهد ابنه محمد (٢٣٨هـ - ٢٧٣هـ/ ٨٥٢م - ٨٨٦م). ظهرت بوادر الاشتغال بالفلك والرياضيات بين عدد من العلماء و(تحرك أفراد من الناس إلى طلب العلوم ولم يزالوا يظهرون ظهورا غير شائع إلى قريب وسط المائة الرابعة) كما يقول صاعد في كتابه طبقات الأمم.

ومن أولئك الأفراد مَن أشرت إليهم آنفا كعباس بن فرناس، ومسلم بن أحمد، كما يلحق بهما المنجم الفلكي المنسوب للجزيرة الخضراء ويدعى الضبي، وقد وصف أنه في الفلك كبطليموس[٨٦].

وتنامى الاهتمام بهذه الدراسات في عصر الخلافة وكثر المشتغلون بها

---

(٨٥) تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٤٧).
(٨٦) المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٣٥.

وخصوصا في عصر الخليفة العالم الكبير الحكم المستنصر (٣٥٠هـ - ٣٦٦هـ/ ٩٦١م - ٩٧٦م)، الذي كان عهده صفحة مشرقة حضارة وعلما ومعرفة، وشهدت الأندلس في عصره ازدهارا كبيرا في علوم الأوائل واستجلب من العراق ومصر وغيرهما أهم الكتب الأساسية في ذلك، قديمها وحديثها، فنبغ آنذاك فلكيون تخصصوا في مراقبة حركات النجوم واستخدام آلات الرصد وصححوا كثيرا من أخطاء من سبقهم.

وذاع في هذا العصر صيت العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي الذي يمثل بجدارة مدرسة علمية زاهرة في علوم الرياضيات والفلك وغيرها من العلوم القديمة، وتخرج على يدي مسلمة أعداد كبيرة من علماء الفلك والرياضيات امتد تأثيرهم إلى عصر ملوك الطوائف.

وكان للتطور الحضاري أثر في اتساع آفاق الفكر العلمي وانكماش وضعف عوامل الازدراء والكراهية لتلك العلوم، فلم يعد كثير من الناس ينظرون للمشتغلين بها نظرة احتقار وامتهان بل تغير الحال وأصبحت الرياضيات والفلك تحظى باحترام وتقدير الكثير، حتى وجدنا بعض علماء الرياضيات والفلك يتولون منصب القضاء كالعلامة محمد بن أحمد بن الليث (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).

كما أن العلامة أحمد بن محمد بن خير الأنصاري كان متقدما في الرياضيات بارعا فيها، وكان يدرسها في جامع قرطبة في عصر الحكم[٨٧].

وهذه الحقيقة لا تصطدم بما قام به الحاجب المنصور بن أبي عامر في أواخر عصر الخلافة من إحراق وتدمير وقضاء على كتب الأوائل والحد من نشاط الدراسات الفلكية والفلسفية، فإن تلك الحادثة لم تكن سوى حركة مسرحية عابرة - إذا صح التعبير- لإظهار تعظيمه للدين وكراهيته لما سواه وتطمينا للعامة.

وكان للفتنة التي لحقت بقرطبة عاصمة الخلافة الأموية أثر بالغ في بيع

(٨٧) صاعد: طبقات الأمم، ٩١، ٩٢، ٩٦، ٩٧ - وانظر سعد البشري: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، ص ٣٨٩ وما بعدها.

ما كان بقصور خلفاء وأمراء بني أمية من كنوز العلم وذخائر المعرفة الإنسانية وذلك بأبخس الأثمان وأتفهها، فانتشرت تلك المصنفات في كل مدن الأندلس، ووجد بينها كثير من كتب الأوائل، وأظهر العديد ممن كان لديه اهتمام بعلوم الأوائل مالديه من دراسات وأبحاث، وتمكنوا من إعلان اشتغالهم بتلك العلوم ودراستها أمام الملأ بعد أن كانوا يخفون ذلك. فكان عصر ملوك الطوائف أفضل العصور في إباحة دراسة تلك العلوم القديمة وأبعد ما يكون عن التزمت والجمود الفكري وضيق الأفق(٨٨).

ويمكن أن نشير إلى أن من دلائل الازدهار العلمي في هذه العلوم في عصر الطوائف تفوق عدد من ملوك وأمراء هذا العصر في الرياضيات والفلك والفلسفة، ومنهم المقتدر بالله بن هود (٤٣٨ - ٤٧٣هـ/ ١٠٤٧ - ١٠٨١م)، وابنه يوسف المؤتمن (٤٧٣ - ٤٧٧هـ/ ١٠٨١ - ١٠٨٥م)، وقد سبقت الإشارة إلى جهودهم العلمية في سياق الحديث عن عوامل رقي الحياة العلمية في الأندلس في هذا العصر.

وكان للفتنة تأثير آخر في تشكيل جغرافية الفكر العلمي في الأندلس، فقد كانت قرطبة قبل الفتنة تكتظ بأفواج العلماء وتمتلئ بهم ساحاتها وجوانبها، ولكنها أضحت بعد الفتنة في صورة أخرى، فقد غادرها أكثر العلماء والأدباء إلى عواصم ممالك الطوائف، وغدت مدن كاشبيلية وطليطلة وسرقسطة أكثر اهتماما بالعلوم والمعارف من قرطبة التي كانت تمسك بزمام التيار العلمي والفكري قبل عصر الطوائف. وهكذا توزعت أقطار الأندلس مشاعل المعرفة فأنارت وأضاءت بالعلم أقاليمها المختلفة.

ومن أشهر علماء الرياضيات والفلك الذين غادروا قرطبة على أثر الفتنة العلامة ابن السمح اصبغ بن محمد المهري القرطبي (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) وكان عارفا بالرياضيات ماهراً في الفلك إلى جانب معرفته بالطب(٨٩).

---

(٨٨) صاعد: طبقات الأمم (ص ٨٩ - ٩٠).

(٨٩) صاعد: المصدر السابق (ص ٩٣)، ابن الأبار: التكملة، ج ١ (ص ٢٠٧) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٨٣ - ٣٨٤)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ (ص ٤٢٨)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٧٥).

وقد تلقى ابن السمح علومه ومعارفه على يد أستاذه الكبير مسلمة المجريطي فلازم مجالسه العلمية وأخذ عنه كثيرا من العلوم التي برع فيها وأخرج في البعض منها مصنفات قيمة. وظل ابن السمح بعد ذلك يؤدي واجبه في نشر العلم وبثه مع ملازمته لأستاذه مسلمة حتى حلت الفتنة بقرطبة وانتشرت الفوضى السياسية فيها فرأى من الأمان أن يغادر تلك المدينة متحسراً على فراق إخوانه وتلاميذه، واتجه جنوبا إلى غرناطة حيث حل ضيفا عزيزا في بلاط أميرها حبوس بن ماكسن الصنهاجي(٩٠)، وهو على هذا من أعلام مملكة غرناطة.

وخلّف ابن السمح عددا من التآليف في الرياضيات والفلك. ففي الرياضيات ألف كتاب «المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب أقليدس»(٩١) وكتاب «ثمار العدد» المعروف بالمعاملات(٩٢). و«طبيعة العدد» وصنف كتابا قيما في الهندسة تقصى فيه أجزاءها من الخط المستقيم والمقوس والمنحني. وفي ميدان الفلك صنف كتابين في آلة الاسطرلاب، أحدهما في التعريف بكيفية صنعتها على مقالتين. أما الآخر فمؤلف في كيفية العمل بها والتعريف بجوامع ثمارها، وهو مقسم على مائة وثلاثين بابا. كما أنه صنف زيجا وذلك على طريقة الهند المعروفة بالسند هند(٩٣)، وهو كتاب كبير يقع في جزأين أحدهما في الجداول، والآخر في رسائل الجداول(٩٤).

وفي ذلك العصر تمكن الفلكيون المسلمون من صناعة عدد من

---

(٩٠) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٠٧)، وانظر ابن قنفذ: الوفيات (ص ٢٣٤).

(٩١) هو أقليدس الصوري: (ق الثالث قبل الميلاد) له تآليف في الرياضيات كالمدخل إلى علم الهندسة، والمعروضات والمناظر. صاعد: طبقات الأمم (ص ٣٦).

(٩٢) المعاملات هي (تصريف الحساب في معاملات المدن في البياعات والمساحات والزكوات). ابن خلدون: المقدمة (ص ٤٨٤).

(٩٣) في عصر الخليفة العباسي المنصور قدم عليه رجل من الهند عالم بالحساب والفلك وكان بحوزته كتاب السند هند في حركات النجوم وما يتصل بها من مسائل، ويضم اثني عشر بابا، فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب وألف عليه العلامة محمد بن إبراهيم الفزاري كتابا سماه «بالسند هند الكبير» ثم اختصره الخوارزمي وأضاف إليه الكثير من المسائل. صاعد: طبقات الأمم (ص ٦٧). وانظر عبدالله مبشر: علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند (مقال بالمجلة العربية السنة الرابعة، العدد ١١ (ص ٥٨).

(٩٤) صاعد: طبقات الأمم (ص ٩٣). ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٨٣ - ٤٨٤)، ابن الخطيب: الإحاطة، ج ١ (ص ٤٢٨)، المقري: النفح ج ٣ (ص ٣٧٢)، حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٢١٥)، كحالة: العلوم البحتة (ص ١٨٨).

الاسطرلابات الميكانيكية تحدد مواقع الكواكب والنجوم بمساعدة آلات متشابكة مسننة، وتوصل البيروني الفلكي المشرقي إلى صنع جهاز من هذا النوع ليأتي بعده ابن السمح فيطوره ويدخل عليه تعديلات حسنة «بصفائحه للكواكب السبعة»(٩٥).

وقد تضافر العلماء على الثناء على ابن السمح وامتداح قدراته وذكائه، ومن أولئك العلماء ابن حزم الذي امتدح نشاط ابن السمح في الفلك وأن زيجه وزيج أستاذه مسلمه لم يؤلف مثلهما(٩٦).

كما أن القلقشندي ذكر كتابه في الحساب أو العدد على أنه من الكتب المبسوطة في الحساب المفتوح وسماه «الكامل»(٩٧).

وينسب لابن السمح من الكتب كتاب «رماية الغرض وحماية الجوهر عن العرض» و«الكافي في حساب الهواء»(٩٨).

وكان ابن الخطيب شديد الإعجاب بابن السمح فأثنى عليه وعلى علمه وما صنفه من الكتب ووصفها بالحسن والجودة، وأنها عظيمة القيمة جمة الفائدة، وأن ابن السمح يعد لدى الأندلسيين من مفاخرهم العظيمة في ميدان العلم والمعرفة(٩٩).

وممن أخرجته الفتنة عن قرطبة من العلماء العالم الكبير أحمد بن عبدالله ابن عمر القرطبي المعروف بابن الصفار (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)، الذي كان من أشهر علماء الفلك والرياضيات في ذلك العصر، وكان من تلاميذ مسلمة ابن أحمد المجريطي، وأسهم ابن الصفار مساهمة فعالة في نهوض الدراسات الفلكية والرياضيات، وكان له مجلس علمي مشهور في جامع قرطبة يبث فيه معارفه وعلومه ويلقنها تلاميذه(١٠٠).

---

(٩٥) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٠٤).
(٩٦) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (ص ١٧٦) (نقلا عن رسالة ابن حزم في فضل الأندلس).
(٩٧) صبح الأعشى، ج ١ (ص ٤٧٨)، وانظر البغدادي: هدية العارفين، ج ١ (ص ٤٢٤).
(٩٨) البغدادي : المصدر السابق، ج ١ (ص ٢٢٤).
(٩٩) الإحاطة، ج ١ (ص ٤٢٨).
(١٠٠) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٣ - ٩٤)، ابن بشكوال : الصلة، ج ١ (ص ٤٢) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق (ص ٤٨٤).

وكان ابن الصفار بعد خروجه من قرطبة قد اتجه إلى مدينة دانية عاصمة مجاهد العامري ولم يتوان هناك أو يكل عن أداء رسالته العلمية فظل مخلصا في نشر العلم والعكوف على التصنيف والتأليف[١٠١].

وابن الصفار ألف في الفلك زيجا مختصرا على مذهب السند هند وكتابا في العمل بالاسطرلاب (موجز حسن العبارة قريب المأخذ)[١٠٢]. وهذا الكتاب الأخير سلم من الضياع ولا يزال بين أيدينا. وهو كتاب صغير الحجم عظيم الفائدة لما تضمنه من معلومات هامة حول كيفية العمل بالاسطرلاب وهي معلومات صادرة عن عالم بارع مجرب قضى عمره في دراسة الفلك واستيعاب فنونه.

وجدير بالذكر أن مياس بياكروزا قام على نشر هذا المخطوط في مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[١٠٣]، وذكر أن الكتاب ترجمه إلى اللاتينية بلاتو ثيبرتينونس في الثلث الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، وأن للكتاب ترجمة أخرى إلى اللغة العبرية[١٠٤].

. ويشير عبدالرحمن بدوي إلى أن معظم هذا الكتاب مأخوذ عن كتاب استاذه مسلمة بن أحمد المجريطي. وأن مياس بياكروزا قد درس الكتاب في بحث باللغة القطالونية عنوانه «بحث في تاريخ الآراء الفيزيائية والرياضية في قطالونيا في العصور الوسطى، ج ١ برشلونة ١٩٣٦م»[١٠٥]

وقد اطلع الباحث على مخطوطة الكتاب وقام بمقارنتها بما نشره مياس بياكروزا فلاحظ اختلافا كبيرا بين ماهو في المخطوط ومانشر، ففي المخطوط كثير من الموضوعات لم ترد في النسخة المنشورة. والمخطوط يقع في (١٨)

---

(١٠١) صاعد : المصدر السابق (ص ٩٤).

(١٠٢) صاعد : مصدر سابق (ص ٩٤)، وانظر ابن أبي أصيبعة: مصدر سابق (ص ٤٨٤)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٧٥).

(١٠٣) نشر هذا المخطوط تحت مقالة عنوانها (ابن الصفار، العمل بالاسطرلاب، في العدد الثالث، ج ١ (ص ٤٧ - ٧٦).

(١٠٤) مياس بياكروزا: المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب في اسبانيا العربية مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث ج ١ (ص ١٩٣).

(١٠٥) دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب (ص ٤٥).

لوحة، وبعد البسملة والصلاة على النبي ﷺ ذكر نسبة الرسالة إلى ابن الصفار. ثم يبدأ الحديث عن الاسطرلاب وآلاته ومهمة كل منها، ويظهر من أسلوب المؤلف أن الكتاب المذكور موجه للدارسين والمشتغلين من التلاميذ بعلوم الفلك، فقد صاغ معارفه تلك بأسلوب تعليمي وتوجيهي، فهو يُصدِّر كل باب من رسالته بقوله «إذا أردت ـ مثلا ـ كذا وكذا فافعل كذا. . .» وهو بهذا يرسم المنهج العلمي الصحيح لدارسي الفلك، وكيف يتبعون أقوم السبل في تعلمهم. وتتجلى في المخطوط أيضا البراعة الفائقة والتركيز الواضح على التطبيق العملي الذي كان يجريه ابن الصفار ليقف من خلال ذلك على أصدق النتائج وأوثق المشاهدات.

وابن الصفار يبين لنا في رسالته الطريقة المثلى لمعرفة الأوقات أو تحديد موضع الشمس من فلك البروج ومعرفة أوقات النهار، وما يمر من ساعات، وتعيين وقت الظهر والعصر، بل إنه يعين جزئيات ساعة واحدة من الليل والنهار، ثم يتابع دراسته العملية في توضيح ارتفاع الشمس وكيف يتم ضبط ذلك، والطريق إلى معرفة درجة الشمس المجهولة من قبل ارتفاع نصف نهارها، ويستمر في توضيح الكثير من المعلومات المتعلقة بدرجات طلوع الشمس والتعريف بالكواكب الموضوعة في الشبكة إلى معرفة وقت طلوع أول درجة من البروج، ومع أي درجة يتوسط السماء أي كوكب. لينتقل إلى موضوع تعيين القبلة في الليل والنهار، ويمضي في تعيين الطول وكيفية اخذه ويوضح معنى الطول بقوله: (واعلم أن الطول هو ما بين نصف نهار بلدك ونصف نهار بلد آخر من دائرة معدل النهار)[١٠٦].

وينبه المؤلف إلى كيفية معرفة وضع الظل من قبل ارتفاع الشمس ومعرفة ارتفاعها من قبل الظل، ويسير ابن الصفار على هذا النهج حتى يصل إلى توضيح طريقة معرفة موضع القمر من البروج، ومواضع الكواكب السيارة فيها، وفي باب آخر معرفة سعة المشارق، ثم يتطرق إلى باب آخر لمعرفة دخول السنين العجمية وشهورها فيقول (إذا أردت في أي يوم يدخل فيه

(١٠٦) ابن الصفار: العمل بالاسطرلاب (مخطوط) ورقة ٧ ب.

يناير من أي عام أردت من أعوام تاريخ الهجرة فاعرف تلك السنة الداخلة كم هي من تاريخ مولد المسيح عليه السلام)[١٠٧]

وفي آخر المخطوط صورة فلكية دائرية مُوَضَّحٌ عليها مواضع الشهور والفصول[١٠٨].

ولابن الصفـار أخ يدعى محمـد برع في صناعة الاسطرلاب وإتقانه، ووصف بأنه لم يكن في الأندلس قبله أجمل صنعا لها منه[١٠٩].

وابن الصفار أنجب تلاميذ نجباء أخذوا عنه علومه وأخلصوا في نشرها منهم ابن برغوث محمد بن عمر، وعيسى بن أحمد الواسطي، ومختار بن عبدالرحمن بن شهر، ومحمد بن العطار وغيرهم[١١٠].

وفي هذا العصر ظهـر ألمع فلكيي الأندلس من مملكة بني ذي النون بطليطلة. وهو العلامة الشهير أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش الـطليطلي المعـروف بابن الزرقالة، ومع أن المؤرخ صاعد الطليطلي وافانا بتراجم كثيرة لعلماء الرياضيات والفلك إلا أنه ـ وبالرغم من مجاورته لابن الزرقالة في بلاط المأمون ـ لم يمدنا بمعلومات وافية عن حياة ابن الزرقالة، وكل ما ذكره عنه انه أبصر أهل زمانه بالفلك وفهم علومه وابتكاره لعدد من آلات الرصد[١١١]، وتابعه ابن الأبار في هذا الوصف وذكر أنه لم يظهر له نظير في الفلك منذ الفتح الإسلامي إلى عصره ـ أي عصر ابن الأبار ـ[١١٢].

وكان أبوإسحاق ابن الزرقاله يمارس تجاربه العلمية في مرصده بطليطلة أيام المأمون بن ذي النون وحفيده القادر، ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة قرطبـة حيث أكرم المعتمد بن عباد وفادته وشجعه على الدراسة والبحث

---

(١٠٧) ابن الصفار : نفس المخطوط، ورقة ١٧ أ.
(١٠٨) هذه خلاصة موجزة واستعراض سريع لمحتويات المخطوط.
(١٠٩) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٣ ـ ٩٤)، ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٤٨٤).
(١١٠) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٥ ـ ٩٦).
(١١١) طبقات الأمم (ص ١٠٠).
(١١٢) تكملة الصلة، ج ١ (ص ١٣٨ ـ ١٣٩).

والتجربة العلمية. وظل بقرطبة حتى أدركته المنية[١١٣].

ونظرا لمنزلة أبي إسحاق ابن الزرقالة وما قدمه من جهود موفقة في الفلك وما اخترعه من آلات وأجهزة فلكية فقد ذاع صيته ليس في وطنه الأندلس فحسب بل وحتى في المشرق، وازدادت شهرته باختراعه الصفيحة الفلكية المشهورة التي تضمنت خلاصة نشاطه العلمي في الفلك، ولما دخلت هذه الصفيحة أرض المشرق احتار علماؤه وفلكيوه في فهمها ولم يتم لهم ذلك إلا بعد زمن[١١٤].

ويشير حاجي خليفة إلى آلة لابن الزرقالة وأنها هي المعروفة بالصفيحة وأنها على مائة باب ألفها للمعتمد بن عباد[١١٥]. ويذكر في موضع آخر أنها آلة بديعة الشكل استنبطها ابن الزرقالة من علم الحركات الفلكية، ورغم أنها مختصرة فإنها بديعة جدا وألف حولها كثير من العلماء عدداً من الرسائل والشروح[١١٦].

وأبـو إسحاق سبق غيره من الفلكيين إلى القول بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية إهليلجية كما ينسب إليه أنه أول من أثبت أن حركة ميل أوج الشمس هي ١٢٫٠٤ ثانية بالنسبة للنجوم الثوابت، ويقدر الرقم الحقيقي بـ ١١٫٠٨ ثانية[١١٧].

وأهدى أبو إسحاق عددا من مؤلفاته إلى الملك المعتمد بن عباد، ومنها كتابه «العمل بالصفيحة الزيجية» وفي مقدمته يقول (... وإني، أيد الله المعتمد على الله المؤيد بفضل الله، لما رأيت الناس يتوسلون إليه بأنواع من التوسل ويتوصلون إلى خدمته بضروب من التوصل... لم أرَ إتحاف

---

(١١٣) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ١٣٨ - ١٣٩)، وانظر:
Anwar, Ch: Muslim Spain, PP, 349 - 350.

(١١٤) القفطي: اخبار العلماء (ص ٤٢).
والصفيحة عبارة عن اسطرلاب مثل فيه الاسقاطان للدوائر على خط الاستواء على فلك البروج على مستوى بعينه. سيد حسين: العلوم في الإسلام (ص ١٠٤).

(١١٥) كشف الظنون، ج ١ (ص ٨٧٠).

(١١٦) كشف الظنون، ج ٢ (ص ٩٥٥).

(١١٧) باقر أمين الورد: معجم علماء العرب، ج ١ (ص ١٥١)، بول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية (ص ١٠١)، سيد حسين: العلوم في الاسلام (ص ٩٩)، عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي (ص ٥٨٩ - ٥٩٠).

حضرته الجليلة إلا بما يطابق مذهبه الشريف.. فصنعت له آلة شريفة يتوصل بها إلى تقويم الكواكب السبعة ويعلم بها علة ما يعرض لها من الاستقامة والرجوع...)[١١٨].

وإلى جانب كتابي ابن الزرقالة «الصفيحة» و«العمل بالصفيحة الزيجية» فقد صنف كتبا أخرى مثل «الجداول الزرقالية» المسماة بجداول طليطلة. وقد ضاع الأصل العربي وبقيت نسخة باللغة اللاتينية التي قام بترجمتها جيرارد الكريموني، وكتاب «التدبير» وكتاب «المدخل إلى علم النجوم»[١١٩]، ويذكر بالنثيا أن له كتاباً باسم «طريقة عمل اسطرلاب لرصد الكواكب السبعة وأفلاكها»[١٢٠].

وقد نالت الدراسات والأبحاث التي توصل إليها ابن الزرقالة اهتمام العلماء وعنايتهم قديما وحديثا، فمن الأوائل ابن الحماد الأندلسي الذي درس أرصاد أبي إسحاق ثم عمل من خلالها ثلاثة أزياج سمى أحدها: الكور على الدور، والآخر: الامد: على الأبد، واختصرهما في ثالث وسماه: المقتبس[١٢١].

ويشير ابن الأبار إلى عالم اسمه أحمد بن يوسف التنوخي الاشبيلي ويعرف بابن الكماد وأنه عمل أزياجا على أرصاد ابن الزرقالة، ومن تلك الأزياج القبس والمستنبط[١٢٢].

فهل هذا العلامة هو ابن الحماد السالف الذكر علماً أن أحمد بن يوسف يعرف بابن الكماد. فقد يكون محرفا عن ابن الحماد. كما أن اسم أحد أزياجه «القبس» قريب شكلا لاسم أحد أزياج ابن الحماد وهو المقتبس.

---

(١١٨) سيمون الحايك : عروق الذهب في مناجم الروم والعرب (ص ٢٢٩) من مخطوط لابن الزرقالة في المتحف البريطاني تحت رقم (٤٢٦). وقد قام على تحقيقه مياس بياكروزا وترجمه إلى الاسبانية ونشره في كتابه «دراسات حول الزرقالي (باللغة الاسبانية)» مدريد غرناطة ١٩٤٣ - ١٩٥٠م. (ص ٧٥) وما بعدها. وانظر نصوصا من كتابات ابن الزرقالة لدى سيمون الحايك: عروق الذهب (ص ٢٢٦) وما بعدها.

(١١٩) بول غليونجي وآخرون : موسوعة العلوم الإسلامية (ص ١٠١)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥١).

Anwar, Ch: Muslim Spain, P. 360.

(١٢٠) تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥٢).
(١٢١) القفطي : أخبار العلماء (ص ٤٢).
(١٢٢) تكملة الصلة، ج ١ (ص ٢٩).

ومن الغريب بعد ذلك أن يأتي أحد الكتاب الغربيين وهو مونتجمري وات ليقول: (قد شهد النصف الأول من القرن الحادي عشر عالمين رياضيين فلكيين بارزين هما ابن السمح وابن الصفار، وعالما فلكيا هو ابن أبي رجال ثم لم يظهر بعد ذلك علماء بارزون حتى منتصف القرن الثاني عشر أو أواخره)[١٢٣].

ولم تكن جهود ابن الزرقالة العلمية مقتصرة على الفلك بل كان له إسهام في الرياضيات، فكان له تأثير واضح في حساب المثلثات وخاصة المثلث الكروي، بل إن جيب الزاوية واستعماله كان معروفا في كتابات ابن الزرقالة وهو ما أكده علماء الرياضيات[١٢٤].

وبناء عليه فإن أبا إسحاق ابن الزرقالة بما أسهم به من دراسات فلكية وأبحاث في الرياضيات قد أضاف الكثير من المساهمات القيّمة والتطور العلمي الجاد لهذه الميادين الهامة من ميادين المعرفة. وما كان له أن يفعل ذلك لولا أنه اتجه نحو التجربة والمشاهدة والملاحظة مع ما تمتع به من مواهب علمية وقدرات واسعة، وسوف نتحدث عن تأثير دراساته في الفلك والرياضيات في أوروبا في الفصل الأخير من هذا البحث.

ومن مملكة طليطلة أيضاً برز اسم القاضي المؤرخ صاعد بن أحمد (ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م) كأحد المساهمين في رقي الدراسات الرياضية الفلكية، وكان لعنايته بعلوم الأوائل وشغفه بقراءة كتبهم أن قاده ذلك إلى تصنيف كتاب سماه «طبقات الأمم» يضم أبرز علماء الأمم الذين أسهموا في تقدم تلك العلوم. وقد حفظ لنا القاضي صاعد معلومات قيمة هامة عن تاريخ العلوم القديمة ومدى ما أسهم به كبار علماء الأمم المختلفة في الفلك والفلسفة والرياضيات والطب. وما من شك أن ما ضمه ذلك الكتاب من مادة علمية تدل على سعة اطلاع القاضي صاعد وعمق فهمه لمسائل الفلك وعلومه.

---

(١٢٣) فضل الاسلام على الحضارة الغربية (ص ٥٢).
(١٢٤) علي الدفاع : الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي (ص ٢١٠).

وتتلمذ صاعد على علماء بلده ومنهم العلامة أحمد بن خميس الطليطلي (ت ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)[١٢٥] والعلامة الكبير سعيد بن محمد بن البغونش[١٢٦] وإبراهيم بن لب التجيبي[١٢٧].

وللقاضي صاعد مشاركة فعالة في ازدهار الدراسات الفلكية بما كان يقدمه من دراسات وإيضاحات حول آثار من سبقه من الفلكيين، فقد صنف كتابا أسماه «إصلاح حركات الكواكب والتعريف بخطأ الراصدين»[١٢٨].

وفي هذا الكتاب ردود وانتقادات علمية صائبة وهامة حاول فيها تصحيح أخطاء الفلكيين وتقويم أعمالهم، فمن ذلك تصحيحه لبعض الهفوات التي وقع فيها العلامة مسلمة المجريطي عندما تناول زيج محمد بن موسى الخوارزمي بالدراسة وبدّل تاريخه الفارسي إلى العربي، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة، وزاد فيه جداول وصفت بالجودة، إلا أنه رغم ذلك لم يسلم من الزلل، فوقع في الأخطاء التي وقع فيها الخوارزمي، فقام صاعد بمهمة الإشارة إلى تلك الأخطاء والتنبيه على وجودها وتصحيحها[١٢٩].

كما أن صاعداً رأى رسالة علمية حول مذهب السند هند بعث بها العلامة عبدالله بن أحمد السرقسطي (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) إلى صديقه أبي مسلم بن خلدون يذكر له فيها فساد ذلك المذهب في حركات الكواكب ويحتج بأشياء مختلفة، إلا أن صاعدا رد عليه وفند كثيرا من آرائه وبين مواضع الخطأ والصواب في تلك الرسالة[١٣٠].

وكان القاضي صاعد يحتفظ بعلاقات وصلات عديدة مع علماء عصره وكان بينه وبينهم رسائل وردود وإيضاحات علمية. فمن هذه الرسائل تلك

---

(١٢٥) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٩).
(١٢٦) المراكشي : الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٤٣ ـ ٤٤).
(١٢٧) طبقات الأمم (ص ٩٩).
(١٢٨) نفس المصدر (ص ٩٢).
(١٢٩) انظر طبقات الأمم (ص ٩٢).
(١٣٠) طبقات الأمم، (ص ٩٧).

التي بعث بها إليه صديقه الفلكي عبدالله بن خلف والتي نالت إعجاب صاعد وثناءه، وقد امتدح صاعد صديقه ابن خلف بقوله (لا أعلم أحدا في الأندلس في وقتنا هذا ولا قبله وقف من أسرار هذه الصناعة (الفلك) وغرائبها على ماوقف عليه)(١٣١).

وجدير بالذكر أنه لم يكن ليتم للمأمون ملك طليطلة بناء عدد من قصوره البديعة وخاصة ذلك القصر الفخم الذي تأنق في بنائه وأنفق عليه أموالا كثيرة وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسيق الماء على رأس القبة على تدبير الحكماء والمهندسين، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطا بها فكانت القبة في غلالة من ماء ينسكب لا يفتر والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء(١٣٢). نقول إنه لم يكن ليتم له ذلك لولا وجود مهرة المهندسين وكبارهم في دولته، فإن مثل تلك الإنشاءات والمباني لا تقوم إلا على علوم الهندسة وهي فرع من الرياضيات.

وإلى مملكة طليطلة لجأ العلامة أبوبكر يحيى بن أحمد المعروف بابن الخياط (ت ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م)، وكان أحد تلاميذ مسلمة المجريطي، وعنه أخذ علومه في الحساب والهندسة والفلك والتنجيم، وخدم بعلمه في بلاط الخليفة سليمان بن الحكم وغيره من الخلفاء، ولما زالت الخلافة اتجه إلى طليطلة حيث أكرمه المأمون ورفع منزلته في بلاطه(١٣٣)

ومن مملكة طليطلة لمع اسم العلامة أبوعثمان سعيد بن محمد بن البغونش (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)، وكان قد رحل إلى قرطبة فأخذ عن علمائها أمثال مسلمة المجريطي الذي درس على يديه الرياضيات، ودرس على غيره الطب، ثم عاد إلى طليطلة حيث استقدمه أميرها الظافر إسماعيل بن ذي النون، وسمت حاله في بلاطه، وكانت بينه وبين القاضي صاعد صداقة ومودة. وكان الأخير قد التقى به في عهد المأمون وقد نبذ سائر العلوم وأقبل على

---

(١٣١) نفس المصدر (ص ١١٣).
(١٣٢) المقري : نفح الطيب، ج ١ (ص ٥٢٨).
(١٣٣) صاعد : طبقات الأمم، (ص ١١٢ - ١١٣) ابن أبي أصيبعة : مصدر سابق ٤٩٧ - ٤٩٨.

النسك والعبادة. وقد أثنى عليه صاعد ثناء جما ووصفه بالتفوق في الهندسة والتعمق في علومها[١٣٤].

وفي مملكة طليطلة أيضاً برز العلامة إبراهيم بن لب بن إدريس التجيبي (ت ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م)، وهو أصلاً من قلعة أيوب ثم استوطن طليطلة ويعرف بين أهل عصره بالقويدس. وقد نشأ نشأة علمية فأخذ علومه في الرياضيات عن علماء بلده ثم درس الفلك حتى إذا تضلع من هذه العلوم اتخذ له مجلسا علميا لنشر علومه وبث معارفه[١٣٥].

ولعل من دلائل فهم القويدس وتمكنه في الرياضيات والفلك أن قصده الكثير من العلماء لاكتساب مزيد من علمه وخبراته، ومن هؤلاء العلماء القاضي صاعد الذي أشار إلى أنه أخذ عنه كثيرا من علمه في الفلك[١٣٦].

كما أن القويدس أظهر مقدرة واسعة في استيعاب وفهم كتب السابقين في الرياضيات مثل كتاب اقليدس «المدخل إلى علم الهندسة»، فقد عكف على دراسته حتى أحاطه به فهما، ثم انتقل إلى غيره من الكتب الأخرى في الهندسة حتى شد أنظار الجميع إليه فقصدوه للأخذ عنه[١٣٧].

وفي مملكة طليطلة نبغ العلامة أبوالوليد هشام بن أحمد الكناني المعروف بابن الوقشي الطليطلي، وكان من المتفننين في عدد من العلوم ومن بينها الهندسة، وقد التقى به صاعد في طلبيره من ثغور طليطلة سنة ٤٣٨هـ/ ١٠٤٦م)[١٣٨].

وكان تفنن أبي الوليد في سائر العلوم وكثير من المعارف مدعاة إلى إعجاب العلماء وثنائهم عليه حتى قيل فيه:

وكان من العلوم بحيث يُقضى   له في كل فن بالجميع

---

(١٣٤) طبقات الأمم (ص ١٠٩ ـ ١١٠)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الرابع (ص ٤٣ ـ ٤٤).
(١٣٥) صاعد: طبقات الأمم (ص ٩٩).
(١٣٦) طبقات الأمم، (ص ٩٩).
(١٣٧) ابن الأبار: تكملة الصلة، ج ١ (ص ١٣٦).
(١٣٨) طبقات الأمم (ص ٩٨ ـ ٩٩).

بيد أن تعلقه بالهندسة وولعه بمسائلها قد أثّرا في شعره وأدبه حتى ظهر ذلك في مثل قوله:

قـــد بينـت فيــه الطبيعـــة أنهــا بدقيــق أعمــال المهنـدس ماهــره
عنيــت بمبسمــــه فخططــت فوقـــه بالمسـك خطاً من محيـط الدائـره[139]

وإذا تطرقنا إلى مملكة سرقسطة ودورها في نهضة علوم الرياضيات والفلك وقفنا على ما يثير إعجابنا، فإن ملوك هذه المملكة كانوا أنفسهم علماء بارزين في الـرياضيات والفلك، فالمقتـدر كان عالما كبيراً في الرياضيات والفلك والفلسفة وصنف فيها بعض الكتب[140].

وكان ابنه المؤتمن أبرع منه في الرياضيات، وفيها صنف كتابيه الاستكمال والمناظر،[141] وقد سبقت الإشارة إلى الحديث عنهما في الفصل الثاني من القسم الأول عند الحديث عن تعدد المراكز الحضارية.

ومنها نبغ العلامة عبدالله بن أحمد السرقسطي (ت ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م) وكان عالما متمكنا في الرياضيات والفلك، واتخذ له مجلسا علميا لذلك، وكان مشهودا له بالتفوق في الهندسة[142].

وكان وزير بني هود بسرقسطة أبوالفضل حسداي بن يوسف بارعا في علوم كثيرة ومنها الرياضيات والفلك، وقد امتدحه صاعد وأثنى عليه وكانت بينهما صداقة وصحبة[143].

ومن مملكـة سرقسطة ظهـر العـلامـة عمـرو بن عبـدالرحمن الكرماني (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، وكـانـت له معرفة واسعة في الرياضيات، وذكره صاعد فقال: (أخبرني تلميذه الحسين بن أحمد بن الحسين بن حي المهندس المنجم أنه ما لقي أحدا يجاريه في علم الهندسة ولا يشق غباره في فك

---

(١٣٩) المقري : النفح، ج ٣ (ص ٣٧٦).
(١٤٠) انظر المقري : النفح، ج ٣ (ص ١٩٣)، محمد عنان: دول الطوائف (ص ٢٨٣).
(١٤١) المقري : نفس المصدر، ج ١ (ص ٤٤١)، آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٥٤)، عمر كحالة: العلوم البحتة (ص ٤٨).
(١٤٢) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٧).
(١٤٣) طبقات الأمم (ص ١١٧ - ١١٨).

غامضها وتبيين مشكلها واستيفاء أجزائها)[١٤٤].

وقد سبقت الإشارة في ميدان الطب إلى أن الكرماني قد ارتحل إلى المشرق وقصد حران من بلاد الجزيرة حيث لقي عددا من العلماء في الرياضيات والطب وعنهم أخذ علمه في الهندسة والطب ثم عاد إلى الأندلس وينسب إليه أنه أول من أدخل رسائل إخوان الصفا إليها.

وقد عاب عليه ابن أبي أصيبعة عدم معرفته بالتنجيم والفلسفة[١٤٥] والحق أن التنجيم الذي عيب بعدم معرفته علم أقرب ما يكون إلى الشعوذة والدجل والطلاسم، فهو ليس بذاك العلم المفيد القائم على أسس وقواعد من الحقائق العلمية كالفلك مثلا، بل هو علم واهٍ غامض يتوصل به إلى قلوب بعض السلاطين في معرفة ما قد يعرض لهم من ظواهر الفشل والنجاح في حياتهم.

وأما علم الفلسفة فإن عدم براعته فيها لا يقلل من مكانته العلمية ولا يقدح في فضله وعلو منزلته بعد أن شهد له أحد تلاميذه بأنه ليس له نظير في الهندسة، وكفى بذلك فخرا له.

ومن مملكة بني عباد ظهر العلامة أبوالحسن علي بن سليمان الزهراوي القرطبي، وكان ماهرا في الرياضيات، وصنف كتابا في المعاملات على طريقة البرهان وسمى كتابه ذلك «الأركان»[١٤٦].

والزهراوي من تلاميذ العلامة مسلمة المجريطي، وعنه أخذ علومه في الرياضيات حتى تفوق فيها، ويذكر المراكشي الأنصاري ان كتابه «الأركان» مستعمل بين أهل عصره وأنه ذو قيمة علمية كبيرة[١٤٧].

وما من شك أن في ذلك دلالة على أهمية الكتاب وانتشاره في أوساط

---

(١٤٤) طبقات الأمم (ص ٩٤).

(١٤٥) عيون الأنباء : (ص ٤٨٤).

(١٤٦) صاعد : طبقات الامم (ص ٩٤)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، (ص ٤٨٤)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ١، (ص٢١٨).

(١٤٧) الذيل والتكملة : السفر الخامس، ق ١ (ص١١٨).

المشتغلين بعلوم الرياضيات، فإن الزهراوي عاش في القرن الخامس الهجري، والمراكشي الأنصاري في القرن السابع وجزء من الثامن الهجري (ت ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م). أي بعد أكثر من قرنين من عصر الزهراوي، ومازال كتابه متداولا بين أهل العلم ويتدارسه تلاميذه.

ومن مملكة بني عباد أيضا ظهر العالم أبومسلم عمرو بن أحمد بن خلدون الحضرمي (ت ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م)، كان من أعيان مدينة اشبيلية وذاع صيته في الفلسفة، والبراعة في الرياضيات والفلك[١٤٨].

ومن المؤسف أن المصادر والمراجع لم تمدنا بمعلومات أخرى عن أبي مسلم ابن خلدون وعن مؤلفاته. وقد وقع بعض الباحثين أمثال قدري طوقان وعبدالحليم منتصر في زلل واضح عندما أشارا إلى أن أبا مسلم ألف الكتاب الشهير «مقدمة ابن خلدون»، وفاتهما أن صاحبنا أبا مسلم بن خلدون كان من أهل القرن الرابع والخامس الهجريين، في حين أن ابن خلدون صاحب المقدمة وهو عبدالرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م). ولعل الذي أوقعهما في هذا اللبس هو توافق نسبة كلا العالمين المذكورين فظنا أن ابن خلدون الرياضي الفلكي هو ابن خلدون المؤرخ الفيلسوف صاحب المقدمة.

ومن أعلام مملكة بني عباد أبوالاصبغ عيسى بن أحمد، وكان بارعا في الحساب والهندسة وكان له مجلس علمي في قرطبة يبث فيه علومه تلك. وقد عرف إلى جانب ذلك بعلمه في الفلك[١٤٩].

ومن قرطبة برز العلامة مختار بن عبدالرحمن بن شهر الرعيني (ت ٤٣٥هـ/ ١٠٤٣م)، واشتهر بتفوقه في الهندسة والفلك إلى جانب تضلعه من علوم الدين والأدب والتاريخ، وكان قد تولى قضاء المرية في دولة زهير العامري. ثم انتقل إلى قرطبة وتولى بها القضاء وظل على هذا الوضع

---

(١٤٨) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٥)، ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٤٨٥)، المراكشي: الذيل والتكملة، السفر الخامس، ق ٢، (ص ٤٣٩)، المقري: النفح، ج ٣ (ص ٣٧٦).
(١٤٩) صاعد : طبقات الأمم (ص ٩٥ ـ ٩٦).

حتى وفاته[١٥٠].

ومن مملكة المرية ظهر العلامة الحسن بن عبدالرحمن المعروف بابن الجلاب، أحد البارعين في الرياضيات والفلك والمشار إليهم بالبنان، وقد استوطن المرية عاصمة المعتصم بن صمادح[١٥١].

ومن مملكة دانية ظهر العلامة أميه بن عبدالعزيز المذكور في الطب وكان له مشاركة جيدة في الرياضيات والفلك (وكان واحدا في العلم الرياضي، متقنا لعلم الموسيقى وعمله)[١٥٢].

وقد أطنب كثير من المؤرخين في وصفه بالعلم الواسع والتفنن في علوم مختلفة كالطب والرياضيات والفلك والموسيقى والتاريخ والأدب[١٥٣].

ومن كتبه في الرياضيات والفلك كتاب في الهندسة، ورسالة في العمل بالاسطرلاب[١٥٤].

ويشير حاجي خليفة إلى أن له كتابا اسمه الوجيز في الهندسة، وأنه ألفه للملك الأفضل، فعرضه على منجمه، فقال هذا كتاب لا ينتفع به المبتدي ويستغني عنه المنتهي[١٥٥].

ومن أعلام مملكة دانية ابن الصفار أحمد بن عبدالله، وقد سبقت الإشارة إليه ضمن من أخرجته الفتنة عن قرطبة، وكان من بينهم ابن الصفار الذي قصد دانية فأكرمه حاكمها مجاهد العامري وأعلى مكانته.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنه كان لابن حزم الفقيه الظاهري المشهور معرفة بالرياضيات، فهو يقول متأثرا بالفيثاغوريين (إن الواحد ليس عددا لأن العدد هو ما وُجِدَ عددٌ آخر مساوٍ له، وليس للواحد عدد يساويه لأنك اذا قسمته لم يكن واحدا (أي لم يبق وحدة) بل هو كسير (جزء من

---

(١٥٠) صاعد : نفس المصدر (ص ٩٦).
(١٥١) صاعد : المصدر السابق (ص ٩٨).
(١٥٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء (ص ٥٠١).
(١٥٣) انظر ابن أبي أصيبعة : نفس المصدر والصفحة. القفطي: أخبار العلماء (ص ٥٧ - ٥٨)، الكتبي: عيون التواريخ، ج ١٢ (ص ٤٥٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج ١ (ص ٥٦٥)، المقري: النفح، ج ٢، (ص ١٠٥ - ١٠٦).
(١٥٤) ابن أبي أصيبعة : المصدر السابق (ص ٥١٥).
(١٥٥) كشف الظنون، ج ٢ (ص ٢٠٠٤).

وحدة)[١٥٦].

وينهج ابن حزم نهج الفيثاغوريين أتباع فيثاغورس الرياضي اليوناني (ت ٣٠٥ ق. م) فيقول في الهندسة (الخط هو متناهي كل سطح وانقطاعه. . . ومنتهى كل جانب من جوانبه (جوانب السطح) خط ونهايته (نهاية الخط) هي النقطة ولا يقع على النقطة عدد ولا مساحة ولا ذرع لأنها ليست شيئا أصلا، وإنما هي (أي اللفظ نقطة) اسم عبر به عن الانقطاع والتناهي وعدم تمادي الجرم فقط، فالخط المذكور له أيضا مساحة وهي مذروعة (مقيسة) معدودة[١٥٧].

وما من شك أن ابن حزم كانت له آراء صائبة في الرياضيات، وهذا عائد إلى اطلاعه الواسع وثقافته الشاملة ليس على ألوان الفكر الإسلامي فقط، وإنما على ما كتبه علماء الأمم الأخرى كاليونان وغيرهم. ولم تكن اهتمامات ابن حزم قاصرة على الرياضيات بل نجد له معرفة بالفلك، وعلاقة القمر بالمد والجزر وتأثير الشمس في عكس الحرارة وتصعيد الرطوبات (التبخر)[١٥٨].

ويشير عمر فروخ إلى أن ابن حزم عرف من حقائق علم الفلك اختلاف سرعة الكواكب في دورانها، فهو يقول: إن زحل يدور مرة واحدة في كل ثلاثين سنة، ويقصد حول الأرض والصحيح اليوم أن زحل يدور حول الشمس مرة كل تسع وعشرين سنة[١٥٩].

وكان ابن حزم يظن أن الشهب نار تتكوكب، «تصبح كواكب» وأنها تشتعل ثم تنطفئ، فهل أدرك ابن حزم أن النجوم تتلاشى إذا توقف صدور النور منها، وأن هذا النور (الطاقة الحرارية) يعود بعد ذلك فيكون نجما جديدا. وجدير بالذكر أن علم الفلك الحديث يقول أن المادة تتحول طاقة (أي قوة من الإشعاع والحرارة) وأن الطاقة تعود فتصبح مادة (أي نجوما

---

(١٥٦) عمر فروخ : ابن حزم الكبير (ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤) (نقلا عن التقريب لحد المنطق ص ٥٢).
(١٥٧) عمر فروخ : نفس المرجع والصفحات (نقلا عن التقريب لحد المنطق ص ٤٧).
(١٥٨) ابن حزم : الفصل، ج ٥ (ص ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨).
(١٥٩) ابن حزم الكبير (ص ٢٠٨).

جديدة[١٦٠].

وبناءً عليه فإن ابن حزم قد احتفظ لنا بعدد لا بأس به من أفكاره حول الرياضيات والفلك، وما من شك أنه قد حالفه الصواب في الكثير منها، وهو أمر يدلنا بلا ريب على عظم شخصيته العلمية واطلاعه الواسع على ضروب المعرفة المختلفة ليس في ميدان الدين فقط، بل في المعرفة عامة، فلم يكن نبوغه مقتصرا على ذلك فسوف نراه ايضا يدلي بآرائه في مجال العلوم الطبيعية كالفيزياء.

وأخيرا فقد حاول الباحث أن يرسم صورة واضحة لما كانت عليه حال الدراسات الرياضية والفلكية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف الذي تميز بظهور عدد من العلماء البارعين أمثال العلامة ابن الزرقالة الذي عده البعض أعلم العرب بالفلك. كما أننا نلاحظ بعد هذا الاستعراض مدى ما أسهمت به مملكتا طليطلة وسرقسطة من جهد عظيم في ازدهار تلك العلوم والرقي بها، فقد حفلت المملكتان بأشهر علماء الرياضيات والفلك، وكان لهما القدح المعلى في ذلك، وما من شك أن هذا عائد إلى ما اتصف به عاهلا المملكتين وهما المقتدر بن هود، والمأمون بن ذي النون من شغف بدراسة تلك العلوم، فغدا بلاطهما وبلاط خلفائهما منتدى لمشاهير الرياضيين والفلكيين. ولا يعني هذا أن الممالك الأخرى قد بخلت بإخراج العلماء في هذه الميادين بل أسهمت في ذلك، كما يتضح لنا من خلال هذا العرض لعلماء الرياضيات والفلك اللذين نبغوا في هذه الممالك.

---

(١٦٠) عمر فروخ : ابن حزم الكبير (ص٢٠٨).

العلوم التجريبية

جدير بنا أن نشير قبل الخوض في الحديث عن هذه العلوم أن نتاج الفكر الأندلسي قد حلّ به الكثير من ضروب النكبات والإبادة المقصودة مما جعل الصورة العلمية غير واضحة تماما لمن يريد دراسة الجوانب العلمية من الحضارة الإسلامية في الأندلس وبخاصة ما يتصل منها بالعلوم التطبيقية مثل الكيمياء والفيزياء والميكانيكا أو ما يطلق عليه علم الحيل وقد بلغ فيها المشارقة درجة رفيعة. ومن المحتمل أن الأندلسيين لم يشذوا عن المشارقة في ذلك المجال غير أن ما أشرنا إليه من ضياع كتبهم وإبادة تراثهم الفكري لم يمكن الباحثين من رسم صورة جلية عن نشاطهم في هذه الميادين العلمية، ورغم هذا فسنسعى جاهدين لتلمس ما من شأنه أن يعين على كشف شيء من الحقيقة عن حال هذه العلوم في الأندلس في عصر ملوك الطوائف.

الكيميـــاء

أشار بعض العلماء إلى أنّ هذه التسمية مشتقة من كمى يكمي إذا ستر وأخفى ويقال: كمى الشهادة يكميها إذا كتمها، والمشتغلون بهذا العلم يسمونه الحكمة، والبعض يسميه الصنعة[161]. وكان كثير منهم يتستر ويخفي كثيراً من أسرارها ونتائجها.

وهناك من قال: إنها مشتقة من كلمتي Kmt Chem وتعني التربة السوداء لدى قدماء المصريين باعتبار أن الكيمياء فن مصري[162].

ومن حق المسلمين أن ينسبوا هذا العلم بقواعده الصحيحة السليمة إليهم، وكان المسلمون عبر اتصالهم بالأمم والشعوب الأخرى كاليونان والسريان والهنود والمصريين واطلاعهم على نتاج علومهم ونشاطهم من خلال ترجمتها قد أصبحوا الورثة الحقيقيين لتراث الإنسانية. وكان المدرسة

---

(١٦١) الخوارزمي: مفاتيح العلوم (ص ١٩٣).

(١٦٢) وانظر آراء أخرى في سبب هذه التسمية. حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٢٣٩)، وانظر تعريف ابن خلدون المقدمة (ص ٥٠٤). والتهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ج ١، (ص ٦٢).

الاسكندرية أثرها الكبير في نقل هذا العلم إلى المسلمين، فقد ضمت هذه المدرسة الكثير من الدراسات الكيماوية ونبغ فيها عدد من أعلام الكيمياء قبل الإسلام(١٦٣).

ولكن المسلمين لم يقفوا موقف الناقل فقط بل أضافوا المزيد من ابتكاراتهم وصححوا كثيراً من أخطاء من سبقهم في هذا العلم، فهم الذين اخترعوا ماء الفضة (حامض النتريك) وزيت الزاج (حامض الكبريتيك)، وماء الذهب (حامض النيتروهيدروكلوريك)(١٦٤).

ويبلغ من إسهام المسلمين في تطور هذا العلم وما أضافوا إليه من اكتشافات واختراعات غزيرة أن اعتبر الغربيون هذا العلم علما عربيا(١٦٥).

ولم يكن الأندلسيون محجوبين عن هذا النشاط العلمي، فقد أسهموا بقدر جيد في تقدم هذا العلم. وكان أول من طرقه منهم العلامة عباس بن فرناس الذي برع في علوم مختلفة من بينها الكيمياء، وتمكن من اختراع طريقة علمية لصنع الزجاج (البلّوري) من الرمال والحجارة، وكان لجهوده في ذلك أثر كبير في تطور صناعة الزجاج، وكان لانهماكه في دراساته وتجاربه العلمية وابتداعه كثيرا من الابتكارات العلمية التي لم يتسع لها أفق التفكير آنذاك كان له أثر في تألب بعض الفقهاء ضده فاتهموه بالزندقة، ولكنه نجا من تآمرهم عليه(١٦٦).

ويبدو لنا أن الكيمياء لقيت ما لقيته بعض العلوم القديمة من اضطهاد وتنكيل لأتباعها، وهذا ما يفسر لنا تعمد هؤلاء التستر والغموض على أعمالهم وممارستهم لتجاربهم. وبناءً على ذلك فإن من الأسباب التي أضفت الغموض على تاريخ الكيمياء وسير أصحابها وأعمالهم هو تكتمهم الشديد كمنهج

---

(١٦٣) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٧٤)، من أعلام هذه المدرسة بولس، ديموقرطيس، وزوسيموس، وأبولونيوس. وانظر أيضا حكمت نجيب: المرجع السابق (ص ٢٤١).
(١٦٤) محمد عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين (ص ١٥٩).
(١٦٥) قدري طوقان : العلوم عند العرب (ص ٣٠)، حكمت نجيب: مرجع سابق (ص ٢٤٢)، علي الدفاع: الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي (ص ٣٤).
(١٦٦) محمد عنان : تراجم إسلامية (ص ٢٦٧ - ٢٦٩).
Jan Read: The Moors in Spain and Portugal, P.66.

سلكوه في سبيل صيانة معارفهم عن المتطفلين والعمل على إخفاء ما يصلون إليه من نتائج علمية كوسيلة آمنة لهم من عيون العامة والفقهاء الذين ازدروهم ووصموهم بالزندقة والإلحاد. كما أنه من المحتمل أن يكونوا بمنهجهم ذلك يستهدفون العلو بمكانتهم العلمية والحفاظ على أسرار صناعتهم التي تكبدوا المشقة والنصب في سبيل معرفتها، فلا تصل إلى من لا يستحق معرفتها ولم يبذل في نيلها كبير عناء. فمسلمة المجريطي يقول: (إن الكلام في ذلك تبيين وكشف لأسرار(١٦٧) هذه الصناعة فكان الذي يأخذ بأدنى كتاب من كتبهم فيقرؤه فيجد العلم واضحا بينا فلا يكون لذلك فضل لعالم على جاهل(١٦٨) فقطعوا القول صيانة فهم وصيانة عن العامة)(١٦٩).

ولهذا وصف ابن خلدون كلام الكيميائيين بانه ألغاز يستحيل فهمها على من لم يدرس الكيمياء دراسة جادة ويتمرس بمصطلحات أولئك العلماء. كما أشار إلى أن الكيمياء من جنس آثار النفوس الروحانية وتأثيرها في عالم الطبيعة إمّا عن طريق الكرامة إذا كان القائم بها صالحا، أو عن طريق السحر إن كان القائم بها شريرا.

والحق أن علم الكيمياء لا يتعلق بشيء مما أورده ابن خلدون، ولعله كان تحت تأثير ما علق بالكيمياء في بعض جوانبها من دعاوى الشعوذة والدجل وخرافة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة. فعلم الكيمياء حقيقة علم له قواعد وقوانين علمية مقننة وتقوم على معرفة خواص السوائل وتحليلها وتأثير بعضها في بعض بالمزج والفصل بين عناصرالمعادن وما يصاحب ذلك من تبخير وتقطير وتبلور وتصعيد، وهي أمور تجري على الملاحظة بالتجربة العلمية والمشاهدة بعيدا عن الصورة القديمة أو المزيفة التي خلعها بعض الأدعياء على هذا العلم، وما وسموه به من صور بعيدة عن العلم والمعرفة الصحيحة.

---

(١٦٧) في الأصل وكشف الأسرار. والصحيح ماورد في المتن لملاءمته لسياق المعنى.
(١٦٨) في الأصل فضل العالم على جاهل. والصحيح ما ورد في المتن لملاءمته لسياق المعنى.
(١٦٩) رتبة الحكيم. مخطوط، ورقة ١٢ أ.

وفي عصر الخلافة ظهر العلامة محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت ٣٦١هـ/ ٩٧١م) وقد نسب إليه ممارسة هذا العلم، ووصف بأنه (يعمل بالأدهان ويتصرف في ضروب من الأعمال اللطيفة).

ومن المؤسف أنه لم تصلنا معلومات مفصلة عما كان يجريه الخشني من التجارب العلمية على الرغم من أن تلك الإشارة تفيد أنه كان لديه مختبر أو ما يشبهه، ولكن ابن الفرضي الذي أورد الخبر لم يكن ليهتم بهذا الجانب من المعرفة خصوصا وهو العالم المحدث الفقيه الذي حرص على أن يشتمل كتابه على تراجم أهل الفقه والحديث وعلوم اللغة أما ماعداها فلم يعرها اهتمامه وعنايته.

وفي عصر الخلافة ظهر العلامة الكبير مسلمة بن أحمد المجريطي، وكان بجهوده العلمية وما ظهر على يديه من علماء يمثل مدرسة علمية بارزة في الرياضيات والفلك والكيمياء(١٧٠)، فمن تلاميذه ابن السمح وصديقه أبو بكر بن بشرون. وابن السمح المذكور (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م)، قد سبقت الإشارة إلى ترجمته كأحد علماء الرياضيات والفلك، ولكن يبدو أنه كانت له مساهمة في دراسة الكيمياء وهو من العلماء المخضرمين الذين عاصروا فترتي الخلافة والطوائف. أما ابن بشرون فهو من تلاميذ المجريطي، لكن المصادر لم تمدنا باسمه كاملا عدا مقدمة ابن خلدون، وبما أنه من تلاميذ مسلمة بن أحمد المجريطي فمن الطبيعي أن يلحق بعصر الطوائف. وقد أمدنا ابن خلدون برسالة علمية لابن بشرون بعث بها لابن السمح، وفي هذه الرسالة يلمس الدارس ما كان يسير عليه علماء الكيمياء آنذاك من نهج علمي متميز يصطبغ بألوان من الرمز والتلميح وعدم التوضيح، فلا يكاد القارئ لكتاباتهم أن يقف على شيء مفهوم، ورغم ذلك ففي تلك الرسالة ما يدل على معارفهم الكيماوية واطلاعهم على كثير من قواعد وقوانين هذا العلم. يقول ابن بشرون في مقطع من رسالته (هذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الأولون

(١٧٠) ابن خلدون : المقدمة، (ص ٥٠٥) عمر كحالة، العلوم البحتة، (ص ٢٦٠)، وانظر بالتفصيل رسالتنا للدرجة الماجستير: الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، (ص ٤١٠) وما بعدها.

واقتص جميعها أهل الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الأحجار والجواهر وطباع البقاع والأماكن فمنعنا اشتهارها من ذكرها، ولكن أبين لك من هذه الصنعة ما يحتاج إليه فتبدأ بمعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولاً ثلاث خصال أولها هل تكون. والثانية من أي تكون. والثالثة من أي كيف تكون، فاذا عرف هذه الثلاثة وأحكمها فقد ظفر بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم. وأما البحث عن وجودها والاستدلال عن تكونها فقد كفيناكه بما بعثنا به إليك من الإكسير[171].

ويمضي ابن بشرون في تفصيل الكلام عن الكيمياء، ويتطرق إلى الأحجار وينصح بأن يعرف الكيميائي أوفق الأحجار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر من الحل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب[172].

وما من شك أن في ذلك دلالة على مدى ما أحرزه ابن بشرون من علم واسع في حقل التجارب الكيماوية، وانه لم يكن ليذكر مثل تلك العمليات والتجارب الكيماوية إلاّ بعد أن تمرس بالتجربة العلمية والمعاينة والمشاهدة، وهو بهذا قد أثبت أهمية أن يكون العالم مجربا وأن يعتمد على المنهج التجريبي للوصول إلى الاحكام والنتائج العلمية المصيبة.

ويتحدث ابن بشرون في جانب آخر عن عملية عرض المعادن وعناصرها على النار فيقول أن الأحجار أقوى وأصبر على النار من الأرواح ويضرب مثلا بأن الذهب والحديد، والنحاس أصبر على النار من الكبريت والزئبق. ويفصل كيفية ذلك بأن الأجساد قد كانت أرواحاً في بدنها فلما أصابتها الحرارة حولتها أجسادا لزجة غليظة فلم تستطع النار أكلها لذلك، فإذا أوقدت النار تحتها أكثر حولتها أرواحا كما كانت أول خلقها[173].

وابن بشرون هنا ربما يقصد بالأرواح هنا الغازات التي تتولد عند عمليات

---

(١٧١) مقدمة ابن خلدون (ص ٥٠٥).
(١٧٢) المقدمة (ص ٥٠٥ ـ ٥٠٦).
(١٧٣) المقدمة (ص ٥٠٧).

التذويب والحل لكثير من المعادن، وأما الأجساد فهي المواد الصلبة الجامدة.

وابن بشرون في بعض جوانب هذه الرسالة العلمية تطرق إلى حقيقة علمية هامة وهي قوله (والحر هو علة الحركة، ومتى ضعفت علة الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا)[١٧٤].

وهذه الحقيقة العلمية الهامة قال بها علماء هذا العصر وأشاروا إلى أن هذا الكون موجود منذ آلاف الملايين من السنين ولكنه لن يكون موجودا بعد ما يماثل ما مضى أو نصف ما مضى من عمره، واستدلوا على ذلك بقانون «الطاقة المتاحة» والذي يقول أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حراري إلى وجود حراري أقل أو عدم حراري، والعكس ليس صحيحا، فالكون وجد نتيجة انفجار حراري فوق العادة وهو يفقد قوته بالتدريج. وسيأتي وقت تتساوى فيه حرارة جميع الكائنات وسيترتب على ذلك أن تنتهي العمليات الكيماوية والطبيعية وبذلك تتوقف الحياة[١٧٥].

وهكذا نلمس أن بين إنتاج أولئك العلماء كثيراً من النظريات الفذة وألوانا من الإبداع والاكتشاف العلمي الذي سبقوا به عصرهم وما توصل إليه علماء هذا العصر الحديث في بعض النظريات المتعلقة بهذا العلم.

وابن بشرون يصف لنا تجربة علمية كيماوية ولكنه يُسمي عناصر المادة المطلوب إجراء التجربة عليها «بالحجر الكريم» الذي اختلف فيه الحكماء فمنهم من عده في الحيوان، وآخرون عدوه في النبات، وطائفة ثالثة في المعادن وطائفة أخيرة قالت إنه في الجمع، ويخلص ابن بشرون إلى رأي خاص وهو أن العمل يكون في كل شيء بالقوة والفعل[١٧٦].

ويلاحظ في التجربة العلمية التي وصفها ابن بشرون قدر من النظرات والإشارات العلمية الصائبة رغم غموض بعض الألفاظ وغرابة البعض الآخر من المصطلحات التي يذكرها في التجربة المذكورة. ومهما يكن فإن في تلك

---

(١٧٤) المقدمة (ص ٥٠٨).
(١٧٥) انظر أحمد زين. إلى التي سألت أين الله. ص ٧٥ - ٧٦.
(١٧٦) المقدمة (ص ٥٠٩)

التجربة ما ينم عن معرفة عميقة بعناصر الأشياء وخواصها وأثر النار في تحويل المعادن ومزج أو فصل عناصرها وما يتصل بذلك من نتائج علمية[١٧٧].

ويستشف الدارس لرسالة ابن بشرون أنه كان يملك معملا أو مختبرا كيماويا يمارس فيه تجاربه العلمية وأبحاثه في هذا العلم. وكان ابن بشرون شديد الحرص على ملازمة أستاذه مسلمة المجريطي وكثيراً ما كان يلجأ إليه في توضيح بعض المسائل الكيماوية ومنها المسألة التي أطلق عليها الكيميائيون مصطلحهم الغامض (مركب الحيوان) وسمته بيضة[١٧٨].

ولأبي بكر بن بشرون كتاب في الكيمياء اسمه (سر الكيمياء)[١٧٩]. ومن المؤسف أنه لم يصلنا، ولو عثر عليه وسمحت الظروف بالكشف عنه فإنه سيضيء الكثير من الزوايا المظلمة التي تلف تاريخ الكيمياء وحالها في الأندلس.

وهناك علماء آخرون نسب اليهم الاشتغال بالكيمياء، منهم العلامة أبومحمد عبدالله بن محمد المعروف بابن الذهبي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م). وكان بارعا في علوم مختلفة ولكن شهرته تعود إلى مهارته في الكيمياء، فقد كان شديد العناية بها حتى قال عنه صاعد (كان كلفا بصناعة الكيمياء مجتهداً في طلبها)[١٨٠].

والوصف الذي قاله صاعد يحمل معانيَ كثيرة، فإن كلف ابن الذهبي بالكيمياء يدل على شدة ارتباطه بهذا العلم وعكوفه على دراسة وممارسة التجارب الكيماوية بشغف، وهذا لا يتم له إلا بتوفر معمل يجري فيه دراساته واختباراته عمليا وعن طريق التجربة.

ولابن الذهبي من الدراسات مقالة في أن الماء لا يغذو[١٨١].

---

(١٧٧) انظر تلك التجربة الكيماوية في المقدمة (ص ٥٠٩ ـ ٥١٠ ـ ٥١١)
(١٧٨) ابن خلدون : المقدمة (ص ٥١١).
(١٧٩) حاجي خليفة : كشف الظنون، ج ٢ (ص ٩٨٥).
(١٨٠) طبقات الأمم : (ص ١١١).
(١٨١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء (ص ٤٩٧).

ولم يكن ابن الذهبي بأول من أسرته الكيمياء، فقد كان العلامة عبدالرحيم بن عبدالرازق عظيم الاهتمام بدراسة علوم الأوائل وخاصة الكيمياء حتى وصف بـ (اشتعاله بحبها اشتعال النار في الحلفاء)[182]. ويبدو أنه كان مولعا بإجراء التجارب الكيماوية ورصده لنتائجها، ولم يكن ملولا وبالذي يضمحل أمله في الوصول إلى مزيد من النتائج والمعارف في هذا العلم، فتعرض خلال حياته العلمية لكثير من الأبخرة والغازات التي أصابته في أعز ما يملكه وهما عيناه فأضعفت بصره، ويبدو أنه كان يستهدف من وراء اشتغاله بالكيمياء وإصراره على تجاربه الوصول إلى ما كان يزعمه عدد من الكيميائيين من تحويل المعادن الرخيصة إلى معادن نفيسة، لكن رغم جهده العلمي المتواصل لم يحظ بهذه النتيجة التي سعى إليها الكثير من علماء الكيمياء على مر العصور[183].

ومن مملكة طليطلة نقف عند العلامة غانم بن الاسقطير الطلمنكي الذي وصف بأن له تجارب ودراسات في الكيمياء، وكان يمارس عمله في هذا الحقل العلمي في سبيل تحقيق غاياته وما كان ينشد من عز وثراء. ويبدو أنه فتن كثيرا من الناس بأساليبه وطرقه الكيماوية. ومن المؤسف أن براعته في الكيمياء لم تصنه عن الوقوع في الغدر والمكر والاحتيال على المأمون ملك طليطلة الذي أكرمه ورفع مكانته بين علماء بلاطه. فقد كان ابن الاسقطير يطمع في جاه أكبر مما هو فيه، ويتطلع إلى ثراء أوسع فهرب من طليطلة وكتب أبياتا على حائط منزله منها قوله:

نعـــم إنـــي بالكيميـــاء لعالـــم ....
وأخلـــي امـــوالا وأضحـــك خاليـــا على ملـك لم ينتفـع بالتجـــارب[184]

وعجز البيت الأخير يدل على أنه كان يجري عددا من التجارب الكيماوية

---

(١٨٢) الأصفهاني: خريدة القصر، قسم شعراء المغرب، ج ٣ (ص ٤٢٧).
(١٨٣) الأصفهاني: المصدر السابق، قسم شعراء المغرب، ج ٣، ص ٤٢٧.
(١٨٤) ابن سعيد: المغرب، ج ٢ (ص ٤٢). (صرفنا النظر عن إيراد الشطر الثاني من البيت الأول لمساسه بالأخلاق).

ويُطلع المأمون عليها. ولكن الأخير لم يكن كما يبدو يعيرها اهتماما كبيرا، وبالتالي كانت صلاته وعطاياه لابن الاسقطير أقل ما كان يتطلع إليه مما أحنقه ودفعه إلى الهرب وكتابة شعره المذكور.

وجدير بالذكر أن من عوامل الاهتمام والعناية بالكيمياء ارتباطها الشديد بالصيدلة وتحضير الأدوية وتركيبها، وينطوي تحت ذلك من العمليات الكيماوية التقطير والتبخير والحل واستخلاص السوائل من النباتات والأعشاب والمزج بينها، ولهذا نرى الصيادلة وعلماء الأدوية على علاقة وطيدة بالكيمياء. فابن وافد الطبيب السالف الذكر لا نشك أنه كان على علم بالكيمياء وطرقها العملية، وإلا فكيف اشتهر أمره بتحضير الأدوية وتركيبها ومعرفة عناصرها وخواصها، وكذلك العلامة الطبيب الصيدلي زهر بن عبدالملك، ومثلهما أبوالصلت أمية بن عبدالعزيز، وغيرهم.

ولم يكن الأمر مقصورا على الاستعانة بالكيمياء فإن ميدان الصيدلة ولكن أيضا في صناعة العطور ودبغ الجلود وصنع الأقمشة[١٨٥].

ورغم التكتم على الاشتغال بهذا العلم فإن ذلك لم يمنع من انتشار بعض معارفه بين الناس حتى قال ابن سارة - من شعراء عصر الطوائف - في وصف النار:

لابنة الزند في الكوانين جمر	كالدراريّ في دجى الظلماء
خبروني عنها ولا تكذبوني	ألديها صناعة الكيمياء
سبكت فحمها صفائح تبر	رصعتها بالفضة البيضاء

وقال ابن حمديس:

فتاة إذا استعطفت باللين قلبها	على الصب أضحى وهو من حجر أقسى
ولا شك أن الماء رطب وكلما	سقيت حديدا منه زاد به يبسا[١٨٦]

---

(١٨٥) عمر كحالة : العلوم البحتة (ص ٢٧٥ - ٢٧٦).
(١٨٦) سعد شلبي : البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر (ص ٣٦٤).

العلـــوم الطبيعيـــة

الفيزيـــاء:

عرف ابن خلدون هذا العلم بأنه (علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة أو السكون فينظر في الأجسام السماوية والعنصرية وما يتولد عنها من حيوان وإنسان ونبات ومعدن وما يتكون في الأرض من العيون والزلازل وفي الجو من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك)[١٨٧].

من الحق أن نشير أنه كان لليونانيين وبعض الشعوب القديمة عناية بعلم الطبيعة وأنهم أسهموا في النهوض والرقي بدراساتها المختلفة. ولكن المسلمين لم يقتصروا على جانب النقل والاقتباس بل انطلقوا يدرسون ما نقلوه دراسة عميقة جادة، وأدى اجتهادهم إلى تصحيح ما وقع فيه الغير من أخطاء، وأضافوا لهذه العلوم إضافات كبيرة جدا، ويشير ويدمان إلى أن العرب قد أسدوا للعلم إنجازات وابتكارات لا تقل بحال عن ما قدمه امثال إسحق نيوتن، وفراداي، ورنتجن[١٨٨].

ولا ريب أن للأندلسيين نصيباً في هذه المشاركة العلمية الواسعة، فإن الحركة العلمية في الأندلس كانت شاملة العلوم كافة ومنها علوم الطبيعة المحصورة فيما يأتي: علوم الأرض، علوم الميثورولوجيا (الآثار العلوية)، المد والجزر، الجاذبية الأرضية، الثقل النوعي، الصوت، الضوء والبصريات المغناطيس والبوصلة علم الحركة (الديناميكا)[١٨٩].

---

(١٨٧) ابن خلدون : المقدمة (ص ٤٩٢)، وانظر ما يتضمن هذا المعنى لدى التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون، ج ١ (ص ٦٠)، علي الدفاع: الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي (ص ٤٧).

(١٨٨) محمد عفيفي : تطور الفكر العلمي عند المسلمين (ص١٢٨)، نقلا عن قدري طوقان: في كتابه العلوم عند العرب (ص ٣٥).

(١٨٩) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٩٣).

ففي الفيزياء، وخاصة ما يتعلق منها بالبصريات، كان لابن حزم آراء وأفكار جيدة، فهو حينها تحدث عن تقصير الحواس (أي خداع الحواس) وتصحيح ذلك بالعقل ذكر أن البصر يكون بالشعاع - أي بخروج نور من العينين يحيط بالجسم المبصر - وهي ملاحظة خاطئة، لكنه رغم ذلك يدلي ببعض الإيضاحات العلمية الصائبة التي تؤكد أن البصر يكون بالورود[١٩٠] - أي بانعكاس شبح عن الجسم المبصر إلى العين وهو يقول أن الاجسام إذا كانت في الظلام تعذر رؤيتها[١٩١].

ويقول ابن حزم في هذا الصدد: (نحن إنما نرى الألوان، فإذا عدم اللون لم نر شيئا كالهواء، . . . وهو غير مرئي لأنه لالون له)[١٩٢].

وفيما يتعلق بالحركة (الديناميكا) فإن الحركة لديه أنواع، منها ما هو مكاني ومنها ماهو زماني. ففي الأولى يتحدث عن حركة الأجرام السماوية وهو يشير إلى ذلك بقوله (وكذلك العين لا تستبين حركة الشمس أصلا، حتى إذا بقيت (أي استمرت الشمس في حركتها غير الملموحة بالعين) مدة لاحت للعين حركتها يقينا وذلك بأن تراها في كبد السماء بعد أن كنت قد رأيتها في أفق المشرق[١٩٣].

وأما الحركة الزمانية فمما يدل عليها ملاحظة نمو الأشياء بالتدرج نموًّا بطيئا جدا، فيذكر أن نمو الأجسام من حيوان ونبات لا يتبين نموه رغم وجوده بين أيدي الناس وأمام أعينهم، حتى إذا مضى زمن لوحظ النماء ظاهرا وعُلم نسبة زيادة النماء أكثر مما كان، فالعقل يشهد أن لكل ساعة زمنية نصيبا من نمو الأجسام كالشجر لم يتبين من قبل بالبصر[١٩٤].

وفي الصوتيات له آراء صائبة، فيذكر أن البيان - أي الفهم والإدراك، والكلام والمعرفة يكون بالإيقاع - أي اتفاق الأصوات - وبانتقاله إلى الأذن

---

(١٩٠) عمر فروخ : ابن حزم الكبير (ص ٢١٠).
(١٩١) انظر ابن حزم : الفصل، ج ٥ (ص ١٣٨ - ١٣٩).
(١٩٢) التقريب لحد المنطق. (ص ٢٦) الفصل ج ٥، ص ١٣٦.
(١٩٣) عمر فروخ : المرجع السابق (ص ٢١١) (نقلا عن ابن حزم ولم يذكر الكتاب.
(١٩٤) عمر فروخ: المرجع السابق (ص ٢١١ - ٢١٢).

عبر الهواء، ويشير إلى أن الصوت يقطع الأماكن في أزمنة مختلفة ومتفاوتة حسب البعد والقرب وقوة القرع وضعفه، ويضرب مثلا بالرعود الواقعة مع البروق، فالبرق يرى أولا حين وقوعه في الجو بلا مهلة، ثم يقيم حينا ثم يسمع الرعد[١٩٥].

ويشير عمر فروخ إلى أن ابن حزم هنا لا يذكر أن النور في حاجة إلى زمن لقطع المسافات[١٩٦].

وفي علم الحياة كانت لابن حزم آراء صائبة فهو يتكلم مثلا على التوالد من أبوين متطورين مشاهدين كالبشر والطيور، وعلى التوالد - أي الاعتقاد بأن كائنات حية توجد من غير نسل من مثلها، ويقسم الأحياء إلى ثلاثة أقسام:

(١) متوالد - بعضه من بعض - غير متولد - من تلقاء نفسه، كالبشر والوحوش والطيور.

(٢) متولّد ولا يتوالد.

(٣) متولّد أو متوالد معا.

ومثال الأخير بنات وردان فهي تتوالد وقد شوهدت تتسافد كالجعلان فإنها تتولد وشوهدت تتسافد أيضا.

وأما المتولد الذي لا يتوالد مثل الصفار - أي دود البطن - وشحمة الأرض - أي الكمأة[١٩٧].

ويشير ابن حزم إلى أن كل ذي عظم وفقرات لا يوجد إلا عن طريق التناكح، ويذكر أنه (ليست القدرة في الخلق ما خلقه الله سبحانه حيوانا ذا أربع أو ريش من بيضة أو مني بأعظم من القدرة من خلقها من تراب دون توسط بيضة ولا مني....)[١٩٨].

---

(١٩٥) ابن حزم: التقريب، ص ٥، عمر فروخ: المرجع السابق ص ٢١٢.

(١٩٦) ابن حزم: الكبير، ص ٢١٢ حاشية رقم ٣.

(١٩٧) الفصل في الملل والنحل، ج ٥ (ص ١٤٠)، وانظر فيما بعدها كثيرا من الإيضاحات والشروح والأمثلة عن هذا الجانب من علم الحياة أو الأحياء وانظر كذلك عمر فروخ: المرجع السابق (ص ٢١٢ - ٢١٣).

(١٩٨) الفصل، ج ٥ (ص ١٤٢).

وفي علم الميثورولوجيا كان لأبي عبيد البكري الجغرافي المشهور بعض النظرات الصائبة، كحديثه عن علة المد والجزر وأنها بسبب جاذبية القمر[١٩٩].

وفي علم الجيولوجيا يذكر حكمت نجيب أن ممن بحث فيه طائفة بارزة من علماء الإسلام، وذكر من بينهم ثلاثة من الأندلس: أباعبيد البكري (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، أبوحامد الغرناطي (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م)، الشريف الإدريسي (٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)[٢٠٠].

---

(١٩٩) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ج ٧ - ٨ ص ٣٣٠).

(٢٠٠) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٣٠٢).

علم الحيل (الميكانيكا)

أطلق العرب لفظ علم الحيل على الآلات المستخدمة في تيسير أعمال الإنسان المتعلقة بشؤون حياته كرفع الأثقال وجلب المياه من الآبار ومعرفة الأوقات وغير ذلك، وأطلق التهانوي على هذا العلم لفظ (علم الآلات الروحانية)[٢٠١].

وأفاد العرب من تجارب السابقين في هذا العلم، ولكنهم أحرزوا من النتائج والإنجازات العظيمة فيه ما أثار دهشة الغرب ودفع الكثير من علمائه الى الاعتراف بفضل العرب على هذا العلم.

ومن الكتب التي درسها العرب لمن سبقهم ما نسب إلى ارشميدس ككتاب ساعات الماء التي ترمي بالبنادق، وكذلك مصنف ايرن في حمل الأثقال، وبحث مورطس حول الدواليب وغيرها[٢٠٢].

ومن أوائل علماء المسلمين في هذا العلم ثابت بن قرة (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) الذي صنف كتاب «القرسطون» وتبعه أبناء موسى بن شاكر، ومنذ تلك الفترة والاشتغال بهذا العلم يزداد شيئا فشيئا حتى كلل هذه الجهود ابن الرزاز الجزري (ت ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م) بمعارفه القيّمة التي ضمنها كتابه المسمى «كتاب في معرفة الحيل الهندسية»[٢٠٣].

وفي الأندلس لم يقف العلماء موقف المقتبس فقط بل ظهر بينهم من وصف بالمهارة والتفوق في علم الحيل؛ فقد أسهم الاندلسيون في تقدم الهيدروليك، وكان لهم فضل الأستاذ المعلم لأوربا التي أفادت من علومهم ومعارفهم في رسم الخطوط الأساسية لعلم الهيدروليك وميكانيك الموائع إبان النهضة

(٢٠١) كشاف اصطلاحات الفنون، ج ١ (ص ٦٦).

(٢٠٢) النديم : الفهرست (ص ٣٧٢ - ٣٧٦ - ٣٧٧) سيد حسين: العلوم في الإسلام (ص ١٢٨)، حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٢٨٣).

(٢٠٣) سيد حسين : المرجع السابق (ص ١٢٨)، وانظر محمد عفيفي: تطور الفكر العلمي (ص ١٣٥) وما بعدها، حكمت نجيب: المرجع السابق (ص ٢٨٤).

العلمية الحديثة(٢٠٤).

ونحن حينما نتحدث عن جهود علماء الاندلس في ازدهار علم الحيل (الميكانيكا) لانملك، وللأسف، مصنفات علمية خاصة بهم حول هذا العلم، إنما نستند في تبيين ملامح النشاط العلمي في هذا الميدان إلى ما حفظته كتب التاريخ والتراجم من إشارات ولمحات علمية حول ذلك.

ويعتبر العلامة عباس بن فرناس أول من طرق هذا الميدان في الأندلس، فقد كان موصوفا بتمكنه في الرياضيات والفلك والكيمياء والميكانيك، وفي هذا العلم الأخير استطاع أن يصنع آلة لمعرفة الوقت أسماها المنقانة فأحكم صنعها ونقش عليها أبياتا شعرية منها:

ألا إنني للدين خير أداة   إذا غاب عنكم وقت كل صلاة(٢٠٥)

وفي عصر ملوك الطوائف ومن مملكة طليطلة ظهر العلامة الكبير ابن الزرقالة وهو المتقدم الذكر في الفلك والرياضيات، وكان له مساهمة واضحة في ازدهار علم الحيل، وقد أثار إعجاب أهل عصره ومن بعده بما كان يخترعه من آلات وأجهزة فلكية، ولم تكن معارفه الميكانيكية وقفا على ميدان الفلك بل امتدت إلى صناعة ساعات دقاقة أعجب بها الناس في مدينة طليطلة أيما إعجاب(٢٠٦).

ويذكر سكوت Scott أن الأندلسيين وفي مقدمتهم ابن الزرقالة صنعوا ساعات تتحرك بواسطة الماء والرمل والكرات الحديدية(٢٠٧).

ويتضح لنا بهذا أن الأندلسيين عرفوا صناعة الساعات الزمنية بدءا من جهود عباس بن فرناس السالف الذكر ومرورا بالعلامة ابن الزرقالة الذي تفنن في هذا الميدان حتى أثار نبوغه وعبقريته العلمية دهشة الناس وأجبر

---

(٢٠٤) جميل الملائكة : عناية العرب بالهيدروليك في العصور الإسلامية (مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الحادي والثلاثون صفر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

(٢٠٥) ابن حيان : المقتبس، تحقيق محمود مكي (ص ٢٨٢ - ٢٨٣)، وانظر بول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية (١٤٢).

(٢٠٦) غوستاف لوبون : حضارة العرب (ص ٤٦٢).

(٢٠٧) History of the Moorish Empire in Europe, Vol. III, P.- 35.

علماء الغرب على الاعتراف بفضله في هذا العلم.

ومما توصل إليه ابن الزرقالة من روائع الإبداع الهندسي والميكانيكي صناعته لحوضي نافورتين في بيت بجوف داخل نهر طليطلة، وكان الحوضان يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول اهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال فيكون فيهما نصفهما، ولاتزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع حتى يتم القمر واحدا وعشرين يوما فينقص منهما نصفهما ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء(٢٠٨).

واستمر أداء الحوضين على هذا الوضع العجيب حتى سقطت طليطلة في أيدي النصارى، فأراد ألفونسو السابع ان يطلع على سر حركتهما، فأمر أن يقلع أحد الحوضين لينظر كيف يدخلهما الماء وينصرف فقلعه فتعطلت حركتهما وذلك (سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م)، وقيل إن سبب تعطلهما هو ادعاء المنجم اليهودي حنين بن ربوة الذي كان بصحبة ألفونسو العمل على ابتكار ما هو أحسن من ذلك بان يمتلىء الحوضان بالنهار ويحسران الماء في الليل فطلب من الملك إزالتهما عن موضعيهما فلما قلعا لم يتمكن من الوفاء بما وعد بل إنه لم يستطع إعادتهما إلى حالتهما الأولى، كما نسب إلى هذا اليهودي في رواية أخرى إنه سرق أحد الحوضين ليقف على سر الصنعة فبطل عمله واستمر الآخر على حاله(٢٠٩).

ويعلق الطاهر أحمد على هذا الخبر بأنه وبالرغم من أن بعض التفاصيل

---

(٢٠٨) المقري : نفح الطيب، ج ١ (ص ٢٠٦ - ٢٠٧)، وانظر هذا النص لدى مؤلف مجهول: كتاب في ذكر بلاد الأندلس وصفاتها وأصقاعها ومن وليها من الأمراء والحكام من الأمويين إلى بني اشقيلوله (مخطوط) (ص ٣٨ - ٣٩) المخطوط مرقم.

(٢٠٩) النفح، ج ١ (ص ٢٠٧)، فون شاك: الفن العربي في اسبانيا وصقلية (ص ٨٣ - ٨٤).

تفوح منها رائحة الأسطورة، ولكن هذه القضية في غاية الأهمية لدارسي علوم الهندسة والرياضيات عند المسلمين الأوائل بعامة والأندلسيين بخاصة(٢١٠).

وللأندلسيين تجارب وأعمال مختلفة في ميدان علم الحيل، ومنها ما يتعلق باستخراج مياه الآبار بآلات ميكانيكية، فممن نسب إليه عمل ذلك عالم يدعى ابن مدرك، ويبدو أن الآلة التي صنعها لاستخراج ماء البئر قد أدهشت بعض أدباء عصره، بل إن أحدهم كذّب ما سمعه عن تلك الآلة فقال بيتين من الشعر عبّر فيهما عن شكه وموقفه من ذلك العالم فقال:

قل لابن مدرك الذي لم يدرك ... اخراج ماء البئر دون محرك
طرق الحماقة جمة مسلوكة ... وطريق حمقك قبل لما يسلك(٢١١)

والحق أن هذا الشاعر هو الأحمق لأنه لم يتمتع بفكر نير وأفق واسع ولم يكن لديه أدنى معرفة بعلم الحيل، ولنفترض أنه لم يكن يتمتع بأي قدر من المعرفة حول ذلك العلم أليس الأجدر أن يتثبت من الأمر قبل أن يطلق للسانه العنان في هجاء العالم ابن مدرك الذي دون شك لم يتوصل إلى ما توصل إليه إلا بعد جهد ومشقة كبيرين، ولكن الجاهل بالشيء عدو له كما يقال.

ويورد العلامة العذري ـ الذي سبق الحديث عنه في الجغرافية ـ قصة رجل من مدينة بجانة تنسك في آخر عمره وتبتل، فلما توفي وجدت له ثلاث غرائب، إحداها عصا كان إذا كثرت عنده البراغيث يلقيها في وسط بيته فتجتمع إليها ثم يخرجها من البيت فيلقيها فتنتشر عنه، والأخرى رحى كانت عند رجلي سريره يركضها برجله فتطحن مدة من الزمن فإذا استقرت أعاد الركض عليها حتى يكمل قوته من الطحن، وكان عنده كانون يطبخ قدره وخبزه بنار واحدة في زمن واحد(٢١٢).

فالغريبة الأولى لا تمت بصلة لما نحن بصدده، ولكن الغريبتين الأخريين

---

(٢١٠) انظر فون شاك : المرجع السابق (ص ٨٤)، ح رقم ١.
(٢١١) الحميدي : جلوة المقتبس (ص ٣٩٧)، الضبي : البغية (ص ٥٢٣).
(٢١٢) ترصيع الأخبار (مخطوط) السفر السابع، ورقة ٣٤ أ.

وهما: تلك الرحى التي تدور بواسطة الدفع ثم تستمر تلقائيا في الطحن حتى تدفع مرة أخرى بالرجل قد يكون السر فيها عائدًا إلى نوع من أنواع الميكانيكا التي تعتمد على حركة الأقراص المسننة بحيث تستمر عملية الطحن من ذاتها فترة من الزمن حتى يعود صاحبها إلى دفعها مرة أخرى، ومثل ذلك يمكن القول في ذلك الجهاز الذي ابتكره في عملية الطبخ حيث كان باستطاعته أن ينضج طعامه وخبزه بنار واحدة في وقت واحد، ولا يستبعد أن يكون ذلك الرجل لديه معرفة جيدة بضروب من المعرفة الميكانيكية استغلها في تدبير شؤونه المنزلية توفيرا لوقته وتفرغا للعبادة والتبتل.

وعلينا أثناء سرد مثل هذه الأعمال الميكانيكية البسيطة أن نراعي تطور العلوم وطبيعة العصر وأن لا ننتظر أعمالاً ميكانيكية باهرة كالتي شهدها عصر الثورة الصناعية وما بعدها.

ويمدنا العذري بإشارات هامة عن بعض الأعمال الفنية التي عرفها الأندلسيون في ميدان الزراعة كاعتمادهم على النواعير التي تسقي البساتين والجنات، فهو يقول مثلا (وعلى نهر تدمير النواعير التي تسقي جناتها وابتداء الساقية المستخرجة من قنطرة اشكاجة وتبلغ هذه الساقية في أملاك أهل مدينة مرسية إلى قرية طوس وهي من مدن أوريوله...)[٢١٣].

وقد نالت هذه النواعير ودواليب الماء إعجاب الأندلسيين فوصفها كثير من شعرائهم وخلدوا ذكرها في كتب الأدب[٢١٤].

ومن مملكة دانية ظهر العلامة المتفنن أبوالصلت أمية بن عبدالعزيز وقد سبقت الإشارة إليه لدى الحديث عن الفلك والرياضيات، وكان له بالإضافة إلى ذلك معرفة واسعة بالميكانيكا، وهو مانلمسه واضحا إبان زيارته لمصر، فقد أورد ابن أبي أصيبعة نقلا عن الشيخ سديد الدين المنطقي أن أباالصلت أمية كان سبب سجنه في الاسكندرية أن مركبا كان قد وصل إليها وهو مملؤ بالنحاس ونظرا لحمولته الثقيلة فقد غرق المركب وغاص في البحر فاحتار

---

(٢١٣) ترصيع الأخبار (مخطوط) السفر السابع، ورقة ١ أ.

(٢١٤) انظر في ذلك: Jan Read: The Moors in spain: p. 82.

أصحابه في كيفية نشله من البحر، وكان أبوالصلت على علم بأمر المركب، ففكر حسب معرفته بعلم الحيل في طريقة لنشله حتى إذا اهتدى إلى ذلك أخبر والي الاسكندرية فسر بفكرته وأحضر له ماطلبه من الآلات والأدوات والحبال وغرمه عليها مبلغا كبيرا من المال إذا تلفت، وانصرف أبوالصلت إلى تجهيز تلك الآلات بطريقة ميكانيكية لجذب المركب الغارق ووضع تلك الآلات في مركب مواز للمركب المذكور ثم وصل بتلك الآلات حبالا مبرومة من الحرير وربط الأطراف الأخرى للحبال بالمركب الغارق ثم أوكل إلى جماعة من العمال القيام بتشغيل تلك الآلات، فقاموا بما أمرهم به وأخذت الحبال تنطوي على عجلات بين ايديهم حتى ظهر لهم المركب قريبا من وجه الماء، وعند ذلك انقطعت الحبال فغاص المركب مرة أخرى إلى قاع البحر(٢١٥).

ويعلق ابن أبي أصيبعة على هذه الحادثة بقوله (لقد تلطف أبوالصلت جدا فيما صنعه وفي التحيل إلى رفع المركب، إلا أن القدر لم يساعده وحنق عليه الملك لما غرق من الآلات وكونها مرت ضائعة وأمر بحبسه وان يستوجب ذلك، وبقي في الاعتقال مدة إلى أن شفع فيه بعض الأعيان وأطلق)(٢١٦).

وعبارة ابن أبي أصيبعه تدل دلالة واضحة على ما كان لدى المسلمين من نزعة قوية نحو الابتكار والإبداع وشغفهم بمثل تلك الأعمال التي يصفون العمل فيها باللطافة وحسن التصرف ودقة الصنعة، ومثل هذه الأوصاف سوف نلمحها في ترجمة العلامة عبدالرحمن بن عساكر.

ونحن نلمح في عمل أبي الصلت ماكان عليه علم الحيل من تقدم وخاصة في استعمال البكرات المتعددة وفي جر الأثقال، كما أن فيه ما ينم عن براعة أبي الصلت في الجانبين النظري والتطبيقي لعلم الميكانيكا(٢١٧).

ويلاحظ أن السبب في فشل هذه العملية الميكانيكية هو أن أبا الصلت

---

(٢١٥) عيون الأنباء (ص ٥٠١ ـ ٥٠٢)

(٢١٦) المصدر نفسه (ص ٥٠٢).

(٢١٧) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي (ص ٥٩١).

غاب عنه قانون أرخميدس الذي يقول «إن كل جسم مغمور في سائل يفقد من وزنه بقدر وزن حجمه من ذلك السائل» فالمركب عندما ارتفع فوق وجه الماء أصبح وزنه أكبر مما كان عليه وهو غارق[٢١٨]. وهذا عائد إلى أن الماء يسلط قوة دافعة للأعلى على كل جسم مغمور فيه[٢١٩].

وتحدث عمر فروخ عن هذه القضية وأدلى برأيه في وضع بعض التصورات العملية التي كان في الإمكان عن طريقها تحقيق النجاح في إنقاذ المركب، فمن ذلك زيادة عدد الحبال حتى تقوى الحبال كلها على رفع المركب بالصورة المطلوبة، أو لو بدؤوا بتفريغ النحاس من المركب لما وصل إلى سطح الماء[٢٢٠].

والحق أن أباالصلت رغم فشله في تحقيق خطته إلا أنه أثبت بلا شك أن لديه معرفة بعلم الحيل. ونحن إذ نذكر مسببات فشله فإننا هذا عائد إلى أن العلم في عصرنا هذا قد بلغ مبلغا عظيما من التطور والازدهار. ويكفي أباالصلت محاولته الجريئة في ذلك العصر الذي كان يعد فيه مثل ذلك النشاط صفحة مضيئة في طريق الرقي بأحوال الإنسان وحاجاته الملحة.

وتجدر الإشارة إلى أن دونالد هيل كتب بحثا عن كتاب في الميكانيكا وهو كتاب «الأسرار في نتائج الأفكار» وينسب هذا الكتاب إلى ابن معاذ الجياني المولود سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م المتوفى سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م ويحوي الكتاب معلومات قيمة عن صناعة الساعات المائية، غير أن هيل يشكك في نسبة الكتاب إلى ابن معاذ للتباين الواضح بين ما يعرف عنه من أنه عالم في الفلك وبين ما يفترض في مؤلف الكتاب من سعة العلم في الهندسة والرياضيات وعلم الحيل[٢٢١].

---

(٢١٨) حكمت نجيب : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٢٩٠ ـ ٢٩١).
(٢١٩) حكمت نجيب : نفس المرجع (ص ٢٩١) (نقلا عن عباس محمد الحسون وآخرين، الفيزياء (ص ٦٤).
(٢٢٠) تاريخ الفكر العربي (ص ٥٩١).
(٢٢١) انظر. Donald R. Hill: Atreatise on Machines by Ibn Muadh AbuAbdallah al-Jayyani
بحث منشور باللغة الانجليزية في مجلة تاريخ العلوم العربية التابعة لمعهد تاريخ العلوم بحلب، السنة الأولى، العدد الأول، أيار ١٩٧٧م، (ص ٣٢). وما بعدها.

الفلاحـــة

عرفّ ابن خلدون هذا العلم بانه (النظر في النبات من حيث تنميته ونشؤه بالسقي والعلاج وتعهده بمثل ذلك)[٢٢٢].

وقد حظيت الزراعة في الإسلام بعناية كبيرة، فأشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿افرأيتم ما تحرثون، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾[٢٢٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: من حديث [من غرس غرساً فهو له صدقة][٢٢٤] وفي حديث آخر [ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه إنسان أو بهيمة إلا كان له صدقة][٢٢٥].

وبناء عليه فقد لقيت الفلاحة اهتماما واسعا من المسلمين، ومن غير شك أنهم استفادوا ممن كان قبلهم من الأمم واقتبسوا ألواناً من الخبرات عنهم[٢٢٦]، ثم انطلقوا إلى العمل على تحسين طرق الزراعة والري والسقيا وابتدعوا الكثير من المناهج والأساليب الراقية في هذا الميدان الحيوي فأدخلوا ضروبا من الطرق الهندسية في الري وابتكروا أساليب متطورة في معالجة الآفات الحشرية ومكافحتها والعناية بالنبات والأشجار وصنفوا في ذلك تصانيف علمية نفيسة.

ومن أوائل المصنفات الزراعية كتاب يوحنا بن ماسويه، وكتاب تلميذه حنين بن إسحاق، إلى جانب دراسات منسوبة لجابر بن حيان في هذا العلم[٢٢٧].

---

(٢٢٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٩٢).

(٢٢٣) سورة الواقعة : الأيتان ٦٣ و٦٤.

(٢٢٤) رواه أحمد بن حنبل انظر، ونسنك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ج ٤ (ص ٤٧٩).

(٢٢٥) رواه البخاري ومسلم والترمذي والدارمي وأحمد بن حنبل (ونسنك المعجم ج ٤ (ص٤٧٩).

(٢٢٦) عرف المسلمون رسالة ديمقريتوس الزراعية وأفادوا أيضا من دراسات لفنذانيوس الاناطوليوس وكذلك ما صنفه كسيانوس البيزنطي. انظر سيد حسين: العلوم في الإسلام (ص ١٨٤)، عبدالرحمن بدوي: دراسات في تاريخ الفلسفة والعلوم عند العرب (ص ٣٨).

(٢٢٧) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٨٣).

ومن أشهر كتب الفلاحة ما ترجمه العلامة أبوبكر أحمد بن وحشية (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) وهو كتاب «الفلاحة النبطية» وقد ترجمه عن السريانية القديمة أو لغة النبط، ونسبه إلى شخص اسمه قطامي عاش حسب تقدير براشفولسون في القرن السادس عشر ق.م.[٢٢٨].

هذا ويحتل الأندلسيون بلا منازع المقدمة والصدارة بين علماء الزراعة في العالم الإسلامي كله. فإن علوم الزراعة لم تزدهر في بلاد الإسلام بل في العالم كله. كما ازدهرت في الأندلس، وهذا عائد أولا إلى طبيعة شبه الجزيرة الأندلسية، وكثرة أنهارها وبقاعها الخصبة وتنوع أقاليمها وتربتها، وثانيا إلى نبـوغ أهل الأندلس في علم الزراعة وفنونها ومهاراتهم الواسعة في فلاحة الأرض وغرسها والعناية بها حتى تينع ثمارها على أطيب صورة[٢٢٩].

وطوال عدة قرون ابتداء من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي يكاد يكون كل كتاب قيّم في علم الزراعة صادرًا عن علماء الأندلس، كما أن النشاط الزراعي في ذلك القطر أتى بإنجازات حضارية رائعة قل أن توجد في غيره من الأقطار[٢٣٠].

وأظهر الأندلسيون نبوغا عظيما في تنظيم وسائل الري والصرف واستجلاب المياه وتوزيعها بالطرق الفنية الرفيعة، وهو ما نلمسه حتى عصرنا هذا فيما تبقى من آثار المسلمين في الأندلس المفقودة، ومنها ديوان المياه الباقي منذ أيام العرب في بلنسية والذي أثبت بشكل قاطع مدى ماكان عليه الأندلسيون من تفوق وتطور عظيمين في ميدان الري والسقيا[٢٣١].

ومازالت أراضي الأقاليم الشرقية في اسبانيا تتبع أساليب العرب في الري،

---

(٢٢٨) عبدالرحمن بدوي : دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب (ص ٣٦)، حكمت نجيب: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (ص ٣٣٤ - ٣٣٥)، سيد حسين: المرجع السابق (ص ١٨٤ - ١٩٣).

(٢٢٩) عزالدين فروخ : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية (ص ٦٥) علي الدفاع: إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات (ص ٣١)، عبدالرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوربي (ص ٣٩).

(٢٣٠) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٩٣).

(٢٣١) انظر شكيب أرسلان : الحلل السندسية، ج ٣ (ص ٢١٥).

وتحرث كما كان الأمر في زمانهم، ومازالت العربية باقية حتى الآن في لغة الريف الصميمة في مفردات بعض المصطلحات الزراعية وفي مقاييس وموازين كل حقل قروي[٣٣١].

ويذكر سيد حسين أن أقدم الدراسات الزراعية الأندلسية كتاب الأنواء لأبي الحسن القرطبي من أعلام القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وهو عبارة عن تقويم زراعي، وتلاه كتاب ينسب للطبيب الشهير أبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ويسمى «كتاب الفلاحة»[٣٣٣].

ويمكن أن نضيف إلى أوائل الدراسات الزراعية كتاب عريب بن سعد القرطبي (٣٧٠هـ/ ٩٨٠م) واسمه «أوقات السنة» أو التقويم[٣٣٤].

وفي عصر الطوائف برز عدد من علماء الفلاحة الذين أسهموا بتآليفهم العلمية في رقي هذا العلم والنهوض بطرقه وأساليبه إلى درجة رفيعة.

فمن مملكة اشبيلية ظهر العلامة أبوعمر أحمد بن محمد بن الحجاج الذي صنّف في الزراعة كتابا سماه «المقنع» وقد كان هذا الكتاب مجهولا تقريبا لدى كثير من الدارسين والمهتمين بعلم الفلاحة عند الأندلسيين حتى يسر الله له من أخرجه من طي النسيان فقام على نشره مجمع اللغة العربية الأردني بتحقيق صلاح جرار وجاسر أبوصفية سنة (١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م).

والكتاب يحوي معلومات قيّمة وهامة عن طرق الزراعة والعناية بالأشجار وتوضيح أفضل السبل في زراعة الحبوب والثمار والأزهار والرياحين إلى جانب الاهتمام بالري والإرشاد إلى أقوم الطرق في ذلك. ويضم «المقنع» توجيهات كثيرة عن تربية الحيوانات والدواجن والطيور وصيانتها من الآفات والأدواء وما يتبع ذلك من أساليب في تكثيرها وتسمينها وغير ذلك[٣٣٥].

وابن حجاج يعتمد في الكثير من موضوعات كتابه على من سبقه من علماء الفلاحة كاكسينوس يونيوس، واقطيوس، وابن معالوس، وسوديوس، ومن

---

(٣٣٢) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس (ص ٨٢ - ٨٣).
(٣٣٣) سيد حسين : مرجع سابق (ص ١٩٣).
(٣٣٤) انظر مقدمة المحققين لكتاب المقنع لابن حجاج (ص: ث).
(٣٣٥) انظر المقنع (ص ١١، ٤٢، ٦٧).

المسلمين ثابت بن قرة، وأبي حنيفة الدينوري[٢٣٦].

ونظرا لقيمة الكتاب وأهمية ما حواه من معارف زراعية فقد استند إليه العديد من علماء الفلاحة كابن العوام يحيى بن محمد (ت ٥٨٧هـ/ ١١٩١م) الذي قال في مقدمة كتابه عن الفلاحة (واعتمدت على ما تضمنه كتاب الشيخ الفقيه الإمام أبوعمر بن حجاج، رحمه الله، المسمى بـ «المقنع»، وهو الذي ألفه سنة ٤٦٦هـ...)[٢٣٧].

كما أن ابن البيطار اعتمد عليه في دراسته لأنواع النباتات والأعشاب[٢٣٨].

ومن مملكة الطليطلة نبغ العلامة أبوعبدالله محمد بن إبراهيم بن بصال الطليطلي في علم الفلاحة، وكان للبيئة التي نشأ بها أكبر الأثر في تعميق معارفه الزراعية، فطليطلة اشتهرت بكثرة بساتينها ورقي الفلاحة بها حتى وصفت ثمرة الجلنار بها بأنها تقارب الرمانة، وأن فيها من ألوان الفلاحة الراقية ما تفضل به غيرها، وأن فيها صنفا من التين نصفه اخضر والنصف الآخر أبيض في غاية الحلاوة[٢٣٩].

وابن بصال يحتل مكانة عظيمة بين علماء الفلاحة المسلمين، وكان لشغفه بذلك العلم أن رحل إلى كثير من الأقطار كالمغرب ومصر وصقلية ومكة ليزيد من تحصيله العلمي ويطلع على معارف جديدة عن أنواع النباتات والشجيرات. وقد آثر الإقامة باشبيلية لدى عودته إلى وطنه فأنزله المعتمد منزلا كريما في بلاطه، وفي اشبيلية أنشأ ابن بصال بستاناً كبيراً سماه بستان السلطان بتوجيه من المعتمد بن عباد، وصنف ابن بصال كتابا في الفلاحة سماه «ديوان الفلاحة»، وجمع فيه علومه ومعارفه وخبراته الزراعية[٢٤٠].

ولابن بصال كتاب آخر اسمه «القصد والبيان» وكلا الكتابين اعتمد ابن

---

(٢٣٦) نفس المصدر (ص ١٢٣).
(٢٣٧) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٤٧٥ - ٤٧٦).
(٢٣٨) آنخل بالنثيا : نفس المرجع والصفحة.
(٢٣٩) ابن سعيد : المغرب، ج ٢ (ص ٨ - ٩).
(٢٤٠) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٩٣)، غير أنه أسماه عبدالله والصحيح ما ذكرناه أعلاه لوروده هكذا في المصادر. وانظر الكتب نقد وعرض: ابن بصال: كتاب الفلاحة (مقال صغير بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، ج ٥ (ص ٢٨٠).

بصال في تأليفهما على خبراته وتجاربه ومشاهداته بعيدا عما علق بالفلاحة من ألوان السحر والتأثيرات الفلكية. وكتابه «ديوان الفلاحة» يقع في ستة عشر فصلا تناولت نواحي الزراعة كافة وما يتصل بها من ري وسقيا وأنواع المياه كمياه المطر والأنهار والخزانات، وتتجلى في كتابه عنايته بخواص التربة ودراسته لها دراسة دقيقة وافية[٢٤١].

وكتاب ابن بصال عن الفلاحة نشره وترجمه وعلق عليه مياس بيكروسا ومحمد عزيمان ونشره معهد مولاي الحسن بتطوان سنة ١٩٥٥م.

واعتمد ابن العوام في كتابه عن الفلاحة على كتاب ابن بصال وأثنى عليه ووصفه بأنه مبنى على التجربة والمشاهدة[٢٤٢].

ومن مملكة غرناطة ظهر العلامة محمد بن مالك المري الطغنري (كان حيا سنة ٤٨٠هـ) وكان الطغنري بارعا في علوم مختلفة، وورد غرناطة على عهد الامير عبدالله بن بلقين بن باديس. ويذكر ابن الخطيب أنه تولى الوزارة وأورد ذلك في قصة وقعت له مع سماجة وزير عبدالله بن بلقين[٢٤٣].

وتعود شهرة الطغنري إلى كتابه القيّم الذي ألفه في الفلاحة وأسماه «زهرة البستان ونزهة الأذهان» وقد وصف هذا الكتاب بعظم الفائدة ونفيس ما حواه من معارف[٢٤٤].

ومن حسن الحظ أن هذا الكتاب قد حُفظ من الضياع وعوائد الدهر. وفي مقدمة هذا الكتاب الذي لا يزال مخطوطا يتحدث المؤلف عن فضائل الزراعة وما ورد فيها من فضائل في القرآن الكريم والسنة وأقوال الحكماء والعلماء[٢٤٥].

ويلاحظ أن الطغنري أخذ علومه عن علماء عصره كابن بطال وأبي الحسن

---

(٢٤١) سيد حسين : المرجع السابق (ص ١٩٣)، وانظر عبدالرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي (ص ٣٩).

(٢٤٢) آنخل بالنثيا : المرجع السابق (ص ٤٧٦)، عبدالله علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن (ص ٣٧١).

(٢٤٣) الإحاطة، ج ٢ (ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٢٤٤) ابن الخطيب : الإحاطة، ج ٢ (ص ٢٨٣)، البغدادي: هدية العارفين، ج ٢ (ص ٧٤).

(٢٤٥) زهرة البستان ونزهة الأذهان (مخطوط) (ص ١ ـ ٢) وما بعدها للمخطوط مرقم.

شهاب وقد أشار إليها في كتابه أكثر من مرة[٢٤٦].

وكان الطغنري مع سعة علمه ورسوخه في معرفة هذا العلم شديد التواضع جم الحياء، فهو يقول في مقدمة كتابه (فيا أيها المتطلع لهذا الكتاب إليك أتضرع في الصفح عن الزلل والإغضاء عما في الكتاب من خطأ أو خطل فالإنسان على كل حال محل النقصان ولا يسلم واضع كتاب من حسد حاسد وطاعن راصد وابن آدم معرض خطأ وزلل...)[٢٤٧]

وقد تضمن كتاب الطغنري نصائح وتوجيهات للفلاح وذلك بالسعي في تحصيل المعرفة واكتساب العلم والاستزادة من الخبرات والسؤال عما يجهله بالاسترشاد بأقوال أهل العلم والتجارب، كما ينبه إلى أهمية العناية بالأرض، ومباشرة العمل فيها أو بالإشراف الجيد على من يعمل بها، وأن لا يؤجل عمل اليوم إلى غيره ولا يتكل على غيره في تنفيذ أعماله وشؤونه[٢٤٨].

والطغنري أفاد من معارف علماء الفلاحة السابقين سواء كانوا يونانا أو فُرسًا أو عربًا أو عن طريق شيوخه. ونقتبس من كتاب الطغنري هذا النص الذي يكشف ويوضح اعتماده على معارف القدامى وغيرهم فيقول: (اختلف المؤلفون في الفلاحة في تحديد وقت الغراسة فالأغلب مجموعون (هكذا) على (أن أفضل)[٢٤٩] أوقات الغراسة لجميع الشجر فصل الخريف مثل ابن وحشية مترجم الفلاحة النبطية وقسطيس صاحب الفلاحة الرومية وقسطيورس صاحب كتاب الخزانة ودمقراطيس، وأما ابن بطال فذكر أن ستة أشهر من العام وقت لغرس جميع الأشجار، أولها شهر اكتوبر إلى شهر فبراير، وأما شجر التين والعنب ليس له وقت محدود ولازمان معين لكنه يغرس في كل وقت وفي كل زمان)[٢٥٠].

هذا وللطبيب الصيدلي الكبير عبدالرحمن بن وافد مساهمة جيدة في علم

---

(٢٤٦) نفس المخطوط (ص ٥٦ - ٥٧ - ١١٧).

(٢٤٧) زهرة البستان (مخطوط) (ص ١١).

(٢٤٨) زهرة البستان (مخطوط) (ص ٨ - ٩).

(٢٤٩) في الأصل كلمة غير مفهومة، وما أثبتناه بين القوسين يناسب سياق الكلام.

(٢٥٠) زهرة البستان (مخطوط) (ص ١١٧).

الفلاحة حيث ألف كتابا اسمه «المجموع في الفلاحة»، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في الغرب. أما العرب فلا يعرفون عنه شيئا تقريبا(٢٥١).

هؤلاء هم تقريبا أشهر علماء الفلاحة والزراعة في الأندلس، وهناك علماء آخرون كانت لهم مشاركات جانبية في هذا العلم، منهم العلامة أبوعبدالله محمد بن معمر المعروف بابن أخت غانم، وكان عالما باللغة مشهورا بها وله معرفة بعلوم أخرى، وكان مقيما بمالقة ثم خرج عنها إلى المرية حيث حل ضيفا لدى أميرها المعتصم بن صمادح، وتعود شهرته في علم الفلاحة إلى شرحه لكتاب أبي حنيفة الدينوري، وقد قام بشرحه شرحا واسعا مفصلا حيث يقع شرحه المذكور في ستين مجلداً(٢٥٢).

وبين القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ظهر عالم زراعي نباتي كبير نجهل اسمه وخلف لنا معجما بأسماء النبات (نشرآسين بلاثيوس مستخرجا منه على هيئة معجم عنوانه:

(Glosario de voces romances registradas por un botanico anonimo hispano - Musulman de los siglos XI Y XII). وهذا المعجم يضم معلومات ذات قيمة عالية عن نباتات وأشجار الأندلس ومعالمها الجغرافية وأنماط السلوك والتقاليد الشعبية(٢٥٣).

ولابن سيده العالم اللغوي ـ الذي سبق الحديث عنه في ميدان اللغة ـ مساهمة طيبة في حقل الزراعة من خلال دراساته اللغوية، فقد بين لنا كثيرا من أسماء النباتات، والأشجار وسعى إلى ترتيب النبات حسب مكان نموه وحسب طبيعة ورقه من حيث بقاؤه أو سقوطه، وتحدث عن الآفات الزراعية التي تصيب النبات ضابطا لأسماء تلك الآفات وواصفا لخصائصها، وكان جهده واضحا في توضيح ما يلحق بالنباتات من آفات مختلفة، وعلل حصول ذلك بقسوة المناخ من برودة أو جفاف أو ما يصيبها من طفيليات. وفي

---

(٢٥١) سيد حسين : العلوم في الإسلام (ص ١٩٣)، وانظر حكمت الأوسي: كتاب الوساد لابن وافد الطليطلي، مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر، ١٩٨٠م (ص ١٧٥).
(٢٥٢) المقري : نفح الطيب، ج ٣ (ص ٣٩٧)، وانظر ابن سعيد: المغرب، ج ١ (ص ٤٣٣).
(٢٥٣) آنخل بالنثيا : مرجع سابق (ص ٤٦٩).

حديثه عن الكرم يذكر مختلف الوسائل والسبل المتبعة في غرسه وأطوار نموه ذاكرا أفضل الطرق للمحافظة عليه وصيانته والعناية به مع الإشارة إلى أنواع الكرم، هذا مع التزامه بانتقاء اللفظة العلمية والفنية التي تبين كل ذلك بجلاء ووضوح تامين[٢٥٤].

وبعد هذا الاستعراض السريع للإنجازات العلمية في ميدان الزراعة في عصر ملوك الطوائف فلن تصيبنا الدهشة ولن يستولي علينا العجب إذا ما قلنا أن الزراعة في الأندلس قد أصابها تدهور سريع وشامل بعد خروج المسلمين. بل أن ذلك التدهور ما لبث أن دفع اسبانيا ـ التي كانت في عهد المسلمين بستانا مثمرا جميلا ـ إلى استيراد ما تحتاجه من المحاصيل الزراعية.

وهكذا أثبت الأندلسيون أنهم أصحاب السيادة العلمية في حقل العلوم الزراعية، وأن معارفهم وخبراتهم العلمية التي خلدوها في كتبهم هي أثمن ما تركه المسلمون في هذا العلم بلا منازع.

---

(٢٥٤) داريو كاباتيلاس : ابن سيده المرسي (ص ١٢٨ ـ ١٣٤ ـ ١٣٥).

الفصل الخامس

(أثر الازدهار العلمي في الأندلس في أوربا)

جدير بالذكر أن أي حضارة من الحضارات الإنسانية لا يمكن أن تؤثر في غيرها من الحضارات الأخرى إلا بعد نضج ورقي كبيرين. ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتم هذا إلاّ بعد زمن ليس بالقصير في عمر الحضارات الإنسانية.

ويذكر المؤرخون أن أوربا استمدت معارفها وعلومها الراقية من الحضارة الإسلامية وذلك من خلال ثلاثة معابر. المعبر الأول: الحروب الصليبية التي يسرت للغزاة أن يطلعوا على ما في الشرق العربي من حضارة زاهرة وعلوم راقية. وقد شكك غوستان لوبون في صحة الدور الذي قامت به الحروب الصليبية[1]. والحق أن دورها كان في هذا الميدان ضئيلا إذا ما قورن بالدور الذي قام به المعبران الآخران.

المعبر الثاني: جزيرة صقلية التي كان دورها كبيرا في نقل العلوم والمعارف إلى جنوب أوربا، وخصوصا إيطاليا وفرنسا. ولم يكن ذلك الإشعاع الحضاري الذي انطلق من صقلية إبان الحكم الإسلامي فقط بل استمرت هذه الجزيرة بعد ذلك في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا فتهافت على دراستها جيرانها من الإيطاليين ونقلوها إلى أنحاء أوربا كافة.

المعبر الثالث: الأندلس[2] ويعد هذا المعبر أهم المعابر التي سلكتها الحضارة الإسلامية إلى أوربا، وأشدها تأثيراً في تغيير وجه أوربا المظلم المتخلف إلى ما أصبحت عليه من رقي وتمدن. والذي يهمنا هنا هو الحديث عن هذا المعبر ومقدار ما أسهم به في بناء الكيان الحضاري لأوربا، وخاصة ما أسداه علماء عصر ملوك الطوائف من جهود علمية قيّمة في مختلف فروع المعرفة.

ومن المعلوم أن الأندلس عاشت أزهى عصورها العلمية والأدبية في عصر ملوك الطوائف. وما من شك أن الأندلس عاشت في العصر السابق له أي عصر الخلافة نهضة علمية كبيرة، ويمكن القول: أن جذور التألق العلمي

---

(١) حضارة العرب (ص ٥٦٧).

(٢) عن هذا المعبر، انظر محمد سويسي، انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب. بحث نشرته المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة. تونس، (ص ٤) وما بعدها.

لعصر الطوائف كانت مستمدة من الازدهار العلمي لعصر الخلافة، ولكن قمة التفوق والتطور كانت في عصر ملوك الطوائف الذي شهد نشاطا علميا واسعا وإنتاجا فكريا شاملا بفضل روح المنافسة بين ملوك هذا العصر وحرصهم على أن يكونوا حماة للعلم ورعاة للفكر. فقد كان هذا الهدف النبيل أسمى ما يتطلع إليه كل منهم. فمن الفخر والسؤدد أن يتصف كل ملك وأمير آنذاك بأنه الملك العالم الأديب المحب للعلم والعلماء.

وإذا ألقينا نظرة على الأوضاع السائدة في أوربا إبان هذا الازدهار الحضاري في الأندلس دهشنا مما كانت عليه الأحوال في أوربا من تخلف وجهل وظلام، وفي هذا الصدد يقول غوستاف لوبون:

(لا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوربه حينما أدخلوا الحضارة إليها، إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في اسبانيا ساطعة جدا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان والمساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع وذلك كيما يكون عندهم من الرقوق ما هو ضروري لنسخ كتب العبادة)(٣)

وأفاق الأوربيون من سباتهم على نور الحضارة الإسلامية فبهرهم شعاعها وأخذوا يتلمسون طريقهم للاقتباس منها، وكانت اسبانيا الإسلامية قد لفتت أنظارهم بتألقها الباهر، فاتجهوا نحوها، ويمكن أن نشير إلى أن طور التأثير الحضاري للأندلس في أوربا قد بدأ تقريبا من القرن الرابع الهجري/

(٣) حضارة العرب (ص٥٦٦).

العاشر الميلادي[4]. ففي هذا القرن وهو عصر الخلافة الأموية في الأندلس ارتقت الأندلس في مدارج المعرفة درجة عالية فاجتذبت إليها الأنظار وشدت إليها القلوب من أقطار أوربا كإيطاليا وفرنسا وألمانيا وانجلترا؛ إذ أخذت الأقطار الأوربية ترسل بعثاتها العلمية إلى الأندلس وتضاعفت أعداد هذه البعثات حتى بلغت سنة ٣١٢هـ على عهد الخليفة الناصر زهاء سبعمائة طالب وطالبة، ويذكر المؤرخ شاليبر من بينها بعثة علمية فرنسية برئاسة الأميرة اليزابث ابنة خال الملك لويس السادس ملك فرنسا[5].

كما أن فيليب ملك بافاريا بعث إلى الخليفة الأموي هشام الثالث (ت حوالي ٤٠٣هـ) برسالة يستأذنه فيها أن يرسل بعثة من الطلاب والطالبات للاطلاع على النهضة العلمية التي تعيشها الأندلس للاستفادة منها والاقتباس عن حضارة الأندلس الراقية وكان على رأس هذه البعثة وزير الملك المدعو ويلمبين الذي سماه العرب «وليم الأمين»، وكانت هذه البعثة تتألف من ٢١٥ طالبا وطالبة تم توزيعهم على حواضر العلم في الأندلس، وتذكر الروايات التاريخية أن ثمانية من أفراد هذه البعثة اعتنقوا الإسلام ومكثوا في الأندلس ومن هؤلاء الثمانية ثلاث فتيات تزوجن بعدد من مشاهير رجال الأندلس[6].

---

(٤) هناك تأثيرات حضارية عربية مبكرة في أوربا لا ندري على وجه القطع هل كان مصدرها اسبانيا أم غيرها من مراكز الحضارة الإسلامية آنذاك، مثال ذلك أن نسخة لاتينية من حِكَم ابقراط كانت تستخدم في التدريس بشارتر في فرنسا سنة ٩٩١م. فيفترض بعض المؤرخين عند تفسيرهم لوجود مثل هذه الترجمة نفوذا علميا عربيا مبكرا بسبب واضح وهو أن مثل هذه الترجمة كانت عن أصل عربي، فالغرب اللاتيني كان جاهلاً جهلاً تاما بأي شيء عن الأصول اليونانية لمآثر اليونان القدماء.

ومن التأثيرات أيضا ما كتبه هرمان الكسيح (١٠١٣م - ١٠٥٤م) في سويسرا من تأليف في الرياضيات والتنجيم تظهر فيها التأثيرات العلمية العربية، فهرمان كان كسيحا لا يستطيع الحركه فلم يزر اسبانيا أو صقلية ومن الجائز أنه وصلته بعض الترجمات المبكرة لكتب عربية أو حصل على معلومات عربية من بعض العلماء المتجولين آنذاك في اسبانيا أو أوربا بعامة. ويمكن أنه حصل على ترجمات لأعمال عربية كتلك التي وجدت في شارتر أو تلك التي ترجمها جربرت. انظر جلال مظهر: الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، (ص ١٢٩) ويضيف الباحث أن من الجائز أنه اعتمد على بعض الترجمات لبعض الكتب التي نقلها جان هورتز اللوريني إلى ألمانيا سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م بعد عودته من الأندلس.

(٥) عبدالحميد السائح : دورالحضارة العربية الإسلامية في التقدم الإنساني مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد ١٩، سنة ١٩٨١م، (ص ٦٦).

(٦) خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (ص ٣٧٦).

وفي الوقت نفسه استقدمت انجلترا عددا من العلماء والمهندسين العرب الذي شيدوا أكبر جسر على نهر التايمز في بريطانيا وقد عرف باسم جسر هليشم Helichem وهو تحريف لكلمة هشام خليفة الأندلس عرفانا بفضله عليهم ومساعدته لهم. وكذلك كان للمهندسين العرب فضل في إنشاء قباب الكنائس في بافاريا، ولا تزال توجد بمدينة شتوتغارت الألمانية حتى اليوم[7] سقاية ماء تدعى اميديو Amedeo وهو تحريف لاسم أحمد ويبدو أنه اسم المهندس العربي الذي بناها[8].

ويذكر التاريخ أن ملك انجلترا جورج الثاني أرسل بعثة من بنات النبلاء والأشراف وفي مقدمتهن الأميرة «دوبانت» ابنة أخيه إلى الأندلس ووجه معهن خطابا إلى الخليفة الأموي يقول فيه (أردنا لابنائنا اقتباس حضارتكم لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر نور العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل)[9].

وإذا صح مثل هذا فإن فيه ما ينم بصورة واضحة عما كانت عليه الأندلس آنذاك من رقي وحضارة زاهرة استقطبت اهتمام الأوروبيين ليس ممن جاور الأندلس فقط بل من كان بعيدا عنها أيضا في انجلترا. فكانت الأندلس قبلة للراغبين في العلم من الأوربيين ومطمح هممهم في تحصيل العلم والمعرفة بعد أن كانوا غرقى في لجج الجهل وبحر الظلمات.

وفي القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد بعث الامبراطور اوتو الكبير

---

(٧) خليل السامرائي وآخرون، نفس المرجع. (ص ٣٧٧).

(٨) خليل السامرائي وآخرون، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (ص ٣٧٧).

(٩) عز الدين فراج: فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، (ص ٣٢٤). بالرجوع الى ما كتب عن تاريخ بريطانيا في العصور الوسطى لم نعثر على ملك بريطاني يسمى جورج الثاني، فمنذ الحقبة التي ارتبطت فيها بريطانيا بغزو الفيكنغ منذ القرن التاسع الميلادي حكم بريطانيا الملك الفريد وتتابع خلفاؤه حتى تولى الحكم على بريطانيا الملك الدانماركي كنوت (١٠١٦ ـ ١٠٣٥م). وتولى بعده الملك ادوارد بن ادموند (١٠٤٣ ـ ١١٠٦) تبع ذلك غزو وليم الفاتح لبريطانيا، وامتد حكمه وحكم خلفائه من (سنة ١٠٦٦ الى ١٣٠٧م) ولم نجد خلال قائمة الحكام الذين حكموا بريطانيا إلى نهاية عهد السيطرة النورمانذية التي بدأها وليم الفاتح ملكا يدعى جورج. ولعل هذه البعثة أن صحت فإن الملك الذي ارسلها قد يكون من خلفاء الفريد (انظر محمد سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى ٢٣٥ وما بعدها و(ص ٢٤٥) وما بعدها.

ويشير السامرائي إلى أن الذي أرسل البعثة هو ملك ويلز وأن الخليفة الذي استقبلها هو هشام الثالث (المعتد). انظر تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، (ص٤٧٦).

وفدا سياسيا على رأسه جان غورتز اللوريني إلى الأندلس وبالتحديد سنة ٣٤٢هـ/ ٩٥٣م (حيث قابل الخليفة عبدالرحمن الناصر. وارتبط غورتز بعلاقة وطيدة بالوزير اليهودي ابن شبروط. وكان غورتز مندهشا لما رأته عيناه من حضارة عظيمة يعيشها المسلمون في الأندلس، وما بلغوه من الرقي العظيم في العلوم والمعارف، فعزم على البقاء في قرطبة ليقتبس ما يستطيع اقتباسه من علوم ومعارف مختلفة، فدرس اللغة العربية حتى أجادها، وقبل أن يغادر الأندلس إلى وطنه (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) حمل معه قدراً كبيراً من الكتب. ويبدو أن الكثير منها كان متعلقا بالعلوم البحتة كالرياضيات والطب والكيمياء والفلك، ومما يدل على هذا ما لوحظ من ازدهار كبير وواضح في تلك العلوم وخصوصا الرياضيات في مدارس مقاطعة اللورين، ثم انتقل هذا التأثير العلمي إلى حوض الرين والفلاندر[١٠].

وجدير بالذكر أن التأثير العلمي للعلوم العربية قد أصاب المدارس الفلمنكية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وأن تلك المدارس اقتبست الكثير من المعارف عن العرب الأندلسيين، ويمكن التدليل على ذلك بأنه عندما احتل الملك الدانمراكي كنوت Knut (٣٩١هـ - ٤٢٧هـ/ ١٠٠٠م - ١٠٣٥م)[١١] انجلترا عزل الأساقفة الأنجلوسكسون وعين محلهم أساقفة من كنائس الأراضي المنخفضة وشمالي فرنسا. وكان من بين هؤلاء خمسة أساقفة يتمتعون بقدر جيد من المعرفة بالعلوم العربية في الرياضيات والكيمياء والفلك[١٢].

وقبيل عصر الطوائف أيضا قام الراهب جربرت دي أورياك - الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني Silvester II - بالارتحال إلى قرطبة عاصمة العلم

---

(١٠) ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام، (ص ٢١٢) وانظر ليفي بروفنسال حضارة العرب في الأندلس، (ص ٧٥ - ٧٦).

(١١) الصحيح في تاريخ حكم كنوت لبريطانيا هو بين سنتي ١٠١٦م إلى ١٠٣٥م كما أورده سعيد عاشور: تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ص ١٩١). والمقصود بالمدارس الفلمنكية أي المدارس الواقعة في الأراضي المنخفضة كهولندا. واللغة الفلمنكية فرع من اللغة الانجلو سكسونية.

(١٢) ماهر حمادة : المرجع السابق، (ص ٢١٢)

وقبلة المعرفة آنذاك، ومكث جربرت في قرطبة ثلاث سنوات بين سنتي (٣٥٧ ـ ٣٦٠هـ/ ٩٦٧ ـ ٩٧٠م) حيث عكف على دراسة عدد من العلوم وخاصة الرياضيات والفلك، حتى إذا اكتسب معرفة واسعة فيها عاد إلى وطنه لينشر ما اكتسبه[١٣].

ولما استقر جربرت في وطنه صنف كتابا وضّح فيه كيفية استخدام الأرقام العربية، بأن الأوربيين المتخلفين آنذاك توجسوا منه خيفة ولم يطمئنوا إلى ثقافته الجديدة لعلمهم بأنه درس في اسبانيا الإسلامية وعلى أيدي العرب، كما أنه اتهم من قبل العامة بالسحر، ورويت عنه أحداث خارقة منها أنه يغادر الدير ليلا ويطير في الهواء حتى يصل اسبانيا فيدرس بها علوم الفلك والتنجيم ثم يعود إلى حجرته قبل بزوغ الفجر[١٤].

ولا ريب أن هذه الرواية التي حكيت عن الراهب جربرت تعتبر من ضروب الأساطير والخرافات، ولكنها تؤكد من جهة أخرى عمق الصلة الثقافية بين ذلك الراهب ومصادر الثقافة والعلم في اسبانيا.

ولا ننسى أن نشير في هذا الصدد إلى أن من مصادر هذا التأثير الحضاري والعلمي للأندلس في أوربا ما نشأ عن قيام الدولة الإسلامية في الأندلس من نفوذ واسع في جنوب شرق فرنسا فقد تمكنت مجموعة من البحارة الاندلسيين النزول في جنوب شرق فرنسا في منطقة بروفانس سنة ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م، واستطاع هؤلاء الأندلسيون مد نفوذهم بعد وصول إمدادات لهم إلى المناطق المجاورة، وأخذ شأنهم يعلو وقوتهم تزداد حتى شملت سيادتهم أجزاءً من ايطاليا وسويسرا، وأطلق على دولتهم تلك دولة «القلال» وعرفت قاعدتهم في المصادر اللاتينية باسم فراكسنيتوم، وقد استمر نفوذ هذه الدولة حتى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م[١٥].

---

(١٣) عبدالرحمن بدوي : دور العرب في تكوين الفكر الأوربي (ص ٥ ـ ٦) لويس يونغ: العرب وأوربا، (ص ١٢٥) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي (ص ٥٣٤).
(١٤) لويس يونغ : العرب وأوربا، (ص ١٢٥) وانظر عمر فروخ: عبقرية العرب (ص ٧٢ ـ ٧٣).
(١٥) عبدالرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، (ص ٣١٣). وانظر بالتفصيل عن هذه الدولة جوزيف رينو: الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، (ص ١٥١) وما بعدها.

وبطبيعة الحال فقد كان لهذه الدولة نشاط حضاري وعلمي، وكان لتوسطها بين فرنسا وإيطاليا وسويسرا أثر في سهولة انتقال المعارف والأفكار العلمية إلى تلك الشعوب الأوربية. وهو ما أكده جوزيف رينو بقوله: (عندما استقر المسلمون في القرن التاسع الميلادي في بروفانس وفي دوفيني وسافواي وفي سويسرا كانوا قد قطعوا أشواطاً في العلوم وفي الفنون)[١٦].

وشهدت الأندلس منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أفواجا من الطلبة الأوربيين من إيطاليا وفرنسا والمانيا وانجلترا لدراسة علوم العرب ومعارفهم المختلفة، واقتباس ألوان الحضارة والتمدن. وكان بعض هؤلاء الطلبة الأوربيين من أبناء الأمراء والملوك والنبلاء، وكانوا يقصدون بلاطات خلفاء وأمراء المسلمين ليتلقوا ألوان الأدب والفروسية[١٧].

وكان بطرس رئيس دير كلوني قد أبدى أسفه الشديد وانزعاجه البالغ عندما زار اسبانيا فشاهد جموع الطلبة الفرنسيين والالمان والانجليز يؤمون مراكز العلم الأندلسية ويأخذون الكثير من علومهم وآدابهم عن علماء المسلمين، فسعى إلى ترجمة القرآن إلى اللاتينية بغرض تعريفهم بالإسلام من وجهة النظر المسيحية ليصدهم عن التأثر بالفكر الإسلامي[١٨].

ومن الطريف أن نشير إلى أن سانشو بن غرسيه حفيد الملكة طوطة ملكة نافار عندما خلعه غونزاليز وطرده من ليون التجأ مع جدته إلى الخليفة الناصر يستنجد به. وكان سانشو يعاني من سمنة مفرطة أثقلت كاهله فلا يقوى

---

(١٦) الفتوحات الإسلامية (٢٥١).

(١٧) ول ديورانت : قصة الحضارة. الجزء الثاني ج ٤ (ص ٣٨٥ - ٣٨٦) زيغريد هونكه: شمس العرب، (ص ٥٠)، عبدالحميد الصائغ: دور الحضارة العربية والإسلامية في التقدم الإنساني (مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد ١٩ سنة ١٩٨١م، (ص ٦٦). هـ.ج ولز: معالم تاريخ الإنسانية ج ٣، (ص ٨٣٩). بريفالت: أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، (ص ١٤٠ - ١٤٦). جوزيف رينو: الفتوحات الإسلامية (ص ٢٥٢ - ٢٥٣) مرسي محمد حرب: لمحات عن التراث الطبي العربي (ص ٤٧).

(١٨) بريفالت: مرجع سابق (ص ٢٠٣) جوزيف رينو: مرجع سابق، (ص ٢٤٦ - عبدالغني ابو العزم: دراسة تاريخية حول موضوع الدراسات الإسلامية في أوربا، مقال بمجلة المؤرخ العربي سنة ١٩٨١م، ص ٢١٧) وذكر زكريا هاشم أن أول ترجمة للقرآن كانت بإشارة بطرس فيزابلس رئيس دير كلوني وأنها تمت سنة ١١٤٣م وظلت الترجمة مخفية حتى طبعت سنة ١٥٤٣م (انظر فضل الحضارة الإسلامية على العالم، ص ٢٤٦ ح رقم ١).

على المشي إلاّ مستندا إلى شخصين، فعزم على معالجة نفسه فلم يجد أمامه إلا أطباء الأندلس الذائعي الصيت، فبعث إلى الخليفة الناصر يطلب منه أن يوفد إليه طبيبه لمعالجته، ولما وصلت الخليفة رسالته وافق على أن يرسل إليه طبيبه حسداي بن إسحق الطبيب اليهودي بشرط أن يسلّمه بعض القلاع وأن يحضر بنفسه هو وجدته الملكة إلى قرطبة، فوافق سانشو على ذلك وحضر بصحبة جدته فأكرمها الخليفة الناصر وأعان سانشو بجيش على استرداد ملكه كما أسعفه بالعلاج الشافي لحالته[19].

ومن الحقائق المسلم بها أن كثيرا من الأوربيين كانوا يدركون بالمقارنة بينهم وبين المسلمين في الأندلس ذلك البون الشاسع في الحضارة والعلم فكانت الأندلس في نظرهم منبع العلم ومركز الحضارة والتمدن. فهذه الشاعرة الألمانية هروسيثا Horswitha في منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، بدير جاندرز هايم بسكسونيا تنظم أبياتا شعرية تقول فيها: «قرطبة المدينة الشابة هي زينة الدنيا، قرطبة شهيرة بجمالها فخورة بقوتها، قرطبة هي التي حوت كل شيء تزهو به المدن»[20].

وفي عصر ملوك الطوائف كان للصراع العسكري بين المسلمين ونصارى الشمال وحلفائهم من الفرنسيين والإيطاليين والألمان دور مهم في نقل الأفكار والثقافة إلى خارج الأندلس فإن ألوف الأسرى الأوربيين الذين أُطلق سراحهم وخاصة من كان منهم أسيراً في مراكز الحضارة كقرطبة وسرقسطة وطليطلة احتكوا بالحضارة الأندلسية أثناء أسرهم واقتبسوا من نورها ثم حملوا تلك المعارف إلى بلادهم ومواطنهم في أوربا.

ومن الأهمية أن نشير أيضا إلى دور الأسرى المسلمين في نشر الثقافة الإسلامية في أوربا، ومثال ذلك ما نتج عن حادثة بربشتر (٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م) فقد هاجم النورمان بمساعدة قوات إيطالية وفرنسية بقيادة جيوم دي مونتري مدينة بربشتر أحدى مدن الثغر الأعلى شمال شرق سرقسطة.

---

(١٩) ستانلي لينبول : العرب في اسبانيا (ص ٢٢١)، وانظر جوزيف رينو: الفتوحات الإسلامية في فرنسا، (ص ٢٥٢).
(٢٠) زيغريد هونكه: مرجع سابق، (ص ٤٩٩ - ٥٠٠) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، (ص ٧٦).

وكانت هذه الحملة تتسم بطابعها الصليبي فقد باركها البابا اسكندر الثاني. واستطاع النورمان الاستيلاء على المدينة فنهبوها وسبوا الكثير من أهلها رجالا ونساء وأطفالا وكانت هذه الحادثة من أعظم ما حل بالأندلس من المآسي المفجعة[٢١].

فهؤلاء الاسرى الذين ساقهم النورمانديون والايطاليون كانوا يعيشون في ظل حضارة زاهرة وكان الكثير منهم يتمتعون بقدر من العلم والمعرفة فانتقالهم إلى أوربا يعد مكبسا حضاريا عظيما لها. ونحن عندما نقرأ التاريخ بوجه عام نلحظ هذه الظاهرة في تصرفات الكثير من الملوك والزعماء المتغلبين على شعوب اعظم حضارة منهم واكثر معرفة وعلما فيستاقون ضمن ثمار انتصاراتهم الكثير من العلماء وارباب الحرف والصناعات المختلفة ليرفعوا من شأن اوطانهم المتخلفة حضاريا.

وجدير بالذكر أنه منذ سقوط مدينة طليطلة في يد الفونس السادس (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) أخذ التاريخ العلمي للأندلس منعطفا حاسما في تعميق جذور الاهتمام الأوربي بحضارة الأندلس، وتقوية تيار التأثير العلمي لها في أوربا.

ونلاحظ أن الكثير من المسلمين الذين بقوا في طليطلة تحت الحكم المسيحي استمروا في القيام برسالاتهم الحضارية والاشتغال بالعلم فأدّوا دورا كبيرا في تطور العلوم وتوضيح الكثير من المعارف في البلاط المسيحي الذي كان يضم أعدادا مختلفة من الاسبان النصارى وحلفائهم من الفرنسيين والألمان. وخاصة إذا علمنا أن الفونسو السادس استعان بالكثير من الأمراء والقواد الفرنسيين وغيرهم. وهؤلاء بالتالي كانوا ينقلون ما يشاهدونه ويلمسونه من ألوان المعرفة الإسلامية إلى أوطانهم الاصلية، وقد أشار إلى هذا الأمر السنيور فرنانديث جونثالث في مذكراته، وذكر أنه كان يعيش تحت الحكم المسيحي في طليطلة جمهرة كبيرة من العلماء والأدباء والمؤرخين المسلمين،

---

(٢١) انظر ابن بسام : الذخيرة، ق ٣، ج ١، ص ١٧٩ وما بعدها. عباس الجراري : أثر الأندلس على أوربا في مجال الإيقاع والنغم (مقال بمجلة عالم الفكر، ج ١٢، سنة (١٩٨١م، ص ١٥ - ١٦) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٢٧ - ٢٨) زيغريد هونكه: شمس العرب (ص ٥٣٢).

وكانوا يحظون بالرعاية والتقدير[٢٢].

والملاحظ أيضاً أنه عقب استيلاء الفونسو السادس على طليطلة استدعى طائفة من رجال الكنيسة الفرنسية ليتولوا مهام كنيسة طليطلة ومن هؤلاء راهب كلوني L' abaye de cluny الذي أرسل إلى الملك الفونسو مجموعة من الأطر الدينية، وفي نفس الوقت تزوج الفونسو السادس الاميرة كونستانس شقيقة الأمير الشاعر غيوم التاسع الذي تزوج بدوره بنت ملك أراغون راميرو الراهب[٢٣].

ومثل هذه العلاقات الدينية والاجتماعية عمقت الروابط بين اسبانيا وفرنسا على كافة الأصعدة ومختلف الميادين. فإذا أضفنا إلى ذلك وجود ضريح القديس سانت ياقب في الشمال الغربي لاسبانيا، وهو الضريح المقدس لدى النصارى عامة وإليه يحجون على الدوام من أنحاء أوربا[٢٤] كافة لأدركنا أن اسبانيا بوضعها هذا كانت مهوى أفئدة الأوربيين ومن ثم تيسر لهؤلاء أثناء وجودهم في اسبانيا الاطلاع عن كثب على ما نعمت به الأندلس من حضارة عظيمة وتمدن راق وفكر مستنير.

ويشير جوزيف رينو إلى مدى اهتمام الفرنسيين آنذاك بالعلوم العربية في الأندلس وأنه كان هناك طائفة منهم تمكنت من الاغتراف من ينابيع الثقافة والمعارف العربية في الأندلس في الوقت الذي كان فيه الناس في فرنسا وغيرها في ظلام دامس. كما ذكر اتجاه الشعوب الأوربية الأخرى إلى اسبانيا لتلقي العلوم والآداب ونقلها إلى اللغة اللاتينية[٢٥].

وكان هذا التأثير العلمي للأندلس في أوربا يتم عن طريق ترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوربية المختلفة ومنها بل أهمها آنذاك اللاتينية والعبرية.

---

(٢٢) فون شاك : الفن العربي في اسبانيا وصقلية، (ص ٢٣٠ ـ ٢٣١) وانظر مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، (ص ٨٤) زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، (ص ٥٣٢)، سعيد عاشور: حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، (ص ٢٦٧). جلال مظهر: الحضارة الإسلامية (ص ١٤٦).

(٢٣) عباس الجراوي : أثر الأندلس على أوربا في مجال النغم والإيقاع (مقال بمجلة عالم الفكر، ج ١٢، ١٩٨١) (ص ١٥).

(٢٤) زيغريد هونكه : المرجع السابق، ص ٥٣٢ وانظر عن هذا القديس ابن عذاري: البيان المغرب، ج ٢، (ص ٢٩٤).

(٢٥) الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، (ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣) وانظر كريستي آرنولد: تراث الإسلام، (ص ٥٤ ـ ٥٥).

وكانت معظم الكتب تترجم في طليطلة التي أصبحت مركزا علميا هاما يشع ألوان المعرفة إلى جميع أنحاء أوربا. ولم يكن هذا الإشعاع إلا نتاج قرائح علماء المسلمين في الأندلس وغيرها. واستمرت طليطلة على دورها في ترجمة عيون المصنفات العربية في فروع العلم المختلفة. وفي عهد الفونسو السابع تولى أسقفية طليطلة الأسقف رايموند (٥٢٦هـ - ٥٤٧هـ/ ١١٣١م - ١١٥٢م). فقام هذا الأسقف بدور كبير في ازدهار الترجمة ونقل كثيرا من الآثار العربية إلى اللاتينية[٢٦]، وتولى بعنايته طائفة من المترجمين والكُتّاب عرفت في التاريخ بمدرسة المترجمين الطليطليين، وكان كثيرا ما يحفزهم على العمل ويشجعهم على الترجمة ويبذل لهم على ذلك الصلات والعطايا الجزيلة. فتم عن طريق هؤلاء المترجمين ترجمة مقدار ضخم من التراث العلمي الإسلامي في الفلك والطب والكيمياء والطبيعة والمنطق والرياضيات والأدب وغيرها[٢٧].

ومن الطبيعي أن من بين تلك الكتب والمصنفات العلمية التي اهتم بترجمتها ذلك الأسقف، في النصف الأول من القرن السادس الهجري، النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، مصنفات علمية أندلسية - أي مما ألفه علماء الأندلس في تاريخها الطويل وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف في جميع فروع المعرفة المختلفة. ولا ننكر أنه كان هناك ضمن تلك الكتب طائفة من التصانيف العلمية لعلماء المشرق. وحتى في هذه فإن للأندلسيين فضلاً كبيراً في الحفاظ على تراث المشرق ودراسته والعناية به حتى أوصلوه إلى غيرهم من الأمم الأخرى في أوربا، وحق لغوستاف لوبون أن يقول (وعرب الأندلس وحدهم هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاد.. العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان حتى في القسطنطينية ولم يكن في العالم في ذلك الزمن من بلاد يمكن الدرس فيها غير الأندلس

---

(٢٦) انظر سعد البشري، ترجمة الكتب العربية في الطب والرياضيات والفلك في اسبانيا إلى اللاتينية، مقال بمجلة جامعة أم القرى السنة الأولى، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ، (ص ١٠٧) وما بعدها.

(٢٧) آنخل بالنثيا : مرجع سابق، (ص ٥٣٦ - ٥٣٧ - ٥٣٨) جلال مظهر: الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، (ص ١٤٧).

العربية وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعا)[٢٨].

ويمكن الإشارة إلى أشهر مترجمي هذا العصر وهو دومينيك جنديسالفي، وكان من كبار رجال كنيسة طليطلة. ويوحنا بن داود اليهودي الذي تنصر وسكن طليطلة، ويظهر أنه تولى أسقفية طليطلة بعد ريموند. وكان جنديسالفي ويوحنا يعملان في أغلب الأحيان معاً فيقرأ يوحنا النص العربي بالاسبانية الدارجة ويترجمها جنديسالفي إلى اللاتينية، ومن بين ما ترجموه من الكتب كتاب «ينبوع الحياة» للفيلسوف اليهودي ابن جبرول من فلاسفة عصر ملوك الطوائف[٢٩].

وكان ما أنجزه جنديسالفي ويوحنا مثار الدهشة وعاملا كبيرا في اشتهار تلك المدرسة من المترجمين، فهرع إلى طليطلة أفواج من الأوربيين لا يعرفون اللغة العربية فكانوا يستعينون ببعض النصارى المستعربين أو اليهود العارفين بالعربية من أهل طليطلة فيترجمون لهم ما يريدون من كتب في لاتينية ركيكة، ثم يقومون بصياغتها في صورة واضحة[٣٠].

وإلى جانب ما ذكرناه عن مترجمي هذه المدرسة فقد ذاع من بينهم صيت المترجم جيرارد الكريموني. وكان قد قدم طليطلة من إيطاليا (٥٤٥هـ/ ١١٥٠م) ويعد من أوسع المترجمين نشاطا حتى نسب إليه ترجمة ما يقارب مائة كتاب، ويبدو أنه كان يستعين بفريق من المترجمين يعملون عنده ويعاونونه على إنجاز تراجمه. وكان من بين هؤلاء مسيحي مستعرب يسمى

---

(٢٨) حضارة العرب، (ص ٥٦٨).
تجدر الإشارة إلى أنه قامت حركة ترجمة نشطة قبل سقوط طليطلة واضطلاع ريموند بترجمة الكتب العربية. حيث تم ترجمة مجموعة كبيرة من كتب الطب والرياضيات والفلك في المنطقة الشمالية الشرقية من اسبانيا والتي عُرفت بمقاطعة قطالونيا، وقد جمعت هذه الترجمات في دير سيتاماريا في ريبول. ولم يكن دير ريبول وحده المهتم بهذا اللون من النشاط العلمي فقد شاركه عدد من الديارات الرئيسية باوربا وقد أفاد منها على الأرجح الراهب جربرت الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثاني. وكانت هذه الترجمات منطلقا لحركة الترجمة النشطة التي اضطلع بها جيرارد الكريموني وتلاميذه، انظر محمد سويسي: انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب. بحث نشرته المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، (ص ٤ ـ ٥).

(٢٩) آنخل بالنثيا: مرجع سابق، (ص ٥٣٦) وما بعدها ـ مونتجمري وات: فضل الإسلام على الحضارة الغربية، (ص ٨٤).

(٣٠) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٥٣٨). وما بعدها.

Galippus غالب[٣١].

وظل حال الترجمة في طليطلة على هذا الوضع حتى القرن السابع الهجري القرن الثالث عشر الميلادي حيث ظهر الملك الفونسو الحكيم (٦٥٠ - ٦٨٣هـ/ ١٢٥٢ - ١٢٨٤م) الذي قام بجهود جبارة في الترجمة والاقتباس عن العلوم والمعارف العربية إلى اللغتين اللاتينية والقشتالية.

وكان يعمل لديه عدد من العلماء المسلمين والمسيحيين واليهود، وقد أنشأ الفونسو الحكيم معهدا للدراسات اللاتينية العربية (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م) في اشبيلية، كما اتجه اهتمام الفونسو الحكيم إلى تدوين واسع للأحداث العامة تحت نظره، وكان اعتماده في ذلك على مصادر التاريخ العربي ووثائقه، كما ركز جهده على ترجمة المصنفات والآثار العلمية في الفلك[٣٢].

ولم يكد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يؤذن بالزوال حتى انتهى العصر الذهبي للترجمة من العربية إلى اللاتينية، وإن بقيت الترجمة حتى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي قائمة غير أن ما ترجم حتى نهاية القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي يعتبر بحق مفتاح النهضة الحضارية والازدهار العلمي والفكري لاوربا[٣٣].

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن اليهود أدّوا دورا عظيما في نقل العلوم العربية وألوان الفكر والتراث الإسلاميَّيْنِ إلى أوربا. وخاصة ذلك الدور الذي أدّاه فريق منهم في مدرسة الفونسو الحكيم في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[٣٤].

وكان اليهود أثناء الحكم العربي في الأندلس يتمتعون بحرية واسعة وتسامح لا نظير له، فعاشوا حياة آمنة ترتكز على دعائم من العدالة

---

(٣١) محمود الجليلي : تأثير الطب العربي في الطب الأوربي (مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة ١٤٠١هـ ج ٣٢، (ص١٩٧) جلال مظهر: الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، (ص١٤٨). أمين خيرالله: الطب العربي، (ص٢٠٣). محمد سويسي، المرجع السابق، (ص٧).

(٣٢) ليفي بروفنسال : حضارة العرب في الأندلس، (ص٩٦ - ٩٧) مونتجمري وات: فضل الاسلام، (ص ٨٦) كريستي ارنولد: تراث الإسلام، (ص ٦٠ - ٦١).

(٣٣) مونتجمري وات: المرجع السابق، (ص ٨٦). انظر قائمة بأهم الكتب المترجمة في الطب والرياضيات والفلك في مقال للباحث بمجلة جامعة أم القرى العدد الثاني عام ١٤٠٩هـ، (ص ١٢٤) وما بعدها.

(٣٤) ليفي بروفنسال : المرجع السابق، (ص٩٥).

والإنصاف وهو ما شجعهم على الاضطلاع بدور مهم في الحضارة الإسلامية، ومن ثم برز منهم علماء وأدباء بل وزراء كبار في بلاط الخلافة الأموية وفي قصور ملوك الطوائف أيضا، وقد سبقت الإشارة إلى بعضهم عند الحديث عن الفلسفة والعلوم التجريبية كالطب.

ويأتي في مقدمة مترجمي اليهود إبراهام برحيه هانسي المعروف بـ(سافاسوردا) الذي ظهر في بداية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي في مدينة برشلونة. وكان عالما في الرياضيات وقام بمساع كبيرة في ترجمة العديد من المؤلفات العربية إلى اللغة العبرية وبالتالي أدى ذلك إلى سهولة اطلاع الكثير من الأوربيين عليها[٣٥].

كما برز أيضا من مترجمي اليهود يهوذا الجزيري بن شلومون، وإبراهام بن صمويل اللذان نقلا العديد من المصنفات العربية إلى اللاتينية والعبرية في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي[٣٦].

ونأتي الآن لنتبين ملامح التأثير العلمي والأدبي لعصر ملوك الطوائف في أوربا وكيف أن علماء هذا العصر الزاهر أثّروا بنتاج قرائحهم وثمرات أفكارهم في مسيرة التطور الحضاري والرقي العلمي لأوربا. وأول ما يلفت نظرنا في هذا الميدان هو التأثير الواسع للعلوم في النهضة الأوربية، وهو أمر طبيعي، فإن الأوربيين كان يهمهم بالدرجة الأولى بعد يقظتهم من سباتهم الطويل في العصور الوسطى الاتجاه إلى الحضارة المادية الملموسة، والتي ترتكز في حقيقتها على تلك العلوم، ولا يعني ذلك عدم اهتمامهم بفروع العلم الأخرى بل سنرى كيف اتسع إطار تأثرهم بها أيضا.

١ - الطب والصيدلة

نأتي الآن إلى الطب هذا العلم الذي حقق فيه المسلمون إنجازات رائعة

---

(٣٥) مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية، (ص ٥٢ - ٥٣).

(٣٦) عباس الجراري : أثر الإسلام على أوربا في مجال الإيقاع والنغم، (مقال بمجلة عالم الفكر، ج ١٢ ١٩٨١م (ص ١٩). وانظر عن دور اليهود في ترجمة الكتب العربية، سعد البشري: ترجمة الكتب العربية في الطب والرياضيات والفلك إلى اللاتينية في اسبانيا خلال القرنين السادس والسابع الهجريين (بحث بمجلة جامعة أم القرى، السنة الأولى، العدد الثاني، ١٤٠٩هـ (ص ١١٤) وما بعدها.

منذ استقرارهم في الأندلس وحتى نهاية عصر ملوك الطوائف، فأضافوا إلى المعرفة الإنسانية معارف قيمة وجديدة دفعت علم الطب إلى الامام ويسرت له القضاء على آلام البشرية وأوجاعها.

وإذا أردنا أن نتلمس جذور التأثير الطبي للأندلس في أوربا لوجدنا مثلا أن نسخة لاتينية من حكم أبقراط كانت تدرس في مدينة شارتر بفرنسا (٣٨١هـ/ ٩٩١م) وهذا يعني افتراضا وجود تأثير ثقافي عربي مبكر في فرنسا. لأن مثل هذه الترجمة كانت عن أصل عربي، فالغرب اللاتيني كان جاهلا جهلا تاما بالأصول اليونانية لآثار اليونان العلمية(٣٧).

كما أن من الجائز أن يكون بين الكتب التي نقلها جان غورتز اللوريني سنة (٣٤٥هـ/ ٩٥٦م) إلى وطنه ألمانيا. كتبا طبية أو نباتية في الصيدلة وقد سبقت الإشارة في مقدمة الفصل إلى رحلة هذا الرجل إلى اسبانيا.

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب أبي القاسم الزهراوي الطبيب والجرّاح العظيم في عصر الخلافة المسمى «التصريف لمن عجز عن التأليف» قد نال شهرة واسعة في أوربا وأخذ الأوربيون في ترجمته إلى اللاتينية والبروفنسية والعبرية(٣٨).

وكتاب التصريف كان يعد إحدى دعائم الدراسات في مدرسة سالرنو الطبيه الشهيرة، ولا عجب في ذلك فقد كان بما حواه من المعارف الجراحية أساسا لعلم الجراحة الطبية الحديثة(٣٩).

وكان الملوك والأمراء المسيحيون في شمال اسبانيا وفرنسا وغيرها إذا أصاب

---

(٣٧) جلال مظهر : الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث (ص ١٢٩).

(٣٨) ارنولد وآخرون : تراث الإسلام، (ص ٤٧٤). وانظر بالتفصيل عن أهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية: آنخل بالنثيا: مرجع سابق، (ص ٤٦٥) زيغريد هونكه: شمس العرب، (ص ٢٨٨).

(٣٩) زيغريد هونكه : شمس العرب (ص ٢٨٨ ـ ٣٧٤). ومدرسة سالرنو تقع جنوب إيطاليا وكان لها ارتباط وثيق بصقلية وذاعت شهرتها في ميدان الدراسات الطبية واستمرت في تقديم نشاطها في هذا العلم ما يقارب ثلاثة قرون (٩٠٠م ـ ١٢٠٠م) وينسب تأسيسها إلى أربعة علماء يوناني ولاتيني ويهودي وعربي ويدعى هذا (Adala) أي عبدالله وقد تأثرت هذه المدرسة تأثيرا كبيرا بالطب العربي، وكان من بين مترجميها قسطنطين الافريقي (١٠٨٧م) الذي ترجم عددا كبيرا من كتب الطب العربي أغلبها لأطباء موطنه الأصلي تونس وترجم الكتاب الملكي لعلي بن عباس (٩٩٤م) ومن إنتاج هذه المدرسة الطبي الموجز السالرني والنظام الصحي السالرني. وكانت اللغة العربية إحدى اللغات التي يدرس بها الطب في تلك المدرسة (انظر محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الطب الأوربي (مقالة بمجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٣٢، ١٤٠١هـ، ص ١٩٣ وما بعدها) وزيغريد هونكه: المرجع السابق (ص ٢٩٢) مرسي محمد: مرجع سابق، (ص ٤٦).

أحدهم وعكة أو ألم به مرض رمى ببصره إلى الأندلس وسعى إلى استقدام ذائعي الصيت من أطبائها وحكمائها لما يأنسه فيهم من اقتدار في الطب وعلاج الأمراض[٤٠].

وجدير بنا أن نتحدث عن تلك المدرسة الطبية التي أدّت دورا هاما في نقل ألوان التراث الطبي العربي الإسلامي إلى أوربا. وهذه المدرسة هي مدرسة مونبيلييه بجنوب فرنسا، وقد ذاعت شهرتها في دراسة الطب منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وكان يعيش بهذه المدينة التي تنتسب إليها المدرسة طوائف كبيرة من العرب واليهود بالإضافة إلى المسيحيين الذين يجيدون اللغة العربية، وفي ظل شيء من التسامح الديني عاشت تلك الطوائف معا في خدمة العلم وترجمة كتب الطب العربية وتدريسها، وكان لهذه المدرسة في أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي روابط وصلات متينة مع مراكز الطب العربية في جنوبي الأندلس، وهو ما يؤكد عظم المهمة التي تولتها هذه المدرسة في نشر المعارف الطبية العربية في أوربا[٤١].

ولعل أهم ما تميزت به هذه المدرسة الطبية الشهيرة ما ضمته من مخطوطات طبية عربية كثيرة في الوقت الذي لم يكن في مكتبة جامعة باريس سوى تسعة كتب طبية أهمها «الحاوي» للطبيب المشرقي الرازي. ولما أراد الملك استعارته (٧٧٣هـ- ١٣٧١م) لينسخ منه نسخة له ولأسرته الملكية لم يحصل عليه إلاّ بتأمين مبلغ كبير[٤٢].

هذا وقد جانب محمود الجليلي الصواب عندما قال في سياق العبارة السابقة (بينما كان في جامعة قرطبة ما يزيد على مائتي ألف كتاب) وفاته أن قرطبة في ذلك التاريخ كانت قد وقعت تحت السيطرة النصرانية منذ سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦م.

---

(٤٠) بريفالت : أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، (ص ١٧٧).
(٤١) مونتجمري وات : فضل الإسلام على الحضارة الغربية، (ص ٩٢).
(٤٢) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب، (ص٢٤٣) محمود الجليلي: تأثير الطب العربي في الطب الأوربي، مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، ذو الحجة ١٤٠١هـ، ج ٣٢، (ص ١٩٥).

ومدرسة مونبيليه هي التي أمدت بولونيا الإيطالية وجامعتها بدفعات جيدة من ذخائر الطب العربي، ومنحت جامعات باداوا وباريس واكسفورد موادها الدراسية الراقية[٤٣].

ولا يداخلنا الشك في أن كثيرا من الكتب التي ضمتها مكتبة مدرسة مونبيليه من تصانيف علماء الأندلس في الطب والصيدلة، أو مما نقله الأندلسيون عن إخوانهم من المشارقة فصححوا البعض وشرحوا البعض الآخر، وهذا ما جعل الكثير من العلماء والأطباء الأوربيين يحملون في أذهانهم صورة مشرقة للحياة الثقافية التي كانت تتمتع بها الأندلس لدرجة أنهم قد نسبوا كل المؤلفات العلمية والطبية منها بالذات إلى الأندلسيين، ومن ذلك مصنفات الطبيب المشرقي ابن سينا الذي لم تطأ قدماه الأندلس أبدا[٤٤].

وكان لما صنفه بعض أطباء عصر ملوك الطوائف أثر عظيم في ازدهار الدراسات الطبية في أوربا، فمنهم الطبيب والصيدلي عبدالرحمن بن وافد (كان حيًّا ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) والذي عُرف عند الأوربيين بابن ويفيت. Eben Guefith وبأسماء أخرى مشابهة، وكان من أعظم الأطباء والصيادلة الذين أثروا حقل الطب بدراساتهم العلمية القيّمة، فكتابه الشهير عن الأدوية المفردة لقي إقبالا عظيما من أهل عصره ومن بعدهم من مسلمين وأوربيين في القرن السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وترجم إلى اللاتينية والعبرية والقطلانية وأفادوا منه في علم الصيدلة وتركيب الأدوية وصناعة العقاقير[٤٥].

ويذكر ماكس ماير هوف أن كتابات ابن وافد عن الأدوية المفردة طبعت

---

(٤٣) زيغريد هونكه : شمس العرب، (ص ٣٠٥).

(٤٤) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس، (ص ٣٢٦)، نقلا عن خوان بيرنت في كتابه.
Historia de al ciencia espanoal p. 58.

(٤٥) حكمت الأوسي : الوساد لابن وافد (مقال في تلخيص رسالة دكتوراه بمجلة المؤرخ العربي، العدد الثالث عشر، (ص ١٧٦) علي الدفاع : إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، (ص ١٧٩ - ١٨٠) جلال مظهر: حضارة الإسلام، (ص ٣٠٧).

أكثر من خمسين طبعة تحت عنوان العقاقير البسيطة، ونالت شهرة واسعة بترجماتها اللاتينية المتعددة[46]. بل إن مصنفات ابن وافد ظلت تطبع مع غيرها من مصنفات بعض الصيادلة المسلمين حتى سنة ١٨٣٠م تقريبا[47].

ومما تجدر الإشارة إليه ما ذكرناه آنفا في حقل الطب وازدهاره في عصر الطوائف من أن ابن وافد كان ينهج في علاجه لمرضاه قاعدة طبية عظيمة وهي الاعتماد الأكبر على المعالجة الغذائية أولا، فإن لم يتم الشفاء عن طريقها أعتمد على أقل قدر من الأدوية، وهذه القاعدة الطبية هي القاعدة المثلى لكبار الأطباء في هذا العصر الحديث الذي نعيشه.

وهناك كتاب آخر لابن وافد اسمه «الوساد» وهو مخطوط، وقد تحدثنا عن محتوياته الطبية في الفصل الرابع. ويذكر سارتون Sarton أن هذا الكتاب ترجم إلى العبرية من قبل يهوذا بن سليمان ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، ويؤكد هذا الخبر شتاينشنايدر[48].

وإلى جانب ما تقدم فقد قام جيرارد الكريموني في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي بترجمة الكتاب إلى اللغة اللاتينية بمدينة طليطلة[49].

وينسب لابن وافد كتاب أو كتيب عن الحمامات لا يعرف عنه إلا عنوانه باللاتينية وهو (De balneis Sermo)[50].

ولأبي العلا زهر بن عبدالملك (٥٢٥هـ/ ١١٣٠م) مصنفات طبية قيّمة، ومنها كتابه المسمى «التذكرة» الذي يبدو أنه لقي اهتماما في أوروبا في العصور الوسطى، وتبين ذلك من خلال ما قام به المستشرق الفرنسي كولان من

---

(٤٦) أرنولد وآخرون : تراث الإسلام، (ص ٤٧٥).
(٤٧) جلال مظهر: الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، (ص ٨٣).
(٤٨) حكمت الأوسي : المقال السابق، (١٨٠).
(٤٩) سيمون الحايك : عروق الذهب في مناجم العرب، (ص ٣٩٨). وذكر أنه حققه د. كميلو الفارس ونقله إلى الاسبانية.
(٥٠) حكمت الأوسي : المقال السابق، (ص ١٧٦).

دراسته لكتاب «التذكرة»[٥١].

وجدير بالذكر أن جان دوكابو ترجم «التذكرة» من العبرانية إلى اللاتينة ثم تتابعت التراجم عام ١٢٨٠م. وطبع عشر مرات بين ١٤٩٠، و١٥٥٤م إلا أن نسخة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى ١٥٣١م[٥٢].

كما أن هناك رسالة في أمراض الكلى صنفها أبوالعلاء ولا توجد سوى ترجمتها اللاتينية المنشورة علم ١٤٩٧م[٥٣].

وألف الطبيب اليهودي اللامع يونس بن إسحاق بن بكلارش ـ وهو من أطباء بلاط بني هود بسرقسطة ـ كتاب المستعيني وعُرف أيضا «بالمجدولة» في العقاقير والأدوية المفردة مع مقابلات أسماء النباتات بالعربية والفارسية واليونانية والسريانية واللاتينية[٥٤].

ويبدو أن هذا الكتاب ترجم إلى اللاتينية واستفادت منه الدراسات الطبية في غرب أوربا، ويُفهم هذا من الدراسة التي قام بها المستشرق رينو ونشرها في مجلة Hesperis . التي صدرت في باريس سنة ١٩٣١م بعنوان ثلاث دراسات عن الطب في غرب أوربا. 6 (Trois etudes de la Medecine en Occident

وقد اقتبس عن هذا الكتاب ـ أي كتاب المستعيني ـ عدد من الصيادلة العرب بعد عصر ابن بكلارش ولم يشيروا إلى اسم الكتاب[٥٥].

وكان أبوالصلت أمية الداني (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) من أعظم أطباء الأندلس وأوسعهم علما. وقد سبقت الإشارة إلى إسهاماته العلمية في فروع مختلفة من العلوم ومن بينها الطب الذي ألف فيه بعض الكتب القيّمة والتي

---

(٥١) سبقت الإشارة إلى هذا الكتاب عند حديثنا عن الطب، وانظر عبدالرحمن بدوي: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، (ص ٢٤ ـ عبدالعزيز عبدالله: الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب مقال بمجلة الدارة، العدد الثالث، ١٤٠٠هـ، (ص ٥٦).

(٥٢) عبدالعزيز بن عبدالله : المقال السابق، (ص ٥٦).

(٥٣) عبدالعزيز بن عبدالله : المقال السابق، (ص ٥٦).

(٥٤) سيد حسين نصر : العلوم في الإسلام، (ص ١١٣) عبدالرحمن بدوي: المرجع السابق، (ص ٣٤).

(٥٥) سيمون الحايك: عروق الذهب، (ص ٤٠٣).

نقلها الأوربيون إلى لغاتهم للاستفادة منها ككتابه «الأدوية المفردة» الذي ترجمه يهوذا بن سليمان (ناثان) إلى العبرية وفيلاتوفا إلى اللاتينية(٥٦).

٢ - في الفلك والرياضيات

وفي علوم الفلك والرياضيات حقق الأندلسيون نتائج عظيمة وتمكنوا من الوصول إلى إبداعات مختلفة واكتشافات هامة أثروا بها هذا الحقل من الدراسات وأسهموا في تطورها على المستوى العالمي، ولا نريد أن نفصل الحديث عما صنف في هذه العلوم قبيل عصر ملوك الطوائف، ويكفي أن نشير إلى أهمها. فمنها تلك المصنفات الفلكية والرياضية التي صنفها العلامة مسلمة بن أحمد المجريطي ككتابه عن «أزياج قرطبة» و«اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني» وقد نقلها اديلارد الباثي إلى اللاتينية، كما ترجمت له رسالة في الاسطرلاب إلى اللاتينية(٥٧).

وجدير بالذكر أن المعارف العلمية في الرياضيات والفلك التي نقلها جربرت - «البابا سلفستر الثاني» فيما بعد - تُعتبر من أقدم المعلومات الفلكية الرياضية تأثيرا في أوربا، وقد نُسب إلى جربرت أنه أول من تعلم الأرقام العربية في الغرب واستخدمها على الرغم من جهله بالصفر الذي لم يكن قد دخل الأندلس آنذاك، وكان الأندلسيون يضعون نقطة أو نقطتين أو ثلاثا فوق خانات الآحاد والعشرات والمئات وهكذا حتى وفد عليهم من المشرق من عرّفهم بالصفر وأهميته في الحساب(٥٨).

وكان في ريبول بقطلونية مخطوطة تعود للقرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي تحوي رسالتين باللاتينية عن صنع الاسطرلاب، ومن المؤكد أن لها أصولا عربية. كما كان في مدينة لييج حوالى عام ٤١٦هـ/ ١٠٢٥م اسطرلاب. وكتابان عن الاسطرلاب يرجع تاريخهما الى عام (٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م) ويشتملان على معلومات فلكية لعلماء عرب، وقد نسب تصنيف

---

(٥٦) بول غليونجي : موسوعة العلوم الاسلامية، (١٢٤).

(٥٧) بول غليونجي وآخرون : موسوعة العلوم الإسلامية، (ص ١٦٠).

(٥٨) زيغريد هونكه : شمس العرب، (ص ٨١) وما بعدها، وانظر بريفالت: أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، (ص ١٤٥ - ١٤٦).

الكتابين إلى عالم الماني هو هيرمانوس كونتراكتوس ويحوم الشك حول صحة تلك النسبة ومهما يكن فإن ما تضمنه الكتابان من المعارف الفلكية فيها برهان واضح على أن الأندلس كانت المنبع الثرّ الذي تدفقت منه الدراسات الفلكية والرياضية على الغرب[٥٩].

وقد يكون من المدهش أن نذكر أن الأوربيين لم يعرفوا الهندسة إلاّ عن طريق العرب، فقد عثر أحد العلماء الانجليز حوالي سنة ١٩١٠م على مقالتين قديمتين في الهندسة بمكتبة كنيسة وستر، كتب الأولى جربرت الذي أصبح البابا سلفستر الثاني في أواخر القرن العاشر الميلادي، ولم يكن كتاب «اقليدس» في الهندسة معروفا لدى الأوربيين آنذاك، والمقالة الثانية يعود تاريخها إلى بداية القرن الثاني عشر الميلادي وكتبها الراهب ادلارد الباثي Adelard of Bath وكان قد أتقن العربية ودرس في الأندلس، والمقالتان باللغة اللاتينية تم ترجمتها عن نسخة عربية من كتاب اقليدس، وقد ظلت هذه الترجمة تدرس في جميع مدارس اوربا حتى سنة ١٥٨٣م عندما كُشف أصل هندسة اقليدس اليوناني[٦٠].

ولا ريب أن المرحلة التي أعقبت سقوط مدينة طليطلة في أيدي النصارى (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) قد شهدت نشاطا منقطع النظير في الاهتمام بالدراسات الفلكية وترسيخ المعارف الصحيحة حول كروية الأرض[٦١].

وإذا أتينا إلى الحديث عما أسهم به علماء عصر الطوائف من جهود علمية مؤثرة في تقدم الدراسات الفلكية والرياضية في أوربا وجدنا أمامنا إنجازات علمية موفقة. فالعلامة اصبغ بن محمد المهري المعروف بابن السمح (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) كانت له دراسات فلكية رفيعة نالت شهرة واسعة

---

(٥٩) مونتجمري وات : فضلا الإسلام على الحضارة الغربية (ص ٨٢).

(٦٠) قدري طوقان : تراث العرب العلمي (ص ٩٨) (نقلا عن مجلة المقتطف المجلد ٣٨ عدد فبراير ١٩١١ ص ٢٠٢). وكتاب أقليدس هذا يسمى الأركان والأصول، وهو من أبسط الكتب المؤلفة في الهندسة ويقال أن هذا الكتاب أول ما ترجم من كتب اليونان في عهد أبي جعفر المنصور (انظر ابن خلدون: المقدمة ص ٤٨٥ - ٤٨٦).

(٦١) ول ديورانت : قصة الحضارة، ج ١٣ ، (ص ٣٨٦) عبدالغني أبوالعزم: دراسة تاريخية حول موضوع مصادر الدراسات الإسلامية في أوربا. مقال بمجلة المؤرخ العربي، العدد ١٩ سنة ١٩٨١م، (ص ٢١٧).

وعليها وعلى غيرها اعتمد الملك ألفونسو العاشر والعالم في تأليفه لكتابه في الفلك «الأزياج الاذفونشية» وما صنف فيه من الكتب، وقد اعترف الإسبان بذلك وفي مقدمتهم المؤرخ الإسباني آنخل بالنثيا[٦٢].

وتمكن سيديو بعد دراسة رسائل الملك ألفونسو الفلكية من التوصل إلى نتائج حاسمه في تقدم علماء الفلك العرب ـ وفي مقدمتهم ابن السمح ـ في الدراسات الفلكية وأنهم سبقوا كيلر وكوبرنيك في اكتشاف حركات الكواكب السيارة على شكل بيضي، وفي نظرية دوران الأرض، وأن أزياج ألفونسو المذكور نقلها عن العرب ومنهم ابن السمح المذكور[٦٣].

كما أن صديق ابن السمح العلامة أحمد بن عبدالله بن الصفار (٤٢٦هـ/ ١٠٣٤م) كان ضليعا في الفلك وقد لقي كتابه الذي ألفه في العمل بالاسطرلاب قبولا لدى الأوربيين في العصور الوسطى، فترجمة بلاتو ثيبرتينوس في الثلث الأول من القرن الثاني عشر للميلاد إلى اللاتينية. كما أن الكتاب ترجم إلى العبرية ايضا[٦٤].

ولكن العالم الفلكي والرياضي العظيم الذي ترك بصماته واضحة على علوم الفلك في أوربا هو العلامة أبوإسحاق إبراهيم بن يحيى المعروف بابن الزرقالة، وفي الغرب «ارزخال» Arzachel . ومن المؤسف، أنه رغم شهرته العظيمة في الغرب، أننا نفتقد مثيلا لها عند العرب، فهو من جانب هؤلاء مهضوم الحق شبه مجهول فترجمته في كتب الطبقات موجزة، وحتى معاصره صاعد الطليطلي في كتابه طبقات الأمم لم يعطه حقه من التعريف، ولم يمنحه أكثر من سطرين، وقاربه في هذا الحال القفطي في كتابه أخبار

---

(٦٢) تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٤٤٩).

(٦٣) غوستاف لوبون : حضارة العرب (ص ٤٦٢).
وكيلر Kepler (١٥٧١م ـ ١٦٣٠م) أحد علماء الفلك الألمان وضع نظم الكواكب الحائرات. ومنها استخرج إسحق نيوتن مبدأ الجاذبية (زيغريد هونكه: شمس العرب ص ٢٠٠).
وكوبرنيك Copernic (١٤٧٣م ـ ١٥٤٣م) أحد علماء الفلك من بولونيا برهن على دوران الكرة الأرضية على ذاتها وحول الشمس، وينسب إليه أنه مؤسس علم الفلك الحديث وسبقه البيروني إلى القول بدوران الأرض حول ذاتها وحول الشمس بأكثر من خمسة قرون (زيغريد هونكه : شمس العرب، ص ١٩٤).

(٦٤) ميلس بياكروزا : المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب في اسبانيا العربية مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث، ج ١ (ص ١٩٣).

العلماء[٦٥].

غير أن الأوربيين عرفوا قدر ابن الزرقالة وعُلُوَّ مكانته، فقال أحدهم وهو سانشزبيريز أنه يعتبر أعظم أهل الفلك من العرب. وهو من طبقة أكابر علماء هذا الفن في العصور القديمة بسبب طول ممارسته له واستقامة منهجه فيما يبديه من ملاحظات استخرجها من تجاربه المباشرة[٦٦].

ووصف ابن الزرقالة بانه أكبر شخصية علمية عربية تركت تأثيرا في العلوم الأوربية اللاتينية[٦٧].

وفيما يتعلق بآرائه وأفكاره ونظرياته العلمية فقد قام بـ(٤٠٢) رصد ليعين البعد الأقصى للشمس، وتمكن من تعيين مقدار حركة المبادرة السنوية لنقطتي الاعتدالين بخمسين ثانية أي ما يعادل الأزياج الفلكية الحديثة بالضبط[٦٨].

ويعتبر أبوإسحاق ابن الزرقالة أول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية أهليلجية. كما ينسب إليه أنه أول من أثبت أن حركة ميل أوج الشمس هي ١٢٫٠٤ ثانية بالنسبة للنجوم الثوابت، ويقدر الرقم الحقيقي بـ١١٫٠٨ ثانية[٦٩].

وتمكن ابن الزرقالة من تحويل الاسطرلاب من خاص إلى عام بنقله إلى المسقط الأفقي (الاستريوغرافي)، وأتاح بهذا إمكان أن تكون عين الراصد في نقطتي الاعتدالين[٧٠].

---

(٦٥) انظر طبقات الأمم، (ص ١٠٠)، وأخبار العلماء، (ص ٤٢).

(٦٦) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٤٥١) وانظر ما يتضمن هذا المعنى خوليان ريبيرا : التربية الإسلامية، (ص ٨٩ ـ ٩٠؛ ديورانت: قصة الحضارة، ج ١٣، (ص ٣٠٨).
S.M. Imamuddin: Muslim Spain, P. 160.

(٦٧) محمد عيسى : تاريخ التعليم في الأندلس (ص ٣٣٦) نقلا عن Millas, Vallicrasa دراسات عن الزرقالي (ص ١)

(٦٨) غوستاف لوبون : حضارة العرب (ص ٤٦٢).
Scott: History of the Moorish Empire in Europe Vol, III P. 435.

(٦٩) باقر أمين : معجم العلماء العرب ح ١، (ص ١٥١) بول غليونجي وآخرون: موسوعة العلوم الإسلامية، (ص ١٠١) سيد حسين: العلوم في الإسلام (ص ٩٩) عمر فروخ: تاريخ الفكر العربي، (ص ٥٨٩ ـ ٥٩٠).

(٧٠) أرنولد وآخرون : تراث الإسلام، (ص ٥٨٨) ـ ح رقم ٥٩.

ونظرا للمكانة العلمية الكبيرة التي كان يتمتع بها ابن الزرقالة فقد نظر العلماء إلى أزياجه الفلكية بأنها أصح الأزياج في زمانه وأصبحت هذه الأزياج التي يطلق عليها أزياج طليطلة «تستخدم في أنحاء أوربا لقيمتها العلمية وصحة معلوماتها الفلكية[٧١].

وجدير بالذكر أن فلكيا انجليزيا يدعى ويليم أخذ زيج طليطلة لابن الزرقالة والذي عدّله شخص مجهول بما يناسب ظروف مرسيلية، وطبقه معدلا على ظروف لندن. وهذا الزيج الذي عرف بعد ذلك بزيج لندن ظل محتفظا بمكانته وأساسا للحسابات الفلكية هناك[٧٢].

وقد ترجمت مصنفات ابن الزرقالة إلى لغات عديدة. فترجمه جيرارد الكريموني إلى اللاتينية، وذكر كوبر نيكوس عام ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م اسمي ابن الزرقالة والبتاني في كتابه المشهور:

[٧٣] De revolutionibus Orbium Coelestium

ونالت صحيفة ابن الزرقالة اهتمام العديد من علماء الغرب، ومنهم راجيو مونتانوس الذي نشر كتابا عن فوائد تلك الآلة في القرن الخامس عشر الميلادي. وفي عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م كتب العالم الفلكي الألماني يعقوب تسيجلر تعليقا على جهود ابن الزرقالة الفلكية. وفي ٩٤١هـ/ ١٥٣٤م ظهرت ترجمة جديدة لاتينية تحت عنوان «في علم آلة أبي العلوم الفلكية» (Arlyskh Arzachel) ليوحنا شونر بمدينة نورنبرغ بألمانيا[٧٤].

كما ترجمت دراسات ابن الزرقالة عن تلك الصفيحة إلى اللاتينية بواسطة أحد اليهود من مدينة مونبيلييه ونقلها الملك ألفونسو الحكيم إلى الاسبانية مرتين. [٧٥]

---

(٧١) ول ديورانت : قصة الحضارة، ج ١٣، (ص ٣١٨) ـ محمد الصادق عفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، (ص ١٢٩).

(٧٢) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم، (ص ٨١).

(٧٣) زيغريد هونكه : مرجع سابق، (ص ١٥٢)، وانظر فؤاد سزكين: المرجع السابق (ص ٨٠) وما بعدها ـ روم لاندو: الإسلام والعرب، (ص ٢٥٣).

(٧٤) زيغريد هونكه : مرجع سابق، (ص ١٥٢).

(٧٥) ارنولد وآخرون : تراث الإسلام، (ص ٥٨٨).

وكان هذا الملك الآنف الذكر في القرن الثالث عشر الميلادي من أعظم المهتمين بدراسات ابن الزرقالة الفلكية وترجمتها، وقد أفاد من هذه الدراسات فائدة عظيمة فيما سعى إليه من تصنيف وجمع ما كُتب عن الفلك، وما قدم فيه من دراسات عن علماء العرب. وقد ثبت أن كثيرا من الكتب التي استخدمت في هذا الغرض كانت نقولا عن ابن الزرقالة وعلي بن خلف الطليطلي، ومسلمة المجريطي وغيرهم(٧٦).

وعلي بن خلف المذكور لا نعلم عن حياته شيئا كثيرا سوى أنه كان من علماء الفلك في بلاط المأمون ملك طليطلة(٧٧). ويبدو أنه كان من البارعين في الفلك وعلومه، يدل على ذلك تلك النقول والاقتباسات التي نقلها ألفونسو العالم عنه في مشروعه العلمي عن الفلك.

وكان لابن الزرقالة معرفة جيدة بالرياضيات، وإسهام رائع في تطويرها، حيث ذكر أن له معرفة واسعة بحساب المثلثات وخاصة المثلث الكروي، بل إن جيب الزاوية واستعماله كان معروفا في كتابات ابن الزرقالة وهو ما أكده علماء الرياضيات. وصنف ابن الزرقالة في الرياضيات جداولَ في حساب المثلثات ترجمها الغرب إلى اللاتينية(٧٨).

٣ ـ علم الحيل (الميكانيكا)

وفي ميدان الحيل أو ما يسمى بعلم «الميكانيكا»: قدّم الأندلسيون إسهامات جيدة، فقد تلقى الأوربيون عن أهل الاندلس معارفهم عن علم الهيدروليك. وكان لهم شرف الأستاذية لأوربا في هذا العلم، وهو ماساعد الأوربيين في بناء القواعد الأساسية لعلم الهيدروليك وميكانيكا الموائع إبان النهضة العلمية الحديثة(٧٩).

ويمكن الإشارة إلى ما أنجزه أحد علماء الأندلس في عصر الطوائف حيث

(٧٦) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٥٧٥ ـ ٥٧٦).
(٧٧) انظر بول غليونجي : موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، (ص ٨٥).
(٧٨) علي الدفاع : الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، (ص ٢١٠).
(٧٩) جميل ملائكة : عناية العرب بالهيدروليك في العصور الإسلامية (مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي، ج ٣١. صفر سنة ١٤٠٠هـ (ص ٤٣).

توصل لاختراع آلة لسحب الماء من الآبار ؛ وهو ما يدل على أن للأندلسيين إسهامات فعاله في تقدم علم الميكانيكا. إلى جانب ما سوف نذكره عن غيره من علماء الميكانيكا في عصر الطوائف.

وما من شك أن معارف الأندلسيين في الميكانيكا (علم الحيل) قد اقتبسها عنهم الغربيون إمّا بالاحتكاك المباشر كالتلمذة أو المشاهدة والمعاينة للأجهزة والآلات الميكانيكية التي توصل إليها الأندلسيون وطبّقوها في حياتهم العلمية، وإما بواسطة ترجمة مصنفاتهم في هذا العلم ومن ثم التعرف على أعمالهم العلمية.

ومن الحق أن نقول، بعد أن ثبت ذلك بالتأثير العلمي والأدبي الذي تحقق بفعالية شديدة في تطور العلوم والمعارف في أوربا، إنّ علماء الميكانيكا (التقنيين) من الأوربيين كانوا يقبلون على تقبل الأفكار الجديدة مثلهم في ذلك مثل غيرهم من المهتمين بالحركة العلمية في الأندلس[٨٠].

ومن أشهر المنجزات العلمية التقنية في عصر الطوائف ما اخترعه العلامة الفلكي الرياضي المشهور ابن الزرقالة. فقد ابتكر بنفسه أجهزة فلكية مشهورة استخدمها في دراساته وأرصاده الفلكية. كما أنه كان بارعا في صنع الساعات الدقاقة التي أُعجب بها الناس في طليطلة ودهشوا لحركاتها الهندسية البديعة[٨١].

ويذكر المؤرخ سكوت Scott أن الأندلسيين، وفي مقدمتهم ابن الزرقالة صنعوا ساعات مائية تعمل بواسطة الماء والرمل والكرات الحديدية[٨٢]

ولعل ما يؤكد انتقال مثل هذه المنجزات الميكانيكية إلى أوربا أنها صنعت في مدينة طليطلة التي أضحت مصدر إشعاع علمي لأوربا سواء في عهدها الإسلامي لقربها من الممالك النصرانية في الشمال أو بعد سقوطها في أيدي

---

(٨٠) دونالد هيل : التقنية الآلية عند العرب (مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي صفر ١٤٠٠/ ١٩٨٠ج ٣١. (ص ٢٤٩).

(٨١) غوستاف لوبون : حضارة العرب (ص ٤٦٢).

(٨٢) History of the Moorish Empire in Europe Vol, p. 436

النصارى الاسبان الذين تم في عهدهم تقاطر أفواج الأوربيين لدراسة الحضارة الإسلامية الأندلسية والاقتباس عن علومها ومعارفها.

كما تجدر الإشارة إلى ابتكار ابن الزرقالة لحوضي النافورتين اللتين كانتا في بيت مجوف داخل نهر طليطلة. وكان الحوضان يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه. وقد سبق الحديث عنهما بالتفصيل في الفصل الرابع.

وكان ألفونسو السابع قد اطّلع على هذا الاختراع العجيب فدهش لرؤيته فأراد المنجم اليهودي حنين بن ربوة أن يحظى بإعجاب الملك فعرض عليه أن يقلعهما ويعيدهما بطريقة أكثر براعة ومهارة بان يمتلئ الحوضان بالنهار ويحسران الماء ليلا فقلعهما فبطلا ولم يستطع أن يفعل شيئا مما ادعاه، وقيل إنه سرق أحد الحوضين ليدرسه ويطّلع على سر حركته فتسبب في عطله[83].

وهكذا نرى أن ألفونس السابع وحكام طليطلة من المسيحيين كانوا يسعون للتعرف دائما وأبدا على المنجزات العلمية للمسلمين الذين زال سلطانهم عن تلك المدينة ويجتهدون في اقتباس ما توصل إليه علماء الأندلس من اختراعات وابتكارات. ويعلق الطاهر أحمد مكي على هذا الابتكار العجيب ويشير إلى انه بالرغم من أن بعض التفاصيل في رواية المقري عن الحوضين[84] تفوح منها رائحة الأسطورة، ولكن هذه القضية في غاية الأهمية لدارسي علم الهندسة والرياضيات عند المسلمين الأوائل بعامة والأندلسيين بخاصة[85].

٤ - في صناعة الورق

قد سبق الحديث عن هذا الجانب عند تعرضنا للكتب والمكتبات في عصر الطوائف، ولكن نظراً لأهمية هذه الصناعة وأثرها الفعال في النهضة العلمية الأوربية فسوف نشير إليها ولو على سبيل الاقتضاب والإيجاز. فقد كان في شاطبة مصانع كبيرة للورق في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي،

---

(٨٣) المقري : النفح، ج ١، (ص ٢٠٧).
(٨٤) انظر النفح، ج ١، (ص ٢٠٦ - ٢٠٧).
(٨٥) فون شاك : الفن العربي في اسبانيا وصقلية، (ص ٨٤) ح رقم ١.

ولكن ما لبثت مدينة طليطلة أن فاقتها في هذه الصناعة الحضارية الكبيره فأصبحت مركز صناعة الورق في القرن التالي، ولا يزال بين أيدينا وثائق تثبت هذا القول وترجع إلى القرن الخامس الهجري. هذا ولم يعرف الأوربيون الورق إلّا في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي عندما استوردوه من الأندلس حيث بدأ يصنع في فرنسا بعد ذلك[٨٦].

ولا ريب أن ذلك الإنجاز الحضاري الذي اقتبسه الأوربيون عن الأندلس كفل لهم سهولة انتشار الكتب وتعميم الثقافة بين شعوبهم بعد أن كان انتشار المعرفة الإنسانية قبل ذلك في أوربا يكاد يقتصر على رجال الدين وعلى قلة من المثقفين، وهذا في حد ذاته فضل عظيم لا يبارى للأندلس على أوربا.

وما دام حديثنا عن الورق وما نتج عنه من ثورة واسعة في عالم الفكر والثقافة فيسرنا أن نشير إلى أن الأندلسيين استطاعوا أن يتوصلوا إلى طريقة برايل في تعليم العميان قبل أن يظهر برايل بما يقارب ألف سنة، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الاختراع العلمي المهم عند حديثنا عن التعليم.

٥ ـ في الزراعة

لسنا في حاجة إلى القول أن للأندلسيين جهودا تذكر فتشكر في حقل الزراعة الأوربية. وسوف نتلمس تلك التأثيرات العلمية في هذا الميدان كبرهان ساطع على ما ذهبنا إليه. وأول ما نعثر عليه في هذا الصدد ما ذكره جوزيف رينو من أن القمح الأسود المسمى «قمح السارازين» والذي كان في القرن التاسع الميلادي يعد أهم المنتوجات الزراعية في فرنسا نقله العرب من المشرق وسار معهم في فتوحاتهم حتى أدخلوه الأندلس ومن ثم إلى جنوب فرنسا[٨٧].

---

(٨٦) عبدالرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، (ص ٣٨، وانظر جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوربية، (ص ١٨٢) وكتابه الآخر حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، (ص ٣٨٥)، وكذلك سعيد عاشور: حضارة ومعظم أوربا، (ص ٣١٥ ـ ٣١٦).

(٨٧) الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، (ص ٢٥٥) وانظر روم لاندو: الإسلام والغرب، (ص ٢٧٨).

ومما تجدر الإشارة إليه أن أساليب العرب الأندلسيين في الري ما زالت ماثلة في الحياة الزراعية في اسبانيا إلى يومنا هذا. واستمر الاسبان في نهج طرائق العرب الأندلسيين في الحراثة والري وخاصة في شرق اسبانيا. وحتى المصطلحات العربية في الزراعة مازالت مغروسة في قلب الريف وضواحي المدن، وكذلك هي شائعة في مقاييس وموازين كل حقل[٨٨]

ومن أهم الكتب المصنفة في الزراعة والتي نقلها الأوربيون كتاب الطبيب الصيدلي القدير ابن وافد الطليطلي الذي صنفه في الفلاحة ولقي شهرة واسعة في الغرب. فقد اعتمد عليه الفونسو هيريرا سنة ١٥١٣م، وكان أساسا لكتابه عن «الزراعة العامة» وقد ترجم إلى اللغة القطلانية[٨٩].

ولا ننسى الإشارة إلى أن الكتب الزراعية المصنفة في عصر ملوك الطوائف مثل كتاب «المقنع» لابن حجاج الإشبيلي، وما كتبه ابن بصال في الفلاحة وكذلك ما ألفه الطغنري في الفلاحة أيضاقد نالت اهتمام الأوربيين، وذلك أن مثل هذه الكتب ضمت أعظم التجارب والخبرات الزراعية لأهل الأندلس. وعلى هذه الكتب وغيرها اعتمد ابن العوام في تأليفه لكتابه الفلاحة الذي ترجم في القرن التاسع عشر الميلادي[٩٠].

ولعل من خير الشواهد على فضل الأندلسيين على أوربا وفرنسا بالذات، ما تزدان به الآن منطقة الريفيرا في جنوب فرنسا من اعداد كبيرة من النخيل السامق النضر الذي خلّفه العرب شاهدا على تحضرهم وتمدنهم هناك[٩١].

ومن المثير حقا أن بعض المؤرخين يندبون الحظ العاثر الذي أصاب الاندلس بعد خروج العرب منها، وأنّ تلك المناطق الخضراء النضرة في

---

(٨٨) ليفي بروفنسال : حضارة العرب، (ص ٨٢-٨٣).

(٨٩) سيد حسين : العلوم في الإسلام، (ص ١٩٣).

(٩٠) سيد حسين : المرجع السابق، (ص ١٩٣).
وقد سبقت الإشارة إلى أن كتاب المقنع لابن حجاج قد نشر وحقق عند الحديث عن الزراعة وإسهام أهل الأندلس في تطويرها، كما أن مياس بياكروزا عقد عليه دراسة في مجلة الأندلس. الجزء العشرون، ١٩٥٧. (ص ٨٧-١٠١) كما أن كتاب الفلاحة لابن بصال حظي بالاهتمام فحققه وترجمه وعلق عليه مياس بياكروزا ومحمد عزيمان بتطوان، سنة ١٩٥٥م.

(٩١) عزالدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية (ص ٦٦).

عهدهم أصبحت، ماعدا بعض الأجزاء الجنوبية، أقرب إلى الجدب والقحط والجفاف بعد أن كانت جنة واسعة بفضل أساليب العرب الزراعية الراقية(٩٢).

وأخيراً فإن في تلك الأعداد الكبيرة من الألفاظ العربية المتعلقة بالزراعة وبالذات في الفواكه والورود والأزهار الشائعة والمستعملة في اللغة الاسبانية والفرنسية أكبر برهان على تأثير الأندلسيين في العلوم الزراعية في اسبانيا وفرنسا ومن تلك الألفاظ ما يأتي: البرقوق abricot الياسمين Jasmin القطن Coton الزيتون aceituna

وعن طريق اسبانيا أيضاً انتقلت بعض أسماء الألوان إلى فرنسا مثل أزرق azur قرمزي Garmaisie أصهبي alèzan (٩٣)

٦ ـ الأدب واللغــة

الحق أن هذه المعارف أثرت في أوربا تأثيرا واسعا. . ولو عمد الباحث ـ على افتراض معرفته بدقائق وتفاصيل الأدب واللغة العربية ـ إلى التفصيل فيما خلّفته هذه العلوم في أوربا لخرج عما أوكل إليه ولاحتاج إلى وقت ليس من السهـولـة واليسر بمكان، ولكننا سوف نشير إلى ذلك التأثير ونكتفي بلمحات تدل على صحته وحقيقته، فالعرب قد عاشوا في الأندلس ما يربو على ثمانية قرون وكذلك ما يقارب قرنا من الزمان في جنوب فرنسا وأجزاء من إيطاليا وسويسرا في دولتهم المعروفة بدولة «القلال».

وبعد هذا أفلا يكون للغتهم ولغة ديانتهم أثر واضح في تلك البقاع؟

بل إن أقدم ظواهر تأثيـر اللغـة العربية وآدابها في الأوربيين تلك الصرخة التي أطلقها الفارو القرطبي في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي والتي انتقـد فيهـا أبناء جلدته من النصارى الذين شغلوا أنفسهم بتعلم اللغة العربية، والسعي في دراسة آدابها وأشعارها وجمع ما صُنف فيها من الكتب،

(٩٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب، (ص ٢٧٤) ليثبول: العرب في الأندلس، (ص ٢٢٦) عزالدين فراج: مرجع سابق، (ص ١٥٤) جلال مظهر: مآثر العرب، (ص ١٧٣).

(٩٣) بروفنسال : حضارة العرب، (ص ٨٣٠) وانظر عبدالرحمن بدوي: مرجع سابق، (ص ٤٠) جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوربية (ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ـ ١٢٦).

في الوقت الذي تناسوا فيه الأدب اللاتيني أدب اسلافهم[٩٤].

وفي فرنسا نجد من أقدم الاشخاص الذين تعلموا اللغة العربية رئيس دير سانت جال ويدعى هارتموت Hartmote فقد درسها سنة ٨٨٠م إلى جانب العبرية واليونانية[٩٥].

ومن عوامل انتقال اللغة العربية إلى أوربا تلك العلاقات التي جاءت نتيجة للصراع الحربي بين المسلمين في الأندلس والنصارى في شمالها والذين كانت تساندهم فرق من الفرنسيين والإيطاليين. فكان الأسرى الذي يقعون في أيدي المسلمين يمكثون في الأسر أوقاتاً متفاوته ويتعرضون خلال إقامتهم في الأسر لتأثيرات حضارية وثقافية، ومنها بطبيعة الحال الجانب اللغوي.. كما أن طوائف الأسرى من المسلمين الذين كانوا يساقون إلى الممالك النصرانية في الشمال أو فرنسا أو إيطاليا قاموا بدور كبير في نقل ثقافتهم ولغتهم إلى تلك الأصقاع وقد سبقت الإشارة إلى حادثة بربشتر وإلى وقوع كثير من المسلمين في الأسر بأيدي النورمان والفرنسيين وغيرهم ونقلهم إلى أوطانهم.

ويؤكد هذا الأمر جوزيف رينو الذي ذكر أنه كان يوجد بفرنسا عند دخول العرب إليها عدد كبير من الأشخاص الذي يتحدثون اللغة العربية، وهو أمر عائد إلى أن المسلمين في الأندلس كانوا يأخذون الرهائن من أبناء الأسر الكبيرة ذات النفوذ الواسع لضمان طاعتها لهم كلما أكملوا فتح مدينة من المدن ثم يرسلون هؤلاء الرهائن إلى العاصمة الأندلسية حيث يظلون بها وقتا طويلا يحتم عليهم تعلم اللغة العربية[٩٦].

وفي سيرة السيد القمبيطور ـ ذلك القائد العسكري النصراني الذي كان يؤجر نفسه للمسلمين والنصارى في الشمال إبان عصر الطوائف للقيام بالعمليات العسكرية والغزو لحساب الطرفين ـ نلاحظ من ضمن صفاته

---

(٩٤) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٤٨٥) وما بعدها ـ بريفالت: أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الانسانية، (ص ١٤٤ـ ١٤٥) ـ سعيد عاشور: حضارة ونظم أوربا، (ص ٢٢٦).

(٩٥) جوزيف رينو : الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا (ص ٢٤٦).

(٩٦) الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، (ص ٢٤٦).

اهتمامه البالغ وشغفه باللغة العربية وتعلقه أيضاً بسير العرب ووقائعهم، قال ابن بسام (وكان ـ زعموا تُدرس بين يديه الكتب وتُقرأ عليه سير العرب فإذا انتهى إلى أخبار المهلب استخفه الطرب، وطفق يعجب منها ويتعجب)[٩٧].

وجدير بالذكر أن اللغة العربية أثرت تأثيراً عميقاً في اللغات اللاتينية وقد، ألف دوزي وانجلمن معجما من الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من اللغة العربية، كما أن هذا التأثير كان واضحا في فرنسا، واللهجات السائدة لولاية اوفرن وولاية ليموزان الفرنسيتين محشوة بالكلمات العربية، وأسماء الأعلام فيهما يظهر عليها سمة عربية[٩٨].

ونجد أيضا أن الفرنسيين والطليان قد اقتبسوا الكثير من المفردات العربية في شتى نواحي الحياة وفي الشؤون الادارية والبحرية والعلمية والاجتماعية[٩٩].

ومن أهم المؤثرات الأدبية للأندلس في أوربا ما صنفه العلامة ابن حزم الظاهري وهو كتاب «طوق الحمامة»، وهذا الكتاب الذي حلل فيه ابن حزم الحب وفصل القول في مسبباته وعلاماته وصفات المحبين وما يعرض لهم من الأحوال، وفيه سعى ودعا إلى السمو بالحب وتطهيره من الأرجاس وأهمية الالتزام بالعفة والنزاهة في كافة الأحوال.

وأثرت كتابات ابن حزم هذه في شد الأنظار إلى هذا الفن الجديد من الكتابة فصنف اندريه لوشا بلان في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي كتابه «فن الحب العف» وفيه جوانب كثيرة تدل على مدى ما اقتبسه الأوربيون عن الأدب الأندلسي ومدى تأثرهم باخلاق الأندلسيين وخاصة ما يتصل منها بمعاني النبل والفروسية والشمم[١٠٠].

هذا وقد طبع كتاب ابن حزم في أوربا بعناية الاستاذ بتروف سنة ١٩١٤م

---

(٩٧) الذخيرة، ق ٣، ج ١، (ص ١٠٠).

(٩٨) غوستاف لوبون : حضارة العرب، (ص٢٤١).

(٩٩) انظر لتوضيح هذا الأمر غوستاف لوبون: المرجع السابق (ص ٤٤١). جلال مظهر: مآثر العرب على الحضارة الأوربية، (ص ١٦) وما بعدها ـ ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، (ص ٨١ ـ ٨٢).

(١٠٠) محمد رجب بيومي: الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ١٥٥) وانظر روم لاندو: الإسلام والعرب، (ص ٢٢٨).

وأحدث ضجة في الأوساط الأدبية. وتناولته المجلات والصحف بالنقد والتحليل، وهذا الكتاب لم يُسبق إلى مثله، فأوربا في العصور الوسطى كانت معارفها المتعلقة بالشؤون الوجدانية والعاطفية نزرة ضئيلة، فكان هذا الكتاب أي طوق الحمامة شيئا مستطرفاً لديهم محببا إلى نفوسهم[١٠١].

وفي الشعر: أثر الأندلسيون تأثيرا عميقا في كثير من ألوان الشعر الأوربي خاصة ما يتعلق منه بالطرب والغناء، فالموشحات والأزجال التي درسناها سابقا ضمن الشعر كان لها تأثيرها الواضح في تكوين القوالب التي صُبت فيها الطُّرُز الشعرية التي ذاعت في أوربا. وهو ما أكده خوليان ريبيرا وأيده بالبراهين بعد دراسته لموسيقى (الكنتيجات) Las cantigas وهي أغان اسبانية، ودواوين (التروبادور) المغنين الجوالين و(التروفير) و(المينيزنجر) مغني الأغاني القصيرة. كما أثبت انتقال بحور الشعر الأندلسي إلى جانب الموسيقى العربية إلى أوربا عن نفس الطريق الذي سلكته العلوم العربية والإسلامية إلى أوربا[١٠٢].

وجدير بالذكر أن خوليان ريبيرا اهتدى إلى الصلة الواضحة بين شعر التروبادور والموشحات فوجد هذه الصلة في الشكل الخارجي. فقد كان شعر التروبادور يكتسي مظهر الموشحات والأزجال، فمتوسط المقطوعات لديهم سبع وهو ما نلمسه على الأغلب في الموشحات والأزجال، ولكل مقطوعة ما نجده في الموشحة من الأقفال والأغصان والقوافي. وكذلك نظام الخرجة نجده في أشعار التروبادور كما هو في الموشحة والزجل. وتمثلت هذه الصلة أيضا في المضمون، فأخيلة الشعر العربي في الموشحات والأزجال نجد صداها في غزل التروبادور فالعاذل والرقيب والواشي والحب من أول نظرة، وحلاوة الوصل، ومرارة الهجر وذهول العاشق ومعاناته وسهره، وعواطف لم تكن

---

(١٠١) محمد رجب بيومي : نفس المرجع، (ص ١٥٦).

(١٠٢) آنخل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٦١٣ ـ ٦١٤) وانظر فيها على ذلك التأثير الأدبي الأندلسي في فرنسا وانجلترا وإيطاليا وألمانيا وغيرها، وانظر أيضا في هذا الموضوع عباس الجراوي: أثر الأندلس في أوربا في مجال النغم والإيقاع (مقال بمجلة عالم الفكر، ج ١٢، العدد الأول، ١٩٨١م (ص ١١) وما بعدها ـ أنور الرفاعي: الإنسان العربي والحضارة (ص ٣٨٠ ـ ٣٨١).

شائعة في غزل اللاتين، وكلها إنما ظهرت بوضوح في أشعار أولئك المغنين المتجولين. كما أن تلك الصلة نجدها في الثابت من وقائع التاريخ للأشخاص، فجيوم التاسع دوق أكيتانيا يعتبر أقدم من نعرفه من شعراء التروبادور، وكانت له صلة راسخة بالأدب العربي، ويُذكر أنه ارتحل إلى المشرق للمشاركة في الحروب الصليبية (٤٩٥هـ/ ١١٠١م) وأقام بالشام فترة واكتسب خلالها معرفة جيدة باللغة العربية، وعُرف عنه قرضه للشعر بالعربية لدى مخاطبته سيدتين في الشام. وما لبث أن عاد إلى وطنه ثم سافر إلى اسبانيا أكثر من مرة ووقع تحت تأثير الأدب والشعر الأندلسي فنظم بعد ذلك الموشحات والأزجال[١٠٣].

٧ - في الفلسفة

أحرز علماء الأندلس نتائج هامة في كل فروع المعرفة ومن بينها الفلسفة. ولسنا في حاجه للتفصيل وإعادة ما كتبناه سابقا في الفلسفة، ولكن نحب في هذا الصدد أن نشير إلى ما قام به ابن حزم المفكر الإسلامي الكبير الذي يدين له الغرب بتوصله إلى الكشف عن نظرية المعرفة والتي ادّعى مؤرخو الفلسفة الأوربية أنهم قد كشفوا غموضها بواسطة فيلسوفهم الألماني كانط Kant (ت ١٨٠٤م) ولم يَدرُ بأذهانهم أن ابن حزم قد سبقهم إلى هذا الكشف العلمي بسبعة قرون[١٠٤].

وهذا ابن السيد البطليوسي أثَّر بكتابه المسمى «الحدائق» في الفكر الديني الفلسفي في أوربا، وقد سعى فيه إلى حل كثير من المسائل الفلسفية التي شغلت الفكر الإسلامي والتي استمدت جذورها من الفلسفة اليونانية دون ان يصطدم بالفكر الإسلامي. والكتاب نشره آسين بلاثيوس وتُرجم إلى

(١٠٣) انظر : محمد رجب بيومي : الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير (ص ١١٥) وما بعدها ـ رامون منندث بيدال: اسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام. مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ١، ١٩٥٣، (ص ٦) وما بعدها.

(١٠٤) انظر تفصيل الحديث عن هذه النظرية في علم الفلسفة ق ٢ الفصل الثالث.

الاسبانية سنة (١٩٤٠م)[١٠٥].

ولأبي الصلت أمية الداني إسهام في الفلسفة فقد صنف فيها كتابا أسماه «تقويم الذهن» وهو عبارة عن رسالة في المنطق، اختصر فيها آراء ارسطو في دقة وأمانة، وقام على نشره آنخل جنثالث بالنثيا، وترجم إلى الإسبانية سنة ١٩١٥م بمدريد[١٠٦].

وكان لليهود دور هام في نشاط العلوم كافة. وخاصة ما يتعلق بعلوم الأوائل، ففي الفلسفة نبغ سليمان بن يحيى بن جبرول (ت قريبا من ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) ويعرف لدى الأوربيين باسم افيسبرون، وذاع صيته بكتابه «ينبوع الحياة» الذي ترجمه افنديث بن داود، ودمنجو جنديسالفي من العربية إلى اللاتينية في النصف الأول من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وكان لهذا الكتاب تأثير فعال في الأوساط الدينية والفلسفية، وأحدث انشقاقا بين الكثير من المدارس الفلسفية بين مؤيد لأفكار ابن جبرول ومحارب لها[١٠٧].

٨ - في الجغرافيا

هناك أيضا ملامح من التأثير العلمي الجغرافي للأندلسيين في أوربا، ومن أقدم الأمثلة على ذلك أن كتابات المؤرخ الجغرافي أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤هـ - ٣٤٤هـ/ ٨٨٧م - ٩٥٥م) في وصف الأندلس دفعت الإسبان بعد خروج المسلمين عن الأندلس إلى الاعتماد عليها حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في حل الكثير من مشكلات التنظيم الإداري التي اعترضتهم بعد سيطرتهم على المناطق الإسلامية[١٠٨].

وكان الملك البرتغالي دنيس (١٢٧٩م - ١٣٥٥م) قد أمر بترجمة كتابات الرازي في وصف الأندلس إلى البرتغالية، ثم اتى كايا نكوس عام ١٨٥٢م

---

(١٠٥) آنخل بالنثيا : مرجع سابق، (ص ٣٣٤).
(١٠٦) تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣٣٤).
(١٠٧) ارنولد وآخرون : تراث الإسلام (ص ٣٨٥ - ٣٨٦).
(١٠٨) حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس (مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد) العدد الثالث ج ٧ - ٨ (ص ٢٥٥ - ٢٥٦).

فترجمها إلى اللغة القشتالية، ثم ترجمها إلى الفرنسية ج. س. كولان[١٠٩].

وفيما تقدم دلالة واضحه على عظم تلك الدراسات الجغرافية التي قدمها الرازي والتي نالت عناية الباحثين ورجال السياسة والإدارة في الحكومتين الإسبانية والبرتغالية.

واهتم الأوربيون بالدراسات الجغرافية التي كتبها أبوعبيد البكري، فالبارون دي سلان حقق نشر من كتاب المسالك والممالك الجزء المتعلق بشمال افريقيا سنة ١٨٥٧م بمدينة الجزائر، ثم أعيد طبعه سنة ١٩١١م وترجم إلى الفرنسية وطبع سنة ١٩١٣م[١١٠].

ويشير غوستاف لوبون إلى أن الترجمة الفرنسية طبعت بباريس سنة ١٨٥٩م[١١١] ونحن نشك في هذا الاهتمام العلمي من قبل دي سلان بهذا الجزء من كتاب البكري عن شمال افريقيا، فما من شك في أن ذلك كان لرغبة الاستعمار الفرنسي آنذاك في معرفة مسالك البلاد وطرقها المختلفة.

وما يرمي إليه من الاطلاع على تضاريس البلاد ومواقعها الاستراتيجية. وطالما استغلت مثل هذه الدراسات عن البلدان في تحقيق مطامع الطامعين والراغبين في السيطرة وابتزاز حقوق الشعوب الأخرى.

كما نُشرت القطعة المتعلقة ببلاد الروس والصقالبة مع ترجمة روسية بتحقيق كورنيك والبارون فون روزن في بطرسبرج سنة ١٨٧٧م مستندين في ذلك إلى المخطوطة المحفوظة بمكتبة نور عثمانية بالاستانة والتي عثر عليها شيفر سنة ١٨٧٥م[١١٢].

وأبوعبيد البكري توصل إلى إشارات جغرافية مهمة، منها ما ذكر من أن المحيط الأطلسي لا يعلم ما وراءه غربا إلى أقصى عمران الصين شرقا، أنّ الشمس إذا غابت في أقصى الصين طلعت في الجزائر الخالدات (جزر

---

(١٠٩) ج. س. كولان: الأندلس، الكتاب رقم ٢ من كتب دائرة المعارف الإسلامية. ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، (ص ٣١).

(١١٠) آنخل بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، (ص ٣١٠).

(١١١) حضارة العرب في الأندلس، (ص ٦٣٣).

(١١٢) عبدالله الغنيم: مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، (ص ٥٧).

الكناري) وهي الفكرة التي تلقاها كولمبوس ووعاها فادخلته التاريخ وخلّدت اسمه كمكتشف لأمريكا ومن المثير أن يكون البكري من أبناء ولبه[113] على مسافة قريبة من الرابطة التي لجأ كولمبوس إليها مستشفعاً بأحبارها لتسهيل لقائه بفرناندو وإيزابيلا وليس من المصادفة أن اشبيلية التي عكف البكري على دراساته الجغرافية فيها هي المدينة التي قضى بها كولمبوس فترة من حياته تلقى فيها كثيرا من المعارف الجغرافية عن العلماء والبحارة والملاحين. وأخيرا فليس من المصادفات أن يكون خروج سفنه إلى العالم الجديد من ميناء سان لوكار القريب من بلدة ولبة مسقط رأس البكري[114].

ويؤيد ما نذهب إليه من اعتماد كولمبوس على الدراسات الجغرافية للأندلسيين، ومنها بالطبع كتب أبي عبيد البكري، أنه ورد في دائرة المعارف الفرنسية أن كولمبوس اطلع على كتب كثيرة في الجغرافيا والرحلات لعدد من جغرافيي الأندلس والمشرق، وذلك قبل قيامه برحلته الشهيرة واكتشافه أمريكا[115].

ومما يثير الإعجاب بالبكري أن معرفته بكروية الأرض وقطرها البالغ ٦٤٢٤ ميلا تقريبا.. مع ما ذكره آنفا عن المحيط الأطلسي. توضح لنا أن فكرة خروج السفن والمراكب من غربي أوروبا لتصل شرق الصين كانت لديه من البديهيات العلمية التي لا تحتاج إلى مناقشة[116].

وابن حزم الأندلسي أيضا كان عالما بكروية الأرض شديد الإيمان بذلك، وسعى في إثبات هذه الحقيقة الجغرافية ببراهين نقلية وعقلية. وهو بذلك ينفي عن بعض حقائق الجغرافية ما علق بها من أساطير وخوارق وخاصة لدى الأوربيين الذين كانوا في ذلك العصر يجهلون هذه الحقيقة ولكنهم ما لبثوا أن نقلوها عن المسلمين ضمن ما نقلوه من المعارف والثقافة

---

(١١٣) ولبه، مدينة بغرب الأندلس على مصب نهر اوديل وكانت تحت حكم والد أبي عبيد عبدالعزيز البكري، لكن المعتضد ملك اشبيليه استطاع انتزاعها منه في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري (انظر محمد عنان: دول الطوائف، ص٤٣).

(١١٤) حسين مؤنس : المقال السابق، ٣٢٩.

(١١٥) سعيد عبدالفتاح عاشور: حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، (ص ٢٩٠).

(١١٦) حسين مؤنس : المقال السابق (ص ٣٢٩).

المختلفة[117].

وختاما فليس هناك صورة أوضح مما تقدم تثبت ذلك العطاء السخي والبذل غير المحدود الذي وهبته الأندلس لأوربا فانتشلتها من قاع التخلف وحضيض الجهل إلى مدارج النهضة والرقي في شتى ميادين الحضارة والمعرفة الإنسانية، هذا مع أخذنا في الاعتبار ضياع آلاف الكتب الأندلسية وإبادتها من قبل الإسبان النصارى والتي كان من الممكن لوسلمت من التدمير أن تلقى أضواء باهرة على الإنجازات العلمية للأندلسيين. ونود أن نشير إلى أن تلك الجهـود العلمية التي أسهم بها أعـلام الأندلس في وجوه العلم المختلفة كانت تصاحبها أيضا وتقترن بها جهود إخوانهم من علماء المشرق الذين لقيت كتبهم في الأندلس كل عناية واهتمام، ومن ثم انصهرت تلك الجهود العلمية لمسلمي المشرق والمغرب في بوتقة التأثير العلمي للأندلس في أوربا.

والأندلس على أية حال لها فضل في كلا الحالين: فضل المساهمة في بناء كيان المعرفة الإنسانية بفكرها وعلمها وثقافتها الخاصة، وفضل آخر بإيصالها ثقافة المشرق ومآثره العلمية إلى أوربا.

ومن الطريف أن نذكر أن الكثير من مفكري أوربا كانوا ينظرون إلى الأندلس من خلال تأثيرها العلمي والأدبي فيهم. فكل ما كان يصلهم من المعارف والعلوم والآداب سواء من الشرق أو الغرب كان في نظرهم ثقافة أندلسية خالصة؛ فالأندلس بالنسبة لهم كانت مصدر العلم الأول بدرجة أنستهم تقريبا جهود علماء المسلمين المشارقة ومآثرهم العلمية المختلفة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ذلك الدور البارز الذي لعبته الأندلس في قيام النهضة العلمية في أوربا، ومن ثم دخول أوربا عصر نهضتها الحديثة والتي تدين بشكل كبير في تألقها لأولئك الأعلام في ذلك القطر الذي غبر مجده منذ خمسة قرون ولكن معالمه وآثاره وما خلفه أهله من علم ومعرفة

---

(117) أشرنا إلى معارف ابن حزم الجغرافية، عند حديثنا عن الجغرافية وانظر كذلك الفصل في الملل والنحل، ج ٢، (ص ٩٧). ففيه إشارات جغرافية علمية تنم عن ذكاء وذهن خصب كان يتمتع به ابن حزم.

منحتهم حياة أخرى، هي الذكرى المجيدة العابقة التي لاتزال تشد الوجدان وتبعث الآمال في بعث الحضارة العربية الإسلامية إن شاء الله..

وأخيراً نختتم حديثنا بمقولة صادقة قالها ليجردي مستيم، أحد مفكري ومؤرخي أوربا قال: (وحتى علينا أن نقول: إن العرب ولا سيما عرب أسبانيا هم أصل ينبوع كل معرفة في الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي بزغت في أوربا منذ القرن العاشر فصاعدا)[١١٨].

---

(١١٨) سعد شلبي: البيئة الأندلسية، (ص ٥٠ - ٥١).

الخاتمة

نصل من خلال هذا البحث المنصب على الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف إلى نتائج هامة يأتي في مقدمتها أن الاندلس شهدت هذه الفترة التي استغرقت القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي تقريبا أزهى عصور الحضارة والتقدم العلمي على الرغم من الانحلال والتفكك السياسي الذي ضرب أطنابه في أرجاء الجزيرة الايبيرية كافة واستشرى فيه الخطر النصراني الذي تمثله الممالك الإسبانية النصرانية.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أن عصر الخلافة والذي يمثل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وهو عصر تميز أيضا بنشاطه العلمي وحرص خلفائه الأمويين على النهوض بأحوال العلم والمعرفة، كان له فضل عظيم في إرساء تلك النهضة العلمية الكبيرة التي تميز بها عصر الطوائف. ومن الإنصاف أن نشير إلى ذلك الدور العظيم الذي أسهم به علماء عصر الخلافة في بناء ذلك الصرح العلمي الشامخ في عصر الطوائف، فكثير منهم تفرق في أصقاع الأندلس المختلفة بعد حدوث الفتنة والحرب الأهلية فكانوا بمثابة مشاعل أضاءت جوانب الأندلس وأنارت سبل المعرفة في شتى المدن الأندلسية بعد أن كانت مدينة قرطبة هي وحدها حاضرة العلم والثقافة. وكان لأولئك العلماء في المدن التي حلوا بها تلاميذ نقلوا عنهم علومهم ومعارفهم وتمموا بعدهم مسيرة الحضارة والمدنية فكان من هؤلاء نوابغ الفكر في عصر الطوائف.

وإذا كان عصر الطوائف قد تميز بانقساماته السياسية فإن ملوكه، رغم تنازعهم وتطاحنهم فيما بينهم على النفوذ والسيادة، قد أدّوا دورا بارزا في إيقاد جذوة النشاط العلمي والعمل على رقيه وازدهاره، فقد امتد التنافس فيما

بينهم إلى النواحي الحضارية ومنها ميدان العلم والأدب.

فأجتذبوا العلماء إلى بلاطاتهم وعملوا على تشجيعهم ورعايتهم وكانوا يفاخر بعضهم بعضا بما يضمه بلاط كل منهم من أهل العلم والأدب. وقد تميز هذا العصر بقدر واسع من حرية التفكير نظرا لافتقار الأندلس آنذاك إلى سلطة سياسية مركزية تفرض نفوذها على أنحاء الأندلس كافة وتحدد اتجاهات النشـاط الفكـري، كما كان الأمر على عهد المنصوربن أبي عامر، فظهر الاشتغـال بعلوم قد سبق الحجر على الاشتغال بها ومطاردة المشتغلين بها كعلوم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، بل رأينا بعض أهل الذمة وفي عصر الطوائف كاليهود يتجرؤون في محاولة لإبراز فضل دينهم والطعن على الإسلام كما فعل ابن النغريله اليهودي في مملكة غرناطة. وقد رد عليه ابن حزم.

كما أن الحركة الشعوبية برزت سافرة في هذا العصر متمثلة في رسالة ابن غرسية الشعـوبي وقد رد عليه عدد من أدباء الأندلس. وكان لوجود ابن غرسية ـ وأصله من البشكنس ـ في بلاط أمير غير عربي وهو مجاهد العامري أمير دانية، وتنامي نفوذ العناصر غير العربية كالصقالبة في الأندلس، كان لذلك أثره في اجتراء ابن غرسية على تلك الخطوة المناهضة فكريا للعنصر العربي. و هذا الأمر بالتالي يعطينا دلالة واضحة على مدى تأثير التركيبة السياسية الحاكمة آنذاك في طبيعة النشاط الفكري وتوجهاته، فابن النغريلة الذي سبق ذكره تمادى في نشاطه العدائي ضد المسلمين على الرغم من أنه كان وزيرا في الدولة الزيرية بغرناطة، وكان حاكمها باديس بن حبوس ضحل التفكير غير بصير بعواقب الأمور فكان نتيجة ذلك أن ثار المسلمون على ابن النغريلة وقتلوه مع طائفة كبيرة من اليهود الذين استغلوا سذاجة الحاكم الغرناطي فوسعوا نفوذهم على حساب المسلمين وهددوا مصالحهم.

ويلاحظ في هذا العصر كثـرة المنـاظرات العلمية والردود الفكرية بين العلماء، ومن أوضح الأمثلة على ذلك مادار بين الفقيه الظاهري ابن حزم وفقهاء المالكية وعلى رأسهم أبوالوليد الباجي، وكان لهذه المناظرات صدى واسـعٌ بين العلماء، وكـان من شأنها تنشيط البحث في ميدان الدراسات

الفقهية ومحاولة كل من المتناظرين تأييد وجهات نظره ورأيه بأقوى مالديه من الأدلة والبراهين، وهو ما أدى إلى كسر الجمود الفقهي والارتقاء إلى الأفضل. وهناك أيضا من الأمثلة ما دار بين ابن السيد البطليوسي وعلماء عصره كابن العربي وغيره من ردود أدبية. وكذلك مادار بين القاضي صاعد الطليطلي وعلماء عصره من ردود علمية وخاصة ما كان بينه وبين أبي مروان عبدالله بن خلف وعبدالله بن أحمد السرقسطي. كل هذا كان له أثره البالغ في الارتقاء بالحركة العلمية وتطورها وازدهارها.

وكان لابن حزم، وهو الفقيه الظاهري الذي بقي مناضلا عن مذهبه ضد فقهاء المالكية، كان له فضل واسع في ازدهار الحركة العلمية، ورغم مالقيه من عنت وضيق شديدين، على أيدي المالكية من جهة، والمعتضد بن عباد ملك اشبيلية من جهة أخرى فإنه استمر، بخطى ثابتة وقلب لا يعرف الكلل، يصنف ويؤلف على ضوء من مذهبه الذي سار عليه، وتمخض عن ذلك ثروة علمية كبيرة تتمثل في مؤلفاته العلمية في شتى حقول المعرفة والفكر الإنساني.

ومن أهم النتائج التي أبرزها البحث هي أن كثيرا من العلماء والفقهاء لم ينعزلوا عن المشاركة والمساهمة في محاولة إصلاح الأوضاع السياسية التي تميز بها عصر الطوائف، فسعى الكثير منهم إلى العمل على درء الانقسام والتنازع بين ملوك الطوائف وصولا إلى تماسك الجبهة الإسلامية أمام الخطر النصراني المتوثب في شمال الأندلس. ومن أهم العلماء الساعين في جبر الصدع والاختلاف الفقيه العالم أبوالوليد الباجي الذي لم يمنعه الاشتغال بالعلم والتدريس عن النهوض إلى إصلاح حال الأمة ولم شعثها.

ولعل من أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث مدى خصوبة النشاط العلمي واتساعه ليشمل حقول العلم المختلفة من غير استثناء، اللهم إلا ما يتصل بالفلسفة فإن عصرها الذهبي كان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشرالميلادي، وهو العصر الذي تلا عصر الطوائف. وعلى الرغم من ذلك فقد حفل عصر الطوائف بشخصيات كان لها نشاط فلسفي يدعو إلى

الافتراض أن ما تم منه كان منطلقا واسعاً لفلاسفة الأندلس الكبار كابن رشد وابن طفيل؛ فالفيلسوف السرقسطي ابن باجه الذي ولد في أواخر عصر ملوك الطوائف وتتلمذ على علمائه كان لفلسفته أثر واضح في ابن رشد وابن طفيل.

وتجدر الإشارة إلى المكانة الاجتماعية البارزة التي كان يتمتع بها العلماء وأهل المعرفة في المجتمع الأندلسي، ولما كان هذا العصر عصرا حافلا بالعلم والاشتغال بالمعرفة والثقافة وألوان الفكر المختلفة فقد فرض هذا النشاط العلمي روحه على الناس فزاد الاهتمام بالكتب والعمل على حيازتها وجمعها، ليس من قبل ذوي الاهتمامات العلمية فقط بل امتد إلى العامة من المجتمع إذ أصبحت خزائن الكتب أو المكتبات في المنازل من مستلزمات النبل والوجاهة الاجتماعية وهو الأمر الذي يؤكد أن المجتمع الأندلسي في هذه الفترة كان مجتمعا علميا راقيا، وأن الكتاب هو الوسيلة الواضحة لبلوغ المجد والرفعة في عصر اتسم بالعلم والثقافة ورفع من شأنهما بصورة عالية جدا.

ويلاحظ من خلال هذه الدراسة تميز كل مملكة بلون من النشاط العلمي، فمملكة بني عباد في اشبيلية وقرطبة غلب على نهضتها العلمية الطابع الأدبي، وكان المعتضد وابنه المعتمد من أبرز الشعراء وخاصة المعتمد. ومثل هذا اللون من العلم غلب على مملكة بني الأفطس في بطليوس وكان ملكها المظفر عالما أديبا وهو صاحب الموسوعة الأدبية المظفرية، وتابع هاتين المملكتين في هذا اللون من المعرفة مملكة بني صمادح في المرية. وأما مملكة بني هود في سرقسطه فقد غلب على نشاطها العلمي الاشتغال بالرياضيات والفلك، وكان ملكها المقتدر وابنه المؤتمن من علماء الفلك والرياضيات، وصنف المؤتمن كتابين في الرياضيات، كما أن جيرانهم بني ذي النون غلب على النشاط العلمي في مملكتهم الاشتغال بالطب والفلك والفلاحة. ومملكة مجاهد العامري غلب على نشاطها العلمي الاهتمام بالقراءات وعلوم اللغة وكان مجاهد نفسه من علماء اللغة. ويلاحظ أن بني زيري وهم ملوك غرناطة كانوا اضعف الممالك اشتغالا بالعلم والأدب إذ غلب عليهم الاهتمام بالتوسع والصراع السياسي مع جيرانهم.

وفي هذا العصر الحافل بالعلم والمعرفة ظهرت الموسوعات العلمية والأدبية، ومن الأمثلة على ذلك ما صنفه الأديب اللغوي الكفيف ابن سيده، فكتابه «المحكم» من التصانيف اللغوية الضخمة التي أثارت إعجاب العلماء ولا يزال معينا لا ينضب في علوم اللغة. كما أن المؤرخين يذكرون بالفضل ما صنفه ملك بطليوس المظفر، إذ ألف موسوعة أدبية تاريخية قيل أنها بلغت مائة مجلد، وفي رواية أخرى خمسين مجلداً، وللأسف لم يصلنا هذا الكتاب القيم ويلحق بالموسوعات ما صنفه أبوعبيد البكري فكتابه «معجم ما استعجم» من أسماء البلاد والمواضع، موسوعة جغرافية هامة استند إليها كثير من المؤرخين والجغرافيين اللاحقين. ومن المآثر العلمية التي تميز بها عصر ملوك الطوائف ظهور أول مصنف أندلسي في علم الأديان المقارن على يد العلامة الكبير ابن حزم، فقد صنف في ذلك كتابه الشهير «الفصل في الملل والأهواء والنحل» ولا يزال هذا الكتاب ثروة علمية قيمة. وظهر في هذا العصر أيضا أول كتاب عربي أندلسي في تاريخ العلوم (علوم الأوائل) وهو كتاب القاضي صاعد الطليطلي والمسمى «طبقات الأمم» وهو عمل فريد وقيّم يمثل إضافة علمية مبتكرة استند إليها كثير من المؤلفين في هذا اللون والتصنيف كالقفطي في كتابه «أخبار العلماء» وابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء».

ومهما يكن فقد بلغ العلم في هذا العصر أوج نشاطه وشهد ظهور نوابغ العلم، ليس على مستوى الأندلس فحسب بل على مستوى العالم الإسلامي أيضا ولسنا في حاجة إلى تكرار ما ذكرناه في هذا البحث، ويكفي أن نشير الى ابن حزم وصديقه ابن عبدالبر النمري في علوم الدين وهما العالمان اللذان لا تزال مؤلفاتهما منبعا ثراً لعلماء الدين في عصرنا الحاضر.

وفي التاريخ والجغرافيا شهد هذا العصر حياة أعظم مؤرخ أنجبته الأندلس وهو ابن حيان صاحب المقتبس، وفي الجغرافيا ظهر أبوعبيد البكري العالم الموسوعي الكبير، وفي الأدب حفل هذا العصر بمشاهير شعراء الأندلس كابن زيدون وابن عمار وابن خفاجة وغيرهم، وبرز في اللغة ابن سيده الآنف الذكر، وفي العلوم التطبيقية كالفلك نبغ العلامة ابن الزرقالة

الـذي عد أعظم علماء الفلك عند العرب وفي الطب ابن وافد صاحب التصانيف القيمة في الطب والعلاج الغذائي. وبعض أطباء أسرة بني زهر العريقة في الطب. وفي التربية والتعليم سبق الأندلسيون أهل الغرب إلى اكتشاف أصل طريقة برايل في تعليم الأطفال المكفوفين. وفي علم الكيمياء اهتدى ابن بشرون إلى الأساس الذي قامت عليه نظرية الطاقة المتاحة وهي من النظريات الفيزيائية والكيماوية الشهيرة المعاصرة، وفي عصر الطوائف ظهر عدد من علماء الفلاحة الأندلسيين الذي أخرجوا لنا روائع علمية في علم الفلاحة والتي تنم عما كانت عليه الأندلس من تطور زراعي عظيم ومهدوا بكتاباتهم لظهور أعظم علماء الفلاحة وهو ابن العوام الاشبيلي. وهذا العلم أي الفلاحة هو العلم الذي فاق فيه الأندلسيون وغيرهم من الشعوب فكانوا أساتذته بحق.

وأخيرا فإن من أوضح الدلائل وأصدق الشواهد على تألق الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف مدى ماكان لها من تأثير في الحضارة الأوربية وتقدم العلم في أوربا، فان أكثر ميادين العلم والمعرفة التي طرقها الأندلسيون خلفت تأثيرا عميقا في الحضارة الأوربية، فقد اقتبست أوربا عنهم كثيرا من العلوم والمعارف والآداب، وكان الأندلسيون بجهودهم تلك أساتذة أوربا .و معلميها.

ولم يكن تأثير الأندلس العلمي آنذاك في أوربا وقفا على العلوم التطبيقية التي كانت هي مفتاح أوربا نحو الوثبة الحضارية المعاصرة، بل إن الأوربيين وقعوا أيضا تحت تأثير الأندلس الأدبي والأخلاقي، فكان الكثير من ألوان الأدب والشعر والغناء في أوربا في العصر الوسيط تستمد الكثير من أصولها وروحها من آداب الأندلس وأشعارها وموسيقاها. بل أن الأندلسيين أثّروا في جيرانهم من الفرنسيين والإيطاليين في ميدان الأخلاق والفروسية، فظهر أثر ذلك في العديد من شمائل وسجايا تلك الشعوب، وهو ما نلمسه إلى الآن في بعض عادات وتقاليد سكان جنوب فرنسا وأسبانيا.

وبناء عليه فإن الأندلسيين في عصر ملوك الطوائف كانوا على قدر عظيم من الحضارة والمدنية والرقي الفكري، وكانوا بوضعهم ذلك يمثلون شمسًا مشرقة سطعت أشعتها فأنارت للشعوب المتخلفة في أوربا طريق الحضارة والمدنية.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المخطوطــات

١ ـ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
«تـاريخ الإسلام»، ج ١٢، نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى. تحت رقم ٥٩٤ تاريخ، عن النسخة الأصلية بمكتبة أحمد الثالث تحت رقم ١٢/٢٩١٧.

٢ ـ الشاطبي، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي.
«كتاب الجمان في مختصر أخبار الزمان». نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى عن النسخة الأصلية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٠١٣.

٣ ـ ابن الصفار، أحمد بن عبدالله بن عمر (ت ٤٢٦هـ/ ١٠٣٤).
«رسالة الاسطرلاب» مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم ٤٢٨٨

٤ ـ الصفدي، خليل بن أيبك (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).
«أعيان العصر وأعوان النصر». نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي تحت رقم ١١١٧ تاريخ.

٥ ـ الطغنري، محمد بن مالك (كان حيا سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م).
«زهرة البستان ونزهة الأذهان». نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي تحت رقم ٢ نبات عن النسخة الأصلية بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٦٠.

٦ ـ العذري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)

«ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» السفر الرابع. نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي عن النسخة الأصلية بمكتبة البديري بالقدس تحت ٦١٢.

٧ ـ أبوالمحاسن، عبدالباقي بن علي بن عبدالمجيد (ت ١١٤٣هـ/ ١٧٣١م).

«أشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين» نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي عن النسخة الأصلية الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٦١٢ تاريخ.

٨ ـ المواعيني، محمد بن إبراهيم الإشبيلي (ت ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م).

«ريحان الألباب وريعان الشباب» مخطوط بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ١٤٠٦.

٩ ـ المولوي، أحمد بن لطف الله (ت ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م).

«صحائف الأخبار في وقائع الأعصار» مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستنبول تحت رقم ٢٩٥٤.

١٠ـ مؤلف مجهول.

«إنسان العيون في مشاهير سادس القرون» نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي بجامعة أم القرى، عن النسخة المخطوطة بمكتبة جامعة بغداد، الدراسات العليا تحت رقم ٢٤٨.

١١ـ مؤلف مجهول.

«كتاب في ذكر بلاد الأندلس وصفاتها وأصقاعها ومن وليها من الأمراء والحكام من الأمويين إلى بني اشقيلولة» نسخة بالميكروفيلم بمركز البحث العلمي عن النسخة المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (٨٥ ج).

١٢- المجريطي، مسلمة بن أحمد (ت ٣٩٨هـ).

«رتبة الحكيم» مخطوط بالمكتبة الملكية بالرباط تحت رقم ١٨٤٢.

١٣- ابن وافد، أبو المطرف عبدالرحمن بن وافد الطليطلي (كان حيا ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)

«الوساد» في الطب مخطوط بمكتبة الاسكوريال بمدريد تحت رقم (٨٣٣).

ثانيا: المصادر العربية والمطبوعة

ابن الأبار: (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م).

- الحلة السيراء، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة، ط الأولى، ١٩٦٣م.
- التكملة لكتاب الصلة، عنى بنشره وصححه ووقف على طبعه حسين عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥م.
- المقتضب من تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، الناشر دار الكتاب المصري القاهرة - دار الكتاب اللبناني بيروت، دار الكتب الإسلامية - دار الرفاعي الرياض، ط الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

ابن الأثيـر: (ت ٦٣٠ هـ).

الكـامـل في التـاريخ، دار صادر، بيروت للطبـاعـة والنشر، بيروت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

ابن إدريس: (ت ٥٩٨ هـ).

زاد المسـافر وغرة محيا الأدب السافر الأعداد وتعليق عبدالقادر محداد دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨٠م.

الأصفهاني: (٥٩٧ هـ).

خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب، تحقيق عمر دسوقي وعلي عبد العظيم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، مصر.

ابن أبي أصيبعة: (ت ٦٦٨هـ).

عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

ابن الأنباري: (ت ٥٧٧هـ).
نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق د. محمد أبوالفضل إبراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة مطبعة المدني.
أورسيوس: (ق الخامس الميلادي).
تاريخ العالم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط. الأولى ١٩٨٢م. بيروت.
ابن الباذش: (ت ٥٤٠هـ).
كتاب الإقناع في القراءات السبع، حققه وقدم له عبدالمجيد قطامش، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي، ط الأولى ١٤٠٣هـ. مطبعة ركابي ونضر، دمشق.
ابن بسام: (ت ٥٤٢هـ).
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت (ت١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).
ابن بشكوال: (٥٤٢هـ).
الصلة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب القاهرة (١٩٦٦م).
البكري: (ت ٤٨٧هـ).
- جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري تحقيق د. عبدالرحمن الحجي، ساعد المجمع العلمي العراقي على نشره ط الأولى ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.
- معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت.
- التنبيه على أوهام أبي على القالي في أماليه، راجعه وصححه محمد عبدالجواد الأصمعي، دار الكتاب العربي، بيروت مطبعة دار الكتب المصرية.

التنبكتي: (ق الحادي عشر الهجري)

نيل الابتهاج ـ دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، بدون طبعة ذيل على كتاب الديباج لابن فرحون.

ابن تغري بردي: (ت ٨٧٤هـ).

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط مصورة عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع كوستا توماس وشركاه.

التهانوي: (ت القرن الثاني عشر الهجري)

كشاف اصطلاحات الفنون، تحقيق د. لطفي عبدالبديع، ترجم النصوص الفارسية د. عبدالمنعم محمد حسنين، راجعه الأستاذ أمين الخولي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة (١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م).

ابن الجزري: (ت ٨٣٣ هـ).

ـ غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره ج برجستراسر ط دار الكتب العلمية (١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م) بيروت.

ـ تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة، كتب هوامشه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكة، ط الأولى ١٤٠٤هـ.

ابن جابر: (ت ٧٤٩هـ).

برنامج ابن جابر الوادي آشي، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيله. تونس. الشركة التونسية للطبع ١٤٠١هـ.

حاجي خليفة: (١٠٦٧هـ).

كشف الظنون عن أسا الكتب والفنون ـ تقديم حسين شهاب الدين النجفي، أعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

ابن حجاج (كان حيا ٤٦٤ هـ).
المقنع في الفلاحة ـ تحقيق صلاح جرار وجاسر أبوصفية توفيق وعبدالعزيز الدوري منشورات مجمع اللغة العربية الأردني ١٤٠٢هـ.
ابن حجر: (ت ٨٥٢هـ).
الإصابة في تمييز الصحابة، الناشر دار الكتاب العربي؛ بيروت (بدون طبعة).
ابن حزم: (ت ٤٥٦هـ).
ـ التقريب لحد المنطق والمدخل إليه. تحقيق إحسان عباس، منشورات دار مكتبه الحياة بيروت ١٩٥٩م.
ـ جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبدالسلام هارون، دار المعارف بمصر. ط. الثالثة، ١٣٩١هـ.
ـ الفصل في الملل والأهواء والنحل ـ دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ط الثانية (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).
ـ طوق الحمامة في الأُلفة والأُلّاف، حققه وصوره وفهرس له، حسن كامل صيرفي، قدم له إبراهيم الابياري، مطبعة الاستقامة بالقاهرة طبع (١٣٨٣هـ ١٩٦٤م).
ـ الأخلاق والسير في مداوة النفوس، دار الآفاق الجديدة، بيروت ط الأولى ١٩٧٨م.
ـ رسائل ابن حزم الأندلسي، ج ٢ تحقيق إحسان عباس المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط. الأولى ١٩٨١م.
الحميدي: (ت ٤٨٨هـ).
جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦٦م.
الحميري: (ت ٧٢٧هـ).
الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة

ناصر للثقافة ط ـ الثانية ١٩٨٠م.
ابن حيان: (ت ٤٦٩ هـ).
المقتبس، الجزء الخامس، نشره ب. شالميتاوف. كورنيطي وم. صبح)، المعهد الإسباني للثقافة ـ مدريد ١٩٧٩، كلية الآداب بالرباط.
ابن خاقان: (ت ٥٢٩ هـ).
ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة الرسالة، بيروت، ط. الأولى ١٤١٣هـ.
ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان طبعة قديمة ١٢٧٧هـ بتصحيح سليمان الحريري.
الخطيب: (ت ٤٦٣ هـ).
ـ الكفاية في علم الرواية، دار الكتب العلمية بيروت، منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.
ـ الرحلة في طلب الحديث، حققه وعلق عليه نور الدين عتر، يطلب من دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى (١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م).
ابن الخطيب: (ت ٧٧٦ هـ).
ـ الإحاطة في أخبار غرناطة، حققه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبدالله عنان، الناشر مكتبه الخانجي، القاهرة ـ الشركة المصرية للطباعة والنشر القاهرة ج ١ ط الثانية ١٣٩٥هـ ـ الأجزاء الثلاثة الأخرى ط. الأولى ١٣٩٣هـ.
ـ إعلام الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، بيروت، دار المكشوف ـ ط. الثانية ١٩٥٦م.
ـ جيش التوشيح: تحقيق وتقديم هلال ناجي ـ أعد أصلا من أصلية محمد ماضور مطبعة المنار ـ تونس.

ابن خير: (ت ٥٧٥ هـ)

ـ فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط الثانية ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩.

ابن خلدون: (ت ٨٠٨ هـ).

المقدمة: المكتبة التجارية الكبرى بمصر روجعت هذه الطبعة وقوبلت على علة نسخ بمعرفة لجنة من العلماء.

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ـ دار العلم للملايين، لبنان بيروت.

ابن خلكان: (ت ٦٨١ هـ).

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان حققه د. إحسان عباس. دار صادر ـ بيروت، ج ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ١٣٩٧هـ، ج ٧ ـ ٨ ـ ٩ بدون تاريخ للطبعة.

الخوارزمي: (ت ٣٨٧ هـ).

ـ مفاتيح العلوم، تقديم وإعداد. عبداللطيف محمد العبد، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة، المطبعة الكمالية.

الدوادي: (ت ٩٤٥ هـ).

طبقات المفسرين. تحقيق علي محمد عمر، الناشر مكتبة وهبه ـ القاهرة. الأولى، ١٣٩ هـ.

ابن دحيه: (ت ٦٣٣ هـ).

المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الابياري حامد عبدالمجيد، أحمد أحمد بدوي. مراجعة طه حسين. دار العلم للجميع، للطباعة والنشر بيروت.

الذهبي: (ت ٧٤٨ هـ).

ـ تذكرة الحفاظ، صحح عن النسخة القديمة المخطوطة في مكتبة الحرم المكي تحت إعانة وزارة المعارف الهندية، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، ط الثالثة ١٩٥٨م.

- سير أعلام النبلاء: حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الارنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي: مؤسسة الرسالة: بيروت، ط. الثانية ١٤٠٤هـ.
- العبر في خبر من غبر، ج ٤ تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت - طبعة حكومة الكويت ١٩٦٣م.
- معرفة القراء الكبار حققه محمد سيد جاد الحق - مطبعة، دار التأليف القاهرة - ط الأولى.

الزبيدي: (ت ٣٧٩ هـ).
طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار المعارف.

ابن زيد: (ت ٨٧٠ هـ).
محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي، تقديم وتعليق شكيب أرسلان، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت - مطبعة فؤاد بيبانه وشركاه ١٩٦٧م.

السبكي: (ت ٧٧١ هـ).
طبقات الشافعية الكبرى - تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه. ط الأولى - ١٣٨٤هـ.

ابن سعيد: (ت ٦٨٥ هـ).
- رايات المبرزين وغايات المتميزين - تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضي لجنة إحياء التراث الإسلامي، مطابع الأهرام التجارية - القاهرة ١٣٩٣ هـ.
- المغرب في حلى المغرب، تحقيق وتعليق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر - ط. الثانية ١٩٦٤م.
- المقتطف من أزاهر الطرف، تقديم وتحقيق ودراسة سعيد حنفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

السلفي: (ت ٥٧٦ هـ).
أخبار وتراجم أندلسية مستخرجه من معجم السفر للسلفي أعدها وحققها. د. إحسان عباس. دار الثقافة لبنان ـ ط الثانية ١٣٩٩هـ.
ابن سناء الملك: (ت ٦٠٨ هـ)
دار الطراز في عمل الموشحات، تحقيق جودة الركابي ـ ط الثانية دار الفكر. دمشق ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م.
ابن السيد: (ت ٥٢١ هـ).
التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم واعتقاداتهم، تحقيق وتعليق أحمد حسن كحيل وحمزة عبدالله دار الاعتصام ط الأولى ١٣٩٨هـ.
ابن سيده: (ت ٤٥٨ هـ).
ـ المحكم: تحقيق مصطفى السقا وحسين نصار، ط الأولى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م.
ـ المخصص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت، (بدون طبعة).
السيوطي: (ت ٩١١ هـ).
ـ بغية الوعاة، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط الأولى ١٣٨٤هـ.
ـ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، علق عليه علي سامي النشار، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون طبعة.
ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية ط الأولى ١٩٦٨م.
ابن الشباط: (ت ٦٨١ هـ)
وصف الأندلس (نص جديد من مخطوط صلة السمط وسمة المرط) تحقيق أحمد مختار العبادي معهد الدراسات الإسلامية

بمدريد ١٩٧١م.
ابن شهيد: (ت ٤٢٦ هـ).
رسالة التوابع والزوابع. صححها وحقق ما فيها وشرحها بطرس البستاني دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- نكت الهميان في نكت العميان. نسخة بمكتبه مركز البحث العلمي لا تحوي معلومات عن طباعتها ونشرها.
الصيرفي: (ت في القرن السادس الهجري).
المختار من شعر شعراء الأندلس، حققه هلال ناجي. وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، مطبعة فضالة المحمدية المغرب.
ابن طفيل: (ت ٥٨١ هـ)
حي بن يقظان، تقديم وتحقيق فاروق سعد. منشورات دار الآفاق الجديدة ط الثالثة ١٤٠٠هـ.
ابن عباد: (ت ٤٨٨ هـ).
ديوان المعتمد بن عباد، جمع وتحقيق رضا الحبيب السويسي - الدار التونسية للنشر ١٩٧٥م.
عبدالله «الأمير»: (ت ٤٨٣ هـ).
التبيان، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف بمصر ١٩٥٥م.
ابن عبدالبر النمري: (ت ٤٦٣ هـ).
- بهجة المجالس وأنس المجالس، تحقيق محمد مرسى الخولي الشركة المتحدة. بيروت دار الكتب العلمية بيروت.
ابن عذاري: (ت بعد ٧١٢ هـ).
البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق ومراجعة ج. س كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت.
ابن عطية: (ت ٥٤١ هـ).
فهرس ابن عطية، تحقيق محمد أبوالأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي - بيروت - ١٤٠٠ هـ - الطبعة الأولى.

العليمي: (ت ٩٢٨ هـ).
المنهج الأحمد في تراجم الإمام أحمد، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، راجعه وعلق عليه نويهض، عالم الكتب، بيروت ط الأولى ١٤٠٣ هـ.
عياض: (ت ٥٤٤ هـ).
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير - منشورات داري مكتبة الحياة بيروت ومكتبة الفكر بطرابلس (بدون طبعة).
- الغنية (فهرست شيوخ القاضي عياض) دراسة وتحقيق محمد بن عبدالكريم. الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس ١٣٩٨ هـ.
ابن العماد: (ت ١٠٨٩ هـ).
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عن نسخة المصنف المحفوظة بدار الكتب المصرية، دار المسيرة بيروت ط الثانية ١٣٩٩هـ.
الغزالي: (ت ٥٠٥ هـ).
- إحياء علوم الدين، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت (بدون طبعة).
ابن فرحون: (ت ٧٩٩ هـ).
الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، طبع بمطبعة النصر وكذلك طبعة دار الكتب العلمية، بيروت (بدون طبعة).
ابن الفرضي: (ت ٤٠٣ هـ).
تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة مطابع سجل العرب ١٩٦٦م القاهرة.
ابن القاضي: (ت ١٠٢٥ هـ).
جذوة الاقتباس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٣م.

ابن قاضي شهبة: (ت ٨٥١ هـ).
طبقات النحاة واللغويين، تحقيق محسن فياض، مطبعة النعمان النجف ط ١٩٧٣م - ١٩٧٤م.

ابن قتيبة: (ت ٢٧٦ هـ).
المعارف - تصحيح وتعليق ومراجعة محمد إسماعيل الصاوي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط الثانية ١٣٩٠هـ.

القزويني: (ت ٦٨٢ هـ).
آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٣٩٩هـ.

القفطي: (ت ٦٤٦ هـ).
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثنى، بغداد، ليبزج ١٩٠٣م.
- المحمدون من الشعراء حققه وقدم له حسن معمري، مراجعة حمد الجاسر منشورات دار اليمامة بالرياض مطبعة المتنبي - بيروت ١٣٩٠هـ.

القلقشندي: (ت ٨٢١ هـ).
صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة.

ابن منقذ: (ت ٨٠٩ هـ).
الوفيات، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ط الثانية ١٩٧٨م.

القيسي: (ت ٤٣٧ هـ).
الإبانة عن معاني القراءات، حققه وقدم له محيي الدين رمضان، دار المأمون للتراث، دمشق، ط الأولى ١٣٩٩هـ.

الكتبي: (ت ٧٦٤ هـ).
- عيون التواريخ، تحقيق د. فيصل سامر ونبيلة عبدالمنعم، دار الحرية للطباعة والنشر بغداد ١٣٩٧ هـ.
- فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٤م.
ابن كثير: (ت ٧٧٤ هـ).
البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط الأولى.
ابن الكردبوس: (ق السادس الهجري)
تاريخ الأندلس، نص جديد من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٧١م.
المراكشي عبدالواحد: (ت ٦٤٧ هـ).
المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد العريان، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة ١٣٨٣ هـ.
المراكشي، محمد: (ت ٧٠٣ هـ).
الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول والثاني تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت. السفر السادس تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٧٣م.
المقدسي: (ت ٣٨٠ هـ).
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم طبع بمدينة ليون بمطبعة بريل ١٩٠٦م.
المقري: (ت ١٠٤١هـ).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ.
- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض خمسة أجزاء طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لقسم التراث الإسلامي بين حكومة المغرب ودولة الإمارات العربية، الجزء الرابع تحقيق سعيد أحمد

اعـراب ومحمـد بن تاويت، الجـزء الخـامس تحقيق عبدالسلام الهـراس وسعيد أحمـد اعـراب والأجزاء الأربعة الأولى طبعت ١٣٩٨هـ الجزء الخامس ١٤٠٠هـ.

مؤلف مجهول:

أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، طبع بمدينة مجريط، بمطبعة دبلنير ١٨٦٧م.

ابن نباتة: (ت ٧٦٨ هـ).

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بالقاهرة ـ ط الأولى ١٣٧٧هـ.

النباهي: (كان حيا ٧٩٣ هـ).

المرقبة العليا أو «تاريخ قضاة الأندلس» المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت.

النديم: (ق الرابع الهجري)

الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت (بدون تاريخ للطبعة).

النويري: (ت ٧٣٢ هـ).)

نصـوص عن افريقية والمغرب والأندلس وصقلية واقريطش من كتـاب نهاية الأرب في فنـون الأدب، تحقيق وتعليق مصـطفى أبوضيف، دار النشر المغربية. الدار البيضاء.

ابن الوردي: (ت ٧٤٩ هـ).

تتمـة المختصر في أخبـار البشر، إشراف وتحقيق أحمـد رفعت البدراوي توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، الناشر دار المعرفة ـ بيروت ط الأولى ١٣٨٩ هـ.

ياقوت: (ت ٦٢٦ هـ).

- معجم البلدان، دار صادر بيروت ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
- معجم الأدباء: دار الفكر للطباعة والنشر، ط الثالثة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

ثالثا: المراجع العربية

إحسان عباس:

- تاريخ الأدب الأندلسي في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، دار الثقافة بيروت - ط السادسة ١٩٨١م.

- العرب في صقلية. دار الثقافة، بيروت ط الثانية ١٩٧٥م.

أحمد أمين:

ظهر الإسلام، ج ٣، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، ط الثالثة ١٩٦٢م.

أحمد عطية الله:

القاموس الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، ١٣٨٣هـ.

أحمد مختار العبادي:

دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ١٩٨٢م. بدون طبعة.

أحمد هيكل:

الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف - القاهرة ط السادسة ١٩٧١م.

آرنولد وآخرون:

تراث الإسلام، عربه وعلق حواشيه جرجس فتح الله، دار الطليعة، بيروت ط الثانية ١٩٧٢م.

اعتماد القصيري:

فن التجليد عند المسلمين، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام المؤسسة العامة للآثار والتراث بغداد ١٩٧٩م.

اغناطيوس كراتشكوفسكي:
تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، مراجعة ايفوربليايف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م ـ القاهرة.

أمين أسعد خيرالله:
الطب العربي ترجمة مصطفى أبوعزالدين طبع في المطبعة الأمريكية. بيروت ١٩٤٦م.

آنخل بالنثيا:
تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ملتزم الطبع والنشر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م.

أنور الرفاعي:
الإنسان العربي والحضارة، دار الفكر، (دون طبعة).

أ. ي. ونسنك:
«المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي» نشره ي. ب. منسنج و. و. ب، دي هاس، وي. ب فن لون، مع مشاركة محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة بريل ليدن ـ سنة ١٩٥٥م.

باقر أمين الورد:
معجم العلماء العرب، الجزء الأول، مراجعة كوركيس عواد، مطبعة النجوم الخضراء بغداد ١٤٠٢هـ.

البغدادي:
هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف باستنبول ١٩٥٥م منشورات مكتبة المثنى، بغداد.

بول غليونجي وآخرون:
موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، مكتبة المعارف بيروت ـ مطابع روزاليوسف.

توفيق الطويل:
قصة الصراع بين الدين والفلسفة، دار النهضة العربية، ط الثالثة ١٩٧٩م.
جايلورد هوزر:
الغذاء يصنع المعجزات، ترجمة أحمد قدامة، دار النفائس، بيروت ط التاسعة ١٤٠٣هـ.
جلال مظهر:
- حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة دار مصر للطباعة (بدون طبعة).
- الحضارة الإسلامية أساس التقدم العلمي الحديث، مركز كتب الشرق الأوسط مطبعة مخيمر، القاهرة.
- مآثر العرب على الحضارة الأوروبية، تقديم كمال الدين رفعت وسعد عفرة مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط الأولى ١٩٦٠م.
ج. س. كولان:
الاندلس، مقال في دائرة المعارف الإسلامية، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد، وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط الأولى ١٩٨٠م.
جوزيف رينو:
الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا، ترجمة إسماعيل العربي دار الحداثة بالجزائر، ط الأولى ١٩٨٤م.
حسن إبراهيم حسن:
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ط الأولى ١٩٦٧م.
حسين مؤنس:
فجر الأندلس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط الثانية ١٤٠٥هـ.

حكمت نجيب:
دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي جامعة الموصل ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
حنا الفاخوري:
تاريخ الأدب العربي، المطبعة البوليسية بيروت، لبنان (بدون طبعة).
خالد الصوفي:
جمهورية بني جهور دمشق ١٩٥٩م.
خليل السامرائي وآخرون:
تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، وزارة التعليم العالي جامعة الموصل ١٩٨٧م.
خيرالدين الزركلي:
الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط الرابعة ١٩٧٩م.
خوليان ريبرا:
التربية الإسلامية في اسبانيا، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف بمصر - مطبعة القاهرة الجديدة.
داريو كابا نيلاس:
ابن سيد المرسي حياته وآثاره، ترجمة حسن الوراكلي، الدار التونسية للنشر ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.
روبرت بريفالت:
أثر الثقافة الإسلامية في تكوين الإنسانية، ترجمة ابوالنصر الحسيني، دار الكتب الحديثة، شارع الجمهورية عابدين.
روم لاندو:
الإسلام والعرب، ترجمة منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ط الأولى.

رينهات دوزي:
ملوك الطوائف، ترجمة كامل كيلاني، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة، ط الأولى ١٣٥١هـ.
زكريا هاشم:
فضل الحضارة الإسلامية العربية على العالم، راجعه وقدم له وأشرف على إخراجه محمد أحمد محمد المهدي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ـ القاهرة.
زيغريد هونكه:
شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي راجعه ووضع حواشيه فاروق عيسى الخوري، منشورات المكتب التجاري بيروت، ط الثانية ١٩٦٩م.
سامي مكي:
دراسات في الأدب الأندلسي، ساعدت الجامعة المستنصرية على نشره سنة ١٩٧٨م.
ستانلي لين بول:
ـ الدول الإسلامية، بإضافات وتصحيحات بارتولد وخليل أدهم ترجمه عن التركية محمد صبحي بإشراف محمد أحمد دهمان، مكتبة الدراسات الإسلامية دمشق ١٣٩٣هـ.
ـ قصة العرب في اسبانيا، ترجمة علي الجارم، دار المعارف بمصر ط التاسعة.
سعد شلبي:
البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر في عصر ملوك الطوائف، دار النهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة (بدون طبعة).
سعيد عبدالفتاح عاشور:
حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٦م.

أحمد بن خالد الناصري:
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر ومحمد ابني المؤلف. دار الكتاب الدار البيضاء سنة ١٩٥٤م.
سيد حسن نصر:
العلوم في الإسلام، ترجمة مختار الجوهري، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٣٩٨هـ.
السيد عبدالعزيز سالم:
- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت ط الأولى ١٩٧٩م.
شكيب ارسلان:
الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
شوقي ضيف:
- الفن ومذاهبه: دار المعارف، القاهرة، ط العاشرة ١٩٦٠م.
- المدارس النحوية: دار المعارف، القاهرة، ط الثالثة.
- نوابغ الفكر العربي، ابن زيدون، دار المعارف القاهرة، ط التاسعة.
صلاح خالص:
إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥م.
الطاهر أحمد:
دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، ط الأولى ١٩٨٠م - القاهرة.

عباس العزاوي:

تاريخ علم الفلك في العراق، مطبعة المجمع العلمي العراقي في ١٣٧٨ هـ.

عبدالبديع الخولي:

الفكر التربوي في الأندلس، دار الفكر العربي، ط الثانية ١٩٨٥م - القاهرة.

عبدالحليم منتصر:

تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه، دار المعارف بمصر، مطبعة معهد دون بوسكو، الاسكندرية، ط الرابعة ١٩٧١م.

عبدالرحمن بدوي:

- دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط الأولى ١٩٨١م.
- دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ط الثانية ١٩٦٧م.

عبدالرحمن الحجي:

- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ساعدت جامعة بغداد على نشره، دار العلم، دمشق، بيروت، بيروت دار القلم، الرياض.
- أندلسيات. دار الإرشاد للطباعة والنشر. بيروت ١٣٨٨هـ.

عبدالرحمن حميدة:

أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، ط الثانية ١٤٠٠ هـ.

عبدالسلام هارون:

نوادر المخطوطات المجموعة الأولى، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة ط الثانية.

عبدالعزيز عتيق:

الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ط الثانية ١٩٧٦م.

عبدالكريم التواتي:
مأساة انهيار الوجود العربي في الأندلس، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء ط الأولى ١٩٦٧م.
عبداللطيف شرارة:
ابن حزم رائد الفكر العلمي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
عبدالله علي علام:
الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، طبع ونشر دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
عبدالله يوسف غنيم:
مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع الكويت، مطبعه المدني القاهرة، ط الأولى ١٣٩٣هـ.
عبدالفتاح أبوغدة:
صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، مكتب المطبوعات الإسلامية حلب، ط الثانية ١٣٩٤هـ.
عبدالواحد ذنون طه:
دراسات في التاريخ الأندلسي مديرية دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل ط الأولى ١٩٨٧م.
عبدالوهاب بن منصور:
أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط ١٣٩٩هـ.
عزالدين فراج:
فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، دار الهنا للطباعة ١٩٧٨م (بدون طبعة).
عزيز أحمد:
تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة وتعليق أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب ١٣٩٩هـ.

علي الدفاع:
- الموجز في التراث العلمي العربي الإسلامي، الناشر جون وايلي وأولاده نيويورك، شيسترن ابريسبين، تورنتو ١٩٧٩م.
- إسهام علماء العرب والمسلمين في علم النبات، مؤسسة الرسالة، بيروت ط الأولى ١٤٠٥هـ.
عمر رضا كحالة:
- مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام، مطبعة الحجاز، دمشق ١٣٩٤هـ.
- العلوم البحتة في العصور الإسلامية، مطبعة الترقي، دمشق ١٣٩٢هـ.
- العلوم العمليه في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونيه، دمشق ١٣٩٢هـ.
عمر فروخ:
- تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون، دار العلم للملايين بيروت ط الثالثة ١٩٨٠م.
- عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ط الثانية، بيروت ١٣٨٩هـ.
- العلوم عند العرب، دار مصر للطباعة، مطبوعات مكتبة مصر (بدون طبعة).
عياد الثبيتي:
ابن الطراوة النحوي، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، ط الأولى ١٤٠٣ م،
غرسيه غومس:
مع شعراء الأندلس والمتنبي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية ط الثالثة ١٩٦٩م.
غوستاف لوبون:
حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فرات فائق:

الكحالة عند العرب، منشورات وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة المكتبة الفلكلورية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٥م.

فؤاد سزكين:

- محاضرات في تاريخ العلوم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- تاريخ التراث العربي ترجمة محمود فهمي حجازي، مراجعة عرفة مصطفى وسيد عبدالرحيم.

فوزي سعد عيسى:

ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية جلال فخري وشركاه دار بورسعيد للطباعة ١٩٨٣م.

فون شاك:

الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف مطبعة القاهرة الجديدة ١٩٨٠م.

قدري طوقان:

- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق - بيروت، القاهرة
- العلوم عند العرب، دار مصر للطباعة، القاهرة ١٩٦٠م.

كارل بروكلمان:

تاريخ الأدب العربي الأجزاء الثلاثة الأولى والسادس، ترجمة عبدالحليم النجار والرابع والخامس ترجمه السيد يعقوب ورمضان عبدالتواب، دار المعارف ج ١ ط الرابعة، ج ٢ ط الثالثة، ج ٤، ٥ ط الثانية، ج ٦ طبعة ١٩٧٧م.

كرد علي:
الإسلام والحضاره العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٨م.
كريستي وارنولد:
تراث الإسلام ج ٢، ترجمه وشرحه وعلّق عليه زكي محمد حسن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦م.
كليليا سارنلي:
مجاهد العامري وابنه علي. مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة. ط الأولى ١٩٦١م.
كمال السامرائي:
مختصر تاريخ الطب العربي، الدار الوطنيه للتوزيع والإعلان، دار الحرمين للطباعة بغداد ١٩٨٤م.
ل. أ. سيديو:
تاريخ العرب العام، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ط الثانية ١٣٨٩هـ.
لطفي عبدالبديع:
الإسلام في إسبانيا، مكتبه النهضة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط الأولى ١٩٥٨م.
لويس يونغ:
العرب وأوربا، ترجمة ميشيل أزرق، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.
ليث سعود جاسم:
ابن عبدالبر النمري وجهوده في التاريخ. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع. المنصورة ط الثانية ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
ليفي بروفنتسال:
حضارة العرب في الأندلس، ترجمه ذوقان قرقوط، منشورات، دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

محمد إسماعيل:
معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، دار الفكر العربي، القاهرة، دار المنا للطباعة.
محمد رجب بيومي:
الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير، إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود ١٤٠٠هـ.
محمد زكريا عناني:
ديوان الموشحات الأندلسية، دار المعرفة الجامعية، مستدرك يتضمن نصوصا تنشر لأول مرة تحقيق محمد زكريا، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية المطبعة المصرية.
محمد سعيد عمران:
معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، ١٩٨٢م.
محمد عبدالله عنان:
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، الناشر مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ط الثانية ١٣٨٥هـ.
محمد الصادق عفيفي:
تطور الفكر العلمي عند المسلمين، مكتبه الخانجي، القاهرة، دار نافع للطباعة ١٩٧٦م.
محمد بن عبود:
التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف، مطابع الشيوخ، تطوان، ١٩٨٣م.
محمد العربي الخطابي:
الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دار الغرب الإسلامي. بيروت. ط الأولى ١٩٨٨م.

محمد عيسى:
تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، ط الأولى ١٩٨٢م.
محمد ماهر حمادة:
المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها مؤسسة بيروت ط الثانية ١٣٩٨هـ.
محمد محمد مخلوف:
شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر العربي للطباعة والنشر والتوزيع (بدون طبعة).
مرسي محمد عرب:
لمحات عن التراث الطبي العربي، الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٧٥م.
مصطفى الشكعة:
مناهج التأليف عند العلماء العرب، دار العلم للملايين، بيروت ط الثانية ١٩٧٤م.
مونتجمري وات:
فضل الإسلام على الحضارة الغربية، ترجمه حسين أحمد أمين، دار الشروق بيروت ـ القاهرة ط الأولى ١٤٠٣هـ.
ميخائيل اماري:
المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان) أعادت طبعه بالأوفست، مكتبة المثنى بغداد، ليبزج ١٨٥٧م.
ناجي معروف:
ـ علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، مطبعه الإرشاد بغداد ١٣٩٣هـ.
ـ المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة، مطابع دار الشعب بالقاهرة ١٣٩٧هـ.

- نشأة المدارس المستقلة في الإسلام، مطبعة الأزهر، بغداد ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م.).

نقولا زيادة:

الجغرافيا والرحلات عند العرب. دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري. بيروت ١٩٦٢م.

ول ديورانت:

قصة الحضارة، الجزء الثاني. المجلد الرابع ترجمة محمد بدران، اختيار وترجمة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط الثانية ١٩٧٤م القاهرة.

هـ. ج. ولز:

معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ط الثالثة ١٩٧٢.

رابعاً: المراجع الاجنبيـــة

1) Aswar. G. chejne: Muslim Spain History and Culture. The University of Minnesota press, Minnea Polis, 1973.

2) Titus Burckhardt: Moorish Culture in Spain, Translated by Alisa Jaffa London, 1972.

3) S.P.Scott: History of the Moorish empire In europe. Vol III Ams press New york, Lippincott Company, 1904.

4) S.M Imamuddin: Muslim Spain 711- 1492. A.D. leiden E.L. Brill, 1981.

5) Renhart Dozy. Spanis Islam. Frank Cass: London Printed In Britain by steph Austin And Sons, New Impression 1972.

6) Jan Read: The Moors In Span and Portugal faber and Faber 3 Queen Squar London, Printed In Britain by Robert Maclebose, 1974.

7) W. Montgomery Watt: Ahistory of Islamic Sjpain Edinburgh At the University Press, back Edition, 1977.

8) Henr lavois: Catalogue des Monnaies Musulmanes: Espagne Et Afrique, paris, Imprimerie Nationale, 1890.

خامساً: الدوريـــــات

أحمد فؤاد الأهواني:

الفلسفه في الأندلس. الدور الأول. مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ج ١٥، الجزء الأول ١٩٥٣م.

جمال محرز:

التصوير في الأندلس. المجلة التاريخية المصرية ـ المجلدان (٩ ـ ١٠) ١٩٦٠م - ١٩٦٢م.

جميل ملائكـة:

عنـاية العـرب بالهيدروليك في العصور الإسلامية مجلة المجمع العلمي العراقي ج ٣١، الجزء الاول صفر ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

حسين مؤنس:

ـ السيد القمبيطور ـ المجلة التاريخية المصريه ج ٣ ـ العدد الاول ١٩٥٠م.

ـ الجغـرافية والجغـرافيون في الأندلس ـ مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد العدد الثالث ج٧ ـ ٨ ١٩٥٥م.

ـ الجغرافية والجغرافيون في الاندلس (عصر الإدريسي) مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ٩ ـ ١٠ ـ ١٩٦١م ـ ١٩٦٢م.

حكمت الأوسي:

كتاب الوساد لابن وافد الطليطلي. مجلة المؤرخ العربي. العدد الثالث عشر تصدرها الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد.

دونالد هيل:
التقنية الآلية عند العرب مقال بمجلة المجمع العلمي العراقي.
صفر ١٤٠٠ ج ٣١
رامون منندث:
اسبانيا حلقه اتصال بين المسيحيه والإسلام، مجلة معهد الدراسات الإسلامية مدريد ج ١، ١٩٥٣م.
سعد البشري:
ترجمة الكتب العربية في الطب والرياضيات والفلك إلى اللاتينية في اسبانيا خلال القرنين السادس والسابع الهجريين الثاني والثالث عشر الميلاديين. بحث بمجلة جامعة أم القرى السنة الأولى، العدد الثاني. العام ١٤٠٩هـ.
ضياء الدين الريس:
أحمد بن أنس العذري، نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك. تحقيق عبدالعزيز الأهواني. مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ١٣، ١٩٦٥م - ١٩٦٦م.
عباس الجراوي:
أثر الأندلس في اوربا، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني عشر ابريل ١٩٨١م العدد الأول.
عبدالجليل الراشد:
التقدم الفكري عند أهل الأندلس حتى عصر المرابطين، مجلة المؤرخ العربي العدد الثالث عشر ١٩٨٠م.
عبدالحميد السائح:
دور الحضارة العربية والإسلامية في التقدم الإنساني. مقال بمجلة المؤرخ العربي العدد ١٩ سنة ١٩٨١م.

عبدالعزيز بن عبدالله:

الفكر العلمي ومنهجية البحث عند علماء المغرب. مجلة الدارة. العدد الثالث، السنة الخامسة ربيع الثاني، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

عبدالعزيز الميمني:

المعز بن باديس والفاطميون، مجلة الزهراء تنشرها إدارة المطبعة السلفيه ومكتبتها ج ١ ١٣٤٣هـ.

عبدالغني أبوالعزم:

دراسة تاريخية حول موضوع مصادر الدراسات الإسلامية في أوروبا. مجله المؤرخ العربي، العدد ١٩، سنة ١٩٨١م.

عبدالله مبشر:

علم الفلك والنجوم عند أهل الهند والسند واستفادة العرب منه، المجلة العربية، السنة الرابعة، العدد الحادي عشر.

عبدالمجيد التركي:

موقف ابن حزم الأصولي من منطق أرسطو، أعمال ندوة الفكر العربي والثقافة اليونانية، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥ ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

محمد سويسي:

انتقال العلوم العربية والحضارة الإسلامية إلى الغرب. بحث نشرته المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة، تونس.

محمد عبدالعزيز عثمان:

المرأة العربية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي ـ العدد الثالث عشر تصدرها الأمانه العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد.

محمد عبدالوهاب:

رؤية جديدة لأسباب سقوط الخلافة الأموية في الأندلس بحث بالمجلة العربية للعلوم الإنسانية جامعة الكويت، العدد السادس المجلد الثاني، ربيع ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

مياس بياكروزا:

- نشر مخطوطة ابن الصفار في كيفية العمل بالاسطرلاب، مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، العدد الثالث ج ١، ١٩٥٥م.

- المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب في اسبانيا العربية. مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث ج ١، ١٩٥٥م.

- الكتب نقد وعرض (ابن بصال، كتاب الفلاحة - مقال بمجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ج ٥).

- الكتب نقد وعرض:

(أبومحمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، ج ٢ من مجموعة تراث الإسلام، نشر دار المعارف بتحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد شاكر) مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ج ٤ العدد ١ - ٢ ١٣٧٥هـ ١٩٥٦م.

- دائرة المعارف الإسلامية.

Donald. R. Hill:

Atreatise on Machines by ibn Muadh Abu Abdallah Al-Jayyam.

بحث منشور باللغة الانجليزية بمجلة تاريخ العلوم العربية، حلب. السنة الأولى - العدد الأول أيار ١٩٧٧م.

كشاف الآيات القرآنية

كشاف الأحاديث الشريفة

كشاف الحكم والأمثال



كشاف الأشعار
(يشمل الأزجال والموشحات)



فهرس الأعلام

« أ »

« خ »

« ز »

« س »

« ص »

« ظ »

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« هـ »

« ي »



كشاف الامم والقبائل والطوائف والفرق والاديان

(يشمل فئات المجتمع بتخصصاتها المختلفة)

« أ »

« ب »

« ز »

« س »

« ش »

« ص »

« ي »



كشاف الأماكن

(يشمل المراكز الثقافية والتعليمية)

« أ »

« ر »

« ز »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »



كشاف المعارك والوقائع

كشاف الكتب

« أ »

« ص »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »







مطبعة
مركز الملك فيصل
للبحوث والدراسات الإسلامية

رقم الإيداع ١٤/٠٥١٥



